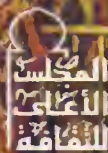




جولة في رياض الأدب الفارسي

بديع محمد جمعة

محمد نور الدين عبد المنعم



الأديب الحق ضمير أمته، وله رسالة ينقلها إلى
الناس، وعلى هذا يجب على الأدباء والمبدعين أن
يلتمسوا الطريق إلى القيم التي ترفع من شأن أمة
الأديب - بخاصة - وعالمه البشري بعامه، ويكون
تعبيرهم عن هذه القيم - شعراً أو نثراً - في صورة
منظومات أو قصائد أو مقالات أو قصص أو
مسرحيات أو غير ذلك من فنون الأدب وأنماطه
المتعددة.



جولة في رياض الأدب الفارسي

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية	
جمعة، بديع محمد	
جولة فى رياض الأدب الفارسى: تأليف: بديع جمعة؛	
محمد نور الدين عبد المنعم	
القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٣	
٦٠٠ ص: ٢٤ سم.	
١- الآداب الفارسى	
(أ) عبد المنعم، محمد نور الدين (م. مشارك)	
(ب) العنوان	٨٩١،٥٥
رقم الإيداع ٢٠١٣/٧٠٥٩	
الترقيم الدولى 2 - 294 - 718 - 977 - 978 I.S.B.N.	
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية	

الأفكار التى تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهادات أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس.

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabataya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 Fax : 27358084.

www.scc.gov.eg

المجلس الأعلى للثقافة

جولة في رياض الأدب الفارسي

بديع محمد جمعة

محمد نور الدين عبد المنعم



المجلس الأعلى للثقافة

الأمين العام

أ.د. سعيد توفيق

رئيس الإدارة المركزية

د. طارق النعمان

المشرف على التحرير والنشر

غادة الريدى

الإشراف الطباعى والمالى

ماجدة البربرى

السكرتارية التنفيذية

عزة أبو اليزيد

الإخراج الفنى

هشام نوار

التدقيق اللغوى

أحمد بسيونى - رجب الصاوي

فهرس الموضوعات

٩-٧	تقديم
	الفصل الأول :
٧٧-١١	نشأة الأدب الإسلامى فى إيران
	الفصل الثانى :
١٦٨-٧٩	الابتهاال إلى الله ونعت الرسول ومناقب الخلفاء الراشدين
	الفصل الثالث :
٢٠٣-١٦٩	أدب الفتوحات الإسلامية
	الفصل الرابع :
٢٦٧-٢٠٥	القصص الدينى فى الأدب الفارسى
	الفصل الخامس :
٢٢١-٢٦٩	الأدب الأخلاقى
	الفصل السادس :
٢٨٢-٢٢٢	أدب النصيحة والحكمة
	الفصل السابع :
٤٢٨-٢٨٢	من أدب الرحلات
	الفصل الثامن :
٥١٦-٤٢٩	من الأدب الفارسى الحديث
	الفصل التاسع :
٥٩٧-٥١٧	اللغة الفارسية وأدبها خارج إيران

تقديم

الأديب الحق ضمير أمته، وله رسالة ينقلها إلى الناس، وعلى هذا يجب على الأدباء والمبدعين أن يلتمسوا الطريق إلى القيم التي ترفع من شأن أمة الأديب بخاصة وعالمه البشرى بعامة، ويكون تعبيرهم عن هذه القيم شعراً أو نثراً في صورة منظومات أو قصائد أو مقالات أو قصص أو مسرحيات، أو غير ذلك من فنون الأدب وأنماطه المتعددة.

وإذا انتقلنا إلى الأدب الفارسي المكتوب بالخط العربي الذي يطلق عليه أحياناً مصطلح "الأدب الفارسي الإسلامي"، حتى تتم التفرقة بينه وبين الآداب الفارسية قبل دخول الإسلام أرض إيران، وكتبت بخطوط أخرى غير الخط العربي، فإن هذا الأدب الفارسي الإسلامي قد بدأ في الظهور مع بداية القرن الثالث الهجري عندما نجح الفرس في استعادة استعمال لغتهم الفارسية بعد أن هجروها طوال قرنين من الزمان، ولاشك أن هذا الأدب الفارسي في صورته الحديثة قد بدأ وتطور تحت مظلة الإسلام الحنيف وتعاليمه وقيمه، ولهذا فإننا سنجد جميع من نظموا أو كتبوا أدباً فارسياً ابتداء من القرن الثالث الهجري وحتى الآن متأثرين تأثراً بالغاً بأحكام الشريعة الإسلامية وبما جاء في القرآن الكريم من قصص وسير ودعوات أخلاقية، وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل الأول حيث سنعرض بإيجاز لتاريخ الأدب الفارسي الإسلامي وكيف اختلف عما كان لدى الفرس من آداب قبل الإسلام.

أما في الفصول التالية فسنتناول في كل فصل موضوعاً هاماً من موضوعات الأدب الإسلامي حيث سيكون الفصل الثاني على سبيل المثال عن الابتهالات إلى الله عز وجل وتقديم الحمد والثناء للعلی القدير على هذه النعم العديدة التي وفرها للمسلم

وغير المسلم فى حياتهما الدنيوية. وكذلك على ما وعد به المؤمن فى الحياة الأخرى من جنة ورضوان، وسيعقب ذلك تقديم نماذج مما قاله الشعراء والكتاب فى نعت المصطفى عليه الصلاة والسلام، وبيان سيرته العطرة وكراماته العديدة، وأنه سيكون الشفيع لأمته يوم الحشر؛ وننتقل فى هذا الفصل كذلك للحديث عن مناقب الخلفاء الراشدين والإشادة بأدوارهم البطولية فى سبيل نصرته الحق ونشر الإسلام والقضاء على الشرك والمشركين.

وتتوالى الفصول وتتوالى الموضوعات الإسلامية التى أبدع الفرس فى التعبير عنها، ومنها الدعوة إلى التمسك بالأخلاق القويمة والفضائل السامية، والاجتهاد فى تربية المسلم تربية إسلامية خالصة، عمادها أحكام القرآن الكريم، وسنن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأخذ العبرة من مسيرة الأنبياء جميعاً وكذلك مسيرة المجاهدين وأبطال الإسلام وبخاصة من الصحابة والتابعين الذين قدموا أرواحهم فداء للإسلام والمسلمين، حتى تناسى بأعمالهم ونسير على هداهم.

ومن الموضوعات التى تناولتها هذه الدراسة، السياحة الدينية وكيف صور أدباء الفرس الأماكن الإسلامية المقدسة وعلى رأسها الكعبة الشريفة ومسجد الرسول - عليه الصلاة والسلام - والمسجد الأقصى ببيت المقدس.

ولما كان الأدب الفارسى الإسلامى متداولاً فى كل من الهند وباكستان وأفغانستان وبعض الجمهوريات الإسلامية المستقلة حديثاً عن الاتحاد السوفيتى، فإننا حرصنا على أن نقدم بعض النماذج الفارسية التى أبدعها أدباء هذه البلاد الإسلامية المجاورة لأرض إيران.

ومن الجدير بالذكر أننا حرصنا على الإشارة إلى المجهودات القيمة التى بذلها الدارسون للأدب الفارسى فى عالمنا العربى وبخاصة فى مصر، بل كنا ننقل عنهم بعض ترجماتهم لروائع الأدب الفارسى، وكان الغرض من ذلك تعريف القارئ العربى الكريم بما بذله هؤلاء الأساتذة الأجلاء والزملاء الكرام من مجهودات مشكورة فى

سبيل التعريف بالأدب الفارسي، وإثراء المكتبة العربية بترجمات عديدة لروائع الأدب الفارسي الإسلامي الذي يتفق مع الأدب العربي في معظم أنواره وشتى موضوعاته وسائر اتجاهاته.

وأخيرا نرجو أن نكون قد قدمنا للمكتبة العربية صورة واضحة عن أهم سمات الأدب الفارسي الإسلامي، وأن تكون مشجعة في ذات الوقت للتعرف على هذا الأدب أكثر وأكثر تدعيماً للصلات الأخوية الراسخة التي تربط بين الناطقين بالعربية والمتحدثين بالفارسية.

والله الموفق ..

القاهرة في ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

المؤلفان

الفصل الأول
نشأة الأدب الإسلامى
فى إيران

نشأة الأدب الإسلامى فى إيران

١ - الشعر

الشعر فى إيران قبل الإسلام:

اختلفت آراء الباحثين حول طبيعة الشعر فى إيران إبان عصورها القديمة؛ فمنهم من أنكر وجود شعر لدى الفرس القدماء، ومنهم من حاول إثبات وجوده. ويؤيد الرأى الأول صعوبة افتراض ضياع شعر أمة بأكمله وعدم بقاء أى أثر منه حتى ولا أسماء الشعراء. ويؤيد الرأى الثانى استبعاد أن تكون أمة عظيمة ذات حضارة عريقة كالأمة الإيرانية قد خلت من الشعر والمعروف أنه قد ظهرت مجموعة كبيرة من الشعراء الذين صاغوا أعمالاً تعد من روائع الأدب العالمى بعد الفتح العربى لإيران، فكيف يمكن أن تكون تلك البلاد قد أقفرت من الشعراء قبل الفتح العربى لها، كما أن هناك إشارات تاريخية تؤكد وجود المغنين الذين كانوا ينظمون الأغاني وينشدونها فى قصور الأكاسرة فى العصر الساسانى، والمعروف أن الغناء يقوم على الشعر.

وقد عرف لهؤلاء الفرس القدماء لغات متعددة هى: اللغة الفارسية القديمة؛ وهى اللغة التى استعملت فى كتابات الملوك الهخامنشيين الحجرية (٥٥٩ - ٣٣١ ق.م)، واللغة الأقسستية (الأوستية)، والأثر الوحيد المتبقى بهذه اللغة هو كتاب الأقسستا - وهو الكتاب المقدس عند الزرداشتيين، ثم اللغة البهلوية لغة الدولة الساسانية وتعرف بالفارسية الوسطى.

ومهما يكن الخلاف بين العلماء فى وجود شعر منظوم باللغات السابقة، فقد أصبح من المؤكد أن الشعر فى إيران قبل الإسلام كان يقوم على نظام عدد المقاطع، ويراعى فى ترتيبها كيفية المقطع من حيث الطول والقصر.

وأقدم هذه النماذج الشعرية القديمة فى إيران كتاب "كاثا" وهو قسم الأناشيد بكتاب الأقسىا، ولفظ "كاثا" فى حد ذاته معناه الأنشودة، وقد تضمن أشعاراً استطاع علماء اللغة أن يتعرفوا على وزنها وقواعد نظمها؛ فالجزء الأول من هذا الكتاب، وهو خمسة أجزاء، يشتمل على سبعة فصول، وكل فصل يحتوى على عدة قطع، وكل قطعة تتكون من ثلاثة مصاريح، وكل مصراع يتكون من ستة عشر مقطعاً، وتوجد وقفة أو سكتة بعد المقطع السابع.

وتوجد بالإضافة إلى الـ "كاثا" أقسام أخرى من الأقسىا منها قسم الـ "يشتها"، ولكن أوزان القسم الأول تختلف عن القسم الثانى.

وتعتبر المعلومات العلمية الدقيقة التى وصلتنا عن وجود أقسام منظومة فى الأقسىا، نتيجة الجهود التى بذلها بعض المتخصصين فى دراسة هذا الكتاب من علماء القرن التاسع عشر الميلادى، مثل وسترجارد Westergard وستفال Westfal وهرمان تورپل Herman Torpel. وقد أوضحت بحوث المستشرقين أور تورپل Aurel Mayer وجلدنر Gerldner فى ذلك الوقت قسماً من قواعد النظم، ولاتزال هذه البحوث مستمرة، وقد أمكن حتى الآن قراءة قسم كبير من مقطوعات الأقسىا المنظومة.

أما عن الوزن فى اللغة الپهلوية - أى لغة عصر الأشكانين والساسانيين - فأول من اكتشف نظماً فى أحد المتون هو أندرياس F.C. Andréas، إذ لاحظ ضمن مطالعة نقوش شاپور الأول فى "حاجى آباد" أنه من الممكن أن يكون آخر المتن الپهلوى الساسانى مركباً من سلسلة مصاريح ذات سبعة أو ثمانية مقاطع، وأن مواطن النبرات معينة فى كل مصراع.

واستطاع بعد ذلك العالم بنقنست Benvenist الفرنسي، وهو أكثر العلماء اجتهاداً في مسألة البحث عن وجود شعر باللغة البهلوية، وكشف قواعد النظم، أن يرجح أن كتاب "درخت أسوريك" - أى الشجرة الآشورية - كتاب منظوم، وهو عبارة عن نص بهلوى موضوعه مناظرة بين العنزة والنخلة، وقد دعاه إلى ذلك تكرار عبارة ذات أحد عشر مقطعاً على لسان العنزة واستطاع بعد ذلك اكتشاف عبارات أخرى كثيرة ذات أحد عشر مقطعاً، ثم قسم متن الكتاب إلى قطع طبقاً لعدد المقاطع، فأوجد بهذه الطريقة نظماً في عبارات الكتاب المتناثرة.

وواصل العالم بنقنست أبحاثه بعد ذلك فاكتشف أن كتاب "أياد كار زيران" (ذكرى زيران) المكتوب باللغة البهلوية الأشكانية (الشمالية) منظوم أيضاً، وأنه أقدم المنظومات البطولية الإيرانية بعد مقطوعات الـ "يشت"، أو هو جسر بين منظومات "يشت" والمنظومات البطولية فى العصر الإسلامى. وتتألف هذه المنظومة من قطع ذات خمسة مصاريع، أحياناً أربعة أو ستة مصاريع، والمصاريع ذات ستة مقاطع. وموضوع هذه المنظومة هو الحرب بين كشتاسپ وأرجاسپ الطوراني دفاعاً عن مذهب مزديسنا^(١).

لم تعد البهلوية لغة الوطن الرسمية بعد سقوط الإمبراطورية الساسانية، غير أن تغلب العرب وازدياد رواج اللغة العربية لم يمنعا من استمرار بعض الفئات من الفرس من غير المسلمين - الذين كان تعدادهم لا يزال وفيراً فى إيران حتى أواخر القرن الرابع الهجرى، وكان عددهم فى بعض النواحي أكثر من عدد المسلمين - من التأليف بلغتهم والكتابة بالخط البهلوى أو السريانى.

وكانت اللهجات الإيرانية الأخرى مازال رائجة فى تلك الفترة، إلا أنها تطورت بسرعة على أثر احتكاكها باللغة العربية، وشاع إنشاء الشعر فى هذه اللهجات، وفى

(١) هذه الكلمة مركبة من ثلاثة أجزاء : مه بمعنى كبير، ومزدا بمعنى العالم الذى لا نظير له. ويسنى بمعنى عبادة، وكلها بمعنى العالم الذى لا نظير له، وتطلق على الديانة الزرادشتية.

أيدينا أبيات مكتوبة بعضها بالكردية والطبرية والكازونية ولهجات محلية أخرى. ويلاحظ في معظم هذه الأبيات تطور الشعر في إيران من حالته القديمة إلى هيئة جديدة؛ ففي هذه الأشعار تظهر القافية، كما يتضح فيها تناسب بين عدد المقاطع والاهتمام بترتيبها من حيث الطول والقصر.

وقبل أن ننهي الحديث عن الشعر القديم في إيران نتحدث عن نموذج من نماذجه وهو كتاب "درخت أسوريك" ويعد هذا الكتاب من النصوص غير الدينية التي بقيت باللغة الپهلوية، وقد نشر هذا النص الپهلوي مع ترجمة فارسية له، وروى في الترجمة أن تكون كلماتها الفارسية الحديثة مساوية للكلمات الپهلوية حتى يتضح للقارئ تطور الكلمات من الفارسية الوسطى إلى الفارسية الحديثة، وقد أعد الأستاذ ماهيار نوابي ناشر النص ومترجمه فهرساً لكل الكلمات الپهلوية المستعملة في ذلك النص، وذكر فيه عدد المرات التي استعملت فيها كل كلمة وفي أي من المصاريح والأبيات.

ومن أهم ما كتب حول نظم هذه القصة تلك المقالة القيمة التي كتبها المستشرق هيننج W.B. Henning تحت عنوان "شعر باللغة الپهلوية" وقد ترجم هذه المقالة إلى الفارسية الدكتور فريار ونشرها في مجلة "مهر" (السنة الثامنة - العدد الثاني)، كما نشرها أيضاً الأستاذ ماهيار نوابي في مقدمة ترجمته الفارسية لمنظومة "درخت أسوريك".

ولاننسى أن نقول إن أول من عرفنا بنظم هذه القصة هو المستشرق بنقنست، وقد أثبت ذلك في مقالة له بعنوان "متن درخت أسوريك ونظم الشعر الپهلوي" وذلك في المجلة الآسيوية^(١).

(١) Texte du Draxt Assurik et la Versification Pehlevi - Journal Asiatique.

(أكتوبر - ديسمبر ١٩٣٠ ص ١٩٣ - ٢٢٥).

ويرى بعض المحققين ومنهم الدكتور خاتلرى أن ما قال به الباحثون الأوروبيون ومن تبعهم من العلماء الإيرانيين من أن التساوى التقريبى لعدد المقاطع هو ميزان الشعر فى اللغة البهلوية غير صحيح، وذلك لأنه إذا كان الشعر كلاماً موزوناً فى هذا الشكل، فإنه لا يمكن تحديد العبارات الوزنية، وإذا كانت أصول الشعر فى اللغة البهلوية هى التساوى التقريبى للمقاطع فقط؛ فيجب القول بأن الشاعرين عبد الله الأنصارى وسعدى الشيرازى (فى كتابه الكستان) كانا يقولان شعراً بطريقة اللغة البهلوية، إذ توجد قرينة فى كثير من عباراتهم، ويراعى فى أجزائها تساوى المقاطع، بالإضافة إلى أنه يمكن رؤية السجع والقافية فى نثرهما وهما غير موجودين فى الشعر البهلوى، أو من النادر رؤيتهما.

وفى النهاية يستخلص رأياً بخصوص الوزن فى البهلوية، وهو : أن أساس الوزن فى الشعر البهلوى كان يقوم على أساس كمية المقاطع ونبرة الكلمة، كما هو الحال فى الأشعار العامية والمحلية، وربما تكون دراسة الأشعار المحلية مفتاحاً للكشف عن وزن الشعر الفارسى قبل الإسلام^(١).

الشعر فى إيران بعد الإسلام :

من المعروف أن العلاقة بين العرب والفرس لم تبدأ ببداية الفتح العربى لإيران، وإنما كانت هناك روابط تجارية وسياسية قديمة، يذكرها لنا التاريخ، قائمة بين الشعبين المتجاورين، وعلى هذا يكون تأثير أحدهما على الآخر ثقافياً واجتماعياً أقدم بكثير من بداية دخول الإسلام والعرب إلى إيران.

(١) انظر كتاب «وزن شعر فارسى» د. پرويز ناتل خاتلرى - تهران ١٣٢٧ ش - ص ٤٤ وما بعدها وأيضاً كتاب «عقايد ورسوم عامه، مردم خراسان» ص ٢٥٧ وما بعدها - تأليف إبراهيم شكر زاده - تهران ١٣٤٦.

انتصر العرب على الفرس، ودخلوا المدائن عاصمة ملكهم سنة ١٦ هـ (٦٣٧م). ثم استطاعوا بعد ذلك القضاء التام على الجيش الفارسي وجعل تلك البلاد جزءاً من دولتهم الإسلامية فى موقعة نهاوند الفاصلة التى سميت بفتح الفتوح سنة ٢١ هـ (٦٤٣م) ومنذ ذلك الحين خضعت إيران سياسياً للعرب، وأصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية لشئون الدولة جميعها.

بدأت اللغة العربية تنتشر بسرعة عجيبة بعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا، وأصبح الفرس ينظرون إليها نظرة مقدسة بصفتها لغة القرآن الكريم والدين الجديد، فكان لابد لهم من دراستها والتعمق فيها حتى يستطيعوا فهم دينهم وكتابهم الكريم، وقد ساعد هذا الأمر على انتشار اللغة العربية، ويذكر لنا بارتولد سبباً آخر لسرعة انتشارها ورواجها إذ يقول: "ويمكن تفسير رواج اللغة العربية هذا الرواج بأن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط كالجرمان والمغول والإيرانيين القدماء، ولكنهم أنشأوا منذ القرن السابع الميلادى لغة أدبية متقدمة فى ساحة الفكر تقدماً واضحاً، وأخذت البلاغة والشعر مكانة عظيمة عندهم واخترعت الأشكال الأدبية المعروفة اليوم"^(١).

وقد ظلت اللغة العربية المتداولة فى إيران فى المرتبة الأولى من الناحية الأدبية حتى أواخر القرن الثالث تقريباً، حتى أخذت القومية الفارسية تنهض وتحاول أن تحيي معها اللغة الفارسية الحديثة التى اعتمدت على اللغة العربية فى كثير من كلماتها ومصطلحاتها، والتى تكتب أيضاً بالحروف العربية.

ومن المعروف أن أوائل كتاب الفارسية الحديثة كانوا من ذوى اللسانين، وهذا مايفسر لنا تأثر اللغة الفارسية بعد الفتح باللغة العربية إلى أبعد الحدود فى مفرداتها وبلاغتها بل وفى قواعد النحو أيضاً؛ إذ أصبح من الضرورى أن يشتمل النحو

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية - ترجمة حمزه طاهر، ص ٦٢ - مصر ١٩٦٦م.

الفارسي على بعض أبواب من النحو العربي نتيجة دخول الألفاظ والتراكيب العربية في ثنایا اللغة الفارسية.

وقد استخدم الإيرانيون كثيراً من المفردات العربية لأنها كانت - في بعض الأحيان - أسهل بكثير من الكلمات الإيرانية القديمة، أو لأنهم لم يجدوا مقابلاً لها في لغتهم، ويدخل في هذا الموضوع من المفردات: المصطلحات الدينية وبعض المصطلحات الأساسية والديوانية والعلمية. كما أخذت بعض المصطلحات من أصول فارسية ثم عربت واستعملت في اللهجات الإيرانية. وقد ساعدهم في هذا الأمر أن اللغة العربية من أغنى اللغات بالأصول والمشتقات الناتجة عن هذه الأصول، والمعروف أن الخط العربي قد استعمل بدلاً من الخط البهلوي نظراً لسهولة.

ودليلنا على أن حكام إيران قد ظلوا فترة طويلة لا يعترفون إلا باللغة العربية لغة لكل ما يصدر عنهم أو يقدم إليهم مارواه نظام الملك في كتابه "سياستنامه" عندما قال: "منذ زمان الخلفاء الراشدين إلى أيام السلطان محمود الغزنوي كانت القوانين والأوامر والمنشورات تصدر بالعربية، وكان استعمال الفارسية فيها يعتبر من أشنع العيوب، واستمر الحال على ذلك حتى أيام عميد الملك أبي نصر الكندري الذي تولى الوزارة لأب أرسلان السلجوقي، فأمر رجاله أن يصدروا القوانين والأحكام والأوامر باللغة الفارسية".

وقد نسب العتبي في تاريخه اليميني هذا العمل إلى أبي العباس قضب بن أحمد الإسفراييني وزير السلطان محمود، وأنه أول من أمر بتحويل الدواوين من العربية إلى الفارسية، ونقض هذا الأمر بعد ذلك بأمر أحمد بن حسن الميمندي^(١).

بل إن بعض الحكام كان يرى أن النظر في كتب الفرس القديمة أو الاطلاع عليها أمر يتعارض مع الدين الإسلامي، وقد جاء في كتاب "تذكرة الشعراء" لدولتشاه

(١) تاريخ أدبيات در ایران - دکتر ذبیح الله صفا - جلد اول ص ١٧٤ - تهران ١٣٣٨.

السمرقندي " أن عبد الله بن طاهر أمير خراسان في عهد الخلفاء العباسيين والفارسي الأصل كان يجلس في نيسابور فجاءه أحد الفرس يعرض عليه إحدى قصص الفرس القديمة وهي قصة (وامق وعذراء) وهي التي وضعها أحد القدماء (لأنو شيروان)، فسأل: ما هذا الكتاب؟ ف قيل له هو قصة وامق وعذراء، وهي قصة جيدة، فقال الأمير: نحن أناس نقرأ القرآن والحديث، وهذا كتاب المجوس فهو مريبود إليك، وأمر بأن يلقي في الماء وتحرق الكتب التي صنفها المجوس أينما كانت^(١).

وهكذا نرى أن الطاهريين (٢٠٥-٢٥٩ هـ) وهم أول أسرة إسلامية من أصل فارسي، لم يكونوا ينظرون إلى الأدب الفارسي نظرة حسنة، ويرون العناية به مخالفة للدين، كل هذا لا يعني أن الفرس قد تركوا لغتهم ولم يتكلموا بها منذ دخولهم في الإسلام واهتمامهم بالعربية ولكنهم ظلوا يتحدثون بهذه اللغة، إلا أنه لم يظهر لهم إنتاج أدبي فيها خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، وما وصل إلينا لا يعدو أن يكون أدباً في لهجات محلية.

وقد وصلت إلينا بعض الأشعار التي أنشئت في لهجات محلية، وكلها ذات وزن مقطعي، ونلاحظ القافية في بعضها ويدل هذا على تطور الشعر في إيران من اعتماده على الأوزان المقطعية القديمة إلى اعتماده على أوزان مقطعية جديدة، قريبة من الأوزان العروضية العربية، ومن الأمثلة التي تؤيد ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه مرتين، مرة في حوادث سنة ثمان ومائة، ومرة أخرى في حوادث سنة تسع عشرة ومائة والخبران يتحدثان عن غزوة أسد بن عبد الله القسري لخاقان صاحب الترك، وكيف رجع منها مغلولاً؛ فتغنى عليه الصبية من أهل خراسان بشطرات معناها:

لقد عدت من بلاد الختل، فاذهب فقد عدت محطماً ضائعاً.

(١) تذكرة الشعراء ص ٢٠ - تصنيف دولتشاه السمرقندي - ليدن ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م.

وعدت تائهاً مشرداً، وعدت جبائناً خائفاً^(١).

ومن أمثلة ذلك أيضاً ذلك الشعر الذى ينسب إلى يزيد بن مفرغ الحميرى، وهو شاعر عربى الأصل كان يعيش فى إيران فى بداية العصر الأموى، وقد غضب عليه عبيد الله بن زياد نظراً لولعه بهجاء بنى زياد، فقبض عليه وأمر به فسقى نبيذاً حلواً وشبرماً، فأسهل بطنه، وقرنه بهرة وخنزير، وطيف به وهو على تلك الحال والصبيان يتبعونه ويصيحون بالفارسية ابن چيست ؟ أى : ما هذا؟ فيجيبهم بما معناه:^(٢).

إنه ماء وإنه نبيذ، وهو عصارات الزبيب

وسمية عاهرة فاجرة

وهذه المصاريح الثلاثة السابقة هى شعر ذو سبع مقاطع، وله قافية ناقصة، كما أن النموذج السابق عليه شعر ذو ثمانية مقاطع، وله قافية ناقصة أيضاً.

والواقع أن هذين النموذجين يكفيان للدلالة على حالة الشعر فى القرنين الأول والثانى من الهجرة إلى أن تطور الشعر بعد ذلك ونشأ الشعر الفارسي الإسلامى الذى تأثر باللغة العربية وبالشعر العربى وأوزانه وبحوره.

اشتدت الحركة القومية منذ أواخر القرن الثانى وبداية الثالث الهجرى بقيام الدويلات الفارسية المستقلة؛ فأخذ الفرس يحاولون جاهدين الرقى بلغتهم الفارسية، وجعلها لغة أدبية وأخذ حكام الولايات المستقلون يشجعون على ذلك،

(١) از ختلان أمذيه برور تباه أمذيه

أوار باز أمذيه بيدل فراز أمذيه

(٢) آبست نبيذ أست عصارات زبيب أست

سميه روسبيد أست

سميه : هى أم زياد بن أبيه وجدة عبد الله وعباد بن زياد.

انظر : البيان والتبيين ج ١، ص ١٤٢ - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ - القاهرة ١٣٨٨.

ويرفضون سماع الأشعار العربية، لأنهم أصبحوا لا يفهمونها، وأخذوا يميلون لكل ما هو فارسي خالص.

والواقع أن عصر النهضة الفارسية لم يرق معتمداً على اللغة الفارسية الخالصة في حد ذاتها، بل كان الكتاب والشعراء يأخذون من العربية بعض مفرداتها وعباراتها، ويقتبسون من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والحكم والأمثال العربية، كما استخدموا في أشعارهم بحور الشعر العربي، وزادوا عليها وغيروا فيها بعض التغيير، واستحدثوا صورا شعرية جديدة في مقدماتها المثنوى والرباعي. ولاريب أن العروض العربي قد أثر في الشعر الفارسي تأثيراً كبيراً، واستعار الفرس من العرب الأوزان والبحور المختلفة، كما اقتبسوا بعض ضروب النظم كالقصيدة والقطعة، وقد وضعوها على نسق المعلقة الجاهلية من حيث الصياغة والأسلوب وإن كان قد أصابهما شيء من التعديل على أيدي الفرس كما فعلوا أيضاً بالغزل. وقد أخذ الفرس كل مصطلحات العروض عن العرب كالأوتاد والفواصل والأسباب وغير ذلك..

ونتيجة لهذا التأثير بالعربية وأدائها، فقد أصبح من غير الممكن أن يكتب الكاتب أو ينظم الشاعر شيئاً بالفارسية بحيث تكون كتابته خلوا من الألفاظ العربية والدليل الواضح على هذا هو شاهنامه الفردوسي التي قصد ناظمها أن يصوغها في أقدم العبارات والأساليب، خصوصاً وأنه يتحدث عن تاريخ الفرس وأمجادها، ورغم هذا فإن أحداً لا يستطيع أن يدعى أنها خالية من الألفاظ العربية.

ونجد بعض كتاب الفرس ينصحون باستعمال الكلمات العربية في ثنايا اللغة الفارسية، ومن هؤلاء كيكافوس مؤلف كتاب "قابوسنامه" (٣٧٥ هـ = ١٠٨٢ م) الذي يقول لابنه كيلانشاه: "ويجب أن تمتزج الكتابة بشيء من العربية، فإن الفارسية الخالصة كريهة معيبة"^(١) وكذلك ينصح العروضي السمرقندي في كتابه "جهاز مقاله"

(١) قابوسنامه، تأليف كيكافوس قابوس بن وشمكير الزيارى - تهران ١٣٤٣ ص ١٦٤.

أو «المقالات الأربع» (المؤلف حوالى سنة ٥٥٠ هـ) بأنه يجب على الكاتب أن يقرأ كلام رب العزة وأخبار المصطفى (صلعم) وأثار الصحابة وأمثال العرب، كما ينصح بقراءة الكتب والدواوين العربية كمقامات البديع والحريرى وديوان المتنبى.^(١)

ونلاحظ أنه قد نشأت بعض الفنون البلاغية نتيجة امتزاج اللغتين العربية والفارسية، وكثيرة من أجادوا اللغتين وكتبوا بهما، كفن الترجمة؛ ويكون بأن ينظم الشاعر بالفارسية معنى البيت العربى، أو ينظم البيت الفارسى بالعربية، ومثال ذلك ما جاء فى كتاب "لباب الألباب" لمحمد عوفى (متوفى سنة ٦٣٥ هـ)^(٢)، فقد أنشد سيف الدولة الأبيات التالية فى وصف قوس قزح:

وساق صبح للصبح دعوته	فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم	فمن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارقا	على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفر	على أحمر فى أخضر تحت مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل	مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقد ترجم هذه الأبيات الأمير طاهر بن الفضل، فقال:

آن ساقى مه روى صبحوحى بر من خورد

وز خواب دو چشمش چودوتانرگس خودم

وآن جام مى آندر كف أو همچو ستاره

ناخورده يکى جام ودکر داده دمام

(١) چهار مقاله، نظامى عروضى سمرقندى - تهران ١٣٤١ - ص ١٤.

(٢) لباب الألباب - محمد عوفى - ليدن ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م - ج ١ ص ٢٧.

وآن میغ جنوبی چو یکی مطرب خور بود

دامن بزمین بر زده همچون شب ادهم

بر بسته هوا چون کمری قوس قزح را

از اصفـر واز احمـر واز ابيض معلم

گرونی که دو سه پیرهن است از دوسه گونه

وز دامن هر يك ز دگر تاریکی کم

ولم يقتصر الأمر على هذا بل ظهر فيما بعد من بين الفرس أنفسهم من كان ينشد الشعر باللغة العربية بعد أن أتقنها وأصبح على علم بدقائقها، ونجد أمثلة ذلك كثيرة في كتاب "يتيمة الدهر" للثعالبي، وما نكاد نصل إلى القرن السادس الهجري إلا ونجد شاعراً كسعدى الشيرازي (متوفى سنة ٦٩١ أو ٦٩٤ هـ) يضم إلى أشعاره الفارسية عدة قصائد وقطع بالعربية، ومن قصائده العربية قصيدته المشهورة في رثاء أمير المؤمنين المستعصم بالله وذكر واقعة بغداد، والتي يقول فيها:

حبست بجفنى المدامع لا تجرى	فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها	تمنيت لو كانت تمر على قبرى
لأن هلاك النفس عند أولى النهى	أحب له من عيش منقبض الصدر
زجرت طبيبا جس نبضى مداويا	إليك فما شكواى من مرض تبرى
لزمت اضطرابا حيث كنت مفارقا	وهذا فراق لا يعالج بالصبر
تسائلنى عما جرى يوم حصرهم	وذلك مما ليس يدخل فى الحصر
أدير كؤوس الموت حتى كأنه	رؤوس الأسارى ترجحن من السكر

بكت جدر المستنصرية ندبة على العلماء الراسخين ذوى الحجر
نوائب دهر ليتنى مت قبلها ولم أر عدوان السفية على الخبر

وتقع هذه القصيدة فى حوالى ثلاثة وتسعين بيتاً.^(١)

أثرت الأوزان والبحور العربية فى الشعر الفارسى تأثيراً كبيراً كما ذكرنا؛ فقد حاكى الفرس الأوزان العربية، وأخذوا مصطلحات العروض كلها، ومن يرجع إلى كتاب "المعجم فى معايير أشعار العجم" (مؤلف حوالى سنة ٦٢٠ هـ)، وخاصة فى الجزء الذى يتناول العروض، يجد ذلك واضحاً جلياً، يقول مؤلف الكتاب: "ويحكم أن صناعة الشعر كانت فى بادئ الأمر من اختراع طبع العرب وابتداع خاطرهم، وتبعهم العجم فى كل أبوابه، ولم يضعوها، ونقلوا تسمية الأركان والأجزاء وتصدير البحور والأوزان، وتقرير مايجوز وما لا يجوز فيها، وليسوا مستقلين، فلا بد لنا فى هذا الكتاب أن نبدأ بشرح أوضاعهم ومصطلحاتهم فى تقرير البحوث وثبت الدوائر وذكر أجناس الشعر، وتعدد أوزانهم، حتى يعرف الخطأ من الصواب فيما زاده العجم على أشعارهم وما أنقصوه منها، ويعرف غثه من ثمينه".^(٢)

والشعر الفارسى بعد الإسلام لايعتمد على كيفية المقاطع بل على كمية الحروف الموجودة فى المقاطع كما هو الحال فى الشعر العربى، ولكن لابد لنا أن نوضح هنا الاختلافات العروضية الفرعية بين الشعر العربى والفارسى، وهى تتلخص فيما يلى:^(٣)

(١) كليات شيخ سعدى ص ٤١٠ - طهران ١٣٢٧.

(٢) المعجم فى معايير أشعار العجم ص ٦٨، شمس قيس الرازى - تهران ١٣٢٨.

(٣) انظر: "بدء الشعر الفارسى" على أكبر فياض، ص ٨ و٩ من محاضراته المطبوعة بجامعة فاروق الأول ١٩٥٠ م. والمعجم ص ٤٥.

١- ذكر العروضيون أن العروض الفارسي أخذ من أصول الأوزان العربية العشرة سبعة أصول فحسب ورفض الثلاثة الأخرى لم يستعملها في شعره وأصول الأوزان العربية هي : فعولن، فاعلن، مفاعلين، مستفعلن، فاعلاتن، مفاعلتن، متفاعلن، مفعولات، فاع لاتن، مس تفع لن، أما في الفارسية فهي سبعة مفاعيلن، فاعلاتن، مستفعلن، مفعولات، فاع لاتن، مس تفع لن، فعولن.

٢- أما بالنسبة للبحور فهي في العربية ستة عشر بحراً، ولكن الفرس اقتصروا على أحد عشر بحراً منها وتركوا خمسة لا يستعملونها، وهي : الطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل، وقد ذكر شمس قيس الرازي صاحب "المعجم" أن ما جاء في الشعر الفارسي على هذه البحور كان من قبل إظهار المهارة في علم العروض، ويصف هذه البحور بأنها بعيدة عن الطبع السليم.^(١)

وهناك اختلاف آخر في انتخاب شكل البحر؛ فنرى الفارسي لا يستعمل الرمل مثلاً إلا مثنوً، بينما لا يستعمله العربي إلا مسدساً.

٣- يوجد أيضاً اختلاف في الزحافات والعلل؛ فقد زاد الفرس أنواعاً من الزحافات لوجود لها في الشعر العربي، وتركوا زحافات عربية لا يستعملونها في شعرهم كما يقول صاحب "المعجم" : "إن جملة زحافات شعر العجم خمسة وثلاثون زحافاً، اثنان وعشرون منها من زحافات العرب وثلاثة عشر زحافاً من وضع عروضي العجم".^(٢)

والواقع أن التأثيرات العربية التي نتحدث عنها في الشعر الفارسي ليست تأثيرات شكلية فحسب، بل هي تأثيرات من حيث المضمون أيضاً، فكل من يقرأ الشعر الفارسي لابد وأن يجد فيه كثيراً من الأفكار والصور والتشبيهات المقتبسة من الشعر

(١) المعجم ص ٧٨.

(٢) المعجم ص ٥٠.

العربي، فقد كان الشعر العربي هو المصدر والإلهام الذي كان الفرس يستوحونه في نظم قصائدهم. وكانت الثقافة العربية هي الثقافة الرئيسية بالنسبة لشعراء الفرس وكتابهم. ومن هنا يتضح لنا أن مانجده من تأثير عربي على الشعراء الفرس، لا يكون مجرد توارد أفكار بين شاعرين، وإنما هو تأثير عربي لا شك فيه. وسنذكر فيما بعد نموذجاً لتأثر الشعراء الفرس بالشعر العربي وبالثقافة العربية، وهو الشاعر منوچهری الدامغانی (متوفى سنة ٤٣٢ هـ).

ومن أوائل الشعراء الفرس الذين نظموا شعراً بأسلوب جديد بعد الإسلام:

١- الشاعر حنظلة البادغيسي (من بادغيس بخراسان) المتوفى سنة ٢٢٠ هـ، وهو من معاصري الطاهريين، وكان يعيش في عصر عبد الله بن طاهر، وقد ذكر له عوفي بيتين يقول فيهما: (١)

- مهما يلقي صديقي بالبخور على النار، حتى لا يصيبه أذى عين الحسود.

- فلن يفيد البخور والنار، مادام له وجه كالنار وخال كالبخور.

ويروى له نظامي عروض السمرقندي بيتين آخرين يقول فيهما: (٢)

- إذا كانت العظمة بين أنياب الأسد، فخطر وانتزعها من بين أنيابه.

- فإما العظمة والعز والنعمة والجاه، وإما مواجهة الموت كأبطال الرجال.

(١) لباب الألباب ج١، ص ٢.

آز بهر چشم تا نرسد مرور اورا گزند	يارم سپند اگر چه بر آتش همه فگند
با روی همجو آتش وبا خاک چون سپند	اورا سپند و آتش نايد همی بکار
شد خطر کن ز کام شیر بجوی	(٢) مهتری گر بکام شیر در است
یا چو مردانت مرگک رويا روی	یا بزركی وعز و نعمت و جاه

(چار مقاله ص ٢٦)

٢- الشاعر فيروز المشرقي (متوفى سنة ٢٨٣ هـ) وهو من شعراء الصفاريين ومن معاصري عمرو بن الليث، ومن أشعاره هذان البيتان اللذان يصف فيهما سهماً فيقول: (١)

- عجباً لهذا السهم الذي يشبه الطائر، وهو كالطائر تكون الأرواح كل صيده.

- وقد أعطاه النسر جناحة هدية، حتى لا يحمل صفاره إلى الضيوف.

٣- الشاعر أبو سليك الگرکانی، وهو من شعراء القرن الثالث، ومن معاصري عمرو بن الليث الصفاري أيضاً، ومن أبياته قوله: (٢).

- إن ترق دمك على الأرض، خير لك من أن تريق ماء وجهك؛

- فعابد الصنم أفضل من عابد الناس، فخذ النصيحة واستمع إليها واعمل بها.

ونذكر بالإضافة إلى هؤلاء أيضاً الشعراء محمود الوراق الهروي (متوفى سنة ٢٢١ هـ)، ومحمد بن وصيف السكزي المعاصر ليعقوب بن الليث الصفاري؛ ومسعود المروزي صاحب أول شاهنامه قبل الفردوسي، وقد نظم شاهنامه في أواخر القرن الثالث الهجري. ويظهر بعد هذه الطبقة من الشعراء الثانويين الذين ذكرناهم أول شاعر كبير من الشعراء الفرس وهو الرودكي السمرقندي (المتوفى سنة ٣٢٩ هـ) الذي

(١) مرغیست خدنگ ای عجب دیدی	مرغی که شکار او همه جانا
داده پر خویش گرکش هدیه	تا نه بچه اش برد بمهمانا
(٢) خون خود راگر بریزی بر زمین	به که آب روی ریزی درکنار
بت پرستنده به از مردم پرست	پند گیر و کار بند و گوش دار

لقب بحق أستاذ الشعراء واشتهر بنظم الشعر الغنائى الذى بقى لنا منه كثير جمع فى ديوانه، وكان من أشهر ممدوحيه نصر بن أحمد السامانى (٣٠١ - ٣٢١ هـ) ثم وزيره أبو الفضل البلعمى. وقد نال منهما الصلات الوافرة، وأروع قصائده فى شكوى الزمان، ويقال إنه نظم "كليلة ودمنة" ولم يبق من نظمه لها سوى أبيات متفرقة، يقول فى إحدى قصائده ناعياً شبابه: (١)

- تأكلت أسناني وتساقطت جميعاً، لم تكن أسنانا.

لا، بل كانت مصباحاً وضأ

- كانت منضدة فى بياض الفضة،

وكانت درا ومرجاناً، وكانت نجم السحر وقطرات المزن.

- والآن لم تبق منها واحدة، بليت كلها وتساقطت،

فأى نحس ذلك؟ أمن الفلك؟ قد يقال،

- كلا، لا من الفلك، ولا امتداد الأجل،

فما هو إذن؟ أقل لك: هو قضاء الله.

(١) مرا بسود وفرو ريخت هر چه دندان بود نبود دندان لا بل چراغ تابان بود

سپید سیم زده بیود و در و مرجان بود ستاره، سحرى بود و قطره بازار بود

يکى نمائد کنون زآنهمه بسود و بريخت چه نحس بود همانا که نحس كيوان بود

نه نحس كيوان يود و نه روزگار دراز چه بود منت بگويم قضای يزدان بود

مختارات من الشعر الفارسي، الدكتور محمد غنيمي هلال، ص ١٠، القاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.

وَيَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى يَصِفُ الرَّبِيعَ: (١)

- أَقْبَلَ الرَّبِيعَ الْبَهِيحَ بِالْوَانَةِ الزَّاهِيَةِ وَعَطَرَهُ الْفَوَاحَ،

مَعَ مِائَةِ أَلْفِ نَوْعٍ مِنَ الزَّيْنَةِ وَالزَّخْرِفِ الْعَجِيبِ .

- وَرَبَّمَا تَحَوَّلَ الشَّيْخُ الْمَسْنُ إِلَى شَابٍ حَيْنُئذٍ .

وَتَبَدَّلَتِ الدُّنْيَا مِنْ حَالَةِ الْمَشِيبِ إِلَى حَالَةِ الشَّيَابِ .

- وَقَدْ أَعَدَّ الْكَوْنُ الْعَظِيمُ جَيْشًا .

مَكُونًا مِنَ السَّحْبِ الْمَظْلَمَةِ تَقْوُدُهَا رِيحُ الصَّبَا .

با صد هزار زینت و آرایش عجیب

گیتی بدیل یافت شباب از پی مشیب

لشکرش ابر تیره و باد صبا نقیب

دیدم هزار خیل و ندیم چنین مهیب

و آن رعد بن که نالد چون عاشق کُشیب

چونان حصاری که گذر دارد از رقیب

به شد که یافت بوی سمن را دوی طیب

وز برف بر کشید یکی حلهء قصیب

هر جو یکی که خشک همی بود شد رطیب

چون پنجهء عروس بحنا شده خضیب

سار از درخت سروا مرا وراشده مجیب

بلبل بشاخ گل بر بالحنک غریب

(١) آمد بهار خرم بارنگ و بوی طیب

شاید که مرد پیر بدین گه جوان شد

چرخ بزرگوار یکی لشکری بکرد

نقاط برق روشن و تندرش طبل زن

آن ابر بین که گرید چون مرد سوگوار

خورشید زایر تیره دهد روی گاه گاه

بیک چند روزگار جهان دردمند بود

بارات مشک بوی ببارید نو بنو

کنجی که برف پیش همی داشت گل گرفت

لاله دبیان کشت در خشد همی زدور

بلبل همی بخواند در شاخسار بید

صلصل بسرو بن با نغمهء کهن

- قاذف النفط فيه البرق الساطع ، وقارع الطبل فيه الرعد .
- لقد شاهدت آلاف الجيوش من قبل ولم أر جيشاً بهذه المهابة .
- انظر إلى ذلك السحاب وهو يبكي وكأنه إنسان حزين ،
- وانظر إلى ذلك الرعد وهو ينوح وكأنه عاشق بائس .
- والشمس تطل بوجهها بين الحين والآخر من بين السحب المظلمة
- كسجين يتحين الفرصة ليفلت من حارسه .
- لقد عانت الدنيا من المرض فترة ،
- ولكنها تحسنت عندما وجدت في عطر الياسمين دواء لها .
- وقد أخذت الأمطار المسكية الرائحة تهطل من جديد ،
- وارتدت الدنيا حلة مقصبة من الثلوج .
- وازدهرت الورود في الأماكن التي غطتها الثلوج ،
- وجرت المياه في الجداول بعد أن كانت متجمدة .
- وتلاأت زهور الشقائق من بعيد بين الخضرة .
- ككف العروس وقد تخضب بالحناء .
- وأخذ البلبل يغرد على أغصان شجرة الصفصاف ،
- وأخذ العصفور يرد عليه من فوق شجرة السرو .

- وأخذت الحمامة تغنى فوق شجرة السرو ألحاناً قديمة،

وأخذ البلبل يغنى على أغصان الورد بألحان غريبة.

ويقول فى قصيدة أخرى: (١)

- قضى جميع عظماء العالم نحبيهم،

وأحنوا رؤوسهم جميعاً للموت.

- وأصبح تحت الثرى أولئك الذين،

شيدوا كل هذه القصور العالية.

- وكان هذا كل نصيبهم من النعم

مهما امتلكوا ومهما أكلوا !

مرگ را سرهمه فرو کردند

که همی کوشکها پر آوردند

نه باخر جز از کفن بردند

و آنچه دارند و آنچه را خوردند

(١) مہمان جهان ہمہ مردند

زیر خاک اندرون شدند آنان

از هزاران هزار نعمت و ناز

بود از نعمت آنچه پوشیدند

ويقول في قصيدة أخرى: (١)

- أيتها المحبوبة، لقد سمعت أنه كان ليوسف ثلاثة قمصان،

ارتداها طوال عمره في أوقات الحنة والراحة.

- أحدها تلوث بالدم كيداً، والثاني تمزق بالاتهام،

والثالث أضاع برائحته عيني يعقوب الباكية.

- فوجهي يشبه الأول، وقلبي يشبه الثاني،

ونصيني من الوصل يشبه الثالث.

تحدثنا فيما سبق عن الشعر الفارسي الإسلامي خلال القرون الثلاثة الأولى للإسلام، ورغم أننا لاحظنا قلة الإنتاج الشعري في تلك الفترة، إلا أن هذا الإنتاج يدل على مدى التطور الذي طرأ على الشعر الفارسي في عهد الطاهريين والصفاريين، ثم يأتي بعد ذلك عصر السامانيين (٢٦١-٢٨٩ هـ) الذي يتميز بكثرة الشعراء وعلى رأسهم الشاعر أبو عبد الله الرودكي.

(١) نگارینا شنیدستم که گاه گاه محنت و راحت

سه پیراهن سلب یودست یوسف را بعمرا ندر

یگی از کید شد پر خون دوم شد چاک از تهمت

سوم یعقوب را از پوش روشن گشت چشم تر

رخم مانند بدان اول دلم مانند بدان ثانی

نصیب من شود در وصل آن پیراهن دیگر

وقد بذل السامانيون - وكانت عاصمتهم بخارى - جهداً كبيراً فى تشجيع النظم والنثر الفارسيين، وأخذوا يقدقون الأموال على الشعراء والكتاب من أجل أن ينظموا لهم الملاحم الوطنية كالشاهنامة، أو يترجموا لهم الكتب المختلفة. وقد ترجم إلى الفارسية تاريخ الطبرى بناء على أوامر السامانى منصور بن نوح، كما اشتغل بعض الوزراء بالترجمة إلى الفارسية كأبى على البلعمى وزير الأمير منصور. ويظهر أمر الغزنويين (٣٦٧-٤٣٣ هـ) أصبحت غزنة مركزاً أدبياً هاماً، وخاصة فى عصر السلطان محمود الغزنوى (٣٨٧-٤٢١ هـ) وابنه مسعود (٤٢١-٤٣٢ هـ)، وقد ازدان بلاطهما بالعديد من الشعراء والكتاب والعلماء.

وتمتاز فترة القرنين الرابع والخامس الهجريين بكثرة الشعراء وتعدد آثارهم، والواقع أن تشجيع الملوك والحكام والوزراء كان السبب الرئيسى الذى ساعد على رواج الشعر فى هذه الفترة؛ إذ حاول كل حاكم أن يضم إلى بلاطه أكبر عدد ممكن من الشعراء والكتاب، وأخذ يجزل لهم العطاء، حتى وصل بعض الشعراء إلى درجة كبيرة من الثراء، وقد قيل فى ذلك إن أمتعة الرودى كانت تحمل على أربعمائة جمل^(١)، وأشار الشاعر الخاقانى إلى ثراء الشاعر العنصرى فقال: ^(٢)

- سمعت أن موقد العنصرى قد صيغ من فضة

وأن أدوات مائدته قد صنعت من الذهب .

(١) جهاز مقاله، ص ٣٢.

(٢) شنيدم كه از نقره زد ديگدان ز زر ساخت آلات خوران عنصرى

(مجمع الفصحاء، ج ٢، ص ٢٥٥).

وصار بعض الشعراء يحسده على ما هو فيه من نعيم وجاه، كقول الفرخي (متوفى سنة ٤٢٩ هـ):^(١)

- لقد صرت محسود العظماء بسبب خدمتي لمحمود،

وهذا ما يجب أن يكون عليه خادم محمود دائماً

يقال أيضاً إنه بلغ من شأن الفرخي أنه كان يركب خلفه عشرون غلاماً بمناطق من الفضة.^(٢) وغير ذلك من الأمثلة كثير على ما كان للشعراء من مكانة، وما كان لهم من ثراء وجاه.

ونجد أيضاً أن كثيراً من الحكم والأمراء والوزراء من كان هو نفسه من المشتغلين بالشعر أو الكتابة، ونذكر على سبيل المثال شمس المعالي قابوس (متوفى سنة ٤٠٣ هـ)، وابن العميد (متوفى ٣٦٠ هـ)، والعتبي (متوفى ٤٢٧ هـ)، والبلعمي (متوفى ٣٦٣ هـ) وهو وزير الأمير منصور بن نوح بن نصر الساماني.

ومن خصائص الشعر الفارسي الإسلامي في تلك الفترة ما أظهره الشعراء من براعة في نظم أفكار جميلة في شعرهم، وإبداعهم في التعبير عنها مع قلة التعقيد والإبهام، حتى صارت نماذجهم الشعرية قدوة لمن جاء بعدهم، ومن هؤلاء الشعراء الرودكي، والدقيقي (متوفى ٣٦٥ هـ)، والفردوسي (متوفى ٤١١ زو ٤١٦ هـ)، والعنصرى (متوفى ٤٣١ هـ)، والفرخي، ومنوچهری.

وقد كثر الإنتاج الشعري حتى ليقال إن الرودكي نظم مائة ألف بيت، وإن عدد أبيات شاهنامه الفردوسي يصل إلى ستين ألف بيت، وشاعت في أشعار هذه الفترة

خدمتگر محمود چنين بايد هموار

(١) محسود بزرگان شدم از خدمت محمود

(٢) جهاز مقاله، ص ٣٩.

التشبيهات المركبة والدقيقة التي تعتمد على الخيال في معظم الأحيان، ويظهر ذلك بوضوح في شعر منوچهرى الدامغانى، كما يلاحظ وصف الحروب وميادينها؛ مثلما نجد في شعر العنصرى، والحديث عن مجالس السلاطين ومحافلهم، وما كان يدور فيها. وتتناثر هنا وهناك في أشعارهم أسماء الألحان والألغاز الموسيقية، وأسماء المطربين والمطربات، وأخذ الشعراء يصفون أيضاً الاحتفالات التي كانت تقام في المناسبات المختلفة من أعياد فارسية وإسلامية. كما أبدع الشعراء في وصف المناظر الطبيعية، وتحولت بعض أشعارهم فيها إلى لوحات فنية بارعة، ومن الشعراء الذين قدموا لنا وصفاً بديعاً للطبيعة فرخى ومنوچهرى، وقد أخذ الأخير يفصل في تصويره لها، ويذكر أسماء الطيور والأشجار والنباتات والزهور المختلفة، وكأنه درس كل هذه الأشياء وعرف خصائصها وتطور نموها. وغالباً ما يقترن وصف الطبيعة عند الشعراء بقصيدة المديح، فقد كان في بعض الأحيان المقدمة التي يضعها الشاعر في مطلع قصيدته.

وأخذ بعض الشعراء يصف أشياء بذاتها ضمن قصيدته أو في قطع أو رباعيات مستقلة، كوصفهم للسيف والقلم والجواد وغير ذلك، وبلغوا في ذلك مرتبة عالية. كما نرى انعكاس الأحوال والأوضاع السياسية والاجتماعية في الشعر، ويرجع ذلك إلى معرفة الشاعر بما يحيط به وتأثره بما حوله واهتمامه بالمحيط المادى إلى جانب اهتمامه بالخيال. فنجد العنصرى يتحدث عن حروب السلطان محمود الغزنوى في الهند، فيقول: ^(١)

- من كثرة النيران التي أشعلها السلطان في بلاد الهند،

تصاعد الدخان من معابدها حتى بلغ كوكب زحل.

كشیده دود ز بتخانپاش بر کیوان

(١) زبسکه آتش زد شاه در ولایت هند

قد تمیز شعر بعض الشعراء - ومنهم العنصری - بالتفکیر المنطقی الذی يقوم على قیاس له نتائج بنیت على مقدمات. وهذا التفکیر وما یخرج به من استنتاجات أدى إلى صوغ بعض أبياتهم وخاصة المصاریع الأخيرة منها بصیغة المثل السائر وصورته.

ویمثل ذلك قول العنصری ^(۱):

- هو أمير المشرق الذی ینصره الله دائماً ،
- وکل من یتقی الله ینصره على الدوام .
- کل الممالک ادعاء ، وسیفه هو البرهان ،
- ما أجمل الدعوى التى یساندها البرهان .
- إن قطرة ماء سخائه صارت سبباً لدرر المعانى ،
- وقطرة المطر أيضاً هی السبب لدر البحر .
- عندما یقصد مدحه من لا یقول الشعر ،
- یصیر شاعراً وشعره کروضه رضوان .

(۱) خسرو مشرق که یزدانش همیشه ناصرت
 پادشاهی ها همه دعویست برهان تیغ او
 در معنی را سبب شد قطره باران سخاش
 هر که نا شاعر بود چون کرد قصد مدح او
 ز انکه نعتش جمع گردانید معنیهای نیک
 هو که یزدان را پرستد ناصرش یزدان بود
 آن نکوتر باشد از دعوی که با برهان بود
 در دریا را سبب هم قطره، باران بود
 شاعری گردد که شعرش روضه، رضوان بود
 چون معانی جمع گردد شاعرش آسان یود

- لأنه يجمع من صفاته المعانى الجميلة،

وطالما جمعت المعانى يصبح إنشاد الشعر سهلاً يسيراً.

وقد حاول بعض الشعراء الإتيان بصور جديدة وأفكار مبتكرة، فاتهموا إلى الأفكار العلمية ومصطلحاتها، ونجد هذا واضحاً فى العصر الغزنوى وما تلاه من العصور واستعمال المصطلحات العلمية لم يكن شائعاً بطبيعة الحال فى أوائل العصر السامانى. وقد مزج الشعراء هذه الأفكار والمصطلحات العلمية بالأخيلة الشعرية، ولم يكن هدف الشاعر من ذلك مجرد ذكر هذه المصطلحات، ولكنه كان يستخدمها ليرسم بواسطتها صوراً وتشبيهات شعرية جديدة. ويعتبر الفرخى من أشهر الشعراء الذين استخدموا المصطلحات العلمية فى الشعر، فنجده يستخدم فى نهاية بعض قصائده مصطلحات النجوم عند حديثه عن التأييد فى مدحه كقوله مثلاً: طالما أنه يمكن إدراك مكان سير الكواكب عن طريق الإسطرلاب، فلتكن الدنيا محققة لكل رغباتك.

وأما عن موضوعات الشعر فى تلك الفترة فهى المديح والشعر البطولى أو الملاحم الوطنية، والوصف، والغزل، والقصة، والوعظ:

(أ) المديح : ظهر المديح منذ بداية الشعر الفارسى فى بلاط الطاهريين والصفاريين، إلا أنه اكتمل فى عهد السامانيين الذين كانوا يحكمون خراسان وما وراء النهر. وقد كثر الشعراء فى عصرهم، وكان على رأسهم الرودى والشهيد البلخى (متوفى ٢٢٥ هـ) والدقيقى (متوفى ٣٦٥ هـ) وغيرهم. وقد أخرج الرودى الشعر الفارسى من حالته البدائية البسيطة، وعالج كثيراً من موضوعات الشعر بأنجناسه.

وارتقى فن المديح بعد ذلك فى عصر السلطان محمود الغزنوى وابنه مسعود، وكان الشعراء ينظمون قصائدهم فى مديح السلاطين والوزراء والأمراء وغيرهم فى المناسبات المختلفة من أعياد وفتوحات وغير ذلك، وكانت الهبات التى تقدم لهم كثيرة، وخاصة فى عهد السلطان محمود؛ وذلك نتيجة لما حصل عليه فى غزواته التى قام بها

فى الهند، ومن أشهر شعراء المديح فى العصر الفزنوى: العنصرى والفرخى ومنوچهرى الدامغانى.

وقد تميز المديح فى هذا العصر بالمبالغة فى بعض الأحيان، وعادة ما تبدأ قصيدة المديح بوصف الطبيعة أو فصل من فصول السنة، أو الحديث عن عيد من الأعياد، وربما بدأها الشاعر بالغزل.

(ب) **الملاحم الوطنية** : تعد هذه الفترة من أهم الفترات الأدبية التى اهتمت بهذا النوع من الشعر؛ ففى أوائل هذه الفترة ظهر مسعودى المروى الذى نظم شاهنامة فى أواخر القرن الثالث أو السنوات الأولى من القرن الرابع للهجرة، وكانت أبياتها من الشعر المتنوى (المزدوج) ومن بحر الهزج المسدس، وقد ضاعت هذه المنظومة، كما ظهر فى منتصف هذه الفترة الدقيقى الذى نظم ألف بيت فى قصة كشتاسب وحربه مع أرجاسپ الطورانى دفاعاً عن الدين الزرادشتى، ومع أن شاهنامته لم تتم، إلا أنه مهد السبيل للفردوسى الذى ظهر فى أواخر هذه الفترة، وشاهنامته التى تبلغ حوالى ستين ألف بيت منظومة فى البحر المتقارب. ويتحدث فيها عن تاريخ إيران منذ أقدم العصور وحتى سقوط الساسانيين، وتشتمل على أحداث أسطورية وتاريخية، وقد اقتفى أثره كل من جاء بعده من الشعراء ونظم فى هذا الموضوع.

وتعتبر شاهنامة الفردوسى من أغنى الكتب الأدبية بالمفردات والمصطلحات الفارسية، وقد كان الفردوسى ممن عاونوا على إحياء اللغة الفارسية ونشرها، خاصة وأن الشاهنامة كانت - ومازالت - موضع إعجاب وتقدير كل من يقرأها، فاهتم الناس بقراءتها على مر العصور، وجرت ألفاظها على ألسنتهم، كما تعتبر الشاهنامة مصدراً رئيساً من مصادر النحو الفارسى، ذلك أن اللاحقين بالفردوسى من الشعراء اتخذوا من شعره معياراً للتركيبات النحوية واقتنوا به فى استخداماته اللغوية.

وقد أعطى الفردوسى كل موضوع حقه؛ فتحدث عن الحرب والسلام، والفخر والمديح، والزهد والحكمة، والوصف والأخلاق، والمعروف أنه بدأ نظم شاهنامته حوالى

سنة ٢٧٠ أو ٢٧١ هـ وأتمها حوالى سنة ٤٠٠ هـ، ويمكن تقسيم الشاهنامه إلى ثلاثة أقسام هي: العصر الأسطوري، والعصر البطولي، والعصر التاريخي.

وتعتبر هذه المنظومة سجلاً حافلاً لعادات الشعب الإيراني وتقاليدته والعلوم والفنون الشائعة في عصر الشاعر، وقد أجاد الفردوسي في الوصف عمومًا خاصة في وصف الحروب وميادينها، والطبيعة وما فيها، وهو يدعو للعدل ويحبذه، ويحض على العلم، ويحترم العقل ويمدحه، كما تمتلئ منظومته بالحكم والمواعظ.

(ج) الغزل: بدأ النظم في الغزل منذ منتصف القرن الثالث الهجري أي منذ ظهور الشعر الفارسي الحديث، وأقدم النماذج التي نجدها ما تبقى من شعر حنظلة البادغيسي، وتطور النظم في هذا الموضوع خلال القرن الرابع، ونظم الشعراء نوعاً من الشعر سمي بالغزل، كما ضمنوا قصائدهم صوراً بديعة من الغزل والتشبيب.

وكان الرودكي صاحب أول غزل بديع في الفارسية، وشاركه في هذا أيضاً الشهيد البلخي، حتى إذا وصلنا إلى النصف الأول من القرن الخامس وجدنا الغزل يبلغ شأواً بعيداً في الكمال على يد الفرخي.

(د) القصص: اهتم الشعراء في هذه الفترة أيضاً بنظم القصص؛ فنظم الرودكي كليله ودمنة شعراً، كما نظم أبو المؤيد البلخي الذي كان يعيش في القرن الرابع قصة يوسف وزليخا. وقد امتلأت شاهنامه الفردوسي بالعديد من قصص الحب كقصة الجارية شيرين، وهي القصة التي نظمها فيما بعد نظامي الكنجوي (متوفى ٦٠٤ هـ) تحت عنوان "خسرو وشيرين"، وقصة زال ورودايه، وقصة بيثرن ومنيثره، وقصة رستم وتهمينه، ونظم العنصرى قصصاً أخرى كقصة "أماق وعذرا"، وهي قصة قديمة من بقايا العصر الساساني، وقد نظمها في البحر المتقارب، وقصة "خنك بت وسخ بت"، وهي قصة كانت معروفة عن صنمين في باميان ببلخ، وقصة "شاد بهر وعين الحياة".

وفى ختام النصف الأول من القرن الخامس نظمت قصة "ويس ورامين"، وهى إحدى قصص إيران القديمة، وقد نظمها الشاعر فخر الدين أسعد الكركانى (متوفى ٤٦٦ هـ) عن متن قريب من الأصل البهلوى فى بحر الهزج المسدس.

(هـ) الحكم والمواعظ: نال النظم فى هذا الموضوع اهتماماً كبيراً من الشعراء الفرس، وقد نظم فيه الشعراء أول ما نظموا فى أوائل القرن الرابع، وأول من اهتم بالنظم فيه الرودى، وما زالت فى بقايا شعره الموجود بين أيدينا بعض القطع فى الوعظ والحكمة، والواقع أن كلفة ودمنة التى نظمها شعراً ما هى إلا منظومة حكمية أخلاقية، كما برع فى هذا الموضوع أيضاً شعراء آخرون مثل الشهيد البلخى والدقيقى وأبى شكور البلخى صاحب المنظومة الحكمية "آفرين نامه". كذلك تمتلئ الشاهنامه بالنصائح والمواعظ كما سبق أن ذكرنا، رغم أنها منظومة حماسية. وأهم أقسامها الحكمية نصائح بزر جمهور ومجالس أنو شروان معه، كما ترى النصائح فى ختام حكايات الملوك والأبطال.

ويعتبر الكسانى المروزى (متوفى ٣٩١ هـ) أول من نظم قصائد كاملة فى الوعظ والحكمة، وقد مهد بذلك السبيل لظهور شاعر العصر السلجوقى المشهور ناصر خسرو القباديانى (متوفى ٤٨١ هـ)، الذى نظم قصماً كبيراً من أشعاره فى هذا الموضوع.

الأجناس الشعرية عند الفرس:

١- القصيدة :

للقصيدة فى الشعر الفارسى نفس المنزلة التى لها عند العرب، وقد أنشد الفرس قصائدهم على غرار القصائد العربية، ملتزمين فيها بالوزن ووحدرة القافية، إلا أنهم جعلوا الحد الأدنى لعدد أبياتها بين الثلاثة عشر بيتاً وبين العشرين، ولم يضعوا حداً أقصى لعدد أبياتها، وقد تتجاوز بعض القصائد عندهم مائتين من الأبيات.

ويقول شمس قيس الرازى فى كتابه "المعجم فى معايير أشعار العجم": "إذا زادت الأبيات عن خمسة عشر أو ستة عشر تسمى قصيدة، وإن كانت أقل من ذلك تسمى قطعة، ويلزم فى القصائد الفارسية أن يكون المطلع مصرعاً، أى أن تكون قافية كلا المصراعين متحدة فى الحروف والحركات وإلا سميت بالقطعة حتى ولو زادت عن العشرين بيتاً"، ويقول أيضاً "اشتقاق القصيدة من القصد وهو التوجه إلى شىء أو مكان، والمقصود هو محل قصد الناس بالطلب والتحصيل والقول والفعل، ومعنى ذلك أن القصيدة هى مقصود الشاعر لإيراد المعانى المختلفة والأوصاف المتنوعة من مدح وهجاء وشكر وشكوى وغير ذلك، والهاء فى آخرها للدلالة على وحدتها مثل شعير وشعيرة وذبيح وذبيحة"^(١).

وقد تكون القصيدة الفارسية فى المدح أو الهجاء أو الحماسة أو الرثاء أو الوعظ أو الشكوى، وهى تقسم بحسب موضوعها إلى الأقسام التالية:

- (أ) مديحة : إذا قصد منها المديح.
- (ب) هجوية : إذا قصد منها الهجاء.
- (ج) مرثية : إذا قصد منها الرثاء.
- (د) حكمية : إذا قصد منها الفلسفة والحكمة.
- (هـ) ربيعية : إذا قصد بها وصف الربيع.
- (و) شتائية : إذا قصد بها وصف الشتاء.
- (ز) خزائية : إذا قصد بها وصف الخريف.
- (ح) مناظرة : إذا قصد منها المناظرة.

(١) المعجم ص ٢٠١.

(ط) السؤال والجواب : إذا نظمت القصيدة على طريق محادثة بصورة السؤال والجواب^(١).

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الفرس قد تأثروا تأثراً كبيراً بالطريقة التي كان ينشد العرب بها قصائدهم، وخاصة قصائد المديح التي كانت تبدأ بالنسيب والوقوف على الأطلال ثم ينتقلون بعد ذلك إلى المديح، فإن البيئة العربية وحياة البادية والرحيل والانتقال المتواصل من مكان لآخر، كل ذلك كان يثير في نفوس الشعراء مزيداً من الشوق والحنين إلى الأحباب الذين ارتحلوا عنهم، فيذكر الشاعر كل ذلك في مطلع قصيدته مشيراً إلى الأطلال والدمن والمساكن المهجورة.

وقد اتبع الفرس هذه الطريقة في إنشاء قصائدهم، فأخذ بعضهم يبدؤها بالنسيب والبكاء على الأطلال، بل أخذ بعضهم يذكر كثيراً من الأماكن التي ذكرها الشعراء العرب في قصائدهم وكثيراً من معشوقات العرب وبعض الجمل والعبارات العربية مقتبساً إياها من القصائد العربية الشهيرة، بل قد ينظم الشاعر منهم قصيدته على وزن إحدى هذه القصائد. وخير من يمثل هذا الاتجاه الشاعر منوچهرى الدامغانى شاعر القرن الخامس الهجرى ومعزى شاعر القرن السادس الهجرى، وغيرهما من الشعراء الفرس.

ومن هنا نرى أن قصائد المديح الفارسية سارت على منوال القصائد العربية، فأخذ الشاعر يبدؤها بالنسيب وذكر الأطلال والرحيل حتى يصل إلى بيت الانتقال ويسمى بالفارسية " كرىزگاه"، فينتقل إلى الموضوع الأصلي وهو المدح ويشير بعد ذلك إلى طلبه بلطف فى "بيت الطلب" ثم يفرغ من قصيدته بما يسمونه "بيت المقطع"، والقصيدة الفارسية التي لاتبدأ بالتشبيب تسمى القصيدة " المحدودة" أو " المقتضبة".

(١) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى للسعدى، ص ٢٠- ادوارد براون - ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى - مصر ١٢٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.

ولما كانت القصيدة هى أهم أنواع النظم، فقد وضع لها الفرس بعض الخصائص والقواعد التى يسير عليها الشاعر ليصل بمنظومته إلى درجة الجودة، ومن هذه المحسنات:

(أ) أن تكون القصيدة مصرعة: أى أن يراعى الشاعر تقفية مصراعى البيت الأول من قصيدته.

(ب) حسن المطلع: أى أن يكون مطلع القصيدة سهلاً، عذب الألفاظ، مما يجعل المستمع يميل إلى سماع بقية القصيدة.

(ج) حسن التخلص : وهو الخروج من النسب إلى موضوع القصيدة الرئيسى بطريقة حسنة لطيفة.

(د) حسن الاعتذار: وفيه يعتذر الشاعر بطريقة لطيفة عن قصور مدحه وعلو مقام الممدوح.

(هـ) الشريطة: وهى ختم القصيدة بالدعاء ، وفى القصائد الفارسية يدعو الشاعر الممدوح بدوام بقاءه فى شكل الشرط؛ فمثلاً يتمنى خلوده طالما استمر طلوع الشمس وغروبها، وتتابع الليل والنهار.

(و) حسن المقطع: وهو أن يختم الشاعر قصيدته بأجود المعانى وأحسنها، وأعذب الألفاظ، لأن آخر أبياتها هو آخر ما يبقى فى الأسماع.

٢- القطعة :

هى كما يدل عليها اسمها عبارة عن قطعة من قصيدة كاملة انفصلت عنها لسبب من الأسباب، وقد تكون أيضاً جزءاً من قصيدة لم يقدر لها أن تكتمل، كما قد تكون وحدة قائمة بذاتها أنشأها الشاعر من البداية ليصوغ منها غرضاً من الأغراض، فلما سجله فيها تركها على حالها ولم يفكر مطلقاً فى أن يضيف إليها أبياتاً أخرى، وفى

كثير من الأحيان يدل أسلوب القطعة وموضوعها على أن الشاعر قصد بها منذ البداية أن تكون وحدة قائمة بذاتها^(١).

ويجب ألا تقل القطعة عن بيتين، ومن الشعراء الفرس الذين أنشدوا قطعاً فارسية بالإضافة إلى قصائدهم الطويلة: الرودكي وسنائي (متوفى سنة ٥٤٥ هـ) وسعدى الشيرازي وغيرهم.

والقطعة موجودة في الشعر العربي أيضاً، والواقع أن الشاعر يحتاج إلى نظمها كما يحتاج إلى نظم القصائد الطويلة، ويقول ابن رشيق في هذا: "وقال بعض العلماء: يحتاج الشاعر إلى القطع حاجته إلى الطوال، بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثل والملح أحوج إليها منه إلى الطوال..."^(٢).

٣- المسمط :

"المسمط عبارة عن مصطلح عام يشمل جميع أنواع القصائد المركبة، واشتقاق التسميط من المسمط وهو: أن تجمع عدة سلوك في ياقوته أو خرزة ما، ثم تنظم كل سلك منها على حدته باللؤلؤ يسيراً، ثم تجمع السلوك كلها في زبرجدة أو شبهها .. ثم تنظم أيضاً كل سلك على حدته. وتصنع به كما صنعت أولاً إلى أن يتم المسمط"^(٣).

هذا من الناحية اللغوية، أما من الناحية الاصطلاحية فالمسمط عند العرب: " هو أن يأتي الشاعر بخمسة أبيات على قافية، ثم يأتي ببيت على غير تلك القافية، ثم يأتي

(١) تاريخ الأدب في إيران من الفريوسي للسعدى، ص ٢٧.

(٢) العمدة، ج ١ ص ١٨٧- مصر ١٢٨٢ هـ - ١٩٦٢ م.

(٣) العمدة، ج ١ ص ١٨٠.

بخمسة أبيات على قافية أخرى، ثم يعود فيأتى على قافية البيت الأول وكذلك إلى آخر الشعر^(١).

ولا يقتصر التسميط على هذا النوع السابق، بل هناك أنواع أخرى ذكرها ابن رشيق عندما قال^(٢): ومن الشعر جنس كله مصرع، إلا أنه مختلف الأنواع، وأنا منبه عليه.. فمن ذلك الشعر المسمط، وهو : أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرع، ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته، ثم يعيد قسيماً واحداً من جنس ما ابتدأ به، وهكذا إلى آخر القصيدة ومثال ذلك قول امرئ القيس، وقيل إنها منحولة :

توهمت من هند معالم أطلال	عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مربع من هند خلّت ومصايف	يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف	وكل مسف ثم آخر رادف

بأسح من نوء السماكين هطال

وهكذا يأتى بأربعة أقسمة على أى قافية شاء، ثم يكرر قسيماً على قافية الكلام، وربما كان المسمط بأقل من أربعة أقسمة، وربما جاءوا بأوله أبياتاً خمسة على شرطهم فى الأقسمة، وهو المتعارف، أو أربعة، ثم يأتون بعد ذلك بأربعة أقسمة.

وقد ذكر البعض^(٣) مثلاً آخر لأمرئ القيس إذ يقول:

(١) نقد النثر، ص ٦٤ - قدامة بن جعفر - القاهرة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م.

(٢) العمدة، ج ١ ص ١٧٨.

(٣) تاريخ أدبيات إيران از قد يمترين عصر تاريخى تا عصر حاضر - جلال الدين هماني - چاپ دوم - تهران ١٣٤٠ هـ ش - جلد اول ص ٦٦.

ومستلثم كشفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذى سفاسق ميله
فجعت به فى ملتقى الحى خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله

كان على أتوابه نضح جريال

فإن صحت هذه النماذج من هذا الشعر المسمط لأمرى القيس فيمكننا أن نقول إن الشعر المسمط كان معروفاً لدى العرب قبل الفرس، وإن الفرس قد اقتبسوا هذا النوع من الشعر كما اقتبسوا نظام القصيدة أو غيرها.

وإذا كنا قد لاحظنا وجود عدة أنواع للمسمط عند العرب، فإننا نلاحظ ذلك أيضاً عند الفرس، وأول تلك الأنواع هو أن يقسم الشاعر قصيدته إلى أجزاء أو شطرات تتفق أوائلها فى الروى وأما أواخرها فتكون موافقة لنظائرها فى القصيدة كلها، وقد اتخذ المسمط الفارسى طريقاً آخر غير هذا الطريق منذ القرن الخامس الهجرى، وتطور على يد بعض الشعراء مثل منوچهرى الدامغانى والامعى الگركانى (من شعراء القرن الخامس الهجرى)، وأخذ الشعراء ينظمون مسمطاً يتكون كل قسم فيه من أربعة أو خمسة أو ستة مصاريع، ولكل المصاريع قافية واحدة ما عدا المصراع الأخير، والمصاريع الأخيرة فى كل قسم تتفق فى القافية مع غيرها حتى آخر المسمط وأخذوا يطلقون على المسمط أسماء أخرى طبقاً لعدد المصاريع التى يتكون منها مثل المربع أو الخمس أو المسدس.

وهناك نوع آخر من المسمطات للشاعر منوچهرى الدامغانى تتفق فيه كل ستة مصاريع فى قافية واحدة، وتختلف عن الستة مصاريع التالية لها.

٤٣- الغزل :

الغزل اصطلاحاً عبارة عن منظومة قصيرة تتراوح أبياتها بين سبعة أبيات وخمسة عشر بيتاً فى الغالب، وهى تشبه القصيدة من نواح كثيرة، فلا بد أن يكون مطلعها مصرعاً ، وأن تسير على قافية واحدة.

ويختلف الغزل عن القصيدة فى الموضوع والتخلص، فموضوع القصيدة يتعلق غالباً بالمديح أو الهجاء أو التعليم أو الفلسفة أو الدين، أما الغزل فهو لايتعلق إلا بموضوع غزلى أو صوفى، ويلتزم الشاعر فيه بذكر لقبه الشعرى أو تخلصه، كما يقول الفرس، فى البيت الأخير منه، ولعلمهم لجأوا إلى ذلك ليجعلوا أشعارهم فى مأمن من أن يسطو عليها الغير فيدعيها لنفسه، أو لعلها طريقة فارسية امتاز بها الشعر الفارسى وصارت بعد ذلك من خصائصه وميزاته.

والغزل أو التشبيب موجود عند العرب سواء فى مطالع قصائد المديح أو فى قصائد مستقلة كما نجد عند كثير وعمر بن أبى ربيعة وجميل وغيرهم، ويمكن أن يكون الفرس قد اقتبسوا نظم قصائد مستقلة فى الغزل عن العرب، فقد تأثروا بالقصيدة الغنائية عند العرب عموماً، إلا أنهم جعلوا للغزل هذا الطابع المميز الذى يمتاز به، وجعلوه محددًا فى عدد الأبيات وبالتخلص فى آخره، وهذه الطريقة لم تكن موجودة عند العرب.

وممن اشتهر بين شعراء الفرس بنظم الغزليات سعدى الشيرازى وحافظ الشيرازى وجلال الدين الرومى وغيرهم، وقد مر الغزل عند الفرس بمراحل متعددة حتى اكتمل على يدى سعدى وحافظ، فكان يعيش فى العصور الأولى للشعر الفارسى فى كنف شعر المديح، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يوجد شعر مستقل فى الغزل فى تلك العصور، لأن الأدب يقتضى وجود شعر غنائى فى كل عصر، غير أنه لم يكن بالصورة المحددة التى ظهرت فيها بعد.

والمعروف أن كثيراً من الشعراء الفرس القدامى قد اشتهروا بهذا الفن الشعرى، ونذكر من هؤلاء الرودى.

تطور الشعر الفارسى بعد ذلك واستقل الغزل، فأصبح له نظامه الخاص، وتكونت طبقة من الشعراء الذين جعلوا هذا الفن حرفتهم ومهنتهم الخاصة، فاعتنوا به أكثر من غيره من الفنون. والواقع أن الغزل بدأ يستقل منذ عصر السلاجقة أى منذ ظهور

التصوف وتغلبه على الأفكار، ونبغ في هذا النوع الشعري لفيف من الشعراء كسنائي أحد شعراء القرن السادس الهجري، والعطار من شعراء القرن السادس وأوائل السابع، وغيرهما.

ومن أعلام الغزل الفارسي في العصر المغولي سعدى الشيرازي (متوفى ٦٩١ هـ) وعدد غزلياته كبير جداً، وتنقسم إلى أربعة أقسام هي: الغزليات والطيبات والبدايع والخواتيم، ولاننسى أن نقول إن لسعدى غزليات من الأسلوب الملمع أى المنظوم باللغتين العربية والفارسية.

كما أن الغزل قد بلغ مبلغاً كبيراً على يد الشاعر حافظ الشيرازي الذي تميز عن بقية شعراء الغزل بالتفكير الفلسفي، فكأنه أوجد نوعاً خاصاً من الغزل يمكن أن نطلق عليه الغزل الفلسفي، أما من ناحية الأسلوب فقد كان حافظ يتوخى في غزلياته السلاسة في العبارة، وحسن التشبيه والتمثيل، كما كان يستخدم الصناعات اللفظية دون تكلف، مما جعله يحرز نجاحاً وسبقاً لم يتح لغيره.

٥- الترجيع بند والتركيب بند :

هما من أنواع القصائد التي اخترعها الفرس في محاولة للتخلص من قيود القافية التي وضعها العرب كشرط من شروط إنشاء القصيدة، ويشبه التركيب بند والترجيع بند والمستزاد ما ظهر بعد ذلك في العربية في المغرب والأندلس تحت اسم الموشحات.

والنوعان عبارة عن قصائد تشتمل كل واحدة منها على عدد من الوحدات تكون في العادة متساوية في عدد أبياتها، وتكون كل واحدة منها على قافية واحدة، ويفصل بين الوحدة والأخرى بيت مستقل من الشعر ليبين لنا نهاية الوحدة التي سبقته وبداية الوحدة التي تليه، فإذا تكرر بيت بعينه بعد نهاية كل وحدة (بند) فإن المنظومة تسمى بـ "الترجيع بند"، أما إذا وردت أبيات مختلفة بعد نهاية الوحدات وكانت هذه الأبيات

متفقة القافية مع بعضها ومختلفة عن سائر الوحدات فإن المنظومة تسمى فى هذه الحالة بـ " التركيب بند " ، ويجب أن تجرى المنظومة من هذين النوعين على وزن واحد فى جميع أبياتها^(١).

٦- المستزاد :

هو من أنواع النظم الفارسية، إلا أن البعض لايعتبره نوعاً مستقلاً من أنواع الشعر، وإنما يدخله ضمن أنواع التفنن والصنعة فى الشعر.

والمستزاد عبارة عن رباعية أو غزلية أو قصيدة بعد نهاية كل مصراع من مصاريعها زائدة موزونة ولا يستلزمها المعنى أو الوزن، وهذه الزوائد تقفى مع بعضها ويكون معناها متصلاً بحيث يمكن اعتبارها قصيدة منفصلة قائمة بذاتها، ويجب ملاحظة أن معنى القصيدة وكذلك قافيتها تتوافران بغير هذه الزيادات، وأنه ليس من الضرورى أن تبنى القصائد المركبة أو المستزادة على منظومة أخرى سابقة، فلقد أنشأت بعض القصائد أساساً فى ضرب أو آخر من هذه الضروب، ومن محاولة النظم على هذا الأسلوب فى العربية قول الحريري:^(٢)

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الأقدار
دار متى ما أضحكك فى يومها أبكت غداً يا لؤمها من دار

(١) انظر : تاريخ الأدب فى إيران من الفريوسى للسعدى ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) انظر : دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى -- دكتور محمد نور الدين عبد المنعم - القاهرة ١٩٨٦ ، م ص ١٣٤ .

٧- الرباعي :

من تصرفات الفرس فى الأوزان العربية، وزن الرباعى الذى استخرجوه من بحر الهزج واشتقوا منه أربعة وعشرين ضرباً، وهو عبارة عن بيتين من الشعر ولذلك سُمى فى الفارسية باسم "دوبيت"، كما سُمى بالرباعى لأنه يتكون من أربع شطرات.

ويجب أن يكون الرباعى على وزن من الأوزان المستخرجة من الهزج، وأن تقفى مصاريعه الأول والثانى والرابع مع بعضها، بينما يكون المصراع الثالث مقفى مع هذه المصاريح أو لا يكون كما هو الغالب والأعم.

ويعد الرباعى الذى أطلق عليه العديد من الأسماء مثل: "ترانه" و"دوبيتى" و"دو بيت"، و"و" و"چهار بيتى" و"چهار كانى" من الأنواع المهمة فى الشعر الفارسى، ويعتقد البعض أنه من أصعب أجناس الشعر، ذلك لأن الشاعر يضمن تلك الشطرات الأربع فكرة معينة ومعنى جديداً، بالإضافة إلى أنه مقيد بوزن خاص، فكأنه يضع بحراً فى إناء صغير. والقالب المعتاد لهذا الوزن هو جملة "لا حول ولا قوة إلا بالله" وهى فى اصطلاح العروض من زحافات بحر الهزج المثمن.

ويُفرق البعض بين الرباعى والدوبيتى بقوله: إن الرباعى هو ما كان من أربعة مصاريح منظومة على أحد الأوزان المخصوصة من فروع بحر الهزج وهى أربعة وعشرون فرعاً، وإذا كانت هذه المصاريح الأربعة على وزن آخر سميت بالدوبيتى^(١).

وأقدم الرباعيات المنظومة بالعربية ما ذكره صاحب "دمية القصر" إذ قال إن أباه كان يردد على مسمعه عدة رباعيات بالعربية^(٢). ومن الواضح أن هذا الجنس لم يكن

(١) تاريخ أدبيات إيران از قد يمترين عصر تاريخى تا عصر حاضر - جلد أول ص ٦٢.

(٢) انظر : دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى ص ٢٤٢.

موجوداً عند العرب قديماً وإنما انتقل إليهم عن طريق الفرس، ومع ذلك فنماذجه قليلة نادرة. ومن شعراء الرباعيات فى الفارسية الرودكى وأبو سعيد بن أبى الخير (متوفى سنة ٤٤٠ هـ) وعمر الخيام وغيرهم.

٨- المثنوى:

هو من أجناس الشعر الشائعة فى الفارسية، والتي حاول الفرس فيها التخلص من قيود القافية، إذ أن القافية فيه تكون فى شطرى البيت الواحد، وتتغير بعد ذلك بتغير الأبيات، وقد أولع به شعراء الفرس فنظموا فيه المنظومات القصصية الطويلة التى تتناول قصص البطولة أو مسائل الأخلاق والتصوف، ومن أقدم أبيات المثنوى مانجده متفرقاً فى كتاب "لغت فرس" لأسدى الطوسى لبعض الشعراء مثل أبى شكور البلخى والرودى وغيرهما.

وأول منظومة طويلة تنظم فى هذا الشكل بين أيدينا هى الشاهنامه التى بدأها الدقيقى، وقد نظم منها ألف بيت فى قصة الملك كشتاسب وظهور زرادشت وأكملها الفردوسى فيما بعد، فوصلت إلى حوالى ستين ألف بيت، وتأتى بعدها منظومة "يوسف وزليخا" التى تنسب إلى الفردوسى، والمنظومتان على وزن المتقارب، ومن منظومات المثنوى التى وصلت إلى أيدينا منظومتا "روشنائى نامه" أو كتاب الضياء. و "سعاد تنامه" أو كتاب السعادة، وهما من مؤلفات ناصر خسرو، والمنظومة الأولى عبارة عن مثنوية تشتمل على ٥٧٩ بيتاً فى بحر الهزج المسدس، وقد أنشأها الشاعر فى سنة ٤٤٠ هـ، وتشتمل المنظومة الثانية على ٢٨٧ بيتاً، ويجب الإشارة إلى أن كلا من هذين الكتابين عبارة عن مثنوية تعليمية أخلاقية.

وتأتى بعد ذلك قصة "ويس ورامين" وهى مثنوية نظمها الشاعر فخر الدين أسعد الجرجانى وهو من شعراء آل سلجوق، وقد نظمها فى سنة ٤٤٠ هـ عقب تغلب طغرلبك على

الرومان، وأهداها الشاعر لوزير هذا السلطان المسمى بـ "أمين الدين أبي الفتح النيسابوري".

والمعروف أن المثنوى قد ينظم على محور أخرى غير المتقارب والهزج منها مثلاً: الخفيف والرملي. ومن المثنويات التي بقيت أيضاً منظومة سنائي المسماء بـ "حديقة الحقيقة" وهي مثنوية أخلاقية أكثر منها صوفية، ويبلغ عدد أبياتها أحد عشر ألف بيت، وهي على وزن الخفيف المسدس المشعث المقصور، وقد أهداها الشاعر إلى بهرامشاه سلطان غزنه، ولاننسى ذكر مثنوية "تحفة العراقيين" للشاعر خاقاني (متوفى سنة ٥٩٥ هـ) التي يصف فيها حجه إلى مكة المكرمة، ومثنويات نظامي الكنجوي المسماة بخمسة نظامي، وهي: مخزن الأسرار، وخسرو وشيرين، وليلي والمجنون، واسكندر نامه، وهفت بيكر.

وهناك رأيان بشأن نشأة هذا الجنس الشعري، أحدهما أنه فارسي النشأة والثاني أنه عربي النشأة. ويؤيد الرأي الأول وجود قطعة أدبية من الأدب الإيراني القديم كان يظن أنها مكتوبة بالثر، إلا أنه اكتشف فيما بعد أنها ذات وزن وقافية، وهذا الوزن قريب من المتقارب المثنوى، وهي بعنوان "درخت أسوريك" أي الشجرة الآشورية، وموضوعها حوار بين الشجرة والعنزة أيهما أفضل من الأخرى.

والمعروف أن العرب قد عرفوا هذا النوع من النظم تحت اسم "المزدوج" فقد ذكره صاحب "نقد النثر" فقال في حديثه عن أقسام الشعر^(١): "ومنه المزدوج وهو ما أتى على قافيتين إلى آخر القصيدة، وأكثر ما يأتى على وزن الرجز".

ويقول أصحاب الرأي الثاني إنه من الجائز أن يكون الشعر المزدوج قد نشأ في الشعر العربي كمحاكاة لمطالع القصائد والأبيات المصرفة، ومحاكاة

(١) نقد النثر - قدامة بن جعفر - القاهرة ١٣٥١ هـ ص ٦٥.

لمشطور الرجز مع تغيير فى الروى فى شطرين بعد شطرين ، والملاحظ أن الفرس استعملوا هذا الجنس من النظم منذ زمن متأخر تخلصاً من قيود القافية التى وضعها العرب، ومازال الفرس ينظمون فيه حتى الآن، ولم يعطه العرب الاهتمام الذى أولوه لغيره من أجناس الشعر. ومن أقدم النماذج العربية للمزج مذكوره صاحب "يتيمة الدهر"، ومنها مزدوجة لأبى الفضل السكرى المروى ترجم فيها أمثالاً فارسية، منها هذه الأبيات: (١)

من رام طمس الشمس جهلاً أخطأ	الشمس بالتطين لا تغطى
أحسن ما صفة الليل وجد	الليل حبلى ليس يدرى ما يلد
من مثل الفرس ذوى الأبصار	الثوب رهن فى يد القصار
إن البعير يغض الخشاشا	لكنه فى أنفه ما عاشا

ونذكر أيضاً بعض الأبيات من أرجوزة أبى العتاهية المزدوجة المعروفة بذات الأمثال: (٢)

حسبك مما تبتغيه القوت	ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا	من اتقى الله رجاً وخافا
إن كان لا يغنيك ما يكفيكا	فكل ما فى الأرض لا يعنيكا
إن القليل بالقليل يكثر	إن الصفا بالقذى ليكدر
هى المقادير فلمنى أو فذر	إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

(١) يتيمة الدهر - أبو منصور الثعالبي - دمشق ١٣٠٣ هـ ج ٤ ص ٢٢.

(٢) الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية - بيروت ١٨٨٦ م ص ٣٤٦.

وقد نظمت أيضاً بالمتنوى فى العربية بعض القصص مثل كتاب : "كليلة ودمنة" لأبان بن عبد الحميد بن لاحق، و "الصادح والباغم" للشرىف بن الهبارية المتنوى فى أوائل القرن السادس الهجرى، وفى التاريخ أرجوزة ابن عبد ربه (٢٤٦-٢٢٧ هـ) فى غزوات عبد الرحمن الناصر، وفى العلوم كالألفية فى النحو.^(١)

وقد مهد هذا النوع من الشعر السبيل أمام شعراء الفرس كى يتناولوا الموضوعات الطويلة وخاصة الموضوعات القصصية والتعليمية والملاحظ أن المتنوى العربى اقتصر فى وزنه على بحر واحد هو الرجز المسدس، بينما تفنن المتنوى الفارسى فى استعمال بحور متعددة تجمعها صفة واحدة هى خفة الوزن وسهولته.

نموذج لتأثير الثقافة العربية والإسلامية فى الشعر الفارسى الإسلامى :

الشاعر منوچهرى الدامغانى :

هو أبو النجم أحمد بن قوص بن أحمد منوچهرى الدامغانى، الذى يعد من كبار شعراء اللغة الفارسية، وهو صاحب قريحة فذة وأسلوب جميل، جعله محط أنظار الملوك والأمراء فى عصره وحياته، وموضع دراسة ويحث فى عصرنا وبعد مماته، وقد عاش منوچهرى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، وتاريخ مولده مجهول إلا أنه توفى فى شبابه سنة ٤٣٢ هـ، وقد أخذ اسمه من فلك المعالى منوچهر بن شمس المعالى قابوس بن وشمگیر بن زیار الديلمى (٤٠٣ - ٤٢٣ هـ) الذى كان يحكم فى جرجان وطبرستان، وعاش فى بلاطه حتى وفاة هذا الأمير. وبعد أن توفى فلك المعالى انتقل شاعرنا من مازندران أو غيرها إلى الرى، وهناك مدح على بن عمران وطاهر الكاتب عميد العراق، ثم اتجه بعد ذلك إلى بلاط السلطان مسعود تلبية

(١) انظر كتاب "حافظ الشيرازى شاعر الغزل والغناء فى إيران" د. إبراهيم الشواربى، مصر ١٩٤٤م ص ٢٦٧.

لرغبة الأخير، وعلى أمل أن ينال مساعدة وزير مثل أحمد بن عبد الصمد الذي كان من أكفأ الرجال والكتاب المشهورين في بلاط مسعود، كما أنه كان أديباً محباً للشعر وراعياً لأهله.

ويعتبر منوچهرى الدامغانى من النماذج الفريدة التى يتجلى فى شعرها بوضوح الأثر العربى والإسلامى ومدى تأثر الشعر الفارسى بالشعر العربى وأفكاره وصوره، ولايستطيع أحد أن ينكر ذلك التأثير فى شعره، ففى كل قصيدة له فكرة أخذها، أو قافية ووزن استعارهما، أو معانى وألفاظ اقتبسها من الأشعار العربية، كما تتناثر هنا وهناك فى ديوانه أسماء الشعراء العرب بكثرة حتى غدت بعض قصائده فهرساً لأسمائهم، بل إن الطيور التى يتحدث عنها منوچهرى لاتغنى ولاترنم إلا بالأشعار العربية.

كل هذا التأثير لا يعد عيباً من العيوب، وإنما هو خبرة ودراية واسعة بالأشعار العربية، جعلته يضعها نصب عينيه كنماذج جيدة يحتذىها، لأنه يفضلها على غيرها، ويتمنى أن يصل إلى مكانة العرب فى قول الشعر، فنجدته يقول مثلاً (قصيدة ٢٨) : (١).

- فليهبني الله وأنا أنظم الشعر فى مدحك ،

قلب بشار وطبع ابن مقبل .

ولابد أن نتساءل هنا: لماذا اتجه منوچهرى إلى الاقتباس الكثير من العربية وأدائها أكثر من زملائه المعاصرين له على الأقل؟ ويعلل ذلك بسببين رئيسيين: أحدهما أن منوچهرى كانت لديه معرفة عميقة بالشعر العربى ورغبة فى اقتدائه وتقليده، ونجده

(١) دهماد ايزد مراد نظم شعرت دل بشار وطبع ابن مقبل

دائماً يفخر بتفوقه فى هذه الناحية، ويعيب على غيره عدم خبرته ودرايته بالأشعار العربية مما يعد نقصاً فى الشاعر (قصيدة ٣٤):^(١)

- إننى أحفظ كثيراً من دواوين أشعار العرب،

وأنت لاتستطيع قراءة: ألا هبى بصحنك فاصبحينا.

والسبب الآخر هو أن منوچهرى كان شاعراً شاباً يريد أن يخطو بخطى واسعة وسريعة فى الحياة، ويتقدم على غيره من الشعراء الكبار الذين كان لهم نفوذ ومقام كبير فى البلاط الغزنوى آنذاك، فسلك سبيل الاقتباس من اللغة العربية وأدبها، واستعمل المهجور من ألفاظها، فأظهر براعة فائقة مما حقق له ما كان يرجوه ووقف يدافع عن نفسه أمام حاسديه والحاquدين عليه وعلى تقدمه، ومثال ذلك قوله (قصيدة ٣٤):^(٢)

- لقد حسدنى الحساد وأنا وحيد هكذا،

فانصف المظلومين يا عز أمير المؤمنين.

ونلاحظ من النماذج المقتبسة من الأشعار العربية أن منوچهرى تأثر بالمعلقات الجاهلية وخصوصاً معلقة امرئ القيس، كما تأثر بشعر أبى نواس والمتنبى، ويمكن القول أن منوچهرى قد تأثر بتلك المدرسة التى كان يتزعمها ابن المعتز (٢٤٧-٢٩٦ هـ) فى كثرة إيراد التشبيهات والاستعارات وغير ذلك من فنون البديع والبيان فى الشعر.

١) من يسى ديوان شعر تازيان دارم زير

تو ندانى خواند: ألا هبى بصحنك فاصبحين

٢) حاسدان بر من حسد کردند ومن فردم چنين

داد مظلومان بده اى عز مير المؤمنين

وقد يعيب البعض على منوچهرى استعماله للكلمات العربية المهجورة، ولكن هذا العيب يتلاشى ويتضاءل أمام تشبيهاته وصوره البيانية الرائعة، وإنما كان ذلك لبيان قدرته وتمكنه من اللغة العربية قديمها وحديثها.

وقد كانت الطريقة المتبعة فى إنشاء قصائد المديح لدى شعراء الفرس هى أن تبدأ بوصف الطبيعة أو أحد فصول السنة، ثم يخرج الشاعر من هذا إلى مدح الممدوح، ولكننا نرى البعض الآخر ممن تأثروا بالقصائد العربية - وخاصة الجاهلية منها ومنهم منوچهرى - يحاولون تقليد العرب فى الوقوف على الأطلال والبكاء عليها، وذكر المحبوبة وفراقه لها، ثم ينتقل إلى وصف الصحراء والناقة، ثم ينتهى بعد ذلك إلى مدح الممدوح، ويتضح هذا فى قصيدة منوچهرى (رقم ٢٨) التى يقول فى مطلعها: (١)

- ألا يأيها الحيام أنزل خيمتك، فقد تقدم دليل القافلة وخرج من المنزل.

ويتضح فى هذه القصيدة النهج أو النمط العربى الذى أخذ منوچهرى يقلده بدقة، فتبدأ قصيدته بوصف رحيله وفراقه لمحبيته مما يؤثر فيها ويحزنها، ويستمر فى رحلته على نجيبه ويصفه بأنه كالشيطان أو العفريت الهائل، ثم يصف الصحراء وقسوتها وبرودتها، ويواصل سيره حتى يصل إلى مكان ممدوحه، فيأخذ فى مدحه ووصف محاسنه، ويشبه وصوله إلى ممدوحه بوصول الشاعر العربى أعشى باهلة إلى ممدوحه، ويدعو الله فى نهاية القصيدة بأن يهبه طبع بشار وابن مقبل فى نظم الشعر حتى يوفق فى مدح ممدوحه.

(١) ألا ياخي مگى خيمه فروهل كه پيشا هنگ بيرون شد ز منزل

بعض الأفكار المقتبسة من الشعر العربي في ديوانه :

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن المعاني والأفكار والصور التي اقتبسها منوچهری من الشعر العربي، ونضرب لذلك عدة أمثلة هي بالطبع وليدة اطلاعه على الشعر العربي بقسميه الجاهلي والإسلامي، وليست مجرد توارد أفكار عند شاعرين مختلفين في اللغة والتعبير.

(أ) يقول في قصيدة له (٢٨):^(١)

- لقد صدق حكماء الزمان إذ قالوا :

إن العاقل يتحول إلى جاهل في العشق

ويقول المتنبي في مدح سيف الدولة:^(٢)

إلام طماعية العاذل ولا رأى في الحب للعاقل

(ب) يقول في قصيدة له (٧٢):^(٣)

- طرته ليلتان وخلاه مسكيان ،

وكلهم ظلام في ظلام في ظلام.

(١) حكيمان زمانه راست گفتند كه جاهل گردد اندر عشق عاقل

(٢) انظر ديوان المتنبي - تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام - القاهرة ١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ م. ص ٢٥٨.

(٣) دو زلفش دو شب و دو خال مشكين ظلام أندر ظلام أندر ظلامــــــــــــــــست

وهناك بيت من الشعر لشاعر عربي ورد في كتاب " حدائق السحر في دقائق الشعر " لرشيد الدين الوطواط يقول فيه: (١)

فأحوالي وصدغك والليالي ظلام في ظلام في ظلام

وقال الشاعر محمود بن مسعود الأندخودي: (٢)

لطرته وخالاه وحالي ليال في ليال في ليال
ومنطقه ومبسمه ودمعي لآل فسي لآل فسي لآل

(ج) يقول في قصيدة له (٢٨): (٣)

- وصلت إلى جانب القافلة تماماً،

كما تصل السفينة إلى جوار الساحل .

ويشبه أبو نواس القافلة بالسفينة في قوله: (٤)

خف من المربد القطين وأقلقتهم نوى شطون
فاستفرغوا مشية المصلي كأن أظعمانهم سفين

(١) حدائق السحر في دقائق الشعر - رشيد الدين الوطواط - ترجمة إبراهيم أمين الشواربي القاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م ص ١٧٨ .

(٢) لباب الألباب - محمد عوفى - لندن ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م - ج ١ ص ٢٠٨ .

(٣) رسيدم من فراز كاروان تنگ چو كشتى كو رسد نرديك ساحل

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٥٦ - مصر ١٨٩٨ م .

(د) يقول في قصيدة له (٥٤): (١)

- العظماء كقلادة من الخرز،

وأنت كالياقوتة في وسط هذا الخرز،

ويقول أبو نواس: (٢)

وإذا بنو العباس عد حصاهم فمحمد ياقوتها المستخلص

(هـ) ويقول في قصيدة له (٢٢) يصف الحصان: (٣)

- هو كحجر أسقطه السيل من فوق جبل،

فأخذ يتدحرج من ناحية إلى أخرى ومن أعلى إلى أسفل.

وهذه الصورة تذكرنا بقول امرئ القيس في معلقته: (٤)

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل.

(١) بزرگواران همچون قلاده، خرزند تو همچو یاقوت در میانه، خرزی

(٢) دیوان ابی نواس ص ٤٢٢.

(٣) همچنان سنگی که سیل آنرا بگرداند زکوه گاه زانسو گاه زین سو گاه فراز و گاه باز

(٤) شرح القصائد العشر - للإمام الخطيب التبريزي - طبعة صبيح ص ٤٠.

(و) ويقول فى قصيدة أخرى(٣): (١)

- وفى الصباح الباكر يرى فى الهواء قوس قزح ، كأنه لباس ملكى .
- وعلى جسده خمس قطع من الديباج الملون وقد برز ذيل كل قطعة منها .
وهذا يشبه قول الأمير سيف الدولة فى وصف قوس قزح: (٢)

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا	على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفر	على أحمر فى أخضر تحت مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل	مصبغة والبعض أقصر من بعض

ويقول أبو نواس أيضا: (٣)

يباكرنا النوروز فى غلس الدجى	بنور على الأغصان كالأنجم الزهر
يلوح كأعلام المطارف وشيه	من الصفر فوق البيض والخضر والحر

(ز) ويقول فى قصيدة له(٥): (٤)

(١) يا مدادان بر هوا قوس قزح	بر مثال دا من شاهنشاهی
پنج ديبای ملون بر تنش	باز جستته دامن هر ديباهی

(٢) انظر لباب الالباب ج ١ ص ٢٧ .

(٣) ديوان أبى نواس ص ٢٢٢ .

(٤) جرعه بر خاك همی ریزم از جام شراب	جرعه بر خاك همی ریزند مردان اديب
ناجوانمردی بسيار بود چون نبود	خاك را از قدح مرد جوا نمرد نصيب

- نريق جرعة من كأس الشراب على الأرض،

فمن رسوم أهل الأدب أن يريقوا جرعة على الأرض دوماً،

- فيا الشدة البخل حين لا يكون للأرض نصيبها من قدح الكريم.

وهذا المعنى يذكرنا بقول بديع الزمان الهمذاني: (١)

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة وللأرض من كأس الكرام نصيب

ومن مظاهر التأثير العربي في شعر منوچهری أنه أخذ ينظم بعض قصائده على وزن وقافية بعض القصائد العربية، ويذكر في نهايتها بعض الأبيات العربية التي تشير إلى القصيدة التي نظم على وزنها؛ بل إنه أحياناً يذكر اسم الشاعر العربي نفسه. ويشير في بعض قصائده إلى بعض القصائد العربية المشهورة.

بعض المعانى المأخوذة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة:

(أ) يقول الشاعر

- لديك نعم كثيرة وشكرك عليها أكثر،

فكل من يشكر النعمة تزداد نعمه.

وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (سورة إبراهيم - آية ٧).

(١) أمثال وحكم - على أكبر وهخدا - طهران ١٣١٠، ص ٢١٨.

(ب) وبقول فى قصيدة له (٤٣):^(١)

-- ويوم غضبك لساعة واحدة يشبه ذلك اليوم الذى تطوى فيه السماء كطى
السجل.

وذلك إشارة إلى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا
أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء - آية ١٠٤).

(ج) يقول فى قصيدة له (١١):^(٢)

-- إن ما أمرت به قد تم وما لم يعمل سيعمل ، وما يجب أن يكون قد كان ، جف
القلم.

إشارة إلى الحديث الشريف: "جف القلم بما هو كائن إلى يوم الدين"^(٣)

(د) يقول فى قصيدة له (٧):^(٤)

- هو أفضل من كل خلق الدنيا بشيئين صغيرين ،

نعم هو أفضل بأصغريه : قلبه ولسانه .

إشارة إلى الحديث الشريف: " المرء بأصغريه قلبه ولسانه " .

(١) مانند بساعتی زیکی روز خشم تو آنروز کاسمان بنوردند همچو طی

(٢) رفته وفرمودنی مانده وفر سودنی بود همی بودنی کلك فرو ایستاد

(٣) انظر تعليقات دبیر سیاقی على دیوان منوچهری ص ٢٤٢- تهران ١٣٢٦ .

(٤) مهتر ز همه خلق جهان او بدو کوچك میتر بدو كو چك بدلت ویز بانست

٢ - النشر

كانت اللغة الشائعة في عصر الساسانيين هي اللغة الفارسية الوسطى، والتي يطلق عليها أيضاً الپهلوية أو الپهلوية الساسانية. وقد ظلت هذه اللغة تستعمل كلفة دينية وعلمية وأدبية لفترة بعد انتشار الإسلام في إيران لدى كل من ظل على دين أجداده من الإيرانيين، وباستعمال اللغة العربية أخذت هذه اللغة تضعف وتتوارى تدريجياً، وأخذت اللغة الفارسية الإسلامية - التي تكتب بحروف عربية - تشق طريقها وتفرض نفسها على الساحة الأدبية، وبهذا يبدأ عهد جديد في الأدب الفارسي.

ولاشك أنه كانت للإيرانيين كتابات ومؤلفات منذ عهد زرادشت، ومنذ كتابة النقوش الهخامنشية وخاصة نقوش بيستون في عهد داريوش وما تلاه، وظهرت بعد ذلك مؤلفات كثيرة كتبت بالفارسية الإسلامية في القرون الأولى للإسلام، وقد فقد بعضها ولم يصل إلينا.

غير أن البداية الحقيقية للنثر الفارسي الإسلامي هي التي تبدأ في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) عندما حكمت الأسرة السامانية أجزاء كبيرة من المناطق الشرقية لإيران وحتى منطقة الري. وقد أخذت هذه الأسرة على عاتقها إحياء اللغة الفارسية وأدبها، وشجعت الكتاب على تأليف الكتب بالنثر الفارسي الحديث. ووصلت إلينا مجموعة من المؤلفات التي تمتد على مدى قرن ونصف من الزمان، كما ضاعت مجموعة أخرى نتيجة عدم احتياج الناس إليها أحياناً أو نتيجة الغزوات والحروب والاضطرابات أحياناً أخرى.

ويمكن القول بأن العناية التي أولاهما الحكام والأمراء للشعر والشعراء هي نفسها التي وجهوها للنثر وكتابه، وخاصة بالنسبة للمؤرخين ومؤلفي الكتب العلمية، وكانوا يغدقون الأموال والعطايا في سبيل تأليف الكتب أو ترجمتها. وتعتبر قصة جمع شاهنامه أبي منصورى بأمر من أبي منصور محمد بن عبد الرزاق والمتاعب التي تحملها هو ووزيره في هذا الصدد خير دليل على ذلك.

وكذلك تشجيع الأمير نصر بن أحمد على ترجمة كلية ودمنة إلى الفارسية، وتشجيع الأمير منصور بن نوح على ترجمة تفسير وتاريخ الطبرى، وتشجيع علاء الدولة كاكويه على كتابة دانشنامه بالفارسية، وترجمة رسالة حي بن يقظان من العربية إلى الفارسية، وأمثال ذلك.

والمعروف أنه خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين تم وضع الأسس والمعايير التي يقوم عليها بناء النثر الفارسي، وكتبت عدة مؤلفات في موضوعات مختلفة منها الموضوعات العلمية كالطب والصيدلة والفلك والرياضيات وغير ذلك، مما مهد السبيل أمام الكتاب في العصور التالية. ويتميز النثر في هذه الفترة بالسهولة والسلاسة والخلو من التعقيد والإبهام. كما بدأ تأثير اللغة العربية يظهر بوضوح في تلك الفترة، إلا أن الكتاب - وخاصة ممن ألفوا في الموضوعات العلمية - حاولوا وضع مصطلحات فارسية في مقابل المصطلحات العلمية العربية، ومع هذا تظهر الألفاظ العربية بكثرة في المتن الفارسي التي ترجمت عن العربية كما هو الحال في ترجمة تاريخ الطبرى وتفسيره. ونلاحظ أن استعمال الألفاظ العربية في الشعر الفارسي كان أكثر من استعمالها في النثر الفارسي، وهذا أمر طبيعي حيث إن الشاعر يتعامل في الشعر مع الوزن والقافية، فتكون حاجته إلى الألفاظ العربية أكبر.

وهناك مجموعة من المؤلفات الفارسية كتبت في أوائل القرن الرابع ولم تصل إلى أيدينا، منها كتاب في تفسير القرآن كتبه بالفارسية أبو علي الجبائي في القرن الثالث، وكتاب "المعالجة البقرائية" لأحمد بن محمد الطبرى، وبعض كتب الشاهنامات كشاهنامه أبي المؤيد البلخي، وشاهنامه أبي منصور محمد بن عبد الرزاق.

أما المؤلفات النثرية الباقية من القرنين الرابع والخامس فهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال :

(أ) رسالة فى أحكام الفقه الحنفى: ألفها أبو القاسم بن محمد السمرقندى (متوفى ٢٤٣هـ).

(ب) عجائب البلدان: وينسب إلى أبى المؤيد البلخى، ويتناول فيه مؤلفه عجائب البر والبحر، ويقال إنه ألفه لأبى القاسم نوح بن منصور الذى تولى السلطة عام ٣٦٥هـ.

(ج) تاريخ البلعمى: وهو ترجمة كتاب تاريخ الطبرى، إلا أن مؤلفه قد حذف وأضاف إليه لذلك ينسب إليه، وقد بدأ البلعمى وزير الأمير منصور بن نوح السامانى القيام بهذا العمل بأمر من ذلك الحاكم سنة ٣٥٢هـ.

(د) ترجمة تفسير الطبرى: وهذا الكتاب ترجمة لكتاب " جامع البيان فى تفسير القرآن " لمحمد بن جرير الطبرى.

(هـ) كتاب البارغ: وهو مدخل من أحكام النجوم من تأليف أبى نصر حسن بن على المنجم القمى، ألف حوالى سنة ٣٦٧هـ.

(و) حدود العالم من المشرق إلى المغرب: ألف سنة ٣٧٢هـ فى وصف الأرض وأقسامها ونواحيها، والأقوام المختلفة وأحوالهم، ومؤلفه مجهول.

(ز) التفهيم لأوائل صناعة التنجيم: لأبى الريحان البيرونى، وقد ألفه بالفارسية عام ٤٢٠هـ، ثم نقله بنفسه بعد ذلك إلى العربية، والكتاب فى علم النجوم والهندسة والحساب.

(ح) زين الأخبار : وهو كتاب فى التاريخ كتبه أبو سعيد عبد الحى بن الضحاک ابن محمود الكردىزى المعاصر للغزنويين، ويشتمل كتابه على الأحداث التاريخية منذ بدء الخليقة حتى نهاية عصر مودود بن مسعود الغزنوى (٤٣٢ - ٤٤٠هـ)^(١).

(١) انظر ترجمة " زين الأخبار " الدكتور عفاف السيد زيدان ص ٧٩ ومابعدها ج ١ الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م القاهرة.

نص مترجم من كتاب "زين الأخبار" :

الباب السابع

فى أخبار خلفاء وملوك الإسلام

أبو بكر الصديق

هو أبو بكر عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب تولى الخلافة فى سقيفة بنى ساعدة يوم وفاة الرسول (ﷺ)، وصلى عليه عمر بن الخطاب . وكان اسمه فى الجاهلية "عبد الكعبة"، (وحيثما أسلم أسماه الرسول : (ﷺ) عبد الله.

وفى عهده ارتدت بعض قبائل اليمامة، وامتنعوا عن إخراج الزكاة، فحاربهم وقتل الكثير منهم حتى أطاعوه وتابوا . وفى سنة إحدى عشرة أرسل عمر بن الخطاب فحج، وفتح اليمامة. وقتل مسيلمة الكذاب والأسود العنسى.

وفى عام اثنى عشر حج، وحيثما وصل إلى المدينة أرسل جيشاً إلى الشام عام ثلاثة عشر، وحيثما مات قفلوا عائدين من الطريق، وأولاده رضى الله عنهم هم : عبد الله، ومحمد، وأسماء، وعائشة.

النص الفارسي:

باب هفتم

اندر اخبار خلفا وملوك اسلام

أبو بكر صديق

أو أبو بكر عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بود، وأن روز که رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمان یافت. او بخلافت بنشست اندر سقيفة بنى ساعدة، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه، بروى نماز کرد، و او را اندر جاهليت عبد الكعب نام بود، وچون مسلمانى آمد، رسول الله صلى الله عليه وسلم او را عبد الله نام کرد و به أيام او اندر أهل یمامة أهل ردت مرتد شدند، ازجهت دادن زکوة ابا کردند، و او جهاد کرد، و مردم بسیار از ایشان بکشت، تا بطاعت آمدند و توبه کردند، وعمر بن الخطاب را اندر سنه احدى عشر بفرستاد تا حج کرد و یمامة را او بگشاد، و مسيلمة الكذاب =

عمر بن الخطاب

وهو أبو حفص، عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزيز بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهو الذي جهز بإسلامه على باب الكعبة، وفرق بين الحق والباطل، ولهذا لقبوه بالفاروق، وتمت في خلافته كثير من الفتوحات للمسلمين، فقد فتحت مدن كثيرة مثل بيت المقدس ودمشق صلحا على يد خالد بن الوليد، وفتحت ميسان واليرموك والأهواز على يد أبي موسى الأشعري، وفتحت نهاوند على يد النعمان بن مقرن.

وفي خلافته كانت موقعة القادسية، فقد واجه جيش خالد بن الوليد جيش العجم، والتحم الجيشان في صحراء القادسية، وهزمت جيوش العجم، وفر ملكهم يزيد جرد بن شهریار، فتقدم خالد بن الوليد وفتح العراق، وحمل خزائن ملوك العجم وكنوزهم التي كانوا قد اكتنوزوها منذ أربعة آلاف سنة، وأرسل إلى المدينة نصيب عمر.

= را وأسود العنسی راو کشت، واندو سنه اثنی عشر حج بکرد، وچون بمدينه رسيد، لشکر بشام فرستاد، اندر سنه ثلث عشر، وچون او بمرز ایشان از راه باز گشتند. وفرزندان او بن عبد ورضی الله عنه : عبد الله ومحمد وأسماء وعایشه بودند.

عمر بن الخطاب

أو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزيز بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بود، وندای حق بر كعبه او آشکار کرد، و فرق کرد میان حق وباطل، بدین سبب او را «فاروق» لقب کردند، و اندر خلافت او افتحهای بسیار مر مسلما نانرا بر آمد، و جایها، بسیار گشاده شد و چون بیت المقدس و دمشق گشاده شد. بردست خالد بن الوليد بصلح، و ميسان و یرموک و اهواز شهرها گشاده شد بردست أبو موسى الأشعري. و نهاوند گشاده شد بر دست نعمان بن مقرن. و حرب قادسیه بروزگار او بود که خالد بن الوليد بیامد و لشکر او پیش عجم آمد و بدشت قادسیه بر او یختند و سپاه عجم هزیمت شدند، و یزدجرد بن شهریار که ملک عجم بود بگریخت، و خالد بن الوليد بیامد و عراق را فتح کرد، و گنجهای ملوک عجم را که از چهار هزار سال باز نهاده بودند، همه برداشت، و آنچه نصیب عمر آمد به مدينه فرستاد، و فتح عراق اندر سنه ثمان عشر بود، و فرزندان او عبد الله و حفصه و عبد الله و عاصم و قاطمه و أبو شحمة عبد الرحمن بودند، و او را بو لؤلؤه غلام مغیره کشت.

وكان فتح العراق عام ثمانية عشرة، وأبناؤه هم: عبد الله، وحفصة، وعاصم، وفاطمة، وأبو شحمة عبد الرحمن، وقد قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة.

عثمان بن عفان

هو أبو عمرو عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، كنى أيضا بأبي عبد الله، وتزوج ببنتي رسول الله (ﷺ)، وكان معطاء عظيم الجود والإنعام، وحينما تولى الخلافة أرسل بأول جيش إلى الري بقيادة أبي موسى الأشعري، وفتحها، ثم فتح الإسكندرية، فشابور، ثم إفريقية، ثم قبرس من سواحل بحر الروم، ثم مرو على يد عبد الله بن عامر بن كريز، وأبناؤه هم: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، وعمر، وأبان، وخالد، وعمر، وسعيد، والوليد، وأم سعيد، والمغيرة، وعبد الملك، وأم أبان، وأم عمر، وعائشة.

وكان يمكث في بيته حينما قصده الغوغاء، وحاصروا المنزل عليه، ثم اقتحموه وقتلوه رضي الله عنه، وهو يضع أمامه المصحف يتلوه، وتخضب ذلك المصحف بدمائه،

عثمان بن عفان

أبو عمرو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد الشمس بن قصي بن كلاب بن مرة بود، وكنت أو أبو عبد الله نيز بود، واو به دو دختر مر رسول را صلى الله عليه وسلم داماد بود وسخت منم بود، وچون بخلافت بنشست نخستین سپاه بری ستاد بأبو موسى الأشعري وأنرا بگشادند.

پس اسکندریه بگشاد، پس افريقية، پس قیرس از سواحل دریاه روم، پس مرو کشاده شد بر دست عبد الله ابن عامر بن کریز وفرزندان او عبد الله الأكبر بود وعبد الله الأصغر وعمر وأبان وخالد وعمرو وسعيد وولید وأم سعي ومغیره وعبد الملك وأم أبان وأم عمر عایشه بودند. وأو اندر خانه خویش نشست بود، که غوغا بیامدند وقصد او کردند وخانه بر وی حصار کردند. پس غوغا اندرو افتاد وأو را بکشتند، وأو جامع قرآن پیش نهاده بود وقرآن همخواند واو بکشت. آن جامع از خون او بیالود وتا بدین غایت هم چنان مانده است. وقرآن او جمع کرد، وترتیب نهاد. ومال غنایم بیت المال آوردن او بنهاد ولشکر را بیستگانی کرد، ودخل بیت المال را اندر خزینه نهاد.

وهو باق هكذا حتى الآن، وهو الذى جمع القرآن ورتبه، كما أودع الغنائم بيت المال، ورتب الرواتب العشرينية للجيش، وأودع دخل بيت المال فى الخزائن.

على بن أبى طالب كرم الله وجهه

وهو أبو الحسن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم رسول الله (ﷺ)، لقبه حيدر الكرار، وهو أول من آمن بالرسول (ﷺ) ودخل فى الإسلام.

وكان المدافع عن الإسلام، الضارب بسيف الدين، ويقولون: إنه لم يضرب كائناً حياً أكثر من ضربة واحدة إلا وقتله فى الضربة الأولى. وأبناؤه هم: الحسن، والحسين، ومحسن، وأم كلثوم الكبرى، وزينب الكبرى، وهؤلاء جميعاً من فاطمة بنت

على بن أبى طالب كرم الله وجهه، رضى الله عنه

أبو الحسن على بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بود، پسر عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولقب أو حيدر الكرار بود، ونخستين كسى كه بر پیغمبر (ص) بگروید واندو مسلمانى امد او بود، ومبارز اسلام وشمشیر دین بزد، وچنین گویند كه: هزگز هیچ جانورى را بیش از يك زخم نزده بود إلا یزخم نخستین كشت.

وفرزندان او حسن وحسين ومحسن وأم كلثوم الأكبر وزینب الأكبر این همه از فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بودند ومحمد وعبيد الله وأبا بكر وعمر ورقية وریحی وجعفر وعباس وعبد الله ورملة وأم الحسن وأم كلثوم الأصغر وجمانه وميمونه وخديجة وفاطمة وأم الكرام ونفيسة وأم سلمة وأمامه وأم أبيها از زنان دیگر بوده.

وحرپ جمل اوکرد اندر سنه ست وثلاثين، وحرپ صفین او کرد اندر سبع وثلاثين با معاویه وشامیان ومعاویه باوى بسیار حيلتها کردند وذرع کردند وعمر بن العاص تدبيرها کرد از بهر معاویه، ومعاویه باشاره او تلبیس ها کرد، تا ملك بگرفتند، وپیغمبر ما صلى الله عليه وآله وسلم، او را بستود وكفت: "إن ابنى هذين سيدا أهل الجنة وأبوهما خير منهما". يعنى الحسن والحسين وأبوهما على خير منهما. وبسیار خير آمده است اندر فضل او، وأیت آمده است اندر شان او رضى الله عنه.

آخر كتشه وشهادت یافت بردست عبد الرحمن بن ملجم المرادى.

(زين الاخبار - أبو سعيد الكرديزى - ص ۵۲، ۵۴، ۵۵ - تهران ۱۳۴۷).

رسول الله (ﷺ). ومن نسائه الأخريات: محمد، وعبيد الله، وأبو بكر، وعمر، ورقية، ويحيى، وجعفر، وعباس، وعبد الله، ورملة، وأم الحسن، وأم كلثوم الصغرى، وجمانه، وميمونة، وخديجة، وفاطمة، وأم الكرام، ونفيسة، وأم سلمة، وأم أبيها.

حارب فى موقعة الجمل عام ست وثلاثين، وحارب معاوية فى موقعة صفين سنة سبع وثلاثين.

وصرف معاوية وأهل الشام كل جهودهم فى الحيلة والخداع، كما كان عمرو بن العاص يدبر لمعاوية، وقد فعل معاوية بمشورته حتى استولى على الملك، وقد امتدحه رسولنا محمد (ﷺ) فقال: "إن ابني هذين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما"، يعنى الحسن والحسين، وأبوهما على خير منهما. وقد رويت أخبار كثيرة عن فضائله، ونزلت آية فى شأنه رضى الله عنه، وأخيراً قتل واستشهد على يد عبد الرحمن بن ملجم المرادى.

* * *

نموذج مترجم من كتاب تاريخ الطبرى وهو الترجمة الفارسية للكتاب العربى (تاريخ الرسل والملوك) تأليف الإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى الذى عاش فى القرنين الثالث والرابع والهجريين والمتوفى سنة ٢١٠ هـ، ويعرف هذا الكتاب عند الإيرانيين أحياناً باسم تاريخ البلعمى نسبة إلى مترجمه كما ذكرنا.^(١)

"فتح مدن فارس: ما أن هل العام الثالث والعشرون من الهجرة حتى نما إلى علمه فى بداية هذا العام أن شهرک ملك فارس قد جمع جيشاً جراراً وتمركز فى

(١) انظر كتاب: من روائع الأدب الفارسی - دکتر بدیع محمد جمعه - بیروت ۱۹۸۰ م - ص ۲۴-۲۷.

النص الفارسی:

فتح شهرهای فارسی

چون سال بیست و سیم از هجرت شد، در اول سال اُورا خبر آمد، که شهرک ملک فارسی سپاه بسیار جمع کرده است بتوج، وتوج بفارسی توز است، وأن جامه توزی از آنجا آوردند، وأن بکرانه پادسی است، بجانب امواز و سپاه امواز وعجم وعجم همه جمع شدند. عمر چون سپاه را بفارستاد، کسی را سپهسالار نکرد، ولیکن هر سرهنگی را بر شهری امیر کرد وگفت: سپاه فارسی بیک جای گرد آمدند، وبتبیر حرب میکنند، وشما چون=

منطقة توج، تلك التي تعرف في الفارسية باسم توز وإليها تنسب الأردية التوزية، وتوج هذه تقع على مشارف فارس وعلى مقربة من الأهواز، كما تجمع جيش الأهواز وجيش العجم كله. وعندما بعث عمر بالجيش الإسلامي لم يعين له قائداً عاماً، ولكنه أمر على كل مدينة أحد القواد، وقال : لقد تجمع جيش فارس في بقعة واحدة، وهم يستعدون للحرب، فإذا ما صرتم إلى فارس، فلا تتقدموا إلى حيث يتواجدون، حتى يقل التدبير والاستعداد من عزائمهم. وبعد ذلك فليحاربهم كل منكم في البلدة التي يعين عليها. ثم عهد بمدينة توج إلى مجاشع بن الثقفي، وأعطى أمر شابور واصطخر إلى عثمان بن أبي العاص، وأقطع أمر شيراز إلى أخيه الحكم بن العاص، وعهد إلى سارية الربلي بأمر پسا ودار جرد وأخيراً توجه هؤلاء القواد بجيوشهم، أما عن جيوش فارس السابق تجمعها بقيادة شهرک بمدينة توج، فقد دبت الفرقة بين صفوفهم وانفطرت عقد تدبيرهم، فكان هذا الأمر مساوياً للهزيمة، وهنا تقدم مجاشع الموكل إليه أمر توج وپشاور صوب شیراز، وكانت بعض الجيوش مازالت متواجدة بمدينة توج، فتمكن مجاشع وجيشه من التقدم والانتشار والتغلب على تلك الجيوش، وغنموا أموال تلك الديار ومجاشع هذا أخو أبي عبيدة بن مسعود الذي مات يوم موقعة الجسر تحت أقدام الفيل الأبيض، كما أنه والد مختار الثقفي، وقد تمكن من فتح مدن فارس واصطخر وتوج.

= بفارس شويد، آنجا که ایشانند، مروید. تا ایشان را تدبیر شکسته شود. پس هر کسی با آن سپاه وی که بشهری آیند، حرب کنند. وشهر توج را بمجاشع ابن الثقفی داد وشاپور واصطخر را بعثمان ابن أبو العاصی داد وشیراز را به حکم بن العاص برادر او وپسا ودار کرد را بساریه ابن وهم الربلی داد. امیران که گفته آمد با سپاه برفتند بشهرک با همه سپاه فارسی بتوج جمع شده بودند پراکنده شدند، وتدبیر های ایشان بشکست، واین کار برابر بهزیمتی بود. مجاشع حاکم توج وپشاور بشیراز آمدند، وجمعی سپاه در توج مانده بود. مجاشع با سپاه خویش تاختر برد، وأن سپاه را بکشت، وأموال آن دیار غنیمت نمود. ومجاشع برادر بو عبيدة بن مسعود بود، که حرب وقعت الجسر بود، در زیر پای فیل سفید کشته شد. و او پدر مختار بود، وأن شهوهای فارسی، اصطخر وتوج گشاده بود...

وبعد أن فتح مجاشع توج، وزع أموالها على المسلمين، كما أرسل خمس الغنائم إلى خليفة الزمان مصحوباً بكتاب الفتح. أما عثمان بن أبي العاص فقد تقدم بجيوشه صوب اصطخر، فسارع اصطخر - وهو من سميت المدينة باسمه، ويعرف في اللغة العربية باسم جور، وإلى هذه المدينة ينسب ماء الورد الجوري - إلى ملاقاته، فتحارب عثمان مع هذا الجيش وهزمه، ثم تقدم إلى بوابة اصطخر وحاصر المدينة وحارب جيشها وتم له فتحها.

وبعد ذلك أرسل إلى الخليفة ببشارة الفتح وجزء من الغنائم. أما الحكم بن العاص أخو عثمان فقد توجه صوب شيراز حيث أعاد شهرک جمع جيوشه والتمركز هناك، وكان جيشه الكثيف قد تدجج أفراداه بالدروع لدرجة أنه لم يكن يرى من المحارب إلا عيناه فقط، وتجمع مع الحكم جيش كثيف كذلك حيث سارع جميع شيوخ العرب ووجهانهم ومبارزينهم ومنهم عبد الله معمر التميمي وشبل بن معبد البجلي وجارود العهدي وأبو مهلب بن أبي صفرة لملاقاة جيش شهرک.

وعندما أشرقت الشمس، ووجهت أشعتها صوب جيش المسلمين، ألهمت عيونهم وحماسهم، لذا ما إن جاءت لحظة الحرب حتى ألحقوا الهزيمة بجيوش شهرک وقتلوا الكثيرين منهم، كما قتل الحكم بيديه كلاً من شهرک وابنه. ويقال إن أحد الأعاجم ويدعى إردانيان كان منضمًا إلى شهرک، ولكنه وجنده آثروا السلامة. وهكذا هزم

= پس مجاشع توج را بگشاد، وأموال آن بر مسلمانان قسمت نمود، وضمن آنانرا بخليفة زمان فرستاد با فتح نامه، وعثمان بن أبو العاص باسپاه خویش باصطخر شد. وسپاه اصطخر پیش وی آمد، شهری نام وی کرد، ویتازی جور خوانند، واین ان شهریست کله گلاب جوری از آنجا آورند. عثمان با ایشان حرب کرد، وایشانرا هزیمت نمود، ویدر اصطخر آمد، وشهر بحصار گرفت، وبا ایشان حرب کرد، وشهر بگشاد، وخبر فتح با شنیمت بخلیفه فرستاد، وحکم بن العاص برادر عثمان روی بشیراز نهاد. شهرک با سپاه بسیار از توج پیش باز او آمد، همه سلاح، چنانکه جز چشمشان هیچ جا برهنه نبود، وباحکم نیز سپاه بسیار بود پیران ووجه عرب مهتران ومبارزان پیش آمدن، چون عبد الله معمر التميمی وشبل بن معبد البجلي وجارود وأبى مهلب أبو صفرة با سپاه شهرک برابر شدند.

شهرک و غنم الحکم (بن العاص) مغانم وفيرة قسمها بين المسلمين، ثم أرسل إلى عمر بن الخطاب أخبار الفتح والغنائم، أما سارية فقد توجه صوب پسا وداراجرد وقام بمحاصرتهم وظل المسلمون محاصرين لهما ثلاثة أشهر، حتى طلب المحاصرون المدد والعون من نويهم من العجم، فجاءتهم جماعات عديدة من الأطراف المجاورة، وهنا خرج المحاصرون لكي ينضموا إلى صفوف الأعاجم الوافدين وليحاربوا المسلمين، ولذا تمكنوا من قتل عدد كبير من جيش المسلمين، وكان ذلك يوم الجمعة، يوم الصلاة، ومع ذلك استمرت الحرب، وكان على مقربة من مواقع الجيش الإسلامي جبل عظيم، فحاصر الكفار المسلمين وأعملوا فيهم قتلا حتى ضاق الأمر بالمسلمين، وخافوا الهزيمة، ولكن سارية والمسلمين واصلوا الحرب، حتى سمعوا صوت عمر يقول: يا سارية الجبل. أي يا سارية خذ حذرک من الجبل. فقال سارية للجيش: لقد سمعت صوت عمر، ومازلت أسمع، ولكن كيف يكون صوت عمر وبيننا وبينه مسيرة أيام عديدة. وأخيراً احتمی سارية بالجبل، فوجد وجيشه الأمن والأمان. وفي اليوم التالي واصلوا الحرب ونالوا الظفر.

وبعد ثلاثة أشهر من الحصار سمع عمر بأخبارهم، وشغل قلبه بأمورهم، وكانت الليلة ليلة الجمعة فرأى في منامه أنهم قد واصلوا الحرب، وكلما حاربوا أصابوا غنائم

= چون آفتاب برایشان تافت، روشنی بر لشکر مسلمانان افتاد. چشمها از آن روشنی می سوخت. چون لحظه، حرب نمودند، لشکر شهرک رو بهزیمت نهادند، و مسلمانان کشتن بسیار کردند، حکم بدست خویش شهرک وپسرش را بکشت، مردی از عجم با شهرک بود نام او را اردانیان، او باخیل خویش بزینهار حکم آمد. و سپاه شهرک به هزیمت شدند. حکم غنیمت بسیار یافت، و بر مسلمانان قسمت نمود، و خبر فتح و غنیمت بعمر بن الخطاب فرستاد. و ساریه سوی پسا ودا را جرد شد، ایشان در حصان شدند، و مسلمانان مدت سه ماه بر در حصار ماندند، أهل حصار از عجمان یاری خواستند جمعی از اطراف و جوانب آمدند، و أهل حصار نیز بیرون آمده با یکدیگر ملحق شدند و با مسلمانان جنگ کردند و از لشکر اسلام بسیاری کشته شد، روز آدینه بود، وقت نماز و حرب بر پیاده دشت بود، و بنزدیک لشکر مسلمانان در آمدند و کشتن میکردند و کار بر مسلمانان تنگ شده بود، و بیم هزیمت بود، ساریه و مسلمانان حرب میکردند، آواز عمر شنیدند، چنانکه میگفت: یا ساریه الجبل، الجبل. میگوید: ای ساریه کوه گیر. ساریه لشکر را گفت: من آواز عمر شنیدم و می شنوم. ولیکن آواز عمر نشاید بودن، چرا که میان ما و عمر چند روزه راهست. پس ساریه پشت بکوه داد آتشب آیمن شدند. پس دیگر روز حرب کردند، و ظفر یافتند. =

وفیره، و اخیراً ارسال اخبار فتوحات ساریه إلى عمر رضی الله عنه، ومن بین الاموال التي أرسلت إلى عمر سقط ملء بالجواهر.

وعندما وفد الرسول إلى عمر، كان عمر بالمسجد حيث أقيمت الموائد، إذ كان يوزع الطعام على عدد كبير من الخلق، فقد كان عمر يذبح في كل يوم جملاً من بيت المال، ويخصصه لإطعام الخلق في المسجد، وبخاصة المساكين والفقراء والغرباء وعابري السبيل، فجاء هذا الرسول ووقف أمام عمر، فظنه عمر أحد الغرباء جاء يطلب طعاماً، فقال له: اجلس واطعم شيئاً، ثم شغل هو بتوزيع الطعام على الخلق دون أن يأكل شيئاً، إذ كان يأكل دائماً مع أسرته. وعندما أكل الجمع، توجه عمر صوب داره، فسار ذلك الرسول في أثره. فقال له: هيا، ادخل، فدخل ذلك الرجل، جلس عمر وطلب الطعام، فأنحضرت إليه زوجته أم كلثوم ابنة أمير المؤمنين على كرم الله وجهه، وعاء به خبز من شعير وقدر من الزيت وقليل من الملح الخشن، فقال لها عمر: ألم تطهى شيئاً؟ فقالت: كيف أفكر في الطهي وليس لي رداء أردنيه، فقد كانت أردية أم كلثوم ممزقة.

= بعد از سه ماه که بر در حصار بودند عمر خبر ایشان شنیده بود، دلش مشغول بود: انشب ادينه بخواب چنان دید که: ایشان حرب میکردند، وچون حرب بود مال بسیار یافت. وخبیر فتح ساریه بعمر - رضی الله عنه - فرستاد. ودر میان آن اموال سفطی وو پر از گوهر آنچنان به جنس، آن را بسوی عمر فرستاد چون رسول بیامد، عمر در مسجد بود وخوان نهاده، مردم را نان میداد، وعمر هر روزی از بیت المال شتری بگشتی، ودر مسجد بمردم طعام دادی بتخصیص بدرویشان وفقیران وغریبان وره گذریان. این رسول بیامد ودر پیش عمر بیستاد. عمر پنداشت که او غریب است. ویطلب طعام آمده است. او را گفت: بنشین وچیزی بخور و خود بمردم طعام میداد. اما نمیخورد و طعام با عیال خویش خوردی.

پس چون مردمان طعام بخوردند، بخانه خود رفت. وآن رسول از عقب او میرفت. او را گفت: درآی، آن مرد درون شد. عمر بپشتش، طعام طلب نمود، وزن او أم كلثوم دختر أمير المؤمنين على كرم الله وجهه زن او بود. طشتی نان بپشتش و قدری روغن زیت وآنندك نمك درشت پیش آورد. عمر او را گفت: چون چیزی نخفتی؟ گفت: چون تردد طبخ كنم که مرا جامه نیست که بپوشم، وجامه أم كلثوم دریده بود، عمر با او مزاح کرد که ترا جامه بچه کار آید، ترا همان پس که دختر علی بن ابی طالب باشی وزن عمر. بعد از آن عمر رسول را گفت: بسم الله طعام بخور که اگر أم كلثوم از ما خوشنود بودی، طعام ما بر ترتیب بودی. پس=

فمازحها عمر قائلاً: ما حاجتك للرداء؟ كفاك أنك إبنة علي بن أبي طالب وزوجة عمر. بعد ذلك قال عمر للرسول: بسم الله تناول الطعام، إذا كانت أم كلثوم عنا راضية، لأعدت لنا طعاماً. وبعد أن تناولوا الطعام أدرك الرجل أن عمر لا يعرفه، فقال: يا عمر، أنا رسول سارية جنتك بأخبار الفتح والغنيمة والخمس. فقال عمر: الحمد لله، ثم نظر إليه وسأله عن كل شيء، فأخبره الرجل بكل شيء، ثم وضع السفط أمام الخليفة فقال عمر: أعد هذا إلى سارية، وقل له: وزعه بين المسلمين الذين شاركوا في الحرب، فهو حق لهم، وأخيراً خرج ذلك الرجل من البيت، وتوجه للالتحاق بخدمة سارية.

= 'طعام بخورند، آن مرد دانست که مر او را نمیشناشد. گفت: یا عمر من رسول ساریه ام بخبر فتح وغنیمت وخمس. عمر گفت: الحمد لله وروی بدو نهاد. واز هر جای از وی پرسید او میگفت. پس آن سفط پیش خلیفه نهاد. عمر گفت: این را بنزد ساریه باز بر واورا گوی، این را بر مسلمانان قسمت کن، که با تو در حرب بوده اند که بر ایشان واجب است. پس آن مرد از خانه بیرون آمد ومتوجه خدمت ساریه شد.

الفصل الثانى

الابتهال إلى الله ونعت الرسول صلى الله عليه وسلم
ومناقب الخلفاء الراشدين

أولاً: الابتهاال إلى الله

حفلت جميع المنظومات والكتب النثرية الفارسية، وبخاصة تلك التي ألفت في العصور الذهبية للأدب الفارسي امتداداً من العصر الغزنوي حتى العصر التيموري، على أن يفتتحها مؤلفها بحمد الله والثناء عليه، وتقديم فروض الشكر والعرفان على عظيم نعمه وجميل كرمه، وقد شارك في هذا الأمر جميع من ألفوا ونظموا أيا كان موضوع كتاباتهم ونظمهم، سواء أكانت هذه المؤلفات والمنظومات تدور حول موضوعات الأدب أو التاريخ أو اللغة أو غيرها من الموضوعات التي تحفل بها المكتبة الفارسية الزاخرة بشتى الموضوعات، ولما كانت هذه المشاركة واسعة سعة ألوان الأدب والفكر الفارسي، متعددة بتعدد الشعراء والكتاب فإننا سنحاول أن نقصر حديثنا على تقديم نماذج جيدة من نظم وكتابات كبار الشعراء والأدباء توخياً لعدم الإطالة التي لا يتحملها فصل في كتاب، ولأن هذا الموضوع إذا أردنا أن نوفيه حقه من الدراسة والتحليل فسيحتاج إلى عدة كتب لا إلى كتاب واحد.

وإذا كانت الشاهنامة للفردوسي^(١) أكبر وأهم منظومة فارسية وفيها حرص ناظمها على أن يحكى تاريخ إيران الأسطوري قبل الإسلام، لتكون مجالا لفخر

(١) الفردوسي: ولد أبو القاسم الفردوسي عام ٣١٩ هـ بمدينة طوس، ولما نبغ في النظم ضمه السلطان محمود الغزنوي إلى بلاطه وشجعه على نظم الشاهنامة مقابل مكافأة مجزية، ويقول الإيرانيون أن محمودا الغزنوي لم يف بما وعد وخفض مقدار المكافأة، ولعله فعل ذلك لما وجد أن الشاهنامة قد حفلت بالإشادة بالعنصر الإيراني الأرى في مقابل الإقلال من شأن العنصر التركي الذى ينتسب إليه محمود الغزنوي، والعنصر العربى الذى ينتسب إليه الخليفة العباسى الذى كان محمود الغزنوي يكن له كل احترام وتبجيل.

ويقال إن الفردوسي قد تأثر بذلك الموقف تأثرا شديدا واعتلت صحته وودع الحياة عام ٤١١ هـ أو ٤١٦ هـ ودفن بمسقط رأسه طوس حيث يوجد قبره حتى الآن.

الإيرانيين وبيان مكانتهم بين جيرانهم قبل أن تتشرف إيران بدخول الإسلام إليها. فإن الفردوسى - على الرغم من شعوبيته - لم يكن فى مقدوره أن ينظم منظومته دون مقدمة يبتهل فيها إلى الله عز وجل، وبخاصة أنه كان سيقدمها إلى الفاتح العظيم والقائد الإسلامى الكبير محمود الغزنوى الذى بفضلله دخل الإسلام الهند بعد أن حطم أصنام الشرك والوثنية هناك. ومما جاء فى مقدمة الترجمة العربية للشاهنامة والتي أنجزها البندارى بنوع من التصرف والإيجاز، مايلي:

فاتحة الكتاب: **بسم الله الرحمن الرحيم**

باسم رب الروح والعقل الذى لا مجال للفكر فوق علانه، رب الاسم والمكان المقيت ومرسل الهداة بنعمائه، رب كيوان والفلك الدوار، ومنير الشمس والزهرة والقمر السيار، المتعالى على الأسماء والسمات والأوهام، الخالق فى السماء عوالى الأجرام، لاتدركه الأبصار فلا تجهد عينيك، ولا يحده الاسم والمكان، فماذا يجدى الفكر عليك؟ إن يعد الروح والعقل هذه الجواهر، فكلاهما فى الطريق إليه حائر، وإن تخير الفكر الكلام فقصاراه أن يصف مايراه، لاسبيل إلى الثناء عليه فى حقيقته، وإنما واجبك أن تشمر لعبادته، هو للعقل والروح قائد، فكيف يحيط به الفكر الجاهد؟ لن تدركه برأيك هذا وعدتك، وإن شققت على روحك وعقلك، حسبك أن تقر بوجود الديان، وأن تكف عن الهذيان، وأن تعبدته وتستهديه وتطيع أوامره ونواهيه، من عرف فقد قدر، وبالمعرفة يشب القلب إذا هتر، ليس للكلام وراء هذا الحجاب محال، وسعى الفكر لإدراكه خيال محال^(١).

(١) الفردوسى: الشاهنامة، ترجمة البندارى، الجزء الأول، الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣، ص: ٥، وما هو النص الفارسى المقابل لهذه المقدمة نقلا عن منتخب شاهنامة، باهتمام محمد على فروغى وحبيب يغمائى، ص: ١، طهران ١٣٥٤ هـ. ش. =

و هكذا بدأ الفردوسی منظومته بحمد الله والثناء علیه والاعتراف بجميله، والإقرار بعجز العقل البشرى عن إدراك ذاته. والدعوة إلى الإقرار بربوبيته وإطاعة أوامره ونواهي طاعة العبد المؤمن بربه، الشاكر لأنعمه، المسبح بقدرته، وأن هذا الأمر بعيد عن الجدال والقليل والقال..

بنام خداوند جان و خرد	کزین برتر اندیشه بر نگذرد
خداوند نام و خداوند جای	خداوند روزی ده رهنمـای
خداوند گیهان و گردان سپهر	فرزنده ماه و ناهید و مهر
ز نام و نشان و گمان برترست	نگارنده بر شده گـوهرست
۵- بیندگان آفرینده را	نبینی برنجان دو بینده را
نیابد بدو نیز اندیشه راه	که او برتر از نام و از جا بگاه
سخن هر چه زین گوهران بگذرد	نیابد بدو راه جان و خرد
خرد گر سخن بر گزیند همی	همان را گزیند که بیند همی
ستودن نداند کسی او را جوهرست	میان بندگی را بیایدت بست
۱۰- خرد را و جان را همی سنجد او	در اندیشه سخنه کی گنجد او
بدین آلت و رای و جان و روان	ستود آفرینده را چون توان؟
بهمتیش باید که خست و شوی	ز گفتار بیگاریک سو شوی
پر مستنده باش و جوینده راه	بفرمانها ژرف گردن نگاه
توانا بود هر کس دانای بود	بدانش دل پیـر برنا بود
۱۵- ازین پرده برتر سخن گاه نیست	بهـمتیش اندیشه را راه نیست

وهذا شاعر كبير آخر هو نظامى الكنجوى،^(١) شاعر الفضيلة صاحب مخزن الأسرار وخسرو وشيرين وليلى والمجنون وهفت بيكر وغيرها من المنظومات الرقيقة المستوى فى النظم والفكر، والتى أقبل العديون من الشعراء داخل إيران وخارجها على محاكاتها وتقليدها والنظم على هداها. وقد بدأ منظومته الأولى مخزن الأسرار بأبيات عديدة فى التوحيد والمناجاة، أورد منها على سبيل المثال ترجمة لبعض أبياتها:

فى التوحيد والمناجاة

- بسم الله الرحمن الرحيم

مفتاح باب كنز الحكيم

- اسم الله فاتحة الفكرة وخاتمة الكلام

فلتختم باسمه على الدوام كل كلام

- هو السابق على وجود كل موجود

وهو الباقي بعد فناء كل مخلوق

(١) نظام الكنجوى شاعر من رجال القرن السادس الهجرى، ولد فى عام ٥٢٥ هـ، وتوفى عام ٥٩٩ هـ وكانت ولادته بمدينة كنج، وقد تميز بين شعراء الفارسية عامة بالذكاء النادر والخلق الرفيع، حتى أطلق عليه الكثيرون لقب "شاعر الفضيلة" وشهرته ترجع إلى تفوقه فى ميدان القصص الشعرى، ومازال حتى الآن يحتل المكانة الأولى فى هذا المجال الهام، وله خمسة منظومات شهيرة هى : مخزن الأسرار، خسرو وشيرين، ليلي والمجنون، إسكندر نامه وهفت بيكر إلى جانب ديوانه الشعرى. "لمعرفة المزيد يرجى الرجوع إلى كتاب المرحوم الدكتور/ عبد النعيم حسانين: نظامى الكنجوى، شاعر الفضيلة، عصره وبيئته، وشعره "القاهرة: ١٩٥٤م".

- هو الأول والآخر في الوجود والصفات
وهو مانح الوجود والعدم لكل الكائنات

٥- هو الأول بلا ابتداء

وهو الآخر بلا انتهاء

- كل ما عداه لا بقاء له

وهو المقدس حيث لا فناء له

- يا من جميع الوجود نفحة منك

ويا من استمد التراب الضعيف^(١) القوة منك

- جميع الكائنات محيط بها علمك

ونحن قائمون بفضلك ، أما أنت فقائم بذاتك

- وجودك لا تحده صورة

فلست شبيها بأحد ولا أحد شبيه بك

١٠- أنت من لا يقبل التغيير أو التبديل

ومن لا يلحق به موت أو فناء

- جميعنا إلى فناء ، والباقي أنت وحدك

(١) كناية عن الجسد.

وَأنتَ الجَدِيرُ بِالْمَلِكِ الْعَالِيِ وَالتَّقْدُسِ وَحْدَكَ
 - بِأَمْرِكَ اسْتَقَرَّتْ الْأَرْضُ مَكَانَهَا
 وَبِأَمْرِكَ ارْتَفَعَتِ الْقُبَّةُ الْخَضْرَاءُ بِلا عَمَد^(۱).

* * *

(۱) نظامی کنجوی: مخزن الأسرار: تهران ۱۳۷۳ ش، الصفحة الأولى وما بعدها والنص الفارسی كما يلي:

در توحید و مناجات

هست کلیـــد در گنج حلیم	بسم الله الرحمن الرحیم
نام خدای است، بر او ختم کن	فانحسره فکرت و ختم سخن
بیش بقای همه پایندگان	پیش وجود همه آیندگان
هست کن و نیست کن کائنات	اول و آخر به وجود و صفات
آخر او آخر بی انتهایست	۵- اول او اول بی ابتداست
اوست مقدس که فنایش نیست	هر چه جز او هست، بقایش نیست
خاک ضعیف، از تو، توانا شده	ای همه هستی ز نو پیداشده
ما به تو قائم، چو تو قائم به ذات	زیر نشین علمت کائنات
تو به کسی و کسی به تو مانند، نه	همستی تو صورت پیوند، نه
وانکه نه مرده است و نه میرد تویی	۱۰- آنچه تغییر نپذیرد تویی
ملک تعالی و تقدس تو راست	ما همه فانی، و بقا پس تو راست
قبه خضرا، تو کنی بی ستون	خاک به فرمان تو دارد سکون

لقد بدأ نظامى الكنجوى منظومته مخزن الأسرار بتوحيد الله عز وجل، وأنه منفرد بصفاته وذاته، وهو الأول والآخر، وهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يلحق به موت أو فناء، وهو مالك الملك القدوس المتعالى على كل ملك أرضى، ثم انتقل بعد ذلك إلى مناجاة الله عز وجل واهب الوجود لكل المخلوقات المحيط علمه بكل الكائنات خالق الأرض والسموات، إلى غير ذلك من الصفات القدسية اللائقة برب العزة والجلال.

* * *

وهذا شاعر فارسى كبير آخر نظم العديد من المنظومات الفارسية ذات القيمة العالية، هو الشاعر فريد الدين العطار^(١) صاحب منطق الطير وإلهى نامه ومصيبت نامه ويند نامه وتذكرة الأولياء وغيرها من المؤلفات والمنظومات التى توضح علو مكانته فى النظم والفكر، وقد بدأ جميع منظوماته بحمد الله والثناء عليه، ولكننا سنكتفى بترجمة بعض ما قاله فى مقدمة منظومته الكبرى منطق الطير:

- حمدا لله الطهور خالق الروح

واهب حفنة التراب الإيمان والروح

- هو من شيد عرشه فوق سطح الماء

ونثر أعمار الخلق فى مهب الريح

(١) فريد الدين العطار: ولد بمدينة نيسابور عام ٥٤٥ هـ وتوفى بها عام ٦٢٧ هـ ومازال قبره موجوداً بها حتى الآن، عمل بالطب وابتدأ حياته العملية لذا لقب بالعطار، له عدة منظومات شهيرة أهمها منطق الطير وإلهى نامه ومصيبت نامه ويند نامه إلى جانب كتاب نثرى واحد يتحدث فيه عن سير الأولياء والمشايخ وهو كتاب تذكرة الأولياء.

- إنه من رفع السماء إلى أعلى عليين
وأُنزل الأرض إلى أسفل سافلين
- فى ستة أيام خلق سبعة أنجم
- كما خلق تسع سموات بحرفى الأمر كن
- ٥- وهو من أذاب البحر تسليماً لأمره
كما ذك صرح الجبل رهبة منه
- وهو من أمر بعوضة حقيرة بالوقوف على رأس عدوه
فاستقرت فى رأسه أربعمئة عام^(١)
- وبحكمته وهب العنكبوت شباً^(٢)
فكانت فيها سلامة الرسول
- وعقد للنملة وسطاً دقيقاً كالشعرة^(٣)
ثم كان لها الحوار مع سليمان
- وخلع عليها خلعة الخلافة السوداء
- كما وهبها سورة "طس" بلا عناء^(٤)

(١) إشارة إلى قصة البعوضة والنمرود: انظر قصص الأنبياء للثعالبي طبع مصر ١٣٥٨ هـ.
 (٢) إشارة إلى نسج العنكبوت خيوطه على مدخل غار حراء يوم هجرة الرسول الكريم عليه السلام.
 (٣) لمعرفة هذا الحوار، يرجى الرجوع إلى سورة النمل.
 (٤) "طس" إشارة إلى سورة النمل.

١٠ - النهار والليل والشمس والقمر فى سجود دائم له

فقد وضعت جباهها على التراب فى طريقه

- لذا بدا على سيماهم أثر السجود

وأنى لأحد أن تكون له سيماء بلا سجود

- اتسم وجه النهار بالبياض من بسطه

بينما اتشح وجه الليل بالسواد من قبضه

- جميع الكائنات شاهدة على ذاته

وانبساط الأرض وارتفاع السماء شاهدان على عظمته

- لقد خلق التراب والريح والماء والنار

ولكن سره خارج عنها جميعاً ...

١٥ - يا ابن الخليفة، يا من عدمت المعرفة (١)

عليك بالإنصاف كأبيك بالمعرفة

- إن كل ما خلقه الحق من عدم ووجود

قد خرت كلها أمامه فى سجود

- أما من أبى السجود فقد مسخ ولعن (٢)

(١) يعنى بالخليفة آدم عليه السلام حيث قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ

خَلِيفَةً ﴾ البقرة، آية : ٣٠ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلَّا اِبْلٰسَ اَبٰى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

الْكٰفِرِيْنَ ﴾ البقرة، آية : ٣٤ .

وما أدرك هذا السر

- وما أن اسود وجهه ، حتى قال :

أيها المتعال لاتتركنی فی ضیاع ولتصلح امری

- فأجابه الحق تعالی : أيها الملعون فی کل طریق

ما آدم إلا خلیفة وسلطان

۲۰- فلتکن له الیوم طوع البنان

ولتحرق فی الغد البخور حیثما کان (۱)

(۱) النص الفارسی لهذه الابیات هو :

آنکه جان بخشید و ایمان خاک را
خاکیان را عمر برباد او نهاد
خاک را در غایت پستی بداشت
وز دو حرف امر نه طارم پدید
کوه را افرده کرد از بیم خویش
در سر او چار صد سالش بداشت
صدر عالم را ازو آرام داد
کرد او را با سلیمان هم کمر
طا و سین بیز حمت طاش بداد
سوده پیشانی خود بر خاک راه
کی بود بی سجده سیمارا وجود
شب زقبضش در سیاهی سوخته =

آفرین جان آفرین پاک را
عرش را بر آب بنیاد او نهاد
آسمان را در زیر دستی بداشت
کرد در شش روز هفت انجم پدید
۵- بحر را بگذاخت در تسلیم خویش
نیم پشه بر سر دشمن گماشت
عنکبوتی را بحکمت دام داد
بست موری را کمر چون موی سر
خلعت اولاد عباسش بداد
۱۰- در سجودش روز و شب خورشید و ماه
هست آن سیمای ایشان از سجود
روز از بسطش سپید افروخته

بدأ العطار مناجاته بالحمد لله والثناء عليه والحديث عن بعض قدراته وكذلك بعض معجزاته التي تمثلت في بعوضة النمرود وحديث النملة مع سيدنا سليمان وكذلك دور العنكبوت الذي نسج خيوطه على باب غار حراء مما ضلل الكفار وأقنعهم بأن الرسول عليه السلام لم يكن بداخل الغار عندما تعقبوه أيام الهجرة المحمدية المباركة. كما وجه العطار حديثه لابن آدم كى يتسلح بالمعرفة مثملاً كان عليه أبوه الأول آدم عليه السلام حينما زوده الله بألوان من المعرفة لم تتح لغيره من الملائكة والجن، لذا يجب على الإنسان أن يتسلح بالمعرفة، معرفة الله حق المعرفة ليكون الإنسان جديراً بالمكانة الرفيعة التي وهبها الله للإنسان، وميزه بها عن سائر المخلوقات إلى غير ذلك من المعلومات التي أوردتها العطار في هذه المقدمة الطويلة والتي تقع في حوالى مائتى بيت ولكننا اكتفينا بترجمة عشرين بيتاً فقط منعاً للإطالة والإسهاب.

پستی خاک وبلندی فلک	در گـواهِش بس بود هر یک بیک
باد و خـشاک و آتش و آب آورد	سر خویش از جـمله در تـاب آورد
۱۵- اى خليفه زاده، بى معرفت	با پدر در معرفت شو هم صفت
هر چه آورد از عدم حق در وجود	جمله افتادند پيشش در سجود
آن يکى کز سجدهء او سر بتافت	مسخ و ملعون گشت و اين سر در نيافت
چون سیه رو گشت، گفت اى بينياز	ضايعم مگذار و کار من بساز
حق تعالى گفت: اى ملعون راه	هم خليفه است آدم هم پادشاه
۲۰- باش چشما روى او امروز تو	بعد از آن فردا سپندش سوز تو

فريد الدين العطار : منطق الطير، تصحيح دكتور محمد جواد مشكور، چاپ سوم، تهران ۱۳۴۷ ش ويمنك
مراجعة الترجمة الكاملة لمنطق الطير، ترجمة د. بدیع محمد جمعة فى إحدى طبعاتها الخمس، بيروت
أو القاهرة.

ونظراً لاهتمام فريد الدين العطار بأن ينظم فى مقدمة كل منظوماته العديد من الأبيات فى تقديم فروض الطاعة والابتهاال لله عز وجل، فقد أثرت أن أذكر مثلاً آخر لهذه الابتهاالات التى قدم بها لمنظوماته الشهيرة الثانية؛ وهى منظومة «إلهى نامه»^(١) والتى قامت الزميلة الدكتورة ملكة على التركى بترجمتها إلى اللغة العربية: ومما قاله: ما ترجمته:

باسم من يخلد ملكه ولايزول، ويخرس أمام وصفه نطق الفصيح، اسمه مفرح
لكتاب الأرواح، وذكره يتصدر فهرست الدواوين، فاضت حلق الأرواح بحلاوة ذكره،
وانتشرت اللآلى على الأنس بوصفه، إن ذكر اسم دون اسمه، فهو عار، الله الذى مهما
تعددت مظاهر الوجود، فكلها بجانب ذاته عين الضعة... ذاته أعلى من كل شىء نعرفه،
فكيف يتأتى لنا شرحها.. ولأن عقل أى إنسان لايسمو إليه، فلا أحد يعرف كنهه، فناء
العالم إثبات لوجوده، وخلق العالم دليل على ذاته، صفاته هى ذاته، وذاته هى صفاته...
كل الوجود ظل لحضرته وكل الآثار من صنع قدرته، أصاب القول فى الذات من قال
هذا القول الحق: إن التوحيد إسقاط الإضافات.

يا إلهى رحمتك بحر عام، تكفيننا قطرة واحدة منه، إن غسلت ذنوب الخلق الأثمين
فى ذلك البحر دفعة واحدة، فلن يتعكر ذلك البحر لحظة، بل سيعم الضياء! وماذا يعتبر
بحر الرحمة إن قسمت قطرة واحدة منه على الخلق، ما أجمل النداء من الحق والتلبية
من العبد، فبين الحق والعبد نداء وتلبية!^(١)

* * *

(١) فريد الدين العطار : إلهى نامه، ترجمة : د. ملكة على التركى، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢، ١.

وقد شارك في هذا الحمد والثناء شاعر الإنسانية وأديبها سعدى الشيرازي^(١) سواء في ديوانه أو في كتابيه الشهيرين "كلستان" و"بوستان" ولحسن الحظ فقد ترجم المرحوم الأستاذ الدكتور أمين عبد المجيد بدوي هذين الكتابين إلى اللغة العربية، وقد عنون ترجمة كلستان إلى اللغة العربية باسم "جنة الورد" بينما جاء عنوان الترجمة العربية للبوستان تحت عنوان "أريج البستان"^(٢) وقد اخترت أبياتاً من ترجمة أريج البستان ليدرك القارئ كم كان سعدى الشيرازي عابداً مبتهلاً إلى الله عز وجل.

تمجيد الخالق

- باسم الله فاطر الروح، الحكيم المبدع الكلام في اللسان.
- الإله الوهاب المعين، الكريم العفو، قابل التوب.
- العزيز الذي كلُّ من أعرض عن بابه، لم يجد عزه بأى باب قصده.
- رعوس الملوك الصيد ساجدة بحضرته على أرض الاحتياج
- ٥- لا يأخذ الطغاة على الفور، ولا يطرد التائبين بالجور.

(١) سعدى الشيرازي: ولد بمدينة شيراز بين عامي ٥٨٠ و ٦٠٠ هـ، التحق في صغره بالمدرسة النظامية في بغداد، تلك المدرسة الشهيرة التي أسسها الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك، وقد زار بعد ذلك كلا من الشام والجزيرة العربية وآسيا الصغرى ومصر ومراكش والحبشة، وقد وفرت له هذه الرحلات الفرصة للالتقاء بالفكرين والعلماء في هذه البلاد، نظم بالفارسية والعربية وله ديوان كبير إلى جانب كتابيه الشهيرين "بوستان" و"كلستان" وقد عاصر اجتياح المغول لبغداد فرثاها رثاءً مريراً. ويقال إنه توفي عام ٦٩١ هـ.

(٢) ترجم هذان الكتابان عدة ترجمات عربية، بالإضافة إلى ترجمات الدكتور أمين عبد المجيد بدوي، فقد ترجمهما الدكتور محمد موسى هندأوى، ولكنني أثرت الأخذ عن ترجمة الدكتور أمين عبد المجيد لتقيدته بالنص الفارسي وعدم الأخذ بالمعنى العام.

- كم يغضب من الفعل القبيح ، ولكن إن رجعت إليه طوى ماجوى
- رب الأوج والحضيض ، لم يغلق باب الرزق أمام أحد لعصيانه .
- الكونان قطرة من بحر علمه ، يرى المجرم ويستره بحلمه .
- أديم الأرض سفرته العامة ، والعدو والصديق سواء على هذا الخوان المباح .
- ١٠ - لو كان يعجل على الظالم ، فمن كان يجد الأمان من قهره ؟
- بريئة ذاته من تهمة الضد والجنس ، غنى ملكه عن طاعة الجن والإنس .
- طوع أمره كل شيء وكل شخص ، بنو آدم والطيور والنمل والذباب .
- اللطيف الباسط الكرم ، المدبر الأمر ، الحافظ الخلق ، العالم السر .
- إليه ينتهى الكبرياء والعزة والعظمة والأنية ، لأن ملكه قديم وذاته غنية .
- ١٥ - حلمه بصير بالأحوال غير الموجودة ، لطفه خبير بالأسرار غير المقولة .
- حافظ بقدرته اليفاع والقاع ، ورب ديوان يوم الحساب .
- غير مستغن عن طاعته ظهر أحد ، ولا اعتراض لأحد على قوله .
- العالم متفق على ألوهيته ، وقد عجز عن كنه ماهيته .
- لم يدرك البشر ما وراء جلاله ، ولم يدرك البصر منتهى جماله .
- ٢٠ - لا يطير فوق أوج ذاته طائر الوهم ولا تصل إلى ذيل وصفه يد الفهم .
- لا الإدراك يصل إلى كنه ذاته ، ولا الفكر يصل إلى غور صفاته .
- لن يصل أبداً إلى المنزل ، من اختار طريقاً خلا من طريق النسي

- فلا تخل أيها السعدى أنه يمكن السير فى طريق الصفا على غير أثر المصطفى (١)

(١) أربع البستان، سعدى الشيرازى ترجمة د. أمين عبد المجيد بدوى، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨
ص ٢٠: ١٨

والنص الفارسى هو :

بنام خداوند جان آفرین	حکیم سخن در زبان آفرین
خداوند بخشندهء دستگیر	کریم خطا بخش پوزش پذیر
عزیزی که هرگز درش سربتافت	بهر در گه شد هیچ عزت نیافت
سر پا دشامان کرد نفر از	بدر گناه او بر زمین نیاز
ه- نه گرد نکشان را بگیرد بفور	نه عذر آوران را براند بجزور
و کر خشم گیرد ز کردار زشت	چو باز آمدی ما جرا در نوشت
ولیکن خداوند بالا و پست	بمعصیان در رزق بر کس نیست
دو کونش یکی قطره از بحر علم	گنه بیند و پرده پوشد بحلم
ادیم زمین سفسرهء عام اوست	برین خوان یغماچه دشمن چه دوست
۱۰- اگر برجفا پیشه بشتافتی	که از دست قهرش امان یافتی؟
بری ذاتش از تهمتى ضد و جنس	غنى ملكش از طاعت جن وانس
پرستار امرش همه چیز و کس	بنی آدم و مرغ و مور و مگس
لطیف کریم چیز کستر کار ساز	که دار ای خلقست ودانای راز
مرور را رسد کبریا و منی	که ملكش قدیمست وذاتش غنى
۱۵- بر احوال نابوده علمش بصیر	باسرار ناکفته لطفش خبیر
بقدرت نگهدار بالا و شیب	خداوند دیوان روز حمیب
نه مستغنی از طاعتش پشت کس	نه بر حرف او جای انگشت کسی =

كان سعدى شاعر الإنسانية، لذا نراه يركز على كرم الله وسخائه مع خلقه، وعفوه عن الخطائين وكلنا خطاءون، فهو لا يعجل بمحاسبة المسيء ومعاقبته على أى فعل خاطئ؛ اقتطفه، بل يصبر عليه لعله يرجع عن المعصية ويستغفر ربه الغفور الودود ذا الرحمة قابل التوب وغافر الذنب، الذى لم يحرم عطاءه أحداً من خلقه، سواء فى ذلك المطيعون أو المسيئون لأنفسهم بكفرهم وصددهم عن سلوك طريق الإيمان والصلاح والتقوى.

وإذا انتقلنا إلى تصفح مقدمة كتابه الثانى وهو "گلستان" فسنجد سعدى الشيرازى قد قدم له بمقدمة يبتهل فيها إلى الله ابتهاال العابد العائد إلى حظيرة الإيمان المقر بربوبية الإله الأعظم، وإذا كانت مقدمة كتابه الأول "بستان" قد جاءت منظومة، فقد جاءت مقدمة كتابه الثانى "گلستان" وهو كتاب نثرى فى المقام الأول - نثراً ولكنها مدبجة بالعديد من الأبيات؛ ومنها ما ترجمته:

"المنة لله عز وجل، فإن طاعته موجبة المقربة، وفى شكره مزيد النعمة، كل نفس يدخل مُمدً للحياة، وعندما يخرج مفرحٌ للذات، ففى كل نفس نعمتان، وكل نعمة تستوجب شكرًا."

فررو مانده از كنه ما هيئتـ	= جهان متفق بر آهيئتـ
بصر منتهای جمالش نیافت	بشر ما وراى جلالش نیافت
نه در ذیل وصفش رسد دست فهم	۲۰- نه برا وج ذاتش پرد مرغ وهم
نه فکرت بغور صفاتش رسید	نه ادراك در كنه ذاتش رسید
كه هر گز بمنزل نخواهد رسید	خلاف پیمبر كس ره گزید
توان رفت جز بر پی مصطفی	مپندار سعدى كه راه صفا

(كليات سعدى شیرازی: باهتمام محمد على قزوینی: "بستان" تهران ۱۳۲۰ ش ص ۱-۴).

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١)

غيوث رحمته التى لاتحصى عمت جميع الأنام، وموائد نعمته التى لا يضمن بها
مبسوطة فى كل مكان، لايهتك ستر العباد بما اقترفوا من الإثم الفاحش، ولا يقطع
الرزق عن المرزوقين بما ارتكبوا من الخطأ المنكر.

بيت وترجمته

يا كريمًا ترزق المجوس والنصراني من خزانة الغيب

كيف تحرم الأحباء، يا من ترعى الأعداء؟

وفى الخبر عن سيد الكائنات وفخر الموجودات، ورحمة العالمين، وصفوة الأدميين
وتتمة درر الزمان، محمد المصطفى صلى الله عليه وآله:

شفيع مطاع نبى كريم . . . قسيم جسيم وسيم بسيم

شعر

بلغ العلى بكمـاله كشف الدجى بجماله

حسنـت جميع خصاله صلوا عليه وآله

إذا رفع عبد مذنب مشئت الحال فى حضرة الحق جل وعلا يد الإنابة بأمل
الإجابة، فلم ينظر الله تعالى إليه، فدعاه ثانية فأعرض عنه كذلك، فدعاه مرة أخرى
بتضرع واستكانة فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ياملأكتى قد استحييت من عبدى،
وليس له غيرى فقد غفرت له، يعنى أجبته دعوته وقضيت حاجته لأنى أستحى من كثرة
دعاء عبدى وضراعتة.

(١) سورة سبأ، آية : ١٣.

بيت وترجمته

انظر إلى كرم الإله ولطفه . . . قد أذنب عبده واستحي هو !

العاكفون على كعبة جلاله معترفون بالتقصير عن عبادته قائلين : ما عبدناك حق عبادتك، والواصفون حليته جماله حاثرون يقولون: ما عرفناك حق معرفتك؛^(١)

هكذا حرص سعدى - كما فعل في مقدمة بوستان على أن يعبر عن كرم الله وعفوه وقبوله عذر التائبين، وصفحه عن معاصيهم، ولعل في ذلك دعوة لكل أثم وعاص ألا ييأس من رحمة الله، فبابه مفتوح أمام كل التوابين الأوابين، وكرمه يفوق كل جرم، وعفوه يشمل كل مذنب، فهيا إلى التوبة يا عباد الله!

ومن الكتب التي ازدانت مقدمتها بالحمد والثناء والابتهال إلى الله، كتاب راحة الصدور وآية السرور لمؤلفه محمد بن علي بن سليمان الراوندي^(٢)، وقد أورد في مقدمة كتابه ديباجة في حمد الباري جعلها مزيجاً من الشعر والنثر، ومما قاله في هذه الديباجة، ما ترجمته:

- الحمد لله مبدع الأكوان، وخالق الربيع ونيسان

- رب الصيف والخريف، ورب كل شيء في العالم

- خالق العقل والروح أولاً، لأنهما مفتاحا جميع المغلقات

(١) جنة الورد (كلستان) لسعدى الشيرازي: ترجمة د. أمين عبد المجيد بدوي، المركز العربي للصحافة، القاهرة ١٩٨٢ ص ٢٧، ٣٩.

(٢) الراوندي: اسمه الكامل هو أبو بكر نجم الدين محمد بن علي بن سليمان بن محمد بن أحمد بن الحسين بن همة الراوندي، وهو ينتسب إلى أسرة من أهل العلم في بلدة راوند من أعمال مدينة قاشان توفي والده وهو صغير فتكفل به خاله تاج الدين أحمد بن محمد بن علي الراوندي حيث دربه على جمع العلوم والفنون المتداولة في ذلك الوقت، ثم التحق بالبلاط السلجوقي وبدأ في كتابة "راحة الصدور وآية السرور" عام ٥٩٩ هـ وأنجزه في عامين أو ثلاثة.

- وهو أيضاً خالق النملة والفيل ، وهو من أوجد نهر النيل

۵- وهو الذى يخرج النهار من الليل المظلم ، وهو الذى يضىء شمس الكون

- وهو الذى بسط الأرض فوق الماء ، وهو الذى أخرج الدر الحر من الماء

- وهو الذى رفع السماء فوق الأرض وزينها كما يليق

- هو الله الذى خلق الوهاد والجبال ، وبسط عليها بساطاً من الخضرة^(۱)

شكراً جزيلاً لله جل جلاله وثناؤه، فإن التوفيق على شكره يعتبر من أجل نعمه، وحمداً كثيراً للخالق تعالى كماله وكبرياؤه، فإن اللسان الشاكر يعتبر من مَخْبُات كرمه .

ولله مئات الآلاف من مثل هذا الثناء والحمد .. فهو الملك الذى لا تستطيع رياح العزل العاتية أن تقطع أطناب كبريائه، والشكر الحق لخالق الخلق الذى لا يجلس حاجب على أعتاب جلاله، حتى لا يصد عنه طلاب أفضاله....

(۱) هذا هو أصل الأبيات: النسخة الفارسية، ص ۱.

سپاس از جهان آفرین کرد کار	خداوند نیسان و فصل بهار
خداوند فصل تموز و خزان	خداوند هر چیزی اندر جیهان
خرد را و جان را نخست آفرید	که هستند مر بند هارا کلید
همو آفرینندهء مرور و پیل	پدید آورید دست دریای نیل
۵- ز بعد شب تیره روز آورد	همان هو ر گیتی فروز آورد
همی دارد او گوی خاکى بر آب	پدید آرد از آب در خوشاب
بر از خاک چرخ بلند آفرید	بیاراست اورا چنان چون سزید
خدایی که کوه و زمین آفرید	ز سبزه باطنی بد و درکشید

وهو القادر الذى لاتصل يد الزوال إلى كبريائه، وهو الرازق الذى لا يبلغ الفهم والكمال حد آلائه وهو القادر ذو الكمال، والصانع ذو الجلال.. وهو الذى جعل بياض النهار فاتحة لأرزاق الخلق، وجعل الليل مطية لراحتهم.

- افتتحت هذا الكتاب باسم الله، فهو الذى يمنح العطاء، ويغفر الأخطاء

- وهو الملك الذى يخلق من القطرة عالما، ويبدع من الزفرة آلافا من الأرواح

- لا يحيط الوهم بجلاله، ولا يحيط الفهم بكماله

- وهو المعبود مدبر الأنام والبلاد، وهو المقصود اللطيف بالخلق والعباد

- لا يتسرب الخيال إلى جلاله، ولا يتطرق المحال إلى أقواله^(١)

وهو عالم أبداً، ناطق بذاته، خالق لايزال، رزاق ذو كمال، صفة خلقه ليست بإيجاد المخلوقات، ونعت رزقه ليس بإبداع المرزوقات، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لايزال عليها أبديا.

(١) راحة الصدور وآية السرور: راجع الأصل الفارسي، نشر محمد إقبال وتصحيح مجتبیٰ ينوی بالمنشور فى طهران عام ١٣٢٢ ش، ص ١-٥، وكذلك الترجمة العربية المنشورة بالقاهرة عام ١٩٦٠ ص ٢٥-٢٩.

وهذا هو الأصل، النسخة الفارسية ص : ٢، ٣.

هم عطا بخش وهم خطا بخشای	کردیم آغاز این بتام خدای
وز دمی صد هزار جهان آرد	ملکی کز نمی جهان آرد
نه کمالش بفهم در گنجید	نه جلالتش بوهم در گنجید
ارست مقصود دلتواز همه	اوست معبود و کار ساز همه
نه کلامش محال بر تابید	نه جلالتش خیال بر تابید

الحدوث والقدم، والوجود والعدم، عبيد قدرته وخدم عزته، والرحمة هي صاحبة ديوان جلاله، والعزة هي حاجب باب كماله، وذاته المنزهة خارجة عن حدود الزمان والمكان، فلا الزمان يحد بقاءه، ولا المكان يبلى ذاته.

* * *

- هو الذى رفع قبة السماء الخضراء، وهو الذى خلق أديم الغبراء
- يجعل القمر أحياناً يضيء أطراف الشهباء، ويجعل الشمس أحياناً بأشعتها الذهبية تطوق أديم الدهماء
- هو الذى ذاته وحيدة، وهو منزّه عن النظر وصفاته فريدة
- الرءوس ساجدة فى عبوديته، وقد أجمعت على ذلك طوعاً أو كرهاً.^(١)

وهكذا شارك هذا الأديب المؤرخ أقرانه من المؤلفين والكتاب والشعراء فى بدء أعمالهم بحمد الله والثناء عليه، وتقديم الشكر على عظيم نعمائه، وجميل كرمه، وقد عبر عن أفكاره شعراً ونثراً، مما يدل على قدرته على النظم والنثر، ومع أن هذا الكتاب - راحة الصدور - مؤلف فى التاريخ، حيث سجل فيه الراوندى تاريخ السلاجقة منذ

(١) وهذا هو أصل الأبيات، النسخة الفارسية، ص: ٥.

كه بر افراخت قبه خضرا	كه درو ساخت كله غبرا
كه ز خور كرد طرف اشهب ماه	كه ز زر ساخت طوق ادهم شاه
آن خد ايبي كه ذات او يكتاست	در صفت بي نظير وبى همتاست
بر خط بندگى او ســـــررها	مجمع گشته طوعاً أو كرها

بداية عهدهم وحتى النهاية تقريباً، فقد حرص على أن تكون الديباجة قطعة أدبية متميزة في مدح الخالق، والشكر على نعمه الظاهرة والخفية، وذلك طمعاً في رضائه والفوز بجنته.

* * *

ومن الكتب النثرية ذات الاهتمام الكبير لدى كل محبى الأدب الفارسي كتاب قابوسنامه، تأليف الأمير عنصر المعالى كيكافوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار^(١) والذي كتبه ليكون درساً لابنه ونخيرة ينهل منها بعد وفاة أبيه، وقد بدأه بحمد الله وضرورة معرفته حق المعرفة؛ وقد قال ماترجمته:

اعلم يا بنى أنه لا شيء قط من كائن أو معدوم أو يمكن أن يكون لم يصير معلوماً للخلق كما هو، وأنت في معرفة الخالق عاجز، إذ ليس للمعرفة إليه سبيل، وكل ماعده صار معروفاً وإنما تكون عارفاً لله عندما تكون غير معروف، ومثال المعرفة كالمنقوش والعارف كالنقاش، فما لم يكن في المنقوش قبول للنقش، لا يستطيع نقاش أن ينقش عليه... فعليه يكون في كل معرفة قبول للعرفان والخالق غير قابل للمعرفة، فتأمل في نفسك ولا تتأمل في الخالق... انظر إلى المصنوع واعرف الصانع، وتفكر في آلاء الخالق ونعمائه ولا تفكر في ذاته.. كما قال النبي عليه السلام "تفكروا في آلاء الله

(١) الأمير عنصر المعالى كيكافوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار، الملك السابع من ملوك الزياريين وقد حكم بين عامي ٤٤١ هـ و ٤٦٢ هـ في منطقة كوهستان، وما روى عنه في كتب التاريخ جد قليل أو عادة يكتبون بذكر أنه مؤلف قابوس نامه، ويقال إنه قد قضى فترة طويلة من عمره في حروب مع الغزنويين في الهند والسداويين في بلاد الروم، ويقال إنه كان مشغولاً سواء في شبابه أو في كهولته بتحصيل العلوم، وكان إلى جانب كتاباته النثرية قد نظم بعض الأشعار ولكنها تقل جودة عن مستوى نثره.

انظر مقدمة قابوسنامه، تهران ١٣٤٣ ش. ص ١٩-٢١.

ولا تفكروا فى ذاته .. إذا أردت حقيقة التوحيد، فاعلم أن كل شىء فى المجاز صدق فى الربوبية، وكل من عرف الواحد حقاً برئ من محض الشرك، الواحد فى الحقيقة هو الله عز وجل، وكل ماسواه مثنى...^(۱)

* * *

كان مؤلف قابوسنامه حريصاً كل الحرص على أن يعلم ابنه كيف يعبد الله العبادة الحقّة ويعرف من خلال آلائه المعرفة الصحيحة وأن يرى قدرة الله فى صنعه فيدرك عظمته وجبروته، وألا يشغل نفسه بمعرفة ذات الله لأن هذا فوق طاقة كل البشر، وأن يدرك أن الواحد هو الله لاشريك له، أما كل ماعداه فمتصف بالاثنيانية. والواحد هو الجدير بالعبادة والتوحيد، وهكذا كان درساً تربوياً نتيجة لما تمتع به المؤلف من حنكة ودراية وإعداد جيد فى الحياة، مكنه كل هذا من أن يبصر ابنه بكل مايضمن له التوفيق والنجاح فى حياته، وأفضل سلاح له فى ذلك سلاح المعرفة الحقّة: معرفة الله عز وجل .

* * *

(۱) كتاب النصيحة المعروف باسم قابوسنامه للأمير عنصر كيكاسوس، ترجمة: صادق نشأت وأمين عبد المجيد بدوى، الطبعة الاولى - القاهرة ۱۹۵۸، ص : ۵-۵۱، وهذا هو النص الفارسى:

بدان اى پسر كه هيچ چيز از بودنى و نابودنى و شايد كه بود كه آن شناخته مردن نگشت چنانكه اوست. و تو در شناخت آفريد كار عاجزى، چه شناخت را در وى راه نيست و جز او همه شناخته گشت. شناسنده خدا نگاه شوى كه ناشناى شوى، و مثال شناخته چون منقوش است و شناسنده چون نقاش، كه تادر منقوش قبول نقش نپو، هيچ نقاش بروى نقش نتواند كرد... پس همه شناخته قبول شناس است، و آفريد كار قابل شناخت نيست، و تو يگمان در خود نگر، و در آفريد كار منكر، در ساخته نگر و سازنده را بشناس. در آلا و نعمائى آفريدگار آنديشه كن و در آفريد كار آنديشه مكن... چنانكه پيغمبر ﷺ گفت: تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته.. اكر حقيقت توحيد خواهى، بدانكه هر چيزى كه در مجاز است در ربوبيت صدق است، و هر كه يكى را بحقيقت بداند از محض شرك برى گشت، يكى بحقيقت خداى عز وجل است، باقى همه دو اند.

(قابوس نامه: تصحيح و مقدمة دكتور أمين عبد المجيد بدوى، تهران ۱۳۴۲ ش ص ۷-۸).

وها هو آخر شعراء إيران الكبار، أو ما يطلقون عليه: المتحدث باسم إيران بعد الحافظ الشيرازي، صاحب العديد من المؤلفات النثرية والشعرية، إنه الأديب الكبير نور الدين عبد الرحمن الجامي^(١) المولود في خراسان عام ٨١٧ هـ، صاحب نفحات الأنس، وناظم "يوسف وزليخا" عام ٨٨٨ هـ أي وله من العمر سبعون عاماً والذي اعتمد في نظم بعض جوانب هذه القصة على آيات من القرآن الكريم من سورة يوسف، وعلى ما جاء في بعض كتب التفاسير وقصص الأنبياء، ومما قاله في مقدمة هذه المنظومة من ابتهالات إلى الله عز وجل، نذكر ما ترجمته:

- يا إلهي اجعل برعم أملئ يتفتح . واجعلني وردة تفتح من روضة الخلد
- ثم اجعل روضتي باسمه من تفتح تلك البرمة، وعطر أنفي من شذى هذه الوردة.
- واجعلني مقرا بنعمك في دار الأحزان هذه، والتي خلت من المواسين
- واجعل لي قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً

.....

- ٥- تعالى الله القيوم العالم، مانح القدرة لكل عاجز
- الذي زين الفلك بالكواكب، وجمل الأرض بالخللاق
- مانح الرفعة لكل ذي همة عالية، ومذل كل عابد لنفسه

(١) عبد الرحمن الجامي: آخر الشعراء العظام في إيران، وقد ولد في خراسان عام ٨١٧ هـ بمدينة جام ومنها أخذ لقبه "الجامي" كما يقال بأن شيخه كان اسمه جام أيضاً، وهو شاعر وكاتب له العديد من المؤلفات النثرية الشعرية، وأهمها نثر: نفحات الأنس، وأهمها شعرا البلى والمجنون ويوسف وزليخا وكان جامي مجيداً للفتن العربية والفارسية، كما كان واسع المعرفة بالعلوم القرآنية والحديث النبوي الشريف. وقد وظف هذا في كتبه ومنظوماته وكانت وفاته عام ٨٩٨ هـ.

- غافر الذنب لكل المذنبين، محاسب بالعقاب كل المرائين
- من بحر لطفه تجود سحاب الربيع برونقها على الأشواك والياسمين
- ١٠ - ومن منجم جوده تملأ ریح الخریف ساحة الخميطة بفُرش ذهبية
- ذاته مبرأة عن الكيف والكم، منزهة عن الانخفاض والارتفاع
- العقل مضطرب أمام ذاته، والقلب عاجز عن المضى فى طريقه
- فإن لم يهدنا بلطفه، لآزددنا بعداً عنه لحظة بعد لحظة^(١)

(١) راجع ترجمة منظومة يوسف وزليخا إلى العربية والمنشورة بمجلة أخبار الأدب العدد ٢٩ ومابعده القاهرة ١٩٩٤ وقد أعد هذه الترجمة الدكتور عبد العزيز بقوش.

والاصل الفارسی ص ١-٣ من طبعة نادری ١٣٤٧ هـ.

الهی غنچهء امید بگشای	گلی از روضهء جاوید بنمای
بخندان از لب آن غنچهء باغم	وز آن گل عطر پرور کن دماغم
درین محنت سرای بی مواسا	بنعمتهای خویشم کن شناسا
ضمیرم را سپاس اندیشه گردان	زبانم را ستایش پیشهء گردان
۵- تعالی الله زاهی قیوم دانا	توانائی دهء هر ناتوانا
فلک را انجمن افروز انجم	زمین را زیب الجمم ده بمردم
بلندی بخش هر همت بلندی	به پستی افکن هر خود پسندی
گناه امروزندان قدح خوار	بطاعت گیر پیران ربا کار
ز بحر لطف او ابر بهاری	کند خار و سمن را آبیاری
۱۰- ز کان جود او باد خزانى	کند فرش چمن را زر فشانی
مبسر آذاتش از چونی وچندی	مببراتر ز پستی وبلندی
خرد در ذات او آشفته رانی	طلب در راه او میدست وپائی
اگر نهد بلطف خود قدم پیش	شود زان دوری باد میدم پیش

كما قال مناجياً رب العزة والجلال.

- إلهي ! لقد كنا طلقاء من صورة الوجود، كما كنا أحراراً من خوف الفناء !

- في البداية خلقتنا من العدم، وقيدتنا بقيد الماء والطين

- وخلصتنا من الضعف والعجز، وأوصلتنا من الجهل إلى العلم

- وأرسلت إلينا كتاباً مبيناً، خاطبتنا فيه بالأمر والنهي

٥ - فخلطنا بين الحسن والقبيح، وافرطنا تارة وفرطنا أخرى

- ونادرا ما سلكنا سبيل الأوامر، وكنا نغضى في طريق النواهي

- ومع ذلك لم تتخل عن دستور العناية، ولم تحجب عنا نور الهداية

- أنت الذي هيات لي الأسباب، وفتحت أمامي ما للنعمة من أبواب

- وكرمتني بسعادة الخدمة، ورفعت رأسي بتوفيق السجود

١٠ - وأطلقت لساني، بشكرك ومنحت قلبي ذكرك^(١)

* * *

(١) الأصل الفارسي من طبعة نادري ص ٦٠، ٥.

ز بیم نیستی آزاده بودیم
بقید آب و گل مایست کردی
زناد زندانی بدانالی رساندی
بامر ونهی فرمودی خطابی
گهی افراط و گه تفريط کردم
بنا فرمودینها پا فشردیم
نه پوشیدی ز ما نور هدایت =

خداوندا زهستی مآده بودیم
نخست ارنیست ماراهست گردی
ز ضعیف ناتوانائی رهاندی
فرستادی بما روشن کتابی
۵- میان خوب و بد تخلیط کردم
ره فرمودینها گم سپردیم
نکذ شستی ز دستور عنایت

وقد وردت بعض هذه الابتهالات في بداية الكتب الفارسية مسطرة باللغة العربية، ومن هذه المقدمات العربية أورد مثالين:

الأول: تلك المقدمة التي كتبها جلال الدين الرومي^(١) في مقدمة كتابه الكبير المثنوى المعنوى، وعلى الرغم من أن الكتاب بأجزائه الستة جاء نظماً إلا أن جلال الدين كتب المقدمة التالية نثراً وباللغة العربية، ومنها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب المثنوى، وهو أصل أصول الدين في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر، وبرهان الله الأزهر، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، يشرق إشراقاً أنور من الإصباح، وهو جنان الأظهر نو العيون والأغصان، منها عين تسمى عند أبناء السبيل سلسبيلا، وعند أصحاب الكرامات خير مقاماً وأحسن مقبلاً، الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار منه يفرحون، وهو كنيل مصر شراب للصابرين وحسرة على آل فرعون والكافرين، كما قال يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً، وإنه شفاء للصدور وجلاء للأحزان وكشاف القرآن وسعة الأرزاق وتطبيب

= تونی کاسباب کارم ساز کردی در نعمت بردم باز کردی
کرامت کردی از خدمت پسندی بتوفیق سجودم سر بلندی
۱۰- زیانم را بذکر خود گشادی دلم را ذوق باد خـــــــویش دادی

(١) جلال الدين الرومي: ولد ببلغ عام ٦٠٤ ثم هاجر مع والده إلى أنسيا الصغرى واستقر بمدينة قونية، أعظم شعراء العرفان في اللغة الفارسية، ديوانه المشهور أطلق عليه اسم ديوان شمس تبريز على اسم مرشده، وكتابه الشعري الثاني هو المثنوى المعنوى الذي يقع في ستة أجزاء، وقد ترجم الدكتور محمد كفاي الجزء بين الأول والثاني بينما ترجم الزميل المحرم الدكتور إبراهيم شتا الأجزاء الستة.

الأخلاق بأيدي سفرة كرام بررة، يمنعون أن لايمسه إلا المطهرون، لايتأتية الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، والله يرصده ويرقبه، وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين^(١).

لقد حرص جلال الدين الرومي على تقديم كتابه المثنوى على أنه معنى بشرح وتفسير ماجاء فى القرآن الكريم من أحكام وسير، وأنه قد ألزم نفسه بعدم الخروج فى أى كلمة أو أى حكاية عما جاء من حكم ومواعظ وسير فى كتاب الله العزيز الذى لايتأتية الباطل، ولا يمسه إلا المطهرون الصالحون وكما تعهد الله بالحفاظ على القرآن الكريم أبد الأبدین، فإن الله سيحفظ كذلك كل ماكتب من تفاسير وشروح وتوضيح للقرآن الكريم ومنها هذا الكتاب ألا وهو كتاب المثنوى المعنوى لجلال الدين الرومي، وقد حفلت هذه العبارة بالإشارة إلى العديد من الآيات القرآنية سواء بنصها أو بمعناها، دلالة على عمق الوعي الدينى والثقافة الإسلامية لدى جلال الدين الرومي، وليس هذا بغريب مادام قد جعل كتابه المثنوى كما قال شرحاً وتفسيراً وتوضيحاً لبعض ماجاء فى القرآن الكريم من تعاليم وقصص وسير.

ومن الكتب الفارسية النثرية التى حرصت على أن تكتب الحمد والثناء الوارد فى مقدمة الكتاب باللغة العربية، كتاب مقامات حميدى لمؤلفه حميد الدين عمر بن محمود البلخى^(٢) ومما جاء فى هذه المقدمة مايلى:

الحمد لله الذى شرفنا بالعلم الراسخ، وعرفنا بالدين الناصخ، وعلمنا حقائق الأحكام وحملنا دقائق الحلال والحرام، ميزنا عن طبقات الأنعام وخصصنا بمزايا الإنعام، الذى أنشأ فى الهواء من السحب أمواجاً، وأبدع فى السماء من الشهب

(١) مثنوى جلال الدين الرومي: ترجمة . محمد عبد السلام كفافى ح ١ الطبعة الأولى صيدا ١٩٦٦، ص: ٧٠- ٧٢.

(٢) حميد الدين البلخى: من علماء خراسان وقد تولى منصب قاضى القضاة فترة فى بلغ أيام السلطان سنجر، وله عدة مؤلفات نثرية وشعرية، أهمها مقاماته التى عارض بها الهمداني والحريرى.

أفواجاً، وأنزل من المعصرات ماءً ثجاجاً، دارت الأفلاك بتدويره، وسارت الأملاك بتقديره. له الفضل والأفضال والقدرة والكمال، لا إله إلا هو الكبير المتعال، نشهد به لا عن ارتياب ونؤمن به لاعن اختلاب، ونتوكل عليه فى جينة وذهاب. إيمان من اعترف بذنوبه، وإيقان من أقر بعيوبه، ونشهد أن محمداً خير العباد وسيد البشر فى البلاد، وصاحب القضييب^(١) والسنان الخضيب وراكب البراق إلى المعراج، السائق الذى أنقذنا من تيه الحيرة بمصابيح جبينه، وفتح لنا أبواب المناجح بمفاتيح يمينه، وعلمنا دقائق شرعه ودينه، صلى الله عليه وآله وعلى الزاهيين فى سبيل الله والمهاجرين والأنصار وسلم تسليماً كثيراً^(٢).

لقد ألف حميد الدين كتابه هذا تقليداً لمقامات بديع الزمان ومقامات الحريري ولعل هذا هو الذى دفعه لكتابة المقدمة باللغة العربية ليثبت أنه قادر على الكتابة بها، وتقليد أستاذه بديع الزمان والحريري. كما يلاحظ أن أسلوبه مفعم بالمحسنات شأنه فى ذلك شأن كل من كتبوا المقامات، أضف إلى ذلك ماتضمنه من جمل مستوحاة من القرآن الكريم فى معناها ومبناها، مما يدل على سعة معرفته بعلم القرآن وآياته وأحكامه.

ولم تقتصر هذه المقدمات الحافلة بالأثر الإسلامى فى إنتاج الأدباء الفرس شعراء كانوا أم كتاباً على تلك الكتب التى ارتبطت بالعلوم الإسلامية وبال دعوة إلى الأخلاق، أو حتى بالكتب التى ألقت أصلاً بعد دخول الإسلام أرض إيران، بل تعدت ذلك إلى مقدمات الكتب التى كانت موجودة قبل الإسلام سواء أكانت هندية الأصل وترجمت إلى البهلوية قبل الإسلام أو كانت من أصل بهلوى. وعندما أراد الفرس بعد الإسلام ترجمة هذه الكتب إلى الفارسية الإسلامية، فقد حرص مترجموها على أن يكتبوا لها

(١) أى السيف.

(٢) قاضى حميد الدين البلخى، مقامات حميدى، نشر دانشكده، أدبيات أصفهان ١٣٣٩ ش، ص ١.

مقدمات جديدة تتفق والدين الإسلامى الذى سيطر على كل مناحى الحياة فى إيران الإسلامية، ومن هذه الكتب المترجمة إلى الفارسية الإسلامية نقلاً عن اللغة البهلوية، والتي نقلتها بدورها عن السنسكريتية، كتاب سندباد نامه^(١) شأنه فى ذلك شأن كليلة ودمنة، وسأكتفى بذكر بعض ما جاء فى مقدمة سندباد نامه حيث إن كتاب كليلة ودمنة متداول بالعربية ولسنا فى حاجة للنقل عنه:

خطبة الكتاب^(٢)

الحمد والثناء والشكر والمنة .. للقادر الذى لا يحط غبار الزوال على جمال كماله، والكامل الذى لا تأخذ به النقصان بذيل جلاله، لا تنتهى خطرات الخواطر إلى ساحة جبروته، ولا تصل خطوات الضمائر إلى سياحة مساحة ملكوته، شيد بناء قصر السماء المشيد دون آلة أو أداة، وخاط قباء الزمان الزمردى المعلم دون حاجة إلى خياط ومقراض، وأوصل جوهر الماء إلى جرم النار بواسطة الحرارة، وأرسل جسم الهواء إلى مركز الثرى بواسطة البرودة ...

ويامتزاج البخار والدخان فى قضاء الهواء، وجد الرعد والبرق والسحاب والرياح والشهب .. وفطر أجناس وأنواع الحيوان واصطفى الأدمى من بين أنواع الحيوان وأصناف الأحياء، وصيره زبدة الموجودات وفهرست المخلوقات، كما قال:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠). (٣)

(١) سندباد نامه: أصله هندي نقل قبل الإسلام إلى البهلوية وترجم بعد ذلك إلى الفارسية الإسلامية، وقد قام الدكتور أمين عبد المجيد بترجمته إلى اللغة العربية ونشر بالقاهرة عام ١٩٧٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥ وما بعدها، والأصل الفارسى ص ١١ وما بعدها، انظر النسخة الفارسية، تهران ١٣٣٣ ش.

(٣) سورة الإسراء، آية ٧٠.

ويعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أجل مصالح العباد ومناظر المعاش وترتيب البلاد وتنظيم العباد، فامر بإبلاغ الرسالة وإظهار الدلالة، ويعث بالرسالة على ألسنتهم بطريق الوحي والإلهام، ووضع قوانين الشرائع على خلاف الطباع، وأمر بالطاعة والعبادة بالعدل والسياسة. كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) (١) وبين العلم والحكمة والشرعية والطريقة من أجل إحكام واستحكام قواعد عقائد العقلاء، وتأكيد وتمهيد أساس مباني أعمالهم وأفعالهم، كما قال الله تعالى عز وجل: ﴿وَلَا حِبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥٩) (٢) .. وهو القائل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ (٣) .. الكتاب: العقل، الميزان: الاجتهاد، الحديد: السيف، لينظر العقلاء في إعجاز القرآن، ويعرفوا شواهد القدرة ودلائل الصنعة بالعقل والحكمة والقياس والمجاهدة، ويمتنعوا عن سير الأفعال الذميمة وصور الأعمال غير المرضية، ويخاطبوا الجاهل سيئ المال أولاً بالحجة ثم يعرضوا السيف، لأن الجاهل لا يخشى العذاب الآجل بلا عقاب عاجل، ولا يجتنب تهيج الفتنة والتحريض على الفساد.

وكما أن الانقياد لأولى العزم من فرائض الفعل، فإن الامتثال لأولى الأمر من لوازم الشرع، وكما أمر الأنبياء والرسول بتبليغ الرسالة وإفشاء الدلالة وإظهار المعجزات، أمر الولاة والسلطين باستعمال العدل واستظهار الفضل كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (٤).

* * *

(١) الذاريات: آية : ٥٦.

(٢) الأنعام: آية : ٥٩.

(٣) الحديد: آية : ٢٥.

(٤) النحل: آية : ٩٠.

وهكذا تأثر جميع الأدباء الذين عاشوا في إيران منذ الفتح الإسلامي وحتى اليوم بالإسلام قلباً وقالباً، وإذا أقدم أحدهم على نقل كتاب باق عن أيامهم قبل الإسلام إلى لغتهم الفارسية الحديثة، فإنه سيخضع هذا الكتاب إلى الاتجاه الإسلامي العام في إيران، سواء في المقدمات التي يدبجونها فتأتي مليئة بالعديد من الآيات القرآنية والإشارات الإسلامية، أو حتى لو كان في الكتاب إشارات تتنافى مع الإسلام فإنهم يبدلون بها بما يتواءم مع الإسلام، وهذا ما حدث في الترجمات الفارسية الإسلامية لكتاب كلية ودمنة وكذلك هذه الترجمة لكتاب سندباد نامة، والذي جاءت مقدمته غاصة بالآيات القرآنية والنابضة بالروح الإسلامية.

* * *

إذا كنا قد ركزنا حتى الآن على ما جاء في مقدمات المنظومات والكتب من حمد لله والثناء عليه والابتهاال إلى المولى عز وجل، فليس معنى هذا أن الأدب الفارسي قد قصر هذه المعاني على تلك المقدمات، وإنما حفلت العديد من المنظومات الشعرية والكتب النثرية بالعديد من هذه المعاني داخل متون هذه المؤلفات النثرية أو الشعرية أو في نهايتها، ومما جاء في خاتمة بند نامة للعطار، أورد ما ترجمته:

- إلهي لتشملنا جميعاً برحمتك، ولتصفح عن جميع ذنوبنا

- إننا عاجزون، وما أكثر آثامنا، ولكن ليس لنا من ملجأ سواك

- إن تدعنا أو تبعدنا، فنحن عبيدك، وكلنا رضاء وسرور بحكمك^(١).

(١) النص الفارسي: هو:

عفوكن جمله كناه ما همه	يا إلهي رحم كن بر ما همه
نیست مارا غیر تو دیگر کسی	عاجزیم و جرمها کرده بسی
هر چه حکم تست از آن خرسند ایم	کر بخسوانی ور برانی بنده ایم

- فريد الدين العطار: بند نامة، كتابخانه شمس ١٣١٧ ش تهران، ص ١٢٨.

وقد جاء فى خاتمة الباب العاشر من "بوستان" سعدى وهو آخر الكتاب، تلك المناجاة التي أورد ترجمة لبعض أبياتها:

فى التضرع إلى الله

- إلهى، انظر إلينا بعين الجود، لأن الجرم جاء من العباد فى الوجود
- جاء الجرم من العبد الذليل الحقير، بأمل العفو من الله العلى الكبير
- أيها الإله الكريم لقد تربينا برزقك، وقد اعتدنا إنعامك ولطفك
- مادمت قد جعلتنا أعزاء فى الدنيا، فإننا نتطلع ونتوقع عين هذا أيضاً فى العقبى

- ٥- أنت وحسب تهب العزة والذلة، وعزيزك لا يرى من أحد مذلة
- يا إلهى! بعزتك لا تجعلنى ذليلاً، ولا تخجلنى بذل جرمى
- لا تسلط على رأسى من هو مثلى، وإذا عوقبت، فمن يدك أفضل
- يا إلهى بحق ذات ألوهيتك، وبأوصافك التي لا مثيل ولا شبيه لها
- ولبليك حجاج البيت الحرام، وبمدفون يشرب عليه السلام
- ١٠- إن تدركنا وتغيثنا من عار القول بالثنوية فى تلك الورطة، ورطة الاحتضار

- ولا تعصب عينى عن وجه السعادة، ولا تعقل لسانى وقت النطق بالشهادة
- ارفع سراج يقينى على الطريق واقصر يدى عن العمل السيئ.
- وحول عينى عما لا يليق رؤيته، ولا تساعدنى على المستقبح غير المرضى

- یکفینی شعاع شمس لطفک، لأنه لایرانی أحد إلا فی شعاعک
 ۱۵- یا الهی لاتطر دنی بذلة من بابک، لأنه لا یوجد لی باب آخر (۱)

* * *

ومن ابتهالات ناصرو خسرو (۲) نذکر ما ترجمته:

(۱) النص الفارسی؛ هو:

- | | |
|-------------------------------|------------------------------|
| خداوند گارا نظر کن بجود | گه جرم آمد از بندگان در وجود |
| گناه آید از بندهء خاکسار | بامید عفو خداوند گار |
| کریما برزق تو یرورده ایم | بانعام و لطف تو خو کرده ایم |
| چو ما را بدنبال کردی عزیز | بعقبی همین چشم داریم نیز |
| ۵- عزیزی و خواری تو بخش و بس | عزیز تو خواری نبیند ز کسی |
| خدایا بعزت که خوادم مکن | بذل گنه شر مسمارم مکن |
| مسلط مکن چون منی بر سرم | زدست تو به گر عقوبت برم |
| خدایا بذات خداوندیت | بار صاف بیمثل و مانندیت |
| بلبیک حجاج بیت الحرام | بمدفون یثرب علیه السلام |
| ۱۰- که مارا در آن ورطهء یکنفس | زنگ دو گفتم بغری یاد رس |
| که چشم ز روی سعادت میند | ز بام بوقت شهادت میند |
| چراغ یقینم فراه دار | ز بد کسردم دست کوتاه دار |
| بگردان نادیدنی دیده ام | مده دست بر ناپسندیده ام |
| ز خورشید لطف شعاعی بسم | که جز در شعاعت نبیند کسم |
| ۱۵- خدایا بذلت مران از درم | که صورت نبندد دری دیگرم |

(سعدی شیرازی: بوستان، باب دهم، ص: ۱۶ و مابعد)

والتريمة العربية منقولة عن أريج البستان ترجمة د. أمين عبد المجيد بدوي ص: ۲۶۸.

(۱) ناصرو خسرو: ولد فی قبادیان ببلغ عام ۳۹۲ التحق بالبلاط الغزنوی ثم بالبلاط السلجوقی بعد ذلك، ولكنه زهد هذه الأعمال وأثر السياحة حيث زار الشام والجزيرة العربية واستقر فترة بالقاهرة وقد سجل رحلته هذه فی كتابه الشهير سفر نامه. وله ديوان شعر كبير كذلك إلى جانب كتاب آخر هو زاد المسافرين. وقد توفي عام ۴۸۱ هـ.

- أربعة أشياء هي التي تؤنس روحى طوال الزمان
- هي الزهد والعلم والعمل وترتيل القرآن
- وعينى وقلبى وأذنى أثناء الليل الطويل
- تكرر النصيح والموعظة لجسدى الضعيف إلى كل أمر حرام
- فتقول العين: بربك احفظنى من التطلع إلى كل حرام
- وصنى من الوقوع فى الشرور والخطايا والآثام
- وتقول الأذن: اسدد على السبيل وأغلق على الطريق
- حتى لا أستمع للأكاذيب والأباطيل المليئة بالتلفيق
- يقول القلب: بربك احفظنى من التردى فى المطامع والأهواء
- وحصنى من نزعات الهوى، كما يفعل الرجال الأصفياء^(١)

* * *

(١) أدوارد براون: تاريخ الأدب فى إيران ٢ ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٩٥.
وعنه أيضا ننقل النص الفارسى:

- | | |
|--------------------------|-------------------------------|
| مؤنس جانند هر چهار مرا | - خواندن فرقان وزهد وعلم وعمل |
| پند دهد باتن نزار مرا | - چشم ودل وگوش هریکی همه شب |
| بسته همی‌دار زینهار مرا | - چشم همی‌گوید از حرام وحرم |
| راه بکن سخت و استوار مرا | - گوش همی‌گوید از محال ودروغ |
| سخت نگه‌دار مرد وار مرا | - دل چکد گویدم همی زهوا |

وهكذا نرى أن الابتهاال إلى الله عز وجل وتقديم الشكر والثناء على عظيم نعمه التي لاتعد ولا تحصى قد حفل به الأدب الفارسي شعره ونثره سواء في مقدمة المنظومات أو في متونها أو حتى في خواتيمها، هذا الابتهاال الذي يعبر عن روح إسلامية، وعن نزعة إيمانية ترجو رضاء الله ورضوانه، وتبغى عفوه وصفحه، وأن يتقبل خالص الأعمال الحسنة، ويظهر القلوب من كل ما يبعتها عن الطريق القويم، فهو نعم المولى ونعم النصير.

ثانيًا : نعت الرسول محمد عليه السلام

كما حفلت المنظومات الفارسية وكذلك الكتب النثرية بمقدمات فى الابتهاال إلى الله عز وجل وتقديم الشكر والثناء على عظيم نعمه وواسع كرمه وتعدى ذلك إلى متون هذه المنظومات والكتب، فقد حظيت هذه المنظومات والعديد من الكتب النثرية كذلك بنعت الرسول محمد - عليه الصلاة والسلام - وتقديم مظاهر التبجيل والاحترام لشخصه ورسالته، وكذلك طلب شفاعته لكى ينقذ أمة الإسلام من العقاب نتيجة للأخطاء والآثام التى ارتكبوها، ومازال يرتكبها العديد من أتباع دين محمد عليه السلام، وكما فعلنا فى الحديث عن الابتهاال إلى الله عز وجل وتقديم الثناء والحمد لذاته العلية، فسنحاول هنا كذلك الاقتصار على تقديم عدة نماذج محدودة مستقاة من أقوال كبار الأدباء فى إيران عبر عصور الازدهار وبخاصة فى العصرين السلجوقى والمغولى.

وقد ورد مدح الرسول - عليه السلام - وطلب شفاعته وهده فى مقدمة مخزن الأسرار لنظامى الكنجوى، نذكر مما قاله، ترجمة لبعض الأبيات:

- خاتم الرسل، خاتم الأنبياء، الشمس المضيئة جميع الأفلاك،
- إنه المرسل أحمد الذى يتعلق بأذيال تراه كلاً العالمين،
- يامن جسدك أظهر من الروح الطاهرة، وروحك جديرة بأن تردد روحى فداك!
- لقد أحاط تاجك وعرشك بالدنيا كلها، حتى أصبح عرشك الأرض وتاجك السماء!

- بفضلك أحلت تراب المساكن روضة زاهرة، وبفضلك أنرت عيون عابري السبيل والمحرومين.

- إننا مجرد أجساد، فأقبل، إذا أنت الروح لنا، ولسنا إلا غملاً فلتكن أنت سليماننا.

- أنت الحارس الأمين فكيف تترك القافلة وحيدة؟ وأنت القلب فمن ذا يرفع العلم؟

- لتكن حافظ أسرارنا في كل خلوة، ولتوقظنا إن ستسلمنا إلى النوم والغفلة.

- إذا كان أول بيت في القصيد بدأ باسمك، فإن اسمك سيكون قافية آخر بيت في القصيد^(١)

(١) وهذا هو النص الفارسي:

شمسه نه مسند هفت اختران	ختم رسل، خاتم پیغمبران
أحمد مرسل که خرد خاک اوست	هر دو جهان، بسته افتراک اوست
ای تن تو پاکتراز جان پاک	روح تو پرورده، روحی فسادک
تاج تو وتخت تو دارد جهان	تخت، زمین آمد وتاج، آسمان
ه - خاک ذلیلان شده گلشن به تو	چشم غریبان، شده روشن به تو
ما همه جسمیم، بیا جان تو باش	ما همه موریم، سلیمان تو باش
شحنه تو بی، قافله تنها چراست	قلب تو آری، علم آنجا چراست؟
خلوتی پرده اسرار شو	ما همه خفتیم، تو بیدار شو
اول بیت ار چه به نام تو بست	نام تو چون قافیه آخر نشست

(نظامی گنجوی: مخزن الاسرار، ص ۲۱-۲۵).

بدأ نظامى نعتة ببيان أن محمداً عليه السلام هو خاتم الأنبياء والرسل وبأذنيه تتعلّق آمال البشرية أملاً فى الخلاص من أوثان الشرك والمعصية، ثم انتقل إلى مناجاة الرسول ومخاطبته حتى يمد يده إلى عامة المسلمين والمؤمنين ليكون عوناً لهم فى حياتهم فيهديهم طريق الرشاد ويباعد بينهم وبين الأخطاء والآثام، فإذا كان التعساء والمظلومون والمحرومون قد أنصفهم الرسول عليه السلام بدعوته إلى الإخاء والمساواة وعدم التفرقة بين بنى البشر، وأنه لأفضل لإنسان إلا بعمله لا بحسبه ولا بنسبه، ولأفضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، فما أحوجنا اليوم أن يكون الرسول حارسنا وموقفنا، بعد أن سيطرت علينا الغفلة ورحنا فى سبات عميق كله دعة وتراخ فى أداء الرسالة التى خلق من أجلها آدميون، وأرسل للتذكير بها الأنبياء والرسل، وإذا كان محمد عليه السلام خاتم الرسل كما جاء فى أول كلامه، فهو أول الخلق وخاتمهم كما جاء فى آخر كلامه.

وممن أفاضوا فى نعت الرسول الكريم فى جميع منظوماته وكتبه فريد الدين العطار، فنقد نظم مائة وأربعة وأربعين بيتاً فى مدحه الرسول فى منظومة منطق الطير وحدها، وسنكتفى بتقديم ترجمة لبعض ما قاله.^(١)

المصطفى سيد الدنيا والدين، كنز الوفاء وصدر العالمين وبدرهما، هو شمس الشرع وبحر اليقين، ونور العالم والرحمة للعالمين ... إنه سيد الكونين وسلطان الجميع، صاحب المعراج وصدر الكائنات ظل الحق وسيد شمس الذات.

كلا العالمين يمضيان فى ركابه، ترابه قبلة العرش والكرسى، إنه سيد هذين العالمين وصاحب القدوة فى الخفاء والعيان، أعظم الأنبياء ومرشد الأصفياء والأولياء، إنه المهدي إلى الإسلام الهادى السبل، هو السيد الذى يفوق كل ما

(١) يمكن مراجعة نعت الرسول الكريم كاملاً فى الترجمة العربية لمنطق الطير، ترجمة بديع جمعة، ص: ١٥٦ وما بعدها.

أقول، والسباق في كل شيء على الكل،^(١) وقد قال سيد الكونين^(٢) عن نفسه:
« إنما أنا رحمة مهداة »^(٣)

استمد العالمان اسميهما من وجوده، ووجد العرش راحته من اسمه، وتم خلق كل شيء كقطرات ندى من بحر جوده، نوره مقصد جميع المخلوقات، وهو أصل جميع الموجودات والمعدومات..

إنه المبعوث إلى الجميع ولاجرم، إنه المبعوث حتى يوم الميزان إلى جميع الخلق في كل عصر وزمان، ... ولما كان نوره أصل كل الموجودات، ولما كانت ذاته مانحة كل ذات، وجب أن تكون دعوته لكل العالمين ولكل المخلوقات في الخفاء والعيان، فاقبل عليه الجميع كما أقبلت عليه أمته، فكانوا جميعاً قاطفي ثمار همته، ويوم الحشر يقول من أجل حفنة بلا عمل صالح: هذه أمتي فترد بعد هذا شفاعته، فيرسل الحق الفداء لهذه الأمة إكراماً لروح النبي نور الهدى.

جاءت دعوته من أجل الخاص والعام وأتم الله به نعمته على التمام، ثم أعطى مهله للكافرين في مجازاتهم بالعقاب، حيث كف في عهده إرسال العذاب، الدين والدنيا في كف همته، كما وهب حياته من أجل أمته. سار في معراجهِ بالليل فوضح أمامه سر الكل، وأصبح ذا القبلتين لسمو رفعة وشأنه ... وتلقى من الحق أعظم كتاب، فوجد الاحترام والتقدير من الجميع والأحباب.

(١) هذا الكلام إشارة إلى الحديث النبوي: " أول ما خلق الله نوري "؛ إذ أن العطار يعتقد أن أول ما صدر عن مصدر الوجود هو النور المحمدي، ثم تم خلق جميع الموجودات من هذا النور المحمدي، انظر شرح أحوال ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدين محمد عطار نيشابوري، تأليف بديع الزمان فروزاني، ص ٤٢، ٣٥١، طهران ١٣٤٠ ش.

(٢) إشارة إلى الحديث: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. الجامع الصغير ج ١ ص ٣٦٣، القاهرة ١٣٥٢ هـ.

(٣) ورد هذا الحديث بنصه في الجامع الصغير، ج ١ ص : ٣٤٨.

زوجاته أمهات المؤمنين، ومعراجه تعظيم للمرسلين، وخلفه سار الأنبياء حيث كان رائدهم، وعلماء أمته كالأنبياء في مراتبهم، وتبجيلاً له ذكر الحق اسمه في التوراه والإنجيل^(١) واستمد الحجر منه المنزلة والرفعة، وأطلق عليه اسم يمين الله^(٢) وبعثه قضى على الأصنام وأمته خير الأنام.

استمدت الكعبة منه التشريف، فأصبحت بيت الله الحرام، وأصبح كل من دخلها آمناً، وعظم شأن الأرض في عهده؛ حيث حظيت بالمساجد، وجعلت كلها طهوراً.

... كلما غاص قلبه في بحر الأسرار، انخرط في الصلاة والأذكار، لذا كان يقول « أرحنا يا بلال حتى نخرج من ضيق هذا الخيال » وإذا ما سيطر عليه الاضطراب ثانية؛ كان يقول : كلميني يا حميرا.^(٣)

حينما تقدم موسى صوب بساط الجنب الأعلى، جاء أمر الحق بأن اخلع نعليك^(٤) وما أن اقترب وأصبح بعيداً عن نعليه حتى أصبح غارقاً في بحار النور بالوادي المقدس، أما في المعراج فكان الرسول شمع ذى الجلال يسمع صوت نعلي بلال، ومع أن موسى كان ملكاً وسلطاناً فما سلك الطريق وفي قدميه النعلان، فانظر إلى أى منزلة حظى بها تابع الرسول في بلاط الحق إكراماً للرسول، إذ سمح لتابعه بسلوك

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ . الاعراف. آية : ١٥٧.

(٢) ورد في لسان العرب: الحجر الأسود يمين الله في الأرض. وقال ابن الأثير: هذا كلام تمثيل وتخيل وأصله أن الملك إذا صافح رجلاً قبل الرجل يده، فكان الحجر الأسود لله بمنزلة اليمين للملك حيث يستلم ويلثم: نقلاً عن تعليقات القاضي طباطبائي، المدرجة بآخر منطق الطير طبعة طهران ١٣٤٧ ش.

(٣) يقصد بحميرا السيدة عائشة، رضى الله عنها، زوجة الرسول عليه السلام.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ . طه، آية : ١١، ١٢.

الطريق مرتدياً نعليه، وما أن رأى موسى العمراني تلك المنزلة، وما لتابعه من قرية، حتى قال: إلهي ! لتجعلني من أمته، واجعلني تابعاً لهيمته، ومع أن موسى أراد ذلك على الدوام؛ فقد أدرك عيسى سمو هذا المقام، فلا جرم أنه عندما يترك الخلوة؛ سيدعو الخلق إلى اتباع دينه، ويهبط من السماء الرابعة إلى الأرض واضعاً جبهته على ترابه وروحه تحت إمرته وهكذا أصبح المسيح تابعه، لذا أسماه الحق باسم «المبشر»^(١) إنه فصيح العالم وأنا عاجزه، فكيف يمكنني وصفه وشرح حاله؟^(٢)

هكذا نعت فريد الدين العطار رسول الله ﷺ في منظومته الشهيرة منطق الطير وكل هذه الصفات وغيرها، تتفق ومشاعر عامة المسلمين وحبهم للرسول - عليه السلام - ومع أن فريد الدين العطار قد نظم العديد من منظومته فقد حرص على أن يمدح في كل منظومة من منظوماته رسول الإسلام محمداً عليه أزكى السلام، ولم يكن مكرراً نفسه في كل مرة، وهكذا فعل فريد الدين العطار كما فعل غيره من كبار أدباء الفارسية الذين مدحوا الرسول في كل أعمالهم وإنتاجهم دون الوقوع في دائرة التكرار، بل كانوا يأتون بجديد في كل مرة، ولندلل على ذلك يحسن بنا أن نذكر بعض ما مدح به العطار النبي محمداً في مقدمة منظومته الشهيرة الثانية «إلهي نامه»، فقد جاء في ترجمة هذه المداخل ما تقدم بعضاً منه، راجين ممن يريد الاستزادة أن يرجع إلى الترجمات العربية لمنظومات العطار وأشهرها : منطق الطير ترجمة الدكتور بديع جمعة، وإلهي نامه ترجمة الدكتورة ملكة التركي، ومصيبت نامه ترجمة الدكتور محمد يونس، وكلها ترجمات منشورة في القاهرة بعد أن كانت رسائل جامعية مابين ماچستير أو دكتوراه، وهذه نماذج من مدائحه الواردة في مقدمة إلهي نامه:

(١) إشارة إلى قوله تعالى على لسان عيسى ﴿وَبَشِّرْهُ بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الصف آية : ٦
(٢) نظراً لطول الاستشهاد، اكتفيت بذكر بعض ما جاء في الترجمة دون ذكر النص الفارسي منعا للإطالة والإسهاب، وللإستزادة يرجع إلى الترجمة العربية لمنطق الطير.

محمد قدوة العالمين، ومهدى آل آدم؛ محمد شمس الخلق وقمر الأفلاك، محمد مصباح المعرفة وشمع النبوة، سراج الأمة^(١)، ومنهاج الملة وقائد ميدان الشريعة وأمير جيش السيرة، ملك العالم وفخر لولاء، سلطان الأرض والأفلاك، أمين الأنبياء وبرهان المنهاج، ملك بلا خاتم وسلطان بلا تاج ملك الدنيا ولكنه التزم بالفقر فخرى، آيته من ناحية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾^(٢) ورايته من ناحية أخرى ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾^(٣) ﴿لَعْمُرُكَ﴾^(٤) تاج مفرقة الذكى، و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾^(٥) طراز عهده، هو حقا تاج القاعدة، وهو قطعاً سيد الأنبياء، لا يوجد أفضل منه على الإطلاق، ولا يوجد أمين للحق سواء .. هو مفاتيح الهدى للعالمين، ومصابيح الدجى للدنيا والآخرة، حامل لأمانة رب العالمين.

... مع أنه خاتم الأنبياء، فقد وجد قبلهم، فحينما رفع آدم بصره لأول مرة، رأى اسم محمد مكتوباً فوق العرش، فسجد أمام اسم محمد الذى خلق من التراب الطاهر.^(٦)

عند ميلاد محمد أصاب الطوفان عبدة النار، حيث انطفأت نيران معابدهم بسببه فى الحال، فإذا كانت النار قد خمدت عن إبراهيم، فقد خمدت بسببه عن العالم بأسره وهو طفل رضيع.

(١) مصداقاً لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٣) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٤)﴾ الأحزاب، آية : ٤٥، ٤٦.

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ سورة الفتح، آية : ١

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ سورة الصف، آية : ١٣.

(٤) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿لَعْمُرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧١)﴾ سورة الحجر، آية : ٧٢.

(٥) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)﴾ سورة الشرح، آية : ١.

(٦) ينسب إلى الرسول (ص) قوله إنه يفضل الأنبياء بست فضائل. منها التراب الطاهر، تعليقات روحانى ص ٢٢٤ (إلهى نامه).

ما أن ارتفع خفه بالخطو في طريق الدين، حتى سقط التاج عن رأس كسرى^(١)،
كما أن ثنايا نؤابته قد أسقطت تاج قيصر، وأطلحت بخاقان الصين:

كان محمد المقصود بكل الأنبياء، وعندما بعث ختمت به النبوة، ألم تر الجند
يأتون في البداية، ثم يتبعهم بعد ذلك الملك العظيم، الأنبياء كالجند الهدف من وجودهم
هو الملك، وعندما ظهر سلطان الأنبياء، ختمت به النبوة، لأنه المراد.

... ومع كل هذه المكانة فقد كان يكنس المنزل أحياناً، وأحياناً أخرى ينام على
الأرض هادئ البال مطمئناً، وكان تارة يسرع مع عائشة لأداء بعض الأعمال، وتارة
أخرى يرفع الأجر والطين لبناء المسجد، وفي بعض الأوقات كان يرتق نعليه، وفي
أوقات أخرى يجالس الأطفال ... حتى إنه كان من حلمه يفعل كالجمل أحياناً، وذلك
للتسرية عن حفيديه الحسن والحسين.

وذات ليلة صعد إلى العرش والسماء، واعتلى العالمين، كان البراق ملثماً شوقاً
إليه، لذا فقد دخل جبريل - عليه السلام - وقال، أيها الطاهر لماذا تلازم الأرض؛ توجه
إلى الأفلاك لأن الحق شرفك بملك العرش، فتقدم إلى إيوان العرش ... فإن كنت ضيقاً
على الأرض فترة، فقد حل الدور الآن على الأفلاك ... وما أن انطلق براق صدر العالم؛
حتى وصل إلى السماء السابعة كالبرق، فانكشف له عالم العرش ووضع قدمه في
مقعد صدق^(٢) وهنا انطلقت صيحات ساكني السماوات قائلة : لقد جاء سيد العالم
إلى الميقات، جاء اليتيم من سلالة أبي طالب، جاء دراً يتيماً طالباً للحق، فخرجت من
الحضرة في الحال مئات الألاف من الأرواح العلية لاستقباله.

(١) إشارة إلى امتزاز عرش كسرى ليلة ميلاد الرسول عليه السلام.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ﴿٢٥﴾ سورة القمر، آية : ٥٥.

... ماذا أقول يارسول الله أكثر من هذا، فانا عاجز، ولا أعلم أكثر من هذا، ما أفضل أن أصبح جبريل رسول بلاطك، وكان كل عمله التردد في طريقك، وعندما أبصر ميكائيل عين ملكك؛ أصبح أجيراً لجند جيشك، ونتيجة لشجاعتك ظل عزرائيل مستعداً دائماً بسيفه، وأصبح الأمين حارساً لأعتابك، والملائكة حجاباً على بابك، وكرام الكاتبين حارسيك.

ماذا أقول وصفاتك على هذا النحو، لا أعلم كيف يتأتى ثناؤك، وإن قيل؛ فهل ثقيله؟ أنت تعلم أنه من بين المتحدثين لم يقل أحد مثل هذا المديح، إلا العطار فقط، هذه الأشعار عروس ... قبولاك لها زينتها وحليتها، إن تقبلها منى يرتفع شأنى، وإلا زهقت روحى الحزينة ... ماذا أقول يارسول الله بعد ذلك، لقد تحدثت بهذا القدر، قدر استطاعتي^(١).

هكذا مدح فريد الدين العطار رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فى مقدمة مثنوياته وألهج فى المدح والثناء. دون أن يكرر فى كل مرة ما قاله فى أى عمل سابق، وكما فعل فريد الدين العطار فعل غيره من أدباء إيران الذين أنتجوا أكثر من عمل، فكان مدحهم الرسول مبتكراً فى كل عمل، متفرداً فى كل منظومة أو كتاب سواء كان هذا المدح فى مقدمة هذه الأعمال أو فى متونها، وقد حرص معظمهم على ذكر بعض من سيرة الرسول فى هذه المدائح، ولكننا سنرجئ الحديث عن هذه السيرة، وعن القصص النبوى والقرآنى إلى فصل لاحق، مركزين هنا على المدائح المباشرة وحدها.

وشاعر كبير آخر هو سعدى الشيرازى قد خص الرسول - عليه السلام - بالكثير من مدائحه وسنكتفى بإيراد ترجمة لبعض أبيات هذا النعت الذى قدم به كتابه العظيم «بوستان»:

(١) يمكن مراجعة هذا النعت والمدح كاملاً وهو يقع فى حوالى ثلاثمائة بيت من خلال الترجمة العربية لإلهى نامه والتي أنجزتها الدكتورة ملكة على التركى.

- كريم السجايا جميل الشيم، نبي البرايا شفيع الأمم
- إمام الرسل، هادى السبل، أمين الله، مُهبط جبريل
- شفيع الورى سيد البعث والنشر، إمام الهدى صدر ديوان الحشر
- شفيع مطاع، نبي كريم، قسيم جسيم، نسيم وسيم
- ٥- اليتيم الذى لم يصطنع القرآن، وإنما غسل ومحا مكاتبات عدة أمم
- حين سل عزمه سيف الخوف، شق القمر نصفين بالمعجزة^(١)
- ولما وقع صيته فى أفواه الدنيا، وقع التزلزل فى إيوان كسرى
- بلا^(٢)، حطم قامة اللات جذاذا، وباعزاز الدين أذهب ماء رواء العزى
- لم يثر غبار الدمار من اللات والعزى فحسب، بل نسخ التوراة والإنجيل
- ١٠- ركب ليلة فجاور الفلك، وبالتمكين والجاه فاق الملك
- وساق بحرارة فى تيه القربة، بحيث تخلف عنه جبريل عند السدرة^(٣)
- فقال له سيد البيت الحرام، يا حامل الوحى تبختر إلى أعلى
- ما دمت وجدنتى مخلصاً فى الحبة، لماذا لويت العنان عن صحبتى؟
- فقال لم يبق لى مجال إلى أعلى، فبقيت لأنه لم تبق لى قوة جناح

(١) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) ﴾ سورة القمر، آية : ١.

(٢) بلا : اختصار عبارة التوحيد: لا إله إلا الله.

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَةً أُخْرَى (١٢) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) ﴾

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) ﴾ سورة النجم، آيات : ١٢-١٦.

- إذا طرت أعلى قيد شعرة، يحرق نور التجلي جناحي
- أي نعت مرضى أقوله لك : (عليك السلام أي نبي الوری)
- فليكن سلام الملك على روحك، وعلى أصحابك وعلى أتباعك
- لقد أننى عليك الله وبجلتك، وجعل جبريل مقبلاً أرض قدرك
- السماء العالية خجلة أمام قدرك، لقد خلقت وآدم لم يزل ماء وطيناً
- أنت جئت أصل الوجود من البداية، وكل ما صار موجوداً بعد ذلك هو فرعك
- لا أدري أي كلام أقوله لك، فأنت أسمى مما أقوله لك
- يكفي عز لولاك^(١) تمكيناً لك، ويكفي (طه) و (يس) ثناء عليك
- كل ما يصفك به السعدى أقل مما يجب، (عليك الصلاة يا نبي السلام)^(٢)

(١) إشارة إلى الحديث الشريف : "لولاك لما خلقت الأفلاك".

(٢) أريج البستان (الترجمة العربية ليوستان سعدى) ترجمة د. أمين عبد المجيد بدوي، ص ٢١-٢٢.

أما النصر الفارسي : فهو :

كريم السجایا جميل الشیم	نبي البرایا شفیع لأمم
أمام رسل، پیشوای سبیل	أمین خدا، مهبط جبرئیل
شفیع الوری، خواجه بعث ونشر	أمام الهدی، صدر دیوان حشر
شفیع مطاع، نبي کریم	قیم جسیم نسیم وسیم
۵- یتیمی که ناکرده قرآن درست	کتبخانه چند ملت بهشت
چو عزمش برآ هیخت شمشیر بیم	بمعجز میان قمر زد دو نیم

هكذا مدح سعدى الشيرازى الرسول الكريم بما اتسم به نبي الورى من عظيم
الخصال والسجايا، ومن كرام الشيم والأخلاق، مركزاً كغيره ممن مدحوا الرسول على
ما أعطاه الله إياه من الشفاعة،، وكأنه وغيره من الأدباء وعامة المسلمين قد تمنوا على

تزلزل در آیوان کمری فتاد
باعزاز دین آب عزى ببرد
که تورات وانجیل منسوخ کرد
بتمکین وجاه از ملک در گذشت
که بر سدره جبریل ازو باز ماند
که ای حامل وحی چرا تافستی؟
عنایم ز صحبت چرا تافستی؟
بماندم که نیرودى بالم نماند
فـرـو غ تجلی بسـرـوزد پرم
عليك السلام ای نبی الورا
بر أصحاب و بر پیروان توباد
زمین بوس قدر تو جبریل کرد
تو مـخلوق آدم هنوز آب و گل
دگر هر چه موجود شد فرع تست
که والا تری آنچه من گویت
ثنای تو طه ویسن بـست
عليك الصلاة ای نبی السلام

= چو صیتش در افواه دنیا فتاد
بلا، قامت لات بشکست خرد
نه از لات و عزى برآورد کرد
۱۰- شبی برنشت از فلک بر گذشت
چنان گرم در تیه قربت براند
بدو گفت سالار بیت الحرام
چو در دوستی مخلصم یافتی
یگفتا فراتر مجالم ثماند
۱۵- اگر یکسر موی برتر پرم
چه نعت پسندیده کـویم ترا؟
درود ملک بر روان تو باد
خدایت ثنا گفت و تبجیل کرد
بلند آسمان پیش قدرت خجل
۲۰- تو اصل وجود آمدی از دهن تست
ندائم کدامین سخن گویمت
ترا عـز لولاک تمکین بست
چه وصفت کند سعدی، نا تمام
(کلیات سعدی، بوستان؛ ص ۴-۶)

الرسول الكريم ألا يتخلى عن أمته وأن يكون شفيعاً لهم يوم الحساب، كما أشار إلى يتم الرسول عليه السلام، وكذلك أميته، وعلى الرغم من هذا اليتيم وتلك الأمية، فقد أصبح سيد العرب والعجم بفضل بعثه رسولا ونبياً، وبفضل نزول القرآن عليه أصبح علمه من القرآن، وليس من علم الكهانة وغيرهم من معلمى الجاهلية.

وكم كان بعثه نوراً قد بدد الشرك والوثنية، وحطم آلهة الشرك والكفر كما حطم عروش الجبابرة والأكاسرة، وأشار سعدى إلى ما حظى به الرسول الكريم من مكانة عليا لا فى الأرض وحدها، بل أيضاً فى السموات السبع فقد كان معراجة عليه السلام دليلاً على علو شأنه، ورفعة مكانته، تلك المنزلة التى لم يصل إليها نبي قبله ولا رسول سابق عليه.

ومع كل ما قاله السعدى من مدح وثناء فإنه يشعر بالخجل، لأن كل ما قاله ويقولوه أقل مما يستحقه الرسول عليه السلام، ولكن عذر سعدى فى أنه قال كل ما يستطيع، وليس لديه القدرة على أن يقول أفضل مما قال؛ لذا فهو يلتمس من الرسول الكريم أن يقبل عذره. إن كان فى كل ما قال مقصراً وغير موفى الرسول حقه من المدح والثناء!.

ومن الشعراء الكبار الذين أثروا الأدب الفارسى بالعديد من المنظومات والكتب النثرية وشارك فى مدح الرسول فى كل كتبه ومنظوماته؛ الشاعر عبد الرحمن الجامى، وعلى سبيل المثال اذكر ترجمة لبعض ما قاله فى مقدمة منظومته «يوسف وزليخا».

- عندما توج القلم الأزلى باسم محمد، جعل من ميمه حلقة تحيط به

- وبفضل هذا الاسم أنمحي خط لوح العدم، وظهر الملوك والملائكة من هذه الحلقة .

- وحاشا لله أن يستطيع العقل، بكل ماله من إدراك، أن يقف على سر (حاله).

- فقد أضاءت «حارّه» هذا الدير ذا الجهات الست، والروضة الثامنة من الجنات الثماني.

وعندما زين العدم بخلخل داله توالى أسماء بقية الأنبياء في عقبه

- فياله من اسم، ذلك الذى لم يسبقه اسم آخر فى ديوان الوجود.

- وحين يترنم لسانى باسمه، يفعم قلبى وروحى باللذة.

- فإن كان هذا هو شأن الاسم، فما بالك بالمسمى، إنه أكثر المخلوقات تعظيماً.

- إذا كان الله قد كرم بنى آدم على جميع المخلوقات، فقد جعله أكثر أبناء الدم تكريماً.

١٠- ومنحه الزعامة على كل الزعماء، ووجهه القيادة على ركب الأنبياء.

- فعندما خطا آدم فى طريق الوجود، تنفس بمحبة وجه صاحبه المشرق.

- ومالم يفتح الطريق لجوده، فأنى لسفينة نوح أن تصل إلى «الجودى»؟.

- وتنسم الخليل نسيماً منه، جعل النار بهيجة كالباستان من حوله.

- وبشر المسيح بمقدمه، والتمس الكليم قبساً من نوره.

١٥- ووصل جاهه من كنعان إلى مصر، حين كان يوسف عبداً يباع فيها.

إنه سرورة باسقة فى بستان الوفاء، وتدرج مزدان من حديقة الأصفياء.

... مع أنه أصاب عين الكفر بالعمى، فقد أضاعت به عين الإسلام وكأنه
الكحل^(۱).

كما تحدث عن شفاعة الرسول الكريم لأمته يوم القيامة، راجياً من النبي العظيم
ألا يتخلى عن أمته مهما تعاظمت ذنوبها أو كثرت خطاياها، لأنه الملاذ والملاجئ لهم يوم
الحشر العظيم، ومما قاله؛ ما ترجمته:

(۱) راجع بقية هذه المناقب في الترجمة العربية ليوسف وزليخا التي أعدها الدكتور عبد العزيز بقوش
ونشرها في مجلة أخبار الأدب، العدد ٢٩ وما بعده، أما عن الأصل الفارسي لهذه الأبيات (ضمن نسخة
يوسف وزليخا) عام ١٣٤٧ هـ ق، ص ٨٠٧ وهذا هو النص الفارسي.

محمد كش قلم چون نا مور ساخت	زمیمش حلقهء دور گر داشت
خط حرف عدم زان لوح حك شد	از آن سر حلقهء ملك و ملك شد
تواند شد ز سر حالش آگه	خرد یا جمله دانش حاش لله
درین دور مـثمن زدست روشن	مـثمن گلشنی از آن هفت روزن
۵- چو پا انداخت از خلخال دانش	سردین پروران شد پایمالش
چونا مست اینکه از دیوان هستی	بر او نگرفت نامی پیش دستی
زبانم چون روی حرفی سر آبد	دل جـــــاتم زلذت در بر آید
چو نام این است نام آور چه باشد	مکرم تر بود از هر چه باشد
مکرم شد ز عالم نسل آدم	مکرم تر وی است از هر مکرم
۱۰- خدا بر سرور ان سرداریش داد	ز خلیل انبیا سالاریش دم زد
چو آدم در ره هستی قدم زاد	زمهر روی صبح آراش دم زد
ز جودش گر نگشتی راه مفتوح	بزدی ره بجودی کشتی نوح
خلیل از وی نسیمی یافت کاتش	بر او شد همچو خرم گلستان خوش =

- ارتداء ثياب التضرع، والمثابرة في اقتباس نور الشفاعة.
- لقد فاضت أرواح الخلائق من فراقك، فترحم يانبي الله ترحم.
- ألسنت في النهاية رحمة للعالمين، فلماذا أنت غير آبه بالخرومين؟
- أجل ليلة أحزاننا نهاراً، واجعل نهارنا مباركاً ببركة وجهك.
- ومع أننا غرقنا في بحار الذنوب، وسقطنا على تراب الطريق بشفاه صادية.
- ٥ - فإنك سحاب الرحمة، ومن الخير أن تلقى نظرة على الظمأى في بعض الأحيان.
- وما أطيبه ذلك الوقت الذي وصلنا فيه إليك، وكنسنا بأهدابنا غبار حبك.
- وسجدنا سجدة الشكر في مسجدك، وأحلنا أرواحنا فراشات لمصباحك.
- وسلكنا الطريق إلى منبرك، وذهبنا قوائم بصفرة وجوهنا.
- وحققنا أما نينا بالسجود في محرابك، وغسلنا مواطئ أقدامك بدموع أعيننا.
- ١٠ - وطفنا حول الروضة بحماس، وبقلبي ثقب كالثاقدة.

كليم از مشعل أو شعله جوئی	= مسیح از مقدم أو مرّده گوئی
غلامی بود یوسف زر خریده	۱۵ - عصر جاهش آز کنعان رسیده
زیباغ اصطغی رعنا تذروی	زیستـان وفا آزاده مروی
چو سرمه ساخت روشن چشم اسلام	اگرچه کور شد زد چشم هر خام

- وبللنا بقطرات سحاب العين الساحرة أعتاب روضتك المقدسة .
- فتارة كنا نكنس الغبار من ساحتها وتارة كنا نلتقط القش والأشواك منها .
- فأصبح هذا الغبار نوراً لسواد العين، وتحولت الأشواك والقش بلسماً أجرح القلب .
- ورغبة إليك أضرمنا النار في قلوبنا، حتى تكون قناديل لك !
- ومالم تشملنا بعون لطفك ، فلن يتأتى منا أى عمل !
- إن القضاء يلقي بنا في طريقك ، لذا نستحلفك أن تطلب من الله
- أن يهبنا حياة عامرة باليقين ، وأن يثبتنا في أمور الدين .
- وألا يريق ماء وجوهنا بدخول النار ، عندما يأتي هول يوم القيامة .
- وأن يمنحك الإذن بالشفاعة لنا ، مع كل مانحن فيه من ضلال^(١) .

(١) المرجع السابق، الترجمة العربية، وكذلك الأصل الفارسي لهذه الأبيات بالنسخة الفارسية ص : ٦ . ٧ .

لباس ضراعت پو شیدن ودراققباس نور شفاعت کوشیدن

تو مهجوری برآمد جان عالم	ترحم یا نبی الله ترحم
نه آخر رحمة للعالمین	ز محرومان چرا فارغ نشینی
شب اندوه مارا روز گردان	ز روبرو روز مافیروز کردان
اگر چه غرق دریای گناهییم	فتاده خشک آب برخاک راهیم
۵- تو ابر رحمتی آن به که گاهی	کنی بر حال لب خشکان نگاهی
خوش آن کز گردد ره سویت رسیدیم	بدیده گردی از کویت کشیدیم =

وَأدلى الراوندى مؤلف راحة الصدور وآية السرور بدلوه كذلك فى مدح الرسول عليه السلام، ومما قاله فى مقدمة كتابه هذا ما ترجمته: (١)

چراغت را زجان پروانه كرديم	= بمسجد سجدهء شكر آنه كرديم
وز اين بر ريش دل مرهم بنهاديم	يسوى منبرت ره بر گرفتيم
قدم گاهت بخون ديد شستيم	ز محرابت بسجده گاه جستيم
دلى چون پنجره سوراخ سوراخ	۱۰- بگرد روضه ات گشتيم گستاخ
حريم استنان روضه ات آب	زديم از ابر اشك چشم بيخواب
گهى چيديم زان خاشاك و خارى	گهى رفتيم زان ساخت غبارى
وز اين بر ريش دل مرهم بنهاديم	از ان نور سواد ديده داديم
زديم از دل بپـــــــر قنديل آتش	زداغ اروزويت بادل خسوش
زادست ما نيابد هيچ كارى	۱۵- گر نبود زلطف دستيارى
خدا را از خدا در خواه مارا	قضامى افكند از راه مارا
دهد آنكه بكار دين ثباتى	كه يخشيد از يقين اول حياتى
بآتش آبروى مـــــــا نريزد	چو هول بروز رستاخيز خيزد
ترا اذن شفاعت خواهى ما	كند با اين همه گمراهى ما

(١) الراوندى: راحة الصدور وآية السرور، الترجمة العربية ص ٤٠-٤١.

أما الاصل الفارسى، فهو نقلاً عن النسخة الفارسية ص : ٥٠.

از باد بر مصطفى صد درود	خداوند كردنده چرخ كبود
كزو معجزت بافت هر كس كه جست	فرستادهء حق رسول درست
بروز و شب غمگسارش بدند =	دو داماد و خسرو گاه يارش بدند

- صلوات الله الذى يدير الأفلاك والسموات ، على نبيه المصطفى .

- الرسول الحق الذى تبدو معجزته لكل من أرادها .

- والتحيات أيضاً على صهره (عثمان وعلى) ، وعلى صاحبه (أبى بكر) .

- فإنهم أصدقاؤه الذين كانوا يشاركونه السراء والضراء ليل نهار .

- وعلى سبطيه الشجاعين اللذين يسموان على جميع أهل الجنة .

٥ - وبغير محبة هؤلاء .. لن يكون لنا فى يوم المعاد ملجأ أو زاد

- وكل جوهر ثمين من الكلام . كان مستطاباً لدى خالق الأنام .

- قد نزل إلى خير الناس ، كأنه هدية من السماء .

- وقد قال سيد العرب ، لا كان من يرثنى عن طريق الندب !

- فمئذ أن كان الأنبياء حتى صرت سيدهم .

مرا فراز باشند بر خورب وزشت

ندارم با خـويشتن هیچ زاد

ويا پیش جان آخرین به بدی

جو هدیه ز چرخ کیبود آمدی

که کم باد میراث گیر از نسب

که هستم مرا فراز هر انجمن

زمیراث ما بر خورد يك نفس

= دو سبط دلاور که اندر بهشت

٥- بجز دوستیشان ز بهر معاد

که گر جوهری از سخن مه بدی

به بهتر کس آن فرود آمدی

چنین گفت آن سر فراز عرب

که از معشر انبیا تا بمن

١٠- نه میراث گیرست از کس نه به کس

١٠- لم يرث الأنبياء شخصاً ، ولم يرثهم أحد^(١).

لقد شارك الراوندى غيره من الأدباء الإيرانيين فى مدح الرسول الكريم وذكر بعض مناقبه، ولكنه ذكر بعد ذلك أصحابه من الخلفاء الراشدين وكذلك سبطيه مع تركيزه بعد ذلك على أن الأنبياء ومنهم محمد عليه السلام لا يرثون ملكاً عن أحد، كما أن النبوة ليست إرثاً ولا ملكاً يورثه الأنبياء لأنبياءهم من بعدهم ، وهذا خلاف ما يدعيه بعض غلاة المذاهب غير السنية.

ويواصل الراوندى مدحه الرسول، فيقول ما ترجمته.

مئات الألوف من الصلوات والتحيات بعدد قطرات المطر وما فى الصحراء من مدر، على روح سيد المرسلين، ورسول رب العالمين الأكرم الأعظم «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، عليه أفضل الصلوات وأكرم التحيات، فقد خصه الله عز وعلا من بين الأنبياء بمزيد من الكرامة ومزية الفضيلة، فوضع على رأسه تاج الاصطفاء وجعله حارساً على جهات العالم الأربع.

ورد فى الحديث « زويت لى الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها »^(٢) وجعل أهل أقاليم العالم مطيعين لأمره، فقد ورد فى الحديث « بعثت إلى الأحمر والأصفر »^(٣).

(١) إشارة إلى الحديث الشريف : إنا معشر الأنبياء لا نورث ماتركناه، فهو صدقة أنظر لسان العرب، مادة : ورث.

(٢) حديث معروف رواه ثوبان قال : قل النبى (ﷺ) زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيلبلغ ملك أمتى مازوى لى منها ... (مشكاة، طبع دہلى ص : ٥٠٤).

(٣) حديث معروف رواه ابن سعد (هكذا ورد فى أصل الكتاب وصحته. بعثت إلى الأحمر والأسود) : كنز العمال ج: ٦ ص ١٠٩.

وأمر بسل السيف على أعداء الدولة، جاء في الحديث الشريف « بعثت بالسيف^(١) كما ورد في القرآن: وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ^(٢) ﴿ وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾^(٣)

- البشرى، البشرى .. فقد صار مقامى فى رحاب المصطفى .

والبشرى البشرى .. فقد رأت عيني منبر المصطفى ومقره .

- فيا ليتنى أركب الصعاب، وأقدم مهجتي هدية للمصطفى .

حتى ولو طوقت بالآفاق رجاء لقاء المصطفى .

- ولتكن روحي وجسدى فداء للمصطفى .

التي تحمل عتادى صوت سراى المصطفى .

- ويا أسفاه على عجمتنا فى حضرة أفصح العرب .

ويا أسفاه على لكنتنا ونحن نتلهف على مدح المصطفى .

... خرج من غار حراء بالدين والقرآن، لا بالصنم والقربان، وهو الذى اتخذ

شعار دعوته : ادع إلى سبيل ربك^(٤) طائفة فوقفت له جنود الكبرياء وأحاطت به

(١) إشارة إلى الحديث الشريف : « بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى تعبوا الله وحده لاشريك له .. كنز العمال، ج: ٢ ص ٢٥٢، كتاب الجهاد.

(٢) سورة التوبة ، آية ٧٣ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ (٧٣) ﴾

(٣) سورة الأنفال ، آية ٣٣ .

(٤) سورة النحل ، آية ١٢٦ .

جيوش القبة الخضراء، كما قال تعالى : ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴾ (١٢٤) ﴿١﴾.

- هناك حيث يستشفع بك الجميع لاتغنى عنهم السموات ولا الصلوات ولا الأكوان.

- وتبقى أنت وحدك آخر الشفعاء، كما أنك خاتم الأنبياء (٢).

- فإذا لم تكن للناس بضاعة من طاعة، فلتكن منا الذنوب ومنك الشفاعة !! (٣).

هذه قطرات من بحر المديح الذي قيل في سيرة محمد عليه السلام وفي وصف أخلاقه وشيمه، ومعصوميته، هذا المديح الذي يمكن أن يكون محوراً لعدة كتب لا لمجرد جزء من كتاب، هذا المديح الذي قال عنه المداحون، إننا مهما قلنا، ومهما أفضنا القول فإننا نشعر بالتقصير، وإننا لم نعط رسول البشرية محمداً ما يستحقه من ثناء عاطر وشكر وافر على ما قدمه للبشرية نتيجة بعثه رسولاً ونبياً، وحاملاً أعظم رسالة فيها الهداية والرشاد لبنى البشر جميعاً، حيث لم يرسل إلى أمة دون أخرى، بل كان بعثه للبشرية جميعاً.

كما يلاحظ أن جميع ما دحيه قد ركزوا كذلك على الشفاعة مطالبين بالمزيد منها وكأنهم يقولون أغثنا يا رسول الله، أغثنا يا شفيعاً عند الله، إننا خطاءون وأنت الشفيع، إذا لم تكن منك الشفاعة فلا أمل لنا في النجاة فلا تكلنا يا رسول الله إلى أخطائنا بل خذ بأيدينا نحو بر الأمان وبعيداً عن نار جهنم والعياذ بالله !!

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٢٠.

(٢) إشارة إلى الحديث المعروف : " على منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي: كنز العمال، ج: ٦ ص ١٥٣.

(٣) يمكن مراجعة الترجمة كاملة بالترجمة العربية لراحة الصدور، ص. ٤٠ - ٤٤.

ثالثاً : فى مناقب الخلفاء الراشدين

فى مناقب أمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضى الله عنه :

حفل الأدب الفارسى وبخاصة قبل بداية العصر الصفوى (٩٠٥ هـ)، بالعديد من القصائد والقطع الشعرية والنثرية التى أنشدت فى حق الخلفاء الراشدين وصحابة رسول الله الكريم مشيدين بهم، ويتضحياتهم من أجل الإسلام والمسلمين، وباتخاذهم أمثلة يجب أن تحتذى فى الفعل والقول؛ حتى يحظى كل من يتأسوا بهم بالخلق الرفيع وبالعامل الصالح تقريباً إلى الله عز وجل، أول هؤلاء الصحابة كان رفيق الرسول (ﷺ) بالغار أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه، فقد قال فى حقه فريد الدين العطار فى منظومته "إلهى نامه" ما ترجمته:

قائد رجال الدين، الصديق الأكبر، والإمام الصادق لأصحاب المحشر، كان أعظم رحمة مهداة إلى الرسول، لأنه كان سابقاً بالخيرات فى الدين^(١) قرين الخلوة وصديق الغار، هبته فى اليوم الأول أربعون ألفاً^(٢) إنه الشخص الذى سن سنة حسنة، يصله أجرها دائماً ، ولأن أبى بكر بدأ على هذا النحو، فقد منح أجر الدنيا كلها، ولأن إيمانه

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٣٢) فاطر . آية : ٢٢ .

(٢) يقال إن أبى بكر عندما أسلم كان يملك أربعين ألف درهم، أنفقها كلها فى سبيل علو شأن الإسلام نقلاً عن حواشى الترجمة العربية لإلهى نامه للدكتورة ملكة التركى.

منذ الخليقة فهو يعلو كل إيمان لقدمه، ألم يعان آلام الأسنان عشر سنوات، ولم يخبر الرسول بهذا الأمر، وعندما كشف الحق للرسول أمر رفيقه، قال له الرسول : أيها الصديق لماذا لم تخبرني بهذا الأمر؟ ولكن ليس بمستغرب معرفة ذلك من الحق، إن الشخص الذي حفظ سر جسده على هذا النحو، ليس له من سبيل لحفظ سره سوى الحق... وكأنما ألقم فمه حجراً، حيث كانت روحه مستغرقة في الحق تماماً، ولذا قلما كان يجرى الكلام على لسانه، ولأن روحه قد انشغلت بالمعرفة، فلم يُر عنه إلا ثمانية عشر حديثاً فقط!.

... لم يكن يتزايد في أي شيء قط، ولم يتحدث إلا بأقيلوني^(١).

... لقد تصدى أبو بكر وهو في الغار لأذى الحيات السامة حتى يكف أذاها عن الرسول.

لقد شبه الرسول (عليه السلام) أبا بكر وعمر، الأول بالسمع والثاني بالبصر.

ولما كان النبي قد شبههما بالسمع والبصر، فإن من لا يقبلهما أصم وضير^(٢).

(١) قال أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة له بعد مبايعته بالخلافة قوله الشهيرة: قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتم فأعيتوني، وإن أسأت فاقيلوني....

وفي رواية أخرى : " فقوموني! "

(٢) راجع بقية الحديث عن مناقب أبي بكر الصديق في الترجمة العربية لآلهي نامه ص ١٥، ١٦ أما النص الفارسي فهو : انظر النسخة الفارسية، ص ١٩، ٢٠ : تهران ١٣٦٤ ش:

سر مردان دين صديق أكبر	أمام صادق أصحاب محضر
مهيمن رحمت مهادت أو بود	که در دين سابق الخبرات أو بود
شب خلوت قرين ديار غاراست	تشارش روز اول چل هزار است
کسی کو سنتی نیکو تهادست	همیشه أجر آتش دست دادست
۵- بدین بو بکر چون کردست آغاز	بدو گردد همه أجر جهان باز =

ولم يكتف العطار بذكر هذه المناقب من السيرة العطرة للصديق أبي بكر، فقد ذكر بعض مناقبه مرة أخرى في مقدمة منظومته منطق الطير، ومما جاء فيها ما ترجمته:

- السيد الأول صاحب الرسول، وثاني اثنين إذ هما في الغار^(۱).

<p>همی چربد بر ایمان ها ز سبقت پیمبر را نکرد آگه از آن حال پیمبر گفتش ای در کار صديق ز حق گفتن انكو نبود شكایت بسر جان او جز حق كه ره داشت؟ كه تا كو هر نیفشاند زبانش كه كم رفتی حدیثی بر زبانش از او هجده حدیث آمد روایت كه آن هجده حدیثش یا دگار است كه دم جز در "اقیلونی" نمیزد توان گفتن كه این كس یار غار است نیاید در گزند آنچنان بار بصر خواند این بك و سمع آن دكر را كسی كاین دو ندارد گور و كر مانند</p>	<p>= از آن ایمان او در اصل خلقت مگر او در دندان داشت ده سال حق گفت آن پیمبر را بتحقیق چرا با من نکردی این حکایت ۱۰- کسی کو سر تن زینسان نگه داشت نهاده بود سنگی در دهانش چنان مستغرق حق بود جانش چو جانش بود مشغول درایت سزد عالم اگر هجده هزار است ۱۵- نفس هر كز در افزونی تمیزد كسی كو در گزند مار یار است كه تا پر زهر نبود آنچنان مار چو پیغمبر أبو بكر و عمر را نبی چون هر دو را سمع و بصر خواند</p>
---	---

(۱) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَتَصَرَّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ التوبة، آية: ۴۰.

- صدر الدين ، الصديق الأكبر ، قطب الحق ، له في كل شيء على الجميع السبق .
- كل ما ألقى به الحق من الحضرة العلية في صدر المصطفى .
- ألقى به المصطفى في صدر الصديق ، ولا جرم أن ألقى الله في قلبه التصديق .
- ٥ - كان يقضى ليله كله حتى الصباح في سجود دائم ، كما كان يتنهد آناء الليل مما به من حرقة .
- وقد سرت تنهداته عطرة حتى بلاد الصين ، حيث عطرت دماء الغزال التترى .
- لذا قال الرسول شمع الشرع والدين : اطلبوا العلم ولو بالصين^(١) .
- مكانته نابغة من حكمته ، وما كان لسانه ينطق إلا بكلمة "هو" .
- وحكمته لم ترد على أى لسان ، وغير اسم الله لم ينطق لسانه .
- ١٠ - لا بد للإنسان من اعتبار حتى يكون ذا وقار ، إذ كيف تتأتى جلال الأعمال من عديم الوقار^(٢) .

(١) إشارة إلى قوله الرسول الكريم: اطلبوا العلم ولو بالصين، وإن طلب العلم فريضة على كل مسلم الجمع الصغير، ج ١ ص ١٤٣-١٤٤ .

(٢) وهذا هو النص الفارسي، نقلاً عن منطق الطير ص ٢٧ تهران ١٣٤٧ ش.

خواجه اول كه يار اوست	ثاني اثنين إذ هما في الغار اوست
صدر دين صديق أكبر قطب حق	در همه چیز از همه ، برده سبق
هر چه حق از بار گه كبريا	ريخت در صدر شريف مصطفى
آن همه در سينه صديق ريخت	لا جرم تا بود ازو تحقيق ريخت =

وهكذا ركز فريد الدين العطار على أن أبا بكر كان رفيق الغار، الذي قبل المخاطرة والهجرة مع الرسول عليه السلام، فكان الله خير حافظٍ لهما، وكذلك كونه الصادق الصديق الذي لم يشك ولو للحظة واحدة في صدق أى شىء قاله الرسول الكريم أو قيل عن الرسول، وبخاصة عندما نقل إليه حديث الرسول عن المعراج فما كان منه إلا أن قال قولته المشهورة : " إن كان قد قال هذا، فهو صادق".

أما ما قاله الراوندى من مناقب أبى بكر الصديق، فقد وصلت إلى بيان موقفه من الإسلام في حياة الرسول الكريم ومساندته له، ثم موقفه من حركة الردة بعد وفاة الرسول عليه السلام، حتى وصفه عمر بن الخطاب نتيجة لموقفه الصلب والحاسم مع المرتدين بأنه "الأسد" ومما قاله الراوندى في مقدمة كتابه "راحة الصدور وآية السرور": ما ترجمته:

أول شخص نهل من الإسلام، وعانق عروس الإيمان هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه فهو خادم الخلافة، وإمامها المنزه، وأول من اعتلى منبر الخلافة، وأول نائب للمصطفى، صديقه فى الغار ومحل أسرارهِ .. وهو رأس العشرة المبشرة رضى الله عنهم .. إن أبا بكر الصديق زعيم أهل التحقيق رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة منقلبه ومثواه، وقد ازدان به صدر الخلافة، فعندما غربت فى مغرب يثرب شمس زعيم الأنبياء محمد المصطفى صلوات الله عليه، وبدأ المنافقون والمشركون

نیم شب هوئی بر آوردی بســـــــــــــــوز

مشك كردی خون آهوی تـتـار

علم باید جست از اینجـات پـجـین

تا بسنگ و هنگ هو گوید زبانش

تا نگوید هیچ نامی جـــــــــــــــز إله

مردم بی سنگ کی آید بکار

= ۵- سر فرو بردی همه شب تا بروز

هوئی او تاچین برفتنی مشکبار

زین سبب گفت آفتاب شرع و دین

سنگ از آن بودی بحکمت در دهانش

نی که سنگش بر زبان بگرفت راه

سنگ باید تا پرید آید و قــــــــــــار

يطلقون ألسنتهم بالسوء، وجزع الصحابة المخلصون، انبرى أبو بكر رضى الله عنه بيقين إسلامي وعناية رحمانية، وخاطبهم قائلاً: " من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ألا وإن السيوف التي أظهر الله بها الإسلام على عواتقنا، فمن شاء منهم أن يبرز فليبرز " فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: " لقد كنت ثعلباً فصرت أسداً " ، فقويت قلوب الصحابة وخمدت فتنة المنافقين، وتمكن الصحابة من اقتلاع جذور الردة والنفاق، وبذروا بذور الدين فى سائر الأفاق^(١).

هكذا كان موقف أبى بكر الصديق القوى والحازم وعدم قبوله أى حل وسط اقترح لتهدئة ثائرة المرتدين، علاجاً ناجعاً لهذه الفتنة، لأنه أدرك لو أنه وافقهم فى شىء فستزداد مطالبهم بعد ذلك، مما سيضعف شوكة الإسلام والمسلمين، ولكنه أثر أن يسلك طريق القوة والعنف مع هؤلاء المرتدين، حتى يكون لائقاً بالأمانة التى حملها إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد مماته، مما جعل عمر بن الخطاب يصفه بالأسد الهصور بعد أن خرج عما عهد عليه من هدوء وصمت وترو.

وقد أنهى الراوندى مدحه لأبى بكر الصديق بأبيات هذه ترجمتها:

- وهو شيخ الإسلام الملقب بالصديق والعتيق، وأعقاباه يفخرون بأنه أسبق السابقين إلى الإسلام والإمامة.

- إذا كان محمد قد جعله إمام الإسلام، فإنه بسيرته إمام الصحابة وقُدوة لهم .

- لقد جلس على سرير السلطنة فى ملك الجنة، لأنه من حيث المعتقد واليقين من أعز أصحابه.

(١) راحة الصدور وآية السرور، الترجمة العربية ص : ٤٥ ، ٤٦ .

- ولما كانت ابنته عائشة أم المؤمنين زوجة للمصطفى، فقد أصبح من غير شك يعرف بالصدیق الأكبر.

- لقد وهب ماله للمصطفى وزوجه من ابنته، فهنئاً له ما فعل، وهنيئاً لمن اتخذه أسوة حسنة^(١).

وهكذا أنهى الراوندى مدحه لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه، بأن دعا جميع المسلمين لاتخاذهم أبا بكر أسوة حسنة يحاولون السير على نهجه والتأسي بأعماله وأقواله، وهذا هو المقصود من ذكر مناقب الخلفاء الصالحين، ليس المقصود تسجيل تاريخ، بل تنبيه المسلمين إلى ما كان يفعله هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم من خير وصلاح حتى نحاول تقليدهم لعل الله يتقبلنا كما تقبلهم، فكان أبو بكر وصحبه من المبشرين بالجنة، فأين نحن منهم؟!

* * *

(١) المرجع السابق، ص: ٤٦، أما الأصل الفارسى فى النسخة الأصلية ص ٩، ١٠.

شیخ اسلام آنک صدیق وعتیق القصاب اوست

سبق اسلام وامامت مغخر أعقاب اوست

پیشوای عالمش گرچه محمد کرده بود

او بسیرت پیشوا و سرور أصحاب اوست

بر سریر سلطنت در ملک جنت آن نشست

کز یقین واعتقاد نیکو از احباب اوست

آنک أم المؤمنین است اهل بیت مصطفی

بی گمان صدیق اکبر منشأ اسباب اوست

بذل کرد او مال و دختر را برای مصطفی

فرخ و خرم کسی کش قبله هم محراب اوست

فى مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

كان الحديث عن عمر بن الخطاب حديثاً مستفاضاً، عن عدله وعن زهده وعن شجاعته، وعن تفقده أحوال المسلمين، وعن تواضعه الذى زاده مكانة فى نفوس الجميع، كما كان أكثر البعض من سوق القصص المتعلقة بما كان يفعله خدمة للإسلام والمسلمين، وقضاء على الشرك والمشركين، وكيف انتشر الإسلام فى عهده انتشاراً واسعاً شمل أكبر امبراطوريتين فى ذلك الوقت، وهما : امبراطورية الروم، وإمبراطورية الفرس، ومع كل هذا المجد وتلك الفتوحات ظل على تواضعه وعدله بل وعلى فقره أيضاً، ومما قاله فى حقه فريد الدين العطار فى منطق الطير نذكر ترجمة لبعض الأبيات :^(١)

سيد الشرع وشمس المتدينين، ظل الحق الفاروق الأعظم شمع الدين، من ختم به الحق العدل والإنصاف، كما كان له فى الفراسة قصب السبق على الجميع، وأول من يسمح له بعبور الصراط هو عمر، كما قال الرسول - عليه السلام - كما أنه أول من يتسلم خلة الخلافة فى دار السلام، ما أعظمه من صاحب مقام رفيع، فما أن وضع الرسول يده فى يده منذ البداية، حتى حمله معه إلى حيث يوجد فى النهاية.^(٢)

بعدله وصل أمر الدين إلى أوجه، كما وجد النيل المضطرب راحته^(٣)، إنه شمع الجنة وسراج الخلد، وكما تتلاشى الظلال أمام نور الشمعة، فإن الشياطين تسارع

(١) راجع حديث العطار عن مناقب عمر بن الخطاب فى الترجمة العربية لمنطق الطير، ص : ١٦٦.

(٢) إشارة إلى قول الرسول الكريم: "عمر معى، وأنا مع عمر، والحق بعدى مع عمر حيث كان". الجامع الصغير، ج ٢ ص: ١٤٢.

(٣) يشير إلى فتح مصر على يد عمرو بن العاص فى أيام خلافة عمر بن الخطاب، وما تبع ذلك من عدل بين الرعية وتخليص المصريين من عنت الدولة الرومانية.

بالهروب بعيداً عنه.^(١) إذا تكلم فالحقيقة على لسانه. عندما رآه النبي يحترق في ضراعة، قال : كم هو جدير بأن يسمى "سراج الدين".^(٢)

وقد تحدث العطار عن لقبه هذا سراج الجنة بتفصيل أكبر في مقدمة منظومته "إلهى نامه" وربط بين هذا اللقب وبين حديث الرسول عنه بأنه بمثابة العين للرسول عليه السلام، فقال ما ترجمته :

- اعتبره الرسول عينيه فيا لها من مكانة !

وقال عنه سراج الجنة أيضاً فيا لها من مرتبة !

- إنه السراج الذى أضاء الشرق والغرب

وزيته لاشرقى ولاغربى

- ولما كان بمثابة العين والسراج من الحضرة

فكيف يتأتى لك خوض الطريق بلا عين أو سراج

- إن عدمت العين والسراج

فلن تستطيع التفرقة بين الحديقة أو الحمام

٥ - وإن لا يلزمك السراج والعين في الطريق

فلن تعرف الطريق من البئر ، ولا البئر من الطريق

-- وإن تسلك الطريق بدون هذا وذاك

(١) إشارة إلى قول الرسول الكريم: "إن الشيطان ليقر منك يا عمر" الجامع الصغير ج ١ ص ٢٧٤.

(٢) إشارة إلى قول الرسول الكريم: "عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة المرجع السابق ج ٢ ص : ١٤٢.

فستزل قدمك وتسقط في البئر

- وغداً عندما ينفخ في الصور

سينطفئ مصباح السماء إلى الأبد

- ولكن سراج الجنة الوضاء هذا

سيظل أكثر ضياء على الدوام صباح مساء^(١).

وعلى الرغم من المكانة السامية لعمر بن الخطاب في الدنيا والآخرة، فقد ظل على تواضعه، فلم يتخذ قصرًا ولا سريراً للحكم، بل ظل بعد أن تولى أمر الخلافة في بيته المتواضع وحياته الزاهدة المتقشفة، مما كانت مضرب الأمثال لكل الملوك في جميع الأمصار، وقد تحدث عن هذا الأمر جلال الدين الرومي في المثنوى وذلك عندما سرد حكاية مفادها أن قيصر الروم أرسل رسولاً إلى عمر، وعندما وصل الرسول إلى

(١) إلهي نامه : الطبعة الرابعة طهران ١٣٦٤ ش ص : ٢٠ - ٢١، والنص الفارسي لهذه الأبيات هو :

چراغ خلد هم گفتش زهی صدر	پیمبر چشم خود خواند ش زهی قدر
که نه شرقی و نه غربیش روغن	چراغی کرده شرق و غرب روشن
تو بی چشم چراغی چون روی راه	چو او چشم و چراغ آمد ز درگاه
ز گلخن فرق نتوان کرد باغی	اگر نبود ترا چشم و چراغی
ندانمی چاه از ره، راه از چاه	ه- که گر نبود چراغ و چشم در راه
ز کوری عاقبت در چاه افستی	تو بی این هو دو گر در راه افستی
فررو میروود چراغ اسمانی	ز نفخ سرور فردا جاودانی
بود رخشنده ترهر شام و هر روز	ولیکن این چراغ جنت افروز

المدينة، فإذا به يسأل عن قصر الخليفة عمر، ولكنه لم يجد قصرًا ولا دار حكم، ولا أى مظهر من مظاهر الأبهة التي تعودها هذا المبعوث الرومى فى بلاط ملوكه، وهذه ترجمة لأبيات هذه الحكاية:

- إن رسولاً من القصر جاء إلى عمر بالمدينة، بعد أن طوى الفلاة الشاسعة
- وقال : أيها الخدم ! أين قصر الخليفة حتى أتجه إليه بحصانى ومتاعى ؟
- فقال له القوم : ليس لعمر قصر، وإنما لعمر قصر الروح المضى
- فهو وإن كان عظيم الشهرة بالإمارة، فإنه كال دراويش لا يمتلك سوى كوخ !
- ٥- وحين تلقى رسول الروم بسمعه هذه الألفاظ النضرة، زاد اشتياقه
- فأرسل البصر منقبا عن عمر، كما ترك متاعه وحصانه للضياع
- ثم مضى يقتفى أثر ذلك العظيم، سائلا عنه كالجنون فى كل صوب
- ورأته امرأة إعرابية، فعرفته غريباً، فقالت : إن عمر هناك تحت تلك النخلة
- لقد كان متفردا عن الخلق تحت جذع النخلة، فتأمل كيف نام ظل الله فى الظل ؟!
- ١٠- جاء رسول الروم إلى ذلك المكان ووقف بعيداً، وما أن أبصر عمر حتى أخذته رجفة.
- لقد وقعت بنفس هذا الرسول مهابة لذلك النائم، ثم حلت بروحه حالة هدوء.
- فقال محدثاً نفسه : كم رأيت الملوك، وكم كنت عظيماً أثيراً لدى السلاطين.
- ما أحسست من قبل بهيبة للملوك أو خوف منهم، فما بال هيبة هذا الرجل قد سلبت لى ؟

- هذا الرجل الأعزل النائم فوق الثرى، قد ارتعد منه كل كياني، فما هذا ؟

١٥- إن هذه الهيبة من الخالق، وليست هيبة مخلوق، إنها ليست هيبة هذا الرجل صاحب الدلق.

- وبينما هذا الرسول يتفكر، وقد عقد يديه احتراماً، فإذا بعمر قد هب من نومه بعد ساعة.

- فأدى التحية لعمر ثم سلم عليه، إذ قال الرسول : السلام ثم الكلام!

- فرد عمر السلام، ودعاه للاقتراب منه، وأمنه، وأجلسه أمامه.

- إن عبارة "لاتخافوا ليهي نزل الخائفين، وإنها لللائمة للخائف.

٢٠- لقد أسعد عمر ذلك القلب الهلع، وعمر ذلك الخاطر الخرب.

بعد ذلك تجاذب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أطراف الحديث مع هذا الرسول في أمور شتى، جعلت هذا الموفد من قبل أمبراطور الروم يقبل على الإسلام ويرفض العودة إلى بلاد الروم.^(١)

هكذا كان يحكم عمر الخلافة الإسلامية على اتساع رقعتها، كان العدل والتواضع هما سلاحاه، حتى قيل في حقه تلك المقولة المشهورة: حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر!

وعن تواضعه مع عامة المسلمين مهما كان وضعهم الاجتماعي نظم سعدى الشيرازي ما ترجمته:

(١) راجع بقية القصة في ترجمة الجزء الأول من المتنوى، سواء في ترجمة الدكتور محمد كفافى المنشورة ببيروت، أو الترجمة الحديثة للدكتور إبراهيم شتا المنشورة بالقاهرة.

حکایة الخلیفة عمر مع الشحاذ

- سمعت أن شحاذاً فی مکان ضیق، قد وضع عمر قدمه فوق ظهر قدمه.
- لم يعرف الفقیر المسکین من هو، لأن المتألم لا يعرف العدو من الصدیق.
- فثار علیه قائلاً: هل أنت أعمى، فقال له الأمير العادل عمر:
- لست أعمى، ولكن الأمر صار خطأ، ولم أعرف؛ فتجاوز عن ذنبی.
- أی منصفین كانوا، عظماء الدین؟ إذ كانوا هكذا مع الأتباع والمرءوسین.
- غداً يتدلل المتواضعون، وينكس خجلاً رءوسهم المتكبرون.
- إذا كنت تخاف من يوم الحساب، فتجاوز عن خطأ ذاك الذى يخاف منك.
- لا تجر عبثاً واجترأ على من دونك والمرءوسین، فإن فوق يدك يداً أيضاً! (١)

(١) أریج البستان: الترجمة العربية للبستان، ترجمة د. أمين عبد المجيد بوى، ص ١٦٧.

أما النص الفارسی فهو عن: بستان، ص: ١٥٠ (نسخة فروغی).

گدایی شنیدم که در تنگجای	نهادش عمر پای بر پشت پای
ندا نست درویش بیچاره کوست	که رنجیده دشمن نداند ز دوست
بر آشفته بروی که کوری مگر؟	بدو گفت سالار عادل عمر
نه کورم ولیکن خطا رفت کار	ندا نستم، از من گنه در گذار
ه- چه منصف بزرگان دین بوده اند	که بازیر دستان چنین بوده اند؟
بنازند فرداً تواضع کنان	نگون از خجالت سرگردنان
اگر می بترسی ز روز شمار	از آن کز تو ترسد خطا در گذار
مکن خیره بر زیر دستان ست	که دستبست بالای دست توهم

بينما كان عمر مع الرعية متواضعاً كان مع نفسه شديد الحساب، وخوفاً من يوم الحشر كان دائم التجوال لتفقد أحوال الرعية ليلاً ونهاراً لأنه يعتبر الحكم تكليفاً لا تشريعاً، فهو مسئول عن الرعية أمام الله عز وجل وقصص عمر بن الخطاب في هذا الأمر مشهورة ومنها قصته مع المرأة التي كانت تطبخ الحصى لكى ينام أولادها، وقصته مع بائعة اللبن التي رفضت نصيحة أمها بغش اللبن لأن عمر لا يراها؛ فقالت الفتاة إن رب عمر يراها، وقد دفع عمر بن الخطاب أحد أبنائه للزواج من هذه الفتاة، ومن نسلها جاء عمر بن عبد العزيز، وقد حكيت الكثير من هذه الحكايات عن تفقده أحوال الرعية حتى بعد مماته، ومنها تلك الحكاية التي أوردها نظام الملك في كتابه الشهير سياستنامه.^(١)

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبيه : يا أبت متى أراك إن قبضك الله عن الدنيا؟ فقال عمر: في الآخرة! قال : وددت لو رأيته أسرع من هذا! قال: فأبئك ترانى فى منامك، فى الليلة الأولى أو الثانية أو الثالثة. ثم انقضت اثنتا عشرة سنة دون أن يراه فى منامه، فلما رآه بعد اثنتى عشرة سنة فى رؤياه! قال: يا أبت! ألم تقل إنى أراك بعد ثلاث ليال ؟ فأجابه : كنت عنك فى شغل، فقد كان فى سواد بغداد جسر ركبه التلف، ولم يصلحه الموكلون به، عبرته أغنام، فولجت ساق شاه فرجة فيه؛ فانكسرت، فسألنى الله بها حتى اليوم!

وفى الحقيقة يجب أن يعلم مولى العالم أنه مسئول فى ذلك اليوم العظيم عن وليهم من الخلاق وأنه لن يقبل منه إذا هو أحال أمرهم على أحد.^(٢)

(١) نظام الملك: أشهر وزير إيراني عبر التاريخ الإسلامي، وزر لكل من ألب أرسلان وملكشاه السلجوقيين (٤٥٥-٤٨٥ هـ)، أسس المدارس النظامية وأشهرها مدرسة بغداد التي كان أبو حامد الغزالي أحد أساتذتها، ومؤلفه الشهير سياسته نامه يعد من أشهر الكتب التي توضح واجبات الحاكم وكيف يسوس أمور الدولة.

(٢) روى هذه الحكاية أيضاً الإمام الغزالي فى كتابه نصيحة الملوك.

هكذا كان عمر بن الخطاب مسئولاً عن الرعية وعن الدواب أيضاً لا يهدأ له بال حتى يوفر للجميع أسباب الراحة والطمأنينة، وكيف ظل بعد موته اثنتى عشرة سنة يحاسب من الله عن كسر ساق شاة لإهمال من أحد عماله، وليس لإهمال منه». ثم يختم نظام الملك حكايته بتوضيح المغزى وهو أن الحاكم مسئول أمام الله عن كل صغيرة أو كبيرة في مملكته أو إمارته، وكأن لسان حاله يقول أين نحن الآن منك يا عمر؟

فى مناقب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه :

عثمان ثالث الخلفاء الراشدين، صاحب النورين، والمتصف بالحلم، الحريص على صلة الرحم قد تحدث بعض الأدباء ذاكرين مناقبه، ومن هؤلاء كان الراوندى صاحب كتاب راحة الصدور وآية السرور، حيث قال فى مقدمة كتابه ما ترجمته: (١)
عثمان هو فريد العصر، جامع القرآن، زوج الكريمتين، وخاتم القرآن فى ركعتين، نو النورين الطاهرين، وقد شرفه الرسول بما أورده فى حقه حينما قال: كيف لا أستحى ممن يستحى منه الملائكة؟ (٢)

ثم أورد فى حقه بضعة أبيات هذه ترجمتها:

- لم يختم أحد القرآن فى ركعتين سوى عثمان

- ولم يكن بين الصحابة من هو خير من عثمان فى جمع القرآن !

(١) راحة الصدور، الترجمة العربية، ص : ٤٨ .

(٢) صحيح مسلم، طبع مصر ج٢، ص : ٢٣٥ .

- هو القدوة والإمام والرائد والمقتدى

- الذى لم يبلغ أحد شأوه فى خدمة الدين والإسلام

- ذاق الجميع نعمه وجحدوها فصاروا كالغوغاء

- ولم ينتفع أحد بمثل هذا الكفر والجحود والنكران^(١)

لقد تبرع عثمان بالكثير من ماله فى سبيل نصرة الدين الإسلامى، كما كان قريباً من قلب الرسول عليه السلام حتى زوجه الرسول باثنتين من بناته هما: أم كلثوم ورقية، وقد تزوج الثانية بعد وفاة الأولى، تغمدهم الله جميعاً بوسع رحمته لذا أطلق عليه لقب «ذى النورين» حيث حظى بنورى محمد عليه السلام وهما ابتناه، ثم زاده الله فضلاً ونوراً عندما أتم جمع القرآن وهو بهذا لم يعد صاحب النورين بل صاحب الأنوار الثلاثة كما قال العطار فى ذكر مناقبه بإلهى نامه:

أمير المؤمنين عثمان .. صاحب اللبين من نورى الرسول، ماذا أقول وقد أصبح ذا ثلاثة من الأنوار، اثنان من نورى الرسول، والنور الثالث من جمعه القرآن.. ولأنه كان مهتماً بالحفاظ على القرآن، فقد أثر العزوف على الدنيا انشغالاً بهذا الأمر.

(١) نقلاً عن الترجمة العربية ص ٤٨، أما الأصل الفارسى فهو بالنسخة الفارسية هي: ١١ وهو:

در دو ركعت ختم قرآن جز كه عثمان كس نكرد

به ز عثمان از صحابه جمع قرآن كس نكرد

آن امام پیشو و آن مقتداى رهنماى

كز برای دين جز او انعام و احسان كس نكرد

نعمتش خوردند و ز كفران چو غوغايى شدند

سود بر ادبار و نا پاكى و كفران كس نكرد

إن نزعَت بغضه لحظة من قلبك، تشرق شمسك ويضىء قمرُك، إن الشخص الذى كسر عصا عثمان على ركبته، أصيبت قدمه بجذام دائم^(١) وهكذا أصبحت عصاه رمزاً وصارت مثل عصا موسى خصماً للأعداء، وإن وجد له عدو فى الحياة، يكون كنانب فرعون، كان قلبه بحراً عظيماً من العلم، وكان جسده جبلاً راسخاً من الحلم، كما كان قلبه فى الحقيقة جامعاً للقرآن، لذا كان الخلق يتحلقون حوله بالمسجد ليفسر القرآن للخاصة والعامة. ولما كان إماماً للخاصة والعامة فى شئون القرآن فكيف بجانبه الصواب مع أقاربه^(٢) .. وفى تلك الغوغاء أشهر غلمانه السلاح استعداداً للنزال وإذا به يدعو الجميع إلى إلقاء السلاح .. وكان القرآن شغله الشاغل، حتى صار شهيداً وأصبح القرآن وعاء دماؤه^(٣)

لقد كان الرسول - عليه السلام - حريصاً على الإشادة بعثمان بن عفان وإعلاء شأنه ثقة بفضل عثمان بن عفان على الدعوة الإسلامية، ووضع أمواله تحت تصرف النبی صلى الله عليه وسلم ليأخذ منها ما يدعم الدعوة ويقوى عودها، لذا قال الرسول فى حقه الكثير والكثير، وكان مما قاله نقلاً عما جاء فى مقدمة منطق الطير للعطار:^(٤)

(١) هذه إشارة إلى أحداث الفتنة التى سبقت مقتل عثمان، حيث اجتمع عليه الثوار داخل مسجد الرسول عليه السلام، ومنعوه من الصلاة، وتطاول عليه أحدهم بعصا الرسول التى كان يحملها عثمان فى يده، ويقال إن هذا الرجل أصيب بعد ذلك بمرض الجذام .د فتحية النبراوى : دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين ص ٥٤ .

(٢) من الاتهامات التى وجهت إلى عثمان رضى الله عنه أنه اختص بنى أمية - وهم من أقاربه - بالملك والثروة دون المهاجرين والأنصار. ولكن هذا الاتهام مرفوض من كثير من المؤرخين وكذلك من فريد الدين العطار: انظر محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية : الدولة الأموية : للشيخ الخضرى، ص ٤٠ .

(٣) عندما هاجم الثوار دار عثمان، كان عثمان عاكفاً على قراءة القرآن والعبادة، وكان يصلى وبين يديه المصحف فسالت دماؤه فوق المصحف: حواشى الترجمة العربية لإلهى نامه، ص : ٢٢٩ .

(٤) راجع الترجمة العربية لمنطق الطير، ص ١٦٧، ١٦٨ .

إنه يوسف الثاني،

- إنَّ الفلك يظل دائماً خجلاً من عثمان^(١)

حدث أن عثمان لم يكن موجوداً أثناء بيعة الشجرة، لذا وضع الرسول الكريم يده بدلاً من يد عثمان، فقال أحد الحاضرين كم كنت أود أن أكون غائباً مثل ذي النورين لأحوز هذا التكريم، فقال عنه الرسول شمس الدنيا والدين: أن له أن يفعل بعد هذا كل شيء دون خوف.

فى مناقب أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه :

حظى أمير المؤمنين على بن أبى طالب باهتمام ملحوظ من الأدباء الإيرانيين، وذلك لعلمه وشجاعته، وتضحيته بنفسه يوم الهجرة، حتى لا يدرك الكفار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غادر داره إلى غير ذلك من الصفات الحميدة التى اتسم بها على بن أبى طالب، لذا حيكت حوله العديد من القصص والحكايات التى تزخر بها منظوماتهم وكتبهم الثرية، وعلى الرغم من هذه الكثرة الهائلة فإننا سنكتفى بذكر بعض مناقبه، وكذلك حكاية أو حكايتين وردتا فى حقه الكريم، وقد قال فى حقه فريد الدين العطار ما ترجمته.

- سيد الحق وزعيم الصادقين، منبع الحلم وبحر العلم وقطب الدين .

- ساقى الكوثر والإمام الهادى، ابن عم المصطفى وأسد البارى .

- إنه المرتضى المجتبى قرين البتول، السيد المعصوم صهر الرسول .

(١) إشارة إلى الحديث الشريف: " عثمان حبيبى تستحبى منه الملائكة الجامع الصغير ج ٢، ص: ١١٢ .

- إنه فريد في اطلاعه على الحق ، وليس للعقل أمام علمه أدنى شك .
- إذا كان الرسول قد قال : أقضاكم على ، فإن عليا كذلك مشغول بذات الحق .
- إذا كان أحد الأشخاص قد استرد الحياة بنفخة من عيسى ، فإن علياً قد أعاد اليد المقطوعة بنفخة منه .
- لقد أصبح صاحب القبول - وهو معتمد على كتفى الرسول - محطماً للأصنام بالكعبة (١)
- كما نظم في حقه الراوندى فى مقدمة راحة الصدور أبيات هذه؛ ترجمتها:
- هو صهر النبى وابن عمه المبجل ، وهو زوج زهراء النبى ، وهو أبو الحسن والحسين .
- ردد ما شئت فى رفعة الأحساب فى جميع العالم ، وقل ما شئت فلن تجد من هو أرفع منه !

(١) منطق الطير: الترجمة العربية ص ١٦٩ ، أما الأبيات فبالأصل الفارسى ص : ٢٩ .

خواجه حق پيشواى راستين	كان علم وبحرحلم وقطب دين
باقى كوثر ، امام رهنما	بن عم مصطفى ، شير خدا
مرتضای مجتبى ، جفت بتول	خواجه معصوم وداماد رسول
مقتداى دين باستحقاق اوست	مفتى مطلق على الإطلاق اوست
هم ز أقضكم على جان آگه است	هم على مشغول فى ذات الله است
ازدم عيسى چو مرده زنده خاست	أو بدم دست بريده كرد راست
گشت اندر كعبه أن صاحب قبول	بت شکن بر پشتى دوش رسول

لقد ثبتت به أصول الإسلام في الأرض، وهو مقتلع الباب الحديدي لحصن
خيبر.

- وهو علي بن أبي طالب، أسد الله الغالب، الذي استطاع أن يكون في المعارك
قاتلاً للكفار.

-- إن الشمس قد امتلأت عيناها بالدماء وهي في حجب المغرب، خجلاً لموت هذا
الورع وهو يصلي. (١)

لقد كان علي كرم الله وجهه بحرّاً للعلم، ومع هذا قد كان محيطاً للحلم، ومع
علمه الغزير، فقد كان يحسن الاستماع لمن يخالفه الرأي، وهذه حكاية ساقها سعدى
الشيرازي في كتابه «بوستان» يدل على علمه وحلمه؛ فقال ما ترجمته:

حكاية الإمام علي ومخالفه في الرأي

-- عرض شخص مشكله أمام علي، عساه يجلو ويكشف مشكلته.
- أجابه الأمير الأسر للعدو، الفاتح للبلاد، إجابة من قبل العلم والرأي.

(١) راحة الصدور: الترجمة العربية، ص ٤٩، وأصل الأبيات بالنسخة الفارسية ص ١٢٠.

جفت زهراء نبی، باب شیر و شیرست	آنک داماد نبی وابن عم مهترست
تا کجا کو کیست کزوی برترست	در نسب بادر حسب در کل عالم باز گوی
بر کننده آهنین در را ز حصن خیبرست	بیخ دین اندر زمین زو محکم آمد و آن گهی
قاتل کفار بد دینست و عمرو عنترست	پور بو طالب علی شیر خدا کندر مصاف
پر زخون هر شب دودیده در حجاب خاورست	آفتاب از شرم آن کورا غازی فوت شد

- ولكن، سمعت أن شخصاً في ذلك المجلس، قال : ليس هكذا يا أبا الحسن .
- لم يغضب منه حيدر البطل الشجاع، وقال : إن تعرف أحسن من هذا، فلتقل !
- هـ- فقال ما عرف وذكر ما ينبغي، إذ لا يليق أن تستر عين الشمس بالطين،
- فارتضى منه ملك الرجال الجواب، وقال إنما على خطأ وهو على صواب !
- المتكلم العالم الأفضل منا، هو الواحد الذي لا علم أسمى من علمه^(١)

* * *

هكذا فعل أسد الله على بن أبي طالب صاحب العلم الرفيع ومن قال في حقه الرسول الكريم «أقضاكم على»، إذ تقبل رأى مخالفه، واعترف بأنه كان على خطأ فيما قال من رأى، وكان مخالفه الرأى على صواب، أى تواضع هذا؟ إنه تواضع العلماء، وأى خضوع للحق كان يتصف به أمير المؤمنين؟ لقد كان كل ما يصدر عنه من قول

(١) أريج البستان، ص ١٦٦، والنص الفارسي نقلاً عن كليات سعدى، ص : ١٤٩ .

کس مشکلی برد پیش علی	مگر مشکلی را کند منجلی
امیر عدو بند کشور گشای	جوابش بگفت از سر علم و رای
شنیدم که شخصی در آن انجمنی	بگفتا چنین نیست یا با الحسن
ترنجید ازو حیدر نامجوی	بگفت ار تو دانی ازین به بگوی
هـ- بگفت آنچه دانست و بایسته گفت	بگلدچشمه خور نشاید نهفت
پسندیده از او شاه مردان جواب	که من بر خطا بودم، او بر صواب
به از ما سخنگوی دانا یکست	که بالا تر از علم او علم نیست

أو فعل مرده تقربه إلى الله وخشيته منه ولم يكن يستتار إلا من أجل الحق، لامن أجل نفسه بل كثيراً ما كان يتنازل عن حق من حقوقه أو الدفاع عن نفسه، إذا كان في غير هذا التنازل شبهة الأنا أو الذاتية. وهذا ما حدث في أحد المعارك بينه وبين أحد الكفار، تلك الحكاية التي رواها لنا جلال الدين الرومي في كتابه العظيم «المثنوى» ونذكر هنا ترجمة لبعض أبياتها.

على وخصمه الكافر

- تعلم من على الإخلاص في العمل، واعلم أن أسد الله كان مطهراً من الغش والخذاع.

- لقد تغلب في إحدى الغزوات على رجل من الأبطال، فرفع السيف مسرعاً للقضاء عليه.

- فبصق هذا الخصم في وجه على، الذي كان فخراً لكل نبي وولي.

- بصق على هذا الوجه، الذي كان وجه القمر يسجد أمامه حيث يكون السجود.

هـ - وفي الحال ألقى على بالسيف من يده، وتراخى في قتاله!

- فغدا المبارز حيران من هذا العمل، ومن إظهار على هذا العفو وتلك الرحمة في غير محلها.

- وقال: كنت قد شهرت على سيفك البتار، فلماذا رميته الآن وتركتني؟

- ماذا رأيت فأسكن غضبك هكذا، لقد كان كبارق بدا ثم احتجب!

- قال على: إنني أضرب بالسيف في سبيل الله، إنني عبد الله ولست عبداً لجسدي!

١٠- إننى فى الحرب مصداق لقول الحق : «وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى»^(١)

- أنا لست عوداً من القش، بل أنا جبل من الحلم والصبر، فكيف تقتلع الجبل الرياح العاصفة؟

- فريح الغضب وريح الشهوة وريح الطمع، تعصف بمن لا يكون من أهل الصلاة.

- الغضب سلطان على الملوك، لكنه غلام لنا، وهأنذا قيدته بسيطرة اللجام.

- ثم قال أمير المؤمنين : إنه فى القتال، حينما بصقت فى وجهى تحركت نفسى ففسد طبعى.

١٥- فأصبح نصف قتالى من أجل الحق، ونصفه من أجل الهوى والنفس.

- سمع الجوسي هذا القول، فتجلى النور فى قلبه، ومزق زناره.

- وقال : لتعرض على الشهادة، فقد رأيتك مفخرة للزمان.

- واتجه نحو الدين بمحبة واشتياق، قرابة خمسين من ذوى قرباه وقومه.

- فعلى بسيف حلمه قد اشترى بدلاً من السيف كثيراً من الرقاب لكثير من الخلق .

(١) الأنفال، آية : ١٧.

۲۰- إن سيف الحلم أحد من سيف الحديد، بل إنه الأقدَر على تحصيل الظفر من
مائه جیش (۱)!

(۱) المثنوی ترجمه کفافی ج ۱، ص ۴۱۹ و مابعدھا، والنص الفارسی: کما یلی:

<p>شیر حق را دان مطهر از دغل زود شمشیری بر آورد و شتافت افتنخار هو نبی و هر ولی سجده آورد پیش او در سجده گاه کرد او اندر خراش کاهلی ور نمودن عفو و رحمت بی محل از چه افگندی، مرا بگذاشتی تا چنان برقی نمود و باز جست بندهء حقم نه مأمور تنم من چو تیغم و آن زنند آفتاب کوه را کی در ریاید تند باد؟ برد او را که نبود اهل نماز خشم را هم بسته ام زیر لگام نفس جنید و تبه شد خوی من شرکت اندر کار حق نبود روا در دل اوتا کوه زناری برید مر تو را دیدم مر افراز زمن عاشقانه سوی دین کردند رو واخبرید از تبغ چندین خلق را بل ز صد لشکر ظفر انگیز تر</p>	<p>آز علی آموز اخلاص عمل در غزا بر پهلوانی دست یافت او خدو انداخت بر روی علی آن خدو زد بر رخی که روی ماه ۵- در زمان انداخت شمشیر آن علی گشت حیران آن مبارز زین عمل گفت بر من تیغ نیز افراشتی آن چه دیدی که چنین خشم نشست گفت: من تیغ از پی حق می زم ۱۰- ما رمیت اذ رمیت در حراب گه نیم، کوهم زحلم و صبر و داد باد خشم و باد شهوت، باد آرز خشم بر شاهان شه، و مارا غلام چون خدو انداختی در روی من ۱۵- نیم بهر حق شد و نیمی هوا کبر این بشنید و نوری شد پرید عرض کن بر من شهادت را، که من قرب پنجه کسی ز خویش و قوم او او بتیغ حلم چندین خلق را ۲۰- تبغ حلم از تیغ آهن تیز تر</p>
---	---

(مثنوی معنوی): نشر عزیز الله کاسب ۱۳۷۱ ش الطبعة الاولى ص ۱۶۱-۱۷۲.

وهكذا انتصر حلمه على غضبه، وكسب الإسلام بحلمه هذا إسلام خمسين أو أكثر من ذوى ذلك الكافر الذى أسلم بدوره نتيجة لما فعله على بن أبى طالب من كبح لجماح نفسه، وهكذا كان على بن أبى طالب حليماً مع من هم دونه من عامة المسلمين، ومع أعداء الله، ولكن دون أن يتنازل عن حق من حقوق الله عز وجل، بل كان فى حلمه متغاضياً عن حقه فقط.

* * *

رحم الله عليا وسابقيه من الخلفاء الراشدين رحمة واسعة لما قدموه للإسلام من تضحيات ونضال من أجل نصرة دين الإسلام وإعلاء شأنه حتى اليوم.

هكذا كان حال هؤلاء الرجال الذين عاشوا بالإسلام وللإسلام، وقد تولى كل منهم عن الأنا والذاتية، ولم يكن أحدهم يفكر فى جاه أو سلطان، بل تولى كل منهم الخلافة لاطمئناً فى مكانة اجتماعية ولا أملاً فى ثروة أو أبهة، فكانت الخلافة بالنسبة لهم تكليفاً ثقيلاً وعبئاً ضخماً، ولكنهم تحملوا العبء وأدوا الأمانة على خير وجه، ومع كل هذه التضحيات فقد ظهر نفر من غلاة المذاهب الإسلامية متهمين هؤلاء الرجال العظام وبخاصة الخلفاء الثلاثة الأول بأنهم استأثروا بالخلافة وسلبوا علياً هذا الحق كما يدعون، وكانت هذه الدعوات المرفوضة قد وجدت أرضاً صالحة لازدهارها فى إيران، مما دفع العديد من الأدباء والمفكرين لنبذ هذا التعصب، ومن هؤلاء الأدباء الذين اهتموا بهذا الأمر فريد الدين العطار، حيث هاجم هؤلاء الغلاة ذوى المذاهب الضالة المضلة، ومما قاله ما ترجمته :

فى ذم التعصب

- يامن وقعت أسير التعصب، وظللت أبداً أسير البغض والحب .

-- إن كنت تفاخر بالعقل واللب ؛ فكيف تنطق بعد ذلك بالتعصب ؟

- أيها الجاهل لارغبة في الخلافة، إذ كيف تتأتى لدى أبى بكر وعمر مثل هذه الرغبة؟

- لو كانت لديهما الرغبة وهما صاحباً قدوة، لأعطى كل منهما لابنه من بعده هذه الولاية.

٥- ولو كانا قد سلبا الحق من المستحق، لكان منعهما واجباً على الآخرين
- إذا كان أحد لم يتقدم لمنع الصديق، فلك أن تكذب الجميع أو تلزم جانب التصديق.

- أما وإنك تكذب صحابة الرسول، فإنك بذلك تنكر أحاديث الرسول.

- فقد قال - الرسول - أصحابى نجوم زاهرة، وأفضل القرون قرنى.

- وأفضل الخلق صحابى، وأقربائى ومن حظوا بصحبتى!

١٠- وإذا كان الأخيار هم الأشرار فى نظرك، فكيف تدعى أنك صاحب نظر؟

- كيف تجيز لصحابة الرسول أن يتقبلوا بقلوبهم رجلاً غير صاحب قبول؟

- أو أن يجلسوه مكان الرسول، فهذا الباطل غير مقبول من الصحابة.

- إذا كان اختيارهم خاطئاً، فإن اختيار جمع القرآن يكون كذلك خاطئاً.

- إن كل ما يفعله صحابة الرسول هو الحق ولا يفعلون إلا ما يليق بالحق.

١٥- إذا جاز أن تكون الرغبة فى الخلافة لدى الصديق، لما قال «أقيلونى» على الإطلاق.

-- كان الصديق رجل طريق دائماً ومتخلياً عن الكل وللأعتاب كان ملازماً.

- وكم نشر المال والابنة والروح، فالزم الحياء، فمثل هذا الرجل لا يستمرى الظلم.

- وقد تطهر من قشور الرواية لأنه كان في لب الدراية.

- لم يكن الرسول يجلس مكانه من يتعدى على منبر الدين!

۲۰- فإن يدرك شخص هذا كله، فكيف يستطيع القول بأنه لاحق له في الخلافة؟

- ولو قدر أن لدى عمر قدراً ضئيلاً من الرغبة، لما قتل ابنه ضرباً بالدرّة.

- ولو قدر أنه قد تولى الخلافة عن طريق الخطأ، فلم كان نصيبه أسمال الدراويش؟

- كم افترش مرقعاً من مئات القطع، حيث عدم الرداء والكليم.

- إن كنت ضده متعصباً، فلست منصفاً، ولتمت بهذا القهر.

- لقد مات عمر بالسّم، أما أنت فستموت دو ما بقهره، وإن لم تذق سمه^(۱)

(۱) الترجمة العربية لمنطق الطير ص ۱۷۰، ۱۷۱، أما الاصل الفارسی، ص ۳۹-۳۱ من منطق الطير.

ای گرفتار تعصب ماندهء	دائمًا در بغض و در حب ماندهء
گر تولا ف از هوش و از لب میزنی	پس چرا دم از تعصب میزنی
در خلافت نیست میل ای بیخیر	میل کی آید ز بو بکر و عمر
میل اگر بودی در آن دو مقتدا	هر دو کردند پسر را پیثوا
۵- هر دو گر بردند حق از حقوران	منع واجب آمدی بر دیگران
گر غیابد کسی در منع یار	جمله را تکذیب کن یا اختیار =

ثم واصل العطار هجومه على هؤلاء المتعصبين في موضع آخر من نفس المقدمة

لكتابه منطق الطير، فقد قال ما ترجمته:

قول پیغمبر نکر دستی قبول
بهترین قرنہا قرن من است
اقرار و دوسرار آن منند
کی توان گفتن ترا صاحب نظر
مرد ناحق را کنند از جان قبول
از صحابه نیست این باطل روا
اختیار جمع قرآن پس خطا ست
حق کنند ولایف و درخو کنند
خود اقیلونی کجا هرگز بدی
فارغ از کل لازم درگاہ بود
ظلم نکند اینچنین کس شرم دار
زانکہ در مغز درایت بود او
خواجہ را ننشیند او بر جابگاہ
نا حق او را کی تواند گفت کس
کی پسر کشتی بزخم درء
هفت من دلقی چرا میداشت او
بر مرقع دوخت صد پارہ ادیم
نیست انصافت بمیر از قہر این
چند میری گر نخوردی زہر او

= ورکنی تکذیب اصحاب رسول
گفت : هر یا رم نجمی روشن است
بهترین خلق یاران منند
۱۰ - بهترین چون نزد تو باشد بتر
کی روا داری کہ اصحاب رسول
یا نشا نندش بجای مصطفی
اختیار جملہ شان گرنیست راست
بلکہ ہرچ اصحاب پیغمبر کنند
۱۵ - میل در صدیق اگر جایز بدی
دائمًا صدیق مرد راہ بود
مال و دختر کرد و جان یسر تشار
پاک از قشر روایت بود او
آنکہ بر منبر ادب دارد نگاہ
۲۰ - چون ببیند اینہمہ ز پیش ویس
در عمر گرمیل بودی ذرء
گر خلافت بر خطا میداشت او
چون نہ جامہ دست دادش نہ گلیم
گر تعصب میکنی از بہر این
۲۵ - او بمرد آ زہر و تواز قہر او

- سواء أكان المقصود علياً أم أباً بكر الصديق، فروح كل منهما غارقة في التحقيق.

- فعندما توجه المصطفى صوب الغار، نام المرتضى تلك الليلة على فراشه.

- وهكذا أراد الحيدر أن يقدم روحه نثاراً، وذلك للحفاظ على روح الرسول الأعظم!

- كما خاطر الصديق رفيق الغار بروحه؛ وقدم روحه فداء لرفيق الغار.

٥- كلاهما قدما الروح نثاراً في طريقه، وكلاهما نثر الروح حفاظاً عليه.

- فتعصب في الرأي على أنهما بمنطق الرجال، قدما الروح نثاراً في سبيل الحبيب.

- وإن كنت رجلاً كهذا أو ذاك، فهل لك أن تتحمل آلام هذا أو ذاك؟

- فلتكن مثلهما باذلاً الروح، وإلا فالزم الصمت وتخل عن هذا الهزل!

- أنت في هذا الطريق لست إلهاً ولا رسولاً؛ اغلّ يدك عن هذا الرد والقبول.

١٠- وتطهر من التبرؤ والتولى، وكن عبداً مطيعاً في هذا الطريق.^(١)

(١) المقصود من التبرؤ والتولى : تبرؤ المتعصبين من الخلفاء الثلاثة الأول وتوليهم بعيداً عنهم.

- وما دمت حفنة من تراب؛ فالزم جانبك، وطهر مداركك وأقوالك^(۱)

هذه دعوة مباركة لنبذ التعصب بين الفرق والمذاهب الإسلامية، كم أحوجنا إليها الآن، توحيداً للقوى الإسلامية لعلنا نعيد للأمة الإسلامية سالف مجدها وعزتها، كما كانت على عهد الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - جميعاً، اللهم حقق هذا الرجاء، وألهمنا الهداية والرشاد ولنتخذ من سيرة المصطفى - عليه السلام - وصحبه الكرام القوة والأسوة الحسنة، وعلى الله قصد السبيل!!

(۱) منطق الطير - الترجمة العربية ص ۱۷۷-۱۷۸، والأصل الفارسی لهذه الأبيات بنسخة جواد مشكور: ص ۳۶-۳۷.

گر علی بود اگر صديق بود	جان هريك غرقهء تحقيق بود
چون بسوى غار مبشد مصطفى	خفت آن شب بر فراش مرتضى
کرد جان خویش را حیدر نثار	تا بماند جان آن صدر کبار
پیش یار غار، صديق جهان	هم رای جان او در باخت جان
۵- هر دو جانبازان راه او شدند	جانفشانان در پناه او شدند
تو تعصب کن که ایشان مردوار	هر دو جان کردند بر جانان تشار
گر تو هستی مرد این یا مرد آن	کــو تو را یا درد این یا درد آن
همچو ایشان جان فشاندن پیشه کن	یا خموش و ترك ابن اندیشه کن
تو درین ره نی خدائی نی رسول	دست کوته کن از نین رد و قبول
۱۰- از تولا و تبرا پاک شر	تو کف خاکی درین ره خاک شر
چون کف خاکی سخن از خاک گوی	جمله را پاکیزه دان و پاکیزه گوی

الفصل الثالث
آداب الفتوحات الإسلامية

1890

1891

1892

برع الفرس منذ القدم فى الكتابة والنظم حول الحروب والغزوات، ومن أقدم الكتب التى دوت نثراً بالفارسية فى القرن الرابع الهجرى فى وصف الحروب والبطولات مايسمى بالشاهنامات أو كتب الملوك، وكان الفرس يقلدون فيها كتاب "خداينامه" البهلوى وترجماته العربية، وهو الكتاب الذى ألف فى العصر الساسانى وترجمه بعد ذلك إلى اللغة العربية ابن المقفع وسماه "سير الملوك"، وقد ضاع فيما ضاع من كتب.

ومن بين الشاهنامات التى كتبت نثراً فى القرن الرابع شاهنامة أبى المؤيد البلخى، والتى تعد من أقدم الشاهنامات وأهمها، وتتناول تاريخ إيران القديم. كذلك شاهنامة أبى منصور محمد بن عبد الرازق الذى كان حاكماً على خراسان وقد أمر وزيره أبا منصور محمد بن عبد الله المعمرى بجمع هذه الشاهنامة.

وأول من شرع فى نظم "شاهنامة" الشاعر مسعود المروزى وهو من شعراء أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل القرن الرابع، وجاء من بعده الشاعر الدقيقى ثانى الشعراء الذين نظموا شاهنامة، ويأتى بعد ذلك أبو القاسم القردوسى صاحب الشاهنامة الخالدة التى وصلت إلينا كاملة، والتى يصل عدد أبياتها إلى مايقرب من ستين ألف بيت.

كل هذا يدل على أن الفرس كانوا يهتمون بتسجيل تاريخهم وحروبهم وفتوحاتهم ويطولاتهم على مدى العصور، وعندما دخلوا فى الدين الإسلامى وشاركوا فى الفتوحات الإسلامية التى كانت تهدف إلى نشر الإسلام فى أرجاء الدنيا، حاول كتابهم وشعراؤهم تسجل كل مايدور فى هذه الفتوحات فى مؤلفاتهم التاريخية أو دواوين أشعارهم. وقد تحولت فيما بعد المنظومات البطولية التى تمجد القومية الإيرانية إلى

منظومات تاريخية بحثه، تتحدث عن تاريخ فترة من الفترات أو عهد من العهود، كما هو الحال في منظومة "سلجوقنامه" التي تتناول تاريخ آل سلجوق، و"ظفر نامه" التي تتناول تاريخ إيران منذ ظهور الإسلام وحتى عصر مؤلفها حمد الله المستوفى القزويني (متوفى ٧٥٠ هـ) وغيرهما.

ومن أقدم الكتب الفارسية التي احتفت بالحديث عن الفتوحات الإسلامية كتاب "زين الأخبار" تأليف أبي سعيد عبد الحى بن الضحاک بن محمود الكرديزى، وقد كتب المؤلف كتابه عام ٤٤٠ هـ فى عهد عبد الرشيد بن مسعود بن محمود بن سيكتگين. ويشتمل الكتاب على أحداث تاريخية من بدء الخليقة وحتى نهاية عصر السلطان مودود بن مسعود الغزنوى، ويعرض فيه المؤلف الأحداث التاريخية بإيجاز، كما يهتم فيه بعادات الشعوب وتقاليدهم، ويتميز أسلوبه بالبساطة والسهولة والبعد عن التكلف والتعقيد.

ويبدأ الكتاب بالحديث عن ملوك العجم، ويقسمهم المؤلف إلى خمس طبقات تحدث عن كل طبقة منها على حده. وفى الطبقة الأولى يتحدث عن مجموعة من ملوك إيران الأقدمين ثم يتناول فى الطبقة الثانية الكيانيين، وفى الطبقة الثالثة يتحدث عن ملوك الطوائف، وفى الرابعة يتحدث عن ملوك الساسانيين، وفى الخامسة يتحدث عن الأكاسرة، ويبدأ حديثه بالكلام عن أنوشيروان العادل ويقول عنه: "حينما جلس أنوشيروان بن قباد على العرش إستن سناً طيبة؛ فأطلقوا عليه أنوشيروان العادل، لأنه كان رجلاً عادلاً، لم يسعد لظلم إنسان وأتى بتقاليد حميدة فى إحقاق الحق لم يعمل بها إنسان قبله قط، وأول عمل قام به أنه أعطى ملك العرب للمنذر بن امرئ القيس، لأنه كان السيد، وابن سيد العرب جميعاً، وكان له ولأسلافه مآثر كثيرة لدى ملوك العجم"^(١)

(١) الترجمة العربية "زين الأخبار" للدكتورة عفاف السيد زيدان - ج١، ص ٤٧، القاهرة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

النص الفارسى ص ٣١ - تهران ١٣٤٧.

وعند حديثه عن يزد جرد بن شهریار يتناول معركة القادسية فيقول: "كان آخر ملوك العجم، وجلس على العرش وهو فى الخامسة عشرة من عمره، ولم تمض على خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنده سوى اثنين وعشرين يوماً، وحينما تولى عمر رضى الله عنه الخلافة، أرسل جيوش المسلمين إلى العراق، وكان خالد بن الوليد أميراً لتلك الجيوش، فلما أتت أخبار قدوم جيوش العرب إلى يزد جرد بن شهریار بعث بجيوشه للقائهم وولى رستم بن فرخ زاد قيادة هذه الجيوش، وحينما التقى الجمعان فى صحراء القادسية استمرت الحرب طويلاً، وكان الظفر دائماً للمسلمين وقدم يزد جرد بنفسه إلى المعركة، والتحم مع جيش المسلمين، ولكن الظفر كان للمسلمين أيضاً وهزمت جيوش العجم واندحرت، وفر يزد جرد ودخل مرو، وحينما علم ماهوى مرزبان مرو أرسل جماعة لطلبه، وكان ماهوى حانقاً عليه غاضباً منه، ولكن رجاله لم يجدوه؛ فقد اختفى يزد جرد فى طاحونة، ولما أتى حارسها ورأه قال له: اخرج من طاحونتي، فإن دخلى كل يوم خمسة دراهم وسينقطع دخلى حينما تبقى هنا، ولما لم يكن مع يزد جرد ذهب أبو فضة حتى يعطيه إياه؛ وكان أيضاً جائعاً، فقد أعطاه جوهرة نفيسة وقال له: بع هذه وارفع غلالك، ثم أحضر لى شيئاً حتى أقتات به، ولا تخبر إنساناً على مكانى. وحينما ذهب الحارس بالجوهرة إلى السوق أمسكوه واقتادوه إلى ماهوى، فسأله عن مكان يزد جرد فدلّه عليه، فأرسل ماهوى أشخاصاً قطعوا رأسه وأتوا بها إليه، ورموا جسده فى الماء واختتمت به مملكة العجم واستولى المسلمون بعد ذلك على إيران وهى فى أيديهم حتى الآن، وستظل فى ملكهم إلى يوم القيامة بمنة الله تعالى".^(١)

ويشير المؤلف إلى هذه الموقعة مرة ثانية عند حديثه عن عمر بن الخطاب إذ يقول "وفى خلافته كانت موقعة القادسية ، فقد واجه جيش خالد بن الوليد العجم، والتحد الجيشان فى صحراء القادسية، وهزمت جيوش العجم، وفر ملكهم يزدجرد بن

(١) الترجمة العربية ص ٩ والنص الفارسى للكتاب ص ٤٠.

شهریار، فتقدم خالد بن الوليد وفتح العراق، وحمل خزائن ملوك العجم وكنوزهم التي كانوا قد أكتنزوها منذ أربعة آلاف سنة، وأرسل إلى المدينة نصيب عمر. وكان فتح العراق عام ثمانية عشر^(١).

وعندما يتحدث المؤلف عن دولة بنى العباس في الباب السابع من الكتاب ويصل إلى خلافة القائم بأمر الله، يتناول أخبار أمراء خراسان قبل الإسلام ثم بعد استيلاء المسلمين عليها، فيقول: (٢)

”أما أمراء خراسان فقد كانت لهم في القديم رسوم أخرى، فمنذ عهد أردشير بابكان كان للدنيا سبهي سالار واحد، وحينما قدم أردشير جعلهم أربعة، أحدهم في خراسان، والآخر في المغرب، والثالث في النيمروز، والرابع في أذربيجان، وجعل لخراسان أربعة مرازية: أولهم مرزبان مروشا يكان، والثاني مرزبان بلخ وطخارستان، والثالث مرزبان ما وراء النهر، والرابع مرزبان هراة وبوشنگ وبادغيس.

وحينما استولى المسلمون على ملك العجم، وصارت خراسان للمسلمين أزالوا كل رسوم المغان، وفي عهد الرسول (ﷺ) لم تصل أيدي المسلمين إلى خراسان، وكذلك في خلافة أبي بك الصديق رضى الله عنه، وحينما تولى عمر رضى الله عنه الخلافة بعث خالد بن الوليد إلى بلاد العجم ليفتحها، وحينما وصل إلى القادسية تقدم إليه جيش العجم بأمر يزيد بن شهریار وكان رستم بن فرخ قائداً لهذا الجيش، ودارت رحى الحرب هناك، وكان الظفر والنصر للمسلمين. وهزموا المغان، وقبضوا على كثير منهم وباعوهم أرقاء، وهُزم يزيد بن رستم وقتل في مرو شاهجهان، ودخلت جيوش المسلمين إلى العراق على هذا النحو فاتحين البلاد حتى وصلوا إلى خراسان.

(١) الترجمة العربية ص ٨٠ والنص الفارسي للكتاب ص ٥٢.

(٢) الترجمة العربية ص ١٤٦ والنص الفارسي للكتاب ص ٩٢.

وفى خلافة عمر رضى الله عنه لم يصل أحد إلى خراسان، وحينما تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة أرسل عبد الله بن عامر بن كريز إلى خراسان، فأرسل عبد الله بن عامر على مقدمته عبد الله بن خازم، وخرجوا عن طريق فارس وجرجان إلى طبرسين^(١) وفتحوهما. وكان أهلها أول من أسلم فى خراسان، وقدم من بعد عبد الله بن عامر بن كريز كذلك أمراء آخرون مازالوا يفتحون حتى يومنا هذا.

ومن أهم الفتوحات الإسلامية التى تناولتها المؤلفات الفارسية تلك الفتوحات التى قام بها السلطان محمود الغزنوى فى الهند، وهو الذى تولى الملك بعد أبيه سبكتيگين عام ٢٨٨ هـ، ونهضت بفضلها الدولة الغزنوية إلى أن زالت بعد ذلك على يد السلاجقة عام ٤٢٨ هـ أى بعد موته بسبع سنين. وقد عرف محمود الغزنوى بعدة ألقاب منها: "بطل الإسلام" و"فاتح الهند" و"محطم الأصنام" و"يمين أمير المؤمنين" و"يمين الدولة". أما أعماله فتدل على عبقرية حربية وسياسية فائقة؛ فقد استطاع أن يغلب السامانيين على أمرهم وأن يغزو الهند وينازل الهنود فى اثنتى عشرة معركة فى مدة أربع وعشرين سنة (٢٩٢ - ٤١٥ هـ) وأن يزيد حدود مملكته التى ورثها حتى امتدت من بخارى وسمرقند إلى كجرات وقنوج وشملت فيما شملته أفغانستان وما وراء النهر وخراسان وطبرستان وسجستان وكشمير وجزءاً كبيراً من الولايات الواقعة فى الشمال الغربى من الهند.^(٢)

والواقع أن أهم ما يميز عصر السلطان محمود وأعماله تلك الغزوات والفتوحات التى قام بها فى الهند والتى كان لها جليل الأثر وعظيمه فى نشر الإسلام فى تلك البقاع، وكان ذلك هدفاً من أهداف محمود، وقد أعطى لها صبغة الجهاد الدينى الذى

(١) طبرسين هما مدينتان فى غرب سيستان وكان العرب يسمون إحداهما طبرس العناب والآخرى طبرس التمر.

(٢) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى - تأليف ادوارد براون - ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى - مصر ١٩٥٤م، ص ١١٠، ١١١.

يجب على كل مسلم أن يقوم به. وفى كل هذه الغزوات حالفه النصر، وكان قد فرض على نفسه فى كل عام غزو الهند كما يقول ابن خلكان.^(١) وقد ساعده فى تلك الغزوات قرب غزنه حاضرة ملكه من الهند، ولم تكن الهند غريبة عليه فقد سبق له أن شارك أبا فى غزواته لها من قبل، مما يسر له الاطلاع على أحوالها، والوقوف على قدر غير قليل من أساليب القتال عند أهلها. كما أنه كان قد استولى على بلاد ماوراء النهر التى آلت إلى إيلك خان بعد زوال الدولة السامانية، وعلى سجستان وبلاد الغور مما قوى مركزه الحربى فى الداخل، فبدأ يوجه حملاته إلى الهند.

ولاشك أن ثروات الهند أيضاً كانت عاملاً من العوامل المشجعة على تلك الفتوحات، ولكنها لم تكن العامل الأساسى فى ذلك، فلو كانت غاية محمود من غزواته الهندية مجرد جمع الأموال فحسب، إذن لقبل ما عرضه عليه الهنادكة من افتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة، وقد رد عليهم بقوله المشهور بأنه يؤثر أن ينعتة الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بائع الأوثان.^(٢)

وقد استطاع محمود الاستيلاء على صنم سومنات المشهور سنة ٤١٦ هـ والذى يزعم الهنود " أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت لديه على مذهب التناسخ، فينشئها فيمن يشاء، وكانوا يحملون إليه علق نفيس ويعطون سدنته كل مال جزيل وله من الموقوف مايزيد على عشرة آلاف قرية".^(٣) وقد حطم يمين الدولة هذا الصنم.

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - ابن خلكان - مصر ١٢٠٠ هـ - ج ١، ص ٥١٦.

(٢) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم - ج ١، ص ٨٧.

تأليف الدكتور أحمد محمود الساداتى - القاهرة ١٢٧٧ هـ - ١٩٥٧ م.

(٣) حبيب السير فى أخبار أفراد البشر - خواند مير - بمبائى ١٨٥٧ م، ج ٢، ص ٢٤.

ولم يتوقف محمود عن توجيه حملاته إلى الهند طوال عهده، حتى أننا نرى نائبه أحمد بن ينا لتكوين في هذه البلاد يستولى سنة ٤٢١ هـ - وهي السنة التي توفي فيها محمود - على مدينة نرسي التي تعد من أعظم مدن الهند آنذاك.

وبالإضافة إلى مهارة محمود وانتصاراته الحربية، فقد كان رجلاً متمسكاً بالدين، سنى المذهب، وقد حاول القضاء على الفرق المختلفة من قرامطة وملاحدة وغيرهما، وأخذ على نفسه القضاء على الشرك، وتميز بالعدل ورعاية الفنون والآداب والعلوم، وهو أيضاً صاحب فضل كبير على الأدب الفارسي، فقد بذل الجهد والمال من أجل جميع الكثير من الشعراء والكتاب، وأخذ يقربهم إليه بكافة الوسائل، وكان ممن ازدان بهم مجلسه أبو الريحان البيروني المؤرخ المعروف صاحب المؤلفات المشهورة عن الهند (متوفى ٤٤٨ هـ)، والإمام أبو منصور الثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) صاحب كتابي "يتيمة الدهر" و"فقه اللغة".

ويخصص الغريزي عدداً كبيراً من الصفحات للحديث عن السلطان محمود الغزنوي والفتوحات التي قام بها، وذلك تحت عنوان: "ملك الأمير الأجل السيد يمين الدولة وأمين الملة وكهف الإسلام أبي القاسم محمود بن ناصر الدين والدولة سبكتكين رحمة الله عليهما"، ويقول الغريزي: (١)

ولما انتهى السلطان محمود رحمة الله عليه من فتح مرو وصار أميراً لخراسان، قدم إلى بلخ، وكان لا يزال فيها حين أتاه رسول القادر بالله من بغداد بعهد خراسان واللواء والخلعة الفاخرة والتاج، ولقبه القادر بالله بيمين الدولة وأمين الملة أبا القاسم محمود ولي أمير المؤمنين.

(١) انظر الترجمة العربية لزين الأخبار - ج ٢، ص ٢٨١ وما بعدها.

والنص الفارسي للكتاب ص ١٧٥ وما بعدها.

ولما وصل هذا العهد واللواء تسلم الأمير محمود عرش السلطة، ولبس الخلعة، ووضع التاج على رأسه، وأذن بالدخول في البلاد للخاصة والعامة، وكان ذلك في ذي القعدة سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، ثم رحل عن بلخ إلى هرات سنة تسعين وثلاثمائة، ومن هناك ذهب إلى سجستان، وحاصر خلف بن أحمد في قلعة إسيهبد، ووسط خلف الوسطاء، وتصالح مع الأمير محمود على أن يعطى مائة ألف دينار، وأن يجعل الخطبة له، ولما فرغ الأمير محمود من هذا ذهب إلى غزنين، ومنها توجه إلى الهندوستان واستولى على الكثير من الحصون.

.... ورجع الأمير محمود إلى هرات في الخامس من رمضان سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، ومن هناك ذهب إلى غزنين، ومنها دخل الهند وستان بجيش عظيم ونزل في مدينة پيشاور على رأس عشرة آلاف غاز، وفي مواجهة محمود نصب جيبال ملك الهند معسكراً، وجلب للحرب اثني عشر ألف فارس وثلاثين ألف مترجل وثلاثمائة فيل واصطفت الصفوف، ودارت رحى الحرب، فوهب الله عز وجل النصر للمسلمين، وظفر الأمير محمود رحمه الله بالنصر، وقهر جيبال، وهلك الكفار، وقتل المسلمون منهم في هذه المعركة خمسة آلاف كافر، وأسروا جيبال مع خمسة عشر من أبنائه وأخوته، وغنموا كثيراً من الأموال والسبايا والدواب، ويقولون إن جيبال كان يتحلى بقلادة في رقبتة مرصعة بالدر والجوهر قيمها العارفون بمائة وثمانين ألف دينار. وكذلك وجدوا قلاند نفيسة في أعناق سائر القواد. وكان هذا الفتح في يوم السبت الثامن من محرم سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة. ومن هناك ذهب الأمير محمود رحمه الله إلى الهند وفتح كثيراً من هذه الولايات، وحينما حل الربيع رجع إلى غزنين.

... ولما رجع الأمير محمود إلى غزنين قصد بهاطية، ومر عن طريق الشستان، وترك الحصن، ووصل إلى بهاطية. وحارب هناك ثلاثة أيام وهياً بجيراو راجا بهاطية جيشاً، وأرسله لمحاربة الأمير محمود، وذهب هو مع نفر من أتباعه إلى ساحل نهر السند، وحينما علم الأمير محمود أرسل خلفه عدداً من الفرسان فلققوا به وقبضوا على كل من معه. وحينما رأى بجيراو هذا الحال انتحى ناحية وقتل نفسه، فحملوا رأسه،

وقبضوا على كل من كان معه، وأحضروهم إلى الأمير محمود فسر سروراً بالغا، وأمر فأعملوا السيوف في الكفار فقتلوا كثيراً منهم، واستولوا على مائتين وثمانين فيلا.

... ثم اتجه السلطان محمود صوب الهندوستان سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وحارب انتدپال بن جيبال، وهزمه واستولى على ثلاثين فيلا، وغنم كثيراً من الغنائم ثم ذهب من هناك إلى قلعة بهيم نگر، وحاصر تلك القلعة، وحارب ثلاثة أيام حتى أتى أهل القلعة يطلبون الأمان، وفتحوا الباب، ودخل الأمير محمود القلعة مع نفر من خاصته، واستولى على خزائن الذهب والفضة والماس وكل ما اكتنزوه.

وحيثما دخلت سنة إحدى وأربعمئة قصد الملتان من غزنين، وذهب إلى هناك واستولى على كل ما تبقى من الملتان، وقبض على أكثر القرامطة الذين كانوا هناك، وقتل بعضهم، وقطع أيدي البعض الآخر، ونكل بهم، وسجن الباقين في القلاع حتى ماتوا في هذه الأماكن.

وأخبروا السلطان محمود أن تانيسر مكان عظيم به أصنام كثيرة، وهو عند الهنادكة مثل مكة عند المسلمين، ويقدس الهنود هذه البقعة تقديساً عظيماً، وفي هذه المدينة يوجد معبد عتيق به صنم يسمونه جرسوم ، فلما سمع الأمير محمود هذا الخبر تملكته الرغبة في أن يذهب إلى هناك، ويستولى على هذه الولاية، ويهدم المعبد، ويحصل لنفسه على الأجر الجزيل.

وفي عام اثنين وأربعمئة ترك غزنين وقصد تانيسر، وحيثما علم تروجنپال ملك الهند تكدر وأرسل رسولاً إلى الأمير محمود يقول له: لو تخليت عن هذا العزم ولم تأت إلى تانيسر سأعطيك خمسين فيلاً من خيار الفيلة، فلم يعبأ الأمير محمود لهذا الكلام، وذهب ووصل إلى ديار رام، فخرج أهل رام على الطريق، وكان به غابات كثيفة، وقبعوا في الكمان، وقتلوا كثيراً من المسلمين، وحيثما وصل إلى تانيسر كان أهلها قد أخلوها، فأغار المسلمون على كل ما وجدوه، وحطموا كثيراً من الأصنام، وجاءوا بصنم جر سوم إلى غزنين ووضعوه في البلاط واجتمع كثير من الخلق لرؤيته.

... وفى سنة أربع وأربعمئة قصد السلطان محمود قلعة نندنة، ولما علم تروجنيال ملك الهندوستان عين حراساً على القلعة، أما هو فقد ذهب إلى وادى كشمير، وأخذ جيش الأمير محمود مكاناً فى نندنة، وحفر الحفارون سرداباً تحت الأرض، ومن حوائط القلعة رمى الترك السهام، ولما رأى أهل القلعة هذه الحرب طلبوا الأمان فى الحال وسلموا، وذهب الأمير محمود مع عدد من خاصته إلى القلعة، وحملوا ما فيها من مال وسلاح، وعين الأمير محمود سارغ كوتوالا (قائداً) لهذه القلعة.

واتجه من هناك إلى وادى كشمير حيث يوجد تروجنيال، وحينما علم تروجنيال هرب، فأمر الأمير محمود أن يستولوا على كل القلاع التى فى وادى كشمير وبغريوا عليها، ووجد الجيش فيها غنائم كثيرة وسبايا. ودخل كثير من الكفار فى الإسلام، كما أمر فى هذا العام أن يشيدوا المساجد الجامعة فى كل مكان فتحوه من بلاد الكفار، وأمر فأرسلوا الأساتذة فى كل مكان حتى يعلموا الهندو شرائط الإسلام، أما هو فرجع مظفراً منصوراً إلى غزنين، وكان فتح نندنة هذا فى سنة خمس وأربعمئة.

... وحينما دخل عام تسعة وأربعمئة قرر السلطان محمود الذهاب إلى قنوج، وكانت ولاية غنية عامرة يكثر بها الكفار، فعبر السلطان محمود سبعة أنهار خطيرة، ولما وصل إلى حدود قنوج أرسل بكوره أمير الحدود رسولاً، وأظهر الطاعة والولاء وطلب الأمان فأمنه السلطان محمود..

وحينما حل فصل الخريف عام عشر وأربعمئة قصد الأمير عين الدولة نندا لأنه قتل راجيال أمير قنوج، وويخه قائلاً: لماذا هزمت أمام جيش السلطان محمود؟ واستقبل نندا تروجنيال لينصره وليرسل جيشاً إلى ولايته، وحينما وصل خبر مجيء السلطان محمود إلى هذه الديار، عبر تروجنيال نهر الكنج وقدم إلى بارى، وعبر الأمير يمين الدول النهر وهزم الجيوش مجتمعة، وهرب تروجنيال مع نفر من الهندو ولم يتقدموا أمام السلطان محمود، ثم قصدوا مدينة بارى فوجدوا المدينة خالية من الناس، فأحرقوا المعابد كلها وغنموا كل ما وجدوه، ومن هناك قاد السلطان محمود جيشاً إلى ولاية نندا وعبر عدة أنهار كبيرة، وعلم نندا بخبر مجيء جيش الإسلام فتهيأ للحرب

وجمع جيشاً كبيراً، ويقولون إن جيشه كان يحتوى على ستة وثلاثين ألف فارس، وخمسة آلاف ومائة وأربعين مترجلاً، وستمائة وأربعين فيلاً، ومثل عدد هذا الجيش كانت توجد أسلحة وخزائن وعلف، وحينما اقترب الأمير محمود منه نزل وعبأ الجيش، وهياً الميمنة والميسرة والقلب والجناحين والمقدمة والساقة، وأرسل الطلائع، ونزل بحزم واحتياط، وأرسل رسولا إلى نندا ونصحه وتوعده وبصره. كما أرسل إليه الرسائل مهدداً ومنذراً: اسلم تسلم من هذه الحرب وهذه المحنة وهذا الفساد، فأجاب نندا: لن يكون لى معك أمر غير الحرب... وحينما جن الليل قذف الله تعالى الرعب والفرع فى قلب نندا فجمع الجيش وهرب ... فشكر الأمير يمين الدولة الله عز وجل، وأمر فاقتموا معسكر نندا وغنموا ما لا كثيراً من كل نوع.

... وعندما دخل عام ثلاثة عشر وأربعمائة قصد الأمير محمود رحمه الله ولاية نندا، فلما وصل إلى قلعة كواليار أحاط بها وحاصرها، وأمر الجيش فطوق جميع جوانبها لشدة منعتها وقوة أحكامها، وكثرة ما بها من الحجارة الصلدة شديدة المنعة لم يستطع الحفارون ولا الرماة الاستيلاء عليها، وأرسل قائد القلعة رسولاً يطلب الصلح وأعطى خمسة وثلاثين فيلاً، ورجع جيش يمين الدولة من هناك، وذهب صوب قلعة كالنجر حيث قلعة نندا، وكان نندا فى هذه القلعة بكامل حشمه وحاشيته وأقربائه، وأمر الأمير محمود رحمه الله فطوق جيشه القلعة من جميع جوانبها، وظل يفكر، لأن القلعة كانت على مكان منيع شاهق الارتفاع لا طريق للحيلة والشجاعة إليها، كما كان بناء القلعة من الحجر الصلد، فتعذر حفره أو قطعه، ولم يسعفه تدبير آخر، فجلس يفكر، وقضى عدة أيام هناك، وحينما نظر نندا ورأى هذا الجيش الكثيف الذى سد كل الطرقات، وسط رسلاً تحدثوا فى أمر الصلح. واتفقوا على أن يدفع نندا جزية، وفى الحال يرسل هدية مقابل ذلك، ويقدم ثلاثمائة فيل من الفيلة المختارة، وسر نندا سروراً بالغاً لهذا الصلح، وفى الحال أمر فخرجت الفيلة بدون حراسها من القلعة، وأمر الأمير محمود رحمه الله فدخل الترك والعسكر وأمسكوا هذه الفيلة وركبوها، وكان أهل القلعة ينظرون ويتعجبون من شجاعتهم، ثم قال نندا شعراً فى السلطان محمود باللغة

الهندية وأرسله إليه، فأمر الأمير محمود فعرضوا هذا الشعر على شعراء الهند والعرب والعجم فأنعجبهم وقالوا: ليس من الممكن نظم كلام أبلغ وأرفع منه، فافتخر محمود بهذا، وأمر فكتبوا منشوراً لنندا بإمارة خمس عشرة قلعة، وأرسلوه إليه وقال له السلطان: هذا عطاء ذلك الشعر الذى نظمته من أجلنا، وأرسل له أشياء كثيرة من الطرائف والجواهر والخلع، ورد نندا على ذلك بكثير من الأموال والجواهر، ورجع محمود من هناك بالنصر والظفر، وقدم إلى غزنين

وهكذا وصف الكردبى فى كتابه كل الفتوحات والغزوات التى قام بها السلطان محمود الغزنوى فى الهند، ومحاولاته للقضاء على مراكز الكفر والإلحاد، ونشر الإسلام فى ربوع تلك البلاد، وإعلاء كلمة الحق، وإقامة المساجد وهدم المعابد وتحطيم الأصنام الموجودة بها، وقد حظى السلطان محمود بمؤلفات عديدة تتناول حياته وجهاده فى سبيل نشر الإسلام، ومن أقدم هذه المؤلفات كتاب "تاريخ اليمىنى" الذى ألفه باللغة العربية أبو نصر العتبى وكان من ملازمى بلاطه، ويتناول المؤلف فى كتابه حياة السلطان محمود وأبيه سبكتگين. ولذلك عرف باسم تاريخ اليمىنى نسبة إلى يمين الدولة. وتاريخ تأليف هذا الكتاب هو أوائل القرن الخامس الهجرى، وقام بعد ذلك بترجمته إلى الفارسية عام ٦٠٣ أبو الشرف ناصح بن ظفر بن سعد الكاتب الذى كان يعيش فى عصر أتابكة آذربايجان، وكتب المنينى شرحاً عليه باللغة العربية فى مطلع القرن الحادى عشر الهجرى سماه "الفتح الوهبى"، ويعتبر كتاب تاريخ اليمىنى من أهم الكتب التى تتناول تاريخ الغزنويين وحياة السلطان محمود.

* * *

ومن الكتب الهامة التى تحدثت عن الغزوات والفتوحات الإسلامية كتاب "طبقات ناصرى" الذى ألفه منهاج الدين عثمان بن سراج الدين المعروف بالقاضى منهاج السراج الجوزجاني عام ٦٥٨ هـ، وهو عالم من علماء خراسان الأفاذا، تولى مناصب

كبيرة في الهند بعد سفره إليها، ويشتمل الكتاب على ثلاث وعشرين طبقة، تبدأ بطبقة الأنبياء وتنتهى بظهور المغول، ويضم بين هاتين الطبقتين طبقات أخرى منها طبقة الخلفاء الراشدين وبنى أمية وبنى العباس وملوك العجم وملوك اليمن والظاهرين والصفاريين والسامانيين والديلمة والغزنويين والسلجقة والملوك السنجرية، وغيرهم، وقد ظل المؤلف يشغل منصب القضاء في دهلي حتى سنة ٦٨٥ هـ، توفي سنة ٦٩٨ هـ أو قبل ذلك، ويمتاز كتاب "طبقات ناصري" بالدقة في سرد الأحداث التاريخية، كما يمتاز بأسلوبه السهل الممتنع البعيد عن الإبهام والغموض والمتأثر باللغة العربية إلى حد كبير.

عندما يتحدث المؤلف عن الطبقة الأولى وهي طبقة الأنبياء، والتي يبدوها بأبي البشر آدم حتى يصل إلى ولادة المصطفى (ﷺ) وأخلاقه ومعجزاته وأسمائه وألقابه، ثم يتحدث عن سنوات الهجرة من السنة الأولى حتى السنة العاشرة، ويتناول فيها غزوات الرسول (ﷺ). ثم يتحدث عن الطبقة الثانية وهي طبقة الخلفاء الراشدين فيبدوها بأبي بكر ثم عمر، وفي عهده تمت فتوحات كثيرة يتحدث عنها المؤلف كفتح الشام ومصر والعراق وجبال أرمينيا والأهواز وفارس واصطخر والري وأذربايجان وأصفهان وبيت المقدس ونهاوند، ويشير إلى أنه أنشأ الدواوين وخصص رواتب الجند، وأنه تولى الخلافة عشر سنوات وخمسة شهور وستة أيام.^(١)

وفي حديثه عن الخليفة الثالث عثمان ذكر أن فتوحات كثيرة أيضاً تمت في عهده منها ما تبقى من بلاد على حدود أصفهان والري واصطخر وفارس ودار ابجر وكرمان وسجستان وطبرستان وخراسان ونيشابور وهرات ومرو شاهجان وبلخ وطخارستان وغيرهما، وعندما يصل إلى بنى أمية يروى أن المسلمين فتحوا في عهد معاوية بلاد الروم ومن بلاد إيران بلخ وكش ونخشب وسمرقند، كما فتح

(١) طبقات ناصري - منهاج سراج - مجلد أول ص ٧٨ - كابل ١٣٤٢ ش.

فى عهد الوليد بن عبد الملك أجزاء من بلاد الروم ووصل المسلمون إلى اللتان فى بلاد الهند.^(١)

وفى الطبقة الخامسة يتحدث عن طبقات ملوك العجم حتى ظهور الإسلام وهم خمس طبقات، وعندما يصل إلى آخر ملوك العجم وهو الملك الثانى عشر يزدجرد يقول: "... وأرسل أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه سعد بن أبى وقاص إلى ناحية المدائن مع جيش الصحابة رضى الله عنهم، وانتقل يزدجرد من المدائن إلى خراسان عن طريق خوزستان وفارس، وأرسل رستم قرخ هرمز لمحاربة جيش الإسلام، وعندما رأى رستم أن الأمر قد بلغ نهايته أخبر يزدجرد حتى يذهب إلى خراسان مع ألف حارس لخزائنه، وألف حارس لصقوره، وألف حارس لكلايه، ومايلزم للصيد والملك والترفيه، وعاد رستم إلى جيش المسلمين، ودارت المعارك بينه وبين سعد بن أبى وقاص، إلى أن قتل رستم فى القادسية، واستولى المسلمون بعد ذلك فى السنة السادسة عشرة من الهجرة على المدائن، واتَّجه يزدجرد إلى خراسان حتى قتله ماهوى الدهقان فى طاحونة سنة إحدى وعشرين من وفاة المصطفى (ﷺ) وانتهى بذلك أمر ملوك العجم ويبقى الملك لله، وكانت مدة سلطنة يزدجرد عشرين سنة، والله أعلم".^(٢)

وفى الطبقة الحادية عشرة من كتابه يذكر منهاج السراج الطبقة السبكتيغينية اليمينية الحمودية (نسبة إلى سبكتيغين والد يمين الدولة محمود الغزنوى)، فيتحدث عن فتوحات السلطان محمود وأنه كان "أول ملك من ملوك المسلمين يلقب بلقب سلطان من قبل دار الخلافة.. وعندما تولى السلطنة ظهر أثره على كل المسلمين، حيث حول عدة آلاف من المعابد إلى مساجد، وفتح بلاد الهند وهزم حكامها، وقبض على جيبال أعظم

(١) المرجع السابق ص ٨٠، ٩٢، ٩٧.

(٢) طبقات ناصرى - ج ١، ص ١٧٢.

ملوكها، .. وقاد جيشه إلى ناحية نهر واله والكجرات، وحطم صنم سومنات وقسمه إلى أربعة أقسام، وضع قسماً منه فى مسجد غزنة، وقسماً على باب قصر السلطنة، وأرسل القسم الثالث إلى مكة، والقسم الرابع إلى المدينة، وقد نظم الشاعر العنصرى فى هذا الفتح قصيدة طويلة يقول فيها :

- عندما سافر السلطان إلى سرمنا،

جعل آثار الغزو علماً للمعجزات .

... وقد استولى هذا السلطان برجولته وشجاعته وسداد رأيه على بلاد الإسلام التى كانت تقع ناحية الشرق، وتولى ولايته حكم كل بلاد العجم من خراسان وخوارزم وطبرستان والعراق وبلاد نيمروز وفارس وجمال الغور وطخارستان، وخضع له ملوك التركستان، وشيد جسراً على نهر جيحون. وقاد جيشاً إلى بلاد توران والتقى به قدر خان حاكم الترك، وخضع له خاقانات التركستان وبايعوه ... وعاش ستين سنة وحكم لمدة ست وثلاثين سنة، وتوفى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة..^(١)

وهكذا رأينا مآثره كتب التاريخ الفارسية عن فتوحات المسلمين فى الهند وغزواتهم لها إلى أن تمت لهم السيطرة على جزء كبير منها، وانتشر الدين الإسلامى هناك، وقد ساهم السلطان محمود الغزنوى بنصيب وافر فى هذه الفتوحات، حيث فرض على نفسه غزو الهند كل عام. وتجلت فى حملاته على الهند قدرته العسكرية وحبه للجهاد وإصراره على تحدى العقبات مما جعل حياته أشبه بأسطورة تروى، فقد قاد جيوشه فى بلاد الهند أكثر من سبع عشرة مرة، وحطم ما بها من معابد وأصنام، ويقال إن مدينة قنوج الشهيرة وحدها كانت تضم نحو عشرة آلاف معبد.

(١) طبقات ناصرى - ج ١ ، ص ٢٢٨ .

وقد اتخذ الغزنويون فى الهند سياسة كانت بعيدة الأثر فى انتشار الإسلام، وساعدت على الاندماج بين الترك والهنود، من ذلك إباحتهم للمسلمين من الهنود أن يتولوا المناصب الكبرى، كما استخدم الغزنويون الهنود فى الجيش، وفرضوا لهم العطاء ووثقوا بهم وعاملوهم المعاملة نفسها التى ظفر بها الجند الأتراك، وغدت القوات الهندية تؤلف نحو نصف جيش مسعود بن محمود، وكانت تلك خطوة هامة على طريق الالتحام بين الهنود وبين الإسلام.^(١)

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن فتوحات السلطان محمود الغزنوى، وسجلوا فى أشعارهم تفاصيل هذه الفتوحات ضمن مدائحهم التى نظموها فيه، الشاعر أبو القاسم حسن بن أحمد العنصرى شاعر العصر الغزنوى الشهير (متوفى ٤٢١ هـ)، وملك الشعراء فى بلاط السلطان محمود، وتدرج معظم قصائده حول مدح هذا السلطان وأخيه الأمير نصر وابنه السلطان مسعود الغزنوى، وللعنصرى غير الديوان منظومات أخرى تتناثر أبيات منها فى المعاجم، وتتميز بالمعرفة التامة للغة العربية وأدائها، كما يعتبر رائداً فى فن إنشاد القصيدة الفارسية، وقد قلده شعراء كثيرون بعده، وإذا طالعنا ديوان العنصرى نجده يتحدث دائماً عن السلطان محمود على أنه بطل من أبطال المسلمين، وأنه استطاع بخبرته العسكرية وفتوحاته أن يحقق الكثير للمسلمين، ومثال ذلك ما قاله فى إحدى قصائده:^(٢)

- إنه أمير المشرق يمين الدولة،

الذى يسهل بسيفه كل ماهو صعب على الدولة.

(١) انظر كتاب : الإسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحتين العربى والتركى - د/ حسن أحمد محمود من ص ٢٣٨ إلى ص ٢٥٢ - طبعة الهيئة العامة للكاتب ١٩٧٢ م.

(٢) ديوان العنصرى - باهتمام وتصحيح ومقدمة وحواشى يحيى قريب - طهران ١٣٦٢ هـ - ١٣٢٣ ش . ص ١٨.

خسرو مشرق يمين الدولة أن كز تبغ أو هرچه دشوار أست بر دولت همى آسان بود

ويقول في قصيدة ثانية واصفاً تأثير محمود في أعدائه وما يتركه في بلادهم من خراب ودمار: (١)

- دائماً ما ينمو الموت في بساتين أعدائه

فوق الأشجار بدلاً من نمو الأوراق.

-- ودائماً ما تجرى النيران في الأنهار.

في مدن أعدائه بدلاً من الماء.

ويؤكد العنصرى في موضع آخر على انتصارات محمود وأمجادها، وأنها حقيقة وليست روايات تذكر في الكتب، يقول في مطلع إحدى قصائده: (٢)

-- هكذا يترك سيف الأمراء أثره،

وهكذا يتصرف العظماء بما يليق بهم.

- انظر إلى سيف السلطان ولا تقرأ كتب الماضي وقصصها،

فسيفه أصدق أنباء من هذه الكتب بكثير.

-
- | | |
|-------------------------------------|------------------------------------|
| بجای برگک روید مرگ از اشجار | (١) همی در باغهای دشمنانش |
| بجای آب نار آید در آنهاار | همی در شهرهای حاسدانش |
| (دیوان العنصری، ص ٢٦) | |
| چنین کنند بزرگان چو کرد باید کار | (٢) چنان بماند شمشیر خسروان آثار |
| که را سنگوی تر از نامه تیغ او بسیار | به تیغ شاه نگر نامه، گذشته مخوان |
| (دیوان العنصری، ص ٤٨) | |

وفى هذه القصيدة أيضاً يشبه الشاعر موت أعداء السلطان محمود وغرقهم فى
نهر جيحون بأنهم كفرعون وقومه، ويشبهه هو بأنه موسى الذى عبر النهر دون أن
يصاب بأى أذى، يقول: (١)

- وغرقوا جميعاً فى النهر كفرعون وقومه،

بينما عبر السلطان النهر كموسى .

وفى نهاية هذه القصيدة يصف الشاعر حروب السلطان بأنها كانت لنصرة دين
محمد، ثم يدعو له بالنصر الدائم والتوفيق المستمر، يقول: (٢)

- قتل الأعداء واستولى على الكنوز وغنم الأموال،

من أجل نصره دين محمد المختار .

- فطالما كانت الظلمة من نصيب الليل،

وطالما كان الضياء من نصيب النهار،

- فليكن العز والنصر والفتح من نصيب سلطان العالم،

وليكن الموت والحزن والمرض من نصيب أعدائه .

(١) بر آب در همه غرقه شدند چون فرعون

چو برگذشت برآن آب شاه موسى وار

(ديوان العنصرى، ص ٤٩)

(٢) بكشت دشمن و برداشت گنج و مال ببرد

ز بهر نصرت دين محمد مختار

هميشه صفت تيرگى نصيب شب است

چنان كجا صفت روشنى نصيب نهار

نصيب شاه جهان باد عز و نصرت و فتح

نصيب دشمن او مرگك و محنت و تيمار

هزار فتح چنين و هزار غزو چنان

برو بر آمده و گفته عنصرى اشعار

(ديوان العنصرى، ص ٥١)

- وليكن له ألف فتح كهذا، وألف غزو كذاك،

وينشد له العنصرى الأشعار.

ويرى العنصرى أن السلطان محمود من الشخصيات التى يفخر بها الإنسان المسلم، وأن الدولة لاتستقيم أمورها إلا به وبأمثاله، وأن مايفعله يحالفه الصواب والتوفيق دائماً، يقول: (١)

- إنه مراد العالم وسلطان الأرض وكنز الفضل،

وهو قوام الملك ونظام الهدى وفخر البشر.

- يمين الدولة الذى تشرفت الدولة به،

وأمين الملة الذى عظم شأن الملة به.

- لقد حظى سلطان العالم بأربعة أشياء.

فى أربعة أوقات عندما عزم على السفر.

- فعندما عزم كان نصيبه الصواب، وعندما قرر كان نصيبه التوفيق

(١) مراد عالم وشاه زمين وگنج هنر

يمين دولت ودولت بدو گرفتته شرف

چهار چيز بود در چهار وقت نصب

چو عزم كرد صواب وچو راى زد توفيق

.....

ز بیم شاه نماند همی بگیتی کفر

قوام ملك ونظام هدى فخر بشر

أمين ملت وملت بدو گرفتته خطر

خدايگان جهانرا چو كرد راى سفر

چو باز گرد فتح وچو جنگك گرد ظفر

زخير شاه نماند همی بگیتی شر

(ديوان العنصرى، ص ٥٨)

و عندما عاد كان نصيبه الفتح ، وعندما حارب كان نصيبه النصر .

إلى أن يقول فى نفس القصيدة:

- لم يعد هناك كفر فى العالم أجمع خوفاً من بطش السلطان ،

ولم يعد به شر بسبب خيره وفضله ،

ويتحدث الشاعر عن فتوحات محمود وحروبه فى كثير من قصائده، ومثال ذلك القصيدة التى يبدوها بقوله: ^(١)

- يامن سمعت من فضائل السلطان ،

تعال وشاهد فضائل أمير المشرق بعينيك .

ويشير الشاعر فى هذه القصيدة إلى فتوحات السلطان محمود فى المولتان وما أصابه من نصر على الكفار، وما حققه من نشر للإسلام وقضاء على الشرك، يقول: ^(٢)

بیا ز خسرو مشرق عیان بین تو هنر
(دیوان العنصری، ص ٧٨).

و گزر ندانی تاج الفتوح پیش آور

که هو یکی را صد بند بود چون خیبر
نبرده بادهمی توده های خاکستر
کجا بمردم خیبر نکرده بد حیدر
نه قرمطی نکشت و نه گبر و نه کافر

بجای بتکده بنهاد بر که ومنبر
بجز رضای خدا و رضای پیغمبر
(دیوان العنصری، ص ٧٨).

(١) آیا شنیده هنرهای خسروان بخبر

(٢) حکایت سفر مولتان همی دانی

بمولتان شد و در ره دویست قلعه گشاد
ز بوم و بتکده هائی که شاه سوخت هنوز
بسند و ناحیت هند شهریار آن کرد
نه قلعه ماند که نگشاد و نه سپه که نزد

ببست رهگذر کفر و بیخ شرک بکند
نجست زینهمه کافرستان که ویران کرد

- استمع إلى حكاية السفر إلى المولتان وتعرف عليها،

وإذا لم تكن تعرفها فابدأ بها فهي حكاية تاج الفتوح

إلى أن يقول:

- لقد توجه السلطان إلى المولتان وفتح مائتي قلعة في الطريق،

لكل واحدة منها مائة قفل ومانع كخبر .

- ومن كثرة ما أحرقه السلطان من أماكن ومعابد،

لم تتمكن الرياح من حمل أكوام رمادها حتى الآن .

- لقد فعل الأمير في السند وناحية الهند،

ما لم يفعله حيدر بأهل خيبر .

- فهو لم يترك قلعة بدون فتح، ولم يترك جيشاً بدون هزيمة،

ولم يترك قرمطياً أو مجوسياً أو كافراً بدون قتل،

ثم يتحدث عن فتحه لمرو في نفس القصيدة، ويقول:

- سد طريق الكفر، واقتلع جذور الشرك،

أقام المساجد والمنابر مكان المعابد .

- ولم يطمع في شيء من وراء هدم بلاد الكفر،

سوى رضا الله ورسوله .

نذكر أيضاً من الشعراء الذين أفاضوا في الحديث عن محمود الغزنوي وفتوحاته
وغزواته من أجل نشر الإسلام في الهند الشاعر أبا الحسن علي بن جولوغ الفرخي

السیستانی (متوفی ۴۲۹ هـ)، وهو أيضاً من شعراء بلاط السلطان محمود، ومعظم قصائده في مدح ذلك السلطان وأبنائه وإخوته ووزرائه وندمائيه، ويشتمل ديوانه على أكثر من تسعة آلاف بيت من الشعر الذي يتميز بالسهولة والخلو من التعقيد والإبهام، وقد وصف غزوات محمود بشكل واقعي حيث إنه كان شاهد عيان على كل هذه الغزوات والحروب، ويمكن اعتباره من أشهر شعراء القصيدة في إيران.

وفي إحدى قصائد الفرخی يصف الشاعر عودة السلطان محمود من الهند بعد فتح سومنات بقوله: (١)

- يمين الدولة سلطان العصر الذي عاد إلى مقره الآن،

بقلب مسرور وبفأل حسن.

- ذلك لأنه حطم الأصنام وهدم المعابد،

وفتح القلاع القوية قلعة بعد قلعة.

- وعبر الفيافي الشاسعة،

وعبرت جيوشه البحار الواسعة.

(١) ديوان حكيم فرخی سیستانی - بکوشش دکتر محمد دبیر سیاقی - تهران ۱۳۴۹ (ص ۳۴ قصيدة ۱۸).

یمین دولت شاه زمانه باد شاد	بفأل نیک کنون سوی خانه روی نهاد
بتان شکسته وبتخانه ها فگنده زیای	حصارهای قوی بر گشاده لاد از لاد
گزاره کرده بیا بانهای بی فرجام	سپه گذاشته از ابهای بی فرناد
خلیفه گوید کامسال همچو هر سالی	گشاده باشد چندین حصار آمده شاد
خبر ندارد کاسال شهریار جهان	بنای کفر فکنده ست وکنده از بنیاد

ويتحدث الشاعر عن خليفة بغداد عندما وصل إليه خبر فتح سومنات، وقد اعتبره فتحاً عادياً، إلا أن الشاعر يصف ذلك بشكل مختلف، ويرى هذا الفتح أمراً غير عادى، لا يقوى عليه إلا سلطان ذلك العصر محمود الغزنوى، يقول:

- يقول الخليفة إن هذا العام مثل كل عام،

فقد فتح عدة قلاع وعاد مسروراً.

- وهو لا يعلم أن ملك الدنيا،

قد حط ببناء الكفر هذا العام واقتلع جذوره.

ويدعو له بقوله: (١)

- ليبقه الله حيا، فبسيفه وساعده،

خرب بناء الكفر، وعمر بناء الدين.

ويصف الشاعر المعاناة التي عاناها السلطان محمود فى سفره وحروبه، وأنه كان يتحمل ذلك فى سبيل نصرة الإسلام، كما كان عبوره للبحار والأنهار معجزة كبيرة كمعجزة عبور موسى، يقول: (٢)

- من كثرة ما عانى جسده الشريف من متاعب السفر وآلامه،

(١) بقاش باد كه از تيغ او وبازوى اوست

بنای کفر خراب و بنای دین آباد
(ديوان النصرى، ص ٣٤).

(٢) ز بسكه رنج سفر بر تن شريف نهى

همى ندانم كسان تنى تنست يا پولاد
برابر يكى از معجزات موسى بود

در آب دريا لشكر كشيدن شه راد
(الديوان ، ص ٣٤).

لم أعد أعرف هل جسده هذا جسد إنسان أم هو من الفولاذ.

- وما عبور السلطان الشجاع للبحر بجيشه ،

إلا معجزة تعادل معجزة من معجزات موسى .

ويرى الشاعر أن ما فعله السلطان ليس بالمعجزة الوحيدة، فإن له معجزات كثيرة في الجهاد والحرب، وقد أعطاه الله هذه المواهب وذلك التوفيق منذ كان في سن العشرين من عمره، كما يعتقد أن ما فعله السلطان يفوق بكثير ما فعله ملوك إيران القدماء، يقول: ^(١)

- لا تقل إنه يشبه كيقباد أو جمشيد ،

فإن الحديث عنه يختلف تماماً عن الحديث عن جمشيد و كيقباد .

- فعندما نتحدث عنه لا نتحدث عن غيره من الملوك ،

فمن الخطأ أن نقارن بين طائر الهما ^(٢) والحدأة .

والواقع أن استيلاء محمود الغزنوي على الكجرات ودخول سومنات يعتبر من أعظم فتوحاته الهندية، فقد اخترق إليها صحراء مهلكة هي صحراء الثار (تر) التي لم يجرؤ الإسكندر المقدوني من قبله على اقتحامها، فكانت قوة جلده واحتمال رجاله مثار الدهشة والإعجاب. وفي سومنات هذه كان يقوم معبد كبير له قداسة عظيمة عند

(١) مگو مگوی که چون کيقباد یا چو جم است

حديث او دگريست از حديث جم وقباد

خطا بود که تخلص کنی همای به خداد

(الديوان ، ص ٢٥).

جو زو حديث کنی از شهبان حديث مکن

(٢) الهما : طائر خرافي يقال إن كل من يقع عليه ظله تأتيه السعادة، ويتفاءل به الإيرانيون.

الهنادكة، حتى إنهم أعادوا بناءه من جديد فى العصر الحاضر عام ١٩٥١م، أى بعد مضى أكثر من تسعة قرون على هدم محمود له. ويعتقد الهنادكة أن الأرواح تتناسخ فى الأبدان عند هذا المعبد، وأن المد والجزر إن هما إلا صلاة البحر يؤديها إلى صنمهم الأكبر هناك.

ويحج الناس إلى هذا المعبد عادة فى جموع زاخرة ولاسيما عند خسوف القمر، وكان به من السدنة ألف من البراهمة ومن المنشدين خمسمائة^(١).

وفى قصيدة أخرى يصف الفرخى أيضاً عودة السلطان محمود من الهند بعد فتحه الثانى، ويذكر فتح مدينة قنوج، ويعد هذا الفتح من بين وقائع محمود الحربية الباهرة، وكانت هذه المدينة تضم نحو عشرة آلاف من المعابد، ولم يستطع أميرها المقاومة، وتم الاستيلاء على مدينته، يقول^(٢).

- يمين الدولة محمود قاهر الكفار،

الذى يدعم دين محمد المختار.

- عندما عاد منتصراً من قنوج،

كان الظفر والفتح عن يمينه وعن يساره.

(١) أنظر : محاضرات فى تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها - الدكتور أحمد محمود الساداتى - طبعة معهد الدراسات الإسلامية ١٩٧٦م القاهرة.

(٢) قولى كنده' دين محمد مختار
چو باز گشت به پیروزی از در قنوج
هنوز رایتش از گرد راه چون نسرین
هنوز ماه ز آوای کوس او مدهوش
ز بهر ریختن خون دشمنان خدای
رہی بیش خود اندر گرفت و گرم براند
رہی چگونه رہی، چون شب فراق دراز
یمین دولت محمود قاهر کفار
مظفر و ظفر و فتح بر یمین و یسار
هنوز خنجرش از خون تازه چون گلنار
زعکس تیغش خیره ستارده، سیار
ز بهر قوت دین محمد مختار
بزیار رایت منصور لشکر جرار
چو عیش مردم درویش ناخوش و دشوار

- وما زالت رايته فى لون زهرة النسرین من غبار الطريق ،
- وما زال خنجره فى لون زهرة الجلنار من أثر الدماء .
- وما زال القمر مندهشاً من صوت طرقات طبوله ،
- وما زالت الكواكب السيارة حیرى من بريق سيفه .
- فمن أجل سفك دماء أعداء له ،
- ومن أجل دعم دين محمد المختار .
- طوى الطريق وقاد على عجل ،
- جيشه الجرار تحت لوائه المنتصر ،
- طريق وأى طريق هو ؟ إنه طريق طويل كليل الفراق ،
- أو هو كحياة الفقراء المعدمين كله ألم ومعاناة .

ثم یصف الشاعر بعد ذلك المعارك التى دارت بین جيش محمود وجیش ننڊا الهنڊى، وأنه استطاع القضاء علیه قضاء مبرما، ويشبهه ذلك بقوله: (۱).

(۱) همی شدند وهمی ریخت آن سپاه سلیح
بجای لشکر ایشان نگاه کرد ملک
یرفت بردمشان یک دو منزل وهمه را
تبارک الله از آن خسروی که در هنرش
ایا شجاعت را نوك نیزه، تو پناه
بسا بتاکه تو برداشتی ز بتکده
ز بهر آنکه بتان را همی پرستیدند
بتان زرین بشکستی وبپا لودی

چنانکه وقت خزان برگ ریزد از اشجار
ندید زیشان جز خیمه بر زمین آثار
بکشت و دشمن دینرا بکشت باید زار
زبان خلق همی باز ماند از گفـتـار
ایا شریعت را تبغ تیز تو معیار
چنان بتان گه زلاهور بر گرفتى پار
مخالفان هدی اندر آن بلاد و دیار
ینام ایزد از آن زرها زدی دینار
(دیوان الفرخی ص ۵۲، ۵۳).

- لقد انهيار ذلك الجيش المسلح وتساقط جنوده ،
- كما تتساقط أوراق الأشجار فى فصل الخريف .
- ونظر الملك إلى مكان الجيش .
- فلم ير منهم أحداً سوى آثار الخيام على الأرض .
- فتعقبهم لمسافة طويلة ،
- وقتلهم جميعاً وقضى على عدو الدين العاجز الذليل كما ينبغي .
- تبارك الله لمهارة ذلك المليك ،
- الذى عجزت ألسنة الخلق عن مديحه ووصفه .
- يا من تكون رأس حربتك ملجأ للشجاعة ،
- ويكون سيفك البتار معياراً لتطبيق الشريعة .
- كم من الأصنام حطمتها فى المعابد ،
- كتلك الأصنام التى أخذتها من لاهور فى العام الماضى .
- وبسبب أن مخالفى الهدى فى تلك البلاد ،
- قد عبدوا الأصنام .
- حطمت الأصنام الذهبية وطهرتها ،
- بعد أن سككت الدنانير الذهبية منها باسم الله .

ویرصف الشاعر فى قصيدة أخرى له بعض فتوحات السلطان محمود، وما فعله
بالطغاة والعصاة والملحدين وعبداء الأصنام فيقول: (١).

- لقد جعلت الطغاة والعصاة جميعاً مطيعين وخاضعين لك،

وقضيت على الملحدين والضالين كلهم.

- وجعلت حياة عبدة الأصنام مرة كالحنظل،

وجعلت أيام أعداء الدين سوداء كالقار.

ویرصف نتائج فتوحاته وغزواته وأنها جعلت القلاع خالية من الرجال، والمدن
خالية من الأمراء والحكام، وجعلت الأدغال خالية من الأسود، والصحارى خالية من
الأفاعى، فيقول فى نفس القصيدة:

- لقد جعلت الأدغال خالية من الأسود، وجعلت الصحارى خالية من الأفاعى.

وجعلت القلاع خالية من الرجال، وجعلت المدن خالية من الأمراء.

ملحدهان وگمراها نرا جمله بر کردی بدار
روزهای دشمنان دین سیه کردی چوقار
قلعه ها بی مرد کردی، شهرها بی شهریار
تخت و ملک از خانه های بر کرفتی نامدار
خانه، چپ‌الیان و این چنین صد بر شمار
با کدامین شاه خواهی کرد زین پس کارزار
حسادت یاوه گوهستند و جمله ژاژ خور
چون کند، چون در همه گیتی نیابد هیچ کار
هم از آن شاهان که تو برکنده ای از بیخ و بار
(دیوان الفرضی ص ۸۷).

(۱) طاغیان و عاصیان را سر بسر کردی مطیع
عیشهای بت پرستان تلخ کردی چون کبست
بیشه ها بی شیر کردی، دشتها بی آزدها
خسروی از خسروانی بستدی پیروز بخت
خانه، یعقوبیان و خانه، مأمونیان
لشکر ایشان شکستی کشور ایشان گرفت
کارهای شیر مردان کرد و از رشک تو
گر کسی خواهد که درگینی چو تو کاری کند
عمرهای نوح باید تا شیعی خیزد دگر

- فأنت الأمير الذى أخذ الإمارة من الأمراء ذوى الحظ الحسن،
وأخذت العرش والملك من البيوتات الشهيرة.
- كبيت اليعقوبيين وبيت المأمونيين،
وبيت جيپال الهندى، والمئات من أمثالهم.
- هزمت جيوشهم واستوليت على بلادهم،
فأى ملك سوف تحاربه بعد ذلك؟
- لقد فعلت ما يفعله شجعان الرجال،
مما جعل حسادك يشرعون فى الهذيان واللغو.
- ولو أراد أحد أن يفعل ما فعلته أنت فى هذه الدنيا،
وفعل ذلك، فلن يجد شيئاً آخر يفعله فيها.
- وسوف تنقضى أزمته كعمر نوح حتى يظهر ملك آخر،
كهولاء الذين اقتلعت جذورهم وقضيت عليهم.
- ويتناول الشاعر فتوحات السلطان محمود وعبوره لنهر الكنك فى الهند فى إحدى قصائده الشهيرة ويخطابه فيها بقوله: (١)

(١) تو آن شهى كه تراهر كجاروى شب وروز
همیشه كار تو غزوست وپیشه توجهاد
از بن بن دو چیزكنی یاد، خفته كر بیدار
پی غزای بد اندیش فرقهء كفار
گواه ابن كه سوى گنك روى آوردی
(دیوان الفرخى ص ٦١).

- إنك أنت السلطان الذى أينما ذهب ليلاً أو نهاراً،
 يرافقه الظفر والفتح عن يمينه وعن شماله .
 - فعملك دائماً هو الغزو ، وحرقتك هى الجهاد .
 وتحدث عنهما دائماً سواء كنت نائماً أم مستيقظاً .
 - والشاهد على ذلك أنك توجهت إلى الكنگ ،
 لغزو طائفة الكفار سيئة العقيدة ،
 إلى أن يقول واصفاً عبوره لهذا النهر وغرق أعدائه فيه: ^(۱)
 - وعبرت هذا النهر لحرب الكفار ،
 فقهروهم الله - تعالى - على يدك .

(۲) بجنگ کافر ازین رود بگذرید بهم
 همه سپاه بیکبار یا سلیح و سپر
 چو قوم موسی عمران ز رود نیل از آب
 چهل امیر ز هندوستان در آن سپاه است
 علامتست در آن لشکر اندر و بر او
 قویست قلبیکه لشکرش به نهصد پیل
 همه چو کوه بلندند روز جنگ و جدل
 خدیگان زمانه چو ابن خبر بشنید

که هم بدست شما قهرشان کند قهار
 فروشدند بدان رود نا دهنده گذار
 بر آمدند همه بی گزند و بی آزار
 بزیر رایتشان سی و شش هزار سوار
 پیادگان گزیده صد و سی و سه هزار
 چگونه پیلان ، پیلان نامدار خیار
 بلند کوه بداندها کنند شیار
 چه گفت ، گفت همی خواستم من این پیکار
 (دیوان الفرخی ص ۶۲ ، ۶۵) .

- وغرق كل الجيش مرة واحدة بأسلحتهم ودروعهم
فى النهر دون أن يتمكنوا من العبور.
- وعبرت جيوشك كلها النهر بدون ضرر أو أذى،
كما عبر قوم موسى بن عمران نهر النيل.
- ثم يصف جيش العدو ومدى قوته وتسليحه، وعندما علم الملك بتلك القوة رغب فى قتال ذلك العدو، فيقول:
- كان على رأس هذا الجيش أربعون أميراً هندياً،
وكان تحت إمرتهم ستة وثلاثون ألف فارس.
- وكانت لهذه الجيش علامات ورايات،
كما ضم من المشاة المختارين مائة وثلاثة وثلاثين ألف جندي.
- ويدعم وسط الجيش تسعمائة فيل،
وأى أفيال؛ إنها أفيال مشهورة منتقاة.
- وهى ضخمة كالجبال فى وقت الحرب والنزال،
تكسر الجبال العالية بأسنانها.
- فماذا قال سيد العصر ومليكه عندما سمع هذا الخبر؟
قال : إننى أرغب فى منازلة هذا الجيش.

و یصف الفرخی فی قصیدهٔ آخری له سفر السلطان إلى سومنات وفتحها،
و تحطیم الصنم منات، وعودته منها منتصراً، یقول فی مطلعها: ^(۱)

- أصبح الحديث عن الإسكندر حديثاً خرافياً وقديماً،

فتحدث اليوم حديثاً جديداً، فالجديد له حلاوة أخرى.

- فالحديث عن الإسكندر وأين وصل وماذا فعل،

قد حفظه الناس من كثرة سماعه وتكراره

- أما السلطان فهو الذي لا يتمنى شيئاً بالليل أو النهار

سوى أن يهدم معابد الأصنام ويحطمها فوق رؤوس عبدة الأصنام.

(۱) فسانه گشت و کهن شد حدیث اسکندر

حدیث آنکه سکندر کجا رسید و چه کرد

شبی که روز و شب او را جز این تمنایست

گاهی ز جیجیون لشکر کشد سوی سیحون

ز کار نامه او گردو داستان خوانی

....

تو سومنات همی سوختی به بهمن ماه

بوقت آنکه همه خلق گرم خواب شوند

سخن نو آر که نو را حلاوتیست دگر

ز بس سنیدن گشته ست خلق را از بر

که چون زند بت و بتخانه بر سر بنگر

گاهی سپه برد از باختر سوی خاور

بخنده یاد کنی کساره‌های اسکندر

شهبان دیگر عود مثلث و عنبر

تو در شتاب سفر بوده ای و رخ سهر

(دیوان الفرخی ص ۶۶، ۷۳).

- فأحياناً يقود الجيش من جيحون إلى سيحون ،
وأحياناً يقوده من الغرب إلى الشرق .
- وإذا قرأت قصتين من سجل أعماله ،
فسوف تضحك عندما تتذكر أعمال الأسكندر .
- ويقارن الشاعر بين السلطان محمود وبين غيره من السلاطين فى نفس القصيدة ،
ويرى أنه يعمل بجد وإخلاص من أجل إعلاء كلمة الحق ورفع راية الإسلام عالية
خفاقة، بينما يعيش غيره من الملوك فى راحة ورفاهية، يقول:
- لقد أحرقت سومنات فى شهر بهمن ،
بينما كان الملوك الآخرون يحرقون العود والعنبر .
- وبينما كان الناس جميعاً يغطون فى سبات عميق ،
كنت أنت تسرع فى السفر وتعانى من السهر .

الفصل الرابع
القصص الديني في الأدب الفارسي

تقديم

الحديث عن القصة فى الأدب الفارسى حديث متشعب واسع. لأن الأدب الفارسى وبخاصة الشعر قد حفل بالعديد من المنظومات القصصية ، وقد ساعد على ذلك ابتكار الفرس لفن شعرى جديد ، هو فن المثنوى ، ذلك الفن الذى أتاح للفرس انطلاق الشعراء فى التعبير دون قيد القافية الموحدة ، لأن هذا الفن يعتمد على التزام القافية بين شطرى البيت الواحد ، وليس كالقصيدة العربية التى كانت تلزم الشاعر بوحدة القافية طوال أبياتها ، مما جعل قدرة الشاعر العربى على الإطالة محدودة ، ومهما كانت المقدرة اللغوية للشاعر العربى ، فلن يستطيع أن يواصل النظم على قافية واحدة لأكثر من مائتى بيت ، وإن وجدت قصائد تفوق هذا العدد ، فهى جد قليلة بل ونادرة ، أما اكتفاء الفرس بالالتزام فى القافية على شطرى البيت الواحد ، فقد أتاح لهم نظم العديد من المنظومات التى تتعدى أبياتها عدة آلاف ، بل إن منظومة واحدة كالشاهنامه قد وصل عدد الأبيات فيها إلى ما يزيد عن الستين ألف بيت ، ونتيجة لهذه الانطلاقة فى النظم والتعبير فإن العديد من الشعراء قد أجادوا فن القص ، أو على الأقل فن نظم الحكايات .

وفى المقابل فإن كتاب النثر قد أدلوا بدلوهم فى هذا المضممار فزينا كتبهم بالعديد من الحكايات التى ساقوها للتمثيل أو لتوضيح ما ينادون به من آراء وأفكار ، أو لسرد سير أبطالهم وشخصياتهم القومية أو المذهبية. وعلى هذا فقد راج فن القصة لدى الفرس منذ عدة قرون وتنوعت أغراض هذه القصص ما بين حماسية ورومانسية ومذهبية ودينية .

وما يهمننا فى هذا المضممار هو الحديث عن القصص الدينى فى الأدب الفارسى سواء ما حيك فى إطار الحكايات ؛ أو ما كتب أو نظم فى مجال القصة القصيرة ، وما جاء فى إطار القصة الطويلة .

ولما كانت هذه الحكايات أو تلك الروايات كثيرة كثرة هائلة؛ فإننا سنكتفى بذكر عدة حكايات على سبيل المثال ، ثم ينتقل بنا الحديث إلى أشهر القصص الدينية فى الأدب الفارسى ، وسنلاحظ أن الكثير من هذه الحكايات الدينية قد سردت متعلقة بقصص الأنبياء عليهم السلام ، ومنها هذه الحكاية عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام والتي وردت فى كتاب «بوستان» نظم شاعر الإنسانية الكبير سعدى الشيرازى .

(حكاية إبراهيم الخليل عليه السلام وضيئه المجوسى)

- سمعت أنه فى أسبوع لم يأت ابن سبيل ، إلى دار ضيافة إبراهيم الخليل .
- وكان من طبعه المبارك أن يسارع بإعداد الأكل فى الصباح ؛ لعل مسكيناً يأتى فى الطريق

- فخرج ونظر فى كل جانب ، وأطل على الأطراف والوادى
- ثم رأى شخصاً وحيداً فى البادية كشجرة صفصاف ، رأسه وشعره أبيضان من الغبار والشيب .

٥ - فرحب به بمودة ، ودعاه إلى الطعام على عادة الكرماء

- قائلاً : يا إنسان عيى ، تكرم بتناول عيشى وملحى

- فقال نعم ، وهول وخطا إلى الإمام ، لأنه عرف خلقه عليه السلام

- وأجلس رقباء مضيئة الخليل ، بإعزاز ذلك الشيخ الذليل

- فأمر (الخليل): ورتبوا الخوان ، وجلس الجميع حول ذلك الضيف

١٠ - فلما بدأ الجميع بـ (بسم الله) ، لم يسمع من الشيخ حديثاً

- فقال (إبراهيم الخليل) أيها الشيخ المعمّر ! إني لا أرى لك صدقاً ومحبة مثل الشيوخ .

- أليس الشرط والقاعدة أنك وقتما تأكل ، تذكر رب الرزق والإطعام؟

- فقال : لا أتبع سنة لم أسمعها من الشيخ عابد النار

- فعرف النبي الحسن البخت والقال ، أن الشيخ مجوسى فاسد الحال

١٥- فطرده بذلة حين رآه غريباً عن الله ، لأن النجس يكون منكراً عند الإطهار

- فجاء الوحي بهيبة لانماً ، من الرب الجليل ، قائلاً : أيها الخليل !

- لقد أعطيتك أنا الرزق والروح مائة عام ، وأنت نفرت منه من لحظة

- إذا كان هو يسجد أمام النار ، فلماذا تتنى أنت يد الجود؟ (١)

(١) الترجمة نقلاً عن أريج البستان للدكتور أمين عبد المجيد ، ص ٩٠ - ٩١ والأصل الفارسي :

شنيډوم كه يكهفته ابن السبيل	نيامد بمهما نسرای خليل
زفر خنده خوئی نخوردی بکاه	مکر بینوائی در آید ز راه
برون رفت وهر جانبی بنگرید	بر اطراف وادی نگه کرد و دید
بتنها یکی در بیابان چو بید	سر و مویش از گرد پیردی سپید
٥ - بدلداریش مرحبائی بگفت	برسم کریمان صلائی بگفت
که ای چشمهای مرا مردمک	یکی مردمی کن بنان و نمک
نعم گفت و بر جست و برداشت کام	که دانست خلقش . علیه السلام
رقیبان مهما نسرای خليل	بعزت نشانند پیر ذلیل
بفرمود و ترتیب کردند خوان	نشستند بر هر طرف همگان
١٠ - چو بسم الله آغاز کردند جمع	نیامید ز پیرش حدیثی بسمع
چنین گفتش ای پیر دیرینه روز	چو پیران نمی بینمت صدق و سوز=

إذا كانت الحكاية تركز على ضرورة أن يبدأ الإنسان أى عمل بـ «بسم الله» كما تبرز كذلك سمة الكرم ، وضرورة أن يكون الكرم بلا غرض ، وشاملاً كل بنى البشر ، فإن الله عز وجل قد عاتب نبيه إبراهيم الخليل ، لأنه طرد مجوسياً نزل ضيقاً على مائنته مرة واحدة ، بينما كرم الله عز وجل يشمل الجميع مسلمين وكفاراً ، وهام جميع المجوس وغيرهم يقبلون على موائد الرحمن سنوات عمرهم ، ولا يطردهم الله ولا يعجل بعقابهم ، حيث إن الله جل شأنه يمهّل ولا يهمل مرجئاً الحساب إلى يوم الحساب ، لعل بعض هؤلاء يؤمنون قبل الممات !!

وليس فى استضافة مجوسى أو نصرانى خروج عن جادة الإيمان ، فهذا نحن نرى العديد من دول العالم الإسلامى تستضيف العمالة الآسيوية والإفريقية التى لا يدين معظمهم بالإسلام ، فيعملون ويأكلون من مائدة المسلمين .

كما أورد جلال الدين الرومى فى كتابه المثنوى العديد من الحكايات المرتبطة بالرسول والأنبياء ومنها حكاية عن ناقة سيدنا صالح ، وكم أنزل الله العقاب والعذاب بأولئك الذين خالفوا أمر الله وعقروا هذه الناقة :

نه شرطست وقتیکه روزی خوری	که نام خداوند روزی بری
بگفتا نگیرم طریقی بدست	که نشنیدم از پیر آذر پرست
بدانست پیغمبر نیکفال	که گبرست پیر تبه بوده حال
۱۵ - بخوارى براندش بیکانه دید	که منکر بود پیش تبه بوده پلید
سروش آمد از کر دکار جلیل	بهیبت ملامت کنان کای خلیل
منش داده صد سال روزی وجان	ترا نفرت آمد ازو یکزمان
گراو میبرد پیش آتش سجود	تو واپس چرا میبری دست جود ؟

(کلیات سعدی بوستان نشر فروغی ، ص ۷۱ - ۷۲) .

(ناقة صالح)

- كانت ناقة صالح فى صورتها الظاهرة ناقة ، وكان من جهل هؤلاء الحاقدين أن عقروها^(١) .

- فهم حين أصبحوا خصوماً لها على الماء ، أعماهم الحرص على الخبز والماء
- كانت ناقة الله تشرب الماء من النبع ومن السحاب ، فحبس هؤلاء ماء الحق عن الحق

- وهكذا أصبحت ناقة صالح ، مثل جسم الصالحين كميناً لهلاك الظالمين .
ه - لنر ماذا جلب أمر الحق : «ناقة الله وسقياها»^(٢) على تلك الأمة من أحكام الموت والألم

- فقد قاضاهم محتسب الحق بمدينة كاملة ، دية لناقة واحدة .
- وقد قال صالح : أما وقد أحدثتم هذا الحسد ، فلسوف تقع نقمة الرب بعد أيام ثلاثة^(٣)

- وسوف تأتكم من الله آفة ذات علامات ثلاث .
- وسوف يتغير لون وجوهكم ، ويصبح هذا اللون مختلفاً فى نظركم
١٠ - ففى اليوم الأول يكون لون وجوهكم كالزعفران ، وفى اليوم الثانى يكون أحمر كالأرجوان .

(١) اشارة إلى قوله تعالى : فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها الشمس ، آية : ١٣ .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى : فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها ، ولا يخاف عقباها الشمس آية ١٤ - ١٥ .
(٣) إشارة إلى قوله تعالى : فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (هود ، آية : ٦٥) .

- وفي اليوم الثالث تصبح كل الوجوه سوداء ، وبعد ذلك يأتي قهر الله .
- فحينما سمعوا هذا الوعيد المظلم ترقبوه ، وانتظروه .
- فى اليوم الأول رأوا وجوههم قد اصفرت ، فانطلقت من اليأس أهاتهم العميقة .
- وفي اليوم الثانى احمرت وجوه الجميع ، وضاعت بذلك فرصة الأمل والتوبة .
- ١٥ - وفي اليوم الثالث علا السواد وجوه الجميع ، فصدق حكم صالح بدون جدال .
- وقد نزل جبريل ببيان هذا فى القرآن : «فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين»^(١)
- لقد انتظرت ثمود ضربة القهر الإلهى ، فجاءهم ومحا تلك المدينة .
- وذهب صالح من خلوته نحو المدينة ، فرأها مغلفة بالدخان واللهيب .
- وسمع النواح من حطام القوم ، كان النواح ظاهراً ، أما النائمون فمختفون !
- ٢٠ - سمع النواح من عظامهم ، كما كانت دموع الندم تقطر كالندى من أرواحهم^(٢)

(١) سورة الأعراف ، آية ، ٧٨ .

(٢) جلال الدين الرومى : المثنوى ج ١ ترجمة محمد عبد السلام كفاى ص ٣١٠ - ٣١٣ .
وهذه الحكاية تقع فى واحد وستين بيتا ، ويمكن مراجعة الحكاية كاملة بالترجمة العربية للجزء الأولى من المثنوى للدكتور محمد عبد السلام كفاى . وهذا الأصل الفارسى للآيات التى ذكرنا ترجمتها ؛ كما يلى :

ناقاه صالح بصورت بد شتر	پی بریدنش از جهل آن قوم مر
از برای چون خصم شددند	نان کور وآب کور ایشان بدند
ناقاه الله آب خورد از جوی و میغ	آب حق راداشتند از حق دریغ

لم تكن هذه الناقاة فى رأى جلال الدين الرومى إلا رمزاً يختبر فيه قوم صالح ، فهل يمتلكون إلى نصيحة سيدنا صالح بالامتناع عن عقر هذه الناقاة استجابة لأمر الله عز وجل ، أم يركبهم الغرور والصلف ويصرّون على معصية الخالق ، وعدم الامتنال إلى نصح صالح عليه السلام ، وقد فشلوا فى الاختبار ، وأقدموا على المعصية والخطيئة وعقروا هذه الناقاة الرمز والتي تختلف عن بقية النوق ، وهذا ما لم يكن فى حسابانهم ، ولم يدركوا سرها ، فكان جزاؤهم شر الجزاء ، وحل بهم العذاب والدمار

ناقهء صالح چو جسم صالحان	شد كمينى در هلاك ظالمان
۵ - تا بر آن امت زحگم مرگ و درد	"ناقاة الله وسقيها" چه كرد ؟
شحنه قهر خدا زيشان بجست	جونيهاى اشترى شهرى درشت
گفت صالح چونك كرديد اين حسد	بعدسه روزا از خدا نقت رسد
بعدسه روز دگر از جانستان	آفتى آيد كه دارد سه نشان
رنگ روى جمله تان گردد دگر	رنگ رنگ مختلف اندر نظر
۱۰ - روز اول رويتان چون زعفران	در دوم ، رو سرخ همچون ارغوان
در سوم گردد همه روها سياه	بعد از آن اندر رسد قهر إله
چون شنيدند اين وعيد منكدر	چشم بنهادند و آن را منتظر
روز اول خسودديدند زرد	مى زدند از نا اميدى آه سرد
سرخ شد روى همه روز دوم	توبت اميد وتوبه گشت كم
۱۵ - شد سيه روز سوم روى همه	حكم صالح راست شد بى ملحمه
در نبى آورد جبريل آمين	شرح اين زانو زدن را جاثمين
منتظر گشتند زخم قهر را	قهر آمد ، نيست كرد اين شهر را
صالح جزاى ايشان مى شنيد	شهرديد اندر ميان دود و تفت
ناله از اجزاى ايشان مى شنيد	نوحه پيدا ، نوحه گويان نا پديد
۲۰ - زاستخوانهاشان شنيد آناله ها	اشك خون از جانسان چون ژاله ها

(جلال الدين الرومى : مثنوى ، دفتر اول ۱۱۱ - ۱۱۳ تهران ۱۳۷۱ ش) .

والنكال ، حتى كان الجزاء - كما قال الرومى - تدمير مدينة كاملة فى مقابل عقر ناقة واحدة ، ولكن لم يكن الأمر وكأنه واحدة بواحدة وإنما كان الجزاء مقابل عدم الإيمان بالله وبرسوله ويدعوته ، ولم تكن الناقة والامتناع عن عقربها إلا اختباراً لم يدركوا مغزاه ، وهو الامتثال لأوامر الله وكذلك تحذير وتنبيه لكل من يخرج عن الطريق المستقيم ، طريق الإيمان والتسليم لله عز وجل : وأن مثل هذا الجزاء الذى أصاب قوم صالح ، سيصيب كل من يعصى الله ورسله الكرام فى أى زمان وأى مكان !!

* * *

وهذه حكاية عن سيدنا داود عليه السلام وردت فى كتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات تأليف الأديب العلامة محمد عوفى^(١) تدور حول ضرورة كسب العيش بالكد والعمل وعدم الاتكال على الآخرين أو الطمع فى مال الغير ، وملخصها :

حكى أنه فى الأيام الأولى بعد صدور الأمر الإلهى : «يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض» أن خضعت جميع طوائف بنى إسرائيل لحكمه ووضعت رقابها فى ربة طاعته ، وكان من عاداته فى أيام خلافته أنه عندما يجن الليل وينشر الظلام ظلاله الكثيفة على الدنيا ، يخرج داود متنكراً ، ويسأل كل من يقابله : علام تكون سيرة داود معكم وما نصيبكم من نعيم مملكته ، هل هو الشوك أم كئس الإنعام؟ وذات ليلة التقى به جبريل عليه السلام وقد تخفى فى صورة رجل. فسأله داود : ماذا تقول فى داود؟ فقال كل ما يمكن أن يقال إنه نعم الملك ونعم النبى ، ولكن تنقصه خصلة واحدة فقال

(١) محمد عوفى : سيد الدين أو نور الدين محمد بن محمد عوفى البخارى. من كبار أدباء إيران فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين ، ويقال إنه من ذرية الصحابى الكبير عبد الرحمن بن عوف ، ولذا اشتهر باسم "عوفى" وقد ولد ببخارى فى منتصف القرن السادس الهجرى وبها حصل علومه ، ثم رحل بعد ذلك إلى بلاد ما وراء النهر ، من أشهر مؤلفاته : لباب الأبواب وجوامع الحكايات .

داود : وما هي ؟ قال : إنه يأكل من بيت المال ، فلو كان يأكل من كد يده لما نقص من جمال كماله شيء !!

عاد داود عليه السلام إلى محراب عبوديته مهموماً حزيناً باكياً ، وأخذ يبتهل إلى الله ضارعاً : يا إلهي لتعلمني حرفة ، حتى تكون لى عوناً فى كسب قوت يومى .

فأمر الله سبحانه وتعالى بتعليمه حرفة صناعة الدروع ، بهذا جاء الأمر الإلهي : «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم» .

إذا كان الأنبياء مع ما منحهم الله من جلاله البنوة ، قد أعطاهم القدرة على الكسب من عمل أيديهم ، فإن هذا تنبيه للعقلاء حتى يتحرزوا من الطمع والنظر إلى ما فى يد الغير كي يظفروا بالسعادة فى الدنيا والآخرة^(١)

هذه الحكاية دعوة للعمل وعدم التراخى والتكاسل ، وقد منحنا الله القدرة على الكسب بما حبانا به من عقل وصحة وعافية ويدين قادرتين على العمل وساقين تسعيان فى طريق كسب العيش ، لذا يجب علينا أن نحسن استغلال الطاقات التى وهبنا الله إياها ، حتى نكون من عباده العاملين ، فنكون جديرين برضاء الله ورضوانه : «ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون»^(٢) وقوله تعالى : « ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»^(٣) وقوله تعالى : « أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون»^(٤).

* * *

(١) محمد عوفى : جوامع الحكايات ولوامع الروايات : جلد أول از قسم سورة ١٢٥٢ ش تهران ص ٧٩ - ٨١ .

(٢) الأنعام ، آية : ١٣٢ .

(٣) النحل ، آية : ٩٧ .

(٤) الأحقاف ، آية : ١٤ .

هذه بعض الحكايات القصيرة التى أوردها الأدباء معبرين عن نفحات من قصص الرسل والأنبياء عليهم السلام ، أخذًا بالعظة والعبرة والتأسى بأخلاقهم الحميدة وسيرهم العطرة ، وقد امتدت هذه الحكايات إلى حياة الأئمة الصالحين الذين أبلوا بلاءً حسنًا فى نصرته الإسلام ، وكانوا بمثابة مصابيح للهداية والإرشاد لعموم المسلمين ، وإذا كنا قد تحدثنا عن مناقب الخلفاء الراشدين فى فصل سابق ، فسنكتفى هنا بذكر حكايتين قصيرتين عن خامس الخلفاء الراشدين ، كما يطيب للبعض أن يطلق عليه ذلك ؛ وهو الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

الحكاية الأولى وردت فى كتاب سياست نامه لنظام الملك وهذه ترجمتها :

قيل إنه فى أيام عمر بن عبد العزيز ألم بالناس قحط فأذاهم وأجهدهم ، فذهب إليه قوم من العرب يشكون قائلين : يا أمير المؤمنين لقد أكلنا لحومنا وشحومنا من القحط ، فهزلت أبداننا وشحبت ألواننا من قلة الطعام ، وإن حظنا لفى بيت المال .. وهذا المال لا يخرج عن أن يكون مالك أو مال الله عز وجل أو مال عباد الله. فإن كان مال عباد الله فنحن منهم ، وإن كان من مال الله ، فما لله فيه من حاجة. فإن كان مالك فتصدق به علينا ، «إن الله يجزى المتصدقين»^(١) وإن كان من مالنا فيسره لنا لننجو من هذا الضيق ، فإن جلودنا يبست على أبداننا. فرق لهم عمر بن عبد العزيز ، واستعبر وقال : « إني فاعل ما قلتكم». وأمر لساعته بأن تقضى لهم حوائجهم ويبلغ بهم مقصودهم. ولما هموا بالنهوض والانصراف ، قال لهم عمر بن عبد العزيز : أيها الناس؛ إلى أين تذهبون؟ قولوا لله تعال مقاتلى كما قلتكم لى مقاتلكم». يريد أن يدعوا له. فرفع الأعراب وجوههم إلى السماء وقالوا : «يا رب بعزتك افعل بعمر بن عبد العزيز ما فعل بعبادك!» وما كادوا يتمون دعاءهم حتى تلبدت السماء لساعتها وأخذ المطر الغزير يهطل ونزلت من بين البرد آجرة على دار عمر وانكسرت فبرزت منها رقعة ،

(١) سورة يوسف ، آية : ٨٨ .

نظروا فيها فإذا هي مكتوب فيها : هذه براءة من الله العزيز ، من النار إلى عمر بن عبد العزيز^(١)

أما الحكاية الثانية فقد وردت في كتاب «بوستان» للشيخ سعدى الشيرازى وهى مرتبطة بعام القحط الوارد ذكره فى الحكاية السابقة ، وكيف كان عمر بن عبد العزيز مضحياً بكل شئ لمساعدة الناس على تجاوز هذه الأزمة الطاحنة ، وهذه ترجمة لها :

- يحكى شخص من العظماء من أهل التميز حكاية عن عمر بن عبد العزيز
- أنه كان له فص على خاتم ، حار فى تقدير قيمته الجوهري
- وقضاء حل عام قحط ، فصار بدر سيما الناس ، هلالا
- فامر أن يبيعه (أى فص الخاتم) فباعوه ؛ لأنه أشفق على الغريب واليتيم
- ه - وفى أسبوع واحد بدد نقده وثمنه ، حيث أعطاه للفقير والمسكين والمحتاج - فلامه اللائمون قائلين : إنه لن يأتى مثله فى يدك مرة أخرى !
- سمعت أنه كان يقول وأمطار الدمع تهطل على عارضيه مثل دمع الشمع
- الزينة تكون قبيحة على الملك ، وقلوب أهل المدينة قريحة من الضعف
- يليق أن يكون لى خاتم بلا فص ، ولا يليق أن تكون قلوب الخلق حزينة
- ١٠ - فهنئاً لمن يؤثر راحة الرجال والنساء ، على تزيين نفسه
- لا يرغب الفضلاء فى سرور أنفسهم ، على حساب غم الآخرين .
- إذا نام الملك ناعماً مستغرقاً ، فلا أظن أن الفقير ينام مستريحاً
- وإذا سهر الليل الطويل ، ينام الناس براحة ودعة^(٢)

(١) سياستنامه ، ص : ٩٣ .

(٢) أريج البستان ص : ٥١ ، والأصل الفارسى هو :

يكى از بزرگان اهل قم	حكايت كند ز ابن عبد العزيز
كه بودش نگینی در انگشتری	فرومانده در قیمتش جوهري

هكذا كان الخليفة عمر بن عبد العزيز مثلاً يحتذى لاي حاكم مسلم يعتبر الحكم مسئولية كبرى ، وهماً ثقیلاً أثناء الليل والنهار ، وأن واجبه العمل على راحة مرءوسيه . لا أن يكون الحكم مكانة وأبهة وتسيداً على خلق الله .

* * *

إذا تجاوزنا الحكاية وانتقلنا إلى الأقصوصة فسنجد الأدب الفارسی والإسلامی قد حظی بالعديد منها فی الشعر أو النثر على حد سواء ، وكان بعضها مستمداً من القصص القرآنی وقصص الأنبياء والرسل عليهم السلام ، أو من سير أبطال الإسلام وفتوحاتهم ، وكذلك دحض دعاوى الكفر والطغيان .

وأول هذه القصص القصيرة التي سنعرض لها قصة سيدنا موسى عليه السلام منذ كان نطفة وحتى صار نبياً ورسولاً ، وقد جاءت هذه القصة في الجزء الثالث من مثنوی جلال الدين ، جاءت في حوالی أربعمئة وخمسين بيتاً ، وملخصها كما يلي :

که شد بدوسیمای مردم هلال	= قضا را در آمد یکی خشکسال
که رحم آمدش بر غریب ویتیم	بفرمود و بفروختند بسیم
بدرویش و مسکین و محتاج داد	۵ - بیک هفته نقدش بتاراج داد
که دیگر بدست نیاید چنان	فتادند دروی ملامت کنان
فرو میدویدش بعارض چو شمع	شنیدم که میگفت و باران دمع
دل شهرى از ناتوانی فگار	که زشتست پیرایه بر شهریار
نشاید دل خلقی اندوهگین	مرا شاید انگشتی بی نگین
گوزیند بر آرایش خویشتن	۱۰ - خشک تکه آسایش مرد وزن
بشادی خویش از غم دیگران	نکردند بخسبد ملک پروران
پندارم آسوده خسبد فقیر	اگر خوش بخسبد ملک بر سریر
بخسبند مردم بآرام و ناز	و گزر زنده دارد شب دیر باز

(کلیات سعدی ؛ بوستان ص ۳۱ - ۳۲)

لما جاء جهد فرعون بلا توفيق ، فإن كل ما كان يرتقه كان مآله التمزيق ، وكان تحت إمرته الآلاف المؤلفة من المنجمين ، ومتلهم العديدون من السحرة ومفسرى الأحلام ، وذات ليلة رأى فرعون موسى فى نومه ، وأنه هو الذى سيحطم فرعون وملكه ، فسيطر عليه الهم والحزن ، واستدعى جيشه من المنجمين ومفسرى الأحلام للبحث فى كيفية تقيه خطر هذا الحلم المفزع والمشنوم ، وقد تدبروا فيما بينهم واستقر الرأى على قطع الطريق على بنى إسرائيل ، بعدم إعطاء الرجال والنساء فرصة اللقاء واحتمال الحمل ، ورأوا أن أفضل طريقة أن ينقلوا منذ فجر ذلك اليوم عرش الملك صوب الميدان ، ثم ينادوا بنى إسرائيل جميعاً لتلبية دعوة الملك حيث سيسفر لهم عن وجهه دون نقاب ، كما سيحسن إليهم ويشملهم بعطفه فى ذلك اليوم وتلك الليلة .

وقد انطلت الحيلة على بنى إسرائيل وأسرع جميع الرجال صوب الميدان ممتنين أنفسهم باللقاء وعند وصولهم إلى الميدان كشف لهم الملك عن وجهه وأحسن استضافتهم وأنعم عليهم بعظيم الهدايا والعطايا ، ثم قال لهم : إن كنتم حريصين على أرواحكم ، فهيا ناموا جميعاً فى الميدان هذه الليلة ، فأجابوه : سمعاً وطاعة ، بل إن أردت فسنبقى هنا شهراً كاملاً !

وكان خازنه عمران - وهو من بنى إسرائيل - فى خدمته وفى معيته ، وعندما عاد الملك إلى المدينة ، عاد عمران معه ، ولكنه قال لعمران : لتتم على هذا الباب ، وإياك أن تمضى إلى زوجتك أو تطلب وصلها !

دخل الملك إلى حجرة نومه ، بينما نام عمران على الباب كما أمره ، وفى منتصف الليل جاءت زوجة عمران إليه ، فسألتها عمران لم أتيت فى هذا الوقت من الليل؟ فأجابته من الشوق ! ومن قضاء الله فجاءتها وأودع فيها الأمانة ، ثم قال لها : أيتها الحبيبة ليس هذا الأمر هيناً ، وما كان يخشاه فرعون قد وقع بالفعل فى تلك اللحظة التى تم فيها الوصال فيما بيننا ! فإياك أن تقصى هذا الأمر لأحد حتى لا يصيبنى ويصيبك العديد من الأحزان والكوارث. وسوف تظهر فى النهاية آثار هذا اللقاء عندما تحين الأمارات .

وفى نفس اللحظة تعالت الأصوات من الميدان ، وكانت تلك الصيحات تملأ الفضاء جلبه وضجيجاً ، ووصلت هذه الصيحات إلى مسامع فرعون فهب من نومه مذعوراً ، ونادى عمران قائلاً : ما هذا الضجيج وذاك الصراخ؟ فقال عمران : أطال الله عمر مليكنا ، إن بنى إسرائيل مسرورون منك. ولم تكن لدى عمران الجرأة كي يقص على فرعون أمر مضاجعته لزوجته .

أما عن امرأة عمران فقد ربتت على ظهر عمران حتى يظهر نجم موسى ، فكل رسول توضع نطفته فى الرحم ، يظهر نجمه على السماء ، وهكذا ظهر نجم موسى فى السماء ، برغم فرعون ومكره واحتiale !

على الرغم مما قاله عمران لفرعون ، فإن فرعون ظل فى قلقه وحيرته ، لذا ما كان منه إلا أن أرسل عمران ليستطلع الأمر ، فذهب إلى الميدان ، حيث وجد جميع السحرة والمنجمين فى هلع شديد وحزن عميق ، فسألهم السبب ، فقالوا : مع كل ما فعلناه لم يواتنا الحظ ، ووجد عدو الملك وانتصر ، وظهر الليل نجمه فى السماء ، فما كان من عمران رغم علمه بالحقيقة إلا أن تظاهر بالغضب وقال للسحرة والمنجمين : لقد خدعتم مليكى ! أليس فى هذا طمع أو خيانه؟

وما أن وصل الخبر إلى الملك حتى استدعى جميع السحرة والمنجمين ، وقال لهم بغيط وحنق : أيها الخونة سوف أصليكم جميعاً بلا إمهال حيث جعلتمونى أضحوكة وخسرت أموالى بعد أن أنفقتها على الأعداء أملا فى أن يبتعد رجال بنى إسرائيل عن نسائهم فى تلك الليلة ! ليس لكم من جزاء عندى إلا أن أشنقكم وأضرم فيكم النار ، وأقطع أطرافكم وأذانكم وشفاكم .

فسجد المنجمون والسحرة أمام فرعون ، وقالوا : أيها الملك إذا كنا قد هزمنا مرة ، فقد قمنا عدة سنوات بدفع البلاء عن الملك ، وأفهامنا جد حائرة فيما حدث ، وإذا كان السيف قد سبق العزل ، وحدث الحمل ، وقفزت نطفته واستقرت فى الرحم ؛ فإننا على سبيل التعويض يجب أن نتدارس الأمر قبل يوم الميلاد ، وظلوا فى ترقب لمدة تسعة أشهر يوماً بيوم ، ثم أشاروا عليه بخيلة جديدة ، وهى أن يخرج الملك من عرشه مرة

أخرى إلى الميدان ، ثم ينادى عماله وحجابه موجّهين الدعوة إلى النسوة كي يقبلن على الميدان مع أطفالهن الصغار ، وركز النداء على نساء بنى إسرائيل جميعاً ، وكان رجال فرعون ينادون قائلين : هيا أيتها النسوة فالإقبال لكن هذا العام ، حتى تجد كل منكن ما تتمنى ، وعلى كل من وضعت هذا الشهر أن تأتي مع وليدها لكي تتسلم هديتها من الملك .

خرجت نسوة بنى إسرائيل جميعهن ، وقد أخذت كل أم وليدها معها ، وما أن تجمعت النسوة جميعهن حتى أخذ عمال الملك كل مولود ذكر من أمه ، وسرعان ما قطعوا رؤس الأطفال جميعاً ، وهم يقولون : إن هذا من الحيلة ؛ حتى لا ينمو خصم الملك ، ويزداد التخبط والاضطراب في المملكة !

أما امرأة عمران التي حملت موسى فقد ابتعدت عن كل هذا ولم تخرج إلى الميدان ولكن فرعون الماكر كان قد أرسل الحاضنات والمرضعات إلى البيوت من أجل التجسس ، فنقلن إليه أن هناك طفلاً ، لم تأت به أمه إلى الميدان ، فجاءها العسس ولكنها ألقت بطفلها في التنور بأمر من الله ، إذ أوحى بهذا إلى هذه المرأة حتى تصبح على علم بأن هذا الوليد من نسل الخليل إبراهيم عليه السلام ، وأن لديه عصمة أمر الله تعالى حيث قال : «يا نار كوني برداً وسلاماً» فلا تكون النار عليه حراً شديداً .

عاد العسس خائبين من ذاك المكان ، ولكن الجواسيس علموا بالأمر ، فأخبروا فرعون بما كان ، فقال : أيها العسس عودوا إلى ذاك المكان ، وأحسنوا التفتيش جيداً في التنور ، فجاءها الوحي أمراً بإياها بأن ألقيه في اليم ويكونى راجية في الله ، فألقته في النيل وهي على ثقة بأن الله سيجعلها تلتقى به عزيزاً مكرماً .

ودارت القصة في مسيرتها حتى تحدث جلال الدين الرومي بعد ذلك عن عصا موسى وتحولها إلى أفعى ، وخوف الناس من هذه الأفعى ، وفرارهم منها مما أوقع الهرج والمرج الذي نتج عنه بعض القتل والجرحى ؛ فاستدعى فرعون موسى موبخاً ومحذراً وقائلاً : لماذا أيها الكليم قتلت الخلق وأوقعت فيهم الرعب ؟ لقد كنت تدعو

الناس إليك ولكن الأمر انقلب إلى ضده ، ولا بد للناس من مخالفتك ، كما أنني سأدبر أمراً فيه عقابك ، فلا تظن أنك تستطيع خداعي ، أو أن أحداً سوف يتبعك! وسأجمع لك سحرة الدهر حتى أبدى جهلك أمام المدينة ، ولكن لن يكون هذا فى يوم أو يومين ، بل أمهلنى أربعين يوماً ، فاعترض موسى على طول المهلة ، ولكن الأمر الإلهى جاء فى التواللحظة بقبول المهلة ، دون أن يخشى شيئاً .

مما جاءه من الوحى : أعطه الأربعين يوماً مهلة طوعاً ، حتى يفكر فى ألوان المكر لوناً لوناً ، وسوف أحبط حيلهم جميعاً ، وكلما زادوا منها ، جعلتها بلا قيمة. فما كان من موسى إلا أنه قال لفرعون : لقد جاء الأمر ، فاذهب ولك المهلة ، أما أنا فذاهب إلى مكانى .

ثم طفق موسى يسير والأفعى تسير فى إثره وكأنها كلب الصياد مدربة مطيعة وعندما وصل إلى قومه ، أمسك بشدقيها ، فأنقلبت ثانية إلى عصا ، فاتكأ عليها قائلاً : واعجباً ، إنها بالنسبة لنا شمس ، وبالنسبة للخصم ليل !

وما أن ذهب موسى تاركاً فرعون فى حيرته ، حتى سارع فرعون فى طلب السحرة من كل مكان حيث أرسل فى كل المدائن جامعاً للسحرة لعلهم يتشاورون فيما يمكنهم من إحراز السبق والفوز على موسى وكلما سمع عن ساحر مشهور أرسل فى طلبه عشرة من رسله .

وكان هناك شابان ساحران مشهوران ، بحيث كان سحرهما ينفذ إلى القلب ، وقد وصلتتهما رسالة الاستدعاء من فرعون بأن هيا أقبلا ! فقد ظهر رجلان من بنى إسرائيل ، ونصبا حلقة سحرهما على الملك ، وليس معهما إلا عصا تتحول إلى أفعى ، ولا بد وأن يكون هناك حل يقدمه السحرة ، حتى ينجو الملك بروحه من هذين الساحرين موسى وهارون ، وكان لهذين الشابين الساحرين أب قد حاز المكانة العالية فى السحر والدواء ، ولكنه كان قد أسلم الروح ، فسألا أمهما عن قبر أبيهما ، فأخبرتتهما بموقعه ، فذهبا إلى القبر يستغيثان روح أبيهما فيما عرضه الملك ! حيث قال :

يا أبانا إن الملك قد أرسل إلينا رسالة تبدي خوفه وقلقه من رجلين ضايقيه أشد الضيق ، وأراقا ماء وجهه أمام الجند ، وهذان الرجلان ليس معهما سلاح أو جند ، ليس معهما إلا عصا فيها الشر والفتنة ، فإذا كان هذا سحراً فأخبرنا ، وإذا كان أمراً إلهياً فآلهمنا الصواب ، فأنجاب الوالد بلا لسان ولا نطق قائلاً : يا ولدى الحبيين إن الجواب صراحة عن هذا الأمر مرهون بشيء ، إننى لست ماثوئاً بأن أجييب على الأمر صراحة ، ولكن السر ليس بعيداً عن عيني ، لذا سأبدي لكم أمانة ، حتى يصير هذا السر مكشوفاً لكم ، فعندها تذهبان إلى حيث يوجد ، فتحسسا أين ينام وعندما ينام هذا الحكيم ، اقصدوا تلك العصا ودعكما من الخوف ، فإن استطعتما سرقتها فهو ساحر ، وإن لم تستطعيا فالحذر الحذر فهذا أمر إلهي ، وهو رسول من ذى الجلال ، وواصل الأب حديثه مع أولاده قائلاً : يا روح أبيكما ، إذا نام الساحر فلا قوة ولا قدرة له أثناء النوم ، أما إذا كان نبياً مرسلًا فقدرته ومعجزاته فى كل وقت !

قبل كلاهما القبر ومضيا نحو مصر من أجل هذا الصراع المرير ، وعندما وصلا إلى مصر طلبا منزل موسى ، واتفق أنه فى وقت وصولهما أن كان موسى نائماً تحت ظل نخلة وقد أغلق عينيه اللتين فى رأسه ، ولكن العرش والفرش كليهما كانا تحت ناظرية .

وعندما رآياه نائماً ، احتالا من أجل أن يسرقا العصا ، فاتجه هذان الفتیان الساحران بسرعة نحو العصا ، مستديرين خلف موسى حتى لا يراهما أو يشعر بوجودهما ، ولكن ما أن تقدما لتنفيذ حيلتهما ، حتى بدأت تلك العصا فى الحركة ، فقد تحركت العصا وتلوت حول نفسها ، فتسمر كلاهما فى مكانه خوفاً وهلعاً ، ثم تحولت إلى أفعى وهجمت عليهما ، فهرب كلاهما وقد امتقع لونهما ، فتيقنا أنه من السماء ، وذلك لأنهما كانا يعرفان حدود السحر ، وهكذا ظهر عليهما الوهن وأصابتهما الحمى ، وبلغ بهما الأمر إلى الاحتضار وتسليم الروح ، فأرسلا فى التو واللحظة رجلاً إلى موسى حاملاً اعتذارهما ؛ حيث قالوا : نحن مجرما فرعون ، فاعف عنا ، يا من أنت فى بلاط الجلالة من خواص الخواص ، فعفا عنهما فارتدت إليهما العافية فى التو واللحظة ، وأخذوا فى إظهار الخضوع والذلة أمام موسى .

فما كان من موسى إلا أن طيب خاطريهما ، وطلب منهما الدخول مع السحرة فى الصراع ضده حتى ولو كانا يدركان العاقبة ، فقبلا الأرض بين يديه ومضيا ، وظلا ينتظران يوم الزينة حيث يكون اللقاء والتحدى .

وعندما دخل هذان الساحران مع بقية السحرة على فرعون ، خلع عليهم الخلع الثمينة ، ثم قال : هيا أيها السباقون ، فلو كنتم الغالبين فى هذا اللقاء ، فسوف أنثر عليكم عظيم العظماء ، فقال السحرة جميعاً ، بإقبالك أيها الملك سوف نكون نحن الغالبين ويصير أمره إلى يباب ، نحن فى هذا الفن أبطال صناديد ، ولا أحد فى الدنيا له ما لنا من قدرة فيه^(١)

وإلى هنا يتوقف جلال الدين الرومى عن سرد باقى القصة ، وإنما يعلق على القصة قائلاً :

- لقد صار ذكر موسى قيئداً على الخواطر ، فكمن من قائل : مالنا نحن وهذه الحكاية القديمة .

- إن ذكر موسى هنا مجرد ستار وحجاب ، ولكن ليكن لك فيه نور موسى أيها الرجل الطيب .

- إن موسى وفرعون فى داخلك ، وينبغى أن تبحث عن هذين الضدين داخلك^(٢)

(١) يمكن مراجعة القصة كاملاً بالجزء الثالث من المثنوى ترجمة الدكتور إبراهيم شتا ، نشر المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٧ ص ٩١ - ١٢٢ .

(٢) الأصل الفارسى : المثنوى ج ٣ ص ٢٨٦ .

ذكر موسى بند خاطرها شدست	كين حكايتها ست كه پيشين بدست
ذكر موسى بهر روپوش است ، ليك	نور موسى نقدتست اى مرد نيك !
موسى وفرعون در هستى تست	بايد اين دو خصم را در خویش جست =

وكانه يعنى أن الإنسان قد تجمع فيه العنصران ، عنصر الخير ويمثله موسى ، وعنصر الشر ويمثله فرعون ، والواجب على الإنسان أن يناصر موسى الخير فى داخله ، وأن يعادى فرعون الشرير ، وبهذا يكون جديراً برضوان الله العزيز وعطفه !

ثم عاد جلال الدين بعد فترة وأشار إلى قصة فرعون مع السحرة بعد أن آمنوا بدعوة موسى عليه السلام دون إذن من فرعون ، مما جعله يهددهم بالعذاب حيث قال ما ترجمته :

- يهدد فرعون اللعين السحرة بالعقاب فى الحياة الدنيا قائلاً لهم :
 - لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأهلكنكم ولن أعفيكم من هذا العقاب
 - إن كان يظن أنهم لا يزالون مقيمين على نفس الوهن والخوف والوسواس
 - وأنهم كانوا يرتعدون خوفاً واهلاً من الأوهام وتهديدات النفس
 - فلم يكن يدرى أنهم قد نجوا ، وجلسوا على كوة نور القلب^(١)
- هكذا أفاد جلال الدين الرومى من القصص القرآنى ، فقد عرض القرآن الكريم فى العديد من سورة وآياته لقصة سيدنا موسى عليه السلام منذ كان نطفة فى رحم أمه وتخوف فرعون من وجوده وإقدامه على قتل جميع الذكور من بنى إسرائيل الذين سيولدون فى نفس الفترة التى حددتها الرؤية التى رآها فى منامه إلى غير ذلك من الأحداث التى جاءت متفرقة فى ثنايا القرآن الكريم ، وحتى بعثه وتحديه لفرعون

(١) المرجع السابق ، ٤٠٦ :

ساحران را نى كه فرعون لعين	کرد تهدید سیاست بر زمین
که ببرم دست وپا تیان از خلاف	پس در آویزم ، ندارمشان معاف
او همه پنداست کایشان در همان	وهم و تخوینفند و وسواس و گمان
که بودشان لرزه و تخوینف و ترس	از توهمیها و تهدیدات نفس
او نمى دانست کایشان رسته اند	بر دریجهء نور دل بنشسته اند

وسحرته وانتصاره بإرادة الله وتوفيقه على كل الأعيب السحرة ، الذين أدركوا فى النهاية أنه نبي مرسل ، وليس ساحراً بشراً يخادع الناس ويخلب أبصارهم بحيله والأعيبه ، فما كان منهم إلا أن آمنوا برب موسى ، حتى ولو كان فى ذلك هلاكهم على يد فرعون. ومن الممكن أن يكون جلال الدين الرومى قد أضاف من عنده بعض الأحداث حتى يكمل حبك القصة ، وذلك ماثل فى حديثه عن الساحرين الفتيين ووالدهما المتوفى ، وغير ذلك من الأحداث الجانبية التى لا تؤثر على جلال القصة ، والحكمة من سردها .

* * *

أما الأقصوصة الثانية ، وعنوانها ، «قصة النملة» والملك سليمان عليه السلام^(١) وهى مجهولة المؤلف ، وقد عثر على نسختها الخطية بدار الكتب المصرية ، الدكتور شعبان ربيع ، فعكف على نشرها وترجمتها إلى العربية ، كما قدم تعليقات ودراسة لها ؛ وفيما يلى عرض عام لأحداث الأقصوصة :

... يحكى أنه كان حول مكة المكرمة واد يسمى «وادي النمل» على نحو ما ذكر الله تعالى فى كتابه المجيد ، وكان فى هذا الوادى نملة تسمى "منودة" تتولى حكم مملكة النمل ، وقد اختلفت الروايات فى تقدير حجم هذه النملة ، وهل هى بحجم القطعة أم أصغر أم أكبر! وكان جميع النمل فى ذلك الوادى ينفذون أوامرها ويخضعون لحكمها ، وتتبعها جيوش النمل .

وذات يوم اتجه موكب الملك سليمان عليه السلام صوب ذلك الوادى ، وكانت جيوش سليمان تضم فيما بينها شياطين ومردة وإنساً وجناً ووحوشاً وطيوراً ، فى أعداد لا يمكن حصرها بالتحريير أو بالتقرير .

(١) قصة النملة والملك سليمان عليه السلام : مجهولة المؤلف ، نشر د . شعبان ربيع سوماج ١٩٨٥ .

ولما وصل أخبار قدوم جيش سليمان عليه السلام إلى أذن مندودة قالت لتوابعها من النمل : انتبهوا ، فإن ركب الملك سليمان متجه إلى هذه الديار ، وحتى لا تكونوا عرضة لأن تطاكم الأقدام الثقيلة لأفراد هذا الجيش عليكم بالعودة السريعة إلى مخابنكم تحت الأرض، وانهمكوا فى عبادة الحق تعالى ، وإذا بالريح قد أوصلت هذا الحديث إلى أذن الملك سليمان عليه السلام ، وأخبرته بأن مندوده نملة شهيرة تقيم مملكة للنمل تحت الأرض بسبعة طوابق ، وقد سمعت بمقدم جيوشكم ، فأمرت رعاياها من النمل بالتزام أماكنها داخل الوادى وعدم مبارحته خوفاً على حياتها .

ما أن سمع الملك سليمان ما نقلته إليه الريح ، أمر جنوده بالتوقف فى ذلك اليوم والإقامة فى ذلك الوادى ، ثم أرسل الهدهد إلى مندودة كي يدعوها إلى الحضور لمقابلة سليمان الملك عليه السلام .

وعندما أبلغ الهدهد مندودة بالأمر سارعت بقطف زهرة من حديقتها كي تقدمها هدية للملك سليمان ، وقالت للهدهد : اذهب أنت ، وسأتى فى إثرك !

وبعد ساعة وصلت مندودة ودخلت الممر الذى يوجد فيه سليمان الملك ومعها الزهرة ، فوصلت رائحة تلك الزهرة إلى مشام الملك من بعيد فقال متعجباً : ما رأينا أو سمعنا عن مثل هذه الزهرة قط!

وما أن دخلت مندودة إلى بلاط سليمان وكان جالسا على عرشه ، تقدمت وجلست إلى جواره على العرش ، فتعجب سليمان من جرأتها ، وقال لها : يا مندودة ! إن مائة ألف من الشياطين والطير والأنس والجن يقفون خلفى وأمامى مغلولى الأيدي ، لا يقدرّون على النطق دون إذن ، فأى مكانة لك حتى تقتربى منى ، وتجلسى على العرش بجوارى .

فكان رد النملة غاية فى الحكمة والذكاء والفتنة حيث قالت له :

أنت ملك ما فوق الأديم ، وأنا ملكة باطن الأرض ، ولا يليق بالملوك أن يقفوا مغلولى الأيدي بين يدى أى ملك ، فإن كنت لا تدرك أو تعقل هذا الحديث ، وأثرت

الجنوح إلى التكبر ، فأنت رسول ولا يليق التكبر بالرسول ! فقد قال رسول الله : « كل من فى قلبه تكبر ولو بمقدار ذرة من خردل لا يدخل الجنة إلا بعد عذاب»^(١)

وقد قرأت فى التوراه أن نبياً سوف يبعث آخر الزمان تقول أمته «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» وهو حبيب الله تعالى ، وسوف يعرض عليه ملء الأرض ذهباً ، ولكن الرسول محمداً لن يقبل ، كما لن يقبل الجلوس على عرش أو كرسى ولن يطلب سوى التراب ، بينما تتكبر أنت ! وإذا سيكون عمرك قصيراً ، وسوف تموت فى عمر الشباب ، وقد قرأت هذا المعنى فى التوراة .

ولما سمع سليمان من النملة هذا الكلام تحير وتعجب وقال : إني أرى لك علماً وفطنة ، زدينى من نصائحك !

فسأته مندودة كيف حصل على الملك وهو أصغر أخوته ، فأخبرها بأن والده الملك داود عليه السلام كان له اثنا عشر ابناً وكان سليمان أصغرهم ، وقد سأل داود أبناءه الاثنى عشر سؤالاً ، ووعد من يجيب على الأسئلة إجابات صحيحة^(٢) ؛ سيكون الملك والخاتم من نصيبه فأخفق الإخوة جميعاً عدا سليمان ، فكان الحكم والخاتم من نصيبه على الرغم من أنه أصغر الإخوة ولكنه أفطنهم !

ثم سأته بعد ذلك مندودة ماذا طلبت من الله بعد أن أصبحت ملكاً !

فقال سليمان عليه السلام :

لقد طلبت من حضرة الحق سبحانه وتعالى أن تصبح الشياطين والطير تحت حكمى !

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان" .

انظر : ابن ماجه : سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ج ١ ص ٢٢ .

(٢) يمكن مراجعة الأسئلة وإجاباتها بالرجوع إلى الترجمة العربية للقصة كما ترجمها الدكتور شعبان ربيع طرطور .

فقال له مندودة : لم تصب فى ذلك ، فإن الشياطين مذهبهم الكفر ويشغلون بعصيان الحق تعالى ، ولا يجب عليك مصاحبتهم فأنت نبى ويجب أن تكون صحبتك مع الملائكة .

ثم ماذا طلبت بعد ذلك ؟

فقال الملك سليمان : سألت الحق تعالى ملكاً لم يهبه لأحد قبلى ، وألا يعطيه لأحد بعدى .

فقال النملة : لم تصب فى ذلك أيضاً ، فإن الدنيا مثل ظل جدار ، إذ امتد من هذا الطرف تلاشى من الطرف الآخر ، وليس لها وفاء دائم ، وقد قرأت فى التوراة أن نبياً سوف يظهر آخر الزمان واسمه محمد صلى الله عليه وسلم وسيكون صاحب فضل ورحمات من بين مائة وأربعة وعشرين ألفاً من الرسل ، وأنه لن يقبل أن يعطيه الله تعالى ملك السماء والأرض ، لذا فقد منحه الله تعالى مرتبة أعلى وهى أن ينقذ أمته من نار جهنم ، حيث يقول جميع الأنبياء يوم الجزاء : نفسى ! نفسى ! إلا حضرة محمد صلى الله عليه وسلم فسيقول : «أمتى ! أمتى!» فلو كنت أيضاً قد اخترت الفقر والفاقة لكنت قد وصلت إلى تلك المرتبة بالتأكيد .

وماذا طلبت أيضاً :

فقال سليمان الملك : طلبت ارتقاء العرش سواء أكنت قاعداً أو نائماً ، وألا تطأ قدمى الأرض قط .

فقال مندودة : لم تصب فى هذا أيضاً ، فإن الحياة فوق الأرض ، والموت فى باطنها ، هما الصواب ، لأن الآدمى خلق من تراب ، وقد اختار محمد المصطفى عليه السلام وجميع الأنبياء العيش والموت على نفس الأرض !

وتوالى أسئلتها وتوالى إجاباته ، وكانت فى كل مرة توضح ما فى إجاباته من خطأ ، مقارنة بينه وبين محمد عليه السلام .

ونتيجة لما أبدته من علم واسع وحكمة وفطنة ، سألها سليمان عليه السلام عن علامات يوم القيامة.

قالت مندودة : بعد مرور ألف وأربعين سنة على وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم يتفشى التكبر والكذب وشرب الخمر وعدم الإخلاص وعدم الوفاء ، ولا يبجل الصغير الكبير كما لا يرحم الكبير الصغير ، ويقل الحلال ويزداد الحرام .. وبعد مرور ألف ومائة وخمسين عاماً لن يعمل العلماء بعلمهم وتقل البركة وتنحسر الزراعة ، ولا يؤدي الأبناء حقوق الوالدين .. ، إلى غير ذلك من الآثام والمعاصي التي تؤدي إلى قلة البركة ، وتفشى الظلم والجور بين الخلق .. وحينما يقترب يوم القيامة يظهر يأجوج ومأجوج^(١) وتجف الأنهار ويهلك الناس من العطش والجوع ، ويصبح العالم خراباً يباباً .. إلى أن يظهر الدجال ويعم الهرج والمرج كل مناحي الحياة ثم يهبط عيسى عليه السلام من السماء الرابعة ويطبق أوامر الشرع ...

وبعد أن سمع سليمان الملك كل هذا الكلام من مندودة تملكته الدهشة من واسع علمها ، ثم طلب منها الإذن بالرحيل ، ولكنها دعت له ليكون ضيفاً عليها في مملكتها ، على أن تشمل دعوتها كل الحاضرين معه ، قائلة له : أنت لا تعرف مقدار دولتنا ولو يوجد مائة ضعف لجيشك هذا ، فإننا نستطيع استضافتهم في مملكتنا !

وفعلاً نزل سليمان ضيفاً على مملكة النمل فوجد جميع المحال والمباني وقد تزينت بالياقوت والجواهر وتمخضت بالمسك والزعفران ، وقد غصت بالعديد من الفواكه التي لا نظير لها على وجه الأرض ، وقد أكل سليمان وجنده من هذه الفواكه التي أعجب بها سليمان الملك وجنوده أيما إعجاب !

بعد ذلك طلب سليمان الإذن بالانصراف ، ولكنه قال قبل ذلك سوف أتجول في أرضك وأتفقدتها بضعة أيام !

فقالت مندودة : ليس هذا شرط الإسلام والإيمان ، لقد أتيت بك ضيفاً إلى داري ، ويجول بخاطرك وضع هذه المملكة تحت تصرفك !

(١) قال تعالى : 'حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكاون يفقهون قولاً ، قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً' سورة الكهف ، آية : ٩٢ ، ٩٤ .

فقال لها سليمان : ألم تعلمي أن الحق تعالى قد وضع جميع مشارق الأرض ومغاربها تحت تصرفي ، وألا يشاركني أحد في هذا الملك ، ولهذا فإن هذه المملكة هي حقى !

فقالت مندودة : بالرغم مما قدمته لك من عظات ونصائح ، إلا أنها لم تؤت ثمارها معك ، وإذا كنت تبغى الرئاسة علينا ، فخذ ما تشاء ولا تقصر ، ولن أدخل في حرب معك ، لأن الدخول في حرب مع الأنبياء أمر مرفوض ، فأننا مطيعة للإسلام ومن غير المناسب محاربتكم ، ولكن انظر ماذا سيعمل أتباعي من النمل مع جنودك !

ثم نظرت إلى النمل ، فإذا النمل قد أخذت في حفر الأرض تحت أقدام جند سليمان ، فهبطت بهم الأرض حتى قاع البحر ، فغرق جيش سليمان من الشياطين والطير ، وبقي سليمان وحيداً حائراً ، فقالت له :

ليس من السهل أن يستولى أحد على هذه الملكة ، بل تلزم فترة حتى يستطيع العبد بالتدبر والتريث أن يأخذ خاتماً كخاتم سليمان الملك ، وعرشه !

فقال سليمان :

سوف أتقبل منك كل هذا النصيح والإرشاد ، ولن أورد نفسي بعد ذلك موارد الهلاك !
وأخيراً عاد سليمان مع جنده وحشمه ، ومضى موكبه بأمر الله تعالى ، والله أعلم بالصواب !

* * *

على الرغم من أن مؤلف هذه الأقصوصة غير معروف ، ومجهول الاسم ، فإن ناسخ تلك النسخة التي اعتمد عليها الناشر وهو شاه قادري ، قد خطها في ٢٩ من شهر شوال المكرم من عام ١٢٤٣ هجرية. وفي اعتقادي أن مؤلف القصة هذه قد كتبها في فترة ما بعد الألف الأولى من الهجرة ، لأنه حينما كان يتحدث عن علامات يوم القيامة ، كان يشكو ما ساد الحياة في زمنه من آثام وأخطاء نتج عنها الكثير من

الكوارث التى ألت بالعباد ، وحين ذكر أن بعد الهجرة بألف وأربعين سنة سيحدث كذا وكذا من خروج عن جادة الدين ، كان يتحدث عن فترة قريبة العهد بزمانه .

وهذه الأقصوصة مأخوذة عن القرآن الكريم ، حيث جاءت فى سورة النمل تلك الآيات الكريمة :

« وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ، حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة : ياايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين»^(١) .

وهكذا فإن تعبير وادى النمل مأخوذ عن القرآن الكريم ، وما قالته النملة من تحذير لبقية النمل وارد أيضاً فى الآيات الكريمة ، ثم سماع سليمان عليه السلام لهذا الأمر الصادر من ملكة النمل لاتباعها ، مذكور فى تلك الآيات ، وإذا كان مؤلف القصة قد ذكر أن النمل كانت له مملكة وجند وحشم ، فهذا مصداق لقوله تعالى «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير ، بجناحين إلا أمم أمثالكم»^(٢) وما ذكر فى القصة أكثر من مرة بشأن الإشارة فى التوراة بيعث محمد عليه السلام ليكون خاتم الأنبياء مأخوذة من القرآن كذلك . لقوله تعالى : «الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل»^(٣) .

وكذلك قول سليمان أنه طلب من الله العلى القدير ملكاً لم يعط لأحد من قبله ولا من بعده ، قد ورد ذكره فى قوله تعالى : « وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من يعدى ، إنك أنت الوهاب »^(٤) .

إلى غير ذلك من الأخبار الواردة فى القرآن الكريم .

(١) سورة النمل : آية : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٢) سورة الأنعام : آية : ٣٨ .

(٣) سورة الأعراف : آية : ١٥٧ .

(٤) سورة ص ، آية : ٣٥ .

أما ذلك الحوار الذى دار بين سليمان الملك والنملة فكله من نسج خيال المؤلف الذى جعل النملة تفوق سليمان حكمة وفطنة ، مع أن سليمان عليه السلام كان صاحب تدبر وتفكير حتى عرف باسم «سليمان الحكيم» ؛ وقد قال الله تعالى فى حقه وحق والده داود عليهما السلام : «ففهمناها سليمان ، وكلا أتينا حكماً وعلماً»^(١) وقوله تعالى : «لقد أتينا داود وسليمان علماً ، وقالوا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين»^(٢) ولعله بذلك أراد تفضيل محمد عليه السلام على كل الرسل ومنهم سليمان عليه السلام ، حيث كانت النملة وهى تبين مجافاة أقوال سليمان الصواب تعرج على ذكر محمد عليه السلام وبيان علو منزلته !

وعلى كل فإن كاتب هذه الأقصوصة ، وما فيها من حوارات وخيال ، لم يكن الوحيد الذى اهتم بهذا الموضوع ، بل سبقه إلى ذلك العديد من كتب التراث الإسلامى التى زخرت بالكثير من الذكر للنمل وبخاصة نملة سليمان عليه السلام ، ومن هذه الكتب : الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وبصائر التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادى ، وصحيح مسلم ، ولسان العرب لابن منظور ، وتفسير الخازن ، ومعالم التنزيل ، وتفسير النسفى ، والبداية والنهاية ، ولطائف الإشارات للإمام القشيرى ... وغيرها من كتب التراث ، والتى يرجح أن المؤلف قد قرأ بعضها وتأثر بأحاديثها ، وربما قرأ ما جاء فى التوراة ووظفه فيما كتب !

* * *

أما الأقصوصة الثالثة والأخيرة فقد رواها شاعر الإنسانية الشيخ سعدى الشيرازى ، وقد نظمها لكى يسخر من من عبادة الأوثان ، قائلاً بأن البراهمة يدركون جيداً زيف هذه العبادات ، وإنما يحاولون ترويجها جرياً وراء المكاسب المادية والأدبية

(١) الأنبياء ، آية ، ٧٩ .

(٢) سورة النمل ، آية : ١٥ .

التي توفرها لهم هذه العبادات المضللة ، وقد اختار لأقصوصته هذه الحديث عن معبد الصنم «سومنا» أكبر أصنام الهند ، ذلك الصنم الذي تم تحطيمه على يد الفاتح العظيم محمود الغزنوي والذي انتشر الإسلام بفضلته في الهند ، وقد حاول البراهمة تقديم فدية كبيرة لإنقاذ هذه الصنم من التحطم ظانين بأن السلطان محموداً قد دخل الهند طمعاً في المال والثروة ، ولكنه رفض عرضهم هذا وأصر على تحطيم «سومنا» رمز الوثنية وعبادة الأصنام في الهند ، ولم يكن حديث سعدى الشيرازي عن هذه الفتوحات ، ولكنه تخيل أنه ذهب إلى حيث كان يوجد سومنا ودخل المعبد ورأى زيف البراهمة وكيف أنهم يضللون أتباعهم بادعاء أن صنماً بالمعبد قادر على تحريك يديه استجابة منه لتضرع عباده وتوسلاتهم إليه ، فتحير سعد لهذا الادعاء ، وعقد العزم على كشف الخديعة وفضح المشرفين عليها ، وبيان كذبهم ونفاقهم ، وقد جاءت هذه الأقصوصة الشيقة التي نظمها السعدى في مائة بيت بكتابة «بوستان» ، كما يلي :

- رأيت صنماً من العاج في معبد سومنا ، مرصعاً مثملاً كان في الجاهلية مناة .
- وقد صور المثال صورته ، بحيث لا يمكن إبداع أفضل منها .
- وقد طمع الراجات - مثل السعدى - في الوفاء من ذلك الصنم الحجري القلب !
- هـ - وذهب البلغاء في كل مكان ، متضرعين أمام ذلك الأخرس المدهوم اللسان .
- وعجزت عن كشف تلك الواقعة ، إذ لماذا يعبد الحي الجماد؟^(١)

(١) أريج البستان ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ والأصل الفارسي لهذه الأبيات هو :

بتي ديدم از عاج در سومنا	مرصع چودر جاهليت منات
چنان صورتش بسته تمثالگر	كه صورت نبندد از آن خويتر
زهر ناحيت كاروانها روان	بديدار آن صورت بي روان
طمع كرد رايان چين و چكل	چو سعدى وفا زان بت سنگدل
زبان آوران رفته از هر مكان	تضرع كنان پيش آن بي زبان
فروماندم از كشف آن ما جرا	كى حى جمادى پرستد چرا ؟

وكان أحد المجوس يشارك السعدى المسكن ، وكانت بينهما مودة وألفة ، مما شجع السعدى على أن يسأله عن هذا الصنم ذى الصورة المجسمة ، المعنة فى الضلال ، والعاجزة عن الإتيان بأى فعل ، والتي لا تستطيع إن طرحت أرضاً أن تنهض من كبوتها أو أن تدافع عن نفسها . وعلى الرغم مما بينهما من صداقة ، وعلى الرغم من أن السؤال كان غاية فى الرقة والهدوء إلا أن ذلك الصديق البرهمى استشاط غضباً ، وسارع بنقل الخبر إلى شيوخ المعبد ، فتبدل الحال سريعاً ، وبدأ السعدى يعاني سوء المعاملة من الجميع ، وأمام هذا التصرف العدائى من الجميع ، بدأ السعدى يلجأ إلى المداراة حفاظاً على حياته وسلامته ، حتى أنه اضطر إلى مدح كبير البراهمة ، كما بدأ يتغزل فى جمال ذلك الصنم وحسنه وجمال هيئته ، وإذا كان قد أخطأ فى حقه سابقاً ، فذلك مرجعه أنه غريب عن هذه الديار ولم يكن يدرك مكانة هذا الصنم جيداً ، وإمعاناً فى المداراة وادعاء الجهل سأل كبير البراهمة ، عن السبب الذى من أجله يقبل العباد عليه ، ويجلونه ويقدسونه .

أعجب كبير البراهمة بالسؤال ، وأدرك أنه ربما يسأل حتى يقتنع وينخرط معهم فى تقديس هذا الصنم ، فقال : ما أكثر الأصنام التى لا قيمة لها فى هذه الحياة ، إلا هذا الصنم الذى يرفع كل صباح يده إلى الله العادل ، وإن كنت لا تصدق ، فلتبقي الليلة فى المعبد حتى ترى فى الصباح الصنم وهو يرفع يده ، وبهذا ترى بعينيك ما لم تكن تصدقه من قبل !

بقى السعدى ليلته داخل المعبد مترقباً ماذا سيحدث ، وأى سر يمكن أن يكشفه ، ويبقى معه العديدون من المجوس الذين تجمعوا بلا وضوء أو صلاة ، وقد فاحت الروائح النتنة من أجسادهم ،بقى السعدى فى معاناة شديدة ، وكأنه قد ارتكب إثماً عظيماً ، وجزاؤه البقاء تلك الليلة فى ذلك العبد !

وعندما اقترب الصباح ، أقبل ضاربو الطبل وقارعو الكوس ، إيذاناً بحدوث المعجزة، وقد التى أقبل جميع البراهمة فى المدينة وما جاورها كى يشاهدوا الصنم وهو يرفع يده ، وفى هذه الرؤية الخير كل الخير لمن يشاهدها ، ولم يمض وقت طويل حتى

رفع الصنم يده فجأة ، فعلا الضجيج من الحاضرين جميعاً ، وفجأة تهلل وجه البرهمي ونظر صوب السعدى قائلاً : لقد صارت الحقيقة أمامك عياناً ، ولم يعد لديك شك بعد ذلك !

فتظاهر السعدى بالتأثر بما رأى ، ثم انخرط في البكاء مداراة ، فإذا بكل البراهمة حوله يشاركونه البكاء ويقبلون عليه مخففين عليه حدة التأثر ، ثم تظاهر السعدى بأنه قبل ما هم فيه من ضلال إذا أقبل على الصنم العاجي وطبع قبلة على يده ، فظنوا أنه أصبح برهمياً مثلهم ، ولهذا سمحوا له بالبقاء داخل المعبد عدة أيام .

وما أن اطمأن السعدى إلى عدم الاعتداء عليه ، والسماح له بالمبيت في المعبد ، حتى أخذ يحاول كشف سر هذا الصنم ، وكيف يحركون يده ، واكتشف بعد فترة وجود ستار مكلل بالذهب ، وخلف هذا الستار يقف برهمي عابد نار وبيده طرف حبل ، فأدرك أنه عندما يجذب هذا البرهمي الحبل ، يرفع الصنم يده للتضرع .

عندما أدرك البرهمي أن السعدى كشف سرهم ، تملك الخوف البرهمي وسارع بالجرى ، فجرى وراءه السعدى ولحق به حتى ألقاه منكوساً مقلوباً في بئر ، وذلك لأن السعدى أدرك أنه لو لم يعاجل بالقضاء على هذا البرهمي ، فإنه سيسعى ورفاقه في الإجهاز على السعدى بعد أن كشف الخدعة ، ولا محالة أنه مضيع لأمرها ! وقد برر السعدى قتله للبرهمي بما ترجمته :

- لأنك إذا تركت ذلك الرذل المجرد من الفضل حياً ، لن يتركك حياً بعد ذلك .
- وإذا وضع رأسه على بابك للخدمة ؛ فإنه سيقطع رأسك إذا استطاع .
- لا تضع قدمك ولا تسر على أثر المخادع والمخاتل ، فإذا ذهب ورأيت فلا تعطه الأمان .

- قتلت ذلك الخبيث (البرهمي) بالحجر ، لأنه لن يأتي من الميت حديث بعد ذلك .

ه - فلما رأيت أنني أثرت ضجة ، تركت ذلك القطر وقررت .

- إذا أضرمت النار في قصباء ، فاحترز الأسود إذا كنت عاقلاً .
- لا تقتل صغير الثعبان المؤذى للناس ، وإن قتلته ، فلا تبق في ذلك البيت بعد ذلك .
- إذا أثرت زنابير البيت ، فاهرب من المحلة والحي ، وإلا فإنك تسقط بشدة .
- لا ترم السهم نحو من هو أمهر وأنشط وأسرع منك ، فإذا وقع ذلك فسارع بالفرار .
- ١٠ - ليس في أوراق السعدى مثل هذه النصيحة : إذا هدمت أساس الجدار ؛ فلا تقف !
- لقد جئت إلى الهند ، ولكن بعد تلك القيامة ، توجهت من هناك عن طريق اليمن قاصداً الحجاز^(١) .

(١) أريج البستان ص ٢٤٠ ، ٢٤١ والأصل الفارسی :

نخواهد ترازند گانی دگر	که گر زانده اش مانی ، آن بی هنر
اگر دست یابد ببرد سرت	و گر سر بخدمت نهد بر درت
چو رفت و دیدی امانش مده	فـرـیـبـنـده پای در پی منه
که از مرده دیگر نیاید حدیث	تمامش بکشتم بسنگ
رها کردم آن بوم و بگر یختم	۵ - چو دیدم که غوغائی انگختم
ز شیران بهره‌یز اگر بخردی	چو اندر نیستانی آتش زدی
چو کشتی در آن خانه دیگر مپای	مکش بجهء مار مردم گر ای
گریز از محلت که گرم اوفتی	چو زنبور خانه پاشوفتی
چو افتاد ، دانت بدن دان گیر	بچا بکتر از خرد مپناز تیر
که چون پای دیوار کندی مایست	۱۰ - در اوراق سعدی چنین پند نیست
وز آنجا براه یمن تا حـجـیز	بهند آمدم ، بعد از آن رستخیز

کلیات سعدی ، بوستان ؛ ص : ۲۱۹ .

لقد زار السعدى الهند ، وهاله ما يعبد به البراهمة من أصنام عاجية أو حجرية لا جدوى منها ، لا لنفسها ولا لعابديها ، إذ كيف يعبد الإنسان الحى صنماً أو جماداً لا يحرك ساكناً ولا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه وإذا قلبه إنسان رأساً على عقب ، فإن هذا الصنم لن يستطيع أن يقوم من هذه الكبوة ويعدل وضعه كما كان من قبل ولهذا أراد السعدى أن يسخر من هذه العبادات التى يقبل عليها البراهمة دون وعى أو إدراك ، وقد اختار معبد سومنات محوراً للحديث ، لأن هذا المعبد كان أكبر معابد الهند إلى أن حطمها الفاتح الإسلامى الشهير محمود الغزنوى (٢٨٨ - ٤٢١ هـ) وتبعها بتحطيم كل المعابد التى كانت قائمة فى المناطق التى فتحها وضمها إلى حوزة الإسلام أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين .

وإذا كان السعدى قد تظاهر بالتأثر بما رأى ، وهو ما فسره البراهمة بأنه قد أمن بأصنامهم ، فإن هذا التظاهر والمداراة كانت خدعة منه حتى يجد الفرصة لفضح سرهم وكشف خداعهم ، وهذا ما حدث ! وما أن أكمل المهمة حتى سارع بالتوجه إلى أرض الحجاز ، حيث الكعبة المشرفة ، رغبة منه فى التخلص من آثار هذه المداراة ، ومما عاناه من عذاب نفسى لما أبداه من ميل كاذب للأصنام وضلالهم !

* * *

بعد أن تحدثنا عن القصص القصيرة فى الأدب الفارسى فى صورتها : الحكاية والقصة القصيرة شعراً أو نثراً ، فقد بقى لنا أن نتحدث عن القصص الدينى فى إطار القصة الطويلة أو الرواية ، وسنلتقى بعرض نموذجين فقط لهذا الفن الأدبى الذى يعطى الفرصة للأديب كى يعبر جيداً عن إبداعه وتميزه ، وقدرته على حيك هذه الروايات حبكاً يضمن لها البقاء طويلاً ، وكذلك اهتمام الأدباء والمؤرخين بها ، وهاتان القصتان هما : قصة يوسف وزليخا ، وقصة المعراج :

(قصة يوسف وزليخا)

هذه القصة من أقدم القصص الدينية التي ظهرت في الشعر الفارسي ، وأكثرها تداولاً بين شعراء هذه اللغة ، وقد قيل بأن الفردوسي شاعر الفارسية الأشهر قد نظم هذه القصة ما بين عامي ٢٨٤ ، ٢٨٦ هـ ولكن البعض يشكك في نسبة هذه القصة المنظومة إلى الفردوسي ومنهم الدكتور محمد محمدى ، حيث قال :

في أواخر القرن الخامس الهجرى نظمت إحدى القصص العذبة المشهورة قصة « يوسف وزليخا »، هذه المنظومة هي نفسها التي نسبها أصحاب التذاكر إلى الفردوسي مع العلم بأنها لا تشبه شعره ، ولكن لا شك حالياً في بطلان هذه النسبة ، ومن المسلم به أن صاحب هذه المنظومة كان أحد شعراء شمس الدولة أبى الفوارس طغانشاه ألب أرسلان حاكم خراسان فى عهد ملكشاه السجلى (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) وأنه نظمها بعد الفردوسي بكثير من نصف قرن^(١) .

ويقول بعض الباحثين بأن شاعرين قد سبقا الفردوسي فى نظم هذه القصة أحدهما من بلخ اسمه أبو المؤيد ، والآخر من الأهواز اسمه البختيارى ، وقد ضاعت منظوماتهما جميعاً ، ولم يبق إلا المنظومة المنسوبة إلى الفردوسي - وذلك كما يقول براون - بفضل الدكتور اتية^(٢) الذى نشرها وعلق عليها .

ولم تتوقف قرائح الشعراء فى نظم هذه القصة عن النسخة المنسوبة إلى الفردوسي فقد نظمت بعد ذلك عدة مرات ، كان أهمها جميعاً منظومة نور الدين عبد الرحمن الجامى وذلك عام ٨٨٨ هـ (١٤٨٢ م) ، ومنظومة حسين ناظم الهروى عام ١٠٥٨ هـ (١٦٤٨ م) ومنظومة لطفعللى بيك أنز بيك لى عام ١١٥٦ هـ (١٧٦٢ م) وغيرها من المنظومات التى عنيت بنظم هذه القصة^(٣) .

(١) د . محمد محمدى : الأدب الفارسي فى أهم أدواره ، بيروت ١٩٦٧ ، ص : ٢٠٠ .

(٢) براون : تاريخ الأدب فى إيران ج ٢ ترجمة د . إبراهيم أمين الشواربى القاهرة : ١٩٥٤ ص ١٧٥٠ .

(٣) الأدب الفارسي فى أهم أدواره : ص : ٢٠٠ .

كما يقال بأن محمد عوفى قد أملى جزءاً من قصة يوسف ، ولكن المنية أدركته قبل أن يتمها^(١) .

ولعل السبب الأقوى فى شهرة هذه القصة ، كما يقول الدكتور محمد محمدى - اتصالها بالقرآن وورودها فيه وقد عول الشعراء على هذا الأصل ، وأخذوا القصة كما هى فى القرآن وسبكوها فى قالب الشعر ، وربما زادوا فيها أشياء أخذوها من أقوال أصحاب التفاسير وأهل الحديث^(٢) .

وإلى جانب هذه القصص الطويلة ، وجدت عدة إشارات إلى أحداثها فى منظومات ودواوين العديد من الشعراء ، كمنطق الطير لفريد الدين العطار ، والمثنوى لجلال الدين الرومى ، وبوستان للسعدى الشيرازى ، هذا على سبيل المثال لا الحصر ، ولكننا سنكتفى بالحديث عن أهم منظومتين : الأولى المنسوبة إلى الفردوسى ، والثانية من نظم عبد الرحمن الجامى ، راجين من القارئ الكريم الرجوع إلى القصة فى «سورة يوسف» حتى يكون على بينة مما أخذه كل منهما من القرآن الكريم ، وما أضافه من خياله كشاعر إلى أحداث القصة .

* * *

يوسف وزليخا عدن الفردوسى :^(١)

منظومة الفردوسى تطابق فى جملتها القصة كما وردت فى كل من القرآن الكريم والتوراة ، وكذلك مع خيال الشاعر المبدع فى نظم القصص. ولعل جنوح الفردوسى إلى ما ورد فى التوراة يرجع إلى اعتماده على رواية اثنين من اليهود الذين أسلموا وهما كعب الأحبار ووهب بن منبه ، فقد قال الفردوسى ما ترجمته :

- رووا عن كعب ووهب ، وعنهما نشروا هذه القصة .

(١) راجع ملخص القصة فى : القصة فى الأدب الفارسى ص ٢٢٧ وما بعدها. ويوسف وزليخا للفردوسى نسخة كتابفروشى إسلامية بتهران .

(٢) د. محمد محمدى: الأدب الفارسى فى أهم أدواره ، بيروت ١٩٦٧م.

- أنه لما كانت أيام إبراهيم الذي أثنى عليه الله بالوفاء .
- وولد له إسحق الطاهر الرأى ، المميز فى خلقه والمبعوث رسولاً من الله .
- وقد سمعت أن الأنبياء طوال ألفين من الزمان قد جاءوا من أعقابه .
- وكان أول ابن جاء من عقب إسحق ، أن أنجب يعقوب الميمون الأصل^(١) .

وهكذا بدأت القصة من عهد إبراهيم عليه السلام ، ثم تحدث عن مولد يعقوب وأخيه عيسا وما كان بين الأخوين من عداوة ، وبعد ذلك تحدث عن مولد يوسف من راحيل زوجة يعقوب وشغف يعقوب بيوسف وإيثاره بحبه على بقية أخوته ، وقيل بأن يوسف رأى ثلاثة أحلام قصصها على أبيه ، وقد فسرهما له أبوه وبشره بأن سيبلغ منزلة عظيمة ولكن يجب كتمان الخبر ، وذلك حتى لا يوغر صدر أخوته ضده فيكيدوا له . ومع هذا لم يستطع يوسف كتمان الخبر ، وأبلغ أحد أخوته به ، فنقله أخوه هذا إلى باقى الإخوة ، مما جعلهم يزدادون حسداً عليه وتصميماً على الخلاص منه حتى يخلو لهم وجه أبيهم ، فاستأذنوا أباهم فى أن يصحبهم يوسف فى رحلة الرعى ولكن يعقوب أبى ، إلا أن يوسف ألح على أبيه بالموافقة بعد أن أغراه أخوته بأن سيلعب ويمرح كثيراً ، فوافق يعقوب بعد أن أوصاهم عنه خيراً ، ولكن ما أن انفردوا بأخيهم بعيداً عن أبيهم ، حتى تغيرت معاملتهم ليوسف وزادوا من جفائهم معه ، حتى أجمعوا أمرهم على إلقائه فى البئر على الرغم من بكاء يوسف وتوسلاته بالآى فعلوا به ما هم مقدمون عليه .

(١) حكيم أبو القاسم فردوسى: تفسير سورة يوسف يا يوسف وزليخا، تهران، تهران، كتابفروشى إسلامية (بدون تاريخ) ص : ٨.

روایت ز کعب اینچنین کرده اند	روایشان چنین قصه گسترده اند
که چون روزگار براهیم بود	که اندر وفا ایزد اورا سئود
پسر بودش اسحق پاکیزه رای	یکی ویژه مرد ورسول خدای
شنیدم که پیغمبران دو هزار	ز پشت وی آمد آنروز گار
نخستین پسر کش ز اسحق زاد	بد آزاده یعقوب فرخ نژاد

ألقوه فى البئر ، ولكن جبريل أدركه وحفظه وأجلسه على حجر بقاع البئر ، بينما عاد أخوته إلى أبيهم يتباكون وقد وضعوا أمامه قميصاً ملوثاً بدم كذب مدعين أن ذنباً فنتك به وهم مشغولون بالرعى ! فانهمرت دموع يعقوب وهو غير مصدق وبخاصة أن القميص لم يكن به أى آثار لتمزيق ، ولما أدرك الأبناء أن أباهم غير مصدق قولتهم ، فإذا بهم يقولون : إن كنت لا تصدق ما نقول ، فسنذهب ونحضر لك الذنب كى تسأله ، فوافقهم يعقوب ، وذهب الإخوة وصادوا ذنباً آخر ولوثوا مخالفه بدم كذب كذلك ، وإذا ببيعقوب يسأل الله أن ينطق الذنب بالحقيقة ، فقص عليه الذنب كيف صادوه ولوثوه بالدماء وأتوا به إليه ، فصبر يعقوب واتخذ لنفسه بيتاً أسماه بيت الأحران وأقام فيه وحده باكياً حزيناً حتى فقد بصره .

أما عن يوسف قد بقى بصحبة جبريل فى البئر لمدة ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع أقبلت قافلة وأدلت بدلوها فى البئر فخرج فيه يوسف ، فسارع الغلمان بالبشرى إلى رئيس القافلة الذى اعتبره بضاعة يمكن أن يبيعه ويتكسب من ورائه ، ويقول الفردوسى بأن أخوته كانوا يتابعونه ، وعندما أخرج من البئر ، ادعوا بأنه غلامهم الذى تعود على الهرب منهم ، وقد هددوا يوسف إن كذبهم فسوف يقتلوه ، وأخيراً باعوه لرئيس القافلة بعشرة دراهم ، ثم وقعوا وثيقة ببيعه !

واصلت القافلة رحلتها بعد ذلك حتى وصلت أرض مصر حيث تم بيع يوسف لعزیز مصر ، فتولت زليخا امرأة العزيز تربيته حتى بلغ رشده فعشقتة ، وكان يوسف يحاول أن يتلمس أخبار أبيه وقد بلغه بأنه ما زال على قيد الحياة ، وأنه يقيم فى بيت الأحران وقد كف بصره ، فسيطر الهم والحزن على يوسف وعاد إلى داره يبكى أباه ، وإذا بزليخا قد تزينت وأقبلت عليه متوددة متلاطفة مواسية ، وأخذت تطرى صفاته وتصارحه بهواها ، ولكن يوسف ينكر عليها ذلك ويخرج ولكنها تحاول اللحاق به ضارعة راجية الوجد ، ولكنه يتعذر عن الانسياق معها فى هواها ، لأنه لا يقبل أن يخون ولى نعمته .

سيطر الهم والحزن على زليخا ، وقد لاحظت جاريتها ما ألم بها ، فطلبت منها أن تقص عليها ما يحزنها فقد تساعدها فى الخلاص من همها ، فأخبرتها بأنها تهيم حباً بيوسف ولكنه يتمنع ويرفض حبها .

فأشارت الجارية عليها بالصبر عاماً تبني خلاله بيتاً كله مرايا ، حتى إذا جلست فى أى ركن منه مع يوسف انعكست صورتها أمامه فى كل ركن ، فلا يستطيع مقاومة إغرائها بعد ذلك ، ولما انتهى بناء البيت ، دعت زليخا يوسف ليقابلها وقد لبست ثوباً شفافاً يظهر كل مفاتنها وتعطرت وبدت فى أبهى زينة ودعته للجلوس بجانبها ، وأخذت تكرر على مسامعه حبها وعشقها وعدم قدرتها على التخلص من حبه ، ولكنه كثر عليها خوفه من الله واحترامه لسيد الدار ، ولكنها لم تكف عن مغالته بل ضمته إلى صدرها وأمطرت وجهه بقبلات حارة ، جعلته يكاد يفقد المقاومة ، ويجاريها فى هواها ، وإذا بيد تظهر من أحد الأركان وتشد أذنه وقد كتب عليها «إن الله يراك» ولكنه لم يفق ، فتظهر اليد مرة أخرى من ركن آخر وقد كتب عليها : «إن هذا العمل القبيح يحرمك من الجنة السعيدة» ولكنه ما زال متأثراً بالرغبة والشهوة ، وأخيراً يظهر جبريل عليه السلام فى صورة يعقوب وأخذ يحذره عقاب ربه ، فغشيته رعدة من خوف الله والحياء من أبيه ، فقفز نحو الباب وجرت زليخا خلفه ممسكة بقميصه ، فقد من دبر !

هنا يدخل العزيز كالريح ، وإذا زليخا تدعى الغضب وتتهم يوسف بمحاولة الاعتداء عليها ، ولكن يوسف قال بأنها هى التى راودته وأنه برىء ، وأنطق الله طفلاً رضيعاً فى المهد شهد الواقعة ؛ قائلاً : إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر ، فصدق وهى من الكاذبين ، وهنا تثبت براءة يوسف حيث قد قميصه من دبر ، وأنحى العزيز باللائمة على زليخا قائلاً : إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ .

ذاع الخبر ، ولاكته الأسن ، وتناقلته النسوة متهمات زليخا بأنها تراود فتاها عن نفسها ، قد شغفها حباً فلما سمعت بمكرهن أعدت لهن وليمة وآتت كل واحدة منهن

أترجة وسكيناً ، ثم خرج يوسف عليهن فبهرن بجماله ، وإذا بهن قد قطعن أيديهن بدلا من الأترج ، «وقلن حاش لله ، ما هذا بشر ، إن هذا إلا ملك كريم!»^(١) فقالت لهن هذا الذى لمتننى فيه ، أرجو مساعدتكن وإقناعه بمبادلتى حباً بحب .

فذهبت النسوة إلى يوسف يتوسلنه ، ولكنه رفض توسلاتهن لوصول زليخا ، وهنا بدأت كل واحدة منهن تعرض نفسها عليه ، فإذا به يسخر منهن ، إذ كيف يرفض حب زليخا الأكثر منهن جمالاً وجاهاً ، ويقبل حب إحداهن؟!

بعد أن أدركت النسوة بأنه لا جدوى من محاولات زليخا ومحاولاتهن ، نصحنها بأن تكف عن مطاردته ، ومن الأفضل أن تبعده عنها وذلك بوضعه فى السجن عقاباً على رفضه حبها ، ولعل فى بعده السلوى من هذا الهوى وذلك العشق المتأجج فى قلبها ! أرسلت زليخا يوسف إلى السجن ، وهناك مالت قلوب جميع المسجونين إليه ، وكان من بينهم اثنان من بلاط الملك ، كان أحدهما ساقيه ، والآخر صاحب طعامه ، وقد رأى الأول فى منامه أنه يعصر خمراً والملك يشرب من يده ، بينما رأى الآخر رؤية مفادها أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، فبشر يوسف أولهما بأنه سيعود إلى سابق عمله ويسقى الملك ، أما الآخر فإنه سيصلب وتأكل الطير من رأسه ، وفى الغد أمر الملك بعودة الأول إلى سابق عمله ، وقتل الثانى وصلبه !

وبعدها جاء جبريل إلى يوسف ويشره بقرب خروجه من السجن ، فقد حدث أن رأى الملك رؤية عجز جميع المفسرين عن تأويلها ، بينما طلب ساقى الملك الذى كان مع يوسف فى السجن فى استشارة يوسف فى هذه الرؤية ، فما كان من يوسف إلا أن فسرهما - كما جاء ذلك فى القرآن الكريم - لذا سارع الملك بإخراجه من السجن وولاه الإشراف على خزانة المملكة ، وأصبح يوسف رفيع القدر ، لا يعلوه مكانة إلا الملك ، وقد أمر يوسف بإطلاق سراح جميع السجناء ، وسرعان ما أسلم الملك وجيشه ورعاياه على يد يوسف .

(١) يوسف ، أية : ٣١

ثم بدأت سنوات القحط كما جاء فى رؤية الملك ، وتبع ذلك وفاة الملك وخلفه يوسف حيث مالت قلوب جميع المصريين نحوه . وفى العام السادس من أعوام القحط هرع إليه الناس من كل صوب يشكون شدة المجاعة ، وحرار يوسف فى أمر تموينهم وتموين الوافدين من البلاد الأخرى ، فنزل عليه جبريل وأوصاه بأن يظهر للناس مرة كل يوم ويريهم وجهه فيرجعون راضين شبعين .

ثم عم القحط ديار كنعان كذلك ، فأرسل يعقوب أولاده يمتارون من مصر ، فلما قدموا على يوسف عرفهم وهم له منكرون ، فأكرمهم وزودهم بما يحتاجون ، ثم طلب منهم أن يعوبوا ، وأن يأتوه بأخيهم بنيامين ، وبعد فترة عاد الأخوة ومعهم بنيامين وقد دبر يوسف حيلة لاستبقاء بنيامين فجعل السقاية فى رحله كما جاء فى القرآن ، وانتهى الأمر برجوع الأخوة إلى كنعان واحتجاز بنيامين فى مصر نتيجة لاتهامه بسرقة صاع الملك .

وبعد فترة عاد الأخوة إلى مصر برسالة من يعقوب يشكو فيها فقدته يوسف ، ويرجو من عزيز مصر استرجاع بنيامين ؛ حتى لا يكون عزيز مصر ذنباً آخر وأخاً لذنب يوسف !

فوعدهم يوسف خيراً على أن يقصوا عليه قصة أخيهم يوسف دون نقص أو زيادة ، فأعاد أخوه شمعون على سمعه فرية الذنب ، فأجابه يوسف بأنه لا يصدق روايته ، وأن لديه جاماً ذهبياً يبوّح بحقيقة كل ما يسأل عنه ، ثم وضع الجام فى يده وضرب عليه بقضيب باليد الأخرى ، فصدر عنه صوت استمر طويلاً ، ثم قال يوسف : إن الجام يتهم شمعون بالكذب ويقول إنكم يا أخوة يوسف قد ملأ الحسد قلوبكم ضد أخيكم وألقيتموه فى البئر ثم بعتموه ، وأن الذنب برئ من دمه . فتملكتهم الدهشة جميعاً ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى إنكارهم وهنا ألقى يوسف إليهم بوثيقة بيعه لرئيس القافلة التى حملته إلى مصر ووقعوها بخطهم ؛ وذلك بحجة أنها مكتوبة بالعبرية ويريد منهم أن يترجموها له ؛ فأدرك الإخوة أنه يوسف ، فقال يوسف : نعم أنا يوسف وهذا أخى بنيامين ، فخروا له ساجدين وعفا عنهم وأحسن إليهم وأرسل

معهم قميصه فألقوه على وجه أبيهم ؛ فارتد بصيراً ، ثم أرسل يوسف قافلة إلى أرض كنعان عادت إلى مصر بأبيه وأهله أجمعين .

ثم يموت يعقوب ويذهب يوسف إلى أرض كنعان كي يوارى جثمان أبيه التراب هناك كوصية أبيه له ! وقبل أن يموت يعقوب استثمر الفربوسى مقدمه إلى مصر فى إتمام الوصال بين يوسف وزليخا ، حيث أضاف الفربوسى فصولاً وأحداثاً لا وجود لها فى رواية القرآن أو التوراة ، بل هى من نسج خيال الشاعر الذى حرص على أن يجمع العاشقين ، فكيف تم ذلك ؟

دارت الأيام دورتها على زليخا وألم بها العجز وكف بصرها ، بينما أصبح يوسف عزيز مصر وكبيرها ، وذات يوم سمعت زليخا ضجيجاً ودقات طبول فسألت جارتها عن السبب ، فأخبرتها أنه موكب يوسف وقد عاد من كنعان مع والده وأهل بيته ، فهمت بالخروج إلى الموكب لعلها تحظى بلقاء يوسف الحبيب ، ولكن قبل أن تخرج كان لديها صنم تعبده ، فتحدثت معه وطلبت منه أن يحقق لها ثلاثة أشياء : أن يعيد إليها بصرها ، وأن يعيدها شابة عذراء ، وأن يهبها جمالا وطهراً ، وقالت : إن لم تحقق لى هذه الأشياء فلست جديراً بأن تعبد ، ولما لم يتحقق لها ما أرادت ، هوت على ذلك الصنم وحطمته .

ثم خرجت إلى الموكب بمصاحبة أمتها ، وعندما مر بها الموكب نادت يوسف ولكنه لم يسمعها لشدة الضجيج وارتفاع صوت الطبول ، ولكن الله أمر الريح فحملت صوتها إلى أذنى يوسف فلما سمعها ورأها على هذه الحال رق لها قلبه ، وأمر حجابها بحملها إلى قصره حتى يعود .

وبعد أن عاد إلى القصر أمر بإدخالها عليه فى خلوته وكان معه أبوه يعقوب ، فتحدثوا جميعاً وتذكر كل منهم ما مر به من مصائب وكوارث ، حتى رق قلب يعقوب لحالها ، ثم أخبرتهما بكفرانها بصنمها وتحطيمها له ، وأنها تشهد الآن بوحدانية الله ونبوة يوسف ، ثم سألت يعقوب أن يدعو الله ليحقق لها أمنيات أربعاً وهى : أن يمن الله عليها بالإسلام ، وأن يعيدها جميلة كما كانت ، وأن يجعلها عذراء طاهرة ،

وأخيراً أن يصبح يوسف زوجها ومحباً لها . فدعا لها يعقوب بما طلبت فعادت فتاة عذراء فى السادسة عشرة من عمرها ، وانتهى الأمر بزواج يوسف منها بعد أن أقنعه أبوه بذلك .

ولكن الأمر بينهما لم يكن كسابق عهده ، فقد أصبح يوسف العاشق الولهان ، وأصبحت زليخا المعشوقة المتمنعة ، وقد عاتبها يوسف فى ذلك ، وإذا بملك ينزل على يوسف قائلاً له : لا تحسبن هذا الإعراض من زليخا ، فإن الله فى يوم عقدك عليها أمرنى أن أضرب بجناحى على قلبها فما أن فعلت حتى زايله حب الدنيا كلية فى لحظة ، وقد أصبحت الآن عفيفة فاضلة كما كنت أنت من قبل ، وكذلك قضى ربك أن يستيقن قلبك بأن الأمر لا يكون كما تريد بل مرده إلى الله وحده ، فامض إلى يعقوب ، وسله أن يدعو الله بأن يصلح بينك وبين صاحبك ، واستجاب الله لدعاء يعقوب ، وعاد هوى يوسف إلى قلب زليخا ، ونعماً معاً بحياة كلها حب وسعادة ، وأخيراً يختم الشاعر قصته بموت الزوجين العاشقين فى يوم واحد !!

* * *

إلى هنا تنتهى القصة المنسوبة إلى الفردوسى ، ونلاحظ أنها جاءت على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : مأخوذ عن التوراة ، وقد أشار الفردوسى إلى هذا الأمر فى بداية نظمه للقصة حين أشار إلى ما رواه كعب وهب اليهوديين للقصة وتناقل روايتهما بين المؤرخين ، لذا بدأ الفردوسى قصته منذ عهد سيدنا إبراهيم وولده إسحاق ، ثم تحدث عن ولادة يعقوب وأخيه عيسا ، وما كان بين الأخوين من صراع وعداء ، وهو قسم صغير إذا قيس بالقسمين التاليين .

القسم الثانى : وهو مستمد فى معظمه مما ورد فى القرآن الكريم وبخاصة سورة يوسف . وقد بدأ بمولاد يوسف وتعلق أبيه به مما أو غر صدر إخوته ضده وتفكيرهم فى الخلاص منه إلى باقى الأحداث الرئيسية حتى رحل يعقوب وأهله إلى مصر للإقامة مع يوسف بعد أن تكشف كل الحقائق وأدرك أخوته شناعة ما فعلوه بيوسف ، مع التركيز على ما كان بينه وبين زليخا من أحداث وأقوال ، ولكن لم يخل

هذا القسم من خيال الشاعر وعلى سبيل المثال ما ذكره عن الجام الذى ينطق بالحق كلما طرقه ، ولعل هذا يذكرنا بجام جمشيد الذى تحكى الأساطير الإيرانية القديمة أنه كان ينظر من خلاله فيرى العالم كله وهو جالس فى قصره .

القسم الثالث : من نسج الخيال عند الشاعر ، حيث نظمته على منوال القصص الرومانسية التى يزخر بها الأدب الفارسى والتى تنتهى عادة باللقاء بين الحبيبين بعد طول فراق .

وقد بدأ هذا القسم بعد وصول يعقوب إلى مصر ، ورفع يوسف له كى يجلس إلى جواره على العرش ، فكل الأحداث التى ذكرها الفردوسى من سيطرة الكبر والعجز على زليخا وسعيها إلى موكب يوسف بعد أن حطمت صنمها وقبولها الإيمان برب يوسف ، ثم تحولها من عجوز شمطاء إلى يافعة فى سن السادسة عشرة وتزويجها بيوسف حتى موتها معاً فى يوم واحد . كل هذه الأحداث دخيلة على القصة فى القرآن الكريم ، ومن نسج الخيال عند الفردوسى وربما جاءت نقلاً عن الروايات المختلفة التى ذكرها بعض المفسرين .

وإذا قارنا القسمين الأول والثالث بالقسم الثانى ، فإن القسم الثانى هو المستمد من القرآن الكريم فى قصة يوسف وهو العنصر الأساسى لبناء القصة عند الفردوسى ، أما القسم الأول فهو مجرد تمهيد للقصة ، بينما القسم الثالث فيمثل الحبكة الرومانسية للقصة ، والذى أراد به الفردوسى ، بيان قدراته كشاعر ، النظم دابته والخيال وسيلته للتعبير والإبداع ، وقد نظم الكثير من هذه القصص العاطفية فى الشاهنامة وأشهرها قصة (خسرو وشيرين) .

* * *

يوسف وزليخا عند عبد الرحمن الجامى

استهل عبد الرحمن الجامى قصته بمقدمة متعارف عليها فى المنظومات الفارسية ؛ شملت الابتهاال إلى الله عز وجل ، ونعت للرسول الكريم عليه السلام ومعرجه إلى

السماء ، وكذلك التضرع إلى الله طلباً لشفاعة محمد عليه السلام ، وكذلك الحديث عن سبب نظمه لهذه القصة الدينية التي حظيت باهتمام المفسرين وكذلك الرواة والأدباء فى شتى العصور ومختلف اللغات ، والتي كان لها نصيب الأسد من القصص الدينى فى الأدب الفارسى ، ويكاد جميع النقاد القدامى منهم والمحدثون يجمعون على أن هذه القصة من أفضل ما خلف الشاعر عبد الرحمن الجامى ، وقد قال فى حقها دينسون روس : «تعتبر منظومة الجامى هذه خير ما نظم فى هذا المجال ، وقد نالت شهرة واسعة ، هذه المنظومة من أشهر ما كتب فى هذا المجال ، وأنها أفضل أعمال الجامى قاطبة»^(١).

وقد حرص نور الدين الجامى على أن يبدأ قصته من حيث بدأها القرآن الكريم ، حيث تحدث عن مولد يوسف ، وكما كان غاية فى الجمال الأسر للألباب والعقول ، والذى لم يحظ به مخلوق قبله قط ، ومما قاله ؛ ما ترجمته :

- حينما بدأ مفسرو القرآن ، وقارئو صحف السماء .
- كتابة تاريخ الدنيا ، فقد حكوا عن آدم هذا الأمر .
- قائلين : لما أضاء الله عينيه ، عرض عليه صورة أولاده .
- حيث وقفت صفوف الأنبياء ، ووقف كل صف فى مرتبته .
- هـ - واتخذت صفوف الأولياء مكاناً آخر ، فوطئت بأقدامها مقام التبعية .
- ومن خلفهم وقفت مجموعة يتباهون بتاج عظمة الملك .
- ثم وقف بقية الخلائق صفاً ، صفاً ، وقفوا بترتيب حسن ونظام بديع .
- وحينما نظر آدم إلى ذلك الحشد ، وأعاد النظر مرة أخرى فى كل مجموعة .
- بدا يوسف أمام عينية بديراً ، لا ، بل شمس العزة والحياة فى أوجها .

(١) راجع مقدمة الترجمة العربية لهذه المنظومة للدكتور عبد العزيز بقوش بمجلة أخبار الأدب، كما يمكن الرجوع إلى القصة فى الأدب الفارسى للدكتور أمين عبد المجيد ص ٢٥١-٢٥٧ ، والرجوع كذلك إلى الأصل الفارسى طبعة نادري ، بومباي عام ١٣٣٢ هـ - ١٩٢٣ م.

- ١٠ - فهو يمتاز عن ذلك الحشد كشمع المجالس شامخ برأسه بين الجميع .
- يتلاشى أمام حسنه جمال الحسان ؛ كما يتلاشى ضوء النجم أمام ضوء الشمس .
- فكمال حسنه خارج نطاق الفكر ، وأبعد مدى من حدود العقل .
- تعجب آدم من ذلك الجلال والجاه ، وقال متعجباً !
- من أى دوحة هذا الغصن يا إلهى ! ومن أين له هذا الجمال والجاه الزائد ؟
- ١٥ - فأتاه الرد : إنه نور عيتيك ، ومدخل السرور على قلبك الحزين .
- فهو غصن من روضة يعقوب ، وغزال فى صحراء خليل الله .
- يتجاوز إيوان جاهه السماء ، ويكون له عرش مصر .
- كما يكون مثار غيرة حسان الدنيا ، من شدة الحسن البادى على وجهه .
- ثم ضمه إلى صدره ، وباركه بقلبه الخالى من الأحقاد .
- ٢٠ - وأخبره بحبه له ، وطبع قبلة أبوية على جبينه^(١) .
- وكما وصف جمال يوسف ، فقد تحدث عن زليخا ، وقال إنها ابنة الملك طيموس ببلاد المغرب ، وقد أفاض الجامى فى وصف جمالها عضواً عضواً ومع هذا فقد وقعت فى حب يوسف دون أن تراه ؛ ومما قاله فى حقها ما ترجمته :
- أما زليخا التى كانت مثار غيرة الحور العين ، فقد كانت محتجبة خلف ستار العصمة ببلاد المغرب .
- لقد أصبحت أسيرة طيفه فى نومها ، دون أن ترى شعاعاً من نور طلعه .
- كان ببلاد المغرب ملك مشهور ، دقت له الطبول ، واسمه «طيموس» .

(١) المرجع السابق (أخبار الأدب) .

- اكتملت له كل أسباب الملك ، ولم يبق بقلبه أمنية لم تتحقق .

- وكانت له ابنة جميلة تدعى (زليخا) ، كانت سميرته من بين كل الخلائق .

- يجل وصفها عن مقدرة البيان ، وأجذب الطبع مع خيالها^(١) .

بعد ذلك انتقل الجامى للحديث عن رؤية زليخا ليوسف لأول مرة فى منامها ، وكيف أنها تعلقته به منذ الوهلة الأولى ، وكيف هبت نسائم السحر فأيقظتها من نومها وهى مشدوهة مبهورة بجمال من رأت ، حيث إن ما طالعت من جمال يوسف لم تر مثله قط بين بنى البشر ، ولهذا بدأ الاضطراب يبدو على تصرفاتها مما جعل الجوارى من حولها يتساءلون عن سبب هذا التغيير المفاجئ فى سلوك ابنة مليكهن .

وفى الليلة الثانية رأت زليخا يوسف للمرة الثانية فى منامها ، فزادتها رؤيته هذه تعلقاً به ؛ حتى وصل عشقها وهيامها بيوسف إلى درجة تكاد تقترب من حافة الجنون ، وفى الليلة التالية عاود الحلم زليخا ، حيث رآته للمرة الثالثة وقد كانت أكثر تماسكاً وإدراكاً لما يحيط بها ، وهنا عرفت من هو يوسف وأنه يعيش فى مصر ، وأن مكانته رفيعة القدر حيث يحظى بتقدير وحب الجميع فى مصر كلها .

وقد حدث وزليخا فى هذه الحال من وجد وهيام بيوسف القاطن مصر ، أن تقدم إلى خطبتها العديد من الأمراء والملوك من كل أنحاء المعمورة دون أن يتقدم إلى خطبتها أحد من مصر ، لذا سارعت زليخا برفضهن جميعاً ؛ لأن قلبها قد تعلق بمصر وهوائها ويحبيبها القاطن هناك والذى رآته فى منامها ثلاث مرات ، وفى هذا الأمر قال الجامى ما ترجمته :

أقبل العديد من أمراء الشام والروم وكل الديار لخطبة زليخا ، فما كان منها إلا أن سألت هل جاء أحدهم من مصر ، فقالوا لا ؛ فكان ردها الرفض!

- حينما وقفت زليخا على هذا الأمر ، اضطرب قلبها من الحيرة .

(١) المرجع السابق (أخبار الأدب) .

وقالت : أُن من بينهم رسول من مصر ؛ فإن عشق المصريين قد قصم ظهرى .
- إن قلبى لينجذب نحو المصريين ، وإذا لم يكن بينهم رسول من مصر ، فلست أدرى ما سيحدث .

- إذ إن النسيم الذى يهب من مصر ، ويكحل عيني بغبارها ،
- خير لى مائة مرة من تلك الريح التى تحمل المسك من صحراء التتار^(١).

وأمام هذا الصد والتمنع من زليخا ، ما كان من أبيها الحريص على تزويجها إلا أن أرسل إلى عزيز مصر رسولاً من قبله عارضاً عليه الزواج من ابنته زليخا ، وقد قبل عزيز مصر العرض لما يعرفه عن جمال زليخا ورقتها وحسنها .

نقل الخبر إلى زليخا ، فأبدت موافقتها على الزواج من عزيز مصر ، فجهز أبوها قافلة لتقل زليخا إلى مصر كي يتم زفافها إلى عزيز مصر ، وعندما وصل ركبها إلى مشارف مصر ، حطت الرحال فى انتظار مقدم عزيز مصر لاصطحابها إلى قصره ، وإتمام الزفاف ، وعندما وصل عزيز مصر إلى المكان الذى نصب فيه مرافقو زليخا خيامهم ، سارعت زليخا بالنظر من خلال خيمتها لكي تتعرف على عريسها ، ولكن ما أن رآته حتى صاحت قائلة : ليس هذا ذاك الشخص الذى رأيته فى المنام عدة مرات وتحملت من أجله طوال عام كامل تباريح الهوى ، ومع هذا فقد واصلت الرحلة وبرفقتها عزيز مصر ، حيث أحسن المصريون استقبالها ونثروا الجواهر على موكبها ، وقد واصلت الرحلة كي تبحث عن يوسف ، وكم كانت تتلف إلى لقائه ، حزينة على تلك الليالى والأيام التى تمر دون أن تحظى بوصاله ؛

وينتقل الجامى إلى جانب آخر من القصة حيث بدأ يتحدث عن علاقة يوسف بأخوته ، وكيف كانوا يحسدونه لفرط اهتمام يعقوب به ، ثم تحدث عن الرؤية التى رآها يوسف وهى سجد الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ، وقصه هذه الرؤية على

(١) راجع الترجمة العربية لمنظومة يوسف وزليخا للدكتور عبد العزيز بقوش بمجلة أخبار الأدب .

والده طالباً منه تفسيراً وتوضيحاً ، ففسرها له وطالبه ألا يخبر أحداً من أخوته بهذه الرؤية ، ولكن الخبر تسرب إلى الأخوة فزادهم حسداً على يوسف وضيقاً به ، فتشاوروا معاً ليدبروا حيلة يبعدون بها يوسف عن أبيه ، لذا ذهبوا إلى أبيهم يستأذنونهم في أن يذهب معهم يوسف إلى الصحراء ، وهناك ألقوه في غياهب بئر الضلالة والخيانة . ولكن الله أنجاه بوصول القافلة وإخراجه من البئر. ثم وصلت القافلة بيوسف إلى مشارف مصر ، وسمع ملك مصر بمقدم القافلة ومعها يوسف ، فأرسل عزيز مصر لاستقبالهم وإحضار يوسف إلى القصر ، وما أن وصل يوسف إلى أرض مصر حتى توجه إلى النيل واغتسل من غبار السفر ، ثم ركب هودجاً قاصداً بلاط ملك مصر ، وذلك بصحبة مالكة الذي أخرجه من البئر واشتراه من أخوته!

لما علمت زليخا بما أحدثه وصول يوسف أرض مصر وبلاط الملك من ضجة وضجيج وتجمع الناس حول القصر ، سارعت بالذهاب إلى القصر لاستطلاع الأمر ، وما أن رأت يوسف وجماله حتى تعرفت عليه ، وما أن عرض مالك يوسف بيعه ، سارعت زليخا بشرائه عارضة ثمناً يفوق بكثير كل ما عرضه الآخرون .

انتقل يوسف للعيش في قصر العزيز ، وتحت إشراف زليخا ، وحرصت ربة الدار أن توفر له كل أسباب السعادة وفراغ البال ، ثم طلبت من يوسف أن يقص عليها قصته ، وكم عانى في البئر من آلام وأحزان وهنا أدركت زليخا أن الحزن الذي كانت تعانيه ذلك اليوم وتلك الليلة كان سببه آلام يوسف بالبئر في ذلك الوقت . بعد ذلك طلب يوسف الاشتغال بالرعى لأنه لم يكن هناك نبي قط لم يشتغل بالرعى ، واستجابت زليخا لما طلب .

بعد أن أدرك يوسف بلوغه ثم رشده ، بدأت زليخا تعبر له عن حبها وطلبت وصاله ، ولكنه تعفف عن ذلك ، مما جعلها تصاب بالاكئاب والشحوب ، فساكتها مربيها عن السبب ، فأخبرتها بعشقها ليوسف وتمنعه عليها ، فحاولت المربية الوساطة بينها وبين يوسف ، ولكنه ظل على إبانته وتعففه ، مما اضطر زليخا للذهاب إليه مرة أخرى عارضة نفسها عليه متضرعة أن يستجيب لتوسلاتها ، ولكنه اعتذر ثانية عن تحقيق مرادها ، فحاولت زليخا أن تهيب جواً شاعرياً حيث أرسلت يوسف إلى

البستان وحوله العديد من الجوارى العارضات لحسنهن وجمالهن ، ولكن يوسف ظل على عفاه وطهره ، وهنا بدأت ومربيته في البحث معاً عن وسيلة أخرى لتحطيم رفض يوسف وتمنعه ، حيث شيدت المربية بيتاً جديداً صورت في كل أرجائه جمال يوسف وزليخا بأوضاع مختلفة ، ثم دعت يوسف إلى ذلك البيت ومعه زليخا التي حاولت وصاله دون جدوى ، ثم إدخاله إلى المقصورة السابعة ومحاولة إجباره على تحقيق مقصودها ، فما كان من يوسف إلا أن فرّ ، وترك زليخا حائرة !

في نفس اللحظة التي جرى فيها يوسف خارجاً ، وصل العزيز إلى البيت ، وسأل يوسف عما يجري ، فلم يخبره يوسف بشيء ، بينما سارعت زليخا باتهام يوسف بأنه كان يراودها عن نفسها ويحاول الاعتداء عليها ، فما كان من العزيز إلا أن أمر بإيداع يوسف السجن على الرغم من شهادة طفل رضيع ببراءة يوسف ، وقبل إيداعه السجن انتشر الخبر في المدينة ، ولاكت ألسن النسوة سيرة زليخا ، ولكنها كى تخرس ألسنتهن هيأت لهن جلسة مشاهدة ، وأمرت يوسف بالدخول عليهن فأكبرن جماله ، والتمسن لزليخا العذر فيما فعلته ، وقد حاولت النسوة تشجيع يوسف على قبول غواية زليخا ، ولكنه صمم على الاحتفاظ بعفته وطهره ، فاقترحت النسوة تنفيذ أمر العزيز وإرسال يوسف إلى السجن ، وفعلاً تم إرساله إلى السجن مع ندم كبير من زليخا لإقدامها على تنفيذ هذا الأمر الذي سيحرمها من رؤية يوسف !

ولم يمض وقت طويل على إرسال يوسف إلى السجن ، حتى ألهب العشق عاطفة زليخا ولم تستطع تحمل فراقه ، فكانت تذهب ليلاً مع مربيتها إلى السجن لمشاهدة يوسف والتمتع بالنظر إلى جماله وحسنه ، بل إنها كانت تصعد إلى سطح قصرها نهاراً لمشاهدة السجن من هناك وكانت في كلتا الحالتين تنخرط في البكاء والانتحاب لفراق يوسف عليه السلام .

ثم ينتقل الجامي لشرح حال يوسف في السجن وكيف استطاع أن يحوز رضا وحب واحترام كل من كانوا في السجن ، حتى أنهم كانوا يعرضون عليه أحلامهم ليفسرهم لهم .

وكان من بين هؤلاء السجناء أفراد من خاصة الملك وخدامه ، وكان يوسف يطلب منهم ذكره عند الملك إذا خرج أحدهم ، وما كان من أمر رؤية الملك وتفسير يوسف لها ، فتم الإفراج عنه كي يشرف على خزانة الملك ، وما أن وصل إلى القصر ، حتى سأله الملك عن قصته مع النسوة ، فتيقن من براءة يوسف مما اتهم به. وقد حدث بعد ذلك أن مات عزيز مصر ، وابتليت زليخا بالوحدة والفراق واستيلاء محبة يوسف على قلبها ، وأملأ في لقائه فقد أقامت كوخاً لها في طريق يوسف لعله يدرك حالها ويرق قلبه لها ، ولكنه لم يلتفت إليها ولم يعرها اهتماماً ، مما جعلها تسارع إلى بيتها ثائرة فتحطم صنمها ، وإعلانها الإيمان برب يوسف عليه السلام ، ثم عودتها إلى الطريق مرة ثانية ، وهنا حظيت بالتفاته إليها واهتمامه بها .

بعد ذلك نقلت زليخا إلى خلوة يوسف بالقصر ، وقد عاد إليها بصرها واستعادت جمالها وشبابها وذلك بفضل دعاء يوسف لها ، كما جاء الوحي وأمر يوسف بالزواج من زليخا ، فتزوجها وغلب عشقها على قلبه ، مما دعاه إلى بناء معبد لها ، وأخيراً يرى يوسف عليه السلام أبويه في المنام ، وما صحب ذلك من دعائه الله عز وجل أن يعجل بموته للحاق بوالديه ، وجزعت زليخا من هذا الدعاء ، وأخيراً يموت يوسف عليه السلام فتهلك زليخا أسى على فراقه !

* * *

وهنا تنتهي القصة عند الجامى ، ونلاحظ أنه بدأها من حيث بدايتها كما وردت في سورة يوسف بالقرآن الكريم ، وكان أكثر التصاقاً بأحداث القصة كما جاءت في القرآن من تلك القصة التي نظمها الفردوسى قبله ، ومع هذا لم تخل قصته من بعض الإضافات التي لم ترد في القرآن ، وذلك إتماماً للحبكة القصصية وزيادة التشويق ، ومن هذه الإضافات أن الجامى أدخل إلى شخوص القصة عنصراً جديداً متمثلاً في وجود فتاة اسمها (بازغة) وقد رأت يوسف بعد وصوله مصر ووقعت في حبه وعرضت عليه جمالها ومالها ، ولكنه رفض غوايتها مما جعلها ترجع يائسة وتتخلى عن كل ما تملك ، وتعيش وحيدة منقطعة للعبادة بعد ذلك ، كما أنه تأثر بقصة الفردوسى في بناء

ذلك البيت الذى شيدته مربية زليخا ، وزينته ، ولكن بالعديد من الصور التى تظهر جمال زليخا ويوسف فى كل وضع ، على عكس الفردوسى الذى جعل جدران القصر كله من المرايا حتى تنعكس صورة زليخا على أى ركن ينظر إليه يوسف عند لقائه بها داخل هذا القصر ، وسواء زين القصر بالصور عند الجامى أو بالمرايا العاكسة عند الفردوسى ، فالغرض هو توفير جو رومانسى يؤثر فى عقل وقلب يوسف ، فيقبل على زليخا ويحقق لها الوصال ، ولكن يوسف لم يتأثر بهذا أو بذاك وظل على تعففه وطهره .

كما وافق جامى رواية الفردوسى فى عودة زليخا إلى شبابها وجمالها واقترانها بيوسف بعد طول انتظار ، وقد تم هذا الاقتران مصداقاً لأمر إلهى . ولكن إجماعاً اختلف مع الفردوسى فى توقيت الوفاة ، فقد ذكر الفردوسى بأنهما ماتا فى وقت واحد ، بينما ذكر الجامى بأن يوسف ودع الحياة قبلها ، فتملكها الحزن والأسى لفراقه ثم لحقت به بعد ذلك .

* * *

وهكذا كانت قصة يوسف لزليخا نبعاً فياضاً للشعراء الفرس ، وكانت أكثر القصص الدينى نظماً فى الأدب الفارسى ، سواء فى صورة قصص كاملة أو حتى فى حكايات وردت فى منظومات أخرى ، كما حدث ورود إشارات إليها فى العديد من دواوين كبار الشعراء فى إيران ، ولعل ولع الأدباء الإيرانيين بنظم القصص وبخاصة العاطفية منها ، هو الذى دفع هؤلاء الشعراء وغيرهم للإدلاء بدلوهم فى نظم هذه القصة القرآنية . مضيفاً إليها كل ناظم أو قاص من عنده بعض الأحداث والشخصيات التى تثرى عمله الأدبى ، ودون المساس بقديسية ما ورد فى القرآن الكريم ، ودون الإساءة إلى سيدنا يوسف عليه السلام واتهامه بالخضوع إلى الغواية والهوى ، بل كان فى كل القصص مثلاً للطهر والعفاف والحفاظ على كرامة البيت الذى أوآه ورباه ، إنه الرسول المعصوم بفضل الله ، وبركاته ، فكيف يخطئ أو ينحرف مهما كانت الغوايات ، ومهما تعددت محاولات الإثارة ، وتنوعت أساليبها ومركبها !!

* * *

قصة المعراج

حفلت الآداب الإسلامية العربية والفارسية والتركية والأردية بالعديد من القصص الموحاة من معراج الرسول الكريم محمد عليه السلام. لعل أشهر هذه القصص في الأدب العربي رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، أما إذا انتقلنا إلى الأدب الفارسي ، فسنجد أن كثيراً من الأدباء قد تناولوا الإسراء والمعراج بالحديث والشرح والإشادة في كثير من كتاباتهم وأشعارهم ، ومع هذا فإن أهم عمل أدبي استوحاه صاحبه من معراج الرسول الكريم عليه السلام ، يتمثل في منظومة فريد الدين العطار «منطق الطير» .

ولكن قبل أن نفصل الحديث عن هذه المنظومة بعض الشيء ، يجمل بنا أن نشير إلى ما أورده عبد الرحمن الجامي عن حادثة الإسراء والمعراج في مقدمة منظومته «يوسف وزليخا» إذ تناول هذا الأمر بطريقة مباشرة ، وما حدث في تلك الليلة ، حيث ذكر أن محمداً عليه السلام كان يبيت في هذه الليلة المباركة الشبيهة في مكانتها بليلة القدر في بيت أم هانئ كرم الله وجهها .

وكانت كل الخلائق تعيش في وئام وسلام في هذه الليلة ببركة ذلك الحدث الكبير الذي سيحدث فيها ، ويكون ذا أثر كبير في سيرة الدعوة الإسلامية ، بل إن الحيوانات قد أعلنت الوئام والسلام فيما بينها ، ولم يعد الذئب يطارد الحمل ، كما استراحت لها إلى جوار الأسد دون خوف على حياتها .

في هذه الليلة افترش الرسول الكريم الأرض واتخذها مهداً لروحه الرقيقة نامت عيناه ولكن قلبه كان يقظاً ؛ وفجأة دخل عليه جبريل عليه السلام موفداً من الحق سبحانه وتعالى ، ثم أخذ جبريل يوقظ محمداً المصطفى بكل رقة وحنان ، مبلغاً إياه لماذا جاءه في هذه الساعة ، حيث قال ما ترجمته :

- ربت بجناحيه عليه قائلًا : انهض أيها السيد ، فإن نومك الليلة قد هيا لك السعادة .

- هيا احملى إلى الخارج متاع وجودك ، فأنت سعادة الدنيا الدائمة أبداً .
 - ما مقصدى إلا حملك إلى حيث العرش ، لذا أحضرت من أجلك البراق السريع .
 - إنه ينساب على الأرض كالجواد السريع ، ويسبح فى الفضاء كطائر الهمما السعيد .

٥ - ما امتلكت يد إنسان عنائه ، وما لامست قدم بشر ركابه .
 - وسلك ذلك البراق السريع الطريق من مكة إلى الأقصى .
 - وفى نصف لحظة أو أقل ، دق بحافره حلقة باب المسجد الأقصى .
 - وهناك صار النبى عليه السلام إماماً للأنبياء فى ذلك المسجد ، كما أصبح قدوة للسابقين.(١)

وبعد أن أم الرسول عليه السلام جميع الأنبياء فى المسجد الأقصى ، بدأ رحلة المعراج حيث صعد به البراق إلى السموات ، وكان القمر يحيط به وكأنه الهالة حوله ،

(١) نقلا عن ترجمة الدكتور عبد العزيز بقوش بمجلة أخبار الأدب العدد ٢٩ وما بعده والأبيات الفارسية هى :
 (يوسف وزليخا لجامى ، طبعة ١٣٤٧ هـ ق . ص : ٩ ، ١٠) .

براو ماليد بر : كاي خواجه بر خيز	كه امشب خوابت آمد دولت انگيز
برون بر يكرمان زين خوابگه رخت	تو بخت عالى بيدار به بخت
بسيج راه عرشت كردم اينك	براق ســـــير بر آوردم اينك
جهنده پرزمين خوش باد پائي	پرنده برهوا فرخ جاني
٥ - نه دست كس عنان او بسوده	نه از پائي ركابش گشه سوده
زد از سم براق آن برق رفتار	ز مكه كه بر أقصى درم دار
زدش درنيم لحظه بلكه كمتر	ز دور كاسهء سم حلقه برور
در آن مسجد امام انبيا شد	صف پيشينان را پيشوا شد

لذا فإن الرسول الكريم قد خط بيده الكريمة على جبين القمر ، وصار هذا الخط وسما للعبودية ، لذا فاز القمر من تلك اللحظة باسم «التمام» وبعد ذلك واصل الرسول عليه السلام صعوده حيث مر بكل من عطارد والزهرة وغيرهما من الأبراج السماوية كالمريخ والمشتري وزحل إلى أن وصل إلى السماء الثامنة ، فاستراح قليلاً حيث أقبلت بنات النعش والثريا مادحة إياه بنظمها ونثرها .

وبعد ذلك واصل المسير إلى سدرة المنتهى ، وهنا وهن جناح جبريل عن الطيران ، وفي ذات اللحظة وثب إسرافيل من مكمنه وجعل الرفرف هودجاً ، وكم تشرف الرفرف بوجود محمد عليه السلام ، ثم سرعان ما استقبله العرش ، حيث حملوه يدأ بيد كالوردة من إيوان الدنيا الوضع إلى ذلك البلاط المقدس ، حيث وجد مكاناً خالياً في هذا المكان ، غير مسموح لجسد أو روح بالوجود هناك .. وهنا بقى مع الواحد محرراً من قيد العدد بعيداً عن الكثرة ، مبرأ من القلة ، وهنا يتوقف الجامى عن مواصلة الحديث معلناً عجزه عن وصف ما حدث بعد ذلك ، ومما قاله فى ذلك ، ما ترجمته :

- رأى ما هو خارج نطاق الرؤية ، ولكن لا تسلى كيف كان ذلك .
- حيث إن المجال هناك لا يتسع للكم أو الكيف ، فأمسك لسانك عن القلة والكثرة .
- لقد سمع فى ذلك الوقت كلاماً بغير صوت ، كلاماً كله أسرار فى أسرار ، ومعانٍ فى معانٍ .
- لا علم به للفم أو اللسان ، لا يصاحبه نطق أو بيان .
- ه - تعجز أذان الروح عن إدراكه ، ويقصر القلب عن فطنته .
- لذا ينبغى كف اللسان عن الخوض فى هذا الحديث فإنه أسمى من القول والسماع .

- فلا تتجاوز حدك يا جامی ، وانج بنفسك من هذا البحر المهلك للروح .

- ولا تنبس ببنت شفة فی هذا المشهد ، واختم الكلام ، والله أعلم ^(۱)!

* * *

هكذا كان الشاعر الكبير عبد الرحمن الجامی مباشراً فی حديثه عن حادثة الإسراء والمعراج حيث جاء نظمه متسقاً مع ما ذكرته كتب السيرة المحمدية ، أما فريد الدين العطار ، فقد استلهم حادثة المعراج ونظم قصة رمزية تعبر عن عروج الخلق إلى الله عز وجل ، وترفعهم عن دنيا هذه الحياة الأرضية وتطلعهم إلى الارتقاء إلى السموات العلا ، أملاً فی الخطوة بالقبول لدى الخالق الباری ، ولكن بعد أن تتطهر الأبدان والأرواح من كل العلائق الدنيوية والآثام والخطايا ، كل هذا فی أسلوب قصصي رفيع وعرض أدبی شيق فی كتابه الشهير منطق الطير والذي يعد أفضل كتاب فارسی فی هذا المضمار !

(۱) لمعرفة المزيد عما نظمه الجامی فی هذا المضمار يرجى الرجوع إلى الترجمة العربية لمنظومة يوسف وزليخا المنشورة بمجلة أخبار الأدب العدد ٢٩ وما بعده ، أما نص الأبيات نقلاً عن نسخة ١٣٤٧ هـ . ق ، ص ١١ ، فهو :

بدید آغ از حد دیدن برون بود	مپرس از ماز کیفیت که چون بود
ز چندی گنجید آنجا و نه چونی	فرو بند از یکی لب و ز فزونی
شنید آنکه کلامی نه بآواز	معانی در معانی راز در راز
نه آگاهی از آن کام و زبان را	نه همراهی بآن نطق و بیان را
ه - نه درکش گوش جان را بادور مشت	ز حرفش دست دل را گونه انگشت
ز گفتن بر تراست و از شنیدن	زبان زین گفتگو باید بریدن
منه جامی ز حد خود برون پای	وزین دریای جان فرسا برون آی
درین مشهد ز گویائی مزین دم	سخن را ختم کن ، والله أعلم

منظومة منطق الطير لفريد الدين العطار^(١)

تعد منظومة منطق الطير أعظم وأشهر منظومات الشاعر فريد الدين العطار ، ولا يمكن أن يذكر اسم العطار إلا وتذكر منظومته منطق الطير معه ، حتى أصبح فريد الدين العطار علماً على منطق الطير ، وأصبح منطق الطير علماً على فريد الدين العطار .

وقد أخذ فريد الدين العطار عنوان منظومته من القرآن الكريم ، حيث قال الله تعالى في سورة النمل : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ »^(٢)

وهكذا عنون العطار منظومته بعنوان قرأني ، كما أنه جعل أبطال منظومته جميعاً من الطير ؛ حيث أنطق الطيور وتحدث كل منها بلسانه ، وهذا أمر مستمد كذلك من القرآن الكريم ، وقد أفاد العطار في هذا المضمار من قصة سيدنا سليمان عليه السلام وحديثه مع الطير ، وفهمه للغة الحيوان عندما أدرك ما قالته النملة محذرة جماعة النمل من أن تطأهم بالأقدام جيوش سليمان من إنس وحيوان وجن ، حيث قال الله تعالى : «حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِمَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »^(٣) فَبَسَمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ^(٤) .

كما أنطق الله سبحانه وتعالى الهدد ، حيث قال موجهاً حديثه إلى سليمان عليه السلام : «فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بئياً يقين»^(٥) .

(١) لمعرفة المزيد عن منظومة منطق الطير يرجى الرجوع إلى الترجمة العربية التي قام بها الدكتور بديع محمد جمعة في إحدى طبعاتها الخمس بالقاهرة وبيروت ، أو للأصل الفارسي للمنظومة ، نسخة باريس ١٨٥٧ م ، أو أصفهان ١٣١٩ هـ ، ١٣٢٤ هـ ، أو نسخة طهران : ١٣٤٧ ش .

(٢) سورة النمل ، آية : ١٦ .

(٣) سورة النمل ، آية : ١٨ ، ١٩ .

(٤) سورة النمل ، آية : ٤١ .

إلى غير هذه الآيات التي أنطقت الطير ، بإذن الله ، وبذلك وجد العطار فى القرآن الكريم مادة صالحة لمنظومته منطق الطير .

وإذا كان العطار قد أنطق الطير بدلاً من الإنسان ، وجعلها تسعى جاهدة فى مسيرتها نحو الله سبحانه وتعالى وتقربها منه ، فهذا ليس بغريب ، فإن جميع مخلوقات الله تسبح بحمده ، وكل صنف له تسبيحه ، حيث قال تعالى :

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٌ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ» (١) .

ومن الجدير بالذكر أن فريد الدين العطار قد أنهى نظم هذه القصة المعراجية عام ٥٨٣ هـ ، على أرجح الأقوال ، وقد بلغ عدد أبياتها ٤٦٤٧ بيتاً ، وقدم للمنظومة بمقدمة تقليدية شملت الحمد والثناء لله عز وجل ونعت الرسول الكريم ومدح الخلفاء الراشدين ، وقد سبق إيراد بعض الشواهد من هذه المقدمة خلال الفصل الثانى الخاص بالحمد والنعت ومدح الخلفاء .

كما يجب الاعتراف بأن فريد الدين العطار قد نظم قصته هذه متأثراً فى ذلك إلى جانب القصص القرآنى ، برسالة صغيرة لأبى حامد الغزالى عنوانها رسالة الطير (٢) وهى مؤلفة باللغة العربية ، وفيها تحدث الغزالى عن رحلة معراجية للطيور وصولاً إلى الحقيقة ، فأخذ العطار هذه الرسالة الصغيرة والتى لا تزيد عن ست أو سبع صفحات ونظمها فى رحلة طويلة بلغ عدد أبياتها ما يزيد عن الأربعة آلاف وخمسمائة بيت كما سبق القول (٣) .

(١) سورة النور ، آية : ٤١ .

(٢) الجواهر الغوالى من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالى ، القاهرة ١٩٣٤ م ص ١٤٣ - ١٥١ .

(٣) لمزيد من المعلومات يرجى الرجوع إلى منطق الطير ، الترجمة العربية .

ولكن كيف عالج العطار رحلته المعراجية ؟

اجتمعت طيور العالم جميعاً ، ما كان منها معروفاً وما هو غير معروف ، وقالوا جميعاً فى هذا العصر وذاك الأوان لا تخلو مدينة قط من ملك أو سلطان ، فكيف يخلو عالمنا من ملك؟ ربما لو يساعد بعضنا البعض ؛ لتمكنا من السعى فى طلب هذا الملك، لأنه إذا خلا إقليم من الملك ، فما بقى فيه نظام أو استتباب لدى الجند !

سارعت جميع الطيور إلى الاجتماع بحثاً عن ملك أو سلطان ينظم الأمور ، وأقبل الهدهد مضطرباً لكثرة الانتظار ، أقبل بين الجميع لا يقر له قرار ، وقال : أيتها الطير ؛ إننى بلا أدنى ريب رسول الغيب ، جئت وقد فطرت على أن أكون صاحب أسرار ، جئت ولا صلة لى بأى إنسان ، إذ عندما أكون مشغولاً بالملك ، فإنه لا يمكن أن يصيبنى من الجند أى ألم ، إننى تحدثت مع سليمان كثيراً ، فلا جرم أن أكون مقدماً على الجميع ، لقد حملت رسالته ورجعت إليه ثانية ، كما أطلعنى على أسرار الخفية ... لقد سافرت كثيراً مع سليمان ، كما جبت عرصات العالم ، وأظن أننى عرفت ملكنا ، ولكننى لا أستطيع السير إليه وحدى ، فإذا صحبتمنى فى سفرتى ، أصبحتم أصفياء ذلك الملك ، فهيا اطحوا عنكم معرة الغرور والهوى وتخلصوا كذلك من آلام كفركم وهمومه .. إن لنا مليكاً بلا ريب هو منا قريب ونحن منه جد بعيدين ، وليس لفرد فى كلا العالمين مقدرة حتى يحيط بشئ من كنهه ، إنه الملك المطلق ، .. ولكن كيف يطير الفهم إلى حيث يوجد؟ وكيف يصل العلم والعقل إلى حيث يوجد؟ لا طريق إليه ، حتى ولو كثر المشتاقون من الخلق إليه ، وإذا كان وصفه بعيداً عن قدرة الروح الطاهرة نفسها ، فليس للعقل قوة على إدراكه ، وإذا كانت الروح تحار فى إدراك صفاته ، فأنى للعقل أن يدرك ذاته ؟ ولسلك الطريق إليه تلزم الشجاعة والتضحية بالروح ، فليكن كل منكم شبيهاً بالرجال كى ينثر روحه الغالية تقرباً إلى الله عز وجل !

وعندما عرفت الطير عزة هذا السلطان ، لم يعد يقر لها قرار فى هذا المكان ، وبدأ الشوق يؤتى ثماره فى أرواحهم ، وعزموا على المسير ، ولكن سرعان مادب الضعف (الإنسانى) فى كل واحد ، وحاول الكثيرون منهم تقديم مختلف الأعذار خوفاً من عدم القدرة على مواصلة الرحلة المعراجية نحو الملك الأكبر .

وقد تحدث العطار عن العديد من الأعذار الواهية التى يسوقها المتقاعسون عن المسير ، وهذه الأعذار هى التى يرددها عادة أولئك الذين لا يخلصون العبادة لله عز وجل ، وتكون أعذارهم مجرد حجج واهية يحاولون بها تبرير تقصيرهم وبعدهم عن طريق الإيمان الخالص لله تعالى ، فمنهم من يعتذر - كالبلبل - بأنه لا يستطيع مفارقة الوردة الحبيبة إلى نفسه ، شأنه فى ذلك شأن المقيم بمعشوقة آدمية تشغله عن الإيمان الخالص وعن أداء العبادات أداء صحيحاً ، ومنهم من يعتذر بسبب قربه - كالطاووس - من الملك ، فلا يستطيع أن يغادر قصر السلطان بعد أن تعود على هداياه وعطاياه ، وهذا شبيه بمن يتقرب من ملوك الأرض مهما كانوا على غير صلاح ، ناسياً أن الملك الأعظم هو الله عز وجل ، وهو الأولى بأن يتقرب العبد إليه إيماناً وتسليماً واعترافاً بجميل أفضاله التى لا تعد ولا تحصى .

إلى غير ذلك من الأعذار التى ساقها العطار على ألسنة الطير ، وكان العطار فى كل مرة يفند زيف هذه الأعذار وضلال أصحابها وضعف إيمانهم ، وذلك عن طريق الهدهد الذى كان يمثل حادى الطريق ، والذى كان يبصر كل معتذر بخطأ مسلكه وضعف حجته ، وقد عبر العطار عن هذه الأعذار ورفضها بما ترجمته :

بعد ذلك توالى الطيور ، واحداً واحداً ، لتقدم أعذار واهية ، وقد قدم كل طائر عذراً يقطر جهلاً ، وما قال أحدهم عذراً لائقاً ، بل قال الكل هراءً وهزلاً ، لذا لن أسرد عليك أعذارهم عذراً عذراً .. ومن كان عذره واهياً ، أنى له الوصول إلى هذا الملك ؟ أما من يفضل الملك على روحه ، فإنه يخاطر بالروح كالرجال من أجله !

بعد أن سمعت الطيور كلام الهدهد وتفنيده لأعدائهم الواهية ، تولدت لديهم الرغبة فى المسير إلى الملك الأعظم فقد عادوا جميعاً متحابين ، وبدأ بينهم الوفاق ، ولكي يواصلوا الرحلة لابد لهم من معرفة رسومها ، فطلبوا من الهدهد أن يعتلى المنبر كي يجيب على استفساراتهم وأسئلتهم ، حتى يكون مسيرهم عن بصيرة واقتناع !

وما أن اعتلى الهدهد المنبر ، حتى توالى أسئلة الطير ، جلباً لمزيد من المعرفة ودرءاً للعديد من الشبهات ، وحتى يكون المسير على بينة وعزم أكيد .

ومن بين ما سألوا الهدهد عنه ، هل المسير إلى الملك مرتبط بالقوة البدنية ، فقال بل مرتبط بقوة العزيمة وبذل الروح مهما كانت الأجساد والأبدان هزيلة نحيلة ، كما سأل آخر بأنه ارتكب العديد من الآثام ، فكيف يستطيع السير بهذه الآثام والخطايا ، فأخبره بأن الله عز وجل قابل التوب ، رافع الآثام ما دامت التوبة صادرة عن قلب صادق ونية أكيدة .

وبعد أن توالى الأسئلة وتوالى إجابات الهدهد عليها ، بدأت الرحلة وطارت جميع الطيور صغيرها وكبيرها وكلها أمل فى الوصول إلى الغاية المنشودة ، ولكن بعد فترة من المسير ، بدأ ضعف الإيمان يتساقطون طائراً طائراً ، وتقل الأعداد تدريجياً ، وبعد أن كانت أعداد الطيور تصل إلى مئات الألوف لم يصل إلى نهاية الرحلة إلا ثلاثون طائراً فقط هم الذين أخلصوا النيات وأكدوا العزم وتحملوا الآلام مضحين بأرواحهم ونفوسهم ، وتخلوا عن كل ملذات الدنيا ، أملاً فى الظفر برضاء الله عز وجل والوصول إلى حيث يوجد الملك الأعظم .

وما أن وصلوا حتى طلبوا المثول أما الملك الأعظم ، ولكن قيل لهم هيهات ، هيهات أن يتم لكم المثول فى حضرته ! ، فقالوا لقد جننا ليكون مليكاً علينا ، فقال لهم حاجب الحضرة: أيها العجزة ، إن تكونوا أو لاتكونوا فهو السلطان المطلق الدائم ، ومائة ألف عالم مليئة بالجند والحشم ، ليست إلا نملة على باب هذا السلطان الأعظم .

وأخيراً قدم حاجب الحضرة وثيقة للثلاثين طائراً ، وما أن رأت الطيور هذه الوثيقة حتى تملكهم الفزع ، إذ أن الوثيقة قد سجل فيها كل ما فعلوه ، وحين أمعنوا النظر وجدوا فيها كل ما ارتكبوه من أخطاء ، ولكن رحمة الله واسعة ، فقد شملهم بعطفه ومحا كل ذنوبهم ، وعفا عن كل ما ارتكبوه من المعاصي والآثام ، وتغمدهم بواسع رحمته وعظيم عطفه ، وتقبلهم في فسيح جناته .

* * *

إلى هنا تنتهى هذه القصة المعراجية ، والتي نظمها العطار بتأثير من ثقافته الدينية ، فاختره اسم المنظومة مأخوذ من سورة النمل ، وكذلك تحريكه للطير ومنها القدرة على الكلام مستمدة من قصة سليمان عليه السلام مع الطير ، كما أن إدراك الطير بالفطرة بأن لهم مليكاً لا بد من السير إليه لكى تستقيم الحياة ، وأنه لا حياة لأى جماعة دون ملك ينظم شئونهم ، هى نفس الفطرة التى حركت وهدت سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله وحده بعد أن رفض عبادة القمر أو الشمس وأدرك أن الحياة لا يمكن أن تستقيم إلا بوجود هذا الإله المدبر لأمر الكون كله ، وقد قال الله عز وجل فى محكم تنزيله وذلك على لسان إبراهيم عليه السلام : «إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً»^(١) وقال تعالى : « وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون»^(٢) وقال تعالى : «فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله»^(٣) وهكذا أراد العطار أن يدعو الناس إلى أن يعودوا إلى فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، وهنا سيكون الإيمان والصلاح، والتقوى، لأن الفطرة السليمة متجهة صوب بارئها على الدوام .

(١) سورة الأنعام ، آية : ٧٩ .

(٢) سورة يس ، آية : ٢٢ .

(٣) سورة الروم ، آية : ٣٠ .

واختيار العطار للهدهد ليكون هادى الطريق بالنسبة لجماعة الطير ، وقد أطلق على نفسه تعبير (رسول الغيب) ، مستمد من القرآن أيضاً ؛ حيث حظى الهدهد بالذكر فى القرآن ويحمل رسالة سليمان إلى ملكة سبأ ، لذا فهو مقدم على جميع الطيور ، ويمكن أن يكون رمزاً لكل رسول أرسل لهداية الناس ، ويجب على الخلق السير على هدى رسالته .

وحديث العطار عن الصلة بين الخالق والمخلوق وقوله على لسان الهدهد : إن لنا مليكاً لا ريب هو منا قريب ونحن منه جد بعيدين ، يتفق والآية الكريمة : «لقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» .^(١)

وعندما سأل طائر الهدهد بأنه أسرف على نفسه بكثرة الذنوب والمعاصي ، فهل سيقبل الله توبته ، أجاب الهدهد بالإيجاب وأن رحمة الله واسعة ، وأن الله يتقبل توبة التائبين ما داموا مخلصين فى توبتهم مهما كان حجم أخطائهم ومعاصيهم وهذا مصداق لقوله تعالى : «قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله» .^(٢)

وعندما وصلت الطير إلى الحضرة طلبوا المثل أمام الحق ، ولكن قيل لهم هيهات ! هيهات! هذه تذكرنا بمطلب موسى عليه السلام عندما طلب أن يرى الله فكان الرد عليه ماثلاً فى هذه الآية الكريمة : «قال ربى أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى»^(٣)

هذه بعض الإشارات السريعة التى تضمنتها رحلة العطار المعراجية من خلال منظومته منطق الطير ، والتى صاغها قصة غاية فى الدقة ، فحازت اهتماماً كبيراً بين جميع المهتمين بالأدب الفارسى بخاصة ، والمهتمين بالفكر الإسلامى بعامة ، لذا أقدم الكثيرون على ترجمتها إلى العديد من اللغات الإسلامية والعربية بل إلى معظم لغات العالم شرقه وغربه^(٤)

(١) سورة ق ، آية : ١٦ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٥٣ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٤٣ .

(٤) لمزيد من المعلومات ، يرجى الرجوع إلى الترجمة العربية لمنطق الطير ، إعداد : بديع جمعة .

الفصل الخامس

الأدب الأخلاقي

الأدب الأخلاقي

١ - الأخلاق في كتب النثر الفارسي :

تعتبر الأخلاق الفاضلة أسمى أهداف الدين الإسلامي الحنيف ، ومن هنا بعث الله رسوله الكريم (ﷺ) ليعلم الناس الأخلاق الفاضلة ويهديهم سواء السبيل ، ووصفه جل وعلا بقوله : «وإنك لعلی خلق عظیم» (١) ، فكان خلقه القرآن. وتعتبر القضايا الأخلاقية التي تناولها قدماء المفكرين في مؤلفاتهم قبل ظهور الإسلام جزءاً يسيراً بجانب ما قدمه القرآن الكريم والسنة النبوية ، وقد قال الرسول الكريم عن نفسه : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ، وقال أيضاً : «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق» (٢). وقد فجر الإسلام وتعاليمه السامية ينابيع الفكر والحضارة في كل الشعوب التي دخلت فيه ، فبرز كثير من المفكرين يؤلفون الكتب وينظمون الشعر في موضوع الأخلاق المستمدة من تعاليم الإسلام ، ومن هؤلاء الفرس الذين انقسمت مؤلفاتهم في هذا الصدد إلى قسمين :

أ - مؤلفات تتناول الأخلاق في ثناياها .

ب - مؤلفات تختص بالحديث عن الأخلاق .

ومن النوع الأول كتاب «قابوسنامه» (مؤلف سنة ٤٦٢هـ) وهو كتاب في النصيحة

(١) سورة القلم ، آية ٤ .

(٢) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين - أبو زكريا يحيى بن شرف النووي - مكتبة التراث الإسلامية - سوريا - حلب . ص ٢٧٣ .

ألفه الأمير عنصر المعالي كيكافوس بن إسكندر بن وشمغر بن زيار ، ويشتمل على أربعة وأربعين باباً يعالج المؤلف فى كل منها موضوعاً خاصاً ، وتتضمن بعض أبوابه نصائح ذات طابع دينى يوجهها المؤلف لابنه كيلا نشاه ، ومن ذلك الباب الخامس فى معرفة حق الوالدين ، والباب الثانى والعشرون عن الأمانة والباب الرابع والأربعون عن المروءة ، ومن خلال أبواب الكتاب نجد مجموعة كبيرة من الأخبار والحكم والحكايات التمثيلية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشعر التى استعان بها المؤلف على تقوية عبارته وتوضيح فكرته .

نماذج من كتاب "قابوسنامه"

النموذج الأول : فى خلق الأنبياء ورسالتهم^(١)

«اعلم يا بنى أن الله تعالى ما خلق هذه الدنيا من أجل حاجته ولا خلقها عبثاً، بل فطرها على موجب العدل ، وزينها على اقتضاء الحكمة ، لأنه علم أن الوجود خير من العدم ، والكون خير من الفساد والزيادة خير من النقصان ، والحسن خير من القبح ، وكان على كليهما قادراً وبهما عالماً ، ولم يعمل ما لا يليق أن يكون ، أو كان على خلاف علمه ، وعمل فى ميقات ، وكان ما عمله على موجب العدل ، ولم يكن من الجائز أن يكون على موجب الجهل ، فجاء وضعه على مقتضى الحكمة ، حيث صورته على أبدع ما كان . كذلك كان قادراً على أن يعطى الضوء بغير الشمس والمطر بغير السحاب ، ويركب الأشياء بغير الطبائع ويوجد التأثير بالخير والشر فى العالم بغير النجوم ، ولكنه لما كان الأمر على أساس الحكمة ، لم يوجد شيئاً بغير الواسطة وصير الواسطة سبب الكون والفساد ، لأنه إذا زالت الواسطة زال شرف الترتيب ومنزلته وإذا لم يكن الترتيب لم يكن النظام ولا بد للفعل من نظام ولا بد أيضاً من واسطة ، فأوجد الواسطة كذلك ليكون ثمة قاهر ومقهور ، ورازق ومرزوق ، وهذه الإثنية شاهد على وحدانية الله تعالى ، ولما كنت ترى الواسطة ولا ترى الغرض ، فأياك أن تنظر إلى الواسطة أو ترى القليل أو الكثير من الواسطة بل من رب الواسطة ، فإذا لم تثبت الأرض ، فلا تضع الغرم على الأرض ، وإذا لم ينصف النجم فلا تضع الغرم على النجم ، فإن النجم يعرف عن الإنصاف والجور بقدر ما تعرف الأرض عن الإنصاف ، وكما أن الأرض ليس لها القدرة على أن تبذر فيها البذر الطيب فتنبث الخبيث ، فإن

(١) ترجمة كتاب قابوسنامه - الباب الثانى ص ٥٢ - تعريب محمد صادق نشأت والدكتور أمين عبد المجيد بدوى - القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨ م .

لنجم هذا الحكم عينه ولا يستطيع عمل الخير والشر ، ولما كانت الدنيا قد زينت بالحكمة كان لا بد للمزينة من التزيين. فانظر في هذه الدنيا لترى زينتها من النبات والحيوان والمأكولات والملبوسات وأنواع الطيبات ، إذ كل هذه زينة قد أوجدت بموجب الحكمة. كما يقول في كتابه (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهم إلا بالحق)، فإذا عرفت أن الله لم يخلق نعمة في هذه الدنيا عبثاً ، فمن العبث أن لا يؤدي حق النعمة والرزق ، وحق الرزق أن تعطيه للمرزوق ، ولما كان العدل كذلك ، فقد خلق الناس ليأكلوا ، ولما أوجد الناس ، كان تمام النعمة ، وكان لابد للناس من سياسة وترتيب ، والسياسة والترتيب بغير إرشاد طريقان مبتسران ، لأن كل مرزوق يأكل من رزقه بغير ترتيب وعدل ، لا يعرف شكر الرازق ، ويكون هذا عيب الرازق إذا أعطى الرزق للجاهلين الجاحدين ولما كان الرازق منزهاً عن العيب ، لم يترك المرزوق جاهلاً ، كما ذكر في كتابه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فأرسل الأنبياء بين الناس فعلموهم أسلوب المعرفة وطريق الارتزاق ، وأداء شكر الرزق ، لكي يكون خلق الدنيا بالعدل ، وتمام العدل بالحكمة ، وتمام الحكمة بالنعمة وتمام النعمة بالمرزوقين ، وتمام المرزوقين بالأنبياء الهادين ، إذ لا يجوز نقصان شيء من هذا الترتيب ، ليكون إرشاداً حقاً ، فإذا نظرت من ناحية العقل فإن كثيراً من الحرم والفضائل التي للمرزوق بسبب النعمة والرزق تستوجب أن يعرف حق هاديه ، وبشر رازقه ، ويعترف بحق رسله ويتبعهم ، ويعتقد صدق الأنبياء جميعاً ، من آدم إلى نبينا (ﷺ) ، وأن يكون مطيعاً في الدين ولا يقصر في شكر المنعم ويراعى حق فرائض الدين ليكون حميد الذكر ومحموداً» (١).

(١)

در آفرینش پیغمبران ورسالت ایشان

بدان ای پسر که ایزد تعالی این جهانرا نه از بهر نیاز خویش آفرید و نه بر خیره آفرید بلکه بر موجب عدل آفرید و بیار است بر موجب حکمت چون دانست که هستی به از نیستی و کون به از فساد و زیادت به از نقصان و نیکو به از زشت و بر هر دو نوع توانا و دانا بود و آنچه نشاید بود نکرد و بر خلاف دانش خود نکرد و بهنگام کرد و آنچه کرد بر موجب عدل بود بر موجب جهل نشاید که بود پس نهادهش بر موجب حکمت امد تا چنانکه زیبا تر بود بنکاشت چنانکه توانا بود که بی اقتاب روشنائی و بی ابر باران دادی و بی طبایع ترکیب کردی و بی ستاره تاثیر نیک وید در عالم پدید آوردی ، اما اکنون کار بر موجب حکمت بود بی واسطه هیچ =

النموذج الثاني : في معرفة حق الوالدين (١) .

«اعلم يا بني أن الخالق حين أراد عمارة الدنيا ، أوجد أسباب النسل ، وصير شهوة الوالدين البهيمية سبب وجود الأبناء ، فأداء حقهما واجب على الأبناء بموجب الوجود . إياك أن تقول أي حق للوالدين علي؟ لقد كان غرضهما الشهوة ، ولم أكن أنا المقصود . فإن لهما فضلاً عن الشهوة شفقة بالغة ، وقد احتملوا كثيراً ، وأقل حق الأبوين أنهما الواسطة بينك وبين خالقك ، فينبغي بقدر احترامك لخالقك أن تحترم الواسطة احتراماً يليق بهما ، والوليد ما دام صغيراً لا يحرم من حق الإرشاد وحب

= پیدانکرد واسطه را سبب کون فساد گردانید زیرا چون واسطه نیز لابد پس واسطه نیز پدید کرد تا یکی قاهر بود و یکی مقهور و یکی روزی خوار و یکی روزی ده ، این دوئی بر یکی بودن ایزد تعالی گواه است . پس چون تو واسطه بینی و غرض نه بینی نگر تا بواسطه ننگری و کم و بیش از واسطه نه بینی از خداوند واسطه بینی و اگر زمین از بر دادن چون زمین را نتواند نمودن چون جهان بحکمت آراسته شد آراسته را از دیت دادن لابد بود ، پس نگر درین جهان تا دیت بینی از نبات و حیوان و خورشها و پوششها و انواع خوبی که این همه زینت است از موجب حکمت پدید کرده چنانکه در کتاب خود میفرماید ، ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبین ما خلقناهما إلا بالحق . چون دانستی که ایزد در جهان هیچ نعمتی به بیهوده نیافرید بیهوده آن باشد که داد نعمت و روزی ناه داده ماند و داد روزی آنست که بروزی خوار دهی چون داد چنین بود مردم آفرید تا بخورند چون مردم پدید کرد تمامی نعمت بمردم بود و مردم را لایست از سیاست و ترتیب زی رهنمائی خام بود که هر روزی خواری که روزی بی ترتیب و عدل خوردی بی رهنمائی خام بود که هر روزی خواری که روزی بی ترتیب و عدل خورد یاد کرده است : وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون . و در میان مردم پیغمبران فرستاد تا راه دانش و ترتیب روزی خوردن و شکر روزی گذاردن بمردم آموختند تا آفرینش جهان بعدل باشد و تمامی عدل بحکمت و تمامی حکمت بنعمت و تمامی نعمت بروزی خواره و تمامی روزی خواره به پیغامبران راهنمای که ازین ترتیب هیچ کم نشاید تا بحقیقت راهنمائی باشد پس چون از سر خرد نگری چندان حرمت و فضیلت که روزی خواره را بنعمت و روزیست واجب کند که حق راهنمائی خوش بشناسد و از روزی ده خویش منت دارد و فرستادگان او را حق شناس باشد و دست بدیشان زند و همه پیغامبران را براست گونی داند از آدم تا پیغامبر ما محمد صلعم و فرمانبر دار باشد در دین و شکر منع تقصیر نکند و حق فرایض دین نگاه دارد تا نیکتام و ستوده باشد .

(قابوسنامه - امیر عنصر المعالی کیکاووس بن اسکندر بن قابوس بن وشمگیر زیاری - زیر نظر علی حصوری - مهرماه ۱۳۴۳ ص ۱۱) .

(۱) ترجمة كتاب قابوسنامه - الباب الخامس - ص ۶۰ .

الأبوين والله عز وجل يدعوهما بأولى الأمر. وكذلك قرأت في التفسير أن أولى الأمر - على قول - هم الآباء والأمهات ، إذ أن حقيقة الأمر في العربية اثنان ، الأمر والعمل كلاهما ، وأولوا الأمر يكون لهم الأمر والقدرة على السواء ، وللأبوين قدرة في تربيتك وأمر في تهذيبك .

أى بنى لا تستهن بإيلاهم قلب أبويك ، فإن الخالق عز اسمه يأخذ بحق الوالدين ويقال إنهم سألوا أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه عن حق الوالدين فقال : إنه هذا الأدب الذى جعله الله تعالى فى موت أبو النبى (ﷺ) ، فقالوا : ما هو؟ قال إنهما لو أدركا زمن النبى (ﷺ) ، لكان لزاماً عليه أن يقدمهما على نفسه ، وأن يتواضع لهما ويراعى آداب النبوة. ومن ثم كان يأتى هذا الكلام ضعيفاً حيث قال (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) فإذا لم تنظر إلى الأبوين من وجهة الدين فانظر إليهما من وجهة إنسانيتك ، إذ أن الأبوين سبب خيرك وأصل تربيتك ، وعندما تقصر فى حقهما فإنه يتضح كذلك أنك لست أهلاً لأى خير ، لأن من لا يعرف حق إحسان الأصل لا يعرف قدراً لإحسان الفرع أيضاً ، وكيف يكون من الخير الإحسان إلى غير الشاكرين؟ فلا تطلب أنت كذلك خير نفسك وكن مع والديك كما تطمع من أولادك ، لأن من يولد لك يطمع فى نفس ما تطمع فيه من أهلك ، إذ مثل آدمى كممثل الفاكهة والأبوين كالشجرة ، فكلما أثرت تعهد الشجرة أتت ثمرها أطيب ، وكلما زدت تكريم أبويك كان دعاؤهما وابتهالهما من أجلك سريع الإجابة ، وكنت أقرب إلى رضا الله عز وجل ، وإياك أن تتمنى موت الأبوين ، لأن الرزق مقسوم وكل إنسان يصل إليه ما يكون قد قسم له فى الأزل ، ولا تشق على نفسك كثيراً من أجل رزقك ، لأن الرزق لا يزيد بالسعى ، فقد قيل (الرزق بالجد لا بالكد) وإذا أردت أن تكون راضياً عن الله عز وجل من أجل الرزق فانظر فى الصباح إلى من يكون حاله أسوأ من حالك لترضى دائماً عن الله عز وجل ، وإذا كنت فقيراً فى المال فاجتهد فى أن تكون غنياً بالعقل لأن العقل خير من الغنى ، إذ يمكن تدبير المال بالعقل ، ولا يمكن تكوين العقل بالمال ، والجاهل يفلس سريعاً من المال ، ومال العاقل لا يستطيع اللص أن يسرقه ، ولا يستطيع الماء والنار أن يهلكاه ، فإذا ملكت

العقل ، فتعلم الفضل ، لأن العقل بغير الفضل كرجل بغير ثياب ، وشخص بغير صورة ، وجسم بغير روح ، وقد قيل (الأدب صورة العقل)^(۱) .

(۱)

باب پنجم

در شناختن حق مادر و پدر

بدان ای پسر که آفریدگار چون خواست که جهانرا آبادان دارد اسباب نسل پدید کرد و شهوت جانور پدر و مادر را سبب وجود فرزند گردانید پس بموجب وجود فرزند واجب است بجای آوردن حث ایشان و تا نگوئی پدر و مادر را بر من چه حق است ایشانرا غرض شهوت بود و مقصود نه من بودم که بیرون از شهوت ایشان را بسیار شفقت است و بسیار تحمل کرده اند حق کمتر مادر و پدر آنست که واسطه اندر میان تو و آفریدگار تو پس باید که همچنانکه آفریدگار خود را حرمت داری واسطه را در خورد آن حرمت دار و فرزند مادام که خورد باشد از حق راه نمودن و از مهر مادر و پدر خالی نباشد و خدای عز و جل اینها را اولو الامر میگوید و بیک قول در تفسیر چنین خوانده ام که اولو الامر مادران و پدران اند که حقیقت امر بتازی نواست هم فرمانست و هم کارست و اولو الامر آن بود که او را هم فرمان بود و هم توان و پدر و مادر را توانست به پروریدن تو و فرمان است به نیکی آموختن تو . ای پسر رنج دل مادر و پدر خوار مدار که آفریدگار عز اسمه بحق پدر و مادر بگیرد ، میگویند که از امیر المؤمنین علی رضی الله عنه از حق مادر و پدر پرسیدند گفت نوع فرمود که اگر ایشان روزگار پیغمبر صلعم در یافتندی بر پیغمبر صلعم واجب بودی ایشان را برتر از خود نشانندن و تواضع کردن و فرزندى بنمودن آنگاه این سخن ضعیف آمدی که گفت : انا سید ولد آدم ولا فخر . پس پدر و مادر را اگر روی دین ننگری از روی مردمی خود نگر که پدر و مادر سبب نیکی و اصل پرورش تواند چون در حق ایشان مقصر باشی چنان نماید که تو سزای هیچ نیکی کردن از خیرگی باشد تو نیز خیر خود مجوی و یا پدر و مادر خود چنان باش که از فرزندان خود طمع داری زیرا که آنکه از تو زاید همان طمع داری که تو از پدر داری که مثل آدمی چون مثل میوه است و مادر و پدر چون درخت هر چند درخت را تعهد بیشتر کنی میوه نیکوتر دهد چون مادر و پدر را آزریم بیشتر داری دعا و آفرین ایشان در حق تو زود مستجاب گردد و بخو شنودی خدای عز و جل نزدیکتر باشی و زینهار که از جهت میراث مرگ پدر نخواهی که بی مرگ مادر و پدر آنچه روزی تو بود بتو رسد که روزی مقسومست بهر کس آن رسد که در ازل قسمت شده است تو از بهر روزی خود رنج بر خود بسیار منهد که بکوشش روزی افزون نگردد که گفته اند : الرزق بالجد لا بالكد . و اگر خواهی که از بهر روزی از خدای عز و جل خوشنود باشی بامداد بکسی نگر که حال او از حال تو بتر باشد تا دایم از خدای عز و جل خوشنود باشی بامداد بکسی نگر که حال او از حال تو بتر باشد تا دایم از خدای عز و جل خوشنود باشی اگر بمال درویش باشی در آن کوش تا بخرد توانگر باشی که خرد از توانگری بهر باشد که بخرد مال توان ساخت و از مال خرد نتوان ساخت و جاهل از مال زود مغلس شود و مال خرمند دراز نتواند برد و آب و آتش هلاک نتواند کرد پس اگر خرد داری هنر آموز که خرد بی هنر چنان باشد که مردی بی جامه و شخصی بی صورت و کالبدی بوی بی جان و گفته اند الأدب صورة العقل .

(قابوسنامه ص ۱۹) .

هذه المعاني التي أوردها المؤلف في هذا الباب مأخوذة جميعها من تعاليم الإسلام الحنيف الذي يحض المسلم على بر الوالدين وطاعتهم والإحسان إليهما ، لا لكونهما سبب وجوده فحسب ، أو لكونهما قدما له من الجميل والمعروف ما وجب معه مكافأتهما بالمثل ، بل لأن الله عز وجل أوجب طاعتهما ، وكتب عن الولد برهما والإحسان إليهما حتى قرن ذلك بحقه الواجب له من عبادته وحده دون غيره فقال عز وجل «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا» (الإسراء ٢٣ ، ٢٤) .

وقال سبحانه وتعالى : «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير» (لقمان ١٤) .

وهناك من الأحاديث النبوية الشريفة الكثير الذي يحض فيه الرسول (ﷺ) على بر الوالدين ، ويعتبر عقوق الوالدين من أكبر الكبائر عندما قال : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال إلا الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور...»^(١)

والمعروف أن الدين الإسلامي يهdy إلى الأخلاق الفضلى والمثل العليا ، ومحور هذه الفضائل هو التقوى التي تشمل طاعة الله تعالى والرغبة في ثوابه ، وخشيته سبحانه والخوف من عقابه ، ولاشك أن من يتقى ربه يحبه ويطيعه ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ويكف عما ينزل به عقابه. ولن يكون التقى إلا كريما شجاعا عادلا أميناً عفيفاً صادقاً وفيّاً رحيماً غيوراً ، متحلياً بكل فضيله مبرأ من الجبن والبخل والفجور والغدر والكذب ومن كل رذيلة .

ولقد شغف النبي (ﷺ)، بمكارم الأخلاق ، وكان القرآن منهل أخلاقه ، وكان يقول في دعائه «اللهم كما حسنت خلقى ، اللهم جنبني منكرات الأخلاق ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهdy لأحسنها إلا أنت». وكان لا يفتأ يحض المسلمين على التحلى

(١) انظر كتاب "منهاج المسلم" لأبى بكر جابر الجزائري - المدينة المنورة ١٣٨٤ هـ ، ص ٩٩ .

بالفضائل ، وينفرهم من الرذائل ، وله فى هذا أحاديث كثيرة ، منها قوله : «إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطأون أكنافاً ، الذين يآلفون ويؤلفون». وقوله: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق». وسئل أى الأعمال أفضل؟ قال: خلق حسن. وقيل له : أى المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال : أحسنهم خلقاً^(١) .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «ما من شئ أثقل فى ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله ييغض الفاحش البذى»^(٢) .

وهكذا نرى أن الرسول (ﷺ) قد حث المسلمين على التحلى بالخلق الحسن ، وبين لهم ما ينتظر صاحب الخلق الحسن وما ينتظر صاحب الخلق السيئ فى الآخرة. - كتاب «گلستان» والأخلاق :

ومن الكتب التى تناولت الأخلاق فى ثناياها أيضاً كتاب «گلستان» أو الروضة ، الذى ألفه سعدى الشيرازى أحد النجوم اللامعة فى سماء الأدب الفارسى (متوفى ٦٩٤هـ) ، ويتناول الشاعر فى أبواب الكتاب الثمانية : سيرة الملوك وأخلاق الفقراء ، وفضل القناعة ، وفوائد السكوت ، والضعف والشيخوخة ، والتربية وأداب الصحبة ، وغير ذلك . والكتاب بصفة عامة عبارة عن مجموعة من الحكايات النثرية التى أضفى عليها مؤلفها مثلاً أخلاقية وحكماً عملية ، ومزجها بأبيات من الشعر الفارسى والعربى والحكم والأمثال والآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ومن نماذجه الباب الثالث فى فضل القناعة والذى يقول فيه :^(٣)

حكاية : كان سائل مغربى ينادى فى سوق البزازين بحلب : يا أرباب النعمة لو أنكم كنتم منصفين وكنا نحن قانعين لارتفع رسم السؤال من الدنيا .

(١) انظر كتاب «من أخلاق النبى» تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى - القاهرة ١٩٩٤م - ١٤١٤ هـ ، ص ٦٢ - ٣٥ .

(٢) رياض الصالحين ، ص ٢٧٣ .

(٣) الترجمة العربية لكتاب «گلستان» ص ١٣٣ - ترجمة محمد الفراتى - دمشق ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م .

قطعة

دعوتك يا كنز القناعة فاغنني أيا بلسماً ما مثله لكليم
قد اختار كنز الصبر لقمان حكمة فمن ليس ذا صبر فغير حكيم

حكاية : كان في مصر ولدا أمير عكف أحدهما على طلب العلم والآخر على جمع المال ، فذاك أصبح علامة الدهر وهذا صار عزيز مصر ، وكان الغنى ينظر إلى الفقير بعين الاحتقار ويقول : أنا وصلت إلى السلطنة وأنت بقيت في الذل والمسكنة ، قال له الفقير : أيها الأخ هذه نعمة من الله تعالى يجب على شكرها حيث وجدت ميراث الأنبياء - يعنى العلم - ووجدت أنت ميراث فرعون وهامان ، يعنى ملك مصر .

قطعة

كنملة أنا تؤذى وهى غافلة ولم أكن عقرباً تؤذى فتتجحر
فكيف لى أن أوفى شكر ربي نعم إن لم أطق حمل ما تؤذى به البشر

حكاية : سمعت أن درويشاً احترق بنار الفاقة وخاط ثوبه خرقة على خرقة ، وكان على الدوام يسلى نفسه بهذا البيت :

بالدلق مع يابس الخبز اقتنع أبداً وأجمل جفاك ولا تحمل جدا بشر

فقال له شخص : ما قعودك على ما أنت فيه وفلان في هذه البلدة ذو طبع كريم وفضل عظيم قد شد وسطه لخدمة الأحرار وجلس على باب إرادتهم ، فلو اطلع على حقيقة حالك لما تأخر عن مراعاة خاطرك العزيز قبل سؤالك ، فقال له : اسكت فإن الموت بالفقدان خير من عرض الحاجة أمام إنسان لأنهم قالوا :

قطعة

خط رقعة فوق أخرى إن عريت ولا تخط يوماً للملك رقعة أبدا
فكالجحيم عقاباً لا نظير له بأن تمد لجار في النعيم يدا

حكاية : ورد فى سيرة أردشير بن بابك أنه سأل طبيباً عربياً : ما مقدار الطعام الذى يلزم للتغذية فى اليوم الواحد ، فقال الطبيب : يكفى وزن مائة درهم ، فقال أردشير : هذا المقدار ماذا يعطى من القوة فأجابه الطبيب : هذا المقدار يحملك ومازاد على ذلك فأنت حامله .

حكاية : نهى أحد الحكماء ابنه عن كثرة الأكل قائلا : إن الشبع يوقع الإنسان بالمرض ، فقال الولد : والجوع يا أبت يهلك ، ألم تسمع قول الظرفاء : الموت بالشبع خير من الحياة بالجوع ، فقال الأب : حسنا ولكن تمسك بالاعتدال كما قال الله تعالى : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

قطعة

أشهى المأكّل مما قد تسرّبه لو زاد عن حده يؤذيك من جشع
يضرّك العسل الماذى متخما وبأس الخبز لا يؤذى بلا شبع

حكاية : قال ناس لحاتم الطائي : أرايت أو سمعت بمن هو أعلى منك همة فى هذه الدنيا ، فقال : نعم ، نحرّرت يوماً أربعين جملاً وخرجت إلى البادية لأدعو أمراء العرب ، فرأيت حاطباً يحمل على ظهره حزمة شوك يريد بها المدينة فقلت له : لماذا لم تذهب إلى ضيافة حاتم فإن خلقاً كثيراً قد التفؤوا حول مائدته فالتفت إلى وأنشد :

أرى كل من بالكدح يدرك خبزه فليس بمحتاج لئنة حاتم
فالحق أقول لقد رأيت الرجل أعلى منى همة وأكرم»^(١)

(١) در فضيلت قناعت

حكايت

خواهنده مغربى در صف بزازان حلب ميگفت اي خداوندان نعمت اگر شمارا انصاف بودى وما را قناعت رسم سؤال از جهان برخاستى .

اي قناعت توانگرم كردان كه وراى تو هيچ نعمت نيست
كنج صبر اختيار لقمانست هر كرا صبر نيست حكمت نيست

ومن الكتب التي كتبت في الأخلاق أيضاً كتاب «تحفة الملوك»، وهو يتضمن بالإضافة إلى الأخلاق موضوعات أدبية وتاريخية كثيرة، إلا أن مؤلفه مجهول، ويوجد من هذا الكتاب نسختان خطيتان إحداهما في المتحف البريطاني ضمن مجموعة مؤرخة بتاريخ ٧٦١ والأخرى بمكتبة ليدن، وطبع هذا الكتاب في طهران عام ١٣١٧ هـ. ش وحققه سيد حسن تقى زاده معتمداً على النسخة الأولى، وقد ذكر في مقدمته على الكتاب أنه ألف عام ٦١٨ هـ.

أما عن أسلوب الكتاب فهو في غاية التناسب، وقد اعتمد المؤلف على كثير من أشعار الشعراء القدامى والأمثال، وخاصة من منظومة كليلة ودمنة للشاعر الرودي

حكايت

دو امير زاده در مصر بودند يکي علم آموخت وديگری مال اندوخت عاقبت الامر آن يکي علامه مصر گشت واین يکي عزيز مصر شد پس این توانگر بچشم حقارت از فقيه نظر کردی وگفتی من بسلطنت رسيدم واین همچنان در مسکنت بمانده است گفت ای برادر شکر نعمت باری عز اسمہ همچنان افزونتر است بر من که ميراث پيغمبران يافتم يعنی علم وتو ميراث فرعون وهامان يعنی ملک مصر.

من آن مـورم که در پایم بمالند نه زنیورم که از دستم بنالند

کجا خود شکر این نعمت گذارم که زور مردم آزاری نـدارم

حكايت

درويش را شنيدم که در آتش فاقه ميسوخت وخرقه بر خرقة هميد وخت وتسکين خاطر مسکين را هميگفت :

بنان خشک قناعت کنيم وکامهء دلقي که بار محنت خود به که بارمنت خلق

کسی گفتش چه نشیني که فلان در این شهر طبعی کریم دارد کرمی عمیم میان بخدمت آزادگان بسته ویر درد لها نشسته اگر بر صورت حال تو چنانکه هست مطلع گردد وپاس خاطر عزیزان منت دارد، گفت خاموش که در پستی مردن به که حاجت پیش کسی بردن.

هم رقعہ دوختن به والزام گنج صبر کز بهر جامہ رقعہ برای خدايگان نبشت

حقا که با عقوبت دوزخ برابر است رفتن بپایمردی همسایه در بهشت

و منظومه «أفرین نامه» للشاعر أبی شکور البلخی ، وشاهنامه الفردوسی وغير ذلك من المنظومات^(۱).

ومن نماذج ما جاء فى هذا الكتاب حديث المؤلف عن العلم وأهميته ودور العلماء فى نصيحة الملوك والأمراء ، يقول تحت عنوان «مدح العلم» :

«يعرف أهل الدنيا أن العلم هو أفضل الأشياء .. ويقول الرودكى فى منظومة كلية ودمنة. شعر :

- منذ أن خلق الله الدنيا من عهد آدم ، لم يكن هناك من يستغنى عن العلم .

- والعقلاء فى كل زمن ، يسعون لمعرفة أسرار العلم بأى لغة .

- فالعلم فى القلب كالمصباح المضىء ، وهو حماية لك من كل سوء .

- وقال أنوشیروان العادل : العلم فى مقدمة كل المحاسن ، والشرف الكبير

يتأتى من العلم ، وسعيد الحظ من كان العالم صديقاً له . شعر :

حكايت

يکى از حکما پسر را نهى کرد از بسيار خوردن که سیرى مردم را رجور کند گفت اى پدر کرسنگى خلق بکشد نشنیده اى که ظريفان گفته اند بسيارى مردن به که گرسنگى بردن گفت اندازه نگه دار : (کلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

نه چندان بخور کز دهانت برآيد نه چندان که از ضعف جانت بر آيد
با آنکه در وجود طعامست حظ نفس ريخ آورد طعام که بیش از قدر بود
کر گلشکر خورى بتقلب زيان کند وز نان خشک دير خورى گلشکر بود

حكايت

حاتم طائی را گفتند : از خود بزرگ همت در جهان دیده اى يا شنیده اى. گفت : بلى روزى چهل شتر قريان کرده بودم امرای عرب را پس بگوشه صحرائى بحاجتى برون رفته بودم خارکنى را رسيدم پشته فراهم آورده گفتمش بمهمانى حاتم چرا نروى که خلقى بر سمات او کرد آمده اند گفت :

هر که نان از عمل خویش خورد منت از حاتم طائى نبرد

من اورا وجوا نمردى از خود ديرم

(کليات شيخ سعدى ص ۱۲۲ ومابعدها) .

(۱) کنجینه - تأليف دکتر ذبيح الله صفا - جلد سوم - تهران ۱۳۵۳ ، ص ۲۶۴ ومابعدها .

- يقول العاقل إن التأييد والعظمة ، يلا زمان الناس بالعلم وليس بالذهب .

- وعندما يكون العالم رجلاً كريماً ، فإن الشرف يسعى إليه بكل تأكيد .

وقال منو چهر : إن العلم كالمصباح المضيء ، ورغم أنهم يشعلون منه مصابيح كثيرة إلا أن هذا لا ينقص من ضوئه . وقال الصينيون : إن العلم زينة الدين والدنيا ، وكل الأشياء تقل قيمتها عندما تكثر ، إلا العلم فإنه كلما زاد كلما زادت قيمته.

حكاية : أمر سليمان عليه السلام الرياح بأن تحمل عرشه وتهبط به على بوابة مدينة كتب على بابها : إن أجر سعى يوم درهم واحد ، ومكافأة الوقت الحسن مائة درهم ، وعلم ساعة واحدة لا يقدر بثمن .

وقال بطليموس : إن العلم في مقدمة كل الآراء والتدابير ، وقالوا إنه إذا لم يكن للعلم فضل وشرف كبير لما نفذ أمر العلماء على الخاصة والعامة والدماء والأموال بهذه الصورة ، ولما بقي اسم العلماء مكرماً في الدنيا ، ولما أخذ الملوك بآراء أهل العلم وأفكارهم .

يقول أبو شكور : شعر .

- مع أن الأصل رفيع ، إلا أنه لا يعلو على العلم ،

وإنما أصبح الأصل عزيزاً بسبب العلم .

وقال الحكماء : إن العلم معين للمرء في الشدائد ، ورفيق ومعاون ومظاهر له عند العجز .

حكاية : كان حديث العلم مفيداً إلى حد أن الخليفة المعتصم كان قد غضب على أهل مدينة البصرة ، وقاد جيشه ووصل من بغداد إلى أبواب البصرة وأراد الإغارة عليها ، فخرج شيوخ البصرة وأعادوا شراء البصرة بثلاثمائة ألف دينار ، ولم يرض الخليفة . وكان في البصرة عالم يدعى عبد الرزاق صنعائي ، ومن مشاهير علماء

ذلك العصر ، وكان نديماً لهارون الرشيد ؛ فذهب إلى الخليفة المعتصم وتشفع عنده ، فلم يستجب له ، وقال : اخرج من البصرة أنت ورجالك والتحق بمعسكرنا لتتنجو. فقال العالم : يا أمير المؤمنين ، لقد قضيت في هذه المدينة عشرين عاماً ، وكنت مع سكانها في وقت الراحة والأمان ، ولا أستطيع الآن الانفصال عنهم في وقت الشدة . شعر :

- كل من يساعد صديقه ، لا بد أن يكون صديقاً له حتى لو كان كافراً .

- فعند الشدة يمكن معرفة الصديق ، بينما يوجد في وقت السعادة مائة ألف .

ونهب ليعود أدراجه ، وكان من جملة مريديه شاب عالم يتسم بإمارات الطيبة ويدعى (حريف) ، فنهض وقال : يا أمير المؤمنين أعف عنهم ، لأنك لو ندمت على عدم معاقبتهم ، فسيكون ذلك دليلاً على أن لديك القدرة على العقاب وتلافيه ، أما إذا عاقبتهم وندمت بعد ذلك على عدم عفوك عنهم ، فلن يفيد الندم ، ولن يتيسر لك ذلك ، لأنهم قالوا : أربعة أشياء لا يمكن الرجوع عنها : قول الكلام ، ورمى السهام ، والحزن على ما مضى وما جرى به القضاء ؛ فأتى هذا الكلام في المعتصم لأنه كان كلاماً عظيماً صدر من عالم ، وخلع على ذلك الشاب ، وعفى عن أهل البصرة .

وهكذا كان كلام العلماء مفيداً . شعر :

- كل من يقضى الزمن في العلم ، لن يضيع وقته هباء ولا وقت معلمه ،

- إذ يمكن فهم الدنيا بالعلم ، ويمكن حل الأمور بواسطته .

ويقول بقراط : إن ثمرة العلم هي أنه يرفع منزلة المرء الذي يحصله. وقال الهنود : من لا يكون العلم شعاعاً ودياراً له ، يكون في منزلة العوام . وقال شهريان (أحد حكماء إيران القدماء) : إن العلم كالطر المنهمر ، إذا طلبته لا بد وأن يمطر عليك ذات يوم. شعر :

- اجتهد حتى تصبح عالماً بسرعة ، لأنك عندما تصبح عالماً تصبح عظيمًا .

- فليس الأكثر رفعة هو الأكثر علماً ، بل الأكثر علماً هو الأكثر رفعة ،

- ألا ترى الملوك على ما لهم من عروش ومكانة ، يستفسرون من العلماء عن الطرق ،

- ومهما عمروا وبقوا فى أماكنهم ، لا يستغنون عن العلماء يوماً ..

حكاية : قدم السلطان ملكشاه إلى نيشابور ، وقد مضى من شهر رمضان تسعة أيام . وكان المسئولون فى الولاية قد غفلوا عن استطلاع رؤية الهلال ، وذهبوا عند بعض العظماء وأخبروهم أنهم رأوا الهلال ، وأطلعت جماعة فى الخدمة الخاصة السلطان على أنه يجب أن يكون العيد غداً ، فلما صدر الأمر من السلطان سار مناد فى مدينة نيشابور ينادى بأن السلطان يأمركم بأن تعودوا غداً. فأخبروا الإمام أبا المعالى الذى كان قدوة عصره ، فسار مناد ينادى فى المدينة بأن أبا المعالى يقول بأنه سوف يصوم غداً ، وكل من يأخذ بفتواه لابد أن يصوم غداً ، فأوصل المغرضون هذا الكلام بصورة سيئة إلى السلطان ، وقالوا إن أبا المعالى يخالفك ، ولا شك أن الناس سيعملون بفتواه أكثر مما يعملون بما يقوله مناديك ، وسوف يضر هذا بنظام المملكة ، فتغير السلطان ملكشاه - رحمة الله عليه - تغيراً كبيراً ، ولكنه كان حسن العقيدة ، يخشى الله ، ويكن احتراماً كبيراً لأهل العلم. ومع ذلك فقد تغير فكره ، وأمر بعض خاصته قائلاً : إذهبوا واستدعوا أبا المعالى بلطف وأدب . فقالوا : أيها السلطان ، أتحترمه بعد ما فعل من إهانة أمرك ؟ فقال السلطان : طالما أننى لم أسمع كلامه ، فلا يمكننى انتهاك حرمة أهل العلم بناء على كلام الآخرين .

وعندما استدعوا أبا المعالى نهض ولبس عمامته التى كان يرتديها فى المنزل ولبس حذاءه وجاء إلى قصر السلطان . فعندما رأوه وقد ارتدى هذه العمامة الصغيرة ، ولم يربط حذاءه. قالوا للسلطان : أبا المعالى لم يقتنع بتنفيذ أوامرك ، وزاد فى عناده

الآن لأن الذهاب إلى الملوك على هذا النحو نوع من قلة الأدب. فغضب السلطان من ذلك ، وأرسل الأمير الحاجب يعاتبه على مجيئة بهذه الملابس وهذا الحذاء. فرفع أبو المعالي صوته قائلاً : لا بد أن يستمع السلطان إلى كلامي ، فالأمير الحاجب لن يفهم الكلام جيداً . وعندما أذن له قال : إعلم يا سلطان الإسلام أنني أصلى بهذه الملابس ، والملابس التي تليق بالوقوف بين يدي الله عز وجل تليق بالوقوف بين يدي السلطان أيضاً. إلا أن أهل الدنيا وسلطين الزمان قد سنوا سنة وقاعدة بالآ يذهب أحد إلى الملوك والسلطين على هذه الشاكلة، وقد أردت الحفاظ على هذه العادة ، إلا أنه عندما وصل إلى أمر السلطان وكنت أجلس بهذه الملابس خشيت إذا ما قمت بتغيير ملابسى أن يكتب اسمى فى صحيفة المتأخرين الذين يعصون السلطان ، وإذا كنت جالساً مرتدياً سروالاً لجئت به حتى لا تكتب الملائكة أن أبا المعالى قد قصر فى طاعة السلطان . فسر السلطان من هذا الكلام ، وقال له : إذا كانت طاعة السلطان واجبة بهذه الكيفية فلماذا فعلت خلاف ما نادى به المنادى؟ فقال أبو المعالى : يجب علينا أن نطيع كل الأوامر التي تصدر عن السلطان ، ولكن ما يتعلق بالفتوى لا بد أن يسأل فيه السلطين العلماء ، وهل تطابق أوامرهم حكم الشرع أم لا ، وأما بالنسبة للصيام والعيد ، فهذا أمر يتعلق بالفتوى لا بالأوامر السلطانية. وعندما سمع السلطان ملكشاه رحمه الله هذا الكلام ، أعاد أبا المعالى إلى منزله معززاً مكرماً. بيت :

- عندما يطهى الشئ المر يصير حلواً .

- وبالعلم يصبح الكلام مليئاً بالجواهر .

* * *

ومن الذين كتبوا عن الأخلاق أيضاً فى الفارسية نذكر سراج الدين أبا الثنا محمود بن أبى بكر بن أحمد الأرموى من علماء وكتاب القرن السابع الهجرى المعروفين . ولد الأرموى عام ٥٩٤هـ فى مدينة أرموية (رضائية الحالية)، ودرس بها ثم انتقل إلى الموصل ثم دمشق وعاش بهما فترة، ثم انتقل إلى أسيا الصغرى حيث كان يحكم السلاجقة واختار العيش فى مدينة قونية ، وأصبح قاضى القضاة بها ، وكان

يقوم بالتدريس كذلك. واحتل مكانة بارزة لدى عز الدين كيكافوس الثانى (متوفى ٦٥٥ هـ) وركن الدين قنج أرسلان الرابع (متوفى ٦٦٦ هـ) وغيث الدين كيخسرو الثالث (متوفى ٦٨٢ هـ) ، ولهذا الكاتب مؤلفات باللغة العربية والفارسية فى المنطق والحكمة والفقه والتفسير والحديث والأخلاق ، ومن أهمها كتابان بالفارسية أحدهما يسمى «لطائف الحكمة» والثانى يسمى «مجل الحكمة» ، والكتاب الثانى ترجمة وتلخيص لرسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، وقد توفى المؤلف عام ٦٨٢ هـ فى مدينة قونية^(١).

ومن نماذج ما كتبه فى كتابه «لطائف الحكمة» ما جاء تحت عنوان «حسن الخلق» يقول فيه : «إعلم أن العاقل يجب أن تكون أفعاله وأخلاقه مطابقة لمصلحة نفسه ومصلحة العالم. وذلك يتحقق بالإسراع إلى عمل كل فعل مستحسن واجتناب كل فعل مستقبح ، وأيضاً بالتعلى بكل خلق مستحسن حتى يصبح ملكاً لأخلاقه كالعلم والسخاء والمروءة والإنصاف وما شابه ذلك ، والبعد عن كل خلق ردى مستقبح حتى يثبت فى ذاته ما يقابله من أخلاق حسنة بقدر الإمكان. وكلما فعل ذلك يكون حكمه على ذاته عادلاً ، ويتحقق المصلحة الشخصية ومصلحة العالم المنوطة به» .

ويقسم المؤلف حسن الأفعال والأخلاق وقبحها إلى ثلاثة أقسام هى :

«القسم الأول : وفيه يكون حسن وقبح الأفعال والأخلاق ظاهراً مثل حسن العلم وقبح الجهل ، وحسن العدل وقبح الظلم ، وحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضار ، إذ أن الناس جميعاً يعلمون أن العلم والعدل والصدق النافع أمور حسنة ، وأن الجهل والظلم والكذب الضار أمور قبيحة .

القسم الثانى : وفيه يكون حسن وقبح الأفعال والأخلاق ليس ظاهراً ، إلا أن العاقل يمكنه إدراك حسننها وقبحها عن طريق النظر والتفكير مثل حسن الصدق الضار وقبح الكذب النافع ، لأن كل واحد منهما يشتمل على وجه من وجوه القبح ،

(١) كنجينه. سخن - جلد پنجم - ص ١ وما بعدها.

فالصدق حسن من جهة أنه صدق ، وهو قبيح من جهة أنه ضار ، والكذب النافع قبيح من جهة أنه كذب ، وهو حسن من جهة أنه نافع . ومن ثم فإن العاقل عندما يدقق النظر يرى أن جهة الحسن ترجع على جهة القبح ، فيحكم بحسنه ويمارسه ، وإذا رجح جانب القبح على جانب الحسن يحكم بقبحه ويتجنبه .

القسم الثالث : وفيه يكون حسن الأفعال والأخلاق وقبحها ليس ظاهراً ، ولا يتمكن العاقل من معرفة حسنها وقبحها ، بينما يعرف الشرع حسنها وقبحها مثل حسن صوم آخر يوم فى رمضان وقبح صوم أول يوم من شوال ، ذلك أن اليومين متصلين ببعضها ، ومتساويين فى الماهية الزمانية ، ولكن عندما أوجب الشرع صوم اليوم الأخير من رمضان وحرم صيام اليوم الأول من شوال ، أصبح معلوماً أن ذلك حسن وهذا قبيح .

وإذا كانت هذه المقدمة قد فهمت فإننا نقول : إعلم أن كل ما جاء به الشرع فهو حسن ، وكل ما منعه الشرع فهو قبيح . والشرع لا يمنع مطلقاً ما يحكم العقل بحسنه ، إلا إذا كان شيئاً له وجهان : وجه حسن وآخر قبيح .. وأعلم أن الأفعال المكلفة طبقاً لأحكام الشرع خمسة أقسام : الواجب ، والمحرم ، والمندوب ، والمكروه ، والمباح .

ويرى المؤلف أن الخلق على قسمين : أولهما الخلق الحسن ، وثانيهما الخلق السيئ. وتصدر الأفعال الحسنة عن الخلق الطيب ، وتصدر الأفعال السيئة عن الخلق السيئ. ويعرف الخلق بأنه «هيئة راسخة ثابتة فى النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة دون حاجة للتفكير ، ويكمن مبدأ الأخلاق فى أربع قوى هى : قوة العقل ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل .

وهذه القوى الأربع هى أصل جميع الأخلاق الحسنة والسيئة ، ونتيجة كمال قوة العقل تكون الحكمة ، ونتيجة كمال قوة الغضب تكون الشجاعة ، ونتيجة كمال قوة الشهوة تكون العفة ، وكل من تتوفر فيه الحكمة والشجاعة والعفة والعدل يكون قريباً

من درجة الملائكة ، ويعيداً عن منزلة الشياطين ، وبقدر ما يبتعد الإنسان عن منزلة الملائكة بقدر ما يقترب من «منزلة الشياطين» .

ويذكر المؤلف عدة براهين على حسن الخلق ، منها ما جاء في القرآن الكريم في معرض الثناء على الرسول (ﷺ) في قوله تعالى : «وإنك لعلى خلق عظيم». وقول المصطفى (ﷺ) : أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن. وقوله عليه الصلاة والسلام: «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» . وقوله أيضاً : إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق. وقوله أيضاً : إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً .

ويذكر المؤلف من هذه البراهين أيضاً ما قاله لقمان الحكيم عندما سأله ابنه : أى الخصال أفضل ؟ فقال له : الدين ، فقال : فإن كانت خصلتان. قال : الدين والمال. وقال : وإن كانت ثلاث خصال. قال : الدين والمال والحياء. قال : إن كانت الخصال خمس. قال : الدين والمال والحياء والخلق والسخاء قال : وإن كانت ست خصال ، قال: أى بنى ، من تجتمع فيه هذه الخصال الخمس فهو نقى تقى ، الله ولى ، من الشيطان برىء.(١)

ومن الذين كتبوا عن الأخلاق نذكر أيضاً «شجاع» ، وهو من كتاب القرن التاسع الهجرى ، وقد ألف كتاباً باسم «أنيس الناس» فى الأخلاق والآداب الاجتماعية ، مستفيداً فى ذلك من الكتب السابقة عليه فى هذا الصدد ، وذلك عام ٨٢٠ هـ ، وأهداه إلى أبى الفتح إبراهيم السلطان التيمورى الذى حكم فى فارس من عام ٨١٧ إلى عام ٨٢٨ ، ويعد نثر هذا الكتاب ضعيفاً فى المواضع التى لم ينقل فيها من كتب القدماء السابقين عليه.(٢)

(١) انظر كتاب «كنجينه» سخن - جلد پنجم ، ص ١ وما بعدها ، نقلا عن كتاب «لطائف الحكمة» ص ١٦٧ وما بعدها ، بتصحيح دكتور يوسفى - تهران ١٣٥١ .
(٢) كنجينه سخن - جلد پنجم - ص ١٨٨ وما بعدها .

ومن الموضوعات التي تناولها المؤلف في كتابه موضوع اختيار الأصدقاء وضرورة أن يكون للإنسان أصدقاء ، يقول : «إعلم أنه طالما بقي الناس على قيد الحياة فلا مناص من أن يكون لهم أصدقاء ، فالإنسان الذي لا أخ له أفضل من الإنسان الذي لا صديق له. فقد سألوا حكيماً : هل الأخ أفضل أم الصديق؟ قال : الأخ الصديق أفضل .

واعلم أن استحكام الأخوة والقربة يكون بالصدقة ، كما هو الحال بالنسبة لاستحكام العقل بالتجربة ، واستحكام النسب بالحسب ، واستحكام العظمة بالكرم ، والأخ الذي يعمل لصالحه فقط ليس أخاً ولا قريباً» .

ثم ينصح المؤلف بمراعاة الأصدقاء وحسن التعامل معهم حتى تظل صداقتهم قائمة يقول : «وفكر في حال الأصدقاء بمراعاة آداب المروءة والإنسانية ، فكل من لا يفكر في الأصدقاء ، لن يفكر الأصدقاء فيه ، فيبقى بلا أصدقاء . ومن الأمثال قولهم : المرء بلا صديق سيئ الحظ».

ويدعو المؤلف الناس إلى كسب الأصدقاء وتحويل أنصاف الأصدقاء إلى أصدقاء كاملين ، وينصحهم بحسن الخلق معهم وتحملهم والصبر على أفعالهم ، حتى لا ينفروا منهم ، ويربط بين الخلق الحسن واستمرار الصداقة ، وبين الخلق السيئ وانتهائها وذلك من خلال أبيات من الشعر تقول :

- كل من أعطاه الله خلقاً حسناً ، يكون من الأصدقاء حتى لو كان وحيداً .

- وإذا اقترن الخلق السيئ بإنسان ، يكون وحيداً حتى ، ولو كان مع الأصدقاء .

ويرى أن طبقات الناس لا تخلو من ثلاثة أنواع ؛ فإما أن يكونوا أصدقاء ، أو يكونوا لا أصدقاء ولا أعداء ، أو يكونوا أعداء . ويعتقد أن الصنف الأول لا غنى عنه كالأكل والشرب ، أما الصنف الثاني فيمكن الاستفادة منهم عند الحاجة ، أما الصنف الثالث فيجب اجتنابهم ، والبعد عنهم لأنهم يضمرون الشر والعداء . ويستشهد على

ذلك بقول الإسكندر عندما سأله عن كيفية استيلائه على كل هذا الملك فى فترة قصيرة ،
فأجاب : بجعل الأعداء أصدقاء باللفظ واللين ، والحفاظ على الأصدقاء بالوفاء .

وينصح المؤلف أيضاً بعدم مصادقة من لا فضل ولا علم له ، لأن الفلاح لا يأتى
من الصديق الجاهل ، ولا بد للإنسان من مصادقة الكريم والأصيل ، وعدم مصادقة
اللينم والسفيه .

ومن نصائحه كذلك التكبر مع السفلة وسيئ الأصل ، لأن التواضع معهم يجعلهم
يتكبرون ، ويسينون إلى الأصيل بدلاً من الإحسان إليه ، أما إذا احترم الإنسان من
يتميز بالأصالة فإنه يزداد تواضعاً وإحساناً .

كتاب "مكام الأخلاق" :

أما الكتب التى تناولت الأخلاق بصفة خاصة فنذكر فى مستهلها كتاب «مكارم
الأخلاق» تأليف رضى الدين النيشابورى (متوفى ٥٩٨ هـ) ، وهو من علماء وشعراء
أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين . ولرضى الدين ديوان شعر ،
ويقال إنه كان ينشد الشعر بالعربية أيضاً . كما ورد فى كتاب «مكارم الأخلاق» أنه
ألف كتاباً آخر هو «روضة الوفاء» ، ويبدو من عنوانه أنه يتحدث فيه عن الوفاء ، فقد
ذكر فى الباب الثامن والثلاثين أنه يكتفى بهذا القدر من الحديث عن الوفاء لأنه فضل
فيه القول قبل ذلك فى كتاب «روضة الوفاء» .

يبدأ المؤلف كتابه ببيتين من الشعر هما :

الحمد لله حمداً يجلب النعما ويمتري من غوادى فضله الديما
ثم الصلاة على خير الورى شرفاً محمد ظل يهدى نوره الأما

ويضم الكتاب أربعين باباً ، تناول فيها المؤلف الموضوعات التالية : الكرم والخلق
أقسام الخلق وما هيته - تطهر النفس من الأخلاق الذميمة واكتساب الخصال الحميدة

- السخاء والبخل - العزة والذلة والإيذاء والاستهزاء - البطالة والكسل - التواضع والتكبر - الثبات والتردد - الجد والجهد - الحياء - الحزم - الحقد والحسد - الخلف والوعد - الدناءة - وضدها - حفظ الغيب وذم الغيبة - الرحمة والقسوة - الصدق والكذب - الصمت وضده - الشجاعة والجبن - الصبر - الضرر والعناء - الطمع - العدل وضده - العتاب - العجب - العشق - العفو - العفة - الغضب والحلم - التفكير - الرفق وضده - القناعة - الشكر - والكفران - كتمان السر - اللعب واللهو - المشورة - السعاية والنميمة - الوفاء - الهداية - اليقين .

ويبدو أن المؤلف اقتبس اسم الكتاب من حديث الرسول (ﷺ) الذي أورده عند حديثه عن فضيلة الكرم والخلق وهو : «إن الله تعالى كريم يحب مكارم الأخلاق» أو قوله : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

والكتاب مكتوب باللغة الفارسية ماعدا بعض الجمل والعبارات والأبيات التي ترد باللغة العربية ، بخلاف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال العربية. وقد ذكر المؤلف في كتابه ما يقرب من ٣٣٦ بيتاً عربياً ، كما تخللت بعض أبواب الكتاب أبيات من الشعر الفارسي يصل عددها إلى حوالى سبعين بيتاً فارسياً . وقد يؤيد الكاتب وجهة نظره ببعض أقوال حكماء الفرس القدماء ، وقد يأتى ببعض أقوال حكماء اليونان أيضاً . ويدعم المؤلف رأيه دائماً ببعض الحكايات ، وهذا الأسلوب معروف فى كل كتب الأخلاق والنصيحة الفارسية . وهو ينقل أحيانا قصصاً عربية أو بعض الحكايات التاريخية .

أما عن الأسلوب الذى اتبعه المؤلف بصفة عامة فى عرض موضوعاته الأخلاقية فهو عادة يبدأ بتعريف الفضيلة التى يتناولها ويمدحها ، ثم يذكر آية قرآنية ثم حديثاً شريفاً يشير إلى هذه الفضيلة . فمثلا عندما يتحدث عن الصبر يقول : الصبر هو الثبات على الامتناع عن المفسدة التى يثيرها الطمع ، وفضيلته كبيرة ، قال تعالى : «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» (الزمر ١٠) ، ويذكر بعد ذلك آية أخرى هى قوله تعالى : «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون»

(السجدة ٢٤) ، ثم يذكر حديثاً شريفاً هو قول الرسول (ﷺ) : « الصبر نصف الإيمان ». ويأتى المؤلف بعد ذلك ببعض الحكايات التى تؤيد مقولته ، ويستشهد على ذلك بعدة أبيات من الشعر ، فيورد عن الصبر قول الشاعر :

الصبر أوله مر مذاقته لكن آخره أحلى من العسل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأفضل أخلاق الرجال التفضل^(١)

ثم يذكر فى ثنايا حديثه عن الصبر بيتين بالفارسية معناهما :

- إن قدر المرء ومكانته ليست بالادعاء ،

بل إن قيمته تكمن فى قدرته على الصبر

- ولربما رأيت فى المرء العلم والشوكة والبأس ،

ولكن عليك أن تعرفه من صبره .

وقد تأثرت بعض كتب الأخلاق بهذا الكتاب كثيراً ، نذكر منها على سبيل المثال كتاب «أخلاق محسنى»^(٢) لملا حسين واعظ الكاشفى السبزوارى (متوفى ٩١٠ هـ) وقد نقل مؤلفه كثيراً من الحكايات والشواهد الشعرية من «مكارم الأخلاق» .

ولا شك أن كتاب «مكارم الأخلاق» اعتمد فى كل ما ذكره عن الأخلاق على تعاليم الدين الإسلامى ، واستند على ما جاء فى القرآن والسنة ، وما تشابه معها من أقوال القدماء ، ولم ينح فى كتابه منحى فلسفياً فى الأخلاق كما فعل غيره من كتاب الفرس .

(١) انظر كتاب مكارم الأخلاق ص ١٠٥ - رضى الدين الينشابورى - تهران ١٣٤١ هـ .

نه بدعويست قدر وقيمت مرد قيمت مرد صبر داند كرد

علم بينى وشوكت وبأس ليك تو مرد را بصبر شناس

(٢) أخلاق محسنى - لکهنو - يوليو ١٩١٢ م - ١٣٣٠ هـ .

والمؤلف يقدم مكارم الأخلاق بأسلوب سهل مبسط بعيد عن التكلف والزخرف ، ويخلط ذلك بالحكايات التي تعبر عن المضامين الخلقية ، فلا يجد القارئ مللاً عند قراءته ، وهذا الأسلوب هو الذي اتبعه في الفارسية كثير من كتب الأخلاق والنصائح والتربية .

نموذج من كتاب "مكارم الأخلاق" :

الباب الثالث والعشرون : في العدل وضده

قال الله تعالى : «ألا لعنة الله على الظالمين» ، عندما أراد الله تعالى وصف الشرك بغاية القبح سماه بالظلم ، قال تعالى : «إن الشرك لظلم عظيم» .

لما كان أنوشيروان العادل - خفف الله عنه العذاب - عادلاً رغم كفره ، فإن أفضل خلق الله عليه الصلاة والسلام ذكره فقال : «ولدت في زمن الملك العادل أنوشيروان» بيت :

- لا يوجد عمل أفضل من العدل في العالم .

ولا نار ملك طالما كان عادلاً .

قال الله تعالى : «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» ، وقال أرباب الحقائق إن كل الشرائع متضمنة في هذه الآية ، فإذا لم يرافق العدل الحماية ، أوقع أصحاب القوة والشوكة الدمار والأذى بضعفاء الخلق ، وعندما يهلك الضعفاء لن يبقى الأقوياء ، لأنهم ليسوا مستقلين في معيشتهم .

وقد جاء في الحديث النبوي : «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم» .

عندما جاء نصر بن سيار إلى سمرقند ، أرسل ملك تركستان أمه ومعها الهدايا الكثيرة والتحف الوفيرة إلى نصر ، وطلب الصلح . فأجابه نصر إلى ذلك . وفي المجلس الذي حضرت فيه أم ملك تركستان جرى حديث على لسانها كانت كل عبارة

فيه واسطة عقد الحكم ، وختمته بقولها : « لا ملك إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بالمال ، ولا مال إلا بالعمارة ، ولا عمارة إلا بالعدل والسياسة » .

وقال أحد الزهاد ينصح المنصور : إننى وصلت فى رحلاتى إلى بلاد الصين ، وكان ملك الصين قد فقد حاسة السمع ، فجمع الوزراء وقادة الجيش ، وأخذ يبكى إلى درجة جعلت الحاضرين لا يستطيعون الكف عن البكاء معه ، وأخذوا يواسونه بكل العبارات لمساندته ، فقال الملك : إننى أبكى على حاسة السمع ، العاقل يعلم أن الفناء هو عاقبة الوجود ، وأن خاتمة الحياة هى فتور القوى والحواس وضعفها ، أنا لا أبكى على فقدان بعضها ، ولكن أبكى لأن مظلوماً يصيح طالباً للعدل ولا يصل صوت استغاثته إلى مسمعى ، ثم أمر منادياً ينادى فى تلك الديار بأن يرتدى المظلومون أردية حمراء اللون حتى يتعرف عليهم وينصفهم .

عاد ملكشاه ذات مرة من الصيد إلى أصفهان ، ونزل فى مزرعة تقع على أطراف قرية ، وعثر عدة غلمان فى أطراف تلك القرية على بقرة لم يستدل على مالكها وذبحوا البقرة وتناولوا جزءاً من لحمها ، وكانت تلك البقرة لعجوز تتقوت بلبنها هى وأربعة يتامى ، وعندما علمت العجوز بتلك الحادثة وقع مغشياً عليها . شعر عربى :

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد .

فذهبت فى جوف الليل إلى جسر (زنده رود) حتى يمر ملكشاه فى الصباح من هناك ، وجلست تنتظر إلى أن وصل موكبه ، فقامت وأمسكت بعنان جواده وقالت : يا ابن ألب أرسلان ، إذا لم تنصفنى على جسر (زنده رود) فبجلال الله لن أتوانى عن مخاصمتك حتى أخذ حقى منك وأنت على الصراط ، فكر جيداً أى الجسرين تختار . ولما كان حديث العجوز من أعماق قلبها المتألم ومؤثراً ، فقد وقعت الهيبة فى قلب ملكشاه ، ودب فيه الخوف فقال : يا أماء ليست لدى القدرة على أداء ذلك على الصراط ، من ظلمك؟ حددى من هو حتى أعيد لك حقك ، قالت العجوز إن الظلم قد وقع على منك ، لأن ما يفعله غلمانك يضاف إلى أعمالك ويكون نتيجة غفلتك . فبكى

ملكشاه وأمر بأن يخصص لها فى الحال سبعون بقرة من طريق حلال بدلاً من تلك البقرة ، وعنف غلماناه وعاقبهم عقاباً شديداً .

وبعد أن انتقل ملكشاه من دار الفناء إلى دار البقاء ظلت العجوز على وفائها لحق إنعامه ، فاغتسلت فى منتصف الليل وصلت ركعتين وسجدت على الأرض وقالت تتأجى ربها وعيناها تذرفان الدمع : ربى لما كان ابن ألب أرسلان قد أنصفنى وأقام العدل وأدى الفضل ، فتفضل عليه يا أكرم الأكرمين برحمتك .

والخلاصة أن حسن عاقبة الإنصاف غنى عن الشرح . وسوء عاقبة الظلم غنى عن البيان. يقول بزرجمهر : « لا تدع ظالماً على ظلمه ، فإن ظلمه يكفيك ما تحبه ينزل به من عقوبة» ونعوذ بالله أن ترد دعوة مظلوم من الحضرة الإلهية ، قال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا دعوة المظلوم فإنها لا ترد» بيت عرى :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم آخره يأتيك بالندم
نامت عيونك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم
بيت :

- عندما يأتى اليوم الذى تكون فيه قادراً على أهل زمانك ،

انظر إلى العاقبة ، وقصر يد الظلم عنهم .

- ولا تمد يد الظلم بهذا القدر ، واعلم

أن الله لا يغلق بابه أمام دعوة مظلوم .

شعر عرى :

كنت الصحيح وكنا منك فى سقم فإن مرضت فنحن السالمون غداً

دعت عليك القطان ما ظلمت ولن ترد يداً مظلومة أبداً

ويقول أبو الفتح البستى : شعر عرى

يا ظالماً مرحاً بالعز ساعده إن كنت فى سنة فالدهر يقظان

وجاء فى أمالى السيد الإمام الخطيب المدنى فى سمرقند أنه كان فى بلاد الصفد ظالم تأذى الناس من ظلمه وتعذبوا من تعديه عليهم. وعندما كثرت الشكوى من ظلمه وعدوانه على أعتاب الخالق عز اسمه ، وكان ينام ذات ليلة على سريره فوق سطح منزله ، إذ انطلق سهم ناحية صدره ونفذ من ظهره ، فمات. وفى اليوم التالى وجدوا كتابة على السهم تقول :

شعر عرسى :

تبغى وللبغى سهام تنتظر دموع عيني باكيات فى السحر
أصابع المظلوم فى وقت السحر أنفذ فى الأضلاع من وخز الإبر
تلك سهام تنقى وتحتذر

شعر :

- تجاوز ظلمك للمسلمين الحد ،

إخش الله ، أى عدم إسلام هذا

- ليبعد الله شرك عن الخلق ،

فليس لوجه الدنيا رونق فى وجودك .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أمر بالعدل فى كثير من الآيات كقوله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعماً يعظكم به ، إن الله كان سمعياً بصيراً» (النساء ٥٨)

كما حض الرسول (ﷺ) على العدل فقال : « لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» وقال : « الظلم ظلمات يوم القيامة » . وقال : «من أعان ظالماً ليدحض بباطله حقاً

(١) انظر كتاب "من أخلاق النبى" ص ٩٧ وما بعدها .

باب بيست رسوم
در عدل و ضد وى

فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله»^(۱) .

= قال الله تعالى: «إِنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» چون آفریدگار تعالی خواست که شرک را بنهایت قبیح صفت کند ، او را ظلم خواند ، قال الله تعالی : «إِنَّ الشُّرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ» .
انو شیروان عادل خفف الله عنه العذاب ، باسمت کفر چون حلیه معدلت داشت ، مهتر عالم علیه السلام از او یاد کرد که : «وَلَدْتُ فِي زَمَنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ اَنُو شِرْوَانٍ» .
بیت :

به از عدل کاندنر کار نیست ملک را که عادل بود نار نیست
قال الله تعالی : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» آریاب حقیقت گفته اند که جمله شرایع مضمون این آیت است ، چه اگر حمایت معدلت نباشد آریاب قوت و شوکت دمار از ضعفاء خلق بر آرند ، و چون ضعیف حالان ملامت شدند ، اِقویاء برجای بنمانند ، چه ایشان در معایش مستبد و مستقل خویش نیستند .
و در لفظ نبوی (ص) آمده است : «الْمَلِكُ يَبْقَى مَعَ الْكَفْرِ وَلَا يَبْقَى مَعَ الظُّلْمِ» .

و چون نصر بن سیار بسمرقند آمد ، ملک ترکستان مادر خود را باهدا یای بیشمار و تحفه بسیار بحضرت نصر فرستاد ، و صلحی التماس کرد . و نصر آن التماس را باجابت پیش رفت . و در مجلسی که مادر ملک ترکستان را بار فرموده بود ، سخنانی بر زبان آن زن اتفاق می افتاد که هریک واسطت عقد حکم را شاید ، و خاتمت برین کلمه بود که «لَا مَلِكَ إِلَّا بِالرِّجَالِ ، وَلَا رِجَالٌ إِلَّا بِالْمَالِ ، وَلَا مَالٌ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ ، وَلَا عِمَارَةٌ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالسِّيَاسَةِ» ملک بی لشکر تمهید نیابد ، و لشکر رابی مال بر طاعت ملوک اجتماع نباشد ، و مال جزان بلاد معمور حاصل نگردد ، و عمارت ولایت بی تاب افتاب معدلت دست ندهد .

و یکی از زهاد در نصیحت منصور چنین گفت که در اسفار خویش ببلاد چین رسیدم ، و ملک چین را حس سامعه باطل شده بود ، و وزراء و نقباء لشکر را جمع کرد ، و چنان زار گریست که جمله حاضران آب چشم را نتراستند ضبط کردن ، و از برای سلوت پادشاه هر نوع تعذیت و تقویت می کردند . ملک گفت : بر حس سمع میگیرم ، خردمند خود داند که عاقبت وجود فنا است ، و خاتمت زندگانی فتور قوی و حواس است ، بر بطلان بعضی نگویم ، بر آن میگیرم که مظلومی داد خواه بر در فریاد کند ، و صداء استغاثت او یگوش من نرسد . پس منادی را فرمود که در آن دیار ندا کردند که جامه سرخ جز مظلوم نپوشد ، تا بدان علامت برحال مظلومات اطلاع یابد ، و داد ایشان بدهد .

و ملک شاه در سپاهان از شکار باز میگشت ، در مرغزاری بر لب دیهی نزول فرمود ، چندتن از غلامان خود بر حوالی آن دیه گاو ی یافتند ، که آن را حافظ و صاحب یدی معین نبود ، گاو را بذبح آوردند ، و پاره ای از گوشت وی بکار بردند ، و آن گاو از آن گنده پیری بود که او را با چهار یتیم بشیراو تعیش حاصل بود . چون گنده پیر را از آن واقعه خبر شد از خود بیخود گشت .

ما حال من کان له واحد غیب عنه ذلک الواحد

چگونه باشد حال کسی که او را یکی باشد ، و آن يك نیز از وی غائب شود .

در دل شب بسر پل زنده رود رفت ، که بامداد گذر ملک شاه خواست بود . و چون آنجا بنشست ، منتظر می بود ، تا رکاب دولتش برسید ، برخاست و عنان او را بگرفت و گفت : ای پسر الب ارسلان ، اگر داد من بسر پل زنده رود ندمی ، بجلال آفریدگار که بر سر پل صراط با انصاف خود از تو نستانم دست مخاصمت از دامن تو کوتاه کنم . نیک اندیشه کن ، از این دو سر پل کدام اختیار میکنی؟ چون سخن پیرزن =

= از درد دل بود و سوز رقت ، مؤثر افتاد . باطن ملکشاه مستغرق هیبت این سخن شد ، و گفت زینهار ، ای مادر من ، طاقت جواب آن سر پل ندارم ، بر تو که ظلم کرده است؟ تعیین کن ، تا انصاف بستانم . پیر زن گفت ظلم بر من تو کرده ای ، که هر چه بندگان تو کنند مضاف بر تو باشد ، و ثمره غفلت تو بود . ملکشاه بگریست و فرمود : تا همان ساعت یکی ماده گاو را عفتاد گاو از حلالتی ترین وجهی معین دادنده ، و غلامان را زجری عنیف و شریکی بزرگ نمود .

و بعد از آن چند گاه چون از دارفتا بدار بقار حلت کرد ، پیر زن را حق انعام ملکشاه دامن گیر شد ، تا نیم شب غسل بسنت بر آورد ، و دو رکعت نماز کرد ، پس رو/ی برخاک نهاد و در مقام مناجات بآب دیده گفت : پاشاها ، پرورد گارا ، چون پسراللب ارسلان بالثیمی خویش در حق من بر عدل اقتضار نفرمود ، هم عدل اقامت نمود و هم فضل بجا آورد ، تو اکرم الاکرمین تفضل فرمائی . بعد از آن یکی از در جمله حسن عاقبت انصاف از شرح مستغنی است ، و بخامت سر انجام ظلم از بیانی بی نیاز.

ویرز جمهر میگوید : لاتدع ظالما علی ظلمه ، فإن ظلمه یکفیک ما تحبه ینزل به من عقوبة . بر هیچ ظالم دعای بد مکن ، که ظلم او بهر عقوبت که مراد تست او را مبتلا کرده اند . و نعوذ بالله که دعای مظلوم از سرسوز بحضرت الهی برای انتصار رجوع کند . قال علیه السلام اتقوا دعوة المظلوم فإنها لا ترد . بترسید از دعای مظلوم ، که آن داعیبر حضرت آفریدگار رد نیست .

بیت :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم آخره یأتیک بالندم
نامت عیونک والمظلوم منتبه یدعو علیک و عین الله لم تنم

بیت :

روزی که دست یابی براهل روزگار در عاقبت نظر کن و کوتاه دار دست
دست ستم دراز مکن اینقدر بدان کایزد در اجابت مظلوم در نبست

شعر :

كنت الصحيح وكنا منك في سقم فإن مرضت فنحن السالمون غذا
دعت عليك القطان ما ظلمت ولن ترد يد مظلومة أبدا
وأي الفتح بستی گوید

شعر :

يا ظالما مرحا بالعز ساعده إن كنت في سنة فالدهر يقتطان

و در امالی خواجه امام خطیب مدنی نوشته آمده است در سمرقند باستاند که در سفد ظالمی بود خلیق از ظلم او در رنج ، و از تعدی او در عذاب . چون شکایت ظلم و عدوان او بر درگاه آفریدگار عز اسمه بسیار شد ، شبی بر بام خویش بر تخت خفته بود ، تیری بیامد بر سینه او که پشت او نفوذ کرد ، و در آن هلاک شد . روز دیگر دیدند بر آن تیرنوشته ،

شعر :

تغی ولبغی سهام تنتظر دموع عینی باکیات فی السحر
أصابع المظلوم فی وقت السحر أنفذ فی الأضلاع من وخذ الإبر
تلك سهام تتقی و تحترق .

کتاب "أخلاق محتشمی"

ویأتی بعد هذا الكتاب کتابان آخران هما : «أخلاق محتشمی» و «أخلاق ناصری» لنصیر الدین الطوسی (متوفی ۶۷۲ هـ - ۱۲۷۳ م) ، والکتابان یختلفان عن بعضهما من ناحية طريقة التألیف ؛ فالأول یتناول مکارم الأخلاق من وجهة نظر الآیات القرآنیة وأخبار الرسول وأحادیثه وأفکار أئمة الإسماعیلیة ودعاتها وأقوال الحكماء والعظماء ، والثانی یتناول الأخلاق من وجهة نظر الفلاسفة ، وقد کتبهما نصیر الدین باسم ناصر الدین عبد الرحیم بن أبی منصور محتشم قهستان (متوفی ۶۵۵ هـ - ۱۲۵۷ م) .

وننقل هنا نموذجاً من کتاب «أخلاق محتشمی» لنصیر الدین الطوسی ، وهو فی کل أبواب الکتاب الأربعین یتبع طريقة واحدة فی حدیثه عن الأخلاق وهی ذکر آیات قرآنیة وأحادیث نبویة وأقوال للأئمة والحکماء حول کل موضوع من الموضوعات مع ترجمة فارسیة لها ؛ ومثال ذلك باختصار ما جاء فی الباب الرابع والعشرین فی حسن الخلق ومکارم الأخلاق^(۱) :

۱ - « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (۳۴) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » (فصلت ۳۴) .

ترجمة : ویکسان نباشد نیکی و بدی ، دفع بوجه أحسن کن : تا آنکس که دشمن تو باشد مانند دوستی شود خویشاوند ، وتوفیق ندهد درین جز صابران را وخداوندان بهرهء تمام را .

=

= شعر :

کذاشت ظلم تو زاندازه بر مسلمانان زگر دگار بترس این چه مسلماً نیست
خداى شر تو از روى دفع کتاد که با وجود تو روى جهان بويرا نیست
(مکارم الأخلاق - طهران ۱۳۴۱ ص ۱۲۵ - ۱۳۰) .

۲ - ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى﴾ (البقرة ۲۶۳) .

ترجمة : سخن نیکو و آمرزش گناهی ، بهتر از صدقه ایست که رنجانیدنی در عقب او باشد .

۳ - ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشوری - ۳۷) .

ترجمة : در وصف مؤمنان میفرماید : و آنکسانی که از گناههای بزرگ

وزشتیها اجتناب کنند ، چون درخشم شوند عفو کنند .

۴ - ﴿يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (۵۴) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ (القصص ۵۴ ، ۵۵) .

ترجمة : و دفع میکنند بنیکی بدی را ، و از آنچه ایشان را روزی داده ایم نفقه میکنند ، و چون نا فرجام شنوند از آن اعراض کنند گویند ما را ست عمل ما و شمارا عمل شما ، سلامت باد شمارا .

۵ - حسن الخلق نماء . لا حسب كحسن الخلق . إن أحسن الحسن الخلق الحسن . البر حسن الخلق . من سعادة المرء حسن الخلق .

ترجمة : خوی خوش سیب فزودن باشد . هیچ حسب و هنر چون خوی خوش نبود . بهترین چیزی خوی خوش بود . نیکویی خوش خوی است ، از نیکویی مرد باشد خوش خویی او .

۶ - تخلقوا بأخلاق الله ، إن أكثر الناس يدخلون الجنة بتقوى الله وحسن الخلق .

ترجمة : خلق خدا گیرید در کارها . بیشترین مردم را که در بهشت برد پرهیزکاریست و خوش خوی .

۷ - إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. إن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم .

- ترجمة : مرا فرستاده اند تا مکارم اخلاق با تمام رسانم ، و آن را
بکمال برم . شما نتوانید که با مردان بمالها نیکوئی کنید ، پس بایشان نیکویی
کنید بأخلاق خویش .
- ۸ - لا تجلسوا على ظهور الطرق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وردوا السلام ،
واهدوا بأخلاق الضالة ، وأعينوا الضعيف .
- ترجمة : بر راهها منشینید ، اگر لا بد خواهید نشست چشم نگاه
دارید ، وجواب سلام دهید ، وگمراه را راه نمایید وضعیفان را یاری کنید
- ۹ - من رغب فى المكارم عف عن المحارم . فى سعة الأخلاق كنوز الأرزاق .
- ترجمة : هرکه در مکارم راغب بود از محارم پرهیز کند ، در خوش خوی
کنجهای ، روزی بود .
- ۱۰ - قدر الرجل على قدر همته ، وصدقه على قدر مروته ، وشجاعته على قدر
أنفته ، وعفته على قدر غيرته .
- ترجمة : قدرواندا زهء مرد بر قدر همت او بود ، وصدق او بر قدر مروت او ،
وشجاعت او بر قدر حمیت او ، وپرهیزکاری او بر قدر غیرت او .
- ویاتى بعد هذين الكتابين كتاب «لوامع الإشراف فى مكارم الأخلاق» المعروف
باسم «أخلاق جلالی» لجلال الدين محمد بن أسعد الدوانی (متوفى ۹۰۸ هـ -
۱۵۰۲م) ، وقد كتبه مؤلفه باسم السلطان خليل بن اوزون حسن مؤسس أسرة
أق قویونلو ، وطبقاً لما ذكره المؤلف نفسه فقد اقتبس موضوعاته من كتاب أخلاق
ناصری لنصیر الدین الطوسی ، كما يحتوى الكتاب على موضوعات فى تدبیر
المنزل وسياسة المدن ، وأسلوب الكتاب يتميز بالتكلف والصنعة .

كتاب "أخلاق محسنى"

يعد كتاب «أخلاق محسنى» من كتب الأخلاق الهامة ، ومؤلفه هو ملا حسين الواعظ الكاشفى السبزوارى (متوفى ٩١٠ هـ - ١٥٠٤ م) ، يقع الكتاب فى أربعين باباً ، وكتبه مؤلفه باسم أبى المحسن بن السلطان حسين بايقرا ، ولهذا سمي بأخلاق محسنى . ويتناول المؤلف فى كتابه مجموعة من مكارم الأخلاق كالغفو والصبر والحلم والعفة والعدل والصدق والسخاء والإحسان والشجاعة وغير ذلك .

يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة^(١) يمدح فيها الرسول (ﷺ) ، ويذكر أن الله وصفه بأنه على خلق عظيم ، ويرى أن حسن الأخلاق «نور من أنوار الحكمة الإلهية ، وسر من أسرار العزة الملكية» ، وأن الهدف من بعثة الرسول هو إتمام مكارم الأخلاق الحسنة ومن ثم قال (تخلقوا بأخلاق الله) ، وأول ما يوزن فى ميزان القيامة الأخلاق الحسنة ثم الأعمال الحسنة ، وذكر أن «الحكماء قالوا إن تهذيب الأخلاق طريق مضى ، ولا يمكن الوصول إلى منزل الشرف والسيادة إلا بالنهج على هذا المنهاج» . ثم يتحدث عن ضرورة وجود المكارم لإقامة الشريعة ويذكر فى ختام مقدمته فهرساً لأبواب الكتاب الأربعين .

ويسير المؤلف فى كتابه على نهج واحد فى عرضه لمكارم الأخلاق ، فهو يضع عنواناً لكل باب ، ثم يعرف كل مكرمة على حدة ، ويتبع ذلك ذكر بعض الحكايات التى تتخللها أبيات من الشعر وآيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ومثال تعريفاته هذه ما ذكره فى الباب الأول عند تعريفه للعبادة ، ويقول : «المقصود بها عبادة الحق سبحانه وتعالى عن طريق أداء الفرائض والواجبات وترك المساوىء والمحرمات ، والانقياد إلى الأوامر والنواهى ، واتباع سنن حضرة حامل الرسالة ، والمقرر أن عبادة الحق سبحانه وتعالى تؤدى إلى السلامة فى الدنيا وإلى النجاة والكرامة فى الآخرة» .

(١) مقدمة كتاب «أخلاق محسنى» من ص ٢ إلى ص ٦ - طبعة لكهنو يوليو ١٩١٢ م - ١٣٣٠ هـ .

ويزكر فى نهاية هذا الباب حكاية تدل على صحة حديثه وصدق رؤيته.

ويعرف المؤلف الإخلاص فى الباب الثانى فيقول بأنه «تظهر العمل من الرياء والغرض وسائر العلل ، وإخلاص النية مع الله عز وجل» ، ويتحدث عن الدعاء فى الباب الثالث ويعرفه بأنه «عرض الحاجة على البلاط الإلهى ، وطلب المراد من فيضه وفضله اللامتناهين. والدعاء إما لتحصيل نفع أو لدفع ضرر ؛ ولا مناص للسلطين من كلا النوعين». أما فى الباب الرابع فيعرف الشكر بأنه هو «شكر المنعم وحمده على إنعامه ، ولما كانت نعمة السلطنة هى أعظم النعم ، فيجب على السلطان القيام بالشكر على هذه النعمة ، ويكون الشكر بالقلب واللسان والأعضاء والجوارح .. ويحكم (لئن شكرتم لأزيدنكم) فإن الشكر يكون سبباً فى زيادة النعمة» .

نموذج من كتاب «أخلاق محسنى» :

الباب السابع عشر^(١) :

فى الحلم

«الحلم من الأخلاق الإلهية كما قال الله تعالى «إن الله غفور رحيم» ، وقد كان لكل الأنبياء والأولياء نصيب من هذه الصفة ، حتى يحطموا بقوتها سورة الغضب التى هى مفسدة للإيمان وقائدة لجيش الشيطان وقد جاء فى الحديث الشريف (ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) .

لا تظن أن الرجل بالقوة والشجاعة ولكن اعلم أنه كامل إذا تغلب على غضبه

(١) انظر ص ٤٣ - ٤٦ من كتاب 'أخلاق محسنى' .

النص الفارسى *

باب مقدم در حلم

يكى از اخلاق حلم است كما قال الله تعالى (إن الله غفور حلیم) وجملة أنبياء وأولياء را ازین صفت نصیبی داده اند تا بقوت آن سورت غضب را که مفسد ایمان وپیش رو لشکر شیطان است بشکستند ودر حدیث آمده که قوى ترین شمعانه آنکس باشد که مردمان را بیفکند واز پای در آرد قوى تر آنکس که در حال غضب خود را بیفکند ومالک نفس خود باشد .

وجاء فى الإنجيل أنه يجب على الملوك ترويض أنفسهم على الحلم وتطويعها على الانقياد حتى لا يغضبوا إذا سمعوا ما لا يرضيهم ، لأن لديهم القدرة والاستطاعة ويطيعهم كل من فى خدمتهم ، فإذا لم يتحول غضبهم عليهم إلى حلم ، ويتحكم التحمل فى الغضب ، ويغضبون لكل قول وفعل ، فإنهم بذلك يستأصلون الناس فى كل حين وأن ، ولن يبقى للملك رونق ، ومن أفضل ما قالوا فى هذا الصدد :

إن التحمل خزينة العقل ومن لا يتحلى بالحلم يكون شيطاناً
فالحلم لو تعلم قيد للشيطان والغضب يكون سجناً بسببه

ومثل الحليم كالجبل إذا سقط السيل فى ممره على حذر فلن يستطيع اقتلاعه ، لا تؤثر فيه نيران الغضب مع أن كرة أثيره تكون فى خطر منها ، ولا يمكن أن تهدأ نيران غضب أى سلطان بدون مدد وعون من الحلم ، ولا يصبر أى حاكم على كلام

= بيت :

مردى گمان مبر که بزورست پر دلی با خشم گر بر آنی دالم که کاملی

در کتاب انجیل مذکورست که ملوک را واجب بود که نفس خود را ریاضت دهند بحلم ورام سازند در فرما نیراداری تا هر چه بشنوند که خلاف رضای ایشان باشد در خشم نشوند زیرا که ایشان را قدرت و توانائی هست وزیر دستان مطیع ایشانند اگر خشم زیر دست حلم نباشد و غضب محکوم بردباری نبود و بهر قولی و فعلی خشم گیرند هر آنیه مردم مستأصل شوند و ملک را رونق نماند و پس زیبا گفته اند : نظم

بردباری خزینه خردست هر کرا حلم نیست او چو دوست

دیو بندست حلم اگر دانی غضب از دست اوست زندانی

مرد حلیم آنست که سیلاب غضب او با آنکه کوه شامخ اگر در ممر او افتد بر حذرست او از جای نتواند برد و نائره خشم با وجود آنکه کوه اثر از التهاب آن در خطر ست در وی تصرف نتواند کرد و بی مدد حلم آتش غضب هیچ سلطانی تسکین نباید و بی معاونت بردباری هیچ حاکمی بار گفت وگویی رعایا بر نتابد پس پادشاه عادل آنست که حلم را زیور روزگار خود سازد و بد ستیاری او بنیاد خشم عالم سوز براندازد. نظم :

چو حلم اندر آمد غضب گشت پست غضب را همین برد باری شکست

سنون خرد بردباری بود سبک سر همیشه بخواری بود

رعیتہ بدون معونۃ من التحمل ، فالسلطان العادل هو الذى يزين عصره بالحلم ، ويقتلع
أساس الغضب الحارق للعالم بمساعدته ، شعر :

عندما يدخل الحلم يفز الغضب والتحمل يكسر الغضب ويحطمه
وعמוד العقل هو التحمل والصبر ودائماً يكون خفيف العقل فى ذلة

روى عن سليمان الوراق أنه قال : كنت يوماً عند المأمون فرأيت فصاً من الياقوت
طوله أربعة قراريط وعرضه قيراطان ، وكان كالشمس المضيئة . وكوكب الزهرة
الساطع فى صفائه وبريقه ، فاستدعى المأمون صانعاً وقال له : اصنع خاتماً يمكن أن
يكون هذا الياقوت فصاً له ، فأخذ الصانع الياقوتة ومضى ، وبالصدفۃ كنت عند
المأمون فى يوم آخر ، فتذكر الخاتم وأمر بإحضار الصانع عنده ، وعندما حضر
الصانع ، رأيتۃ وقد أصابت جسده الرعشة كشجرة صفصاف تهتز ، فسأله المأمون
عن سبب تغيره ، فقال : أعطنى الأمان حتى أقص عليك ما حدث. فقال المأمون :

= از سليمان وراق نقل کرده اند که گفت که روزی در خدمت مامون بودم نگینی از یاقوت دیدم که طول او
چار انگشت و عرض او دو انگشت و در صفا روشنی چون خورشید تابان و ناھید درخشان بود پس زرگری را
خواند و گفت خاتمی بساز که این یاقوت نگین آن تواند بود و زرگر یاقوت بر گرفت و برفت قضا را روزی دیگر
هم در خدمت وی بودم که از آن انگشتی یاد کرد و بفرمود زرگر را بیاوردند چون زرگر حاضر شد دیدم که
رعشه بر وی افتاده است و چون بیدی لرزد مامون پر سید که سبب تغیر تو چیست ، گفت : مرا امان ده تا
بگویم ، گفت : امان دادم. زرگر نگین بیرون کرد بچهار پادہ شدہ ، گفت : ای خلیفہ انگشتی ساختم
و خواستم که را بہ نگین دان برم از دست من بر سندان افتاد و چهار پاره شد ، مامون تبسم کرد و گفت برو
و این را چهار انگشتی ساز و تدرارین هیچ گنا ہى نیست و این صورت کہ از مامون صادر شدہ غایت حلم
و بردباریست. نظم :

حلم سرمایہ کمال بود سبب عزت و جلال بود
حلم شادی فراى ہر خجل ست مویانی ہر شکستہ دل ست

نو شیروان از بوزرجمہر پرسید کہ حلم چیست گفت نمک خوان اخلاق است چہ حروف آنرا چون بر گرا دند
ملح میشود چنانکہ هیچ طعامی بی ملح مزہ ندد هیچ خلقی بی حلم جمال نیمايد ، نو شیروان گفت : علامت
حلم کدامست؟ گفت : حلم را سہ نشانہ است یکی انکہ اگر قرش روی و سخت کوی با او سخن تلخ در
میان آرد او بدر برابر آن جواب شیرین بر زبان راند و اگر بفعل نیز او را بر نجانند بازای آن با او احسان
= نماید. قطعہ :

اعطيتك الأمان . فأنخرج الصائغ الفص وقد تحطم إلى أربعة أقسام ، قال الصائغ : أيها الخليفة لقد صنعت خاتماً وأردت أن أضع الفص بداخله ، فسقط من يدي على السندان وتحطم إلى أربع قطع. فابتسم المأمون وقال : اذهب واجعلها أربعة خواتم ، فلا ذنب لك فيما حدث على الإطلاق ، وهذا التصرف الذي صدر عن المأمون هو غاية الحلم والتحمل. شعر :

إن الحلم أساس الكمال وهو سبب العزة والجلال
والحلم يزيد فرح كل مهموم وهو علاج لكل حزين

سأل أنوشيروان بزرجمهر عن ماهية الحلم فقال إنه ملح مائدة الأخلاق ، لأنه عند قلب حروفه يصبح ملحاً ، وكما أنه لا طعم لأي طعام بدون الملح ، فإن الخلق لا يكون جميلاً قط بدون الحلم . قال أنوشيروان : ما هي علامة الحليم؟ قال : للحليم ثلاث علامات ، أولها : إذا تحدث معه رجل عبوس عنيف الكلام بحديث مر أجابه بإجابة حلوة ، وإذا أذاه بفعل أيضاً أحسن إليه إزاء ذلك .

با تو گریم که چیست غایت حلم هر که ز همت دهد شکر بخشش
هر که بخرا شدت جگر بجفا همچو کان کریم زر بخشش
کم مباش از درخت سایه فکن هر که سنگت زند ثمر بخشش

علامات دوم آنست که در عین آنکه آتش خشم زیانه گیرد و صولات غضب و سطوت آن بغایت رسد خاموش گردد و این دلیل اطمینان دل و تسکین روح ست و درویشان سالک علاج غضب بدین نوع کرده اند . نشانه سوم خوردن خشم ست اگر کسی فی الواقع مستحق عقوبت بود .

آورده اند که روزی آن نوازاده بوستان ولایت پاکوره باغستان هدایت سبط نبی و نجل ولی حسین بن علی رضی الله عنهما با جمعی مهمانان از اشراف عرب بر سرخوانی نشسته بودند خادمش با کاسه آتش گرم درآمد از غایت دهشت پایش بحاشیه بساط در آمد و کاسه از دستش بر سر شاهزاده افتاد و آتش بر رخساره مبارکش فرو ریخت امام حسین از روی تأدیب نه راه تعذیب درو نگریست بر زیان خادم جاری شد و الکاظمین الفیظ ، حسین گفت : خشم فروخوردم ، خادم گفت : والعافین عن الناس ، گفت : عفو کردم ، خادم تنمّه آیت بر خواند : والله یحب المحسنین ، حسین گفت : از مال خودت آزاد کردم و مؤنث معیشت تو بر ندمه خود لازم کرانیدم. مثنوی :

بدی مکافات کردن بدی بر اهل صورت بود بخردی

بمعنی کسانی که بی پرده اند بدی دیده و نیکنوی کرده اند

در اخبار آمده که حضرت عیسی علی نبینا وعلیه السلام سوال کردند سخت ترین همه چیزها چیست جواب

قطعة

أقول لك ما هي غاية الحلم امنح سكرًا لكل من يعطيك سماً
وكل من جرح كبدك بجفائه كن معه كالمنجم كريماً تهب ذهباً
ولا تكن أقل من الشجرة الظليلة وامنح الثمار لكل من يرميك بالحجر

أما العلامة الثانية ، فهي إذا ما اشتعلت نيران الغضب ، ووصلت صولة الغضب وسطوته غايتها ، التزم الصمت ، وهذا دليل اطمئنان القلب وهدوء الروح. وقد عالج الشيوخ الغضب بهذا النوع. أما العلامة الثالثة فهي كظم الغيظ أمام من يستحق العقوبة فعلاً .

حكى أن بكر بستان الولاية وباكورة حديقة الهداية سبط النبي ونجل الولي الحسين بن علي رضي الله عنهما كان يجلس ذات يوم مع جمع من الضيوف من أشرف العرب على مائدة الطعام ، فدخل خادمه حاملاً إناء إدام ساخن ، ولدهشته الزائدة تعثرت قدمه في طرف البساط ، فسقط الإناء من يده على رأس الأمير ، وانسكب الإدام على وجهه المبارك ، فنظر إليه الإمام الحسين على سبيل التأديب لا على سبيل التعذيب ، فقال الخادم : (والكاظمين الغيظ) وقال الحسين : كظمت غيظي ، قال

داد كه خشم خدای گفتند بچه چیز از غضب الهی ایمن توان شد فرمود که ترك غضب خویش وحضرت مولوی معنوی در مثنوی اشارتی بدین معنی فرموده. مثنوی :

گفت عیسی را یکی هشیار سر چیست در هستی زجمله صعب تر
گفت ای جان صعب تر خشم خدا گفت از آن دوزخ همی ترسد چو ما
گفت زین خشم وشهوت وحرصی آوری هست مریدی در ره پیغمبری

وپیاید دانست که غضب در بسیار مواضع از حلم بهتر است چه غضبی که از جهت حرص وطمع یا بواسطه تکبر و خویشتن داری بود مذموم است اما برای اعلام معالم دین متین و جهت حفظ مراسم شرع مبین بسیار ستوده پسندیده است ، مثلاً اگر کسی از خیانت محرمان حرم خویش حلم ورزد عقلاً وشرعاً و عرفاً مذموم بود واز نظر اهل مروت ساقط شود چون غیرت بی غضبی و خشونتی دست دهد کمال مرد در آنست که محل حلم وموضع غضب را بنظر صحیح تمیز کند تا هرجا آنچه مناسب بود بکار برد . بیت :

فهر و لطف اندر محل خود نکوست جای گل باش و جای خار خار

الخادم : (والعافين على الناس) ، قال الحسين : عفوت عنك ، فقرأ الخادم بقية الآية (والله يحب المحسنين) ، قال الحسين : أنت حر والتزم بمؤونه عيشك. مثنوى :

جزاء السوء سوء وهذا معقول عند أهل الصورة
ولكنه عند أهل التفوى مشاهدة السوء وفعل الخير

وجاء فى الأخبار أن سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام سئل عن أصعب الأشياء فأجاب : إنه غضب الله . فقالوا : كيف يمكن للإنسان أن يأمن غضبه؟ قال : بترك غضبك ، وقد أشار المولى فى كتابه المثنوى إلى هذا المعنى فقال :

- قال أحد الأذكياء لعيسى ما هو أصعب شيء فى الوجود؟

- قال يا عزيزى إن أصعب شيء هو غضب الله ، الذى تخشاه جهنم مثلاً ،

- قال كيف يتجنب المرء غضب الله؟ قال عن طريق ترك غضبك فى الدنيا .

- فإذا تركت غضبك وشهوتك وحرصك ، تكن سائراً على طريق النبوة .

ويجب العلم بأن الغضب يكون أفضل من الحلم فى كثير من المواضع ، فالغضب من أجل الحرص والطمع أو بواسطة التكبر والغرور أمر مذموم ، ولكنه محمود ومقبول جداً من أجل إعلاء معالم الدين المتين ، وحفظ مراسم الشرع المبين ، فمثلاً إذا تحلى شخص بالحلم إزاء خيانة محارمه ، فهذا أمر مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً ، ويكون ساقطاً فى نظر أهل المروءة ، لأن الغيرة لا تتم بدون الغضب والخشونة ، وكمال المرء أن يميز بثاقب نظره بين موضع الحلم وموضع الغضب حتى يستعمل فى كل موضع ما يناسبه. بيت :

«الغضب واللفظ جميلان فى موضعهما فكأن وردة فى مكان الورد وكن شوكاً فى موضع الشوك» .

والمعروف أن الحلم من الفضائل الأخلاقية التى دعا إليها الإسلام ، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) المثل الأعلى فى الحلم ، لأن الله أدبه فأحسن تأديبه ، أمره بقوله : «خذ العفو

وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين. وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون» (سورة الأعراف ١٩٩ - ٢٠١) ، ويقول : «سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين» (آل عمران ١٣٣ - ١٣٤) .

ويعتبر كظم الغيظ أقل شأنًا من الحلم ، لأن كظم الغيظ تحلم وتكلف للحلم ، ولا يحتاج إلى كظم غيظه إلا من غضب ، وكان الحلم من شمائل المصطفى ، وكان من الوسائل التي جذبت إليه النفوس وألفت حوله القلوب ، وصدق الحق سبحانه وتعالى في قوله : «فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك» (آل عمران ١٥٩) . ومظاهر حلمه كثيرة ، ولكن كانت هناك بعض الأحداث لم يكن يستطيع الحلم فيها ، وخاصة تلك التي كانت تصيب الدعوة الإسلامية ، وكيف يحلم على السفهاء الذين يتجرون على الإسلام ويسخرون بالوحدانية والبعث^(١) .

وقد جاء في كتاب «إحياء علوم الدين»^(٢) أن المصطفى (صلعم) كان يقول في دعائه : «اللهم أغنني بالعلم ، وزيني بالحلم ، وأكرمني بالتقوى ، وجملني بالعافية» وقال صلعم : «ابتغوا الرفعة عند الله ، وقالوا : وما هي يا رسول الله؟ قال : تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتحلم بمن جهل عليك» وقال الله تعالى : «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» (الفرقان ٦٣) ، وقال العلماء إن جهل عليهم لا يجهلون ، وإذا سبك إنسان أو اغتابك أو عيرك فعليك بالحلم ففيه النجاة في الدارين ، أما في الحال فإنه يزاد في احترامه وهو يزيد في الآخرة جزيل الثواب ، وقال عليه الصلاة والسلام : «إن امرء عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه» .

وهناك من الأدباء الفرس من كتب عن الأخلاق بطريقة مختلفة عن السابقين ، أو حاول أن يبين الأخلاق الفاضلة التي كان يتصف بها القدماء ، والأخلاق الذميمة التي اتصف

(١) انظر كتاب «من أخلاق النبي» ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) مختصر إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي - مكتبة مصر - القاهرة ص ١٨٧ .

بها الناس فى عهده ، ومن هؤلاء عبيد الله الزاكاني القزوينى (م ٧٧١ هـ) وهو من أهم الأدباء الذين سجلوا فى أشعارهم ونثرهم نقداً للأوضاع القائمة فى عصرهم. والمعروف أن العصر الذى عاش فيه عبيد الله كان مليئاً بالمفاسد من جهل وظلم فى ظل حكم التتار . ومن أهم مؤلفاته النثرية فى هذا الصدد رسالة «أخلاق الأشراف» التى أطلق عليها هذا الاسم فى مقابل كتاب «أوصاف الأشراف» الذى ألفه نصير الدين الطوسى (م ٦٧٢ هـ) ، ويبدو أن الزاكاني قد اختار اسم رسالته من باب الاستهزاء والسخرية من هؤلاء الذين تركوا مكارم الأخلاق واتصفوا بصفات ذميمة لا تليق بالمسلمين. وقد ألف الزاكاني هذه الرسالة عام ٧٤٠ هـ ، وهو ينتقد فيها أخلاق عظماء عهده ويوضح فيها فساد المجتمع وينتقد كل العيوب الموجودة فى عصره. وتشتمل هذه الرسالة على سبعة أبواب فى مكارم الأخلاق وهى : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل ، والسخاء ، والحلم والوفاء ، والحياء والصدق والرحمة والشفقة . ويقسم المؤلف كل باب من أبواب هذه الرسالة إلى مذهب منسوخ وهو مذهب القدماء الذين كانوا يتحلون بهذه الفضائل ، ومذهب مختار وهو المذهب المناقض لكل فضيلة من هذه الفضائل وهو ما يتبعه المعاصرون للزاكاني ويسيرون على نهجه ، فمثلاً عندما يتحدث عن العدل^(١) يرى أن المذهب المنسوخ هو أن السلف كانوا يعتبرون العدل من الفضائل الهامة وعلى أساسه يقوم المعاش والمعاد ، وأن الله يأمر بالعدل والإحسان ، ومن هنا اهتم السلاطين والأمراء بنشر العدل بين الناس والاهتمام بشئون الرعية ، أما المذهب المختار عند أهل عصره فهو أن العدل من أسوأ السير وهو يؤدى إلى خلل كبير ، وأن من يقيم العدل ويتعامل مع الناس معاملة حسنة لا يهابونه ، بينما يخشون الظالم الذى لا يقيم العدل ، وعندئذ ترقى دولته وتتقدم ويضرب مثلاً على ذلك هولاء وما كان يفعله من ظلم ومذابح ، ولهذا دام الحكم لأسرته مدة تسعين سنة. وهكذا يبين المؤلف كل فضيلة من الفضائل وأهميتها وكيف كان السلف يتحلى بها ، ثم ضياع هذه الفضيلة فى عصره واعتقاد معاصريه بأن اتباعها والتحلى بها أمر غير ضرورى وغير صحيح ، ومن هنا اتصفوا بصفات سيئة وأخلاق غير حميدة ، وهو يوضح كل هذا فى أسلوب ساخر تميز به المؤلف عن غيره من النقاد .

(١) انظر كليات عبيد زاكاني - تهران ١٣٤٠ - ص ٢١ .

٢ - الأخلاق في الشعر الفارسي :

أما بالنسبة للشعر الأخلاقي الذي نظم ليحث الناس على الأخلاق الفاضلة المستوحاة من مبادئ الدين الإسلامي ، فهو يتناثر هنا وهناك خاصة في المنظومات الصوفية ، وقد بدأ هذا النوع من الشعر يظهر منذ أوائل القرن السادس ، ونراه في منظومة «حديقة الحقيقة» لسنائي الغزنوي (متوفى ٥٢٦ هـ) مما دعا شعراء أواخر القرن السادس وأوائل السابع إلى تقليده والسير على نهجه في نظم منظومات صوفية ممتزجة بالمواعظ والحكمة. أما المنظومات التي نظمت في التربية والمواعظ الأخلاقية بهدف إصلاح المجتمع فهي تبدأ بالشاعر سعدى الشيرازي أعظم شاعر أخلاقي في إيران. ومن أهم مؤلفاته في هذا الصدد منظومته المثنوية «بوستان» التي تقع في عشرة أبواب بعد المقدمة هي :

- ١ - باب العدل والتدبير والرأى ٢ - الإحسان ٣ - العشق
- ٤ - التواضع ٥ - الرضا ٦ - القناعة ٧ - التربية
- ٨ - الشكر ٩ - التوبة والطريق الصواب ١٠ - المناجاة .

والمعروف أن مشرف الدين بن مصلح الدين عبد الله المتخلص بسعدى الشيرازي قد قام برحلات كثيرة تجول فيها في أنحاء مختلفة من ديار الإسلام ما بين الهند شرقاً إلى الشام والحجاز غرباً ، فهيأ له ذلك معرفة بالشعوب وأخلاقها وعاداتها المتباينة ، ولم يرغب في أن تكون كل هذه المعرفة والتجارب التي اكتسبها وقفاً عليه، بل أراد أن يطلع عليها الناس ، فكان له هذا النوع من الشعر الأخلاقي التعليمي. ويشير الشاعر في مقدمة كتابه «البستان» إلى ذلك تحت عنوان «سبب نظم الكتاب»^(١)

(١) کلیات شیخ سعدی - طهران ۱۳۲۷ ص ۲۲۰ .

درا اقصای عالم بگشتم بسی	بسر بردم ایام با هر کسی
نمتم بهر گوشه ای یافتم	زهر خر منی خوشه ای یافتم
بدل گفتم از مصر قند آورند	بسر دوستان از مغانی برند
دریغ ادمم زان همه برستان	تهی دست رفتم سوی دوستان
مرا گر تهی بود زان قند دست	سختیهای شیرین تراز قندهست
نه قندی که مردم بصورت خورند	که ارباب معنی بکاء برند

- لقد تجولت كثيراً فى أنحاء العالم ،

وأمضيت بين الناس كثيراً من الأيام .

- وتمتعت فى كل ناحية من نواحيه ،

وحصلت من كل بيدر على سنبله

إلى أن يقول :

- لقد قلت لنفسى إنهم يأتون من مصر بالسكر ،

فماذا أحمل إلى الأحباب فى عودتى ؟

- عدت أسفاً ، فإنى من كل ذلك البوستان ،

أعود خالى اليد ، لا شىء فيها للأحباب ،

- لكنى قلت ، ولو أن يدك خلت مما تحمله ،

فإنك تملك الكلام ، والكلام عندك خير من السكر .

- ليس هو ذلك السكر الذى يتناوله عامة الناس ،

بل هو السكر الذى يدونه أرباب المعانى .

والشاعر يبدأ منظومته بمدح الذات الإلهية فى حوالى ثمانية وستين بيتاً يبدأها
بالبيت المشهور :

باسم الله خالق الروح الحكيم الذى أجرى اللغة على الألسنة

ثم يمدح الرسول (صلعم) فى حوالى ثلاثين بيتاً ، والبيت الذى تخيره لمطلعها يدل
على أن الشاعر راعى فيه براعة الاستهلال ، فاختر بيتاً عربياً هو :

كريم السجايا ، جميل الشيم نبي البرايا ، شفيع الأمم

وكتاب «البوستان» يختلف عن كتاب «گلستان» في أن الأول شعر كله بينما الثاني نثر فيه بعض الشعر ، كما تبدو في البوستان الروح التعليمية الأخلاقية أكثر من الگلستان. ومن نماذج شعره الأخلاقي في البوستان قوله يدعو إلى العمل الصالح^(١) :

- ينبغي الآن أن تحسب للعمل كل حساب ،

وليس في الوقت الذي ينشر فيه الكتاب .

- واجتهد الآن فإن جاوز وسطك ،

لا تتركه حتى يصير سيلا فيتجاوز رأسك .

- وإذا أفلتت من يدك خمسون عاماً ،

- فاغتنم الأيام الخمسة الباقية .

- ومن بذر الشعير وقت الربيع ،

كيف يجنى القمح وقت الحصاد .

- والآن - إذا اجتهدت - وقت البذر ،

(١) کلیات سعدی ص ٤٠٠ ، سعدی الشیرازی شاعر الإنسانية ص ٤٥٥ تألیف دکتر محمد موسی هنداری - القاهرة ١٩٥١ م .

کنون کرد باید عمل را حساب	نه وقتی که منشور گردد کتاب
کنون کوش کاب از کمر درگذشت	نه وقتی که سیلاب از سر گذشت
چو پنجاه سالت برون شد ز دست	غنیمت شمر پنجروزه که هست
یکی در بهاران بیغشان جو	که گندم ستاند بوقت درو
کنون وقت تخمست اگر پروری	گرامید داری که خرمن بسری
گر از دست شد عمرت اندر بدی	تو آنی که در خرمن آتش زدی
بشهر قیامت مرو تنگ دست	که وجهی ندارد بحسرت نشست
قیامت که بازار مینو نهند	منازل باعمال نیکو دهند
بضاعت بچندانکه آری بری	وگر مفلسی شرمساری بری
بهشت آن ستاند که طاعت برد	کرا نقد باید بضاعت برد

- و كنت ترجو الأمل بطيب الثمر .
 - وإذا مضى العمر هباء في الشر ،
 فأنت كمن أشعل النار في البيدر .
 - ولا تذهب يوم القيامة ضيق ذات اليد ،
 لا وجه لأن تقعد متحسراً .
 - ويوم القيامة حين تعقد سوق الجنة ،
 توزع الدرجات وفق طيب الأعمال .
 - وتكسب البضاعة بقدر العمل ،
 فإن كنت مفلساً فتحمل الخجل .
 - والذي يكسب الجنة هو من قدم الطاعة ،
 ومن قدم المال تناول البضاعة .

* * *

ويقول في التوبة والاعتذار عن العمل السيئ^(١) :

- إذا أدرك المسيء نفسه ،

(١) کلیات سعدی ص ۴۰۰ ، سعدی شیرازی شاعر الإنسانية ص ۴۵۷ .
 کسی کر چه بد کرد هم بد نکرد که پیش از قیامت غم خود بخورد
 مگر مرغ دولت ز قیدم بجست هنوزش سر رشته داری بدست
 و گر رفت از اندازه بیرون بدی چو گفتمی که بد رفت نیک آمدی
 اگر هو شمندی ز داور بخسراه شب توبه تقصیر روز گناه
 طریقی بدست آر و صلحی بجوی شفیع بر انگیز و عذری بگوی
 هنوز از سر صلح داری چه بیم در عذر خواهان نبندد کریم
 فراشو چو بینی در صلح باز که ناگه در توبه گردد فراز
 بیمبر کسی را شفاعت گریست که بر جادهء شرع پیغمبر ست

- قبل يوم القيامة لم تحسب إساءته .
- ولا تقل إن طائر السعادة قد انفلت من القيد ،
- فإن طرف الحبل لا يزال باليد .
- وإن جاوزت الحد سيئاتك ،
- كنت ظافراً إذا اعترفت بذنبك .
- وإذا كنت عاقلاً فاسأل الله ليلاً .
- أن يعفو عما جنت يداك في النهار .
- وابحث عن الصلح واتخذ طريقاً لك .
- واقصد شفيعاً واعتذر عما قدمت يداك
- وإذا كنت لا تزال ترجو الصلح ، فلا خوف ،
- فإن الكريم لا يغلق الباب في وجه التائبين .
- واقبل ما دمت ترى باب الصالح مفتوحاً ،
- فلعل باب التوبة يغلق فجأة أمامك .
- والنبى الكريم هو من ترجى شفاعته ،
- لمن يتبعه وسلك طريق شريعته .
- وفى باب التواضع يدعو سعدى إلى التواضع ويرى أن فيه الرفعة وعلو المنزلة ،
- وليس ما يفهمه الناس حقارة وذلة ، ولا ينسى الشاعر فى مستهل هذا الباب أن يجعل
- المطلع مناسباً لهذا المعنى فيقول :
- خلق الله الإنسان من تراب ،
- فتواضع أيها العبد وكن كالتراب .
- ويردد الشاعر هذا المعنى فى مواضع مختلفة ، فيقول :

- إن التواضع يعلى رأس رفعتك ،
ويقلبك الكبرياء فى حضيض التراب .
- وحين تواضعت قطرة الماء أمام البحر ،
تربى الصدف عزيزاً فى أحضانها .
- وحين تواضع التراب خلق منه الإنسان ،
وحين تعاظمت النار خلق منها الشيطان .
- ووصف المتواضع بأنه من لا يغتر بعلمه ولا بماله ولا بمركزه ، فقال :
- زعمت أن عقلك ملئ بالمعرفة ،
فكيف يتسع الإناء لغير ما يحتمله ؟
- ليس الغنى بماله أفضل الناس ،
فالحمار حمار ولو لبس رداء من أطلس .
- إن كنت شاغلاً منصباً جليلاً
فلا تسخر من العاجز إن كنت عاقلاً^(١)

(١) انظر كتاب "سعدى الشيرازى شاعر الإنسانية" ص ٤١٧ ، ٤١٨ .
زخاک آفریدت خداوند پاک پس ای بنده افتادگی کن چو خاک

....

تواضع سر رفعت آفرادت	تکبر بخاک اندر اندازدت
چو خود را بجشم حقارت بدید	صدف در کنارش بجان پرورید
چو آن سرفرازی نمود این گمی	از آن دیو کردند از این آدمی

....

تو خود را گمان برده، پر خرد	انائی که پر شد دگر چون برد؟
نه منعم بمال از کس بهتر ست	خر زرجل اطلس ببوشید خراست
چو اسناده بر مقامی بلند	بر افتاده، گر هوشمندی مخند

- وفى باب القناعة يدعو الشاعر إلى التحلى بهذه الخصلة الطيبة إذ يقول(١) :
- اقنعى أيتها النفس بالقليل ،
 - حتى ترى السلطان والفقير متساويين .
 - والطمع يطردك من كل مجلس ،
 - فابعده ، حتى لا يطردك أحد من بابيه .
 - والله لن يرضى عن عبده .
 - الذى لا يرضى بما قسمه له ،
 - ولا تهرب أيها الحبيب أحداً بالشدة والظلم ،
 - فلعله يرجى أن يكون فيه ماء الحياة .
 - ولا تحرق قلبك يائساً بالفكر ،
 - فإن الليلة حبلى بالنهار .
 - والله الذى خلق الناس من تراب ،
 - عجباً لو ضيع آدميتهم .
 - والذى صور الطفل فى الأرحام ،
 - هو من كتب العمر وكفل الرزق .

(١) المصدر السابق ص ٤٢٩ .

فناعست كن إى نفس بر آندكى	که سلطان و درویش بینی یکى
توقع برانند زهر مجلس	بران از خودش تا برانند گست
خداوند از آن بنده خرسند نیست	که راضی بقسم خداوند نیست
ز ظلمت مترس ای پسندیده دوست	که ممکن بود کاب حیات دروست
دل از بی مرادى بفکرت مسوز	شب آبستنست ای برادر بروز
خدائی که از خاک مردم کند	عجب دارم از مردمی گم کند
نگارنده کوردک اندر شکم	نویسنده عمر و روزیست هم

ويقول الشاعر في تدبر صنع الخالق وشكره على النعم التي أنعم بها على الإنسان^(١) :

- انظر لذي الأصبع الواحدة مكونة من كم سلامي ، ووصلها وركبها الله معاً بالصنع الإلهي .

- ومن ثم يكون موساً وبلاهة أن تضع إصبعك على كلمة صنعه معترضاً .

- تأمل كم عظمة ركبها ووصلها من أجل سير الإنسان .

- إذ بغير دوران الكعب والركبة والقدم ، لا يمكن رفع القدم من مكانها .

- السجدة ليست صعبة على الآدمي ، لأن الفقرات في صلبه ليست قطعة واحدة .

- لقد عمل مائتي قطعة بعضها فوق بعض ، حتى أتم قطعة طين مثلك .

- العروق على جسدك يا حميد الخلق ، أرض بها ثلاثمائة وستون نهراً .

- البصر والرأى والفكر والتمييز في الرأس ، والجوارح بالقلب ، والقلب عزيز بالعلم والمعرفة .

- البهائم مكبة على وجهها ذليلة ، وأنت قائم على قدميك مثل الألف .

- لقد نكست رؤوسها من أجل تناول الطعام وأنت تأتي بالطعام أمام رأسك بعزة .

(١) انظر ترجمة الدكتور أمين عبد المجيد بدوي للبوستان تحت عنوان "أريج البستان" دار الشروق - القاهرة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م ، ٢٢٨ .

بين تا يك انگشت از چند بند ب صنع الہی بہم در فکند
پس آشفنگی باشد و ابلہی کہ انگشت بر حرف صنعش نہی
تأمل کن از بہر رفتار مرد کہ چند استخوان پی زد و وصل کرد
کہ بی گردش کعب وزانو و پای نشاید قدم بر گرفتن زجای
از آن سجده بر آدمی سخت نیست کہ در صلب او مہرہ یک آخت نیست
دو صد مہرہ ہر یکدیگر ساختست کہ گل مہرہ ای چون تو پر اداختست
رگت بر تنست ای پسندیدہ خوی زمینی در او سیصد و شصت جوی
بعد دوسر ورأی و فکر و تمیز جوارح بدل دل بدانش عزیز

- لا یجمل بك مع مثل هذه السیادة ، أن تخفض رأسك إلا للطاعة والعبادة .
- بإنعامه أعطاك الحب لا التبن ، ولم یجعل رأسك فی العشب مثل الأنعام .
- ولكن لا تخدع بهذه الصورة المحببة إلى القلب ، وخذ السیرة الطیبة .
- یلزم الطریق المستقیم لا القامة المستقيمة ، لأن الكافر من حیث الصورة مثلنا .
- الذی أعطاك العین والفم والأذن ، لا تجد ولا تسع فی مخالفته إذا كنت عاقلاً .
- فلا فرض أنك تدق العدو بالحجر ، لا تحارب الصدیق على أبی حال بالجهل .
- نو الطباع العاملة الذکیة العارفو الجمیل والمنة ، یسمرون النعمة بمسمار الشكر .

تو همچون الف بر قدمها سوار	بهایم برو اندر افتاده خسوار
تو آری بعزت خورش پیش مر	نگونی کرده ایشان سراز بهر خور
که سر جز بطاعت فرود آوری	نزیب ترا با چنین سروری
نکردت چو انعام سر در گیاه	به انعام خورد دانه ادات نه کاه
فربسا مشو سیرت خوب گیر	ولیکن بدین صورت دل پذیر
که کافر هم از روی صورت چو ماست	ره راست بایدنسه بالای راست
اگر عاقلی در خلافتش مکوش	ترا آنکه چشم و دهان داد و گوش
مکن باری از جهل بادوست جنگ	گر فتم که دشمن بکوبی بسنگ
بدوزند نعمت به میخ پیاس	خرد مند طبعان منت شناس

الفصل السادس

أدب النصيحة والحكمة

أدب النصيحة والحكمة

١ - النصيحة والحكمة في الشعر:

اهتم الفرس القدماء بالكتابة في الحكمة وإسداء النصيح، ويضم التراث الأدبي الپهلوی قبل الإسلام كتباً ورسائل في الحكمة والنصيحة، وقد نقل العرب في مؤلفاتهم كثيراً من حكم الفرس وأقوالهم وتقبلوها بقبول حسن.

ومن أوائل الشعراء الذين نظموا في الحكمة والنصيحة الشاعر أبو الحسن مجد الدين إسحق الكسائي المروزي وهو من شعراء أواخر القرن الرابع، وقد نظم الكسائي قصائده في المدح وتتميز معظم قصائده بالمعاني الفلسفية، وقد قلد بعضها الشاعر ناصر خسرو فيما بعد، ويعد الكسائي أستاذاً في الوصف وإيراد التشبيهات.

كما ينسب إلى الشاعر الرودي نظم كتاب «كليلة ودمنة» الذي نقله من الپهلوية إلى العربية ابن المقفع، إلا أنه لم يبق من هذه المنظومة إلا أبيات متناثرة في كتب الأدب والمعاجم مثل معجم أسدي الطوسي المعروف باسم «فرهنگ أسدي» وكتاب آخر يسمى «تحفة الملوك»^(١).

وأول منظومة متكاملة في النصيحة تقابلنا في الأدب الفارسي الإسلامي تلك المنظومة التي تسمى «پندنامه» أي كتاب النصيحة، للشاعر سعدي الشيرازي (متوفى ٦٩٤هـ)، وقد نظمها الشاعر في مائة وتسعين بيتاً، مقلداً فيها كتاب «پند نامه» لفريد الدين أبي حامد محمد بن أبي بكر إبراهيم بن مصطفى العطار من كبار شعراء إيران (متوفى سنة ٦٢٧هـ)، وهو كتاب صغير مجمل مليء بالمواعظ الأخلاقية.

(١) انظر كتاب: تاريخ أدبيات إيران - دکتر صادق رضا زاده شفق - چاپ يوم - تهران ١٣٥٢

ويمتدح سعدى فى كتابه بعد المقدمة بعض الفضائل كالكرم والسخاء والتواضع والعلم والعدل والقناعة والطاعة والعبادة والوفاء والشكر والصبر والصدق وغير ذلك، كما يذم بعض الصفات السيئة كالبلخ والتكبر والظلم والحرص والكذب. ويبدأ الشاعر منظومته بأبيات فى مناجاة الله ومدح الرسول (ﷺ) (١)

- أيها الكريم ارحم حالنا ؛ فنحن أسرى شباك محبتك

- لا معين لنا غيرك ، يا غافر ذنوب المذنبين

- ابعدنا عن طريق الخطأ ، وتجاوز عن أخطائنا ، وأرنا الصواب .

- طالما استقر اللسان فى الفم ، يكون الثناء على محمد شيئاً محبباً للنفس .

- فهو حبيب الله ، أشرف الأنبياء ، ومتكأه العرش الجيد .

ثم يخاطب نفسه فيقول:

- انقضت أربعون سنة من عمرك الغالى ولم يتحول مزاجك عن حال الطفولة .

- وقضيتها كلها خاضعاً لهوى النفس ورغباتها ، ولم تتصرف لحظة بما فيه

صالحك .

- فلا تعتمد على عمر غير مستقر ، ولا تأمن لزمن متقلب .

که هستم اسیر کمندها	(١) کریمای بر حال ما
توئی عاصیان را خطا بخش و بس	ندارم غیر از تو فریاد رس
خطا در گذار و صوابم نما	نگهدار مارا ز راه خطا

SADI'S SCROLL OF WISDOM-A. WOLLASTON P. 31 London 1908.

وإذا كان كتاب «پندامانه» للطار تميز بالسهولة والسلامة في التعبير، وتقديم النصح للنفس البشرية، فإن منظومة «پند نامه» لسعدی تتميز أيضاً بالسلاسة والعذوبة وتحاول تقديم النصح للإنسانية وبيان التمتع بالأخلاق الفاضلة والبعد عن الأخلاق الذميمة، ويستعين في ذلك بتجاربه في الحياة وما اكتسبه خلال رحلاته وأسفاره، ومن أبياته يصف الطاعة والعبادة وينصح بهما: ^(١)

- من كان الإقبال غلاماً له ، مال قلبه نحو الطاعة دائماً .
- لا يجب على الإنسان التمرد على العبودية ، فبالطاعة يمكن الحصول على السعادة والإقبال .
- فمن الطاعة تيسر السعادة ويضيء القلب من نور الطاعة .
- فإذا عزم على الطاعة والتزمت بها ، فتحت باب السعادة الأبدية .
- والعاقل من لا يتمنع عن الطاعة ، إذ لا فضل يفوقها .
- جدد الوضوء بماء العبادة ، لكي تنجو غداً من النار .
- وأقم الصلاة بنية مخلصه ، لكي تحصل على السعادة الأبدية .
- فضياء الروح يأتي من الطاعة ، مثلما تضيء الدنيا بنور الشمس .
- كن عابداً للخالق ، وكن ملازماً لإيوان الطاعة .

برد میل خاطر بطاعت مدام
که دولت بطاعت توان یافتن
دل از نور طاعت منور شود
گشاید در دولت جا وادن
که بالای طاعت نباشد هنر
که فردا ز آتش شورستگار =

(١) کسی راکه اقبال باشد غلام
نشاید سراز بندگی یافتن
سعادت ز طاعت میسر شود
اگر بندی از بهر طاعت میان
ز طاعت نه پیچد خرد مند سر
بآب عبادت وضو تازه دار

- وإذا اخترت عبادة الحق، فستستقر أخيراً في إقليم السعادة.

- ارفع رأسك من داخل رداء العفة، فالجنة مقر المتعفف الزاهد.

- أنر مصباح الروح بالتقوى، لكي تفوز كالمحظوظين.

- إن من يكتسى برداء الشرع، لا يخاف عذاب يوم الحساب.

ويقول في بيان الصبر: (١)

- إذا كان الصبر ملازماً لك، ستحصل على السعادة الأبدية

- لأن الصبر من خصائص الأنبياء، ولا يلوى المتدينون وجوههم عنه.

- والصبر يحقق للنفس أمانيتها، ولا يوجد مفتاح لهذا سواه.

کـــه حـــاصل کـــنی دـــولت پـــایدار	= نماز از سر صدق برپای دار
کـــه رـــوشن زخـــورشید بـــاشد جـــهان	زطاعت بود روشنائی جهان
دـــر ایوان طاعت نـــشـــینند بـــاش	پرمستنده آفریننده باش
دـــر اقلیم دـــولت شـــوی شـــهریار	آگر حق پرستی کنی اختیار
کـــه جنت بـــود جـــای پـــرهیز گـــار	سر از جیب پرهیز گاری بر آر
کـــه چـــون تیکبختان شـــوی نیک رـــوز	زتقوی چراغ روان بر فروز
نترســـد ز اسیب رـــوز شـــمار	کسی را که از شرع باشد شمار
بـــدمست آروى دـــولت پـــایدار	(١) ترا گر صبوری بود دستیار
نـــه پـــیچند زین رـــوی دین پـــرو ران	صبوری بود کار پیغمبران
کـــه جـــز صابری نـــیست مـــفتاح آن	صبوری گشاید در کام جان
کـــه از عالمان حـــل شـــود مـــشکلت	صبوری بر ارد مراد دلت
گـــشـــایند کـــشـــور آرزوست	صبوری کلید در آرزوست
کـــه در ضـــمن آن چـــند مـــعنی بـــود	صبوری بهر حال اول بود

- الصبر يحقق مراد قلبك ، ويحل مشاكلك في العالمين .

- الصبر مفتاح باب الأمانى ، وفتح مملكة الآمال .

- والصبر أولى بأى حال من الأحوال وفيه المعانى الكثيرة .

ويمتدح الشاعر فى منظومته الكرم ويعتبره سبباً للشهرة والسعادة فى الدنيا كما يرى أن فى السخاء دواء لكل الآلام والعلل وينصح بالتواضع لأنه يزيد الجاه كما يزداد ضوء القمر من الشمس، ويرفع من شأن الإنسان ويوصله للجنة ويرى أن الإنسان عليه أن يذوب فى طلب العلم كالشمعة ويعتبر طلب العلم فريضة عليه وينصح بالعدل ويضرب مثلاً على ذلك بعدل أنوشيروان ويرى أن عمران الدنيا يقوم أساساً على العدل. والقناعة من الصفات المحببة التى ينصح الإنسان بالتحلى بها، كما أن شكر الله على نعمائه عمل وفضيلة يجب التحلى بها ومهما شكر الإنسان ربه على النعم فإنه لن يوفى حقه.

وهناك صفات ذميمة نصح الشاعر بالابتعاد عنها كالبخل، ويتحدث عن البخيل ويصفه بالذليل مهما كان مقدار ماله، ويرى أن الكرماء والأسخياء يتمتعون بأموالهم بينما يشقى البخلاء بذهبهم، ويذم التكبر ويجعله من عادات الجهلاء والذين لا يتصفون بالودع والتقوى ويذم الظلم ويصف الخراب الذى يحقق بالدنيا على يد الظالم بالخراب الذى يحقق ببستان مزدهر على يد رياح الخريف، والكذب من الأمور المذمومة أيضاً عنده وينصح بالابتعاد عنه لأنه يسيء للإنسان ويوصله للخراب.

ويختتم الشاعر منظومته بأبيات تحت عنوان «فى عدم الأمل فى المخلوقات» يقول فيها: ^(١)

در منع امید از مخلوقات

(١)

ازین پس مکن تکیه برروزگار	که ناگه ز جانم بر آرد دمار
مکن تکیه بر لشکر بی‌عدد	که شاید ز نصرت نیابى مدد
مکن تکیه بر ملک و جاه و حشم	که پیش از تو بودست و بعد از تو هم =

- لا تعتمد على الزمن من الآن فصاعداً ، فجأة سيدمر روحك .
- ولا تعتمد على جيش جرار ، فربما لا يعينك على الانتصار .
- ولا تعتمد على الملك والجاه والحشم فقد كانوا جميعاً موجودين من قبلك وسيكونون من بعدك .
- لا تخطئ فتسئ إلى صديق حميم ، فالبذرة السيئة لن تثمر ثمراً طيباً .
- لا تعتمد على الملك والحكم ، ففجأة ستسلم الروح عندما يصدر الأمر .
- فكم من ملوك ذوى مكان رفيع ، وكم من أبطال استولوا على الممالك .
- وكم من محاربين حطموا الجيوش ، وكم من رجال كالأسود ضربوا بالسيوف .
- وكم من جميلات ممشوقات القد ، وكم من لطيفات وجناتهن كالشمس .
- وكم من حسناوات فى ريعان الشباب ، وكم من عرائس فى أبهى الزينات .
- وكم من مشاهير وملوك سعداء ، وكم من ممشوقات القوام كالسرو ورديات الوجدات .
- مزقوا جميعاً ثياب العمر ، وارتدوا ثوب التراب .
- وذهب محصول عمرهم أدراج الرياح ، ولا يستطيع أحد العثور على أثر لهم .
- فلا يتعلق قلبك بهذه الدار الفانية ، فإنك لا ترى فيها قلباً سعيداً .

نمی روید از تخم بد بار نیک
که ناگه چو فرمان رسد جاندهی
بسا پهلوانان کثور سنان
بشایر مردان شمشیر زن

= مکن بد که بد بینی از یار نیک
مکن تکیه بر ملک و فرماندهی
بسا پادشاهان سلطان نشان
بساتند گردان لشکر شکن

- ولا يتعلق قلبك بهذا القصر الطيب الهواء، فمن سمائه يمطر البلاء.

- وليس للدنيا ثبات يا بنى، فلا تقضِ العمر فى غفلة.

- ولا يتعلق قلبك بهذا المنزل غير المستقر وتذكر قول سعدى هذا. ^(١)

وإذا بحثنا عن شعر النصيحة بعيداً عن المنظومات والكتب وجدناه فى بعض القصائد ومن ذلك ما نراه فى قصيدة للشاعر الخاقانى (متوفى ٥٩٥هـ) عنوانها «بحر الأبرار» وقد تأثر هذا الشاعر بالشاعر الصوفى سنائى، وينصح فى مقدمة قصيدته هذه بالقناعة وعدم التمسك بمفاتيح الدنيا، ويذم الظلم وما يفضى إليه من سوء المنقلب، وينتقل إلى الترويج فى الدين والانتمار بأوامره والانتهاى عن نواهيه، وما هو ينصح الظالم بالانتباه من غفلته والكف عن أفعاله حتى ينجو فى الدنيا والآخرة، ويقول: ^(١)

- اخش؛ سهام الضعفاء تنطلق من كمين الليل، فبقدر ما تكون شكواه تكون طعناته.

- واحذر آهات المظلوم فهو يقظ متأهب، وقد يأتيك رابله وأنت نائم على وسادتك.

-
- | | |
|--|--|
| بسا نازينان خورشيد خد | (١) بسا ماهرويان شمشاد قد |
| بسا نو عروسان آراسته | بسا دلربا يان نو خاسته |
| بسا سرو قد وبسا گلغذار | بسانا مدار وبسا کامگار |
| کشيدند سر در گريبان خاك | كه كردند پيراهن عمر چاك |
| كه هز گز كسى زان نشانى نداد | چنان خر من عمر شان شد بباد |
| كه دروى نه بينى دل شادمان | منه دل برين منزل جانستان |
| كه مى بارد از آسمانش بلا | منه دل برين كاخ خرم هوا |
| بغفلت مبرى عمر در وي بسر | ثباتى ندارد چپان اى پسر |
| ز سعدى همين يك سخن ياد دار | منه دل برين دير ناپائدار |
| كه هرگز ضعف نالان تر قوى تر زخم پيكانش | (٢) بترس از تيرباران ضعيفان در كمين شب |
| تو شب خفته ببالين تو سيل آمد زبارانش | حفر كن زآه مظلومى كه بيدارست و خون باران |
- (انظر: بين الأدب العربى والفارسى والتركى - دكتور حسين مجيب المصرى - القاهرة ١٩٨٥م ص ١١٢).

وإذا كنا قد تحدثنا عن كتاب «بوستان» للسعدی شیرازی على أنه كتاب فى الأخلاق فإننا نستطيع أيضاً ضمه إلى كتب النصيحة المنظومة شعراً؛ ويضم كتابه عشرة أبواب يتناول فيها موضوعات عديدة فى العدل والإحسان والتواضع والرضا والقناعة والشكر والتوبة وغير ذلك، يقول فى الباب الرابع من كتابه عن التواضع ناصحاً به: (١)

(١) ترجمة البوستان للدكتور/ أمين عبدالمجيد بدوى ص ١٤٢

بزرگان نکردند در خود نگاه	خدا بینی از خویشان بین مخواه
بزرگی بناموس و گفتار نیست	بلندی بدعوى و پندار نیست
تواضع سر رفعت افرازد	تکبر بخواستك اندر اندازد
بگردن فتد سرکش تند خوى	بلندیت باید بلندی مجوى
ز مفرور دنیا ره دین مجوى	خدا بینی از خویشان بین مجوى
گرت جاه باید مکن چون خسان	بچشم حقان نگه در کسان
گمان کی برد مردم هوشمند	که در سرگر انیست قدر بلند
ازین نامورتر محلی مجوى	که خوانند خلقت پسندیده خوى
نه گر چون توئی بر تو کبر آورد	بزرگش بینی بچشم خرد؟
تو نیز آر تکبر کنی همچنان	نمائی، که پیشت تکبر کنان
چواستاده بر مقامی بلند	بر افتاده گر هوشمندی مخند
بسا ایستاده در آمد زپای	که افتاد گانش گرفتند جای
گر فتم که خود هستی از عیب پاک	تعنت مکن بر من عیبناک
یکی حلقهء کعبه دارت بدست	یکی در خراباتی افتاده مست
گر آنرا بخواند؛ که نگذاردش؟	ور این را براند، کسه باز آردش؟
نه مستظهر است آن بأعمال خویش	نه این در توبه مستیست پیش

(کلیات سعدی ص ۳۱۰) .

- العظماء لم ينظروا إلى أنفسهم بإعجاب ، لا تطلب مراقبة الله من المغرور .
- ليست العظمة بالكبر والادعاء والكلام ، والرفعة ليست بالدعوى والمغرور .
- التواضع يرفع رأس رفعتك والتكبر يلقيك فى التراب .
- المتمرد الحاد الطبع يقع على عنقه ، إذا أردت الرفعة فلا تتعال ولا تتكبر .
- لا تطلب طريق الدين من المغرور بالدنيا ، ولا تطلب مراقبة الله من المغرور المعجب بنفسه .
- إذا أردت الجاه فلا تفعل مثل الأسافل ، فتنظر إلى الناس بعين الاحتقار .
- متى وكيف يظن الرجل العاقل أن القدر الرفيع فى الكبر والصلف .
- لا تطلب محلاً أشهر وأسمى من أن يدعوك الخلق محمود الخلق .
- أليس إذا تكبر عليك شخص مثلك ، لا تراه بعين العقل كبيراً ؟
- أنت أيضاً إذا تكبرت ، تبدو مثلما يبدو أمامك المتكبرون .
- حيث تكون واقفاً على مقام عال ، لا تضحك على الساقط العاجز إذا كنت عاقلاً .
- فكثيراً ما سقط الواقف ، فأخذ الساقطون العاجزون مكانه .
- فلا فرض أنك أنت نفسك مبرأ من العيب ، فلا تتعنت معي أنا المعيب .
- شخص بيده حلقة باب الكعبة ، وشخص واقع سكران فى حانة .
- إذا دعا الله ذلك السكران فمن يمنعه ؟ إذا طرد هذا الذى بيده الحلقة فمن يرده ؟
- لا ذلك الذى بيده الحلقة مستظهر بأعماله . ولا هذا السكران باب التوبة مغلق أمامه .

ومن الذين نظموا شعراً في الحكمة والنصيحة أيضاً الشاعر نور الدين عبد الرحمن الجامي (٨١٧-٨٩٨هـ) الذي يعد من أعظم شعراء إيران كما سبق أن أشرنا إلى ذلك: إذ هو صاحب ثلاثة دواوين وسبع مثنويات. بالإضافة إلى ما ألفه في تفسير القرآن وعلم الحديث وتراجم المتصوفة والصرف والنحو العربيين والعروض والقافية وغير ذلك، ومن كتبه النثرية كتاب «نفحات الأنس» و«شواهد النبوة» و«اللوايح» و«بهارستان» وقد ألف الكتاب الأخير على غرار كتاب «گلستان» للشاعر سعدى الشيرازي (متوفى ٦٩١هـ)، وهو يشتمل على ثمانية فصول يتحدث فيها عن كلام الحكماء وعدالة السلاطين والسخاء والكرم وأحوال الشعراء وغير ذلك من الموضوعات، ويختلط النثر في هذا الكتاب بالنظم.

أما عن مؤلفاته المنظومة فهي سبع مثنويات تسمى «هفت اورنگ» وهي عبارة عن: سلسلة الذهب، سلامان وإيسال، وتحفة الأحرار، وسبحة الأسرار، ويوسف وزليخا، وليلى والمجنون، وخردنامه اسكندري. أما دواوينه الثلاثة فيسمى الأول فاتحة الشباب، والثاني واسطة العقد، والثالث خاتمة الحياة. وكان الجامي على علم تام باللغة العربية وأدائها، ويتضح ذلك من خلال مؤلفاته وأشعاره على السواء، ويعتبر كتابه «الفوائد الضيائية» الذي ألفه لابنه ضياء الدين يوسف وشرح فيه كافية ابن الحاجب من كتب النحو العربي الهامة. كما يظهر في شهره تأثير الشعر العربي وأفكاره ومضامينه عليه، وقد اقتبس كثيراً من معاني القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في مثنوياته، وترجم أربعين حديثاً نبوياً إلى اللغة الفارسية: (١)

(١) انظر كتاب «از سعدی تاجامی» - ترجمة على أصغر حكمت - تهران ١٣٥١ ص ٧٤٥ وما بعدها.

چند روزی ز قوی دینان باش	در بی حاجت مسکینان باش
شمع شو شمع که خود را سوزی	تا بآن بزم کسان افروزی
باید و نیک نکو کاری ورز	شیوه یاری و غم خواری ورز
ابر شو تا که چو باران ریزی	بر گل و خس همه یکسان ریزی
چشم از لغزش باران مـفکن	بـلامت دل یاران مـشکن =

ويقول في بعض أبيات له يذم فيها الطمع وينصح بالابتعاد عنه والتخلص منه^(١):

- كل من يميل قلبه للعدل، قل له: لا تطمع في مال الناس.

- فالطمع والعدل كالنار والماء، فكيف يجتمعان في مكان واحد؟

- عندما يدق الطمع باب المنزل، يفر العدل من النافذة.

- وإذا كان الطمع يجلب العار للفقير، فكيف يليق بالسلطان أن يفعل هذا؟

- وأأسفاه على السلطان العظيم، عندما يستولى عنوة على الذهب والمتاع.

وقال كذلك ما ترجمته:

- إن عظمة السلطان تكفيه فخراً، قل له: لا تشغل فكرك بالذهب والمتاع.

قال المأمون ذات ليلة لابنه: يا من أنت في السعادة والحظ موفّقاً دائماً،

عندما تصل الخلافة إليك، لا تجعل الحرص على الدنيا آفتك.

فالشعب من الذهب والفضة يكون أمراً صعباً لمن ينتزعهما من الأمة أحياناً،

ومن اليتيم أحياناً أخرى.

(١) من منظومة «سلسلة الذهب»:

طمع از مال خلق گـو بگسل
هر دو یکجا قرار کی یابند؟
عدل بیرون گـر یزد از روزن
کی سـزد شاه را بان آهنگ
ظلم جـوئی پی ز وزیر
گـو مـده دل بزر وزیر کس

هر که را دل بـعدل شد مایل
طمع و عـدل آتش و آبند
چون بکشد طمع در مـسکن
از طمع چون بود گـدا را ننگ
حیف باشد ز شاه فرخ فر
زیر شاه وصف شاهی بس

ویتحدث الشاعر فى موضع آخر عن الدنيا وما يعانىة الإنسان فيها ويشبهاها
بالفخ الذى يقع فيه الطائر، فيقول (١) :

- نعم نعم فى هذه الدنيا الفانية . تختلط الراحة والمعاناة معاً .
- فالطائر الذكى عندما يرى حباً على الأرض ، يعرف أن فخاً قد نُصب له .
- فيعمل بحزم فترة ، ويختار الصبر على الحب ،
- حتى تذهب الطيور الأخرى الغافلة إلى الحب قبله ،
- فإذا لم تصب بسوء من الفخ ، اتجه إلى الحب متبخرأً ،
- وإذا أصابهم أذى أو ضرر من الحب ، فإنه يفر هارباً وهو فارغ البال .
- ونحن فى هذا الفخ السفاك للدماء (الدنيا) ، أقل من هذه الطيور مائة مرة ،
- لأننا لا نخشى أى ضرر من هذا الفخ ، بل لا نفرق بين الحب والفخ ،
- ونرى الفخ ونظنه حباً ، ولا نعتبر الفخ سوى خرافة .

(١) من منظومة «سلسلة الذهب» :

آرى آرى درين سراى سـپنج	باهم آميختست راحت ورنج
مـرغ زيرك چو در زمين بيند	دانه را دام در كـمـين بيند
يك ز مانى بحزم كار كند	صبر از دانه اختييار كند
تا دگر مرغان غفلت كيش	سوى دانه روند ازوى پيش
گر نيايد گزند شان از دام	كند او نيز سوى دانه خرام
ور رسد شان زدانه رنج و ملال	رو نهد در گريز فارغ بال
ما در اين دام گاه خو نخواره	كم از آن مرغـيكم صد باره
هيچ از اسب دام نهراسيم	بلكه دانه ر دام نشناسيم
دام بينيم ودانه پنداريم	دام را جز ز افسانه نشماريم

٢ - النصيحة والحكمة فى النشر:

من أهم كتب النصيحة الفارسية كتاب «قابو سنامه» الذى ألفه الأمير عنصر المعالى كيكافوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمگیر بن زیار، وهو عاشر الأمراء الزیاریین (٣١٥-٤٧٠هـ) وسابع ولاتهم. وقد حكم قهستان من سنة ٤٤١ وحتى ٤٦٢هـ. حيث انتقل إلى رحمة مولاه. ويستفاد من كتابه هذا أنه تعلم الفروسية والآداب والفنون والسباحة. واشتغل فترة بمنادمة السلطان مودود بن مسعود كما اشترك فى غزوات الهند والروم وذهب للحج أيام القائم بأمر الله وقد رزقه الله التوبة فى سن الخمسين فعزف عن اللهو والشراب وغلب عليه الزهد والورع، وقد استفاد من تجاربه فى الحياة فى تأليف كتابه هذا الذى قدمه لابنه كيلا نشاء ليعلمه كيف يعيش ويحكم. وتجمع كتب الأدب على أنه ألف كتابه هذا فى أواخر عمره وأنه توفى سنة ٤٦٢هـ. ويضم كتابه قابو سنامه واحداً وثلاثين بيتاً من شعره، مما يدل على أنه كان شاعراً مجيداً، إلا أنه يتميز فى الكتاب عنه فى قول الشعر.

ويسمى هذا الكتاب أحياناً باسم «كتاب النصيحة» وهو يطابق موضوع الكتاب والغرض منه، وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة منها الألمانية والفرنسية والتركية والإنجليزية والروسية، وكذلك إلى العربية^(١).

يشتمل كتاب «قابو سنامه» على أربعة وأربعين باباً، يعالج المؤلف فى كل باب منها موضوعاً خاصاً، وتدلل هذه الأبواب على سعة اطلاع مؤلفها وثقافته وتمكنه من العلوم والفنون التى كانت سائدة فى عصره، كما أنه يجسد الأوضاع الاجتماعية والسياسية التى كانت تسود دولة الخلافة العباسية وحواضرها.

(١) انظر مقدمة ترجمة قابو سنامه - تعريب محمد صادق نشأت ودكتور/ أمين عبد المجيد بدوى - طبعة القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.

ومن الممكن تقسيم أبواب الكتاب من حيث الموضوع إلى أقسام ثمانية^(١):

أولها: فى النصائح التى قل من أن يخلو منها فصل منه وتستغرق الباب الثامن بأكمله فى نصائح أنوشيروان العادل.

ثانيها: فى العظات أى النصائح ذات الطابع الدينى وهى موجودة فى ثنايا المقدمة وأبواب أخرى متفرقة كالأبواب الخمسة الأولى.

ثالثها: فى الحياة وفن المعاشرة، وهى موجودة فى الأبواب: من العاشر وحتى الباب الثامن والعشرين.

رابعها: فى الأخلاق والتربية، وهى موجودة فى أبواب متفرقة.

خامسها: فى طلب العلم وتحصيل الفضل، وهى موجودة أيضاً فى أبواب متفرقة.

سادسها: فى الرياضة، وهى موجودة فى البابين الثامن والتاسع عشر.

سابعها: فى الحرف، وهى موجودة فى أبواب متفرقة من الكتاب.

ثامنها: فى السياسة وإدارة المملكة، وهى موجودة فى أبواب متفرقة من الكتاب.

وفى هذه الأبواب نجد مجموعة من الأخبار والحكم والحكايات والأحاديث والآيات القرآنية وأبيان الشعر استعان بها المؤلف لتوضيح أفكاره وتأييد آرائه.

وإذا تناولنا كل موضوع من هذه الموضوعات على حدة، وجدنا أن النصيحة تعم كل أبواب هذا الكتاب، ويقتصر الباب الثامن على مجموعة من النصائح تنسب إلى أنوشيروان العادل يقدمها لابنه. ويقول مؤلف الكتاب فى ختامها «هذه كانت كلمات أنوشيروان العادل فإذا قرأتها فلا تختصر هذه الألفاظ فإن أريج الحكمة وعبير الملك يتضوعان من هذه الأقوال لأنها كلام الحكماء وكلام الملوك، وتعلم الآن وأنت شاب

(١) المصدر السابق ص ٣١ وما بعدها.

إذ حينما تصير شيخاً لا تكون بك حاجة إلى سماع وتعلم النصيحة والحكمة، لأن الزمان نفسه يكون قد علم الشيوخ»^(۱).

ومن هذه النصائح قول أنو شيروان:^(۲)

- لا تصادق الجاهل، فإن الجاهل ليس جديراً بالحب أو البغض.

- اجتنب من يرى نفسه عالماً وهو جاهل.

- انصف بنفسك لتستغني عن القاضي.

- قل الحق وإن يكن مرأ، وإذا أردت أن لا يعرف العدو سرك فلا تفشه للصديق.

(۱) این بود سخنهای نو شیروان عادل چون بخوانی این لفظها را خوار مدار که ازین سخنان بوی حکمت و بوی ملک می آید که سخن حکماست و سخن ملوک و اکنون آموز که جوانی چون پیر گردی ترا خود بشنودن و آموختن پند و حکمت حاجت نباشد که پیرانرا خود روزگار آموخته باشد. (قابوسنامه ص ۴۲ وما بعدها الترجمة العربية ص ۸۰ وما بعدها).

(۲) با مردم بی هنر دوستی ممکن که مردم بی هنر نه دوستی را شاید و نه دشمنی را.

- پرهیز از کسی که خود را دانا داند و نادان باشد

- داد از خود بده تا داور مستغنی باشد.

- حق بگوی اگر چه تلخ باشد و اگر خواهی که راز تود شمن نداند بادوست مگوئی.

- هر بزرگ که خود را خرد نگارد بزرگ زمان باشد.

- اگر خواهی که بی رنج تو انگر باشی پسندیده کار باش.

- از گر سنگی مردن به که بنان فروما یگان سیر شدن.

- جرمی بزرگتر از آن نبود که به چیزی دعوی کند که نداند و آنگاه دروغ گوی گردد.

- هر بنده که او را بخرند و بفروشد آزادتر از آن کس دان که بندهء گلو باشد.

- هر کسی که آموزش روزگار او را دانا نکند هیچ دانا را در آموختن رنج نباید برد.

- اگر خواهی که از رنج دور باشی حسود مباش.

- اگر خواهی که بآبرو باشی آزر را پیش گیر.

- اگر خواهی که از پشیمانی دراز ایمن گردی بهوای دل کارمکن.

- اگر خواهی که از شمار آزادگان باشی طمع را در دل خود جای مده.

- كل عظيم يعتبر نفسه صغيراً فهو عظيم الزمان .
- إذا أردت أن تكون غنياً بلا عناء فكن حميد الأفعال .
- الموت جوعاً خير من الشبع بخبز اللثام .
- لا جرم أكبر من أن يدعى الشيء من لا يعرفه فيصير كذاباً .
- اعتبر العبد الذى يشتري ويباع أكثر حرية ممن يكون عبداً لبطنه .
- لا ينبغي لأى عالم أن يتعب فى تعليم من لم يؤدبه تعليم الزمان .
- إذا أردت أن تكون بعيداً عن الأذى فلا تكن حسوداً .
- إذا أردت أن تكون محترماً فالتزم الحياء .
- إذا أردت أن تأمن طول الندم فلا تعمل بهوى القلب .
- إذا أردت أن تكون فى عداد الأحرار فلا تدع للطمع موضعاً فى قلبك .

وفى الأبواب التى تشتمل على مواظب دينية كالإبواب الأولى (فى معرفة الله تبارك وتعالى) ينصح مؤلف الكتاب ابنه بأن ينظر إلى المصنوع ليعرف الصانع، ويتفكر فى آلاء الخالق ولا يفكر فى ذاته كما قال النبى (ﷺ) «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته». ويعظه فى الباب الثالث وينصحه بشكر الله ويقول له: «اعلم يا بنى أن شكر المنعم واجب على جميع الخلق على قدر التكليف لا على قدر الاستحقاق، إذ لو جعلوا جميعاً كل كيانهم شكراً، لا يكونون قد أدوا بعد شكرهم جزءاً من ألف». ويقول: «اعلم أن الصلاة والصوم خاصتان بالله، فلا تقصر فيهما، لأنك إذا قصرت فى الخاص، حرمت من العام، واعلم أن صاحب الشريعة قد عدل الصلاة بالدين كله، فمن ترك الصلاة، فكأنما ترك الدين كله».

وينصح المؤلف ابنه فى الباب الرابع بأداء الزكاة والحج وأن الله عز وجل خص ذوى النعمة واليسار بهاتين الفريضتين، وفى الباب الخامس ينصحه بإطاعة الوالدين وتأدية حقهما .

وفى الأبواب التى يتناول فيها المؤلف الحياة وفن المعاشرة ينصح ابنه بخصوص ترتيب تناول الطعام فى الباب العاشر ويرى أن بعض الناس يتناولون الطعام ليلاً فيصابون دائماً بالتخمة، والأصوب عنده أن يتناول الناس قليلاً من الزاد فى الصباح ثم يذهبون إلى أعمالهم حتى صلاة الظهر، ويحضرون ما يتناولونه من الطعام معهم ويأكلون، ولا ينبغى أن يأكلوا بعجلة وأن يتمهلوا ويجوز أن يتحدثوا إلى الناس على الطعام، ولكن ينبغى على الإنسان أن يطرق برأسه ولا ينظر إلى لقم الناس. كما ينبغى أن توضع أنية الطعام أمام الضيف قبل أن توضع أمام المضيف.

وفى الباب السابع عشر ينصح ابنه بعدم النوم الكثير لأنه «عادة غير ممدوحة تخمل البدن وتذهل الطبع» كما أن قلة النوم ضارة كذلك، وينصحه بعدم النوم وحيداً فى الليل أو النهار، وأن يتعود على الاستيقاظ مبكراً وتأدية فريضة الصلاة.

وفى الباب الحادى والعشرين (فى جمع المال) ينصح المؤلف ابنه بأهمية الحصول على المال ويقول له «أى بنى لا تغفل عن جمع المال، ولكن لا تلق بنفسك فى الخطر من أجله، واجتهد فى أن يكون كل ما تحصله على خير وجه ليكون هنيئاً لك، وإذا حصلت عليه فاحفظه، فإن حفظه أصعب من جمعه، وحينما تضطر للإنفاق فاجتهد حتى تضع عوضه سريعاً فى مكانه. واعلم أن زينة المرء فى بذله للمال. ولكن اعلم أن الإسراف عيو الله.

وفى الباب الثالث والعشرين (فى شراء الرقيق) يقول لابنه: «إذا أردت أن تشتري الرقيق فكن فطناً لأن شراء آدمى علم صعب.. واعلم أن هنالك ثلاثة شروط فى شراء المالك: أحدها معرفة عيوب وفضائل ظاهريهم وباطنيهم بالفراصة والوقوف على العلل الخفية والظاهرة بالعلامات ثم معرفة الأجناس وعيوب وفضائل كل جنس..» ثم يفصل القول فى كل شرط من هذه الشروط.

وفى الباب الرابع والعشرين (فى شراء البيت والضياع) يقول لابنه: «أى بنى اعلم أنه ينبغى أن تراعى حد الشرع إذا أردت أن تشتري ضيعة أو بيتاً أو أى شئ تريد، واشتر كل ما تشتريه فى وقت الكساد وبع كل ما تبيع فى وقت الراج، اطلب الربح

ولا تأنف.. وإذا حضرت البيع والشراء وأردت أن تشتري بيتاً فاشتره فى حى صالح أهله، ولا تشتريه على حافة المدينة ولا تحت سورها، ولا تتبع بيتاً خرباً لرخصه، وانظر أولاً إلى الجار، فقد قيل الجار ثم الدار...».

وفى الباب الخامس والعشرين ينصحه بالنسبة لشراء الخيل ويقول: «ومعرفة جيد الخيل ورديئها أصعب من معرفة جيد الناس ورديئهم، لأن معنى المرء موجود مع دعواه، ودعوى الحصان رؤيته، ولأجل أن تعرف المعنى انظر أولاً إلى منظره.. فينبغى أن تكون الأسنان متصلة ودقيقة وبيضاء والشفة السفلى أطول من الشفة العليا والأنف عالياً وواسعاً ومسحوباً، وأن يكون عريض الجبهة وأملس العذار وطويل الأذن وطرف أذنه مدبباً ومرتفعاً...» ويردد المؤلف كثيراً من الأوصاف التى يجب أن يتصف بها الجواد الجيد.

وفى الباب السادس والعشرين يتناول المؤلف موضوع الزواج وينصح ابنه بقوله: «أى بنى إذا تزوجت المرأة فأحسن رعاية حرمتها، ولا تضمن بالمال على أسرتك وولدك... أما إذا تزوجت فلا تطلب مال المرأة، أما المرأة فيجب أن تكون طاهرة متدينة وربة بيت ومحبة لزوجها وحيية وتقية وقصيرة اللسان واليد، ومحافظة على المال لتكون صالحة...».

وفى الباب الثامن والعشرين يتحدث المؤلف عن الصداقة واتخاذ الأصدقاء. فيقول: «اعلم يا بنى أنه لا بد للناس من الأصدقاء ماداموا أحياء، لأنه إذا لم يكن للمرء أخ فذلك خير من أن يكون بغير صديق... وأحبب الأصدقاء الذين يحبون أصدقاءك، واحذر من الأصدقاء الذين يحبون عدوك...».

أما فى الأخلاق والتربية، فهناك أبواب فى الكتاب تتناول موضوعاتها هذا الجانب، ومثال ذلك ما جاء فى الباب السابع حول الحسن والقبيح فى الكلام، إذ يقول المؤلف لابنه ناصحاً: «أى بنى كن لسنأ ولكن لا تكن كذاباً، ولا تجعل نفسك معروفاً بالكذب وكن معروفاً بالصدق.. وحذار أن تقول كلاماً بارداً، فإن الكلام البارد بذر تنبت منه العداوة، وإذا كنت عالماً فعد نفسك جاهلاً، لكى يفتح عليك باب التعلم، ولا تنقض أى كلام أو تمدحه مالم تدرك عيبه وفضله، وتكلم على نسق واحد مع الخاص والعام

حتى لا تخرج عن حد الحكمة.. وانظر لمن تتحدث إليه أهو مشتر لكلامك أم لا، فإذا وجدته مشتركاً فبع، وإلا فقل ما يعجبه ليشتري منك...».

وفى الباب الثانى والعشرين يتحدث المؤلف عن الأمانة وأن الإنسان إذا قبلها لابد أن يحافظ عليها ويعيدها إلى صاحبها سالمة.

وفى الباب الثلاثين يتناول المؤلف موضوع العفو والعقوبة فيقول لابنه: «أى بنى لا توجب على الناس العقوبة فى كل ذنب، وإذا أذنب إنسان فالتمس لذنبه عذراً فى قرارة نفسك.. ولا تعاقب بالباطل حتى لا تصير مستوجب العقوبة بغير جريرة، ولا تغضب لكل شىء وتعود كظم الغيظ وقت الضجر، وإذا طلب منك العفو عن ذنب فاعف...».

أما فى طلب العلم وتحصيل الفضل، فقد تحدث المؤلف فى الباب الحادى والثلاثين عن طلب علم الدين والقضاء وغير ذلك، وهو ينصح ابنه بتعلم علم الدين ويرى أن «أجل علم هو علم الدين لأن أصوله على الدوام التوحيد وفروعه أحكام الشرع وحرفته نفع الدنيا والآخرة.. فيابنى در ما استطعت حول علم الدين لتظفر بالدنيا والآخرة».

وفى الباب الثالث والثلاثين يتحدث عن علم الطب، وفى الباب الرابع والثلاثين يتحدث عن علم النجوم والهندسة، وفى الباب الخامس والثلاثين يتناول علم الشعر، وينصح ابنه فى الباب الأخير بقوله: «إذا كنت شاعراً فاجتهد أن يكون كلامك سهلاً ممتعاً، وتحاش الكلام الغامض، ولا تقل ما تعرفه أنت ولا يعرفه سواك فيحتاج إلى الشرح، لأنهم يقرضون الشعر من أجل الناس لا من أجل أنفسهم، ولا تقنع بالوزن والقوافى الفارغة، ولا تقل الشعر بغير صناعة وترتيب.. واعرف علم العروض وتعلم الشعر والألقاب ونقد الشعر.. ويجب على الشاعر أن يكون عارفاً بطبع الممدوح ويعلم ما يروقه، لأنك ما لم تقل ما يريد فإنه لا يعطيك ما يليق بك...».

وفى الباب التاسع والثلاثين يتحدث المؤلف عن الكتابة والإنشاء فيقول لابنه: «إذا كنت كاتباً فينبغى أن تكون قوى البيان وذو خط حسن وأن لا تعتاد التجاوز فى العبارة وأن تتعود كثرة الكتابة لتصير ماهراً... وزين كتابك بالاستعارات والأمثال والآيات القرآنية والأخبار النبوية...».

ولم يترك المؤلف مجالاً من المجالات إلا ونصح ابنه فيه، فقد تحدث عن الرياضة في بابين من كتابه، فتحدث في الباب الثامن عشر عن الصيد والطرْد، وتحدث في الباب التاسع عشر عن لعب الصولجان. أما بالنسبة للصيد فيقول ناصحاً ابنه: «اعلم يا بني أن ركوب الخيل والطرْد عمل المحتشمين، وخاصة في الشباب، ولكن ينبغي أن يكون لكل أمر حد ومقدار، ولا يمكن الصيد كل يوم، والأسبوع سبعة أيام، فاخرج يومين للصيد، واشتغل ثلاثة أيام بالطاعة، ويومين بتدبير شائك...»، ثم يحدثه عن كيفية الصيد وما هي الحيوانات التي يقوم بمطاردتها والحيوانات التي يتجنبها لما تحمله مطاردتها من مخاطر. أما في لعب الصولجان فينصحه أيضاً بالآ يصح عادة دائمة، بل يلعبه مرة أو مرتين في السنة.

ويحدث المؤلف ابنه عن بعض الحرف وخصائصها كالتجارة في الباب الثاني والثلاثين، والغناء في الباب السادس والثلاثين، والزراعة والصناعة في الباب الثالث والأربعين، وهو في حديثه عن كل حرفة من هذه الحرف يظهر براعة وخبرة، ويؤيد رأيه دائماً بالحكايات.

أما في موضوع السياسة وإدارة المملكة فقد أفاض في الحديث عنها، فتحدث عن قتال الأعداء في الباب العشرين، وينصح ابنه بالقضاء السريع على أعدائه فيقول له: «حينما تكون في ميدان القتال لا يجوز التراخي والترث، بل يجب أن تتغدى بعدوك قبل أن يتعشى بك... ولا تتراجع خطوة في المعركة مادمت تستطيع التقدم خطوة.. واجعل الموت شهياً إلى القلب في ذلك المكان.. وكن مقدماً...».

وفي الباب التاسع والعشرين يتحدث عن الحذر من العدو وينصح ابنه قائلاً: «اجتهد يا بني أن لا تعادي، فإن يكن هنالك عدو فلا تخف، ولا تكن حرج القلب، فكل من ليس له عدو يكون كما يشتهي العدو. ولكن لا تغفل عن عمله في الخفاء والعلن، ولا تأمن شره، واشتغل دائماً بتدبير المكر به والإساءة إليه ولا تأمن بأي حال من حيلته ومكره...».

وفى الباب السابع والثلاثين يتناول موضوعاً آخر هو «خدمة الملوك» وما يجب على من يقوم بهذه الخدمة أن يفعل، يقول المؤلف: «إذا اتفق أن تكون من جملة حاشية الملك وتتصل بخدمته، فمهما مكنك الملك لديه فلا تغتر بقربه وتباعده، ولكن لا تهرب من الخدمة، إذ من قرب الملك ينشأ البعد، ومن خدمته يحصل القرب، وإذا أمنتك يوماً من نفسك فكن غير آمن ذلك اليوم، لأن كل من يسمن على يد شخص يجب أن يتوقع منه الإسراع فى ذبحه.. ولا تقل أى كلام إلا على مراد الملك.. ولا ترشد مليكك إلا إلى عمل الخير، وإذا علمته السوء يسئ إليك...».

وفى الباب الأربعين يتحدث المؤلف عن «شرائط الوزارة» ويقول ناصحاً لابنه كيلا نشأه: «أى بنى إذا اتفق لك أن تكون وزيراً فكن محاسباً واعرف المعاملة جيداً واستشعر الصدق مع مولاك، وأنصف ولى نعمتك، ولا تطلب الكل لنفسك، فإنك لا تعطى الكل...».

وفى الباب الحادى والأربعين يتناول نظام القيادة وينصح ابنه إذا كان قائداً أن يكون محسناً إلى العسكر والرعية، وأن يبعث فى يوم المعركة إلى الميمنة والميسرة بالقواد الذين مارسوا الحروب وخبروا الدنيا، وأن يقيم أشجع القواد مع خير طائفة فى الجناح، ويجب ألا ينظر القائد إلى العدو على أنه ضعيف مهما كان ضعيفاً، وأن يرسل لاستطلاع حال العدو.

أما فى الباب الثانى والأربعين يتحدث عن «آداب الملك» ويقول لابنه ناصحاً: «أى بنى إذا صرت ملكاً يوماً ما فكن ورعاً، وكف عينك ويدك عن حرم المسلمين... وشاور عقلك أولاً فى كل عمل تريد أن تعمله لأن وزير وزراء الملك هو العقل.. ولا ترض الجور، وانظر إلى كل الأعمال والأقوال بعين العدل حتى تستطيع أن ترى الحق والباطل فى كل الأمور.. وكن عزيز اللقاء حتى لا تصير حقيراً فى أعين الجند والرعية.. وكن رحيماً بعباد الحق تعالى ولكن لا ترحم من لا يرحمون...».

نموذج من كتاب «قَابو سنامِه»^(١)

الباب التاسع: فى الشيخوخة والشباب:

أى بنى مهما تكن شاباً فكن ذا عقل شيخ، لا أقول لا تكن شاباً فتياً، ولكن كن شاباً مسيطراً على نفسه. ولا تكن من الشباب الذابليين، لأن الشاب الحصيف حسن لطيف كما يقول أرسطاطاليس (الشباب شعبة من الجنون)، ولا تكن أيضاً من الشباب الجاهلين لأن البلاء لا ينشئ الحصافة، ومن الجهل ينشأ البلاء، وخذ نصيبك بقدر الطاقة من أيام الشباب، فإنك إذا صرت شيخاً لا تستطيع أن تستجمع نفسك، كما قال ذلك الشيخ: «لقد تحسرت واغتممت من السنين الطوال قائلاً: عندما أصير شيخاً لا يرغب فى الحسان، والآن وقد صرت شيخاً فإنى أنا نفسى لا أُرغب فيهن، وإذا أنا رغبت فأنه لا يليق»، ومهما تكن شاباً فلا تنس الله عز وجل ولا تأمن الموت، فإن الموت لا يعرف الشاب ولا الشيخ، كما يقول العسجدى:

لم يكن الموت بالشيخوخة والشباب ولا أن يموت الشيخ ويعيش الشاب

حكاية

يحكى أنه كان بمدينة الرى خياط له دكان فى بوابة الجبانة قد علق كوزاً فى مسمار، وكان له شغف بأن يلقى حصاة فى ذلك الكوز كلما خرجت جنازة من البوابة، ويحصيها كل شهر قائلاً: إنه قد مات فى هذا الشهر كذا شخص، ويفرغ الكوز ويلقى به الحصى ثانياً إلى الشهر التالى، حتى انقضى على ذلك زمن، ومات الخياط، فجاء رجل فى طلبه، ولم يكن يدرى أنه قد مات، فلما رأى باب الدكان مغلقاً سأل جيرانه أن أين الخياط؟ فقال الجار: إن الخياط وقع فى الكوز أيضاً.

(١) ترجمة قابو سنامِه ص ٨٤ وما بعدها.

ولكن يا بنى كن فطناً، ولا تغتر بالشباب، واذكر الله عز وجل فى الطاعة والمعصية فى أى حال تكون، اطلب العفو واخش الموت حتى لا تقع مثل الخياط فى الكوز فجأة مثقلاً بالمعاصى، ولا تجعل كل صحبتك ومعاشرتك مع الشبان، وجالس الشيوخ كذلك، واجعل رفقاءك وندمائك خليطاً من الشيوخ والشباب، حتى إذا قال شاب محالاً بسبب السكر ينبهك الشيخ، لأن الشيوخ يعرفون أشياء لا يعرفها الشباب، ولو أن غالب الشباب يضحكون من الشيوخ لأنهم يرون الشيوخ فى حاجة إلى الشباب، ولهذا السبب يطلبون التقدم على الشيوخ، ويهزأون بهم، ولئن كان الشيوخ يتمنون الشباب فإن الشبان أيضاً بغير شك يتمنون الشيخوخة وقد يبلغونها أو لا يبلغونها. وإذا نظرت جيداً رأيت كلا منهما حسوداً للآخر، ومهما كان الشبان يعدون أنفسهم أعلم الناس فحذار أن تكون على شاكلة هؤلاء الشبان، وقر الشيوخ، ولا تتحدث إليهم جزافاً فإن جواب الشيوخ والعقلاء قاس.

حكاية

سمعت أن رجلاً عمره مائة سنة مقوس الظهر كان يسير متكئاً على عصا، فقال له شاب ساخراً منه، أيها الشيخ بكم اشتريت هذا القوس حتى اشترى أنا أيضاً واحدة؟ فأجاب قائلاً: إذا عمرت وهبت لك بلا ثمن وإن كنت لا تستحقها.

ولكن لا تجالس الشيوخ البله، فإن صحبة الشبان العقلاء خير من صحبة الشيوخ البلهاء، ومادمت شاباً فكن شاباً، وإذا صرت شيخاً فتشيخ لأن التصابى فى وقت الشيخوخة لا يليق، والشيخ الذى يتصابى كمن ينفخ فى البوق وقت الهزيمة، كما قيل:

بيت

الشيخ الذى يتصابى فى وقت الشيخوخة ، كالنافخ فى البوق وقت الهزيمة.

ولا تكن شيخاً أرعن، واخش الشيوخ الدنسين الجائرين، وأد حق الشيخوخة أكثر مما تؤدى حق الشباب، لأنك ما دمت شاباً يكون لك أمل الشيخوخة، وليس للشيوخ أمل

غير الموت، إذ إن الغلة إذا ابيضت ولم تحصد تناثرت. وكذلك الثمرة التي نضجت، إذا لم تقطف وقعت من الشجرة.

رباعى

- لو وضعت على ناحية القمر قوائم التخت، أو صرت كسليمان في الدولة والبخت،
 - إذا نضج عمرك حزمت المتاع، فالثمرة إذا نضجت سقطت من الشجرة.
- (إذا تم أمر دنا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تم)

ولتعلم أنك لا تترك لتبقى هكذا، فإذا تعطل شبابك انسد عليك باب النطق والبصر والسمع واللمس والذوق جملة، فلا أنت تسر بحياتك، ولا أحد يسر بك، ويصير وبالأعلى الناس، فالموت خير من مثل تلك الحياة، ومثل عمر الإنسان كمثل الشمس، وشمس الشبان فى أفق المشرق وشمس الشيوخ فى أفق المغرب كما قلت:

قطعة

كيكاوس يامن صرت عاجزاً فى كف الشيخوخة، تهيأ للرحيل فقد أقبلت الثالثة والستون، ولقد شارف يومك صلاة العصر على كل حال، ويقبل الليل سريعاً، إذا حلت صلاة العصر.

لهذا السبب لا ينبغي أن يكون الشيخ شاباً فى عقله وفعله، وكن دائماً رحيماً بالشيخوخة، لأن الشيخوخة مرض لا يذهب أحد لعبادته، والشيخوخة علة لا يعرف أى إنسان لها دواء إلا الموت، ولهذا لا يستريح الشيخ من ألم الشيخوخة مالم يموت، وكل علة تصيب الإنسان إذا لم يموت بها يصح منها إلا علة الشيخوخة فإنها كل يوم تزداد سوءاً ولا يرجى منها الشفاء.

ومما قرأت فى الكتاب، أن الرجل حتى الرابعة والثلاثين يزداد كل يوم فى القوة والتركيب، وبعد ذلك يبقى هكذا حتى الأربعين لايزيد ولا ينقص، كالشمس وقد بلغت كبد السماء، تكون بطيئة السير حتى الزوال، ومن الأربعين حتى الخمسين يرى كل عام فى نفسه نقصاناً لا يكون قد رآه فى السنة الماضية، ومن الخمسين حتى الستين يجد كل شهر فى نفسه نقصاناً لا يكون قد وجده فى الشهر الماضى، ومن الستين حتى السبعين يرى كل أسبوع فى نفسه نقصاناً لا يكون قد رآه فى الأسبوع المنصرم، ومن السبعين حتى الثمانين يرى كل يوم فى نفسه نقصاناً لم يكن قد رآه بالأمس، وإذا جاوز الثمانين يرى فى نفسه كل ساعة ألماً وعناء لا يكون قد رآه فى الساعة الأخرى.

وحد لذة العمر إلى الأربعين، فإذا انقضت الأربعون فقد جلس على درجة السلم العليا، فتهبط كما صعدت من غير شك. فالبرم من يرى فى كل ساعة ألماً وعناء لم يكونا فى الساعة الماضية، فيا ولدى ويا قرّة عينى لقد أطلت شكاية الشيخوخة إليك، لأن منها عنائى، ولا عجب فالشيخوخة لى عدو، ومن العدو تحقق الشكوى، كما قلت:

إذا شكوت منها فلا تعجب منى، لأنها بلائى، والشكوى تكون من البلاء.

ويشتكى من الأعداء لأحب إنسان، أرجو من الله عز وجل - أن تبث هذه الشكوى لابنك، ولى فى هذا المعنى بيتان:

قطعة

أواه لمن أشكو الشيخوخة؟ فإن ألى هذا ليس له دواء آخر غير التوبة

هلم إلى أيها الشيخ حتى أثبتك شكواى، لأنه لا خبر للشباب بهذه الحال.

ولا يعرف أحد ألم الشيخوخة خيراً من الشيوخ.

حكاية

كان من جملة حجاب أبى حاجب يقال له مجاهد الحاجب الكامل. وكان شيخاً جاوز الثمانين وأراد أن يشتري حصاناً، فأحضر رائض حصاناً سميناً، بديع اللون صحيح القوام - فرأى الحصان وأعجبه ودفع ثمنه، فلما رأى أسنانه ألفاه عجوزاً فلم يشتريه، فاشتره رجل آخر، فقلت له: يا حاجب فلان اشتري الحصان فلم لم تشتريه؟ قال: إنه رجل شاب وأنا خبير بآلم الشيخوخة وضعفها وأفتها، فكيف أكون معذوراً حين اشتري حصاناً عجوزاً؟

ولكن متى صرت شيخاً فاجتهد أن تقر في موضع، لأن السفر في الشيخوخة ليس من العقل، وخاصة لمن لا يكون قادراً، إذ إن الشيخوخة عدو والعجز عدو آخر، فالسفر مع عدوين ليس من الحكمة، أما إذا وقع السفر اضطراراً وابتعدت عن بيتك ولطف الله تعالى بك في ذلك السفر وظهر في تلك الغربة والسفر خير أفضل من ذلك الذي كان في الحضر، فلا تطلب العودة إلى البيت قط، واستقر حيثما ترى عملاً واعتبر ذلك المكان الذي فيه خيرك موطناً ومقاماً. ومهما قيل إن الوطن هو الأم الثانية فلا تكن مشغولاً به، وحافظ على رونق أيامك، فقد قيل: الخير يطلب السعداء، وللتعساء المولد والمقام، أما إذا رأيت لنفسك رونقاً وظفرت بعمل مفيد، فاجتهد في أن تثبت ذلك العمل وتحكمه، ولا ينبغي أن تكثر الطلب في ذاك الثبات الذي تلقاه، لأنك في طلب الزيادة تقع في النقص، فإذا كان شيء موضوعاً وضعاً حسناً فلا تحاول أن تجعله في وضع أحسن لكيلا تعجز عن ذلك بالطمع في المحال، ولكن لا تكن غير منظم في تمضية العمر، وإذا أردت أن تكون محترماً في عين الصديق والعدو، فيجب أن يكون وضعك ومقامك متميزين عن عامة الناس.^(١)

باب نهم

(١)

دريوى وجوانى

اى پسر هر چند جوانى پير عقل باش نگويم كه جوانى مكن ليكن جوان خويشمن دار باش واز جوانان بزمردنه مباح كه جوان شاطر نيكوبود وچنانكه ارسطاطاليس گويد الشباب شعبة من الجنون ونيوز از =

= جوانان جاهل مباحث که از شاطری بلانخیزد و از جاهلی بلاخیزد و بهره خویش بقدر طاقت از روزگار جوانی بردار که چون پیرشدی خود را نتوانی کرد آورد چنانکه آن پیر گفت که چندین سال حسرت و غم خوردم که چون پیر شوم خوبرویان مرا نخواهند اکنون که پیر شدم من خود ایشانرا نمی خواهم و اگر خود خواهم نزدیک، و هر چند که جوان باشی خدای عز و جل را فراموش مکن و از مرگ ایمن مباحث که مرگ نه جوان داند و نه پیر چنانکه عسجدی میگوید، بیت:

مرگ به پیری و جوان نیستی پیر بمردی جوان زیستی

حکایت کنند که در شهر ری درزی بود در دروازه گورستان دکانی داشت و کوزه در میخی آویخته بود و هوس آن داشتی که هر جنازه که از دروازه بیرون شدی او سنگی در آن کوزه انداختی و هر ماه حساب آن بکردی که درین ماه چندکس مرده اند و کوزه را تهی کردی و یاز سنگ افکندی تا ماه دیگر تا بریم روزگاری بر آمد و آن درزی بمرد، مردی بطلب درزی آمد و خبرش نبود که درزی بمرده است، چون در دکان بسته دید همسایگان وی را پرسید که درزی کجاست؟ همسایه گفت: درزی نیز در کوزه افتاد.. اما ای پسر هشیار باش و بجوانی غره مشو و در طاعت و معصیت در هر حال که باشی خدای عز و جل را یا دکن و عفو میخواد و از مرگ می ترس تا چون درزی نا گاه در کوزه نیفتی با بار گناهان، و همه نشست و خاست، با جوانان مکن با پیران نیز مجالست دار و رفیقان و ندیمان پیر و جوان آمیخته دار که اگر از مستی جوانی محالی گوید پیر ترا آگاه کند که پیران چیزها دانند که جوانان ندانند. اگرچه غالب جوانان بر پیران خندند از آنکه پیرانرا محتاج جوانی ببیند بدین سبب بر پیران پیشی جویند و بر ایشان بیحرمتی کنند اگر چه پیران در آرزوی جوانی باشند جوانان نیز بیشک در آرزوی پیری باشند شاید که دریابند و شاید که نیابند، و چون نیکو، بنگری هر دو حسود یکدیگر باشند، اگر چند جوانان خود را داناترین همه کس دانند، زنه از طبع چنین جوانان مباحث، پیران را حرمت دار و بیابیران سخن بگزارف مگو که جواب پیران و عاقلان سخت باشد. حکایت: شنیدم که مردی صد ساله کوژ پشت بر عصا تکیه کرده میرفت، جوانی بریش خند او را گفت ای شیخ این کمان بچند خریده تا من نیز یکی بخرم، جواب بداد اگر عمر یابی و صبر کنی رایگان بتو بخشند، هر چند که بدان نمی ارزی.

اما با پیران ابله منشین که صحبت جوانان عاقل بهتر از پیران ابله و تا جوانی جوان باش و چون پیر شدی پیری می کن از آنکه در وقت پیری جوانی نزدیک پیری که جوانی کند همچنان باشد که کسی در وقت هزیمت بوق زند چنانکه گفته اند، بیت:

چون بوق زند باشد در وقت هزیمت پیری که جوانی کند اندر گه پیری

و بر رعنا مباحث و پیرس از پیران ناپاک ویی انصاف و انصاف پیری بیش از آن ده که انصاف جوانی زیرا که چندان که جوانی ترا امید پیری باشد و پیرا ترا بجز مرگ امید نباشد از آنکه چون غله سفید گشت اگر ندرودن بریزد همچنان میوه که بخته شد اگر نچینند از درخت بیفتد ریاعی:

=

= گر بر سرمراه بر نهی پایهء تخت و ر همچو سلیمان شوی از دولت و بخت
چون عمر تو پخت گشت بر بندی رخت میوه چو بشد پخته بیفتد ز درخت
إذا تم امر دنیا نقصه تو قلع زوالا إذا قیل تم

و چنین دان که ترا چنین نگذارند تا همی باشی چون جوانی تو از کار بیفتد در گویانی و بینانی و شنوایی ولس و ذوق جمله بر تو بسته گردد نه تو از زند گانی خود شاد باشی و نه کس از تو ویر مردمان و یال گردی پس مرگ از چنان زندگانی بهتر و مثال عمر مردم چون افتابست و افتاب جوانان در افق مشرق باشد و افتاب پیران در افق مغرب چنانکه گفته ام، قطعه:

کیکاوس ای در کف پیری شده عاجز تدبیر شدن ساز که شصت و سه در آمد
روزت بنماز دگر آمد بهمه حال شب زود در آید چو غماز دگر آمد

ازین سبب نباید که پیر بعقل و فعل جوان باشد، ویر پیران همیشه برحمت باش که پیری بیمارست که کسی بعیادت او نرود و پیری علفی است که هیچکس داروی او نداند الا مرگ از آنکه پیر از رنج پیری نیاساید تا نمیرد و هر علت که بمردم رسد اگر از آن علت نمیرد بهتر شود مگر علت پیری که هر روز بتر بود و امید بهتری نبود از آنکه در کتاب خوانده ام که مرد تاسی و چهار سال هر روزه زیاده باشد در قوت و ترکیب و بعد از آن تا چهل همچنان بماند زیاده و نقصان نکند چنانکه افتاب که میان آسمان رسید بطی السیر شد تا وقت فروگشتی و از چهل سال تا پنجاه سال هر سال در خود نقصانی بیند که در آن سال گذشته ندیده باشد، و از پنجاه سال تا شصت سال هر ماه در خود نقصانی یابد که در ماه گذشته نیافته باشد، و از شصت سال تا هفتاد سال هر هفته در خود نقصانی بیند که در آن هفته گذشته ندیده باشد، و از هفتاد سال بهشتاد هر روز اندر خویش نقصانی بیند که دی ندیده باشد، و اگر از هشتاد بگذرد هر ساعت در خود دردی ورنجی بیند که در آن ساعت دیگر ندیده باشد، و حد لذت عمر تا چهل سال است و چون چهل شد بر نردبان پایه بالا نشست است همچنانکه بر رفته فروود آئی بیشک، پس بخشنودی کسی باشد که هر ساعت دردی ورنجی بیند که در ساعت گذشته نبوده باشد، پس یا ولدی و یا قره عینی شکایت پیری دراز کردم باتو از آنکه مرا از رنج است، و عجب نیست که پیری مرا دشمن است و از دشمن جای گله باشد چنانکه من گفته ام، بیت:

اگر کنم گله از وی عجب مدار از من که او بلای منست و گله بود زیلا

و یا دوست تر کسی گله دشمنان کنند، ارجو من الله عز و جل که تو این گله با فرزند خود کنی و مرا درین معنی دو بیت است، قطعه:

آوخ گله از پیری پیش که کنم من کین درد مرا دار و جز توبه دگر نیست

ای پیر بیا تا گله هم باتو بگویم زیرا که جوانانرا ازین حال خبر نیست =

رسالة «تحفة الوزراء» والنصيحة:

وردت هذه الرسالة في كتاب يضم مناجات ومقالات خواجه عبد الله الأنصاري، والمؤلف هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي من مشاهير علماء القرن الخامس وكان معاصراً لألب أرسلان السلجوقي والوزير نظام الملك، ويصل نسبه إلى أبي أيوب الأنصاري، وكانت أمه من بلخ، أما هو فقد ولد في مدينة هرات عام ٣٩٦هـ وبدأ ينظم الشعر بالفارسية والعربية في سن مبكرة، واشتهر في شبابه بتمكنه في العلوم الأدبية والدينية، وخاصة في حفظ الشعر العربي وعلم الحديث، وكان يتبع في الفقه مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقد توفي عام ٤٨١هـ.

ورغم أنه نظم شعراً بالفارسية، إلا أنه لم يكن سبباً في شهرته، بل إن سبب شهرته يرجع إلى ما كتبه من رسائل وكتب ذاع صيتها، ومن ذلك ترجمة وإملاء طبقات

= ورنج پیری بهتر از پیران کسی نداند، حکایت: از جمله حاجیان پدرم حاجبی بود اورا مجاهد حاجب کامل گفتندی، پیر بود و از هشتاد در گذشته خواست که اسپیی خردرا رایضی اسپیی آورد فربه و نیگو رنگ و درست قوایم اسپ را بدید و بیسندید و بها فرو داشت چون دندانش بدید پیرو بود نخرید، مرد دیگر بخرد. من اورا گفتم: ای حاجب آن اسپ فلانکس خرید تو چرا نخریدی؟ گفت او مرد جوان است و از رنج پیری وضعف و آفت او من خبر دارم آنگاه اسپ پیر خرم معنورگی باشم، اما جهد کن تا چون پیر شدی بیک موضع قرار گیری که در پیری سفر کردن از خرد نیست خاصة کسی که توانائی نباشد که پیری دشمن است و ناتوانائی دشمن دیگر پس بادو دشمن سفر کردن نه از دانائی باشد اما باضطرار اگر سفری افتد و از خانه خود دور افتی و ایزد تعالی دران سفر بر تو رحمت کند و در آن غربت و سفر نیکنوی پدید آید بهتر از آنکه در حضر بوده باشد هرگز آرزوی خانه مکن و هما نجا که کار خودرا بینی قرار گیر و زاد و بود آن جایگاه را شناس که ترا نیکنوی باشد هر چند گفته آند: الوطن ام الثانی. اما تو بران مشغول مباش، رونق روزگار خود نگاه دار که گفته اند نیکیبختانرا نیکی آرزو کند و بدبختانرا زاد و بود، اما چون خودرا رونق بدیدی و شغل سودمند بدست آوردی در آن کوش تا آن شغل را اثبات دهی و مستحکم دانی و دران ثبات که یابی بیش طلب نباید کرد که دران طلب بیشی بکسی افتی که اگر چیزی نیگو نهاده باشد نیگوتر منه تا بطمع محال از آن در نمائی. اما در عمر گذرانیدن بی ترتیب مباش، اگر خواهی که بچشم دوست و دشمن بآبرو باشی باید که نهاد و درجه تو از مردم عام پدیدار باشد.

(قابوسنامه من ص ٤٢ حتی ص ٤٨) .

الصوفية للسلمى إلى اللهجة الهروية، وتفسير القرآن المعروف باسمه، وعدة رسائل أخرى كتبها بنثر مسجوع مثل: مناجات نامه، ونصايح، وإلهى نامه، وغيرها.

يبدأ المؤلف رسالة تحفة الوزراء بمقدمة يحمد الله فيها ويصلى ويسلم على محمد وآله أجمعين، ويقول إن هذه الرسالة تشتمل على نصائح اختارها الحكماء من كتب القدماء، وهى تتضمن فوائد كثيرة، وكل من يتطلى بتلك الفضائل المذكورة يصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة، ويذكر فى نهاية المقدمة اسم الرسالة «تحفة الوزراء» وأنها مقسمة إلى أربعين باباً، يتضمن كل باب منها أربع نصائح.

فى الباب الأول يذكر أربعة أشياء يجب على السلطان المحافظة عليها والاحتفاظ بها، وهى الدين، والوزير الأمين المتمكن والعزم، والحزم. وفى الباب الثانى يرى أنه لا يمكن فعل أربعة أشياء، إلا بأربعة أشياء؛ فلا يمكن الحكم إلا بالعدل، ولا يمكن القضاء على العداوة إلا بالمحبة، ولا يمكن زيادة المحبة إلا بالتواضع، ولا يمكن الوصول إلى المراد إلا بالصبر. أما فى الباب الثالث فهناك أربعة أشياء لازمة وضرورية لأربعة أشياء: السياسية للسلطان والأمانة للوزير والتربية والتدريب للجيش، والرعاية للرعية. وفى الباب الرابع يذكر أربعة أشياء تحتاج لأربعة أشياء: السلاطين للوزراء، السلاح للشجعان، السوط للجواد، القبضة للسيف، وفى الباب الخامس يذكر المؤلف أربعة أشياء يجب التحلى بها: اكتساب الأصدقاء، ومعاملة الناس معاملة حسنة، والسعى فى العمران، والعفو عن خلق الله. وفى الباب السادس ينهى المؤلف عن فعل أربعة أشياء حتى لا يصاب الإنسان بالحسرة وهى: إرجاع الأمور إلى من لا يستحقون، والإحسان إلى الوضيع والحقير، والعجلة فى الأمور، والفسق والفجور والعصيان.

وفى الباب السابع يتحدث عن أربعة أشياء حسنة لكل الناس وهى: (١) العدالة والصدق، (٢) والعدل والعقل، (٣) والحلم والوعى والصبر والسكون والتحمل، (٤) والحياد والخجل. وفى الباب الثامن يذكر أربعة أشياء لا تليق بالخلق وهى: الحقد على الناس وحسدهم، الكبر والزهو، والعجب والغضب، والكسل وعدم الصلاة. وفى الباب التاسع يذكر أربعة أشياء تكون من آفات السلطان وهى: غفلة الأمراء، وخيانة الوزراء، وتجروء الحقراء،

وحسد الأقران. وفي الباب العاشر يذكر أنه يجب مداراة أربعة أشخاص هم: السلطان الظالم، والمريض، وغير العقلاء، والصديق حسن الفعال. وفي الباب الحادى عشر يتحدث عن أربعة أشياء تؤدي إلى ثبات ورسوخ السلطنة وهي: (١) العدالة، (٢) والشجاعة، (٣) والمروءة والفتوة، والسخاء والعطية، (٤) والرحمة والشفقة. وفي الباب الثانى عشر يذكر أربعة أشياء تؤدي إلى حسن الحظ وهي: الأصل الطاهر، والقلب الطاهر، واليد الطاهرة، والرأى المستقيم من الطبع السليم. وفي الباب الثالث عشر يذكر أن أربعة أشياء تؤدي إلى الألفة والتجمع وهي: الأمن والاستقامة والنعمة والراحة. وفي الباب الرابع عشر يذكر أن أربعة أشياء هي أصل الدولة: العظمة الإلهية، والتأييد السماوى، والإمام المنتخب، والأحكام المقبولة. فى الباب الخامس عشر يذكر أن هناك أربعة أشياء تدل على سوء الحظ وهي: العجز والجهل والغربة والوضاعة. وفي الباب السادس عشر يذكر أن أربعة أشياء تؤدي إلى السعادة وهي: رعاية السلطان، دعاء الزهاد، عطايا العظماء، رؤية الأحباب. وفي الباب السابع عشر يذكر أن هناك أربعة أشياء لا يجب الغرور بسببهم وهي: القرب من السلطان، وزهد الزهاد، ونصيحة الحساد، ومحبة النساء. وفي الباب الثامن عشر يذكر أن هناك أربعة أشياء يشترط على الإنسان مراعاتها وهي: الطاعة، والنصيحة، والشفقة، والأمانة. وفي الباب التاسع عشر يذكر أن أربعة أشياء تنجز الأعمال وهي: الارتباط بالعظماء، والتأمل فى القصص، وتدبير المخلصين، والاستماع إلى الأصدقاء.

وفي الباب العشرين يذكر أن هناك أربعة أشياء تدل على البلاء وهي: (١) الغرور والتكبر، (٢) والبحث عن عيوب الآخرين، (٣) والبخل، (٤) والاعتماد على السفلة. وفي الباب الواحد والعشرين يذكر أن أربعة أشياء دليل على السعادة هي: القول والعهد الصحيح، والتواضع، وحفظ السر فى كافة الأحوال، والسعى إلى الكسب الحلال، وفي الباب الثانى والعشرين يذكر أن هناك أربعة أشياء تدل على الشقاء وهي: الكلام مع الجهلاء، مصاحبة الأشرار، الاستماع إلى نصائح الفضوليين، العمل بقول النساء. وفي الباب الثالث والعشرين ينصح بالاحتراز من أربعة أشياء وتجنبها وهي: العجلة والتسرع،

والغضب والثورة، والبخل والإمساك، والعجب والتكبر. وفى الباب الرابع والعشرين يذكر أربعة أشياء تؤدى إلى المصائب وهى: الحنث والغيبة، والحسد والوقاحة، والكبر والزهو، والطمع والشهوة. وفى الباب الخامس والعشرين يذكر أن أربعة أشياء تؤدى إلى الرقى والثروة وهى: المروءة مع الأصدقاء، والمداواة مع الأعداء، ترك الهوى والرغبة، والتحمل والصبر عند القضاء. وفى الباب السادس والعشرين يذكر أربعة أشياء لا يمكن تغييرها هى: حكم القضاء والقدر، الحق، سبى الطبع، رضا الناس، وفى الباب السابع والعشرين يذكر أربعة أشياء تبدو صغيرة ولكنها عظيمة الأثر وهى: العدو، النار، المرض، العلم. وفى الباب الثامن والعشرين يذكر أربعة أشياء تسبب خللاً واضطراباً فى السلطنة وهى: ظلم الأمير وغفلة الوزير، خيانة الكاتب، إذلال الأسير واحتقاره، ظلم الضعيف. وفى الباب التاسع والعشرين يذكر أربعة أشياء لا بقاء لها وهى: الحاكم الظالم، والكاتب غير الواعى، المال الحرام، العمر. وفى الباب الثلاثين يذكر أربعة أشياء تنتج عن أربعة أشياء وهى: عاقبة العراك الخجل، وعاقبة الغضب الندم، وعاقبة البذاءة العداوة، وعاقبة الضعف والكسل الذل والمسكنة. وفى الباب الواحد والثلاثين يذكر أربعة أشياء تتم بواسطة أربعة أشياء أخرى وهى: العلم بالعقل، والطاعة بالورع، والعمل بالصدق، والنعمة بالشكر. وفى الباب الثانى والثلاثين يذكر أربعة أشياء تتحقق بأربعة أشياء: فالراحة تتحقق بالصمت، والمثل يأتى من الفضول، والعظمة تأتى من السخاء والكثرة تأتى من الشكر. وفى الباب الثالث والثلاثين يذكر أربعة أشياء تضعف الإنسان وهى: كثرة الأعداء، وكبر الدين، وكثرة النساء، وكثرة العيال مع قلة المال. وفى الباب الرابع والثلاثين يذكر أربعة أشياء تزيل أربعة وهى: عدم الشكر يزيل النعمة، والظلم يزيل القوة، والكسل يزيل الثروة، والتكبر يزيل المروءة.

وفى الباب السادس والثلاثين يذكر أربعة أشياء لا يمكن استرجاعها أو استردادها وهى: قول الكلام، ورمى السهام، ومضى العمر، وما جرى به القضاء. وفى الباب السادس والثلاثين يذكر أربعة أشياء تتأتى من أربعة أشياء وهى: المذلة من السؤال،

الندم من عدم التدبر، الحقارة من كثرة الهزل، الهلاك من الجرأة على السلاطين. وفى الباب السابع والثلاثين يذكر أربعة أشياء تدل على الجهل وهى: التهور مع غير المجرب. انتظار الوفاء من النساء، الاطمئنان إلى البلهاء والاعتماد عليهم، والتحدث مع الصغار. وفى الباب الثامن والثلاثين يذكر أربعة أشياء فيها نقصان العمر وهى: كثرة الجماع، وكثرة الذهاب إلى الحمام، وتناول غبار الفاكهة والقديد غير المطبوخ. والحديث مع العجائز من النساء. وفى الباب التاسع والثلاثين يتحدث عن أربعة أشياء لا تتوفر عند أربعة أشخاص هى: المروعة عند الكاذب، والسعادة عند البخيل، والراحة عند الحسود، والعظمة عند سيئ الطبع. وفى الباب الأربعين يذكر أربعة أشياء هى أصل السعادة فى الدارين وهى: طاعة الله ورسوله، إرضاء الوالدين والمعلم، وخدمة العلماء والحكماء، والشفقة على خلق الله. ثم ينهى المؤلف رسالته هذه، وهى كما نرى رسالة مختصرة إلا أنها تحتوى على نصائح كثيرة ومعانى وفيرة، يستفيد منها الإنسان فى حياته، وتعتبر عن تجارب هذه الشعوب، ونظرتهم إلى الحياة، وطريقتهم فى التعامل مع بعضهم البعض.

كتاب «سياسة نامه» والنصيحة:

مؤلف هذا الكتاب هو أبو على حسن بن على بن إسحق الطوسى الملقب بـ «نظام الملك» وقد كتبه بأمر ملكشاه السلجوقى عام ٤٨٤هـ أى قبل وفاته بسنة واحدة مقتولاً، وكان نظام الملك وزير السلاجقة الأكبر، والطريقة التى اتبعها فى كتابه هى أنه كان يتناول ناحية من النواحي الإدارية التى يلاحظ عليها الخلل أو النقص، ويبين طريقة علاجها ثم يسوق مما حفظه أو رآه أو سمعه ما يؤيد ما ذهب إليه فى طريقة العلاج، وهو بهذا يتناول الجانب العملى البحت من السياسة والإدارة. وعلى هذا فالمادة الموجودة فى الكتاب تعكس صورة طيبة لما ضم القرن الخامس من ثقافات ومشكلات اجتماعية ودينية وملابسات اقتصادية.

وقد احتل أسلوب هذا الكتاب منزلة سامية بين الأساليب النثرية لأنه كان يستمد جماله من بساطته ومن خلوه من الزخرفة والمحسنات البديعية.^(١)

ويمكننا القول بأن ما ذكره نظام الملك فى الإدارة والسياسة إنما يدخل فى باب النصائح فى هذا المجال، ويمكننا ضمه إلى كتب النصائح الفارسية. ويضم الكتاب بين دفتيه خمسين فصلاً، يتناول فى أولها أحوال أهل العصر ومدح السلطان العادل خلد الله ملكه، ويقصد به ملكشاه السلجوقى، ثم يتحدث فى الفصل الثانى عن معرفة قدر نعمة الله تعالى على الملوك ويقول فى مطلعه:

«إن معرفة قدر نعمة الله تعالى على الملوك رعاية مرضاته عز اسمه. ومرضاة الحق سبحانه فى الإحسان إلى الخلق وإقامة العدل بينهم. وإذا لهج الخلق بدعاء الخير دائماً استتب أمر تلك المملكة وازداد شأنها يوماً بعد يوم وطاب ذلك الملك بإقباله وعهده نفساً وفاز فى هذه الدار بحسن الذكر، وفى تلك النجاة وكان حسابه يسيراً. فقد قال العظماء: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم».

ومن الموضوعات التى يتناولها المؤلف فى كتابه: جلوس السلطان للمظالم وإقامة العدل وانتهاج السيرة الصالحة، والسؤال عن أحوال الوزراء والكتاب، والقضاة والخطباء والمحتسبين ورونق أعمالهم، وأحوال أهل الإقطاع والسؤال عن سيرتهم فى الناس وأحوالهم، ومشورة السلطان للعلماء والحكماء فى الأمور، وأحوال الرسل وترتيب أعمالهم، وفى تعيين أموال الجند، وترتيب عمل الحرس وأصحاب النوبة وحراس الأبواب، وفى تأنى السلطان فى أمور الملك، وفى إجابة المتظلمين وإنجاز أمورهم وإرضائهم، وغير ذلك من الموضوعات التى تخص شئون المملكة والحكم.

(١) انظر مقدمة ترجمة «سياسة نامه» العربية للدكتور السيد محمد العزاوى ص ٣ وما بعدها - طبعة دار الراشد العربى القاهرة ١٩٧٥.

والمؤلف فى بداية كل فصل يتحدث ناصحاً الملوك حول موضوع من هذه الموضوعات ويلحق بهذا بعض الحكايات كمثال أو شاهد على ما يقول، وتمثل الحكايات جانباً تاريخياً، ولما كان المؤلف رجل سياسة وبلاط ومطلعا على شئون الحكم، فقد ألف هذا الكتاب بطريقة أفضل من غيره وضم فيه الحكمة والنصيحة وتفسير بعض آيات القرآن الكريم وذكر طرفاً من أخبار الرسول (ﷺ)، وقسماً من قصص الأنبياء وسير الملوك وحكاياتهم. ويقول المستشرق براون فى هذا الصدد: «كتاب سياست نامه يعتبر فى رأى من أهم الكتب الممتعة القيمة التى كتبت نثراً فى الفارسية؛ ذلك لأنه من ناحية يشتمل على قدر كبير من الأخبار والروايات التاريخية، ولأنه من ناحية أخرى يشتمل كذلك على الآراء السياسية التى كان يراها واحد من أنبغ الوزراء الذين ظهرُوا فى المشرق. والذين بلغوا مبلغاً من القوة والحكمة لا نستطيع تقدير مداه إلا بالنظر إلى الفوضى المتصلة والحروب الداخلية المستمرة التى أعقبت مقتله.. وقد خصص نظام الملك سبعة فصول من كتابه (من الفصل ٤١ إلى ٤٧) لمحاربة الملاحدة والمظنون فى دينهم وخاصة فريق الإسماعيلية والباطنية، وهو يشكو من الشكوى من أن اليهود والمسيحيين والمجوس والقرامطة يوظفون بكثرة فى أعمال الدولة والديوان، ثم يثنى على الخطة الصالحة التى اتبعتها ألب أرسلان أثناء حكمه فى منع هؤلاء من تولى هذه الوظائف ومعاملاتهم بشدة وغلظة بالغتين...»^(١).

ومن نصائح نظام الملك فى كتابه للملك قوله فى الفصل الثالث بضرورة جلوس السلطان للمظالم وإقامة العدل وانتهاج السيرة الصالحة، يقول: «لا مناص للسلطان من أن يجلس للمظالم يومين من كل أسبوع يأخذ للمظلوم من الظالم وينتصف له، وأن يستمع لرعيته دون وساطة. ويجب أن تعرض عليه بعض المظالم ذات الشأن يضرب فى واحدة منها مثلاً وعبرة، حتى إذا فشا فى المملكة أن مولى العالم يدعو بالمتظلمين

(١) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى - تأليف إدوارد براون - ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى ص ٢٦١، القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

وطلاب العدل بین یدیه ویستمع لمقالتهم یومین من کل أسبوع ویضرب علی أیدی الظالمین کبر ذلک فی الظلمة وخافوا وأقصر عدوانهم ولم یستطع أحد أن یقترف الظلم خشية عقابه»^(۱).

ویقول فی الفصل الرابع حول عمال الدولة: «یجب أن یوصی کل من یولون من العمال عملاً بالسیرة الحسنة فی خلق الله وألا یأخذوا منهم إلا المال الحق، وأن یطلبوه بالإجمال والرفق، وألا یسألوا الناس شیئاً من هذا المال إلا إذا حصل الارتفاع وکان الحصاد. لأنهم إن طالبوه قبل الارتفاع والحصاد جهدت الناس واضطرت إلى أن تبیع أموالها بنصف قیمتها، وفی ذلک ما فیه من هلاک للخلق وشقاء لهم. وإن عجز أحد من الرعية واحتاج إلى بقرة أو إلى بذور وجب علیهم أن ینسئوه وأن یترفقوا به لیظل مستقراً فی مقامه لا یتحول عنه ولا یفترب»^(۲).

وفی الفصل السادس یتحدث عن القضاء والخطباء والمحتسبین وأعمالهم فیکول: «ینبغی للسلاطین أن یعلموا بأحوال قضاة المملكة فرداً فرداً، فیختارون من کان منهم

(۱) چاره نباشد پادشاه را از آنکه در هفته دو روز بمظالم بنشینند و داد از بیدادگر بستاند و انصاف بدهد و سخن رعیت بشنود بی واسطه، و چند قصه که مهم تر بود باید که عرضه کند و در هر یک مثالی دهد، چون این خبر در مملکت پراگندی شود دکه خدا وند عالم متظلمان و داد خواهان پیش میخواند و در هفته دو روز سخن ایشان میشنود و ظالمان را شکسته میدارد همه ظالمان بشکوی هند و دستهای ایشان کوتاه شود و کس نیارد بیداد کرد از بیم عقوبت او.

(سیاست نامه - نظام الملك - بتصحيح عباس إقبال - تهران ۱۳۲۰ ص ۹) .

(۲) الترجمة العربية لسیاست نامه ص ۵۱

عمال را که عملی دهند ایشان را وصیت کردن باید تا با خلق خدای نیکو زیند و از ایشان جز مال حق نستانند و آن نیز بمدارا و مجاملت طلب کنند و تا ایشان را دست بارتفاعی نرسد آن مال را نخواهند که چون پیش ازوفت خواهند رعایا را رنج رسد و درم گانه. ارتفاعی که خواهد رسیدن بنیم درک بفروشدن از ضرورت، و در آن مستأصل و آواره شوند و اگر کسی از رعیت در ماند و یگاو و تخم حا چتمند گردد او را وام دهند و سبکباردارند تا بر جای بماند و از خانه خویش بغربت نیفتد.

(سیاست نامه ص ۲۲) .

اعز علماً وأزهد نفساً وأعف يداً وأقل طمعاً ويولونه هذا الأمر ويعزلون من لم يكن كذلك ويستبدلون به من كان أليق منه. وينبغي أن يجروا على كل واحد منهم الرواتب فلا تلج به الحاجة إلى الخيانة، ولما كان هذا الأمر مهماً دقيقاً لتسلطهم على دماء المسلمين وأموالهم وجب ألا يسند إلى الجاهل الفاسد بل يفوض إلى العالم الورع، وإذا حكم الحاكم جهلاً أو طمعاً أو إغراضاً حكماً لا راد له وجب على الحكام الآخرين أن يعلموا به السلطان ليعزله ويؤاخذه ويجب على الوكلاء أن يظاهروا القاضي ويراعوا حرمة عمله، فإذا أخذت أحد العزة وامتنع عن الحضور إلى ساحة القضاء أحضره عنوة وإكراهاً ولو كان من نوى الجاه والنعمة. وقد ولي القضاء صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام بأنفسهم ولم يأنذوا لأحد فيه قط لكيلا يقضى في الأمور بغير الحق. ولم يكن أحد يستطيع أن يتعدى ما حكموا به. ولقد أقام الحكام العدل في كل عصر وكل مملكة منذ أيام آدم عليه السلام وأقسطوا وسعوا في إحقاق الحق حتى تدوم دولتهم أعواماً طوالاً.^(١)

(١) الترجمة العربية ص ٧٠

النص الفارسي: «بایدکه احوال قاضیان مملکت یگان یگان بدانند وهرکه ازایشان عالم وزاهد وکوتاه دست تر وکم طمع تر باشد اورا تربیت کنند ویدان کارنگاه دارند وهرکه نه چنین بوداورا معزول کنند ودیگری را کم شایسته باشد بنشانند وهریکی را ازایشان باندازه کفاف مشاهرت إطلاق کنند تا اورا بخیانته حاجت نیفتد که این کارمهم ونازک است ، از بهر این که ایشان برخونها ومالهای مسلمانان مسطند. نشاید این شغل بجاهل ونا پاک دادن الا تفویض این کار بعالم با روع ، وچون حاکمی بجهل وطمع یا بقصد امضاء حکمی کند وسجلی دهد برحاکمان دیگر لازم شود آن حکم بد را معلوم پادشاه گردانیدن وأن کسرا معزول کردن ومالش دادن، وکما شتگان باید که دست قاضی قوی دارند ورونق کار او نگاه دارند واکر کسی تعذری کند وبحكم حاضر نشود ، واکر محتشم بود ، اورا بعنف وکره حاضر کنند که قضا بروزگار خود یاران پیغمبر علیه الصلوة والسلام بتن خویش کرده اند وهیچ کس دیگررا نفرموده اند ازبهر آن تا جزراستی نرود وهیچکس پای از حکم باز نتواند کشید ، وبهمه روزگار از گاه آدم علیه السلام تا اکنون در همه ملت ودر همه ملکی عدل ورزیده اند وانصاف داده اند وپراسنی کوشیده اند تا مملکت ایشان سالهای بسیار پمانده است.

(سیاست نامه ص ٤٧).

وفى الفصل الثالث عشر من الكتاب ينصح المؤلف ببث العيون وتدبير عملهم على صلاح المملكة والرعية فيقول: «ينبغي أن تذهب العيون دائماً إلى كل الأطراف فى هيئة التجار والسياح والمتصوفة والعقارين والدرائش ويرسلون عن كل ما يسمعون خبراً لكيلا يخفى شئ من الأشياء قط. وإذا حدث أمر أو وجد جديد أمكن تداركه على الفور. وكم من حين خرج فيه الولاة وأصحاب الإقطاع والوكلاء والأمراء وأظهروا الخلاف وتآمروا بالملك فلما سأل الجاسوس وأخبر السلطان ركب إليهم من فوره وحشد لهم ووقع عليهم بغتة وأوقع بهم وأحبط كيدهم. أما إذا حشد له ملك من الملوك أو تجمع عليه جيش من الجيوش خفية وسار إليه يطلب مملكته فإنه يتأهب لهم ويدفعهم. وكذلك حدثت العيون بحال الرعية من خير أو شر فابتدرتها الملوك بالعلاج كما فعل عضد الدولة فى وقت من الأوقات.^(١)

وفى الفصل الثامن عشر يتحدث المؤلف عن مشورة السلطان للعلماء والحكماء فى الأمور ويرى أن «المشورة من قوة الرأى وتماص العقل وبعد النظر لأنه إذا كان للرجل علم يعلم به كل الأمور فإنه لا يخلو من أن يعرف شيئاً معرفة كبيرة وآخر معرفة قليلة... وقد أجمع العالمون على أنه لم يكن بين بنى آدم من هو أقوى رأياً من الرسول عليه الصلاة والسلام، ومع ما كان لسيد الأئام من علم وأنه كان يرى خلفه بقدر ما كان

(١) الترجمة العربية ص ١٠٧

النص الفارسي: «با يدكه بهمه اطراف هميشه جاسوسان روند برسبيل بازار كانان وسياحان وصوفيان ودار فروشان ودرويشان، وان هر چه مى شنوند جز مى آورند تا هيچگونه از احوال چيزى پو شيده نماند واگر چيزى حادث شود وتازه گردد بوقت خويش تدارك آن کرده آيد چه بسيار وقت بوده است كه واليان ومقطعان وكما شتگان وامرا سر عصيان ومخالف داشته اند وير پادشاه بد سگالیده وچون جاسوس برسيد وپادشاه را خبر داد در وقت پادشاه بر نشسته است وتاختر برده ومفاجاً بر سرايشان فروشده است وفرو گرفته وعزم ايشان باطل کرده. واگر پادشاهى يا لشكر بيگانه قصد مملكت او کرده است او كار خويش بساخته است ودفع آن کرده وان حال رعايا همچنين چيزها خبر داده اند خير وشر وپادشاهان تيمار آن داشته اند چنانكه وقتى عضد الدولة کرده است».

(سياست نامه ص ٩٠).

یرى أمامه، وأنه قد عرضت عليه السماوات والأرضين والجنة والنار واللوح والقلم والعرش والكرسى وما بين ذلك وأن جبريل عليه السلام كان يهبط عليه فى كل ساعة بالأخبار والوحى وينبئه بأنباء ما كان وما لم يكن، ورغم ما كان له من الفضائل والمعجزات فإن الله تعالى يأمره بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أى يا محمد إذا جد لك أمر فدبره مع صاحبك. أمره بالمشورة ومثله غنى عن المشورة والتدبير... إذن فالواجب يقضى على السلطان إذا أراد أمراً أو جد له مهم أن يستشير فيه الشيوخ والأنصار ليقول كل واحد منهم ما يعن له فى هذا الشأن فيقابل السلطان الأقوال برأيه. حتى إذا ما سمع رأى كل واحد ومقاله وما أدلى به وأظهره نتج عن هذا الرأى الصواب. والرأى والتدبير الصواب هو ما أجمعت عليه عقول العاملين. وأما ترك المشورة فى الأمور فمن شأن ضعف الرأى. ومثل هذا الرجل يسمى المستبد. كما أن العمل لا يمكن أن يتم بدون رجل يفعله، كذلك لا يصح الأمر دون مشوره فيه»^(١)

(١) الترجمة العربية ص ١٢٥

النص الفارسى: «مشاورت كردن از قوی رأی بود واز تمام عقلی وپیش بینی چه هر کس را دانشی باشد وهریک چیزی دانند یکی بیشتر ویکى کمتر.... همه جهانیان متفقند که از آدمیان هیچکس از پیغامبر علیه السلام قوی رأی تر نبوده است، باهمه دانش که آن سرور را بود از پس همچنان بدیدی که از پیش دیدی و آسمانها وز مینها و بهشت و دوزخ و لوح و قلم و عرش و کرسی آنچه در این میان است براو عرضه کردند و جبرئیل علیه السلام هر ساعت میآمد و خبرها همی داد و وحی همی آورد و از بوده و نابوده خبر میداد، باچندین فضیلت و معجزات که اورا بود ایزد تعالی اورا میفرماید ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ یا محمد چون کاری ترا پیش آید با یاران خویش تدبیر کن، جایی که اورا مشورت فرمود کردن و چون او بی نیاز نبود از تدبیر و مشورت... پس چنان واجب کند که چون پادشاه کاری خواهد کرد یا مهمی اورا پیش آید با پیران و هوا خواهان مشورت کند تا هر کس را آنچه فراز آید در آن معنی بگوید و آنچه رأی پادشاه دیده باشد با گفتار هر یکی مقابله کند و هر یکی چون گفتار و دزی یکدیگر بشنوند و براندازند رأی صواب از میان پدید آید، و رأی و تدبیر صواب آن باشد که عقول همگان بر آن متفق باشد، و مشورت ناکردن در کارها از ضعیف رأیى باشد و چنین کس را خود کامه خوانند. چنانکه هیچ کاری بی مرد آن نتوان کرد همچنین هیچ شغلی بی مشورت نیکو نیاید....» (سیاست نامه ص ١١٢، ١١٣).

- كتاب «دستور الوزراء» والنصيحة:

إذا كانت هناك بعض الكتب الفارسية تنصح الملوك باتباع سياسة معينة في الحكم حتى تستقيم الأمور في البلاد، فهناك كتب أخرى تقدم النصائح والتوجيهات للوزراء، حتى يقوموا بعملهم على أكمل وجه، ويؤدون دورهم الذي من أجله اختارهم السلطان أو الحكام. ونذكر من هذه المؤلفات كتاب «دستور الوزراء» لسلطان حسين واعظ الاسترآبادي، الذي كان معاصراً للشاه عباس الأول الصفوي، وأدرك كذلك عهد الشاه عباس الثاني، وقد ألف كتابه هذا بين عامي ١٠٥٥، ١٠٦٤هـ، وأهداه إليهما وذكرهما في مقدمته على هذا الكتاب.

ويذكر المؤلف في مطلع كتابه حديثاً للرسول (ﷺ) يقول فيه: «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه». ويؤيد هذا الحديث بحكاية تروى في كتب التاريخ مفادها أن السلطان ملكشاه السلجوقي كان ينفق مبلغ واحد وعشرين ألف دينار كل عام على الفقراء والمساكين والعلماء الفضلاء، فأشار عليه البعض بإنفاق هذا المبلغ على الجند، لأنه كلما قوى الجيش اتسعت المملكة وكثر دخلها، فأمر السلطان وزيره نظام الملك الطوسي بتنفيذ هذا الأمر، فأتاعه نظام الملك في بداية الأمر وقال له: الأمر للسلطان، سوف أنفذ ما تريد، إلا أنني أود عرض رأي عليك في الخلوة، فقال له السلطان: لك هذا. وفي اليوم التالي طلبه السلطان في الخلوة وقال له: قل ما تريد الآن، فقد فرغت تَوْاً من الصلاة وصدرى منشرح وعلى استعداد لسماع ما تقول. فقال له: يا سلطان الزمان، إذا أعطيت المبلغ للجند فسوف يقومون بحمايتك، وإذا أعطيت المال للعلماء والفقراء، فسوف يستجاب دعاؤهم عندما يدعون لك في وقت السحر، بينما يكون غيرهم نائمين في سبات عميق، ونحن جميعاً جنوداً ورعية في حاجة إلى هذا الدعاء.. فسر السلطان من هذا الكلام وأمر بإنفاق مبلغ اثنين وأربعين ألف دينار على هذه الطائفة، فاتسعت مملكته وعلا شأنه ببركة إحسانه على الجميع.

وينصح المؤلف الوزير بموافقة السلطان على رأيه في بداية الأمر حتى لو كان على خلاف معه في الرأي، ومجاراته إلى أن تحين الفرصة لإقناعه برأيه في لطف ولين،

ويذكر رأى الحكماء فى هذا الصدد؛ إذ يعتبرون الملوك والحكام بمثابة السيل الجارف الذى ينهمر من فوق جبل، ولا يستطيع أحد تحويل مساره إلا بالحيلة والتدبير. وهذا ما فعله نظام ملك فى القصة سألقة الذكر.

ثم يكمل المؤلف الحديث النبوى الشريف: «وإذا أراد الله عز وجل به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسى لم يذكره وإن ذكره لم يعنه» واستشهد على ذلك بحكاية حدثت فى أيام الخليفة المعتضد عندما سمع أن جماعة من الناس تجتمع فى حانوت بائع تبين وتخوض بالباطل فى شئون الحكم، فغضب غضباً شديداً، وطلب وزيره عبد الله بن سليمان وقص عليه ما سمعه وسأله عن كيفية معالجة الأمر. فقال له عبد الله بن سليمان: اقبط عليهم، فاشنق بعضهم، وأحرق البعض الآخر، وأحرق أوصال البقية، لأنه كلما اختلفت العقوبات وتنوعت كلها دب الخوف والهلع فى نفوس الرعية أكثر. فقال له الخليفة: والله إن قسوة قلبك قد أطفأت نار غضبى، وحولت خشونتى إلى رفق ولين، فلو أمرت ببعض ما أشرت به على لمنعتنى من الحلم والشفقة وهو ما يجب أن تنصحنى به كوزير، لا والله إن هذا رأى ليس بالرأى السديد، فالصواب أن تبحث أحوال هذه الجماعة، وتفكر فى أمر معاشهم فتسند عملاً لمن لا عمل له، وتساعد المحتاج منهم من بيت المال، وتنصح الأغنياء بالابتعاد عن الحانوت باللف واللين، وتحذرهم من وصول كلامهم إلى مسامع الخليفة حتى يمتنعوا عن لغو الحديث. وقام الوزير بتنفيذ ذلك فرجعت هذه الجماعة عما كانت تقوم به.

وهكذا يقوم المؤلف بتقديم النصح للوزراء حتى تكون آراؤهم سديدة ونصائحهم موفقة، ويقدم المؤلف هذه النصائح والعبر لهم من خلال الحكايات والقصص التاريخية.^(١)

(١) كتاب دستور الوزراء - سلطان حسين واعظ استربادى - تصحيح وتعليق إسماعيل واعظ جوادى - انتشاران بنياد فرهنگ ایران - تهران ١٣٤٥ (من ص ١٧ إلى ص ٢٣).

كتاب «جهاز مقاله، والنصيحة»:

ولا تقتصر النصيحة عند الفرس على جوانب الحياة المختلفة كما هو الحال في كتاب «قابو سنامه» أو على المسائل الإدارية وأصول الحكم، بل تتعدى ذلك إلى النصح في مجالات الأدب والفنون الأخرى، وخير من يمثل هذا الاتجاه نظامى عروضى السمرقندى فى كتابه «مجمع النوادر» المعروف باسم «جهاز مقاله» أو المقالات الأربع، وهو من أقدم الكتب الفارسية التى عالجت جوانب من الحياة الأدبية والعلمية فى الجانب الشرقى من العالم الإسلامى منذ القرن الثالث الهجرى وحتى منتصف القرن السادس. ألف هذا الكتاب حوالى سنة ٥٥٠هـ، وترجع أهميته إلى اشتماله على كثير من الموضوعات التاريخية وتراجم لمشاهير الأعلام الذين لم يرد ذكرهم فى غيره من كتب الأدب والتاريخ.

والكتاب كما يدل عليه اسمه عبارة عن أربع مقالات فى بيان ما تتصف به الطوائف الأربع التى يحتاج إليها الملوك وهم الكتاب والشعراء والمنجمون والأطباء، ويذكر المؤلف ما ينبغى أن يتوفر لكل طبقة من صفات، ثم يعقب ذلك بما يقرب من عشر حكايات تناسب الموضوع. وقد رأينا ضم هذا الكتاب إلى كتب النصيحة الفارسية نظراً لأن ما ذكره المؤلف فى مقدمة كل مقالة من هذه المقالات يعتبر نوعاً من النصيحة لكل طائفة من هذه الطوائف، كما أن الحكايات التى ذكرها فى كل مقالة كان المقصود منها هو أخذ العبرة والنصيحة فى كل مجال من المجالات التى تحدث عنها المؤلف. أما بالنسبة لأسلوب الكتاب فقد تميز بالصنعة نسبياً خاصة فى مطالع مقالاته، وقد ألفه نظامى عروض باسم أبى الحسن حسام الدين على من الأمراء الغوريين.

يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة طويلة تتضمن عدة فصول أنهاها بما تضمنه الكتاب من مقالات هى: الأولى، فى ماهية الكتابة وصفة الكاتب البليغ الكامل. والثانية، فى ماهية الشعر وصلحية الشاعر، والثالثة، فى ماهية علم النجوم وتمكن المنجم فى هذا العلم، والرابعة، فى ماهية علم الطب وهدى الطبيب وصفته. وختم هذه المقدمة بقوله: «فقد أوردنا فى رأس كل مقالة ما يليق بهذا الكتاب من الحكمة وأتبعناه بعشر حكايات

طريقة من نوادر هذا الباب ويدائع هذه المقالة التى وقعت لهذه الطبقة، ليتبين للملك ويعلم أن الكتابة ليست أمراً هيناً، وأن الشعر ليس شغلاً يسيراً، وأن علم النجوم علم ضرورى، وأن الطب صنعة لازمة، وأن الملك العاقل لا مناص له من هؤلاء الأشخاص الأربعة: الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب»^(١).

وفى المقالة الأولى يعرف الكاتب فى مقدمته عليها ماهية الكتابة فيقول: «الكتابة صناعة مشتملة على قياسات خطابية وبلاغية، ينتفع بها فى المخاطبات بين الناس على سبيل المحاوراة والمشاورة والمخاصمة، فى المدح والذم، والاحتتيال والاستعطاف والإغراء، وتكبير الأعمال، وتصغير الأمور، والصرف فى وجوه الاعتذار والعتاب، وفى إحكام العلائق، والتذكر بالسوابق، وترتيب الكلام وتنظيمه فى كل واقعة على الوجه الأولى والمنهج الأخرى».

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عما يجب توفره فى الكتاب وما ينبغى عليه أن يتبعه فى عمله ليصبح كاتباً جيداً، وما هى الأسباب التى يأخذ بها حتى يصل إلى مرتبة عالية فى هذا الفن، وإذا نظرنا إلى كل هذه الشروط التى وضعها المؤلف، أو قل كل هذه النصائح التى نصح بها الكاتب، وجدناها تؤدى ولا شك إلى هذه المنزلة العالية فى فن الكتابة، ويبدأ شروطه ونصائحه بشخصية الكاتب ثم ثقافته وسلوكياته فى الكتابة، يقول: «فينبغى أن يكون الكاتب كريم الأصل، شريف العرض، دقيق النظر، عميق الفكر، ثاقب الرأى، وأن ينال الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر من الأدب وثمراته، وينبغى ألا يكون بعيداً من القياسات المنطقية، غريباً عنها، وأن يعرف مراتب أبناء الزمان، ومقادير أهل العصر، وألا يشغل بحطام الدنيا وزخارفها، ولا يلتفت إلى التحسين والتقبيح من أصحاب الأغراض وأولى الإغماض ولا يفتربهم.

وأن يصون مخدومه فى مقام الترسل عن المنازلة الدنية، والمواضع الخاملة، ولا يشتد فى أثناء الكتابة، وسياق الترسل على أرباب الحرمة ونوى الحشمة، وإن كان بين

(١) انظر ترجمة كتاب «جهار مقالة» - عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب - القاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩ م ص ٢١.

المخدوم والمخاطب خصومة وجب أن يصون قلمه ولا يقع فى عرض المخاطب إلا من جاوز الحد، وخرج عن الصون، فقد قيل: «واحدة بواحدة والبادى أظلم».

وينبغى أن يلتزم الطريق الأوسط فى الألقاب، ويكتب إلى كل إنسان ما يلانم أصله ونسبه وملكه وولايته وعسكره وخزائنه إلا من شدد فى هذا وتكبر وجاوز الحد وزاد فى الانبساط إلى الدرجة التى لا يعدها العقل موافقة للمكاتبة وملائمة للمراسلة. فيجوز للكاتب ولا حرج عليه أن يأخذ القلم ويمضى قدماً، ويبلغ فى هذه السبيل أقصى الغاية، ومنتهى النهاية، فإن أكمل الناس وأفضلهم صلوات الله وسلامه عليه يقول: «التكبر مع المتكبر صدقة»، وعليه ألا يدع غباراً ينال مخدومه فى ميدان المكاتبة من هواء المراسلة.

وينبغى أن يلزم فى سياق الكلام نهجاً - يجعل الألفاظ تابعة للمعاني، ويوجز. ومن الحكايات التى يستشهد بها المؤلف على مهارة الكاتب وبلاغته نذكر الحكاية الرابعة فى هذه المقالة وهى على النحو التالى:

«كان الصاحب الكافى إسماعيل بن عباد الرازى وزير شاهنشاه. وكان فاضلاً كاملاً، وترسله وشعره، على هذه الدعوى، شاهداً عدل وقاضياً صدق. وكان الصاحب عدلى المذهب، وأصحاب العدل يتشددون فى التقوى والتنسك ويجيزون أن يخلد المؤمن فى جهنم فى شعيرة. وكان أكثر عماله وخدمه وحشمه على مذهبه.

وكان فى قم قاض من قبله. وكان للصاحب اعتقاد راسخ فى نسكه وتقواه. والأخبار عنه تتوالى بخلاف ما يعتقد الصاحب فلا يصدقها حتى شهد اثنان من ثقات أهل قم أن القاضى أخذ خمسمائة دينار رشوة فى خصومة كانت بين فلان وفلان، فانكر الصاحب هذا إنكاراً شديداً من وجهين، جرأة القاضى وضعف دينه، وكثرة الرشوة، وأخذ القلم فوراً وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، أيها القاضى بقم، قد عزلناك فقم.

ويعلم الفضلاء ويعرف البلغاء أن هذه الكلمات فى أى مرتبة فى باب الإيجاز والفصاحة. لا عجب أن يكتب الفصحاء والبلغاء هذه الكلمة على القلوب وينقشوها فى الأرواح منذ ذلك اليوم.^(١)

ويقصر الكلام، فقد قال عظماء العرب: خير الكلام ما قل ودل. وحيثما جاءت المعانى فى أثر الألفاظ طال الكلام، ودعى الكاتب مكثراً (والمكثار مهذار).

ولا يبلغ كلام الكاتب هذه الدرجة حتى ينال من كل علم نصيباً، ويأخذ عن كل أستاذ نكتة، ويسمع من كل حكيم لطيفة، ويقتبس من كل أدب طرفة. فعليه أن يجعل ديدنه قراءة كلام رب العزة وأخبار المصطفى وأثار الصحابة وأمثال العرب، وكلمات العجم، ومطالعة كتب السلف، والاضطلاع على صحف الخلف، مثل: ترسل صاحب الصابى وقابوس وألفاظ الحمادى والأمامى وقدامة بن جعفر ومقامات البديع والحريرى وحמיד وتوقيعات البلعمى وأحمد بن حسن وأبى نصر الكندرى، ورسائل محمد عبده وعبد الحميد وسيد الرؤساء، ومجالس محمد بن منصور، وابن عبادى وابن النشابة العلوى. ومن دواوين العرب: ديوان المتنبى والأبيوردى والغزى. ومن شعر العجم: أشعار الرودىكى ومثنوى الفردوسى ومذائح العنصرى.

(١) «صاحب كافى اسماعيل بن عباد الرازى وزير شهنشاه بود ودر فضل كمال داشت. وترسل وشعر او برين دعوى او شاهد عدل اند ودواكم راست. ونيز صاحب مردى عدلى مذهب بود وعدلى مذهبىان بفايت متنسك ومتقى باشد، وروا دارند كه مؤمنى بخصمى يك جا جاودانه در دوزخ بماند ، وخدم وحشم وعمال او بيشتر آن مذهب داشتندى كه او داشت ، وقاضى بود بقم از دست صاحب كه صاحب را در نسك وتقواى او اعتقادى بود راسخ ، ويك يك بر خلاف اين از وي خبر ميدادند وصاحب را استورا نمى آمد ، تا از ثقات اهل قم دو مقبول القول گفتند كه زمان خصوصت كه ميان فلان وبهمان بود قاضى پانصد دينار رشوت بستد. صاحب را عظيم مستنكر آمد بدو وجه : يكي از كثرت رشوت ، ودوم از دليرى وبى ديانتى قاضى ، حالى قلم بر گرفت وبنوشت : بسم الله الرحمن الرحيم. ايها القاضى بقم قد عزلناك فقم، وفضلا دانند ويلغا شناسند كه اين كلمات در باب إيجاز وفصاحت چه مرتبه دارد ، لاجرم از آن روز باز اين كلمه را بلغا وفصحا بر دلها همى نويسند وير جانها همى نگارند».

(چهار مقاله - عروض سموقندى - باهتمام محمد قزوینی - تهران ۱۳۴۱ هـ ش ص ۱۸)

فكل واحد ممن عدت نسيج وحده فى صناعته، وصدر وقته. وكل كاتب يحصل هذه الكتب ويديم مطالعتها يشحذ خاطره، ويصقل ذهنه، وينير طبعه، ويسمو كلامه ويستحق اسم الكاتب.^(١)

وإذا نظرنا إلى هذه الشروط السابقة، نرى أن المؤلف لم يترك شاردة ولا وارة ينبغي توافرها فى الكاتب إلا ذكرها، فالعلم والثقافة مسألتان أساسيتان بالنسبة للكاتب، كما أن حسن التصرف والدقة فى التعامل مع الآخرين سواء كانوا من الأعداء أو من الأصدقاء مسائل هامة وضرورية، وكذلك الإيجاز كوسيلة من وسائل حسن التعبير وبلاغة الكلام، ولن يصل الكاتب إلى المنزلة المرجوة إلا باطلاعه على أبرز ما ألفه أدباء عصره والعصور السابقة عليه، ويخص بالذكر فى النهاية القرآن الكريم وأثره على الكاتب.

وفى المقالة الثانية حول ما هية الشعر وصلاحيه الشاعر، يعرف المؤلف الشعر أولاً بقوله: «الشعر صناعة بها يؤلف المقدمات الموهمة، والقياسات المنتجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيراً والكبير صغيراً، ويرد الحسن فى زى القبح، ويجلو القبح فى صورة الحسن. ويثير بالإبهام القوى الغضبية والشهوانية فيحدث بهذا الإبهام للطباع انقباض وانبساط، وتنشأ فى العالم الأمور العظام... فلا غنى للملك عن الشاعر المجيد كى يخلد اسمه، ويبقى ذكره فى الدواوين والكتب، لأن الملك إذا نزل به القضاء لم يبق من جيشه وماله وخزائنه شىء ولكن يبقى اسمه خالداً بشعر الشعراء...».

ويعدد المؤلف أسماء الحكام وأسماء الشعراء الذين خللوا ذكرهم عن طريق إنشاد الشعر فى مديحهم والثناء عليهم، فظلت ذكراهم باقية. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الصفات الواجب توافرها فى الشاعر وشعره، ومن هذه الصفات ما يخص شخصية الشاعر، وعلمه وثقافته، يقول: «ينبغي أن يكون الشاعر سليم الفطرة، عظيم الفكرة،

(١) انظر ترجمة چهار مقاله ص ٢٢، ٢٣

صحيح الطبع، جيد الروية، دقيق النظر، متنوعاً في أنواع العلوم، أخذاً بأطراف الرسوم، لأن كل علم يتصل بالشعر كما يتصل الشعر بكل علم.

وينبغي أن يكون الشاعر منطقياً في مجلس المحاورة، طلق الوجه في مجلس المعاشرة. وينبغي أن يكون شعره من الجودة بحيث يكون في صحائف الزمان مسطوراً، وعلى ألسنة الأحرار مذكوراً. يكتب في السفائن ويقرأ في المدائن. وخير ما في الشعر تخليد الاسم، ولا يبلغ هذا المقصد ما لم يبق مسطوراً مقروءاً. وإذا لم يبلغ الشعر هذه الدرجة لم يبق أثره، ومات قبل قائله وكيف يخلد غيره إن لم يخلد نفسه.

ولا يبلغ الشاعر هذه المنزلة إلا أن يحفظ في عنقوان الشباب وربيع العمر عشرين ألف بيت من أشعار المتقدمين ويجعل نصب عينه عشرة آلاف كلمة من آثار المتأخرين، ويواصل القراءة في دواوين الأئمة، ويلتقط منها ليعلم كيف تصرفوا في مضايق القول، ودقائق الكلام حتى يرتسم في طبعه صور الشعر وطرائقه، ويتجلى له مزايا الشعر ونقائصه فيرتقى قوله، ويعلو طبعه. فإذا رسخ طبعه في نظم الشعر وانقاد له الكلام عمد إلى علم الشعر وقرأ العروض، وألم بتصانيف الأستاذ أبي الحسن السرخسي البهرامي مثل غاية العروضين وكنز القافية، وقرأ نقد المعاني والألفاظ والسرقات والتراجم وأنواع هذه العلوم على أستاذ يحذقها، ليكون جديراً بالأستاذية ويظهر اسمه على صحيفة الزمان مع أسماء الأساتذة الآخرين الذين ذكرنا أسماءهم، حتى يستطيع أن يوفى الممدوح حق نعمه، بتخليد اسمه...»^(١).

وفي المقالة الثالثة يتحدث عن علم النجوم، ويستشهد في بداية هذه المقالة بقول أبي الريجان البيروني (متوفى سنة ٤٤٠هـ) في كتابه التفهيم في صناعة التنجيم: «لا يسمى الرجل منجماً ما لم يحط بأربعة علوم، الأول الهندسة والثاني الحساب

(١) ترجمة چهار مقاله ص ٢٤-٢٨

والتالث الهيئة والرابع الأحكام». ثم يعرف المؤلف كل علم من هذه العلوم، ويختتم مقدمة هذه المقالة بالشروط التى يجب توافرها فى المنجم.^(١)

وفى المقالة الرابعة يتناول المؤلف علم الطب، وهداية الطبيب ويعرف الطب بأنه «صناعة تحفظ الصحة فى بدن الإنسان حاصلة وتستردها زائلة، وبها يزدان الجسم، بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط». وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الطبيب والشروط التى يجب توافرها فيه، فيقول: «وأما الطبيب فينبغى أن يكون رقيق الخلق، حكيم النفس، جيد الحدس، والحدس حركة نفسية توحى بالآراء الصائبة، أعنى سرعة انتقال من المجهول إلى المعلوم. ولا يكون الطبيب رقيق الخلق مالم يعرف شرف النفس الإنسانية. ولا يكون حكيم النفس مالم يعرف المنطق، كما أنه لا يكون جيد الحدس مالم يكن مؤيداً بالتأييد الإلهى، والطبيب الذى لا يكون جيد الحدس لا يصل إلى معرفة العلة...»^(٢)

ويختتم المؤلف كتابه فى تواضع شديد فيقول: «ليس المقصود من تحرير هذه الرسالة وتقرير هذه المقالة إظهار الفضل أو إنكاء الخدمة، بل هى إرشاد للمبتدئ وحمد لمولائى الملك العظيم المؤيد المظفر المنصور حسام الدولة والدنيا والدين.. شمس المعالى ملك الأمراء أبى الحسن على بن مسعود بن الحسين نصير أمير المؤمنين أدام الله جلالة، وزاد فى السعادة إقباله...».

كتاب «كليلة ودمنة»، والنصيحة والحكمة

أصل هذا الكتاب باللغة الهندية القديمة (السنسكريتية)، ويسمى فى هذه اللغة (كرتكاد منك)، ألفه بيدبا الفيلسوف للملك الهندى دبشليم، وظل محفوظاً فى خزائن ملوك الهند، إلى أن علم بأمره الملك أنوشيروان الساسانى وزيره الحكيم بزرجمهر،

(١) المصدر السابق ص ٦٦

(٢) المصدر السابق ص ٧٤

فأرسلا الطبيب برزويه الذى كان يعرف اللغة السنسكريتية، واللغة الپهلوية لغة إيران، إلى الهند، وسافر الطبيب وأحضر الكتاب وكتباً أخرى غيره، وقام بترجمته إلى الپهلوية. وطلب برزويه من أنوشيروان أن يقوم بترجمه بإضافة باب فى بداية الكتاب يتحدث فيه عن برزويه الطبيب وذهابه إلى الهند، وكان له ما أراد. ثم قام ابن المقفع (متوفى ١٤٢هـ) بترجمة الكتاب من الپهلوية إلى العربية، وضاعت بعد ذلك النسخة الپهلوية وأصبحت النسخة العربية هى الأصل الذى ترجم عنه كتاب كلية ودمنة إلى معظم لغات العالم. وقد نظم هذا الكتاب فى العربية عدة مرات: نظمه أبان بن الحميد اللاحقى، وهو من شعراء القرن الثانى الهجرى، ثم سهل بن نويخت، وعلى بن داود كاتب زبيدة بنت جعفر، وأبو المكارم أسعد بن خنيزار بن ممتى المصرى (متوفى ٦٠٦هـ)، وجلال الدين حسن بن أحمد النقاش، ونظم ابن الهبارية (متوفى ٤٩٠هـ) كتابه «الصادح والباغم» فى ألف بيت مقلداً كلية ودمنة، كما صنف سهل بن هرون للمأمون كتاباً عارض فيه كلية ودمنة فى أبواب أمثاله.

أما فى الفارسية فقد نظمه الشاعر الرودى، ولم يبق منه إلا أبيات متفرقة، كما نظمه أيضاً الأمير بهاء الدين أحمد قانعى ملك الشعراء عام ٦٥٥هـ باسم عز الدين كيكافوس من سلاطين سلاجقة آسيا الصغرى. وتعد ترجمه أبى المعالى نصر الله بن محمد بن عبد الحميد الكاتب أقدم الترجمات الفارسية الباقية. وقد قام بها امتثالاً لأمر بهرام شاه الغزنوى سنة ٥٣٩هـ وجعلها باسمه، فاشتهر الكتاب باسم «كلية ودمنه بهرامشاهى». وأسلوب هذه الترجمة لا يخلو من التكلف. وقد وقع المترجم تحت تأثير الأسلوب العربى، فكانت جملة فى كثير من الأحيان أشبه فى تركيبها بالجمال العربية، ويستشهد الكاتب بآيات من القرآن الكريم، وأشعار وأمثال عربية وفارسية. وفى نهاية القرن التاسع الهجرى وفى زمان السلطان حسين ميرزا بايقرا حفيد تيمور أخرج حسين الواعظ الكاشفى ترجمة أبى المعالى فى ثوب جديد، وغير فى بعض فصولها، وذكر أشعاراً فارسية مكان الأشعار العربية، وأهداها إلى نظام الدولة الأمير الشيخ أحمد السهيلي، أحد أمراء السلطان حسين وسماها «أنوار سهيلي».

وبعد مرور قرن على ترجمة «أنوار سهيلي» أمر أكبر شاه ملك الهند ، المؤرخ المعروف أبا الفضل بن مباركشاه بأن يكتب كلية ودمنة في أسلوب أسهل وعبارة أبسط من عبارة «أنوار سهيلي» واعتمد في ذلك على ترجمة أبي المعالي، فأخرج كتاب «عيار دانش» أي معيار المعرفة.

ومع كثرة هذه الترجمات لكليلة ودمنة، فإن ترجمة أبي المعالي تظل هي الأفضل والأشهر وتقع هذه الترجمة في ستة عشر باباً، يذكر أبو المعالي في مقدمتها أن عشرة أبواب منها ذات أصل هندي، أما الأبواب الستة الباقية فمن أصل فارسي أضيفت إلى الكتاب، والأبواب الهندية هي:

١ - باب الأسد والثور. ٢ - باب التفحص عن أمر دمنة.

٣ - باب الحمامة المطوقة. ٤ - باب اليوم والغربان.

٥ - باب القرد والسلحفاة. ٦ - باب الناسك وابن عرس.

٧ - باب السنور والجرذ. ٨ - باب ابن الملك والطير.

٩ - باب الأسد وابن أوى. ١٠ - باب الأشبال واللبوه.

أما الأبواب الفارسية الستة هي:

١ - باب ابتداء كلية ودمنة. ٢ - باب برزويه الطبيب.

٣ - باب الناسك والضيف. ٤ - باب البلاد والبراهمة.

٥ - باب السائح والصائح. ٦ - باب ابن الملك وأصحابه^(١).

(١) انظر مقدمة عبد العظيم قزيب على كتاب كلية ودمنة لنصر الله بن محمد بن عبد الحميد - تهران ١٣٢٧، ص ٩.

ويمتلى كتاب كليله ودمنة لأبى المعالى نصر الله بأبيات الشعر العربى التى تحمل
معانى فى الحكمة والنصيحة، ولكنه لم يذكر أسماء قائلها، ومن أمثلة ذلك:

- بقدر الكد تكتب المعالى ومن طلب العلى سهر الليالى
تروم العجز ثم تنام ليلاً يغوص البحر من طلب اللآلى (ص ١٥)
- إذا ما كنت فى أمر مروم فلا تقنع بما دون النجوم
ترى الجبناء أن العجز حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم (ص ٥٦)
- إذا المرء لم يرض ما أمكنه ولم يأت من أمره أزينه
فدعه فقد ساء تدبيره سيضحك يوماً ويبكى سنة (ص ٧١)
- الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى الخل الثانى (ص ٧٣)
- ووضع الندى فى موضع السيف بالعلی مضر كوضع السيف فى موضع الندى
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا (ص ٨٢)
- فلا وأبيك ما فى العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء (ص ١٥٠)
- قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقاً عن غرة زلجا (ص ١٩٦)
- إلزم السكوت فإن فيه سلامة وتجنب الكلام فإن فيه ندامة (ص ٣٢٩)

وتكثر في هذا الكتاب أيضاً الأبيات الفارسية بين الحين والآخر، لتعبر عن معنى من المعاني التي وردت في حكايات كليله ودمنة؛ وتلخص في نفس الوقت الحكمة التي أرادها مؤلف الكتاب، والنصيحة التي أراد توجيهها، ومثال ذلك: (١)

- يحصل كل إنسان على المال، ولكن التعب كل التعب في الحفاظ عليه.

- أنا كالشوك والتراب وأنت كالشمس والسحاب، فإذا رعيتني أخرج لك ورداً وشقائق.

- لا يستقيم أساس الملك بدون حد السيف، فمن أراد الملك لا ينبغي له التخلي عن السيف.

- فإذا لم يعمل السيف عمله بين الخلق، فلن يستقيم عرش الملك لأي ملك.
وأحياناً ما يذكر المؤلف بيتاً بالعربية وما يساويه في المعنى من شعر فارسي،
مثل:

يخفي العداوة وهي غير خفية نظر العدو بما أسر يروح

ازدو ديدة زسر أو پیداست آتشى کز سر عداوت ماست (ص ٨٧)

ومعنى البيت الفارسي:

تبوح عيناه بسرّه، فتبدو نار عداوته لنا.

-
- (١) - مال را هر کسی بدست آرد بخش اندر نگاهداشتن است (ص ٥٣)
- من همجو خار و خاکم و تو آفتاب وابر گلها و لاله ها دهم ار تربیت کنی (ص ٦٢)
- بنیاد ملک بی سرتیغ استورانیست اورا که ملک باید بی تیغ کار نیست
- تا تیغ بی قرار نگردد میان خلق بر تخت ملک هیچ ملک پایدار نیست (ص ٨٥)

ومثال ذلك أيضاً:

وبال من آمده همه دانش من چوروباه راموى و طاوس را پر
شد ناف معطر سبب كشتى آهو شد طبع موافق سبب بستن كفتار
الصعو يصفر أمتا فى سربه حبس الهزار لأنه يترنم (ص ٩١)
ومعنى البيتين الفارسيين:

- حلت المصائب على بسبب علمى،

كما تحل المصائب على الثعلب لفرائه، وعلى الطاووس لريشه.

- أصبحت سرة الغزال المسكية سببا فى قتله.

وصار الطبع المناسب سببا فى قيد الضبع.

وبالإضافة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة التى استشهد بها المؤلف فى مواضع كثيرة من كتابه. نرى أيضاً الأمثال العربية التى استعان بها لتأييد فكره ورأيه، ومثال ذلك:

- من سل سيف البغى قتل به. (ص ٧٣).

- من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً. (ص ١١٠).

- والبغى يصرع أهله والظلم مرتعه وخيم. (ص ١١٠).

- العافية فى ترك المجالسة مع السفهاء. (ص ١١٢).

- مقتل الرجل بين فكيه. (ص ١٢٣).

نموذج من كتاب كليلة ودمنة: (١)

«... قال دمنة: زعموا أن غراباً كان له وكر في شجرة على جبل وكان قريباً منه جحر ثعبان أسود فكان الغراب إذا أفرخ، عمد الأسود إلى فراخه فاكلها، فبلغ ذلك الغراب وأحزنه، فشكا ذلك إلى صديق له من بنات أوى وقال له: أريد مشاورتك في أمر قد عزمت عليه، قال له: ما هو؟ قال الغراب: قد عزمت أن أذهب إلى الأسود إذا نام فأنقر عينيه فافقأهما لعلى استريح منه، قال ابن أوى بش الحيلة التي احتلت فالتمس أمراً تصيب فيه بغيتك من الأسود من غير أن تغرر بنفسك وتخاطر بها، وإياك أن تكون مثلك مثل العلجوم (ذكر البط) الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه، قال الغراب: وكيف كان ذلك؟

قال ابن أوى: زعموا أن علجوماً عشن في أجمة كثيرة السمك فعاش بها ما عاش ثم هرم، فلم يستطع صيداً، فأصابه جوع وجهد شديد فجلس حزيناً يلتمس الحيلة في أمره فمر به سرطان فرأى حاله وما هو عليه من الكآبة والحزن، فدنا منه وقال: مالي أراك أيها الطائر هكذا حزيناً كئيباً؟ قال العلجوم: وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش على ما أصيدُه هنا من السمك وإنني قد رأيت اليوم صيادين قد مرا بهذا المكان، فقال أحدهما لصاحبه إن هنا سمكاً كثيراً أفلا نصيده أولاً فقال الآخر: إنني رأيت في مكان كذا سمكاً أكثر من هذا فلنبداً بذلك فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأتيناها، وقد علمت أنهما إذا فرغا مما هو (هناك) انتهيا إلى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها، فإذا كان ذلك فهو هلاكى ونفاذ مؤنتى. فانطلق السرطان من ساعته إلى جماعة السمك فأخبرهم بذلك فاقبلن إلى العلجوم فاستشرنه وقلن له إنا أتيناك لتشير علينا فإن ذا العاقل لا يدع مشاوره عدوه، قال العلجوم: أما مكابرة الصيادين فلا طاقة لى بهما ولا أعلم حيلة إلا المسير إلى غدير قريب من هاهنا فيه سمك ومياه عظيمة وقصب، فإن استطعتن الانتقال إليه كان فيه صلاحكن وخصبكن. فقلن له: ما يمن علينا بذلك غيرك، فجعل العلجوم يحمل في كل يوم سمكتين حتى ينتهى بهما إلى بعض التلال

(١) الترجمة العربية لكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع - طبعة المركز العربى للنشر والتوزيع بالإسكندرية من ١٠٧-١٠٩.

فياكلهما، حتى إذا كان يوم جاء لأخذ السمكتين فجاء السرطان فقال له: إني أيضاً قد أشفقت من مكاني هذا واستوحشت منه فاذهب بي إلى ذلك الغدير، فاحتمله وطار به، حتى إذا دنا من التل الذي كان يأكل السمك فيه، نظر السرطان فرأى عظام السمك مجموعة هناك فعلم أن العلجوم هو صاحبها، وأنه يريد به مثل ذلك، فقال في نفسه إذا لقي الرجل عدوه في المواطن التي يعلم أنه فيها هالك سواء قاتل أم لم يقاتل كان حقيقياً أن يقاتل عن نفسه كرمًا وحفاظًا، ثم أهوى بكبتيه على عنق العلجوم فعصره فمات وتخلص السرطان وسارع إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بعض الحيل مهلكة للمحتال ولكنني أدلك على أمر إن أنت قدرت عليه كان فيه هلاك الأسود من غير أن تهلك به نفسك وتكون فيه سلامتك، قال الغراب: ما ذاك؟ قال ابن أوى: تنطلق فتبصر في طيرائك لعلك أن تظفر بشيء من حلى النساء فتخطفه ولا تزال طائرًا واقعًا بحيث لا تقوت العيون، حتى تأتي جحر الأسود فترمي بالحلى عنده فإذا رأى الناس ذلك أخذوا حليهم وأراحوك من الأسود، فانطلق الغراب محلّقًا في السماء فوجد امرأة من بنات العظماء فوق سطح تغتسل، وقد وضعت ثيابها وحليها ناحية فانتقض واختطف من حليها عقدًا وطار به، فتبعه الناس ولم يزل طائرًا حيث يراه كل أحد حتى انتهى إلى جحر الأسود فألقى العقد عليه.. والناس ينظرون إليه وأخذوا العقد وقتلوا الأسود. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الحيلة تجزئ ما لا تجزئ القوة...»^(١).

(١) النص الفارسي من كتاب «كلیة ودمنة» (ص ٧٢-٧٦):

«..... دمنه گفت آورده اند که زاغی در کوهی بر بالای درختی خانه داشت ودر حوالی آن سوراخ ماری بود هرگاه زاغ بچه کردی مار بخوردی زاغ بوجه موعظت نزدیک.

شکال برای شکایت برد که دوست او بود گفت می اندیشم که خود را از بلای این ظالم جان شکر باز رهانم شکال پرسید که بچه طریق قدم در این مهم خواهی نهاد گفت می اندیشم که چون مار خفته باشد چشم جهان بین او را برکنم تا در مستقبل نور دیده ومیوه دل من از قصد =

= او ایمن کردد شکال گفت این تدبیر بابت خرد مندان نیست چه خردمند قصد دشمن بوجهی کند که در آن خطر جان نباشد زنهار تا چون ما هیخوار نکنی که در هلاک خرچنگ سعی پیوست و جان عزیز را بیاد داد زاغ گفت چگونه بود آن.

حکایت - گفت ماهیخواری برآب اُبی وطن داشت وبقدر حاجت ماهی میگرفت وروژگار در خصب ونعمت میگذاشت چون ضعف پیری بدو راه یافت از شکار باز ماند باخود گفت دریفا عمرکه عنان گشاده رفت وازوی جز تجربت وممارست عوضی نماند که وقت پیری پایمردی یادستگیری تواند بود وامروز چون از قوت باز ماندم بنای کارخود بر حیلت باید نهاد پس چون اند وهناک بر کناره آب نشست خرچنگ او را از دور بدید پیش آمد بود که هر روزیگان ودوگان ماهی میگر فتمی ویدان روزگار بسر میرد می مرا سد رمق حاصل میبود ودر ماهی نقصان نمیبود امروز دو صیاد اینجا میگذشتند وبایکدیگر میگفتند در این آبگیر ماهی بسیار است تدبیر ایشان ببااید کرد یکی گفت فلان جای بیشر است چون از ایشان بپردازیم روی بدینجا نهیم اگر حال چنین باشد مرا دل از جان شیرین بر باید گرفت وبر نچ کرسنگی بلکه بر تلخی مرک دل ببااید نهاد خرچنگ برقت وماهیا نرا خبر کرد جمله نزد او آمدند وگفتند المستشار مؤتمن ما باتو مشورت می کنیم وخرد مند در مشورت اگر چه دشمن بود چیزی پرسند شرط نصیحت فرو نگذارد خاصه در کاری که نفع آن بدو باز گردد وبقاء ذات تو بدوام تناسل ما متعلق است در کار ما چه صواب بینی ماهیخوار گفت باصیاد مقاومت صورت نبندد ومن در آن اشارت نتوانم کرد لیکن در این نزدیکی آبگیری دانه که آبش بصفا زوده تر از گریه، عاشق است وغماز تر از صبح صادق چنانکه دانه، ریک در قعر آن بتوان شمرد وبيضه ماهی از فراز آن بتوان دید.

إذا علتها الصبا أبدت لها حُبُّكَ مثل الجواشن مصقولا حواشیها

لا یبلغ السمك المحصور غایتها لبعده ما بین قاصیها ودانیها

اگر بدان تحویل توانید کرد در امن وراحت وخصب وفراغت افتید گفتند نیکو رای است لیکن بی معاونت تو نقل ممکن نگرده گفت دریغ ندارم اما مدت گیرد وساعت تا ساعت صیادات بیایند وفرصت فائت گردد وبسیار تضرع نمودند ومنتها تحمل کردند تا بدان قرار داد که هر روز چند ماهی بپردی وبر بالائی که در آن نواحی بود بخوردی ودیگران در تحویل تعجیل ومسارعت مینوهند وبایکدیگر پیشدستیومسابقت میکردند واو خود بچشم عبرت در سهر وغفلت ایشان مینگریست وبزبان عظمت میگفت که هر که بلايه دشمن فریفته شود وبر لثیم بد گوهر اعتماد روا دارد سزای او این است چون روزها بدان بگذشت خرچنگ خواست که هم تحویل کند ما هیخوار او را بر پشت گرفت وروی بدان بالا نهاد که خوابگاه ماهیان بود خرچنگ چون از تور استخوان ماهیان بسیار دید دانست که حال چیست اند یشید که خردمند چون دشمن را در مقام خطر بدید وقصد او در جان شیرین خود مشاهدت کرد اکر کوشش فرو گذارد درخون خویش سعی کرده باشد وچون بکوشد اکر پیروز آید نام گیرد واگر بخلاف آن کاری =

= افتد باری حمیت و مردانگی و شهامت او مطعون نگردد و پاسعادت شهادت اورا ثواب مجاهدت فراهم آید پس خویشتن بر گردن ماهیخوار افکند و حلق او محکم بیفشرد چنانکه بیهوش گشت و یکسر بزیارت مالک رفت خر چنگ سر خویش گرفت و پاری در راه نهاد تا بنزدیک بقیت ماهیان آمد و تعزیت یاران گذشته و تنهت حیات باقی ایشان بگفت و از صورت حال اعلام کرد جمله شاد گشتند و وفات ما هیخوار عمری تازه شمردند.

وإن حياة المرء بعد عدوه وإن كان يوما واحدا لكثير

دمی آب خوردن پس از بدسکال به از عمر هفتاد و هشتاد سال

و این مثل بدان آوردم تا بدانی که بسیار کس بکید و حیلت خود هلاک شدند لیکن من ترا وجهی نمایم که اگر بر آن کار کنی سبب بقاء تو و موجب هلاک مار باشد زاغ گفت از اشارت دوستان نتوان گذشت و رأی خردمند آنرا خلاف نتوان کرد شکال گفت صواب آنست که در اوج هوا پرواز کنی و بر بامها و صحراها چشم اندازی تا نظر بر پیرایه گشاده افکنی که ریودن آن میسر شود فرود آئی و آنرا برداری و هموار بروی چنانکه از چشم مردمان غائب نگردی چون بنزدیک مار رسی بروی اندازی تا مردم که بطلب آمده باشند نخست ترا باز و هانند پس بپیرایه پردازند زاغ روی بآبادانی نهاد زنی را دید که پیرایه برگوشه بام نهاده بود و خود بطهارت مشغول گشته زاغ پیرایه را در ریود و بدان ترتیب که شکال فرموده بود بر مار انداخت مردمان که در پی زاغ پیرایه را در ریود و بدان ترتیب که شکال فرموده بود بر مار انداخت مردمان که در پی زاغ بودند در حال سر مار را بگو فتند و زاغ باز رست. دمنه گفت این مثل بدان آوردم تا بدانی که آنچه بحلیت توان کرد بقوت ممکن نباشد.....»

الفصل السابع

من أدب الرحلات

الرحلة الأولى : رحلة الحج

الرحلة الثانية : إلى بيت المقدس

من أدب الرحلات الدينية

كانت ديار العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه خلال القرون السابقة لاتعرف الحدود ولا القيود فيما بينها، وكان المسلم فى أى بقعة منها يستطيع السفر إلى أى ركن من أركان العالم الإسلامي دون تصريح بالدخول أو الخروج (فيزا)، بل كان يستطيع الإقامة ما طاب له البقاء فى أى مصر من الأمصار الإسلامية دون أن يسأله أحد عن أسباب مجيئه، ولا عن أسباب بقاءه، ولا يستفسر منه أحد عن متى رحيله، ولهذا فإننا نرى كثيراً من علماء المسلمين وخاصتهم وعامتهم قد ساحوا فى بلدان العالم الإسلامي، وأقاموا هنا أو هناك دون أية قيود، وكان من بين هؤلاء السائحين فى بلدان العالم الإسلامي عدد كبير من الشعراء والكتاب الفرس، وقد حرص بعضهم على تسجيل خواطرمهم وانطباعاتهم عن البلاد التى زاروها، سواء فى عجالة أو بتفصيل وإسهاب.

وحتى لا يطول بنا الحديث فسنقصر حديثنا على وصفهم للأماكن الدينية المقدسة فى العالم الإسلام، وعلى رأسها الكعبة المشرفة ومسجد الرسول الكريم محمد عليه السلام وثالث الحرمين بيت المقدس، بل إننا سنقصر الحديث منعاً للإسهاب والإطالة - على الرحلات التى حرص أصحابها على تسجيل مشاهداتهم وانطباعاتهم أثناء هذه الزيارات وبخاصة خلال موسم الحج دون الحديث عن الإشارات السريعة الواردة فى الدواوين والكتب والمقالات.

وقد حظى الأدب الفارسي بكتب كاملة عن السياحة، وكان للسياحة الدينية فيها نصيب وافر، وأذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: سفرنامه لناصر خسرو التى

تحدث فيها عن رحلة استغرقت سبع سنوات بين عامي ٤٢٧-٤٤٤هـ زار فيها الشام ومصر والحجاز واليمن، ووصف في هذه الديار كل ما شاهده من مبان وعادات وتقاليده، وقد خص الأماكن الدينية بالكثير من حديثه، وبخاصة وصفه للأماكن المقدسة في مكة والمدينة، أما الكتاب الثاني فهو : «سفرنامه مكة» لمهدي قلى هدايت مخبر السلطنة^(١) والتي وصف فيه رحلته التي بدأها عام ١٢٢١ هـ (١٩٠٣م) وزار فيها سيبيريا والصين واليابان وأوروبا ومصر والشام والحجاز ولكنه تيمناً بالكعبة المشرفة، فقد أثر أن يعنون رحلته هذه بكتاب السفر إلى مكة، وكأن الغرض من الرحلة كلها زيارة مكة المكرمة والحج إلى بيت الله الشريف.

ولم يقتصر الحديث في هذين الكتابين على وصف مكة والمدينة، بل وصف كل منهما بيت المقدس ثالث الحرمين، وكذلك اهتماما بوصف بعض المساجد في البلاد التي زارها، والآن يجمل بنا أن نعرض ما سجله كل منهما في رحلته وسياحته عن مكة والمدينة، وما كتبه عن الأماكن المقدسة بهما والتي يتمنى كل مسلم أن يحج إليهما مرات ومرات، والله خير معين ومجيب؛ وسوف نعلق على كل رحلة بعد سرد ملخص واف لها ما أمكن:

(١) الحاج مهدي قلى خان هدايت المعروف بخان الخوانية الملقب بمخبر السلطنة، وهو ابن علي قلى خان مخبر الدولة وحفيد رضا قليخان هدايت، ولد بطهران عام ١٢٨٢ هـ وحصل علومه الأساسية بها ثم سافر إلى ألمانيا مع أخيه لاستكمال دراسته، فأجاد اللغة الألمانية، كما تعلم الفرنسية والإنجليزية في حين أجاد من قبل علوم اللغة العربية، وقد تولى عدة مناصب في البلاط القاجاري، وله عدة مؤلفات نثرية وشعرية.

وقد خرج في هذه الرحلة ضمن ركب المرحوم ميرزا علي أنصفر خان الآتابك، وذلك بعد إعفاء هذا الآتابك من منصبه وقد استأذن الآتابك مظفر الدين شاه القاجاري في الخروج في رحلة حول العالم تنتهي بزيارة مكة المكرمة وأداء مناسك الحج. فوافق الشاه، وقد اصطحب الآتابك بعض أعوانه معه، وكان من بينهم مؤلف هذا الكتاب، وعلى هذا فقد كانت هذه الرحلة وتدوينها، تدور في فلك هذا الآتابك المعزول، وما كان المؤلف ورفاقه إلا تابعين ومسربين عن هذا الآتابك!

الرحلة الأولى: رحلة الحج

أولاً : سفر نامه (كتاب السفر) لناصر خسرو^(١)

لقد أدى ناصر خسرو فريضة الحج أربع مرات كانت أولى رحلاته إلى مكة المكرمة عام ٤٢٨ هـ ونلاحظ أنه أشار إلى هذه السفارة دون ذكر لأية تفاصيل، حيث اكتفى هنا بالإشارة السريعة إلى مشاق الرحلة، أما عن وصفه للأماكن المقدسة فقد ذكر أنه سيرجى الحديث عنها إلى رحلة أخرى، ومما قاله عن هذه الحجة الأولى، مايلي:

عدت من مشهد الخليل إلى بيت المقدس، وخرجت من بيت المقدس سيراً على الأقدام مع جمع من الحجاج فى طريقنا إلى الحجاز، وكان دليلنا رجلاً جاداً على السير ومن المشائين المحترفين، وكان رجلاً مهذباً يدعى «أبو بكر الهمداني» وكان خروجنا من بيت المقدس فى منتصف شهر ذى القعدة سنة ثمان وثلاثين وأربعمئة، وصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مكان يدعى «أرعز» وكان مكاناً وفير الماء كثير الخضرة.

ثم وصلنا إلى مكان يقال له «وادي القرى»، ومن هناك وصلنا إلى مكة المشرفة بعد سير عشرة أيام، ونزلت فى سكة العطارين بمكة شرفها الله، وهى أمام باب النبى

(١) حكيم ناصر خسرو قباد يانى مروزي: سفر نامه، باحواشى وتعليقات به كوشش: دبیر سياقى سلسله انتشارات أنجمن آثار ملي، شعاره ١٢٠، سال ١٣٥٤ش، وللكتاب ترجمتان عربيتان، أولاهما للدكتور يحيى الخشاب، نشر دار الكتاب الجديد، بيروت عام ١٩٧٠، والثانية للدكتور أحمد خالد البدلي، نشر عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٢ (١٩٨٣م) وقد اعتمدت عليهما فيما أقدمه من وصف لهذه الرحلة السياحية الدينية، علماً بأن الدكتور البدلي يقول عن الترجمة الأولى إنها تمت عن الفرنسية، أما ترجمته قد تمت مباشرة عن النص الفارسي، فى حين لم يشر الدكتور يحيى الخشاب إلى هذا الأمر ولم يذكر فى مقدمة ترجمته أنه أتمها نقلاً عن الترجمة الفرنسية، وعلى كل فقد قرأت الترجمتين ونقلت عنهما بعض ما ترجماه! ويمكن لمن يريد الاستزاده الرجوع إلى الأصل الفارسي أو إلى إحدى هاتين الترجمتين التى لا تغنى إحداهما عن الأخرى!

عليه الصلاة والسلام، وكان يوم عرفة هو يوم الاثنين، وكان الطريق مليئاً بالأعراب
الخطيرين الذين لا يتورعون عن القتل والسلب.

وفى اليوم الخامس من محرم سنة تسع وثلاثين وأربعمئة وصلت إلى القدس
وسأحدث عن حال مكة والحج في مكان آخر، إذا قدر لي الحج مرة أخرى! (١)

هذا كله ما كتبه ناصرو خسرو عن رحلته الأولى إلى مكة المكرمة وأدائه فريضة
الحج، وقد كان فيها في سياحة بيت المقدس، وقد أشار إلى أن الرحلة من القدس إلى
مكة قد استغرقت ثلاثة عشر يوماً، وكان يلزم لكل رحلة مرشد ودليل يعرف دروب
الصحراء وطرقها حتى يصل الحجيج إلى مقصدهم سالمين، وذلك لوجود العديد من
قطاع الطرق، والذين تحدث عنهم كل من سلكوا هذه الطرق في ذلك الوقت، وقد ظل
خطرهم يتهدد قوافل الحجاج طويلاً حتى قبض الله للأسرة السعودية منذ قيامها
القدرة على درء هذا الخطر تماماً، وقد أمنت جميع طرق الحجيج في ربوع المملكة كلها
ويسرت لتلك القوافل كل وسائل الراحة ومواصلات حديثة ونزل جيدة وتعبيد للطرق،
حتى يتفرغ الحجاج طول رحلتهم إلى التكبير والتهليل، فجزاهم الله عن هذا الصنيع
خير الجزاء.

بعد عودة ناصر خسرو إلى بيت المقدس، واصل رحلته إلى مصر، حيث أقام فيها
ثلاث سنوات، ومن مصر سافر إلى الحجاز أكثر من مرة ونتيجة لتقريبه إلى سلطان
مصر في ذلك الوقت؛ فإنه كان يسافر في كل مرة ضمن أعضاء الوفد الرسمي
المصري الحامل معه الكسوة الشريفة، وقد أشار إلى هذا أثناء حديثه عن سفره لأداء
الحجة الثانية، حيث أشار في البداية إلى كيف يتم الاستعداد للحج في مصر أيام
إقامته فيها، إذ قال: جرت العادة في مصر أن يعلم الناس في منتصف شهر شعبان
بالاستعداد للحج فيقرءون على الناس في المساجد توجيهات السلطان ويخبرهم أن

(١) سفر نامه: الأصل الفارسي ص : ٦٣.

موسم الحج قد أظلمهم، وأن قافلة الحج السلطانية ستتحرك يوم كذا من مكان كذا، فإذا كان شهر رمضان كرر المنادى وخطباء المساجد هذا المرسوم السلطاني على أسماع الناس، ويبدأ الاستعداد للحج في غرة شهر ذي القعدة، فإذا انتصف الشهر خرج من يريد الحج من المصريين واجتمعوا في مكان معين.. ويظل الركب في مكة المكرمة عشرة أيام ومجموع الأيام التي يستغرقها المحمل من القاهرة إلى مكة ثم العودة إلى القاهرة ستون يوماً.^(١)

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الحجة الثانية له والتي ذهب فيها ضمن الوفد الرسمي المصري، حيث قال: وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمئة قرأ سجل السلطان على الناس في المساجد.. وقد أرسلت الكسوة عن طريق بحر القلزم، وقد رافقت الكسوة قاصدين الذهاب إلى مكة، وقد غادرت القافلة المكلفة بإيصال الكسوة من مصر في غرة شهر ذي القعدة وكنت مع القافلة حيث وصلنا إلى بحر القلزم، وركبنا الباخرة وبعد خمسة عشر يوماً وصلنا إلى ميناء الحجاز على ساحل الحجاز، ومن الحجاز اتجهنا إلى المدينة فوصلنا بعد أربعة أيام^(٢).

وهنا يبدأ الرحالة ناصر خسرو وصفه الشيق لمدينة الرسول عليه السلام، ومن بين مذكره، أورد بعض حديثه عنها:

تقع المدينة في حافة الصحراء، وأرضها رطبة ذات ملوحة، وماؤها عذب إلا أنه قليل وتكثر فيها أشجار النخيل، وتقع قبة مسجد المدينة نحو الجنوب، ومساحة مسجد الرسول عليه السلام تعادل مساحة المسجد الحرام، ويقع قبر الرسول بجانب المنبر، وإذا اتجهت إلى القبلة فإن القبر يكون على يسارك، أما عندما يقف الخطيب على المنبر، فإن القبر الشريف يكون على يمينه، والقبر بناء مخمس الشكل، وعلى القبر

(١) المرجع السابق، ص ١٠١ والترجمة العربية (د. البدلي) ص : ١١٧.

(٢) نفس المرجع، الأصل الفارسي ص ١٠١، ١٠٢ وترجمته د. البدلي، ص : ١١٩.

خمسة أساطين تحنو على القبر، ويربط بين الأبواب الخمسة درابزين يحول بين المرء والولوج إلى القبر الشريف، وعلى طول الدرابزين من الأعلى غطاء مشبك يمنع الطيور من تلويث القبر.

وبين القبر والمنبر مساحة تسمى الروضة، وهي روضة من رياض الجنة كما قال الصادق الأمين رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»^(١).

وللمسجد باب يؤدي إلى خارج المدينة في الجهة الجنوبية، حيث يوجد قبر حمزة ابن عبد المطلب رضى الله عنه، لذا يسمى المكان «قبور الشهداء».

وقد أخبرنا ناصر خسرو بأن القافلة أقامت في المدينة يومين فقط عجلت بعدهما بالتوجه نحو مكة، كي يصلوها بالكسوة قبل وقفة عيد الأضحى، وكان وصولهم مكة في السادس من شهر ذى الحجة عند باب الصفا وكان يوم عرفة يوم الأربعاء فصعدوا بعون الله تعالى عرفة وأدوا مناسك الحج.

(١) ناصر خسرو: سفرنامه، به كوشش نادر وژین پور، تهران ۱۳۵۴ ش. ص ۷۰-۷۱ وبترجمة د. الخشاب ص ۱۱۰، ترجمة د. البدلي ص ۱۲۱، ۱۲۲ والنص الفارسي هو:

مدينة رسول الله عليه السلام شهرى است برکناره صحرايى نهاده وزمين نمناک وشوره دارد، وأب روان است أما اندکو خرمستان است. وأتجا قبله سوى جنوب افتاده است ومسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام چندان است که مسجد الحرام، وحظيره رسول الله عليه السلام در پهلوى منبر مسجد است، چون رو به قبله نمایند جانب چپ، چنانکه چون خطيب از منبر ذکر پيغمبر عليه السلام، کند وصلوات دهد، روى به جانب راست کند، وأشاره به مقبره کند، وأنخانه مخمس است، وديوارها از ميان ستونهاى مسجد بر آورده است، وپنج ستون در گرفته است، وبر سراين خانه همچو حظيره کرده به دارا فزين، تا کسى بدانجا نرود، ودام در گشادگى آن کشيده تا مرغ بر آنجا نرود، وميان مقبره ومنبر هم حظيره اى است از سنگهاى رخام کرده، چون پيشگاهى، وأن را روضه کويند، وکويند آن بستانى از بستانهاى بهشت است، چه رسول الله عليه السلام، فرموده است: «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

وهنا أيضاً لم يتحدث حديثاً مفصلاً عن مكة مرجئاً هذا إلى مرة أخرى، حيث قال: وسوف لا أحدث عن مكة في هذه المرة، بل سأرجئ الحديث عنها إلى مرة أخرى، فقد أتيت لي فيما بعد الإقامة بمكة ستة أشهر، وسأشرح ما رأيت بالتفصيل.

في عام أربعين وأربعمئة أتيت له فرصة الحج مرة ثالثة ومصاحبة البعثة المصرية إلى الحجاز حاملة معها الكسوة الشريفة، وقد سلكت هذه الرحلة نفس الطريق الذي سلكته الرحلة السابقة، ولكنهم قد توجهوا مباشرة هذه المرة من ميناء الحجاز إلى مكة مباشرة وكان ذلك في الثامن من شهر ذي الحجة، حيث أدى مع رفاقه مناسك الحج بعون الله وتوفيقه، عاد بعدها ناصر خسرو إلى مصر دون أن يتحدث بشيء عن مكة، كما فعل في الحجتين الأولى والثانية.

الحجة الرابعة، وكانت عام اثنين وأربعين وأربعمئة، وقد سافر ناصر خسرو إلى الحجاز عن طريق أسوان وبحر القازم وما أن وصل إلى جدة حتى أخذ في وصفها، ومما قاله:

جدة مدينة كبيرة ذات سور عظيم وتقع مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر وعدد سكانها في ذلك الوقت نحو خمسة آلاف نسمة، وتقع إلى الشمال من البحر وبها أسواق نظيفة جيدة، تقع قبلة مسجد الجمعة في الناحية الشرقية، ولا أثر للعمران خارج أسوار مدينة جدة، إلا مسجد يعرف بمسجد الرسول عليه السلام.

ولسور جدة بابان، باب مما يلي مكة، وباب مما يلي البحر ... وجدة بلد غير ذي زرع، وكل ما فيها يجلب إليها من ريف الحجاز والمسافة بين جدة ومكة اثنا عشر فرسخاً وأمير جدة أحد رعايا أمير مكة المكرمة، الذي يعد كذلك أميراً للمدينة^(١).

(١) سفر نامه، الأصل الفارسي نسخة تهران ١٣٥٤ ش ص ٨٥:

جده، شهری بزرگ است، وپاره ای حصین دارد، ویرلب دریا، ودر او پنج هزار مرد باشد. بر شمال دریانهاده، وپازارهای نیک دارد. وقبله مسجد آدینه سوی مشرق است. وپیرون از شهر هیچ عمارت نیست، إلا مسجدی که معروف است به مسجد رسول الله علیه الصلاة والسلام. ودر دروازه است =

ولقد غادرت مدينة جدة يوم الجمعة بعد صلاة العشاء، ووصلت إلى مكة يوم الأحد سلخ جماد الآخر، وقد امتلأت مكة بالعمّار القادمين من كل أنحاء الحجاز واليمن، فإن رجب من كل عام موسم عظيم، وكذلك في عيد الفطر، وفي موسم الحج يفد الحجاج إلى مكة من كل أطراف الأرض.. أما سكان أطراف الحجاز واليمن، فإنهم يؤمنون مكة في هذه المواسم الثلاثة لقرب مكة منهم، وأعني بالمواسم الثلاثة، غرة رجب وعيد الفطر وعيد الأضحى.

ثم ينتقل ناصر خسرو ليصف مدينة مكة وما يحيط بها من جبال، وما تضمه من أسواق وغير ذلك مما توصف به مكة المكرمة وقت زيارته لها عام ٤٤٢ هـ، ومما قاله: تقع مكة في واد تحيط به الجبال من كل جانب، ولاتبدو مدينة مكة لقاصدها إلا إذا اقترب منها، وأعلى جبل في مكة هو جبل «أبي قبيس» وهو يشبه قبة عظيمة تشرف على الكعبة وأول ما تشرق الشمس في مكة يشاهد قرصها مطالا على مكة من أعلى هذا الجبل!

وفي رأس أبي قبيس عمود حجرى يقال إن إبراهيم عليه السلام هو الذى أقامه، كما يشاهد المرء ساحة مبسوطة في رأس الجبل لاتزيد مساحتها على أذرع قليلة.

وتحيط بالمسجد الحرام أسواق كثيرة ودروب ضيقة تزدهم بالتاجر، وكلما كان أحد هذه الدروب قريباً من جبل من الجبال فإنهم يبنون عليه سقيفة، ويجعلون لها بوابة للدخول وأخرى للخروج.

= شهر را، يکی سوى مشرق که رو بامکه دارد، و دیگر سوى مغرب که رو با دریا دارد.. ویدینشهر جده نه درخت است و نه زرع، هر چه به کار آید از رستا آرند، و از آنجا تا مکه دوازده فرسنگ است. و أمير جده بندهء أمير مکه، و مدینه را هم أمير، وی بود.

ولم أر حول المسجد الحرام أى أثر لأشجار باستثناء باب إبراهيم الواقع فى الجهة الغربية من الكعبة، فقد رأيت بعض الأشجار الملتفة حول حافة بئر ماء هناك، بين تلك الأشجار شجرة ضخمة عملاقة^(١).

ويقع فى الجانب الشرقى من الحرم سوق كبيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب، ويقع مدخل تلك السوق الرئيسى فى الجهة الجنوبية التى فى سفح أبى قبيس، أما الصفا فيقع تحت سفح أبى قبيس مباشرة، بل إن درجات الصفا جزء من صخور أبى قبيس، يراه المرء بشكل ظاهر واضح للعيان.

ويصعد الناس فوق درجات محاذية لتلك الصخور ليتدأوا مناسك السعى، وتقع المروة فى نهاية هذا الممر الطويل الذى يبدأ من الصفا، ويرى السامى المتاجر عن يمينه ويساره خلال سعية بين الصفا والمروة، والمروة أكثر ارتفاعاً من الصفا^(٢).

(١) أشهد أن حكومة المملكة العربية السعودية قد أولت هذا الأمر كل اهتمامها، فاكثرت من زرع الأشجار فى ربوع مكة، بل فى كل مدن المملكة، وقد أمتد التشجير إلى الأماكن المقدسة كلها، سواء فى عرفة أو منى أو المزدلفة، بل وفى جميع الطرق الواصلة من هذه الأماكن إلى الحرم المكى الشريف. وقد أدت الحج ثلاث مرات، عام ١٩٨٢ وعام ١٩٩١، وعام ٢٠٠٥ كما اعتمدت أكثر من عشر مرات. وكان الفارق بين التشجير فى أول مرة، وآخرها كبيراً ملفتاً للنظر، وذلك تخفيفاً لحرارة الجو، وتوفيراً لراحة قاصدى بيت الله المعظم.

(٢) ومما قاله ناصر خسرو فى وصف مكة، نذكر هذا النص الوارد: ص ٨٥، ٨٦ من نسخة ١٢٥٤ ش: شهرمكه اندر میان کوهها نهاده است بلند، واز هر جانب که به شهر روند تا به مکه نرسند نتوان دید، ویلندترین کوهی که به مکه نزدیک است کوه ابو قبیس است، وأن چون کنیدی گیرداست. ودر مشرقی شهر افتاده است. چنانکه چون در مسجد حرام باشند به دى ماه، افتاب از سر آن بر آید، بر آورده است، واین عرصه که در میان کوه است شهر است. دو تیر پرتاب در دو بیش نیست ومسجد حرام به میانه این فراخنای اندر است. وگرد بر گرد مسجد حرام شهر است وکوچه ها و بازارها.. واندرا شهر هیچ درخت نیست مگر بر در مسجد حرام که سوى مغرب است که آن را باب إبراهيم خوانند، بر سرچامی درختی چند بلند و بزرگ شده. واز مسجد حرام بر جانب مشرق بازاری بزرگ کشیده از جنوب سوى شمال.. و بر سر بازار، از جنب جنوب کوه ابو قبیس است. ودامن کوه ابو قبیس 'صفا' ست، و به آخر بازار از جانب شمال کوه مروه است.

وإذا أراد المرء أن يعتمر خرج من مكة على بعد نصف فرسخ عنها، وهناك يجمع بين الحل والحرم، وفي هذه المواقيت مساجد عامرة يؤدي فيها العمار ركعتي إحرام العمرة.

ولعله بهذا يقصد أولئك المقيمين في مكة وأرادوا الإحرام، أو الوافدين الذين اعتمروا عقب وصولهم من أوطانهم، ثم خلعوا ملابس الإحرام وارتدوا ملابسهم العادية، وأقاموا بمكة منتظرين مقدم موسم الحج والوقوف بعرفة، فإن أرادوا تأدية العمرة مرة أخرى، فهم يخرجون كالمقيمين في مكة خارجها إلى هذه المساجد التي أشار إليها ناصر خسرو، ويؤدون ركعتي الإحرام ثم يتوجهون بعد ذلك إلى الكعبة لإتمام العمرة مرة أخرى.

أما كيف يكون الإحرام؟ يقول ناصر خسرو ما ترجمته:

وهيئة الإحرام هي أن يتخلص الإنسان من المخيط، ويرتدي إزاراً لا خياطة به، والرداء مكون من قطعتين، إزار ورداء، يلتف بهما الإنسان ثم يرفع صوته بالدعاء قائلاً «لبيك اللهم لبيك» وينحدر إلى مكة، فإذا وصل المرء إلى مكة دخل المسجد الحرام وتوجه إلى الكعبة، وعليه أن يترك الكعبة على يساره ويستلم الحجر الأسود حيث يبدأ الطواف ويكرره على هذه الهيئة سبع مرات، يرمل في ثلاثة أشواط، ويسير الهويثا في الأشواط الأربعة الباقية.

وعندما ينتهي الإنسان من نسك الطواف بالبيت الحرام، يتوجه إلى مقام إبراهيم عليه السلام والمقام في مواجهة الكعبة، ويقف خلف المقام ويصلي ركعتي الطواف، وبعد الصلاة والدعاء يتوجه المرء إلى بئر زمزم، فإذا شرب من ذلك الماء المقدس وغسل وجهه ويديه غادر البئر إلى باب الصفا، وهو أحد أبواب المسجد الحرام المؤدية إلى المسعى وإذا وصل المرء إلى الصفا ارتقى تلك الدرجات التي في السفح واستقبل القبلة داعياً، ونوى السعى بين الصفا والمروة سبعاً ثم ينحدر من الصفا إلى المروة ويكون سيره من الجنوب إلى الشمال.

ولقد سعى رسول الله عليه السلام في هذا المكان، وأسرع، وأمر أصحابه بالإسراع حتى لا يظن بهم المشركون ضعفاً أو خوراً، ويهرول المرء مسافة خمسين قدماً في هذا المكان، والمكان الذي هروا فيه النبي عليه السلام ظاهر للعيان ومعلم بعلامات بارزة لا تخطئها العين، فإذا واصل الساعي إلى المروة صعد إلى أعلى المروة واستقبل القبلة ودعا بالدعاء المعلوم ثم ينحدر إلى الصفا، ويكرر المرء هذا السعى بين الصفا والمروة، فإذا انتهى إلى الصفا أربع مرات وصعد المروة ثلاث مرات يكون قد أتم مناسك السعى بينهما.

ثم يتحدث ناصر خسرو عما يفعله العمار والحجاج بعد السعى من تقصير للشعر، فقد قال إذا نزل الساعي من المروة في نهاية السعى فإنه يرى سوقاً كبيراً، وفي هذا السوق أحصيت عشرين دكاناً للحلاقة، يخلقون فيها ويقصرون شعور الحجاج والعمار وتعتبر هذه الدكاكين امتداداً لسوق كبير يقع شرق المسجد الحرام يقال له سوق العطارين، وهو سوق كبير، في غاية الجمال وأكثر ما يباع فيه هي الأدوية والعقاقير الطبية والأعشاب.

ويقدر سكان مكة بألفى نسمة، فيها خمسمائة من الغرباء والمجاورين.

وطقس مكة حار جداً، والخضروات كثيرة بها، فقد رأيت في أسواق مكة الخيار والباذنجان وغيرهما وكلها طازجة وجيدة^(١).

وأخيراً ينهى ناصر خسرو زيارته لمكة المكرمة للمرة الرابعة محدداً المدة وتاريخ زيارته هذه قائلاً:

(١) يمكن مراجعة ترجمة الرحلة كاملة في إحدى الترجمتين العربية لسفرنامه، التي أشرت إليهما في بداية الحديث عن هذه الرحلة، وذلك لمعرفة المزيد من التفاصيل التي تناضت عن ذكرها! أو في الأصل الفارسي لمن يجيد الفارسية ص ١١٨ - ١٤٠.

هذه هي المرة الرابعة التي أزور فيها مكة. وقد مكثت بها مجاوراً من غرة رجب ٤٤٢ هـ (١٠ نوفمبر ١٠٥٠م) إلى العشرين من ذي الحجة (٢ مايو ١٠٥١م) وقد أثمر بها العنب في الخامس عشر من فروردين (مارس/ إبريل) فأنحضر من السواد إلى مكة وبيع في السوق، وكان البطيخ كثيراً في أول أردبيهشت (أبريل/ مايو) وكأنت الفاكهة متوافرة طوال الشتاء ولم تنقطع قط! (١).

ويعد أن انتهى ناصر خسرو من مراسم الحج وكل مناسكه، غادر مكة متجهاً إلى اليمن وبعده بدأ يسجل وصفه للكعبة المشرفة، وبعض الأماكن الأخرى المرتبطة بمناسك الحج، وابتدأ بعرض وصفه للكعبة بيت الله الحرام، ومما جاء في وصفه لها ما يلي (٢).

وصف الكعبة :

الكعبة تتوسط المسجد الحرام، والمسجد الحرام يتوسط مكة المكرمة، وطول المسجد الحرام من الشرق إلى الغرب، وعرضه من الشمال إلى الجنوب، ويبلغ طول المسجد من باب إبراهيم شرقاً إلى باب بنى هشام غرباً أربعة وعشرين وأربعمئة ذراع، بينما يبلغ عرضه من باب الندوة شمالاً إلى باب الصفا جنوباً ما بين ثلاثمئة ذراع في مكان وأربعمئة ذراع في مكان آخر، ويحيط بالمسجد الحرام رواق يرتفع على أعمدة رخامية، ويتوسط المسجد أربعة مقامات، وفي المسجد مائة وأربعة وثمانون عموداً، .. ومن بين تلك الأعمدة عمود عند باب الندوة من الرخام الأحمر.

(١) أنثرت أن أنقل هذه الفقرة عن ترجمة الدكتور يحيى الخشاب لأن ترجمة الدكتور البرلى لم تكن واضحة إذ ربط ظهور العنب والبطيخ بشهور الشتاء عامة وهذا غير صحيح.

(٢) يمكن مراجعة هذا الوصف، والمزيد منه بالرجوع إلى الأصل الفارسي، أو لإحدى الترجمتين العربيتين للدكتور يحيى الخشاب، والدكتور أحمد خالد البديلي.

أبواب المسجد الحرام :

للمسجد الحرام ثمانية عشر باباً، ويعلو كل باب إيوان مغلق ليست له أبواب وقد أقيمت هذه الأبواب على أعمدة مرمية، ومن هذه الأبواب فى الجهة الشرقية باب النبى عليه السلام؛ حيث كان يدخل منه إلى الحرم وقت الصلاة، ويتلوه باب «على» كرم الله وجه حيث كان يدخل منه هو الآخر إلى المسجد الحرام عند الصلاة، أما على الجدار الجنوبي للمسجد فتوجد سبعة أبواب، الأول منها شبيه بنصف دائرة ويقال له باب الرقاقين، ويتلوه فى الجهة الجنوبية باب الفسائين ثم يتلوه باب الصفا الذى خرج رسول الله عليه السلام منه بعد أن سعى بين الصفا والمروة.

ومن أبواب المسجد الحرام فى الجهة الغربية باب التمارين، ويقال إن منزل أبى لهب كان يقع أمام باب التمارين، ولكنه حول الآن إلى مراحيض، وعلى نفس الجهة الغربية يوجد باب العروة ثم باب إبراهيم، أما أبواب الجهة الشمالية فهى باب الوسيط، وباب العجلة، وباب الندوة وباب المشاورة.

وصف الكعبة المشرفة من الخارج :

الكعبة بناء مربع يميل إلى الاستطالة حيث إن الزاوية الممتدة من الشمال إلى الجنوب تبدو أطوال من الزاوية الممتدة من الشرق إلى الغرب، وارتفاع الكعبة ثلاثون ذراعاً، وعرضها تسعة عشر ذراعاً، ويقع باب الكعبة فى الجهة الشرقية، وإذا ولجت داخل الكعبة، فإن الركن العراقى يكون على يمينك والحجر الأسود على يسارك، وتسمى زاوية الكعبة الجنوبية الغربية بالركن اليمانى، كما تسمى الزاوية الشمالية الغربية بالركن الشامى.

أما الحجر الأسود فهو فى الزاوية الجنوبية الشرقية من الكعبة وإذا وقف الرجل معتدلاً كان الحجر مقابل صدره، وطول الحجر الأسود بطول اليد ممدودة مضافاً إليها

أربعة أصابع، أما عرضه فقدره ثمانية أصابع والمسافة بين الحجر الأسود وباب الكعبة أربعة أذرع، ويسمى ذلك الموضع بالملتزم.

وارتفاع باب الكعبة قدر أربعة أذرع. وللکعبة سلم خشبي يُرقى عليه إلى الداخل وقت الحاجة، أما سعة الكعبة من الداخل فتسمح بوقوف عشرة رجال صفا واحداً، وباب الكعبة مصنوع من خشب الساج وله مصراعان، وارتفاعه ستة أذرع ونصف، وقد زينت واجهته وأطرافه بآيات قرآنية مكتوبة بالفضة المذهبة وتتخللها تحاريق سوداء، وقد كتبت عليه هذه الآية حتى آخرها، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(١). وله حلقتان فضيتان كبيرتان أرسلتا من غزنین^(٢) وقد ركبنا على مصراعيه مرتفعتين بحيث لا تصل إليهما يد، بينما توجد حلقتان أخريان تحتها أصغر حجماً ويمكن أن تصل إليهما اليد، وفيهما قفل كبير من الفضة يقفل به الباب.

وصف الكعبة من الداخل :

يبلغ سمك حائط الكعبة ستة أشبار وأرضها مكسوة بالرخام الأبيض وبها ثلاث خلوات صغيرة وكأنها طاقات، تقابل إحداها الباب، والأخريان على الجانب الشمالي للداخل، والأعمدة التي تسند السقف كلها من الخشب الساج المربع إلا عمود واحد مدور، أما جدران الكعبة من الداخل فمغطاة كلها بالأواح الرخام الملون، وعلى الجانب الغربي توجد ستة محاريب من الفضة يبلغ ارتفاع كل منها قامة الرجل ومزينة بنقوش كثيرة من الذهب والفضة، وجدران الكعبة الأربعة خالية من النقوش حتى أربعة أذرع من الأرض، أما بعد ذلك وحتى السقف فمزينة بالرخام المنقوش والموشى أغلبه بالذهب.

(١) سورة آل عمران آية ٩٦.

(٢) غزنین: كانت عاصمة للدولة الغزنوية التي أسسها محمود الغزنوي، وهي تقع الآن داخل أفغانستان.

وفوق كل خلوة من الخلوات الثلاث لوحان من خشب سفينة نوح، طول كل منهما خمسة أذرع وعرضه ذراع واحد، وهناك سلم يؤدي إلى سطح الكعبة يسمى باب الرحمة، وقد صنع هذا الباب ذو المصراع الواحد من الفضة، وعليه قفل من الفضة كذلك، وقد غطى سقف الكعبة بالخشب المغطى بالحريز الذي يحجبه عن الأنظار.

وبين الأعمدة تتدلى ثلاثة قناديل فضية، كما أن للكعبة أربعة مساقط للضوء كل مسقط في واحد من الأركان الأربع، وقد غطى كل مسقط بغطاء زجاجي يسمح بمرور الضوء ولايسمح بتسرب مياه الأمطار، وميزاب الكعبة يقع في الجهة الشمالية وطول فتحته ثلاثة أشبار، وقد أحيط بغلاف ذهبي!

أما عن الكسوة التي تغطي بها الكعبة فيبيضاء، وقد طرزت في موضعين عرض كل منهما ذراع ويفصل بينهما مسافة ثمانية أذرع، وعلى هذا فإن الكسوة مقسمة إلى ثلاثة أقسام كل قسم منها عشرة أذرع، يتوسطها القسم المطرز في موضعيه، بينما القسم العلوي، وعرضه عشرة أذرع، وكذلك القسم السفلي وعرضه كذلك عشرة أذرع، فليسا مطرزين، كما نسجت على جوانب الكسوة الأربع محاريب ملونة بخيوط من ذهب، في كل جانب منها ثلاثة محاريب، الأوسط منها كبير، والمحاربان الصغيران على جانبيه، وبالتالي يكون مجموع المحاريب اثني عشر محراباً ويوجد خارج الكعبة من الجهة الشمالية حائط مقوس كنصف الدائرة، يبلغ ارتفاعه ذراعاً ونصف، وتمتد شفتاه إلى قريب من ركني الكعبة الشرقي والغربي، وقد بلطت أرضيته بالرخام الملون المنقوش، ويسمى «الحجر»، وبه يصب ماء الميزاب، وقد وضعت تحته قطعة من الحجر الأخضر على شكل محراب، وهي قطعة كبيرة يمكن للرجل أن يصلى عليها، وقد وضعت لتتجمع فيها مياه الأمطار.

مقام إبراهيم :

ويقع مقام إبراهيم شرقي الكعبة، وهو عبارة عن صخرة بها آثار قدمي النبي إبراهيم عليه السلام، وقد وضع هذا الحجر في قلب حجر آخر، ثم أحيط بغلاف مربع

الشكل قدر قامة رجل وهو من الخشب وقد زين بألواح من الفضة، كما أحكم ربط الغلاف بالحائط بسلاسل من الجانبين، وعليه قفلان حتى لا يستطع أحد أن يلمس الحجر، والمسافة بين مقام إبراهيم والكعبة قرابة العشرين ذراعاً.

بئر زمزم:

يقع بئر زمزم شرقي الكعبة في الزاوية المحاذية للحجر الأسود، وبين زمزم والكعبة ستة وأربعون ذراعاً، واتساع فوهته ثلاثة أزرع ونصف في مثلها، وماء زمزم به ملوحة ولكنه مستساغ، وقد بنى حوله جدار ارتفاعه ذراعان، وفي جوانبه الأربعة أحواض يصب فيها الماء كي يتوضأ الناس وأرضها من الخشب المشبك ليسيل الماء الذي يراق بها.

ويوجد أمام البئر جهة الشرق، بناء مربع الشكل تعلوه قبة يسمى «سقاية الحاج» وقد وضعت به أزيار كي يشرب منها الحاج، ويلى هذا البناء بناء آخر مستطيل عليه ثلاث قباب يسمى خزانة الزيت به الشمع والزيت والقناديل.

وحول الكعبة أعمدة يتصل بعضها ببعض بواسطة عروق من الخشب عليها زخارف ونقوش من الفضة، وتتدلى منها سلاسل وحلقات يعلق عليها الشمع والمصابيح ليلاً، وتسمى بسكة المشاعل، ويفصل هذه المشاعل عن الكعبة مسافة مائة وخمسين ذراعاً، هي مسافة الطواف وتحت المظلة المحيطة بالمسجد وعلى جميع جوانبه صنادق مليئة بالمصاحف أوقفها المسلمون من كل أنحاء العالم الإسلامي، من المغرب ومصر والشام والروم والعراق (العراق العربي، العراق العجمي) وخراسان وماوراء النهر وغيرها.

وقد حضر ناصر خسرو مراسم فتح الكعبة ذات مرة حيث قال:

فى هذه السنة (٤٤٢ هـ) كنت بمكة مجاوراً منذ أول رجب، وعادة أهل مكة أنهم يفتحون باب الكعبة طوال هذا الشهر فى كل يوم مع إشراقة الشمس!

وصف فتح باب الكعبة :

مفتاح باب الكعبة تحتفظ به قبيلة بنى شيبه، فإذا أرادوا فتح باب الكعبة تقدم زعيم القبيلة ويده المفتاح ويصاحبه فى ذلك خمسة أو ستة أفراد من نويه وحينما يقف الزعيم أسفل باب الكعبة، إذا به يأمر عشرة أنفار من الحجاج المتجمعين أمام الباب كى يحضروا السلم الخشبى، حتى يصعد الزعيم ويقف على عتبة الكعبة برفقة اثنين من خواصه حيث يقومان برفع الستار الديباج، ويمسك كل منهما طرفاً منه، بحيث يحجب الشيخ وهو يفتح الباب، وبعد أن ينزع القفل وينفتح الباب يرفع الحجاج أو المعتمرون أيديهم بالدعاء، فيدرك كل من يستمع إلى أصواتهم بأن باب الكعبة قد فتح، فتحدث جلبة فى مكة حيث يرتفع صوت الجميع مهللين داعين، وبعد ذلك يدخل زعيم القبيلة ويصلى ركعتين، وبعدها يفتح الباب على مصراعيه، ثم يقف الزعيم على العتبة ويقرأ الخطبة بصوت مرتفع ويصلى على رسول الله عليه السلام وعلى آله الكرام ثم يقف الشيخ ومعاونوه على جانبى باب الكعبة، كى يأخذ الحجاج فى الصعود ودخول الكعبة حتى يصلى كل منهم ركعتين ثم يخرج، ويدوم ذلك إلى ما يقرب من منتصف النهار وعادة يولى المصلون وجوههم نحو الباب مع جواز التوجه نحو الجوانب الأخرى.. وفى غير رجب يفتح باب الكعبة كذلك أيام الاثنين والخميس والجمعة من أشهر شعبان ورمضان وشوال وإذا جاء نوال القعدة أغلق الباب!

عمرة الجعرانة :

تقع الجعرانة فى الشمال الشرقى من مكة وعلى بعد أربعة فراسخ من البيت الحرام ويقال بأن رسول الله عليه السلام كان فى هذا الموضع عند عودته من غزوة الطائف، وكان ذلك فى الخامس عشر من شهر ذى القعدة من السنة الثامنة للهجرة، وأنه أحرم من هذا الموضع وتوجه إلى مكة وطاف وسعى، وقد اتخذت هذه العمرة النبوية سنة تؤدى فى هذا الموسم.

وفى هذا الموضع بئران ماؤهما عذب، أحدهما بئر الرسول عليه السلام، وثانيهما بئر على بن أبى طالب كرم الله وجهه، كما توجد على مقربة من البئرين صخرة كبيرة فيها فجوات كأنها كنؤس قيل بأن البنى عليه السلام عجن الدقيق فيها بيديه، لذا فإن من يزورون هذا الموقع الآن يعجنون الدقيق بأيديهم بماء هذين البئرين، كما يقال إنه بالموقع صخرة كبيرة مرتفعة كان بلال رضى الله عنه يقف عليها مؤذناً؛ لذا فالزائرون يصعدون عليها ويؤذنون.

مشعر عرفات:

تقع صحراء عرفات فى قلب مجموعة من الجبال الصغيرة الشبيهة بالتلال، ومساحتها لاتزيد عن فرسخين فى فرسخين، وكان بها مسجد يقال إن إبراهيم عليه السلام هو الذى بناه، وهو مايعرف الآن بمسجد نمرة، وعندما يحين وقت صلاة الظهر يصعد الخطيب مرتقياً منبره ويلقى خطبة جامعة، ثم يؤذن للصلاة جامعة، فيصلى الإمام بالناس ركعتين أى صلاة قصر للظهر، ثم يصلى بهم ركعتين أخريين للعصر، وبعدها يركب الإمام جملاً ويتجه إلى الجهة الشرقية من عرفات حيث يرقى جبلاً صغيراً، يسمى جبل الرحمة، حيث يدعو الله ويسأله الرحمة والغفران حتى غروب الشمس وتوجد فى سفح جبل الرحمة أحواض تملأ بالمياه أيام الحج حتى يتيسر الماء للحجيج، كما بنى فوق هذا الجبل مربع كبير، يضعون فوق قبة كثيراً من القناديل والشموع ليلة عرفة ويومه، فيرى نورها من مسافة فرسخين.

بعد قضاء المناسك فى مشعر عرفات يتحرك الحجيج بعد مغيب الشمس قاصدين المزدلفة وهى على بعد فرسخ من عرفات، هناك بناء عظيم يشبه المقصورة يؤدى فيه الحجيج صلاتى المغرب والعشاء قصراً وجمعاً، ومن هناك يلتقطون الجمرات، وعادة يقضى الحجاج هذه الليلة (أى ليلة العيد) بالمزدلفة حتى صلاة الفجر وعند طلوع الشمس يتوجهون إلى منى حيث يضحون ويرجمون، وفى منى مسجد عظيم يقال له مسجد الخيف.

وهذا هو يوم الحجيج الأول بمنى، وهو يوم عيد الأضحى، ولكن ليس من السنة إلقاء خطبة أو صلاة عيد هناك وإنما يقضون يومهم العاشر من ذى الحجة هناك حيث يرمون الجمرات وتفصيل الرجم متوفرة فى كتب مناسك الحج.

أما فى اليوم الثانى عشر من ذى الحجة فينصرف الناس من منى حيث يسافرون إلى أوطانهم، ومن أراد الذهاب إلى مكة توجه إليها.

* * *

بعد وصفه مناسك الحج ووصفه للمشاعر المقدسة، توجه ناصر خسرو إلى الطائف كى يواصل مسيرته بعد ذلك إلى منطقة الإحساء. ولكن هذا خارج عن نطاق ما حددناه وهو الاقتصار على زيارة الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة المنورة، ولاشك فى أن كتاب سفرنامه، وهو أول كتاب فارسى يفصل الحديث عن هذه الأماكن، وما يؤديه المسلمون من مشاعر هناك، يعد وثيقة مهمة توضح كيف كانت الكعبة المشرفة فى منتصف القرن الخامس الهجرى، وكيف كان الحجيج يؤدون مناسك الحج والعمرة سيراً على الأقدام أو على الإبل متحملين كل مشقة تلبية لنداء الرحمن لكل من استطاع إلى الحج سبيلاً، كما أجاد ناصر خسرو وصفه للكعبة من الداخل ومن الخارج، وكذلك وصفه لكل من الصفا والمروة وكيفية السعى بينهما هرولة أو مشياً، وكذلك حديثه البسيط الواضح عن عرفات والمزدلفة ومنى ورمى الجمرات، وغيرها من الأماكن المقدسة التى يتشوق المسلمون فى كل بقاع الأرض إلى زيارتها، والتمتع بالنفحات الربانية التى يستشعرها الحجاج والعمار فى كل مرة يذهبون إلى هذه الأماكن طائعين مهللين ومكبرين، ولاشك أن وصفه لهذه الأماكن لم يبعد كثيراً عما يؤديه الحجاج حتى يومنا هذا، فالمشاعر هى المشاعر والفروض والسنن هى نفس الفروض والسنن، وإذا حدثت بعض الاختلافات فليست فى الجوهر، وإنما فى التيسيرات التى تحاول الحكومة السعودية جاهدة أن توفرها خدمة لضيوف الرحمن، وذلك لأداء المناسك دون معاناة!.

ومن الملاحظ أن رحلته الأولى كانت من الشام إلى الحجاز عبر بيت المقدس وعبر البوابة الشمالية للأراضي الحجازية، مشيراً إلى أن قافلة الحاج كانت تعترضها جماعات البدو وقطاع الطريق، لذا كانت كل قافلة تستأجر من يؤمن لها الطريق وتدفع مقابل ذلك مبالغ طائلة لزعيم كل منطقة ضماناً لسلامة وصولهم إلى مكة والمدينة وأداء مناسك الحج والعودة سالمين إلى ديارهم مرة أخرى، ولم يشر ناصر خسرو إلى هذا الأمر في رحلاته الأخرى إلى الحج، إما لأنه كان يذهب ضمن الوفد المصرى الرسمى الذى يحمل الكسوة معه، وكانت الحكومة المصرية توفر لهذه الرحلة الحراسة الكافية أو أن أمير منطقة جدة كان مسئولاً عن وصول الوفد المصرى الرسمى والكسوة بسلام إلى مكة المكرمة، والحمد لله لم يعد هذا الخطر قائماً فقد تكفلت الحكومة السعودية بتأمين جميع طرق الحج وضربت على أيدي الخارجين عن القانون بيد من حديد.

كان ناصر خسرو محدداً فى كل ما يكتب ويصف، فقد كان يذكر تاريخ كل رحلة واضحاً لا لبس فيه، ومحدداً المدة الزمنية التى كانت تستغرقها كل رحلة، بل والفترة الزمنية التى تقتضيها الرحلة فى سفرها من منطقة إلى منطقة، كأنه يكتب مذكرات يومية مرتبة ومفصلة، مثال ذلك فى حديثه عن الرحلة الأولى؛ حيث حدد موعد خروج القافلة قاصدة الحجاز فى منتصف شهر ذى القعدة سنة ٤٢٨ هـ، وكان وصولهم إلى مكان يدعى «أرعز» بعد ثلاثة أيام، ثم واصلت الرحلة المسير مارة بمكان يقال له وادى القرى، ومنها توجهوا إلى مكة فوصلوها بعد مسير عشرة أيام، وبعد أدائهم مناسك الحج، عادت الرحلة إلى بيت المقدس مرة أخرى فوصلتها فى الخامس من محرم سنة ستة تسع وثلاثين وأربعمئة، هكذا حدد أن الرحلة قد استغرقت منذ خروجها من بيت المقدس وعودتها إليه خمسين يوماً تقريباً وإذا كان ناصر خسرو قد فصل الحديث عن المدينة المنورة ومسجد الرسول عليه السلام فى رحلته الأولى، وذلك لأنه كان قادماً من الشام، فإن طريق الحجاج من الشام وفلسطين كان لابد وأن يمر بالمدينة قبل وصولهم إلى مكة المكرمة، فى حين أنه لم يشأ أن يتحدث عن مكة المكرمة والكعبة الشريفة

والمسجد الحرام إلا في حجته الأخيرة، حيث كان في كل مرة يجمع بعض المعلومات ويدونها ويستوثق من صحتها، حتى أتيت له الفرصة في رحلته الرابعة لأن يقيم بمكة طوال سنة أشهر، فكان حديثه عن الأماكن المقدسة والمشاعر الدينية في كل من مكة وعرفات والمزدلفة وغيرها حديث خبير، عايش المكان وانفعل به أكثر من مرة، فإن وصفه لهذه الأماكن مازال ينبض بالحياة وكأنه قد تم في أيامنا هذه ولم يتغير منه شيء إلا في المواصلات والعديد من التيسيرات التي قدمتها الحكومة السعودية لحجاج بيت الله الحرام وعُمّاره، وكذلك ما أدخلته على المسجد الحرام من توسعات حتى يستوعب الأعداد المتزايدة من الحجاج في كل عام.

أشار ناصر خسرو إلى أن رحلتيه الثانية والثالثة كانت عن طريق السويس وجبل الطور عبوراً ببحر القلزم (البحر الأحمر)، وأن رحلته الثانية قد توجهت إلى المدينة المنورة أولاً ثم سافرت بعد ذلك إلى مكة المكرمة، في حين أن رحلته الثالثة قد توجهت إلى مكة مباشرة، هذا ما يحدث مع الحجاج المصريين حتى اليوم؛ فمن يسافر منهم براً أو بحراً أو جواً قبل أداء الحج بفترة كافية، فإنهم يقصدون المدينة المنورة أولاً ليزوروا مسجد الرسول عليه السلام، ثم يتوجهون بعد ذلك إلى مكة لإتمام شعائر الحج، أما من يسافر في أوائل ذى الحجة، فإن مقصدهم يكون مكة مباشرة، وبعد انقضاء مناسك الحج من اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من ذى الحجة، فإنهم يكملون رحلتهم بزيارة المدينة المنورة.

أما رحلته الأخيرة فقد كانت عن طريق البحر الأحمر (بحر القلزم) كذلك، ولكنه بدأها من مدينة أسوان متوجّهاً شرقاً إلى شواطئ البحر الأحمر ومن هناك ركب سفينة إلى جدة، ولم يشر إلى اسم الميناء المصرى الذى أبحر منه جنوباً، ولعله يقابل اليوم مدينة سفاجا التى تربطها الآن بميناء جدة السعودى خطوط ملاحية منتظمة، تيسر السبل إلى حجاج الصعيد وبعض الحجاج القادمين من وسط إفريقيا للتوجه إلى

ميناء جدة مباشرة دون تحمل عناء الوصول إلى السويس للسفر بحراً، أو إلى القاهرة للسفر جواً.

ومن الملاحظ أن ناصر خسرو لم يكتف بوصفه للأماكن المقدسة فقط، بل كان حريصاً على أن يصف المكان الذي يزوره بمبانيه وأسواقه وفواكهه ومما قاله في ذلك :
إذا نزل الساعى من المروة فى نهاية السعى، فإنه يرى سوقاً كبيراً، وفى هذا السوق أحصيت عشرين دكاناً للحلاقة، وتعتبر هذه الدكاكين امتداداً لسوق كبير يقع شرق المسجد الحرام يقال له سوق العطارين، وهو سوق كبير غاية فى الجمال، وأكثر ما يباع فيه هى الأدوية والعقاقير الطبية والأعشاب.

ومما قاله عن الفواكة فى مكة: وقد أثمر العنب فى الخامس عشر من فروردين (مارس/أبريل) فأحضر من السواد إلى مكة وبيع فى السوق، وكان البطيخ كثيراً فى أول اربيهشت (إبريل / مايو) كما كانت الفاكهة متوافرة طوال الشتاء ولم تنقطع قط..

وهكذا كان ناصر خسرو يقدم وصفاً حياً للمكان ومابه من حركة وحيوية، مما جعل كتابه مرجعاً مهماً لحياة أهل الحجاز فى منتصف القرن الخامس الهجرى إلى غير ذلك من الملاحظات التى يزخر بها الكتاب، .. والذى أتمنى أن يرجع إليه القارئ العربى فى إحدى ترجمتيه طلباً للمزيد من الفائدة وزيادة فى تعرفه على هذه الأماكن المقدسة التى نهفو جميعاً إلى زيارتها وأداء مناسك الحج بها ونحن على معرفة جيدة بتاريخ المكان ومناسكه تلك المعرفة التى تزيد من لهفتنا على السفر إليه يوماً.

ثانياً: سفر نامه مکه (كتاب السفر إلى مكة)^(١)

سبق القول بأن مؤلف هذا الكتاب الحاج مهديقلي هدايت مخبر السلطنة قد بدأ رحلته هذه عام (١٣٢١ هـ - ١٩٠٣ م)، وقد زار عدة بلدان آسيوية وأوروبية وإفريقية، لكنه أثر أن يعنون الكتاب برحلته إلى مكة المكرمة حيث زارها وزار المدينة المنورة والمشاعر المقدسة وأدى فريضة الحج بصحبة عدد من رفاقه الإيرانيين الذين وفدوا إلى مصر، ومنها توجهوا إلى الحجاز، مثلهم في ذلك مثل ناصر خسرو الذي سافر إلى الحجاز في المرات الثلاث الأخيرة عبر الأراضي المصرية، والآن يجمل بنا أن نعرض لما ذكره المؤلف مرجئين التعليق إلى ما بعد الانتهاء من سرد رحلته كلها: وقد بدأ مهد يقلى هدايت هذه الرحلة بما ترجمته:

في يوم الجمعة أول ذى الحجة توجهنا صوب مدينة السويس، وكان المطوف الحاج على في صحبتنا وكان الطريق حتى وادي النيل صافياً جميلاً ولما خرجنا من هذا الوادي سلكنا طريقاً عبر الصحارى، ولو لم يكن هناك القطار، لكننا في عداد من ﴿يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) ولكن حمداً لله أننا لم نتأس بأولئك الفاسقين، بل إننا نعمنا بقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾^(٢) وسمعنا بأذان عقولنا قوله تعالى ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾^(٣) وسمعنا بقلوبنا الهداية المحمدية نداء الحق تعالى ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾^(٤) أما النار التي نظر إليها موسى بجبل الطور فهي نور الإيمان الذي يضيء قلب المؤمن، والسويس في

(١) حاج مهدي يقلى هدايت: مخبر السلطنة : سفر نامه، مكة، مع حواشى وفهارس باهتمام دكتور سيد محمد دبیر سياقى الطبعة الأولى نشر تیرازہ، ١٣٦٨ هـ ش ص ٢٤٥-٢٧٢.

(١) المائدة، آية ٢٦.

(٢) الأعراف، آية ١٦٠.

(٣) طه ، آية ١٣.

(٤) طه، آية ١٢.

نهاية جبل الطور وعلى حافة الخليج (خليج السويس) وتربطها بمدينة بورسعيد قناة (قناة السويس)^(٥).

ولقد بدأنا رحلة السفر إلى جدة مستقلين سفينة تابعة للشركة الخديوية (المصرية) ولم تكن السفينة نظيفة بالقدر المطلوب، وكان بعض عمالها يفتقدون الذوق والمعاملة الطيبة، وكانت مراحيضها في مواجهة صالة الطعام، ومع هذا فقد كان ربانها، رجلاً ودوداً وخلوقاً وقد توجه معنا بعد ذلك إلى مكة!

وفي مواجهة جحفة، حيث ميقات الشام والعراق، أمرنا المطوف الحاج على بأن نحرم، فخلعنا أرديتنا الشتوية واغتسلنا وأحرمنا.

الوصول إلى جدة:

وصلنا إلى جدة في صباح الخامس من ذي الحجة وقد وقفت السفينة بعيدة عن الشاطئ! لذا لزمنا الحاجة إلى عدة قوارب كي نتقلنا من السفينة إلى الشاطئ.. وقد لاحظنا أن معظم عمارات جدة قد بنيت بالأحجار، كما أن غالبيتها تتكون من ثلاثة طوابق.

(٥) النص الفارسي: ص ٢٤٤، ٢٤٥، وهو:

جمعه اول ذي حجه بطرف سونيس رهسپار شديم، حاجي على مطوف از اينجا همراه است، راه تا کنار نيل مي گذر صفائي دارد، از حوضه نيل كه خارج شد، از تبه مي گذرد. اگر نه راه آهن بود درزمره ﴿يَتِيهونَ فِي الْاَرْضِ﴾ درمي آمديم. لله الحمد تاسي به فاسقين نكرديم، وبه نعمت ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ﴾ متنعم بوديم وبه گوش هوش اشاره ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ مي شنيديم وبه برکت هدايت محمدی صلی الله عليه وآله كه ندای ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ به سمع دل مي آورديم ناری كه موسی در كوه طور به نظر آورد، نور ایمان است كه در قلب مؤمن تابشی بارد، سونيس پای كوه طور در دامنه ای کنار خليج، شهرکی است كه از آن به پرت سعيد كانال (ترعه) ممتد است.

وفى اليوم السادس من ذى الحجة نوينا الترحال إلى مكة المكرمة، وقد لاحظت أن قدمى وكذلك قدمى رفيقى عبد الله قد تورمت وهكذا باقى الرفاق ولكن الحالة بالنسبة لى ورفيقى عبد الله كانت أكثر تورماً، مما لم أعد أستطيع لبس الحذاء أو الجورب، وكأن الهاتف قد جاء لى بالأمر الإلهى: اخلع نعليك.

والسفر إلى مكة ركبنا عدة حافلات تجرها الخيول، بينها حافلات فخمة وأخرى أقل فخامة، بعضها متسع مريح، وبعضها يكاد يفى بالغرض، وفى الطريق أقيمت بعض النزل وبخاصة فى منطقة بهره أو حدة، وكان بالمنزل خزان للمياه وقد بنيت به حجرتان حقيرتان، وأمامهما إيوان تحيط به بعض الحشائش والخضرة، وكانت مساحته تقترب من ثلثى فرسخ عرضاً وطولاً، وكان النزل على مقربة من مشارف جبل، وعلى بعد مائتى قدم أو ثلاثمائة من خزان المياه مسجد من المستحب أن تصلى فيه ركعتن، الشأن فى ذلك شأن ضرورة الحفاظ على الروح، وقد أدينا ذلك المستحب فى الإيوان، وحول هذا المسجد ضربت عدة خيام سوداء، يقيم فيها الأعراب النازلين بالمكان.

ما إن أقبل الصباح وعم الضياء حتى تحركت القافلة مواصلة المسير، ولكن لم تمض إلا ساعة وفجأة عمت الجلبة والضوضاء؛ حيث هاجم البدو القافلة وقد سمعنا أصوات طلقات الرصاص دون أن نرى من يطلقونها، وكانت خطة هؤلاء الأعراب تتمثل فى إيقاع القافلة بين طرفى كمين، حيث يطلق أحد الأطراف نيران بنادقهم، فيعم الهرج والمرج بين جموع القافلة، فإذا بأفراد الطرف الثانى من هؤلاء الأعراب يندفعون لمهاجمة القافلة وسلب ونهب كل ما تصل إليه أيديهم وإذا حاول أحد أفراد القافلة التصدى لهم فإنهم يسارعون بطعنه بخناجرهم، فيخلفون وراءهم الجريح أو القتيل؛ مما جعلنا نردد قول السعدى:

أيها الحادى ! أين جمال الكعبة، وقد ألم بنا الموت، عبر صحرائها !^(١)

(١) الأصل الفارسى: ص ٢٤٧، وهو:

ساربانا جمال كعبه كجاست كـــه بمردیم در بیابانـش

لقد أخذ الخطر يقترب منا رويداً رويداً؛ فتوقفنا عن المسير، وترجل بعضنا، وقفز البعض الآخر خارج العربات، وتملكتنا الحيرة والدهشة، حيث كان معنا الحاج قاسم نامي الذي يرافق الرحلة من مصر لحمايتها وحراستها، وكانت معه بندقية وبعض الأسلحة البيضاء، ولكنه سرعان ما لجأ إلى خلف تبة يحتوى بها مصداقاً للمثل القائل : « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان! » ثم نادى أحد الرفاق على بقية زملائه: هيا تعالوا إلى خلف التبة.

وبينما نحن هكذا إذا بالهدوء يعود مرة ثانية، وهنا يرتفع صوت رئيس الحرس قائلاً: لم يعد هناك خطر! ثم أردف قائلاً: لو أن الخطر قد حاق بنا أكثر من هذا لسارعت بالضرب، ومع هذا فقد أصاب هؤلاء الأعراب أحد أفراد القافلة، كما أصبت أنا أحدهم، لذا فقد أدركوا أنه ليس من المتاح لهم أن يقتربوا من القافلة أكثر فأكثر؛ وهذا ما حدث! وبعد انقضاء وقت قصير من حلول الظهر وصلنا إلى واد يمتد حتى يصل إلى مكة، واصلنا المسير حيث وصلنا بعد ساعات ثلاث إلى مرعى يقال له قنقر النك، أو قصر الخورنق، وأملأ في استعادة العافية خلدنا إلى الراحة بعض الوقت كي نتناول طعامنا.

ثم واصلنا المسير نحو مكة المكرمة وقبل الغروب بساعتين انطلقنا لأول مرة ملبين (لبيك اللهم لبيك) فقد أصبحنا على مشارف مكة.

الوصول إلى مكة:

نزلنا بمنزل الشيخ علي محمد محرز الشريف وهو من أفضل بيوت مكة، يتوسطه حوض ماء به عدة فوارات، ويشرف الإيوان على هذا الحوض، بينما توجد الغرف في الخلف علي طابقين. حيث نزل كبيرنا (الأتابك) في الغرفة الكائنة بالطابق العلوى، ونزل باقي الرفاق في الغرف الكائنة بالطابق الأرضى، وفي هذا المنزل التقينا بأولئك الرفاق الوافدين من الشام، وهم مجد الدولة، مستعان الدولة، وأمين الخاقان، وميرازا حسن رشدية ومعز السلطان وابنه.

وبعد انقضاء ثلاث ساعات من حلول الليل، اغتسلنا، وذهبنا إلى الحرم وأدينا العمرة.

وفى ليلة الثامن من ذى الحجة وهو يوم التروية، ذهبنا إلى الحرم مع الغروب وبعد أداء الفريضة والصلاة بالمسجد توجهنا صوب منى، وهى ساحة واسعة تمر فى وسطها قناة زبيدة، وهى قناة مكشوفة يأخذ الحجاج منها حاجتهم من المياه.

ويقال إن عدد الحجاج فى ذلك الوقت كان مائة وخمسين ألف حاج! وفى صباح التاسع من ذى الحجة عزمنا على التوجه صوب عرفات، وكانت المواصلات إليها قاصرة على الجمال، ويتم الوقوف بعرفات طوال نهار التاسع ثم يبدأ الترحال إلى المشعر الحرام مع غروب الشمس ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾^(١) حيث نصل إلى المزدلفة فيتم جمع الجمرات وكذلك أداء الصلاة قصرًا، ثم واصلنا المسير إلى منى.

وفى منى ابتعنا أربعًا وخمسين شاة للتضحية بها، وقد وكلنا أحدهم لذبح هذه الأضاحى، ولكن لم يمض وقت طويل حتى عمت الضجة والضوضاء أرجاء المكان، إذ أقبل الأعراب وأخذوا الأضاحى، ولم يستطع الموكل بالذبح ذبح سوى شاتين فقط!

بعدها شغلنا جميعًا بتناول الطعام وقد تساوى فى ذلك الجميع الخادم منهم والمخدوم، حيث حمل كل حاج وعاء أكله بنفسه وتوجه به إلى خيمته ومما يجدر ذكره بأن يوم عرفة قد صادف فى هذه السنة يوم جمعة وهو ما يطلقون عليه (الحج الأكبر):

(١) البقرة، آية : ١٩٨.

والحج الأكبر كما أفهم هو أن نرجم الوسواس ونبعده عن قلوبنا، وأن نفلق عيوننا عن الحرام، وأن نمتنع عن الغيبة والنميمة، وأن نحفظ قلوبنا عن الهوى، وأن نتحرز عما يغضب الله، وألا ينطق لساننا بالفحشاء.

ومما يجدر ذكره أننا بعد الطواف فى صباح العيد والذبح تحللنا حيث لبسنا ملابسنا، فرحين بمقدم العيد حيث يتبادل الناس فيه الزيارات، وفى اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمينا الجمرات، وفى اليوم الثانى عشر أتممنا كل شى وعدنا إلى مكة المكرمة، وإن كان بعض أهل السنة والجماعة يبقون فى منى حتى اليوم الثالث عشر آخر أيام عيد الأضحى المبارك.

ومن المستحب فى منى صلاة ركعتين فى مسجد الخيف ذى الصحن الواسع أما جوانبه فكلها مسقوفة ، وقد لوث الحجاج الصحن كله حتى لم يعد فى الإمكان الوصول إلى الأماكن المسقوفة مما جعلنا نعود حائقين على بعض الحجاج.

وبعد انقضاء مناسك الحج بقينا عدة أيام فى مكة حيث طوفنا ذات يوم بجبل أبى قبيس وزرنا قبور بعض الصحابة هناك.

وذات يوم ذهبنا عصرًا إلى الحرم المكى، حيث وجدنا الفرصة سانحة للدخول داخل البيت الحرام. وإذا كنا فى الخارج نوجه أنظارنا نحو الكعبة فى كل صلاة، فإننا فى الداخل كنا نوجه أنظارنا خارجها ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ^(١) من المعروف أن المصلين فى مكة تتجه أنظارهم فى الصلاة صوب وسط

(١) البقرة، آية : ١٧٧.

المدينة حيث توجد الكعبة الشريفة أيا كان مكان وجودهم شرقاً أو غرباً ، شمالاً أو جنوباً وإذا كان ماء زمزم للتبرك ، فلا ضير فى ذلك ، ولكنه غير مستساغ للشرب أو الأكل حيث إنه يتسم بالملوحة والمرارة!

وحيثما يوجد مقام إبراهيم يوجد حجر عليه أثر لقدم الخليل عليه السلام محفور على أحد الأحجار وقد وضع هذا فى النصب المقام هناك ، ومن الثواب الاهتمام به والحفاظ عليه !

ويقال إن بنى شيبه كانوا يسكنون هذا المكان فى عهد الرسول عليه السلام .

والصفا والمروة إيوانان تفصل بينهما مسافة السعى ، وكلاهما صوب باب النبى القائم فى الجهة الشرقية من الحرم .

أما عن النظافة هنا فلا داعى للحديث عنها وما أكثر التزاحم عند المشى والهولة .

وذات يوم ذهبنا إلى الحرم قبل صلاة المغرب ، وتصادف عدم وجود كثيرين بالمسجد ، فتوجهنا إلى حجر إسماعيل وشغلنا بالدعاء والمناجاة ، ومن بين ما دعوت به هو : أن تنال إيران استقلالها ، كما دعوت بكل ما جال بخاطرى .

وكتب فى بيان حكمة الحج : ما يلى :

لقد فرض الله الحج لما فيه من خير عميم لجموع الخلق ، فالبيت الحرام منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهو محط اهتمام الناس من قريب أو بعيد ، وفيه يجتمع الناس مرة فى كل عام بعيدين عن الرياء ، كما تتم فى موسم الحج الألفة بين أهل المشرق وأهل المغرب ، وفيه يتدارس المسلمون أحوالهم ، وتتم بينهم الوحدة والاتحاد ، ينزعون عن أبدانهم أردية الكبر والغرور ، ويدركون أن الإنسان إن يظفر بشيء من هذه الدنيا غير كفته ، وهناك يكون الجميع سواسية لا فرق بين غنى أو فقير ولا بين شريف أو وضيع ، كما أنهم فى هرولتهم يحطمون كل مظاهر الاستكبار .

- الفقير والغنى كلاهما عبيد لهذه الأرض وتلك الاعتبار .

بل إن الأكثر غنى يكون الأكثر احتياجاً!^(۱).

وفى كل عام تفد من كل من الشام ومصر قافلة ، وتحضر كل منها محملاً مزيئاً ، وما يقدمه الشام منسوب إلى عائشة رضى الله عنها ، وما يفد من مصر منسوب إلى فاطمة رضى الله عنها ، كما تقدم مصر كل سنة كسوة منسوجة من الحرير وموشاة بالذهب ، وذلك من أجل تغطية الكعبة وكسوتها! ومن بين الذين قدموا الكسوة للكعبة كان شاهرخ بن الأمير تيمور !

بنى المسجد الحرام من الحجر الأبيض ، طوله ۲۷۰ ذراع وعرضه ۲۱۵ ذراع ، وتحيط به من كل جانب أردفة ويحمل سقفه ۱۲۴ عمود ، وتتوسطه الكعبة ، ويوجد بابها جهة المشرق ، ويرتفع عن الأرض بمقدار ستة أذرع ، وطول الباب ستة أذرع كذلك أما عرضه فتلاثة أذرع وعشرة أصابع ، أما طول الكعبة نفسها فيبلغ أربعة وعشرين ذراعاً وشبراً ، بينما يبلغ عرضها ثلاثة وعشرين ذراعاً وشبراً ، أما ارتفاعها فيبلغ سبعة وعشرين ذراعاً ، والمسجد ثمانية عشر باباً من بينها فى الجهة الشرقية باب النبى الذى كنا ندخل منه ، وعند الدخول يكون مقام إبراهيم فى مواجهة الكعبة أما على الجهة اليسرى منه فيوجد بئر زمزم ومقام ابن حنبل ، وفى الجهة الشرقية مقام مالك ! وفى الطرف الشمالى مقام الحنفية وليس للشافعى مقام !

أما الصفا والمروة فهما فى الجانب الشرقى ، وعلى جانبى باب النبى يوجد إيوانات بكل إيوان منهما كرسي وثلاث درجات ، ودائماً يُسعى لنظافة طريق السعى بين الصفا والمروة .

(۱) گفته اند که حکم حج شاید از نظر احسانی نسبت به مردم آن سر زمین باشد ، شبیه نیست که حکمت بسیار در آن هست. خانه از زمان ابراهیم و اسماعیل محل توجه مردم دور و نزدیک بوده است. مرکزی است خالی از جفا و بی ریا که مردم هر دیار نوبتی در سال در آن جمع شوند. آفت بین شرقی و غربی حاصل شود ، از حال هم استحضار بیابند ، اتحاد و یگانگی بین آنها ایجاد شود ، لباس کبر و غرور از تن دور کنند. بدانند که ، جز چند کز کرباس بهره آخره آنها نیست ، درویشی و غنی ، ضعیف و شریف خود را در یک مقام ببینند ، به هروله در سعى رگ استکبار ا بشکنند .

درویش و غنی بنده این خاک و درند آنانکه غنیترند محتاجترند

أما الحجر الأسود فقائم فى الركن الجنوبى الشرقى من الكعبة ، وقد تحطم الحجر الأسود أكثر من مرة وهو الآن خمسون قطعة حفظت جميعها ونسقت داخل قالب من الفضة !

وجدران الكعبة من الداخل والخارج من الحجر الأملس ، وتغطى من الخارج بالكسوة الشريفة ، وفى الداخل توجد قطعة صغيرة من الحجر المنقر تبلغ مساحته شبراً فى شبر ، ويظن أنها أحضرت من بعلبك !

وسقف الكعبة مرفوع على ثلاثة أعواد من الخشب المربع الذى يصل قطر كل عود منها نصف ذراع وهو من خشب العود الذى يعطى رائحة جميلة تعطر الكعبة من الداخل .

إن الطواف يستمر سبعة أشواط تبدأ من محاذاة الحجر الأسود على أن يتم حضور القلب واستجماع الحواس ، بحيث لا يمكن التفكير فى شيئين فى وقت واحد . أما السعى بين الصفا والمروة فيتم ذهاباً وإياباً بين الموضعين على أن تكون البداية من الصفا والنهاية عند المروة ويكون السعى هرولة فى جزء منه! .

الوصول إلى المدينة :

فى يوم عاشوراء وصلنا إلى المدينة المنورة والتى تبدو كساحة منبسطة تحيط بها الجبال من كل جانب وعند المدخل إلى تلك الساحة يوجد مسجد الشجرة على اليد اليسرى وهو ميقات أهل المدينة ويستحب أن تصلى فيه ركعتان ، إذا كان المسجد الحرام بمكة المكرمة يتصف بالسعة والضياء فإن مسجد الرسول ليس على هذا الحال إذ أن معظمه مسقوف ، لذا فهو أقل ضياء ، وليس به ذلك الازدحام الموجود بالكعبة ، وكانت ليلتنا الأولى بالمدينة هادئة ، حيث لم يثر الرعد ولم يومض البرق ، والفرق

العظيم الآخر بين المسجدين يتمثل فى وجود قبر حضرة الرسول عليه السلام ، وحجرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما فى مسجد المدينة ، وهنا يستطيع المرء أن يتصور بعض الوقائع التاريخية التى حدثت فى منزل الرسول عليه السلام والتى واجهها بروحه السمحة ، إن هذا المسجد مهبط الوحي ومسقط رأس الحسن والحسين !

ما أن وصلنا حتى سارعنا بالوضوء حتى نستطيع زيارة الحرم النبوى ، لقد دخلنا من باب السلام ، ولكننا خرجنا من باب جبريل بعد تقديم فرائض الاحترام والتبجيل .

كنا طوال إقامتنا حريصين على الذهاب إلى المسجد النبوى لأداء جميع الصلوات. لذا فقد جاءتنى الفرصة كى أزور الروضة المنورة عوضاً عن والدى الذى لم تتح له الفرصة لمرضه كى يزور المدينة ، وكم كان يأسف لعدم تمكنه من إتمام هذه الزيارة .

وقد طلب بعض السادة من الرفاق ، أن يفتح لهم باب قبر الرسول كى يزوروه من الداخل ، ولكن الأتابك لم يوافق ، ويوجد بويب لقبر الرسول تجاه القبلة ، وهذا القبر قائم فى الركن الشمالى الشرقى من المسجد ، أما قبر أبى بكر وعمر ففى المسافة بين القبر المبارك والجدار .

ولقد غطى القبر بقطعة من القماش ، ومن السقف يتدلى مصباح وتتناثر المباحر فى جميع الأركان ، وفى الطرف الشرقى من المكان المغطى تحت القبة توجد ثلاث حجرات ، عرضها وطولها ثلاثة أذرع فى ثلاثة أذرع ، حيث يسكن الرسول عليه السلام (حجرة عائشة) ، وكذلك كانت تقيم فاطمة الزهراء مع على المرتضى. وفوق مزار الرسول قبة تعلو جميع النوافذ ، وإلى جوار باب جبريل توجد منارة من خمس منارات بالمسجد !

وخارج باب جبريل يوجد خزان للمياه به صنابير للوضوء حيث توضأت هناك ذات مرة .

وفى اليوم التالى ذهبنا عند باب جبريل لزيارة البقيع ، وهى عبارة عن ساحة كبيرة تتوسطها ساحة أخرى أصغر تضم مزارات أئمة الهدى ، ويأتى فى مقدمتها قبر الإمام الحسن وبعده قبر الإمام السجاد ، ثم قبر الباقر ، وأخيراً قبر جعفر الصادق ، بينما يوجد فى الركن الشمالى من هذه الساحة قبر عثمان بن عفان رضى الله عنه !

ومن بين المزارات التى يحرص الزائرون على زيارتها مقابر شهداء أحد وقبر سيد الشهداء حمزة المجاور لجبل أحد والذى يبعد بعض الشئ عن وسط المدينة .

ومما يلاحظ أنه لم يعد بالمدينة أى أثر للخندق الذى حفر حولها أيام معركة الخندق .

وذاث يوم ذهبنا لزيارة مسجد قباء ، مسجد القبلتين ، حيث كان المسلمون يتجهون فى صلاتهم أولاً صوب بيت المقدس ، ولما صدر الأمر بالاتجاه إلى الكعبة بنيت بالمسجد قبله أخرى صوب الكعبة ، وهذا المسجد يقع جنوبى المدينة وقد وردت الإشارة إليه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : «المسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين»^(١) وقد حمل الرسول الكريم بيديه الكريمتين أول حجر فى بنائه .

وكان بناء مسجد الرسول بالحجر والآجر فى عهد قايتباى من سلاطين مصر ، وذلك عام ٨٢٧ هـ وأكمل بناؤه فى عهد السلطان عبد المجيد بعد ذلك . ويحمل السقف والإيوانات به ٢٥٦ عمود ، وللمسجد ستة أبواب هى باب السلام ، باب الرحمة ، باب التوسل ، باب جبريل ، باب النساء ، باب قايتباى .

(١) سورة التوبة ، آية : ١٠٨

وبين مكة والمدينة مسيرة يومين !

* * *

هكذا أنهى مهد قلى هدايت حديثه عن سياحته بين مكة والمدينة ولنا على ما ذكره عدة ملاحظات نجملها فى نقاط محددة وسريعة .

الملاحظة الأولى :

كانت رحلة الحج لهؤلاء الإيرانيين عبر الأراضى المصرية فقد جاءوا سائحين إلى الإسكندرية والقاهرة ثم عزموا على تأدية فريضة الحج فتوجهوا إلى ميناء السويس ، شأنهم فى ذلك شأن الحجاج المصريين المسافرين لأداء فريضة الحج بحراً حيث تنقلهم البواخر الخديوية من ميناء السويس إلى ميناء جدة ، وقد فعل ناصر خسرو نفس الشئ من قبل ، حيث أدى الحج ثلاث مرات عبر الأراضى المصرية ، ومن المعروف أن عدداً كبيراً من الحجاج الإيرانيين كان يفد فيما مضى إلى الأراضى المصرية ويتوجه عبرها بعد ذلك إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وهكذا كانت الديار المصرية نقطة عبور أمام هؤلاء الحجاج الإيرانيين وغيرهم من الحجاج الذين ما زال بعضهم وبخاصة من البلدان الإفريقية والأوروبية يصل إلى مصر أولاً ثم يتوجه بعد ذلك إلى جدة براً أو بحراً لأداء فريضة الحج .

الملاحظة الثانية :

من الملاحظ أن رحلة الحج التى تحدث عنها مهديقلى هدايت فى كتابه هذا تبدو وكأنها رحلة إخوانية ترفيهية أكثر من كونها رحلة عبادة وتبتل إلى الله ، فقد كان

حريصاً على ذكر أسماء مرافقيه ومن قابلهم من نويه فى جدة أو مكة ، إلى جانب الحديث عن بعض ذكر الأمور الذاتية والتقاط الصور التذكارية ، أما وصفه للأماكن المقدسة والشعائر التى يؤديها حجاج البيت الكريم وزوار مسجد الرسول ، فقد جاءت سطحية فى معظمها إذا قورنت بما أورده ناصر خسرو فى كتابه ، وكان المرجو من مهديقى هدايت أن يثبت قدرته على الوصف والتحليل أكثر مما فعله ناصر خسرو ، وحتى يجد لكتابة الأثر المرجو ، وهذا ما لم يحدث ، حيث ما زال كتاب ناصر خسرو ووصفه للأماكن المقدسة والشعائر الدينية هو المثال الأكبر قيمة وأعلى ذكراً .

الملاحظة الثالثة :

كان مهديقى هدايت ذاتياً فى رحلته هذه بل كان متبرماً ناقماً حريصاً على إبراز السلبيات أكثر من الإيجابيات ، فكثيراً ما تحدث عن عدم نظافة الأماكن المقدسة ، كما أفرد الحديث عن حالات الإغارة التى تتعرض لها قوافل الحجيج من بعض البدو وقطاع الطرق وسلبهم أمتعة الحجاج بعد ترويعهم ، والحمد لله أنه لم يعد يحدث هذا ، فقد نجحت الحكومة السعودية الحالية فى القضاء على كل هذه السلبيات ، ووفرت الأمن والأمان لجميع حجاج بيت الله الكريم فى ربوع المملكة كلها !

الملاحظة الرابعة :

لم يكن مهديقى هدايت موفقاً فى ترتيبه لأحداث الرحلة ، فكثيراً ما كان يتكلم عن أمر ما ثم يتركه ويدخل فى حديث آخر وبعد فترة يرجع إلى حديثه السابق مما يخل بانتظام سير الرحلة ، فقد تحدث عن وصولهم مكة ثم ذهابهم بعد الاستحمام لأداء الطواف والسعى ، ولكنه لم يتحدث عن الطواف والسعى إلا فى آخر حديثه عن مكة ، وبعد أن يكون قد أدى جميع مناسك الحج ، وتحلل من ملابس الإحرام ، وكان الأولى أن يذكر هذا كله عند دخول المسجد الحرام لأداء المناسك بمجرد وصوله إلى مكة لا أن يرجئ ذلك إلى نهاية بقاءه بها !

كما تحدث عما يفعله الحاج خلال أيام عيد الأضحى المبارك وعودته إلى مكة في اليوم الثاني عشر من ذى الحجة ، وما يفعله الحاج بعد ذلك ، ثم إذا به يعود للحديث عن منى والصلاة ركعتين في مسجد الخيف هناك ، ثم وصفه لهذا المسجد ، وذلك الوصف الذى عاب فيه على بعض الحاج عدم العناية بنظافة المكان نظراً لشدة الزحام ، وكان الأولى أن يتحدث عن هذا المسجد قبل ذلك وبمجرد وصوله إلى منى لا بعد أن غادرها إلى مكة .

الملاحظة الخامسة :

أشار مهديقل إلى وسائل المواصلات التى استخدمها فى الرحلة وبدأها بالقطار من القاهرة إلى السويس ، ثم الباخرة الخديوية من السويس إلى جدة وهى باخرة كبيرة تستطيع نقل المئات من الحاج . كما تحدث عن العربات التى استخدمها الحاج من جدة إلى مكة المكرمة ، وهذه العربات متنوعة ما بين صغيرة وكبيرة تجرها الجياد ، بينما كانت المواصلات أيام ناصر خسرو على ظهور الدواب أو سيراً على الأقدام ، وبالتالي فإن هذه الرحلة الأخيرة قد أشارت إلى بعض الوسائل الحديثة التى ظهرت فى أوائل القرن العشرين والتى جنبت الحاج تحمل مشاق السفر سيراً على الأقدام أو على ظهور الدواب ، كما أنها قللت من المدة الزمنية التى كان الحاج يمضونها بين الذهاب والعودة ، والتى كانت تصل إلى الستين يوماً بالنسبة للحجاج المصريين على سبيل المثال كما ذكر ناصر خسرو فى كتابه ، حيث كانت الرحلة ما بين ميناء السويس المصرى وميناء جدة السعودى تستغرق خمسة عشر يوماً ، أما فى زمن مهديقل فكانت الرحلة من السويس إلى جدة تستغرق خمسة أيام فقط لوجود البواخر الكبيرة والسريعة وهكذا تحدث كل منهما - ناصر خسرو ومهديقل - عما أتاحه له عصره من وسائل الانتقال !

الملاحظة السادسة :

حرص ناصر خسرو فى كتابه أن يكون أسلوبه بسيطاً سلسلاً واضحاً بعكس ما يتسم به شعره ، ولعله أراد أن يكون كتابه هذا مرشداً يوضح فيه الشعائر فى صورة واضحة لا لبس فيها ، أما مهدي يقلى هدايت فقد جاء أسلوبه فى كثير من المواضع متصعناً ، مثال ذلك حرصه على أن يزين أسلوبه بالعديد من الآيات القرآنية أو أجزاء من هذه الآيات ، ولو كان استخدامه لهذه الآيات فى محلها لكان شيئاً يحمد له ، أما أن يقحمها فى النص إقحاماً ، فهذا لا يليق بنص أدبى ذى قيمة وعلى سبيل المثال عندما تحدث عن سفره من القاهرة إلى السويس؛ ذكر بضعة آيات قرآنية تشير إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام ورحيله إلى سيناء عبر الطريق الذى سلكه القطار بمهدي يقلى ورفاقه إلى السويس ، فكانت هذه الآيات مجرد استعراض من الكاتب وتزويد لا يستدعيه النص!

وكذلك حرص المؤلف على أن ينمق أسلوبه بالعديد من الأشعار ، وبخاصة المنسوبة إلى السعدى الشيرازى وناصر خسرو ، وبعضها كان مقبولا فى موضعه ، وبعضها ذكر دون ضرورة تذكر ، وهكذا كان ذكره للآيات القرآنية ، والأشعار نوعاً من إثبات الذات وادعاء التميز فى الأسلوب .

الملاحظة السابعة :

حرص مهدي يقلى هدايت على ذكر بعض الإشارات التاريخية ومنها أن بنى شيعة كانوا يقطنون أيام الرسول عليه السلام المنطقة المجاورة بمقام إبراهيم ، وقوله : إن من بين الذين قدموا الكسوة للكعبة كان شاهرخ بن الأمير تيمور ، وقوله عن بناء مسجد الرسول عليه السلام بالحجر والأجر إن ذلك كان فى عهد قايتباى سلطان مصر ، وأن السلطان عبد المجيد قد أكمل هذا البناء بعد ذلك ، وكذلك إشارته قبل ذلك إلى مسجد قباء وكونه المسجد ذا القبلتين ، إلى غير ذلك من الإشارات التاريخية التى أوردها فى أثناء وصفه للمشاعر فى مكة أو المدينة .

الملاحظة الثامنة :

قدم مهديقلی هدايت رسماً توضيحياً للحرم المكي وضح فيه جميع تفاصيل المسجد والكعبة ، وما يضمه المكان من مشاعر مقدسة وهذا مما يحمد للمؤلف ، حيث أن هذا الرسم يساعد القارئ الذي لم يحظ بزيارة الحرم المكي لعمره أو حج أن يتعرف على المكان وأبوابه ولكل ما يشمله من مشاعر وأماكن تهفو جميع أفئدة المسلمين إلى زيارتها والتمتع بالوقوف خاشعة أمامها .

* * *

وإذا كان لنا أن نقارن في عجالة بين ما كتبه ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري ، وبين ما سطره مهديقلی هدايت في بداية القرن الرابع عشر الهجري ، فإننا نقول بكل اطمئنان بأن ناصر خسرو كان أكثر توفيقاً فيما قال ، وأكثر تدقيقاً فيما وصف ، وأكثر تضرعاً فيما قدم من حديث عن المشاعر وما يؤديه الحجاج من أفعال وما يقولونه من ابتهالات وأقوال ، وكان حديث ناصر خسرو حديث من يعايش ما يكتب ، ومن يحس بكل كلمة ينطق بها أو يسطرها ، أما حديث مهديقلی هدايت : فقد جاء سطحياً في كثير مما قاله ، كان حديثه حديث من يكتفى بالنظر من الخارج دون الدخول إلى لب الأمر ، إنه حديث من يكتفى بالعرض دون الدخول إلى الجوهر !! إنه حديث رحالة غير خبير بالمكان وما يمثله من قداسة ، ولعل ضيق الفترة التي قضاهما في مكة - حوالى شهر (من ٦ ذى الحجة ١٣٢١ إلى ٨ محرم ١٣٢٢هـ) لم تتح له الفرصة جيداً كي يورد وصفاً وتحليلاً ، كالذي قدمه ناصر خسرو في زيارته الرابعة للأماكن المقدسة ، حيث قضى في هذه المرة ستة أشهر كاملة وذلك بعد أدائه الحج قبل ذلك ثلاث مرات ، مما جعله يعايش المكان جيداً ويدرس كل صغيرة وكبيرة فيه ، فكانت الفرصة سانحة أمامه لكي يستوثق من كل كلمة ، ومن كل وصف قبل أن يسطره في كتابه !

الرحلة الثانية : إلى بيت المقدس

حرص الرحالة المسلمون على زيارة بيت المقدس ، وزيارة ثالث الحرمين بها ووصفه ، ووصف جميع الأماكن المقدسة فى هذه المدينة العربية الإسلامية أبد الدهر إن شاء الله ، ومن بين هؤلاء الرحالة كان ناصر خسرو وكذلك مهديقلی هدايت اللذين أوردنا ما وصفاه فى كتابيهما لكل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث الحرم المكى ومسجد الرسول محمد عليه السلام ، والآن يطيب لنا أن نورد ملخصاً لوصف كل منهما لمدينة القدس ، كى نتذكر ما كانت عليه هذه المدينة الخالدة فى عصر كل منهما ، لعنا نحاول تخليصها من العدوان الإسرائيلى الداعى إلى أن تكون القدس العاصمة الأبدية لدولة إسرائيل كما يقولون ، ولكن إرادة الله فوق إرادتهم ، وإن شاء الله تعود القدس عربية إسلامية مطهرة من كل دنس إسرائيلى ، ولنبدأ بإيراد ملخص لوصف هذه المدينة العريقة كما جاء فى سفر نامه ناصر خسرو .

(١) وصف ناصر خسرو لبيت المقدس^(١)

يقول ناصر خسرو فى أول حديثه عن المدينة : فى الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ هـ (١٦ مارس ١٠٤٧م) بلغنا بيت المقدس .. وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس «القدس» ويذهب إلى القدس فى موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات ، فيتوجه إلى الموقف ويضحى أضحية العيد كما هى العادة ، ويحضر هناك لتأدية السنة ، فى بعض السنين ، أكثر من عشرين ألف شخص فى أوائل ذى الحجة ومعهم أبناؤهم ، كذلك يأتى لزيارة بيت المقدس من ديار الروم ، كثير من النصارى واليهود ، وذلك لزيارة الكنيسة والكنائس هناك ... وسواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء والخيرات بها كثيرة ورخيصة^(٢) .

(١) ناصر خسرو : سفر نامه الأصل الفارسى ص ٦٤ - ٦٣ ، الترجمتان العربيتان وص : ٥٥ - ٧٦ (ترجمة د ، يحيى الخشاب) ، ص ٥٣ - ٨١ (ترجمة د. البدلى) .

(٢) سفرنامه ، ترجمة الخشاب ، ص ٥٥ - ٥٦ .

ثم قال : لقد سمعت من الثقة أن النبي صلاة الله عليه وسلامه رأى فى المنام كأن أحد العظماء يسأله قائلاً : يا رسول الله أعنا على اكتساب العيش ، فقال الرسول عليه السلام «أنا كفيل لكم بقمح الشام وزيته»^(٢) .

ومن كان الرسول عليه السلام كفيله فلن يستطيع إنسان أن يخذله ، وإذا كان سكان القدس الشريف قد مروا بفترات عصيبة على أيدي الصليبيين سابقاً واليهود حالياً ، فسينصرهم الله ويعيد مدينتهم حرة خالصة للإسلام والمسلمين ، بعد ذلك يبدأ ناصر خسرو فى وصف مدينة بيت المقدس وسنكتفى بذكر ملخص لهذا الوصف !

وصف بيت المقدس :

مدينة مشيدة على قمة جبل ليس بها ماء غير الأمطار وتعتمد الزراعة فيها على الأمطار والعيون ، والمدينة محاطة بسور حصين من الحجر والجص وعليها بوابات حديدية وكان عدد سكانها وقت زيارة ناصر خسرو لها حوالى عشرين ألف نسمة . بها أسواق جميلة وأبنية عالية ، وكل أرضها مبلطة بالحجارة ، وفى المدينة صناع كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاصة ، والجامع شرقى المدينة وسوره هو سورها الشرقى ، وإذا خرجت من المسجد استقبلتك صحراء عظيمة يقال لها الساهرة ، ويزعمون أنها أرض الحشر يوم القيامة ، ولهذا يأتى كثير من الناس إلى هذه الصحراء ويتفرغون للعبادة راجين أن يدركهم الموت فيها ، فإذا جاء وعد الآخرة يكونون أول من يبعثون !

وبين الجامع وسهل الساهرة واد عظيم الانخفاض كأنه خندق ، وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين وبه قبة من الحجر مقامة على أحد البيوت ، ويقول العامة إنه بيت فرعون أو يطلقون على هذا الوادى «وادى جهنم» ويقال إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أنزل جيشه أيام خلافته بسهل الساهرة هذا ، فلما رأى هذه الوادى قال : هذا وادى جهنم !

(١) سفرنامه ، ترجمة البديلى ، ص ٥٣ - ٥٤ .

وعلى مسيرة نصف فرسخ جنوب المدينة توجد عين ماء تسمى عين سلوان ، وقد أقيمت حولها عمارات كثيرة ، حيث يقولون إن من يستحم بماء هذه العين يشفى مما ألم به من الآلام والأمراض .

ومسجد الجمعة على حافة المدينة من الناحية الشرقية وإحدى حوائطه تطل على وادى جهنم ، وإذا نظر المرء إلى ذلك الضلع التابع للمسجد الأقصى والمطل على وادى جهنم وجد أن السور يرتفع بمقدار مائة ذراع ، والسور فى ذلك الجانب ذو صخور ضخمة شديدة النتوء ، بينما بقية جدران المسجد الأخرى تتسم بالاستقامة .

وقد بنى المسجد حول الصخرة العظيمة التى يزعمون أن الله أمر موسى عليه السلام باتخاذها قبلة ، وفى عهد سليمان عليه السلام جاءه الأمر ببناء مسجد حول الصخرة ، حيث اتخذ هذه الصخرة بمثابة المحراب للمصلين ، كما كان محمد عليه السلام يتجه إلى هذه الصخر فى صلاته حتى أمر الله بتحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة ، التى زادها الله تشریفاً وتعظيماً .

وقد كتب فى الجانب الشمالى للمسجد وبالقرب من قبة النبی يعقوب عليه السلام وفى أعلى أحد الأبواب : أن طول المسجد سبعمائة وأربعة أمتار وعرضه مائة وخمس وخمسين متراً بالمقياس الشاهانى .

وعند المدخل الشرقى للمسجد يوجد رواق عظيم يبلغ ارتفاعه ثلاثين ذراعاً ، بينما عرضه عشرون ذراعاً وللرواق جناحان واجهتهما وإيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء ، وفوق الرواق قبة كبيرة من الحجر المصقول ، وله بابان مزخرفان وواجهتهما من النحاس الدمشقى الذى يلعب حتى لتظن أنهما طليا بالذهب ، وطول كل منهما خمسة عشر ذراعاً والعرض ثمانية أذرع ويسميان «باب داود» عليه السلام .

وبعد اجتياز هذا الباب يوجد رواقان كبيران على يمين الداخل ، ورواق ثالث ممتد على يساره ويوجد بهذه الأروقة مجموعة من الأعمدة حيث يوجد فى كل رواق جهة اليمين تسعة وعشرون عموداً رخامياً ، وبينما يرتفع عدد الأعمدة فى الرواق الواقع على يسار الداخل إلى أربعة وستين عموداً رخامياً ، بطول المسجد من الشمال

إلى الجنوب ، ولكنه يبدو كساحة مربعة إذا اقتطعت المقصورة منه ، وقبلته في الجنوب وفي الجانب الشمالي بابان متجاوران عرض كل منهما سبعة أذرع وارتفاعه اثنا عشر ذراعاً . ويسميان "باب الأسباط" ، وكلها مزينة بزخارف من الحديد والنحاس وبعد عبور باب الأسباط في اتجاه الشرق يوجد باب آخر عظيم مكون من ثلاثة أبواب متلاحقة ، يقال لها باب الأبواب وهو في نفس حجم باب الأسباط ولكنه كثير الوشى والزخارف وقد سمي باب الأبواب لأنه مكون من ثلاثة أبواب متلاصقة في حين أن باقى الأبواب مزدوجة .

وعلى مقربة من باب الأبواب وفي الزاوية الشمالية يوجد رواق ذو أبواب ، وله قبة عظيمة ، تبدو قواعدها شبيهة بأرجل الفيلة ، وتضيئها مشاعل كثيرة وتسمى قبة النبي يعقوب عليه السلام ، زعماً بأن يعقوب كان يتعبد في هذا المكان .

وعند الركن الشمالي للمسجد رواق جميل وقبة جميلة لطيفة مكتوب عليها هذا محراب زكريا النبي عليه السلام ، ويقال إنه كان يصلى هناك دائماً ، وعند الحائط الشرقي وسط الجامع رواق عظيم الزخارف من الحجر المصقول ، يبدو كأنه قطعة واحدة ، ارتفاعه خمسون ذراعاً وعرضه ثلاثون ، عليه نقوش وله بابان جميلان ويقال إن سليمان بن داود عليه السلام بنى هذا الرواق لأبيه !

وحين يدخل السائر رواق داود هذا متجهاً ناحية الشرق فإن الباب الواقع في اليمين يسمى «باب الرحمة» والباب الواقع جهة اليسار هو «باب التوبة» ويقال إن هذا الباب هو الذى قبل الله تعالى عنده توبة داود عليه السلام!

وقد قال ناصر خسرو عند وصوله إلى هذا المكان !

«وقد صليت أنا ناصر ، فى هذا المقام ودعوت الله تعالى أن يوفقنى لطاعته وأن يغفر ذنبى !»^(١) .

(١) سفرنامه ، ترجمة د . الخشاب ، ص ٦٠ .

وحين يمضى السائر بمحاذاة الجدار الشرقي إلى أن يبلغ الزاوية الجنوبية عند القبلة ، يجد أمام الحائط الشمالى مسجداً بهيئة السرداب ينزل إليه بدرجات كثيرة ، مساحته عشرون ذراعاً فى خمسة عشر ، وبهذا السرداب مهد عيسى عليه السلام ، وهو من الحجر ، حجمه كبير بحيث يصل على الناس وهو المهد الذى أمضى فيه عيسى طفولته ، وكلم الناس منه وهو فى المسجد مكان المحراب أما محراب مريم ففى الجانب الشرقى من هذا المسجد ، وبه محراب ثالث لذكريا عليه السلام وعلى هذين المحرابين آيات القرآن التى نزلت فى حق زكريا ومريم ويعرف هذا المسجد باسم «مهد عيسى» عليه السلام .

المسجد الأقصى :

وحين يخرج السائر من مسجد مهد عيسى متبعاً الحائط الشرقي ، يجد عندما يبلغ زاوية المسجد الكبير ، مسجداً آخر عظيماً جداً وهو أكبر مرتين من مهد عيسى ، ويسمى هذا المسجد الأخير بالمسجد الأقصى ؛ وهو الذى أسرى الله عز وجل بالمصطفى عليه السلام ليلة المعراج من مكة إليه ، ومنه صعد إلى السماء (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)^(١)

وبالمسجد الأقصى مساحة كبيرة معظمها غير مسقوف ، أما الجزء المسقوف والذى به المقصورة فيقع عند الحائطين الجنوبي والغربي وطول هذا الجزء ٤٢٠ ذراعاً وعرضه ١٥٠ ذراعاً وبه ٢٨٠ عموداً رخامياً على تيجانها طيقان من الحجارة ، وقد نقشت تيجان الأعمدة وهياكلها ، وثبتت الوصلات فيها بالرصاص فى منتهى الإحكام وبين كل عمودين ستة أذرع مغطاة بالرخام الملون الملبس بشقائق الرصاص ومقصورة المسجد الأقصى فى وسط الحائط الجنوبي ، وهى كبيرة جداً تتسع لستة عشر عموداً وعليها قبة عظيمة جدا منقوشة بالميناء ، والمقصورة مفروشة بالحصير المغربى ، وبها قناديل ومسارج معلقة بالسلاسل وبها محراب كبير منقوش بالميناء ، وعلى جانبيه

(١) الإسراء : آية : ١ .

عمودان من الرخام لونهما كالعقيق الأحمر ، وإزار المقصورة كله من الرخام الملون ، وعلى يمينه محراب معاوية وعلى يساره محراب عمر رضى الله عنه ، وسقف المسجد الأقصى مغطى بالخشب المنقوش المحلى بالزخارف ، وعلى باب المقصورة وحائطها المطل على الساحة خمسة عشر رواقاً عليها أبواب مزخرفة ، عشرة منها تفتح على الجدار البالغ طوله ٤٢٠ ذراع ، والخمسة الباقية تفتح على الجدار الثانى البالغ طوله ١٥٠ ذراع ، وقد زين باب منها غاية الزينة حتى ليظن أنه من الذهب الخالص ، ويقال إن الخليفة المأمون هو الذى أرسل هذا الباب من بغداد .

وتحت الأرض فى الحرم المسقوف حوض فى مستوى الأرض حين يغطى ، وقد بنى لتتجمع فيه مياه المطر وعلى الحائط الجنوبى باب يؤدى إلى الميضة .

وقد حفرت فى أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة تتجمع فيها مياه الأمطار ، ولاتضيع سدى وينتفع بها الناس وهذه الأحواض لا تحتاج إلى عمارة أبداً . ويقال إن سليمان عليه السلام هو الذى عمل هذه الأحواض وقد جعل القسم الأعلى منها على هيئة التتور ، وعلى رأس كل حوض غطاء من حجر حتى لا يسقط فيه شئ !

وإذا كانت مدينة بيت المقدس الواقعة على قمة جبل تتسم بأن أرضها غير مستوية فإن أرض المسجد مستوية فخارج المسجد حيثما تكون الأرض منخفضة يرتفع حائطه ، إذ يكون أساسه فى أرض واطئة ، وحيثما تكون الأرض مرتفعة يقصر الجدار ، وفى جهات المسجد المقابلة للمدينة والمحال السكنية المنحدرة شقت أبواب فى أصل جبل المسجد حيث نقتب نقباً فى الحجارة الصلدة ، وهذه الأبواب تقود إلى ساحة المسجد الخارجية ، وأحد تلك الأبواب يسمى باب النبى عليه السلام وهو يواجه القبلة الواقعة جنوب المسجد ، ويقال إن النبى سليمان عليه السلام هو الذى نقتب هذه الأبواب ، أما باب النبى محمد فقد قيل بأن محمداً عليه السلام قد دخل المسجد الأقصى ليلة المعراج من هذا الباب ، وهو على جانب الطريق إلى مكة ، وفى عرض المسجد باب شرقى يسمى (باب العين) لأنه يؤدى إلى عين سلوان ، وهناك أيضاً باب تحت الأرض يسمى (الحطة) يقال إنه هو الباب الذى أمر الله عز وجل بنى إسرائيل أن يدخلوا منه إلى

المسجد فى قوله تعالى : «وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين»^(١) وهناك باب آخر يسمونه «باب السكينة» فى دهليزه مسجد به محاريب كثيرة ، باب أولها مغلق حتى لا يدخله أحد ، ويقال إن به تابوت «السكينة» الوارد ذكره فى القرآن والذى حملته الملائكة ، كما جاء فى قوله تعالى : «وقال لهم نبينهم إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين»^(٢)

ومجموع أبواب بيت المقدس ما تحت الأرض منها وما فوق الأرض تسعة أبواب! ويوجد فى الساحة الخارجية للمسجد مقام ضخم^(٣) أقيم حيث تعذر نقل الصخرة إلى الجزء المسقوف من المسجد لعلوها ، وقد عمدوا إلى هذا البناء وعدوه بمثابة مقام يصعدون عليه لمباشرة بناء الغطاء المطلوب للصخرة ، ومساحة هذا المقام ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً فى ثلاثمائة ذراع ، وسطحه مستو ومزين بالمرمر وقد صمموا المقام بطريقة جعلته الطريق الوحيد المؤدى إلى الصخرة وإذا صعد إنسان إلى سطح المقام استطاع أن يشرف على سطح المسجد ، وفى كل زاوية من زوايا المقام الأربع قبة ، وأكبر تلك القباب هى قبة الصخرة والتى كانت قبلة للمسلمين قبل أن يؤمر النبی محمد عليه السلام بالتحول إلى الكعبة!

قبة الصخرة :

بنى المسجد الأقصى بحيث يتوسط المقام ساحته وتتوسط قبة الصخرة مقامه! والقبة بناء مئمن الأضلاع ، كل ضلع فيه ثلاثة وثلاثون ذراعاً وله أربعة أبواب ، ومحيط الصخرة مائة ذراع ، وهى غير منتظمة الشكل . وقد بنوا على جوانب الصخرة

(١) البقرة : آية : ٥٨ .

(٢) البقرة آية : ٢٤٨

(٣) ورد فى النص الفارسى لفظ (دكان) وقد ترجمها د . البدلى بمقام ضخم ، بينما ترجمها د . الخشاب بدكة تأثراً بتعبير المقدسى ، سفرنامه : ترجمة الخشاب ، ص ٦٥ - هامش : ٣ .

الأربعة دعائم مربعة بارتفاع حائط البيت ، وبين كل دعامتين على الجوانب الأربعة ، عمودان أسطوانيان من الرخام بنفس الارتفاع ، وعلى قمة تلك الدعائم وهذه الأعمدة الاثنى عشر بنوا القبة التى تحتها الصخرة التى يبلغ محيطها مائة وعشرين ذراعاً .

والصخرة فى حد ذاتها ليست جرمًا كبيراً ، ولا تزيد عن طول رجل طويل إلا بقليل ، وقد غلفت بحظيرة رخامية حتى تظل فى مأمن من أن تلمسها الأيدي ، ولون الصخرة أزرق ولم تطأها قدم بشر منذ وقت مديد ، ومع هذا فيرى فى الجانب الموازى للقبلة من الصخرة أثر قدم زعموا أن إبراهيم عليه السلام وقف على الصخرة أيام أن كانت الصخور لينة ، فانطبعت أثار قدمه الشريفة عليها .. كما يقال إن آثار أقدام إسحق وإسماعيل ولدى إبراهيم عليهم السلام هى التى فوق هذه الصخرة .

والمسجد الأقصى هو ثالث بيوت الله سبحانه وتعالى قيمة ؛ إذ المتعارف عليه عند علماء الدين أن كل صلاة فى بيت المقدس تساوى خمسة وعشرين ألف صلاة ، وكل صلاة فى مسجد الرسول محمد عليه السلام تعد بخمسين ألف صلاة ، وأن الصلاة فى الكعبة المعظمة شرفها الله ، تساوى مائة ألف صلاة .

ويعد قبة الصخرة توجد قبة السلسلة ، ويزعمون أن النبی داود عليه السلام علقها هناك ولا تصل يد مخلوق إليها أبداً ، وهى تعتمد على ثمانية أعمدة مرمريه وجوانب القبة الثلاثة مفتوحة عدا الجانب الموازى للقبلة فإنه مغلق بإحكام ولهذه القبة محراب رائع !

وترى قبة ثالثة فى جوانب هذا البناء العظيم وهو قبة جبريل ، وهى تعلو أربعة أعمدة وهى كسابقتها مفتوحة من جوانب ثلاثة ، والجانب الموازى للقبلة مغلق كذلك ، ويزعمون أن البراق الذى حمل النبی إلى السماء حضر إلى ذلك المكان حتى يمتطيه الرسول عليه السلام ، ثم تآتى قبة النبی عليه السلام ويفصل بينها وبين قبة جبريل عشرون ذراعاً ، وترتفع كذلك على أربعة أعمدة مرمرية ويقولون إن الرسول عليه السلام صلى فى قبة الصخرة ليلة المعراج ، ووضع يده الشريفة على الصخرة ، ولما هم عليه السلام بمغادرة المكان بعد فراغه من الصلاة ، قامت الصخرة من مكانها إجلالاً

لرسول الله ، فوضع الرسول يده الشريفة عليها فعادت إلى مكانها ، ولكنها ظلت إلى اليوم نصف معلقة ثم جاء الرسول إلى الصخرة التي تسمى باسمه اليوم وامتنطى البراق ، ولذلك يعظم المسلمون هذه القبة المسماة بقبة الرسول .

المراقى المؤدية إلى المقام بساحة الجامع :

هناك ستة مراق ، لكل منها اسم ؛ فبجانب القبة طريقان يُصعد فيهما على درجات ، وأحدهما على اليمين ويسمى مقام النبي عليه السلام ، والثاني على اليسار ، ويسمى مقام الغورى ، وقد سمى مقام النبي لأن النبي عليه السلام ، صعد على درجاته ليلة المعراج ودخل إلى قبة الصخرة ويقع طريق الحجاز على هذا الجانب ، وعرض درجاته اليوم أى عام ٤٣٨ هـ عشرون ذراعاً ، أما مقام الغورى فقد أعده أحد ولاة السلطان الغورى سلطان مصر فى أوائل القرن الخامس الهجرى أيضاً .

وعلى الجانب الغربى للمقام سُلَّمان ، وعلى الجانب الشرقى طريق عظيم ، وأخيراً يوجد طريق أكثر علواً وأكبر منها كلها وذلك على الجانب الشمالى ويسمى المقام الشامى .

ويختتم ناصر خسرو حديثه عن بيت المقدس بقوله :

هذا ما رأيته فى جامع المقدس ، فقد صورته وضممته إلى مذكراتى ومن النوادر التى رأيته فى بيت المقدس شجرة الجوز^(١) .

ويفهم من هذا أن ناصر خسرو إلى جانب وصفه كان يرسم رسماً توضيحياً للمكان ولكن للأسف لم تصلنا هذه الرسوم وتلك الصور التى أشار إليها . ولو وصلت لكانت الفائدة أشمل وأعم ومما لا شك فيه أن ناصر خسرو كان دقيقاً فى وصفه ، كما كان حريصاً على ذكر أبعاد كل أثر بل كان يحاول قياس هذه الأبعاد بنفسه كما صرح هو بذلك ، قبل أن يجد أن أبعاد المسجد الأقصى قد سجلت على أحد أبوابه ، فتقلها ، ولم يجد حاجة بعد ذلك للقياس بنفسه .

* * *

سفر نامه ، ترجمة د. الخشاب ص ٧٧٠ .

مشهد الخليل :

بعد أن فرغ ناصر خسرو من زيارته ووصفه لبيت المقدس توجه لزيارة قبر سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وهو فى قرية تقع جنوبى بيت المقدس بمسافة ستة فراسخ ، والمشهد على حافة القرية من ناحية الجنوب ، والمشهد يتكون من بناء ذى أربعة حوائط من الحجر المصقول ، وطوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون ، وارتفاعه عشرون ، وبه مقصورة ومحراب ، وبالمقصورة قبران رأسهما إلى القبلة ، الأيمن قبر إسحق بن إبراهيم ، والآخر قبر زوجته عليهما السلام .

وعندما يخرج السائر من المقصورة إلى وسط ساحة المشهد ، يجد مشهدين أمام القبلة ؛ الأيمن به قبر إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو مشهد كبير ومن داخله مشهد آخر لا يستطيع الطواف حوله ، ولكن له أربع نوافذ يرى منها ، والمشهد الثانى القائم على يسار القبلة قبر سارة زوج إبراهيم عليه السلام .

وبعد هذين المشهدين قبران متجاوران : الأيمن قبر النبى يعقوب عليه السلام والأيسر قبر زوجته .

وبعد ذلك تاتى أماكن الضيافة التى أعدها سيدنا إبراهيم لاستقبال ضيوفه وخارج الجدران الأربعة منحدر به قبر يوسف بن يعقوب عليهما السلام وهو من الحجر وعليه قبة جميلة .

* * *

ومن الجدير بالذكر أن ناصر خسرو قد وفد إلى بيت المقدس فى الخامس من شهر رمضان المبارك عام ٤٣٨ هـ وغادرها قاصداً مكة المكرمة فى الخامس عشر من ذى القعدة من نفس العام ، أى أنه قضى بها شهرين وعشرة أيام ، ثم عاد إليها مرة أخرى بعد قضائه مناسك الحج للمرة الأولى ولكنه لم يذكر كم مكث بها فى المرة الثانية ، ولا شك أن هذه الفترة الطويلة نسبياً والتى قضاهما ببيت المقدس (شهران وعشرة أيام) كانت كفيلة بأن يتعرف على معالم المدينة ويتعرف على سكانها ويسمع

منهم ، وكذلك يدرس تاريخها ، مما ساعده على أن يقدم وصفاً تفصيلاً دقيقاً لكل ما شاهده ، وما سمعه ، فجاء وصفه ينبض بالحياة والجدة ، ومن يقرأه اليوم يشعر وكأنه يصور بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة . كما هي عليه الآن ، سوى أنها لوثت واضطربت بسيطرة الإسرائيليين عليها ، نسأل الله أن تعود مدينة الزيتون إلى سابق عهدها عاصمة إسلامية خالصة ، عاصمة سلام ووثام لكل الأديان كما كان عهدها دائماً تحت الحكم العربي .

* * *

(٢) وصف مهد يخليخان هدايت لبيت المقدس :

وصل مهديقليخان إلى بيت المقدس يوم السابع والعشرين من ربيع الأول عام ١٣٢٢ هـ قادماً من بيروت بالقطار ، وقد بدأ وصفه لبيت المقدس ، بما ملخصه :

يقع بيت المقدس على قمة جبلية جرداء ، بها عمارات متفرقة ، وقد حضر إلى محطة القطار مجموعة من الجنود لاستقباله ورفاقه ، وكان في مقدمتهم والى المدينة وكذلك بعض رجال الدين وبعض الأعيان ، وقد توجهوا جميعاً بعد هذا الاستقبال إلى الفندق الذي يفوق فندقى بيروت ويافا ...

ويقع المسجد الأقصى فوق قمة هضبة تتكون من عدة طبقات ، وعلى الجانب الآخر يوجد ذلك المسجد المنسوب إلى عمر بن الخطاب ، ويوجد على أطراف هذه الهضبة واد. لم يعد هناك أى أثر لمسجد سليمان ، حيث كانت أعمدته قد أدخلت إلى مسجد عمر ، وجميعها من المرمر الملون ، والصخرة تتوسط المسجد حيث تحيط بها أعمدته ، والصخرة معلقة حيث يبدو ما بأسفلها خالياً ، وفى الكتابات المسمارية كانت بيت المقدس تعرف باسم (أورساليمو) وفى بعض اللغات القديمة باسم «شلم» أو «بروشا لايم» وفى اليونانية واللاتينية بام «هيروسوليم» أما العرب فقد أطلقوا عليها اسم «القدس الشريف» .

وعندما أصبحت حاضرة داود ، عمل سليمان على توسعتها وتزيينها .

وموضع مسجد عمر الآن كان قصر سليمان ، وفى الجزء الشمالى الغربى كان يوجد مسجد سليمان (المسجد الأقصى) الذى لم يعد له أى أثر باق اليوم. وفى عام ٥٨٦ ق.م استولى بخت النصر على القدس ، ولكن عندما خلص كوروش اليهود من الأسر أعاد تعمير القدس.

وفى عام ٧٠ ميلادية كانت مصائب اليهود سبباً فى أن سعى طيطوس وهادريان (من أباطرة الرومان) فى تدمير المدينة ، وفى عام ١٢٠ م طرد القائد الرومانى (الياكبيتولينا) اليهود من المدينة ، وبنى هناك معبد جوبيتر (كاپيتلينوس) ودخلت القدس تحت الحكم العربى عام ١٧ هـ وأطلق عليها اسم القدس ووقعت فترة تحت الحكم المسيحى أيام الحملات الصليبية حيث قتلوا أيامها سبعين ألف مسلم ودمروا أثار المسجد ونهبوه ، وجعلوا المسجد والصخرة زريبة للخنازير ، وظل الأمر كذلك حتى جاء صلاح الدين الأيوبى وطردهم منها .

وقد وفد عدد من الأثريين الفرنسيين والإنجليز والألمان ونقبوا فى بيت المقدس واستطاعوا أن يرسموا خريطة للمدينة القديمة ما أمكنهم ذلك .

وكانت بيت المقدس فى بداية الإسلام هى القبلة الأولى وكانت محل احترام وتبجيل المسلمين «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وأويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين»^(١) هواؤها معتدل ، وقليل ما يتساقط الثلج بها ، فواكهها كثيرة منها البرتقال والتين والموز . مياهها قليلة وهى تعتمد على مياه المطر منذ القدم ، لذا تكثر فيها الأحواض التى تخزن فيها مياه الأمطار .

مسجد عمر

الحرم الشريف (مسجد عمر) يقع فى الجنوب الشرقى من المدينة ، وهو بناء مئمن الأضلاع على مصطبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أذرع يصعد إليها بدرجات من الممر وسطح الصخرة من الممر الأزرق اللون ، وطولها ١٦٠ متر ، وعرضها بين ١٢٥

(١) سورة المؤمنون ، آية : ٥٠ .

و١٥٥ متر ، وارتفاع قبة المسجد ثلاثة أمتار وقطرها عشرون متراً ، ويعتمد سقف القبة على أعمدة مرمرية ، والصخرة كما قلنا قبة لهضبة وأسفلها خال وسمك سقفها قرابة المتر وفى أطراف الصخرة إيوان عريض ، يوجد هلى سطح الصخرة آثار قدم يقال إنها آثار قدم إبراهيم عليه السلام وهى شبيهة بما هو موجود فى مقام إبراهيم بالكعبة الشريفة .

ومنذ القدم وتحكى قصص عديدة عن القدس ، ولكل من المسلمين والنصارى واليهود حكاياتهم عن هذه المدينة ، حيث تواصل اهتمام الناس بها طوال ثلاثة آلاف عام .

وتوجد حول القبة الأصلية أربع قباب فى جهاتها الأصلية ، وهى قبة السلسلة وقبة المعراج ، وقبة الخضر وقبة النبى ، وكلها من الرخام المنقوش ، ويوجد فى جنوب الصحن سرداب بعرض عشرين مترا وطوله خمسون متراً وارتفاعه خمسة أمتار وجداره الغربى تظهر من خلاله معظم الآثار القديمة للمدينة .

وطول الساحة المقدسة ألف ذراع وعرضها سبعمائة ، ويقال إنه لما أنهى سليمان بناء المسجد ، جاء النداء أن أطلب منى شيئاً ، فطلب سليمان أن تمحى ذنوبه ، وأجيب طلبه ، لذا فإن الراغبين فى العفو عن ذنوبهم كثيراً ما يفدون إلى المسجد ، ولكن ماذا يقال فى قتلة عيسى وقد وفدوا إلى هذا المسجد ؟

وفى البداية وفد إلى الشام عمرو بن العاص ثم جاء أبو عبيده بن الجراح لإتمام الصلح ، فاشترط أن يكون الخليفة عمر حاضراً هذا الصلح ، فحضر عمر عام ١٧ هـ .

كما أن أهل الروم يفدون إلى المكان لزيارة كنيسة بيعة القيامة .

ويوجد فى الوادى بالجهة الشرقية مغادرة واسعة بها عدة درجات وبها ساحة دائرية شبيهة بمغارة تحت صخرة ، وسقفها منخفض وقد نحت فى جانبها الشرقى طاق ، وبها قبر يعرف باسم قبر مريم .

جبل الزيتون :

وفى متن الوادى عدة حجرات حجرية وقبور العظماء، ومن المعروف أن هذه الأماكن كانت فى الأزمنة السالفة غاصة بأشجار الزيتون لذا أطلق على هذا الجبل «جبل الزيتون» .

ويوجد أعلى جبل الزيتون خانقاه يقال إنها كانت موضع عروج الرسول ، وعن المعراج حدث كلام كثير فمن قائل بأنه كان بالجسد ومن قائل بأنه كان بالروح .

وما أكثر الكنائس والمعابد والأديرة ببيت المقدس ، سواء وسط المدينة أو على جانبى الشارع المعروف باسم «ويادلورزا» (معبد الآلام والأحزان) وقد اشترت من أحد المحلات بمدخل الفندق سبحة مصقولة من الحجر الأزرق الطيب الرائحة ، وكذلك عدة سبوح من الصدف ، والتى زينت بالورد والرسوم الجيدة .

* * *

بعد أن أنهى مهد يقليخان حديثه عن بيت المقدس ووصفه لجبل الزيتون توجه إلى بيت لحم وغيرها من مدن فلسطين والشام ، مما يخرج عن مجال حديثنا . ونلاحظ إن مهديقليخان قد اهتم بذكر الإشارات التاريخية السريعة كذكره لأسماء بيت المقدس عبر عصور مختلة ، وكذلك لمحات عن تاريخ المدينة وتعرضها لغزوات بخت نصر والحملات الصليبية، وما لحق بها من دمار خلال هذه الهجمات وغيرها، وما أصاب سكانها من العرب من عنت وشدة نتيجة لحملات المعتدين على المدينة، هذه الحملات التى مازالت تتعرض لها القدس العربية على يد المعتدين الإسرائيليين، ولكن الله كان حامياها فى كل ما مضى، وإن شاء الله سيحميها الآن من المعتدين الجدد، وتعود القدس إسلامية عربية مرة أخرى، وتعود عاصمة لفلسطين المحررة.

أما وصفه للمدينة فلا يقارن على الإطلاق بما أورده ناصر خسرو فى رحلته، وإذا كان ناصر خسرو قد قدم وصفاً تفصيلياً لكل ما شاهده وما سجله، فإن مهدي

قليخان قد تحدث عن بعض الخواطر وبعض الإشارات التي ربما سمعها من سكان المدينة، أو كان قد قرأ عنها في كتب التاريخ قبل مقدمه إلى بيت المقدس؛ لذا جاءت أحاديثة هامشية متفرقة لا عمق فيها، وكما قلت في تعليق عن رحلته إلى مكة والمدينة بأنها كانت رحلة ترفيهية أكثر منها دينية، فقد كانت رحلته إلى بيت المقدس ترفيهية كذلك، ليس الغرض منها تقديم صورة حقيقة للمكان أو للزمان بقدر ذكر بعض الانطباعات السريعة والأخبار غير الموثقة.

* * *

وهكذا يظل كتاب (سفرنامه) لناصر خسرو الكتاب الأول من كتب الرحالة الإيرانيين الذين سجلوا انطباعاتهم ومشاهداتهم بالأمكن الدينية المقدسة الأولى في العالم الإسلامي ألا وهي الحرم المكي، ومسجد الرسول الكريم بالمدينة والمسجد الأقصى ببيت المقدس حفظها الله جميعاً وطهر المسجد الأقصى من كل دنس وحرره من المعتدين على قدسيته في كل عصر، سواء كانوا من الصليبيين أو من الإسرائيليين!.

الفصل الثامن
من الأدب الفارسي الحديث

من الأدب الفارسي الحديث

١- الحمد والثناء :

اتسم الأدب الفارسي الحديث بالتنوع والسعة، فقد دخلت إلى مضمار الأدب الحديث فنون جديدة كالقصة القصيرة والرواية والمسرحية والمقال إلى جانب الفنون الأدبية التي كانت متداولة عبر عصور الأدب السابقة من مثنويات وقصائد وترجيعات في مجال الشعر، وحكايات وتقارير وأدب رحلات وغيرها من فنون النشر، ولكن يلاحظ على الأدب الحديث الميل إلى الاختصار والدخول مباشرة في الموضوع دون الإسهاب في المقدمات التقليدية التي كانت تدبج بها صفحات عديدة في مطلع كل عمل أدبي نثرًا كان أم شعرًا، وخاصة أن هذه المقدمات كانت تشمل غالبًا الحمد والثناء لله عز وجل، ثم نعت الرسول الكريم محمد عليه السلام، وبعدها يأتي مدح الخلفاء الراشدين وبيان فضلهم وعظيم مكانتهم في الإسلام ولدى المسلمين.

وقد جاء الأدب الحديث خاليًا من هذه المقدمات المطولة، وجاءت الأعمال الأدبية مباشرة في تناولها لأي موضوع، لذا فإن مشاركة جميع الأدباء في النظم أو الكتابة في الحمد والثناء والنعت قد قلت بشكل واضح ولملموس، ومع هذا فلم يخل الإنتاج الأدبي الحديث في صلب المتن من حمد لله عز وجل وثناء وشكر على عظيم نعمائه، وقد جنحت هذه الإبداعات إلى ربط الثناء والشكر لله عز وجل بما يدور في العصر الحديث من أحداث ومشكلات، واتسمت هذه الإبداعات بروح المعاصرة، ولم تجعلها تكرارًا لما كان موجودًا ومألوفًا عبر قرون سابقة عديدة، ومن هذه الإبداعات الجديدة

مانظمته الشاعرة مهكامه محمص^(١) من حمد لله عز وجل وثناء على جميل نعمائه ثم ربطت هذا بما يحدث فى العالم من حروب ودمار وخراب، وقد خربت ذمم الآدميين وتناسوا أنهم أبناء آدم جميعاً، وأن المودة فى القربى يجب أن تسود علاقات هؤلاء الأبناء جميعاً، ولكن الأمانى شئ وما يحدث فى الحياة من واقع مؤلم وعراك وخصام وحروب عالمية نشرت الخراب والدمار والقتل والتشريد، كل هذا شئ آخر، جعل البشرية تفقد الهدف الأسمى من وجودها وهو عبادة الله وحده، وتعمير الكون لتدميره، وقد جاءت قصيدة مهكامه محمص فى واحد وأربعين بيتاً، أكتفى بذكر نصف هذا العدد تقريباً:

قصيدة فى مدح الله خالق الدنيا، والشكوى من الزمان

- لقد خلق صاحب الذات الإلهية البشر سواسية،

إذ هو مشيد قصر المساواة وبنية العدل.

- الخلق سواسية فى مصنع خلقه،

فقد خلق البشر جميعاً من جوهر واحد، سواء فى ذلك العالى أو الدانى.

- لا يمكن أن يلحق نقص أو عيب بصنع هذا الصانع،

(١) مهكامه (محمص) الكاتبة والمتحدثة والشاعرة الجيدة التى قضت معظم سنى عمرها فى تعليم النشء وإلقاء المحاضرات وتكوين المجامع الأدبية، وهى من أهالى جيلان، وكان والدها مالكا لأحد المعاهد العلمية بجيلان وكانت أمها كاتبة مجيدة ورسامة متميزة. وقد ولدت مهكامه عام ١٢٩١ ش (١٣٣٠ هـ = ١٩١٢م) وقد شاركت فى الحركة النسائية فى إيران عام ١٣١٤ ش (١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ م) بعدة مقالات تدعو فيها إلى ضرورة حق المرأة الإيرانية فى التعليم وقد تزوجت من ابن عمها وأنجبت منه أربعة أبناء. وقد نظمت مهكامه فى حدود خمسة آلاف بيت تتسم بالركة والجزالة وحسن التعبير والتحديث فى الأغراض والفنون، انظر : مشير سليمى: زنان سخنور ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٥، طهران، چاپ دوم.

كما لا يمكن أن تكون هناك ريبة أو شك في أمر الحق سبحانه .

- كل الوجود في العالم آيات لعظمته وسبحانه ،

فإن تبغ إثبات وجوده ، فابحث في آيات قرآنه .

٥ - كل الكواكب تستمد ضياءها من نور كوكب الحق ،

كما أن الشمس تستمد نورها من بريق شمسه .

- وكل عين وضاءة ، نفحة من طلعة مجلسه المنير ،

وكل ذرة نورانية ، هبة من شمس عالمه المزدان .

- إنني لا أنظم طوال عمري مدحاً في حق أى شخص ،

إذ لا أمدح غير العادل سبحانه ، وألهج بالثناء عليه .

- من يعرف كنه نفسه ، يعرف كنه خالقه ،

إذ الإنسان نفسه أعظم آثار خلقه .

- يتكون المجتمع من التآلف بين أفراده ،

كما يتكون البحر العماني من اتحاد قطراته .

١٠ - لقد شيد الخالق منذ الأزل بناء الوحدة الإنسانية ،

منذ أن خلق الرحمن جل جلاله ، جميع الآدميين من طينة واحدة .

- وما أجمل ما قاله سعدى ملك الكلام في هذا المضمار :

" إن جميع بنى البشر أعضاء جسد واحد " .

- فإذا كان البشر جميعاً أعضاء جسد واحد،
- فإن يتألم عضو، فسرعان ما يتألم الجسد كله ويضطرب.
- إذن، فلماذا يثير الإنسان هكذا الحروب والضغائن؟
- ولماذا يفضل طريق الحياة والسعادة، مما به من جهل؟
- لنبحث عن حل لجميع المشكلات بالتعاون والتآخي،
- فبالتعاون والتآخي لن تكون هناك مشكلات، وسيسهل الحل!
- ١٥- بدلاً من إضاعة الوقت في الحديث عن الوداد والمحبة،
- ليكن الحديث دوماً عن العلم والفضل والمعرفة والخرفة.
- ولكن ما أكثر الحديث الآن عن المدفع والدبابة والقنبلة والطائرة،
- وعن السفينة والغواصة والمعدات الجهنمية.
- أيها البشر! لقد امتزج وجودكم الآن بالشر،
- وإلا، فلماذا تثار هذه الحروب العالمية؟
- لقد خربت آلاف المدن، وعم الهلع والفرع أرجاء العالم،
- حيث أصبح ملايين البشر قرابين لهذه الحروب.
- اجتهد - أيها الإنسان - في أن يعم الصلح والصفاء،
- إن كنت تأمل ألا يحيق الدمار والخراب من الحروب مرة أخرى،
- ٢٠- ولتفعل المعروف دائماً، وكن خيراً مع جميع الخلق.

إذ المصلح اسمه باق دائماً، وماعداه فان .

-- وأنت أيتها المرأة، لتتزيني بجواهر منجم الفضل،

فهذه الجواهر أكثر ضياءً من جواهر أى منجم آخر! (۱)

(۱) مشیر سلیمی: زنان سخنور، ج ۲ ص ۲۷۵ - ۲۷۸، والأصل الفارسی لهذه الابيات كما يلي:

چکامه دودر ستایش یزدان و آفرینش جان و نکوهش زمان

بیگمان آدمی آفریده ذات ربانی	شده کاخ مساوات و بنای عدل را بانی
بود درکارگاه آفرینش آدمی یکسان	بود آری زیك کوهر بشراز عالی ودانی
نه نقص و عیب میباشد بصنع صانع بیچون	نه شك و ریب میباشد به امر حق سبحانی
همه آیات سبحان آند موجودات این عالم	تو اثبات وجود او بجو ز آیات قرآنی
۵- کواکب از فروغ کوکب حق است رخشنده	که مهر از پرتو مهرش نماید نور افشانی
ز چهر مجلس آرایش بود هر دیده بی روشن	ز مبهر عالم آرایش بود هر ذره نورانی
بعمر خو یشتن مدح و ثنا از کس نمیگویم	مگر دادار سبحان را کنم مدح و ثنا خوانی
شنا سدار کسی خود را، خدای خویش بشناسد	که انسان است خود از بهترین آثار یزدانی
برآید جامعه را افراد و از همدستی آدم	چنان يك گل سرشته آدمیرا رب رحمانی
۱۰- بنای وحدت انسان بنا کرد از ازل یزدان	جواز يك گل سرشته آدمیرا رب رحمانی
بدین معنی چه خوش گوید خداوند سخن سعدی	بودند اعضای يك پیکر همه اینای انسانی
بشر اعضای هم تن با شدندوگر عضوی بدرد آید	سراسر کشور تن رونهد سوی پریشانی
چرا اکنون همین انسان بدینسان جنگ و کین جوید	چرا گم کرده راه زندگانی را ز نادانی
تو حل مشکلات زندگی را جو ز یکرنگی	که هر مشکل بیگرنگی نگردد حل بآسانی
۱۵- بجای آنکه صحبت از و داد آرند پیوسته	کنند از علم و فضل و دانش و صنعت سخنرانی =

ومن الذين تحدثوا عن لطف الحق تعالى مع عباده، الشاعرة پروین اعتصامی^(۱)، حيث أشارت إلى قصة إلقاء موسى عليه السلام في النيل حتى لا يأخذه زبانية فرعون كي يقتلوه، وكيف كانت أمه ملتاعة خائفة على موسى، ولكن عناية الله به كانت أكبر من رعاية أمه له، وقد طمأنها الله عز وجل على وليدها، وأنه سيرده إليها كي ترعاه وتشرف على تربيته حتى يصل إلى مرحلة النضج والاعتماد على النفس، وقد حقق الله عز وجل، وعده، وعاد يوسف إلى أمه، وهكذا تحقق قول الله عز وجل في محكم تنزيله ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^(۲). وقد جاء هذا المثنوى في ثلاثة وستين بيتاً، نكتفي بذكر ترجمة لبعض أبياته:

بود صحبت همه از توپ و تانک و بمب و طیاره	ز کشتی و ز نمت البحری و آلات شیطانی
وجودت ای بشر گویابه شر آمیخته اکنون	و گر نه از چه رو برخاسته این جنگ کیهانی
هزاران شهر ویران گشت و دنیا گشت آشفته	که میلیونها بشر گشته است در این جنگ قربانی
در صلح و صفا میکوب آبادی اگر خواهی	که از جنگ و ستیز آخر نیا بد غیر ویرانی
۲۰- همیشه نیک باش و باعموم خلق نیکی کن	که نام نیک مانند باقی، و باقی همه فانی
ز کان فضل ایزن گوهر دانش بدست آر	که باشد گوهرش رخشنده تر از گوهر کانی

(۱) پروین اعتصامی. ابنة يوسف اعتصام الملك ولدت في تبريز عام ۱۲۸۵ ش (۱۳۲۴ هـ = ۱۹۰۶م). ثم انتقلت في صغرها للعيش في طهران مع أبيها، وبها قضت بقية عمرها. وقد التحقت بالمدرسة الأمريكية بطهران وبعد التخرج عملت معلمة بذات المدرسة، وكانت تجيد الإنجليزية والعربية إلى جانب الفارسية، وقد تزوجت من ابن عمها في عام ۱۳۱۲ ش (۱۳۵۲ هـ = ۱۹۳۴م) ولكن لم يستمر هذا الزواج كثيراً. وقد خلفت لنا ديواناً يضم قصائد ومثنويات وقطعاً ومقطعات وترجيعات. وقد غادرت الحياة وهي في ريعان الشباب، وكان ذلك في ۱۵ فروردین ۱۳۲۰ هـ ش (۳۶۰ = ۱۹۴۱م) انظر: بديع محمد جمعة: پروین اعتصامی: صوت المرأة الشرقية في إيران، القاهرة: ۱۹۷۷.

(۲) سورة الشوری، آية رقم ۱۹.

- عندما أَلقت أم موسى، بموسى فى النيل، وذلك تلبية لأمر ربها الجليل،
- أخذت ترقبه من الساحل وكلها حسرة، وقالت : يا ولدى الصغير الذى لم
يرتكب أى ذنب .

- إن ينسك لطف الله، فكيف تنجو من هذه السفينة العديمة الريان ؟

- وإن لا يتذكرك الله الطاهر، فسيسلم الماء ترابك إلى الريح !

٥- فجاءها الروحى قائلاً: أى تفكير باطل هذا؟ إن السالك فى طريقنا يكون
فى مأمن دائماً .

-- فاطر حى عنك أودية الشك، حتى تدركى أخيراً فعلت أم خطأ !

- لقد تلقفنا ما أَلقيت به، وقد رأيت يد الحق ولكنك لم تعرفيها،

- إن كان ما لديك عشق الأم ومحبتها فقط، فلدينا العدل ورعاية عبيدنا،

- وليس اللعب هو أمر الحق، فلا تضيعى نفسك، إن ما أخذناه منك سنعيده
إليك !

١٠- إن سطح الماء أفضل من مخدعه، حيث سيكون السيل مربيته والموج أمه

- فلا تنسبى النسيان إلى ذات الحق، إذ هذا ضرب من الكفر، فألقه عن
كتفك ؟

- فلتدعى لنا من ترقبينه، إذ متى كنت تحببينه أكثر منا؟^(١)

(١) پروين اعتصامى: الديوان، الطبعة الخامسة تهران ١٣٤١ ش ص ٢٣٦، ٢٣٨.

= مادر موسى، چو موس رابه نیل در فکند، از گشتنه، رب جلیل

ثم أخذت پروین تتحدث عن لطف الله عز وجل مع الرضيع موسى وكيف سخر البحر والصخر والرياح وكل الموجودات كي تكون في خدمته، وأن ترعاه حتى يرده الله سالماً إلى أمه كي تقر عينها، وتدرك أن وعد الله حق، وأن لطفه بعباده يفوق لطفهم ببعض، ومما قالته پروین فی هذا الصدد: نذكر ترجمة لبعض أبياتها الواردة في نفس المتنوية لطف حق: ^(۱)

<p>گفت کای فرزند خرد بی گناه چون رهی زین کشتی بی نا خدای آب، خاکت را دهد ناگه بیاد رهر و ما اینک اندر منزل است تا ببینی سود کردی یا زیان دست حق را دیدی و نشناختی شیوه ما، عدل و بنده پروری است آنچه بردیم از نو، باز آیم باز دایه اش سبلا و موجش مادر است بار کفر است این، بدوش خود منه کی تو از ما دوستر میداریش</p>	<p>= خود ز ساحل کرد با حسرت نگاه گرفرا مرشت کند لطف خدای گر نیارد ایزد پاکت بیاد ۵- وحی آمد کاین چه فکر باطل است پردهء شک را برانداز از میان ما گرفتیم آنچه را انداختی در تو، تنها عشق و مهر مادری است نیست بازی کار حق، خود را مباز ۱۰- سطح آب از گاهوارش خوشتر است نسبت نیان بذات حق مده به که برگردی، بما بسپاریش</p>
--	--

(۱) نقص المرجع السابق، ص ۲۲۷، ۲۲۸.

<p>این بنای شقوق را؛ ویران مکن قطره را گفتم، بدان جانب مریز گشرد از دریا، کذا در کنار برق را گفتم، که آب گرم شو =</p>	<p>بحر را گفتم دگر طوفان مکن صخره را گفتم، مکن با او ستیز امر دادم باد را، کان شیر خوار سنگ را گفتم بزیزش نرم شو</p>
---	--

- قلت للبحر، لا تثر طوفانك مرة أخرى، ولا تدمر بناء الشوق هذا.
- وقلت للصخرة، لا تتعاركى معه، وقلت لقطرات المطر، لا تتساقطى بجانبه.
- وأمرت الرياح بأن تحمل هذا الرضيع من وسط المياه وأن تلقى به إلى الشاطئ.
- وقلت للصخر. لتكن لنا ناعماً تحته، وقلت للثلج، لتكن ماءً دافئاً معه!
- هـ - وقلت للصبح، لتبتسم فى وجهه، وقلت للضوء، لتشع الحياة فى قلبه.
- وقلت للنرجسة لتفتحى إلى جواره، وقلت لقطرات الندى، لتغسلى محياه.
- وقلت للذئب، لا تغرق جسده، وقلت للمص، لا تسرق أسورته.
- وقلت للحظ، لتمنحه السيادة والعظمة، وقلت للعقل لتمنحه الفطنة والذكاء.
- فمن يفعل هذا الإحساس مع النمروذ، كيف يمكن أن يرتكب الظلم مع موسى بن عمران؟
- ١٠ - إن هذا الكلام يا پروين، ليس ضرباً من الهوى، فحيثما يوجد نور فهو من أنوار الله!

نور را گفتم، دلش را زنده کن
 ژاله را گفتم، که رخسارش بشوی
 دزد را گفتم گلو بندش مبر
 هوش را گفتم، که هشیاریش ده
 ظلم، کی باموسی عمران کند
 هر کجا نوری است، ز انوار خداست

= هـ - صبح را گفتم، برویش خنده کن
 لا له را گفتم که نزدیکش بروی
 کرگ را گفتم، تن خودش مدر
 بخت را گفتم، جها نداریش ده
 آنکه با نمروذ این احسان کند
 ١٠ - آیین سخن، پروین، نه از روی هوی است

هكذا تحدثت پروين عن لطف الله بعباده، وأن كل ما يصيب الإنسان مقدر من الله عز وجل، ولا يمكن لأى مخلوق أن يأتى بأى تصرف أو فعل إلا بإرادة الله عز وجل، وإذا كانت الشاعرة قد أشارت إلى حادثة عظيمة هى إلقاء يوسف فى النيل وكيف تلقفته عناية الله حتى أوصلته إلى بر الأمان، وأعادته ثانية إلى أمه، فإن المقصود من المثنوى هو أن عناية الله ترعى عباده على الدوام ماداموا مؤمنين بالله سبحانه وتعالى، بل إن عنايته ورعايته تشمل الجميع، العابد منهم والعربيد، لعل هذا الأخير يفيق إلى نفسه، ويكبح جماح شهواته، ويعود إلى جادة الإيمان المطلق بالله صاحب القدرة والتقدير، وأن يدرك هذا المتكبر المتجبر أن قدرة الله تفوق قدرته وجبروته، فيعود إلى حظيرة الإيمان أملاً فى أن يتقبل خالقه صالح أعماله، ويصفح عن سابق أفعاله السيئة، فهو اللطيف بعباده، القابل للتوب، الغافر الذنب، سبحانه وتعالى الذى لاتحد قدرته حدود، ولاتقف أمام أوامره أية حواجز أو قيود!

* * *

ومن الذين ابتهلوا إلى الله عز وجل فى أشعارهم، وسألوه الصفح والغفران حيث لا ملاذ للإنسان إلا باللجوء إلى خالقه، صاحب القدرة المطلقة والهمة اللانهاية، وأن الجميع مقرون بربوبيته، وأنهم جميعاً عبيد لله عز وجل. إنها السيدة حشمت درويش^(١) "الشاعرة المعاصرة"، ومن بين ما نظمته فى هذا المضمار غزلية بعنوان "خدا" أى "الله"، ومما قالته فى هذه الغزلية ما ترجمته:

(١) السيدة "حشمت درويش" المتخلصة بأحد هذين الاسمين ولدت عام ١٣٠١ ش (١٣٤٠ هـ = ١٩٣٢ م) فى سنتدج، ولكنها من أهالى مازندران، كان والدها فضل الله درويش من الذين أنهوا دراساتهم فى مدرسة سان لويس بطهران، وعمل كرئيس للحسابات ونائب لمدير البنك الوطنى فى إيران، وقد سافرت حشمت إلى معظم مناطق إيران وكذلك إلى العراق بصحبة والدها نتيجة تنقلاته فى العمل، ومع أنها مازندرانية الأصل؛ إلا أن ولادتها كانت فى سنتدج أثناء عمل والدها بهذه المدينة. وقد أكملت تعليمها بطهران بمدرسة الفنون النسائية وإلى جانب ذلك أجادت الفرنسية وبعض الإنجليزية، وقد نظمت عدة آلاف من الأبيات فى أغراض عدة. وإلى جانب تميزها فى الشعر فقد كانت لها بعض الأعمال الفنية وفقاً لدراستها الفنية فى المدرسة الثانوية. انظر: [زنان سخور، ج ٢ ص ١١٥-١١٧].

الله

- إن صدرى بلاط حشمتك ، وقلبي محرم لزيارتك .
- وكل من يلهث في إثر مقصوده ، سيجد حاجته عند الإقرار بالعبودية لك .
- ومن يضل طريقه في ظلمه الليل ، ستكون شمس طلعتك دليلاً له وهادياً .
- كم أتأوه أماً في عونك ، وأعظم أمل أرجوه ، رحمتك !
- ٥- كل الخلائق من جماد ونبات وحيوان تتطلع جميعها دائماً إلى ألفتك ومودتك .
- فالعربيد والعابد والعالم والجاهل ، تتعلق عيونهم جميعاً بأعتاب عنايتك .
- وقصر الفردوس وبلاط الجلال ، كلها شاهدة على قدرتك .
- وكنز قارون وعظمة بلقيس ، كلها ذرة من مقدار همتك .
- أنت منبع الجود والعطاء والسخاء ، لمن هم جميعاً عبيد حضرتك .
- ١٠- أما قلب "درويش" الضعيف المستكين ، كم يسعد بالتجوال في مضممار روضتك^(١) .

* * *

(١) زنان سخنور، ج ٣ ص : ١١٧- ١١٨ .

خدا

= سینه ام بارگاه حشمت تست دل حرمـانه زيارت تست

وهكذا كان شعراء الفارسية وشويعراتها في العصر الحديث يتابعون سابقهم في نظم القصائد والقطع والغزليات وغيرها من فنون الشعر، في الابتهاال إلى الله عز وجل، وتقديم الشكر على جزيل نعمائه وعظيم كرمه، وكانت أشعارهم هذه تنظم لذاتها، وليست كمقدمات لمنظومات تتحدث عن أغراض أخرى غير الابتهاال والشكر، كما كان في الماضي، مما يؤكد عمق الصلة بين الأدباء والشعراء الفرس وخالفهم مهما تعاقبت السنون وتبدلت الأجيال، إذ أن الدين الإسلامي يربى معتنقيه على الإيمان والتعلق بالذات الإلهية واللجوء إلى الخالق البارئ المصور كي يعينهم - وهم عبيده - في شتى شئون الحياة، وبخاصة في الملهمات.

حاجتش بندگی حضرت تست	آنکه وامانده در پی مقصود
رهروانش ز شمع طلعت تست	وآنکه درشام تیره گم شده راه
ای توانگر امید رحمت تست	کم کم ناله ام شود فریاد
حیوان را نظر بالفت تست	۵- از کران تا کران جماد و نبات
چشم بر درگه عنایت تست	رند و صوفی و عالم و عامی
اینهمه شاهدی زرت تست	قصر فردوس بارگاه جلال
ذره بی از حساب همت تست	گنج قارون و شوکت بلقیس
خاصه از بوستان نزهت تست	منبع جود و مکننت و بخشش
خرم از بوستان نزهت تست	دل (درویش) مستمند ضعیف

٢- نعت الرسول :

وإذا كان نعت الرسول الكريم قد ورد كقاسم مشترك في معظم المثنويات الفارسية التي نظمت في إيران منذ العصر الغزنوي حتى العصر التيموري وما بعده، فإن هذا النعت قد وجد أيضاً في أشعار وأقوال الشعراء والأدباء في العصر الحديث، وإن كان أقل بكثير مما كان عليه الأمر قبل ذلك. ولكن مهما قل أو كثر، فهو موجود وبخاصة ما كانوا ينظمونه أو يكتبونه في مناسبة الاحتفال بمولد الرسول الكريم عليه السلام، وممن نظموا في هذه المناسبة الكريمة الشاعر محمد تقى بهار^(١)، حيث نظم مسمطاً في ذكرى مولد الرسول عليه السلام عام ١٢٠٨ هـ، س (١٢٤٦ ق)، ومما قاله مترجمته:

المولد النبوي

- في هذا اليوم وضع رب الوجود على مفرق (الرسول) تاج لولاك !
- في هذا اليوم سمعت أذن خاتم الأنبياء، "لولاك ما خلقت الأفلاك".
- في هذا اليوم أشرقت شمس الأزل، فأضاءت البسيطة كلها.

في هذا اليوم، بمقدم هذا المعظم

شيدت أركان الوجود

- في هذا اليوم أسبغ الله على الدنيا لطفاً، لم يسبغه عليها من قبل.

(١) محمد تقى بهار (١٨٨٧ - ١٩٥٢ م) آخر من تلقب في إيران بملك الشعراء، ولد بمشهد وورث من أبيه منصب شاعر العتبات بمشهد، ولكنه هجر الوظيفة بعد أن اشتعلت نار المطالبة بالحياة الدستورية في إيران، فانضم إلى الثوار، وكان من نواب المعارضة في البرلمان الإيراني بعد ذلك، حتى أنه دبر محاولة لاغتياله في المجلس، ولكنه نجا منها. وقد تقلد عدة مناصب بجامعة طهران ثم وزيراً للمعارف. وقد خلف العديد من المؤلفات أهمها سبك شناسي وتاريخ مختصر أحزاب سياسى إلى جانب ديوان كبير يقع في مجلدين ضخمين (انظر لغت نامه - شعراء معاصر إيران رخلخالي. كنج سخن وغيرها).

- والنور الذى كانت مشيئته تخفيه، قد بدا اليوم واضحاً جلياً .
- إذ بُعث معلم الوجود، مزوداً بآلاف المعجزات .
- إنه نبي آخر الزمان خاتم الأنبياء
- ذلك النور القديم الذى لا حد له
- يا من حكمتك معلمة للكون، ويا من استمدت جميع الكائنات وجودها من وجودك .
- يا من أصبحت عوناً لتربية الزمان، ويا من أصبحت سنداً لخلقة الدهر .
- بدونك تلون الحق عدة ألوان، ولكن بشرعك تبدد كل هذا الأمر .
- يا من ظلك وحديثك ممتدان عبر الزمان
- إن أمتك قد أصابتها الذلة والهوان
- لقد سلب أعداء الدين ما كان للمسجد من حرمة ومكانة .
- وكسوا وجوه دار العبادة بالأتربة والأشواك .
- ولم يعد لنا غير السفسطة، حيث أحلوا الأوهام والخرافات محل المعرفة والإدراك .
- وأصبح إبليس هادينا ومرشدنا
- وأصبحنا بقيده مكبلين^(١) :

(١) ديوان بهار، ج ١، ص ٥٠٣، ٥٠٤ =

وہكذا ربط بہار بین الاحتفال بالمولد الکریم، وکیف کان مولده نعمة وخیراً علی
 الأمة الإسلامية وعلی العالم أجمع، وبین رجال العالم الإسلامي قبل الحرب العالمية
 الثانية، وما تعانیه من ضعف وخور وانکسار لکثرة الأعداء فی الداخل والخارج، وکیف
 أن العالم الإسلامي وبخاصة ایران قد انحرفوا عن الطريق السوی الذی بعث من أجله

مولودیه

امروز خدا یگان عالم برفرق نہاد تاج لولاک
 امروز شنید گوش خاتم لولاک لما خلقت الأفلاک
 امروز ز شُرق، اسم اعظم مہر ازلی بتافت برخاک

امروز ازین خجسته مقدم

ارکان وجود شد مشید

امروز خدای یا جہان کرد لطفی کہ نہ کردہ بود ہر کسز
 نوری کہ مشیتش نہاد کرد امروز پدید گشت و بارز
 آورد و مربی جہان کرد یکتا را با ہزار معجز

پیغمبر آخر الزمان کرد

نوری کہ قدیم بود و بجد

ای حکمت تو مربی کون وی از تو وجود ہر چہ کائن
 ای تربیت زمانہ را عون وی خلقت دہر را معان
 بیروی تو کشتہ حق بصد لون با شرع تو گشتہ دین مباینس

بر ملت تو است ذلت و ہون

ای ظل تو بر زمانہ متمد

حرمت زمزار و مسجد ما بردند معاندین دین، پاک
 پوشیدہ رخ معابد ما از غفلت و جہل، خاک و خاشاک
 جز سفسطہ نیست عاید ما کاوہام گرفتہ جای ادراک

ابلیس شدہ است ہا دی ما

ما گشتہ بقید او مقید

محمد عليه السلام، وأمام هذا التقاعس أصبح إبليس صاحب السيادة وصاحب الكلمة، فيا ليت المسلمين يتذكرون قول الله عز وجل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١)، فأين نحن الآن من الرعيل الأول من الصحابة والتابعين؟! أولئك هم الذين عملوا بما أرسل محمد عليه السلام، فكانوا سادة العالم وحكامه.

ومن القصائد الجديدة التي نظمت في نعت الرسول عليه السلام، قصيدة الشاعر أيرج ميرزا،^(٢) والتي اعتبر فيها أن حب الرسول عليه السلام خير زاد للإنسان في رحلته إلى العالم الآخر، وهذه ترجمة لبعض أبياتها:

في نعت النبي الخاتم

- ليس عاقلاً من يجعل عمره القصير متعلقاً بطول الأمل في هذه الفانية.
- وأن يطوق عنق روجه بحبل من طول الأمل، إذ سيمتد هذا الحبل حتى يوم القيامة!
- فلتبحث عن الخلاص من هذا الحبل قبل فوات الأوان، واطلب الخلاص من ربقته.
- أجمل بمن حرر روجه من ربقة هذا الحبل، وقد آمن بتقدير ذى الجلال.

(١) آل عمران، آية ١١٠.

(٢) أيرج ميرزا (١٨٧٤-١٩٢٦م) أحد أبناء الأسرة القاجارية الحاكمة في ذلك الوقت، أتاحت له ظروفه الاجتماعية أن يتعلم اللغات الأجنبية وبخاصة اللغة الفرنسية، وقد تقلد بعض المناصب المالية في الدولة ولكنه أثر الاعتزال في نهاية حياته، وتحول بيته إلى صالون أدبي، إلى جانب ديوانه الشعري نظم قصة زهرة ومنوچهر على غرار فينوس وألونيس لشكسبير، كما نظم عارف نام، حيث هاجم فيها الشاعر عارف القزويني لتطاوله على الأسرة القاجارية، ويعتبر شعره من أرق ما نظم في النصف الأول من القرن العشرين في الأدب الفارسي.

(راجع مقدمة الديوان، والتي كتبها محمد جعفر محجوب، الطبعة الثالثة عام ١٣٥٣ ش).

٥ - وخلص نفسه من منة الوضيع أو الشريف ، وأنقذ روحه من الخجل من الكريم أو البخيل .

- فكُن كالخليل متوكلاً على ذى الجلال ، حتى تحرر روحك كالخليل من نار الغم .

- إن يكن الحق نصيرك ، فنعم النصير ! وإن يكن الحق وكيل أمرك ، فنعم الوكيل .

- لا تكن رهيناً لأى شخص طلباً للرزق ، فهو - أى الله - المتكفل برزق الجميع .

- فهو كما وهبك الروح ، سيهبك الرزق ، فلماذا تذل روحك الغالية من أجل فان ؟

١٠ - أننى يكون لك جمال الصورة فى الغد ، إذا لم تكن جميلة سيرتك اليوم !

- أنت لا محالة مسافر ، ولا بد لك من زاد ، فالزاد ضرورة لكل إنسان وقت الرحيل .

- ولكن أى زاد أفضل من حب الرسول ، لأن الولاء له خير دليل يقدمه الخلق للعزيز القدير .

- ليس له ظل ولكن رحمته وعطفه ، ظل ظليل على رءوس الضعفاء والمساكين .

- وقد ورد نعته كاملاً فى الفرقان ، كما جاء تمام وصفه فى الإنجيل .

۱۵ - وتدلّت من قصر عظمتہ تسعة أفلاك، كما تدلّت القنادیل من قصور

الأكاسرة^(۱)

- وفيما يتسم به من خلق طيب وصفات جميلة وخلقة بديعة؛ لم يخلق الله
شبيهاً له ولا عديلاً!

* * *

(۱) الديوان، ص ۳۵، ۳۶.

در نعت نبی خاتم

قصیر عمر خود اندر امیدهای طویل
که تا قیامت آن رشته را بود تطویل
خلاص خواهی ازین عقده لاعلیک سبیل
نهاد بر کف تقدیر کرد گار جلیل
نهاد داد هم از خجلت کریم وبخیل
که تا رهاند از آتش غمت چو خلیل
وکیل کار تو چون حق بود فنعم وکیل
چو او به روزی هر ناکس و کس است وکیل
ز بهر فای جان عزیز خوار و ذلیل
اگر نباشد امروز سیرت تو جمیل
که زاد باید مر مرد را به گاه رحیل
که خلق راسوی ایزد ولایی اوست دلیل
فتادگان رابر سر فکنده ظل ظلیل
بود تمامی وصفش هر آنچه در انجیل
معلق است چو از کاخ خسروان قندیل
نیا فریدش ایزد همال و شبه و عدیل

نه عاقل است گه دارد در این سرای رحیل
نهد به گردن جان رشته بی ز طول أمل
مناص جو بی از این رشته لات حین مناص
خوش آن که بگست این رشتهء امید ز جان
۵- رهاند خود را ز منت و ضیع و شریف
خلیل وار تو کل به کرد گار نمای
نصیر جان تو چون حق بود، فنعم نصیر
رهین هر کس و نا کس مشوپی روزی
همان که او به توجان داد، نان دهد چه کنی
۱۰- جمال صورت فردا کجا ترا باشد
مسافری تو و ناچار بایدت زادی
کدام زاد نکوتر ز حب پیغمبر
نداشت سایه ولی رحمت و عطوفت او
بود سر امر نعتش هر آنچه در فرقان
۱۵- ز کاخ خسرویش نه سپهر زنگاری
ز خلق نیک و صفات جمیل و خلق بدیع

وهكذا نصح أيرج ميرزا الإنسان المسلم بأن لا يعيش في عالم الأوهام، معتمداً على آمال وأحلام بعيدة عن عالم الواقع، وأن يكون إيمان المسلم بتقدير ذى الجلال والإكرام راسخاً، ومادام الإنسان يرجو رحمة ربه وعطفه، فإنه لن يسعى إلى وضيع أو شريف طلباً لكسرة خبز أو طمعاً في زيادة رزق، فإله سبحانه هو الرزاق الوهاب وهو الذى يرزق السائل والمستول من البشر، ومادامت نعمة الخالق البارئ تغطى الجميع، فيجب على الإنسان المسلم ألا يسأل أحداً إلا الله عز وجل، وإلى جانب إيمان المسلم بالقدرة الإلهية فهو مطالب كذلك بحب الرسول عليه السلام، لأن حبه خير زاد يتزود به الراحل عن هذه الدنيا الفانية، حتى يكون الرسول الكريم شفيعه يوم القيامة، كما وصف الشاعر محمداً عليه السلام بأن الله قد أمده بكل الصفات والسجايا الحسنة التى لم تعط لغيره، قبله أو بعده، كما أنه وصف محاسنه وسماته التى وردت فى القرآن الكريم، وأنها وردت قبل ذلك فى الإنجيل وكذلك فى التوراة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(١) وقد كان الرسول عطوفاً رحيماً، حيث أرسله الله عز وجل رحمة للعالمين جميعاً وهادياً ومبشراً، فقد قال الله فى حقه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

(١) الأعراف، آية : ١٥٧.

(٢) الأنبياء، آية ١٠٧.

٣- الحديث عن بعض المقدسات الإسلامية :

ومن الشعراء المعاصرين الذين تحدثوا عن المقدسات الإسلامية ودورها في بناء البشرية الشاعر عباس شهري^(١)، الذي تحدث عن القرآن الكريم ودوره في هداية البشرية، حيث جاءت أحكامه خير هاد في طريق الإيمان والتوفيق، ولو أحسن الناس فهم القرآن وأحكامه وعملوا بها، لأصبحت الدنيا بأسرها روضة من رياض الجنة، ولعم السلام والوثام، ولكن ما حدث غير هذا، حيث نسى البعض من ضعاف الإيمان أحكام القرآن، فسيطرت عليهم الأحقاد والضغائن، واشتعلت الحروب وعم الخراب والدمار، فياليتهم يعوبون إلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها، ويدركون ما في القرآن الكريم من هداية وإرشاد يأخذ بأيديهم نحو حياة سعيدة رغدة، ومما قاله عباس شهري ما ترجمته:

القرآن الكريم

- الحمد لله الوهاب، من ذاته خالدة، ومن عاده فان !
- لقد وهبنا الشريعة والإيمان، في كتاب مجل هو القرآن .
- إنه الكتاب الهادي للحق، الكتاب الذي جاء بشريعة الرسالة .
- الكتاب المنقذ من الضلال، مفتاح باب حدائق الجنان .

* * *

(١) عباس شهري : ولد عام ١٣٨٩ ش (١٣٢٨ هـ = ١٩١٠م) بقرية شهر ستانك من توابع طهران وقد عده سعيد نفيسى من أعظم الشعراء المعاصرين، وقد كان شهري مهتماً بالنظم في الأغراض المتعلقة بهوموم الناس وآلامهم، حيث كان يعتقد أن مهمة الشاعر تبصرة الناس والأخذ بأيديهم إلى حياة أفضل، لا كغيره من هواة التموه والغموض، وأن الشاعر يجب أن يكون رقيق الحاشية، ومن المتقربين إلى الله بشعرهم حتى يلهمهم المعاني النبيلة والأفكار الرشيدة.
(تذكره شعراى معاصر ج ٢، ٢٠١).

- هذا الكتاب السماوى، المصباح الكاشف للطريق، الأكثر ضياءً من الشمس.
- وهو واهب الضياء لروحك وقلبك، والمتنزع من نفسك الطبيعة الشيطانية.
- فلتهتد بالقرآن، حتى تكون صادقاً، إذ القرآن وحى من الله القادر.
- وبالقرآن أصبح الرسول هادياً لك ومرشداً، وتضافرت فى ذلك أحكام الله وأحاديث محمد.

* * *

- لو أحسن الخلق اتخاذ القرآن مرشداً وهادياً، لأصبحت الدنيا بأسرها جنة فيحاء!
- ولكن ما أن أشحنا بوجوهنا بعيداً عن القرآن، حتى أصبح نصيبنا الفشل بدلاً من التوفيق.

وما أن أصبح شعار الجميع الحقد والحروب

فسرعان ما ضاقت بنا جنبات العالم! (١)

(١) تذكرة شعراى معاصر، ج ٢، ص ٢٠٠-٢٠١

قرآن پاک

<p>همه فـانـى وذات پـايـنده اوست گرامى کتابى چو قرآن مرا کتابى که قانون پیغمبر است کلید در بوستان بهشت چراغیست روشنتر از آفتاب بگیرد ز تو خـوی اهریمنی که قرآن بود وحی پرور دگـار =</p>	<p>سپاس خدائی که بخشنده اوست عطا کرد آئین وایمان مرا کتابی که مارا بحق رهبر است رهانندهء ماز اعمال زشت براه تر این اسمائی کتاب بخشد بجان و دلت روشنی بقرآن گرا تا شوی رستگار</p>
---	--

وهكذا ربط الشاعر بين ما يدور في عالمنا الحديث من حروب ودمار، وبخاصة تلك الحروب التي تثار بين بلدان العالم الإسلامي، وبين مانحن فيه من عدم الامتثال لأحكام القرآن الكريم الداعية إلى الإخاء والمساواة والمحبة بين جميع الشعوب وبخاصة بين أمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، تلك الأمة التي شرفها الله بأن أنزل فيهم القرآن الكريم، فيأليتهم يرجعون إلى القرآن حتى يعيدوا بناء نفوسهم على المحبة والإخاء ونبذ الحروب والضغائن.

ومن المناسبات الإسلامية التي يحتفل بها المسلمون كل عام، ليلة القدر، لما لها من منزلة كريمة في نفوسهم وفي عقيدتهم، وقد أشاد بها ملك الشعراء محمد تقى بهار مبيئاً مكانتها، وأنها - كما جاء في القرآن الكريم - خير من ألف شهر، وأنها ليلة سلام حتى مطلع الفجر. ومما قاله، ما ترجمته:

ليلة القدر

- يا ليلة القدر ويا خزانة الأجر، سلام عليك حتى - مطلع - الفجر.
- طلعتك البهية أساس كل وصل، وذؤابتك مبددة لكل هجر.
- قلبك الطاهر هو الماء الزلال لأى نبع فياض، وحديثك مفتاح ثخن الأجر.

أنت واهبة النور ومبددة الألم

أنت أفضل من مائة ألف شهر

چه حکم محمد چه حکم خدای	= زقرآن نبی شد ترا رهنمای
سراسر چهان چون گلستان بدی	اگر رهبر خلق قرآن بدی
بجای خوشی ناخوشی یافتیم	ز فرمان قرآن چو رخ تافتیم

شعارهم کینه و جنگ شد

بما عرصه زندگی تنگ شد

- لقد أملت بى حرقه فراقك ، فلا تشيحي بوجهك عنى أنا المكلوم .

- لقد رأيت مطلع - الفجر - من رؤيتك ، حيث استمدت الشمس ضياءها منك ؛ أيتها الليلة !

- لقد أصبح وصالك أيتها الليلة لى حلالا ، والنوم فيك أصبح على حراماً !

عجباً للمحب كيف ينام

كل نوم على المحب حرام^(١)

أما برون اعتصامى فقد تحدثت عن الكعبة المشرفة ومكانتها لدى المسلمين، وقد تمتثلت أن الكعبة تحدث نفسها فى يوم عيد الاضحى المبارك، ومما قالته الكعبة، ما ترجمته:

(١) ديوان ملك الشعراء بهار ، ج ١ ص ٢٧٢ .

شب قدر

و سلام عليك حتى الفجر	ای شب قدر وای خزانہء اجر
سر زلفت فنا کنندهء هجر	رخ خـویت بنا کنندهء وصل
دم صحبت کلید مخزن اجر	دل پاکت زلال چشمهء فیض

نور بخش ورنج کاهى تو

بهتر از صد هزار ماهى تو

از من خسته ، رخ متاب اى شب	شدم ز فرقت بتاب اى شب
شده پر نور آفتاب اى شب	مطلع دیده ام ز دیدن تو
گشته بر من حرام خواب اى شب	وصلت اى شب بمن شده است جلال

عجباً للمحب كيف ينام

كل نوم على المحب حرام

- وقت الإحرام، يوم عيد النحر، حدثت الكعبة نفسها على هذا المنوال :
- إننى مرآة نور ذى الجلال، كما أننى عروس محفل الرصال.
- لقد شيدتنى يد خليل الله، وكرمنى الله ورفع من قدرى.
- ولا يوجد فى ربوع العالم كله، مكان سعيد طاهر مثلى.
- ٥- ولاتوجد ساحة مشرقة مثل محفلى، ولا يوجد قصر آمن مثل مبنائى.
- أساس إقليم الإرشاد مستمد منى، وعمد بناء الشوق منى كذلك.
- أبدو فى الصورة قبلة الأحرار، ولكننى فى المعنى حامية الضعفاء.
- كل حجر وطينة وقشة من هذه الأعتاب، تسجد لله فى كل آونة.
- ويردد الباب والسقف هنا قولة "أنا الحق"، كما تلهج بالشكر جميع الأجسام والأجرام.
- ١٠- وهنا يسبح الملائكة، حيث يقولون كلاماً بالمعنى دون لسان.
- ليس مسموحاً هنا امتشاق الحسام، وليس لشخص أن يعارك آخر.
- وليس فى هذا الجانب شباك أوصياد، فالصياد فى إجازة، والطيور حرة.
- ما أجمل ذلك المبدع الذى خلط هذا الماء والطين، وما أبهى ذلك المعمارى الذى شيد هذا البناء.
- وما أسعد هذا الخياط الذى خاط تلك الكسوة المذهبة، وما أعظم هذا التاجر الذى باع هذه الحلة.

۱۵- الشخص الذى تطهرت كعبة قلبه، أنى له أن يخاف الدنس والآثام؟^(۱)

اعتبرت الشاعرة پروین الكعبة قلب هذا العالم، والمحور الذى تدور حوله قلوب جميع المسلمين، والمكان الذى يفوق كل أرجاء الدنيا عظمة ومكانة، وكل ما بالمكان يسبح بحمد الله وعظمته، يتساوى فى ذلك كل الكائنات وكل المخلوقات، بل يشاركونهم فى هذا الملائكة دون لسان أو لغة، وأن الكعبة المشرفة مكان سلام ووثام، إذ لايسمح

(۱) دیوان پروین اعتصامی، ص: ۲۰۰-۲۰۲.

کعبهء دل

سغن میگفت باخود کعبه، زینان	گه احرام، روز عید قربان
عروس پردهء بزم وصالم	که من مرآت نور ذو الجلالم
خداوندم عزیز ونامور داشت	مرادست خلیل الله برافراشت
مکانی همچو من، فرخنده وپاک	نباشد هیچ اندر خطهء خاک
چو ملک من، سرای ایمنی نیست	۵- چو بزم من، بساط روشنی نیست
بنای شوق را، بنیاد از ماست	اماس کشور ارشاد، آزماست
بمعنی، حامی افتاد گانیم	بصوت، قلبهء آزاد گانیم
خدارا سجده آرد، گاه و بیگاه	درین درگاه، هر سنگ و گل و کاه
ستایش میکنند، اجسام و اجرام	"أنا الحق" میزنند اینجا، در و بام
سخن گویان معنی، بی زبانند	۱۰- در اینجا عرشیان تسبیح خوانند
کس را دست بر کس تاختن نیست	در اینجا رخصت تیغ آختن نیست
شکار آسوده است و طائر آزاد	نه دام است اندرین جانب، نه صیاد
خوش آن معمار، کاین طرح نکور ریخت	خوش آن استاد، کاین آب و گل آمیخت
خوش آن بازار گان، کاین حله بفروخت	خوش آن درزی، که زرین جامه ام دوخت
کجا از آلودگیها پاک دارد؟	۱۵- کسی کاو کعبهء دل پاک دارد

إنسان مهما كان أن يحمل في رحابها سلاحاً، كما لايسمح بالصيد في ساحتها، ولذا ترى الحمام والطيور تلتقط الحب من أرضها، أو تحلق في سمانها، دون أن يتعرض لها أحد بالإيذاء، فالكل في مضمارها أمن طاهر مشغول بتسبيح الله وشكره، ويا ليت قلب الإنسان الذى يتوسط الجسد، كما تتوسط الكعبة مركز العالم أن يتطهر ويصفو، ويبتعد عن الكراهية والأحقاد والخصام والعراك متشبهاً فى هذا بالكعبة المشرفة المطهرة من أى دنس، ومن أى مسلك يشغل الحجاج والمعتمرين عن العبادة والطواف والسعى والصلاة والانشغال بقراءة القرآن والتسبيح والابتهاال.

* * *

٤- من الخلق الإسلامى :

لقد حرص الإسلام على الارتقاء بالإنسان عن طريق حسن تربيته وجميل تهذيبه، وإبعاده عن كل سلوك شائن، داعياً إلى فتح كل أبواب العمل الصالح، وقد أكثر أدباء الفارسية، شأنهم فى ذلك شأن جميع الأدباء المسلمين فى شتى بقاع العالم، من تناول مايدعو إليه الإسلام من الاهتمام بالعلم والعمل والعطف على الفقراء والمساكين، ونبذ المحرمات إلى غير ذلك من تعاليم الإسلام الحنيف.

وبطبيعة الحال لن نستطيع أن نذكر جميع ما قاله أدباء الفارسية فى العصر الحديث حول هذه الأخلاق الإسلامية السامية، ولاحول هذه الدعوات الإصلاحية المنبثقة من تعاليم الإسلام الحنيف، وإنما سنكتفى بذكر بعض الأمثلة.

وأول ما سنذكر، هو الدعوة إلى بر الوالدين والامتثال إلى نصحهما، والعمل بما يرضيهما حيث إن رضاء هما من رضاء الله عز وجل، وقد نظم ملك الشعراء بهار قصيدة عنوانها " نصيحة الأب"، وقد جاءت فى ستة وأربعين بيتاً وكان بهار قد نظمها عام ١٣٠٩ هـ. س (١٣٤٧ هـ. ق) بمناسبة حلول عيدالنوروز. ومما جاء فيها ما ترجمته:

- أفق أيها الابن، وليمتثل قلبك لنصائح الأب، فهو أيها الغالى قد اشترى حكمته بنقد روحه.
- وأحسن الإصغاء إلى نصيحة المعلم، وإلا فإن الفلك سيمزق جسدك بسيف المكر والخداع.
- فكل شخص يحسن الإصغاء لنصح العطوف المشفق، سيقطف وروداً وأزاهير من غصن مراده.
- عندما لم أمتثل مثلك لهذا النصح فى طفولتى، مزقت يد الزمان أرديتى .
- ٥- لقد استمعت إلى نصح أبى ولومه، ولهذا فقد روضت طبعى بحسن تجربته .
- وعندما لا يكون الزمان لى مواتياً، أكون فى تلك اللحظة التى لم أحسن الامتثال فيها للنصح والإرشاد.
- لقد درست فى مدرسة الحياة أربعين سنة، حتى اسودت أيامى وابيض شعرى.
- لقد ضاعت منى بعض نصائح أبى، ولكن فى مشيى هذا؛ مازلت أحفظ الكثير منها.
- ١٠ - لقد رأيت أن نصائح الأب هى ثروة العمر، حيث كان يقدمها لى بعطفه وحنانه.

- مهما طال العمر بتجاربه فهو ليس كافياً، إلا إذا ربطناه بتجارب الآخرين.

ما أسعد من عرف في صباه قدر أبيه
وما أعظم من استمع في شبابه إلى نصح أبيه^(۱)

* * *

(۱) دیوان بهار، ج ۱، ص: ۵۲۸ - ۵۲۹.

پند پدر

هان ای پسر به پند لاندل دل سپار کار	ای گوهر گر انرا بانقد جان خرید
ده گوش بانصیحت استاد، ورنه چرخ	گوشت به تیغ مکر بخواهد همی برید
هر کس به پند مشفق يك رنگ داد کوش	گل‌های رنگ رنگ ز شاخ مراد چید
من خرد بکود کی چو تو نشنیدم این حدیث	تادست روزگار گریبان من درید
۵- پند پدر شنیدم وگفت ملامت است	زینرو از آزمایش آن طبع سر کشید
وانگاه روزگار مرا در نشاید پیش	يك دم ز درس وپند ونصیحت نیارمید
چهل سال درس خواندم در نزد روزگار	تا گشت روز من سیه وموی من سپید
چندی کتاب خواندم وچندی معاینه	دیدم خرام گیتی ز وعد واز وعید
بخش ز پندهای پدر شد درست، لیک	بسیار از آن بماند که پیری فرارمید
۱۰- دیدم گه پندهای پدر نقد عمر بود	کان مهربان بطرح بمن برپراکنید
این عمرها به تجربت ما کفاف نیست	تا داشته بتجربت دیگران امید

خوش آنکه در صباوت قدر پدر شناخت
شاد آنکه در جوانی پند پدر شنید

كما دعا بهار الأبناء إلى الربط بين عبادة الله عز وجل، وحب الوالدين وعدم عقوقهما، وبخاصة الأم التي تمنحهم الحب والحنان والعطف، وضحت براحتها من أجل إسعاد هؤلاء الأبناء، ودعا أيضًا إلى أن يرفع هؤلاء الأبناء والديهما في حالة الكبر والعجز، وبخاصة الأم، حتى يكون الأبناء برة راجين رحمة ربهم ورضاه.

الله والوالدان

- أيها الطفل العذب اللسان، لا تغفل عن أمك العطوف.

-- لتجعل نصب عينيك هؤلاء الثلاثة: الأول هو الله ثم يأتي من بعده الوالدان.

- الله هو المنعم الرزاق، والوالد هو المربي، أما الأم فكم احترق قلبها من أجلك.

اعبد الله، واحترم والدك

وضحي بروحك من أجل أمك^(١)

* * *

(١) ديوان بهار، ج ١، ص: ٣٣١

خدا ووالدين

مـشـو غافل از مادر مهربان	أى كودك خوب شیرین زبان
نخستین خدا، زانپس والدين	بدار این سه مقصود را نصب عین
بود مادر ازهر دو دلـسـوزتر	خدا منعم است و مـر بـی پدر

خدا را پرست، و پدر را ستای

ولی جان بقریان مادر نهای

وشاركت پروين اعتصامى الشاعر محمد تقى بهار فى دعوته إلى الأبناء كى يمثلوا لنصائح الآباء والأمهات، وإذا كان بهار قد تكلم مباشرة، فقد لجأت پروين إلى استخدام الرمز عن طريق الحيوان، وهذه طريقته دائماً فى تقديم النصح والإرشاد ففى قطعة عنوانها "قوس القضاء" تحدثت عن فأر صغير أجهدت أمه نفسها فى نصحه ولفقت نظره إلى الأخطار الجسام التى يتعرض لها إن لم يتوخ الحذر، وأن يحسب لكل خطوة حسابها حتى لا يقع فى المهالك، ولكن هذا الصغير لم يعر نصح أمه اهتماماً، ولم يقبل أن يعمل بنصائحها مدعياً بأن له عقلاً يستطيع أن يميز به بين الخير والشر؛ وما أن خرج بمفرده باحثاً عن طعام، حتى أرداه عقوبه فى فخ كان فيه هلاكه، وهكذا جزاء أى ابن لا يحسن الإصغاء إلى نصح أمه أو أبيه، ومن أبياتها؛

ماترجمته:

- قالت الأم بحنان لفأرها الصغير : ما أكثر الحزن والمصائب فى طريقنا .
- فلا تخطف قطعة جبن من حديد معقوف ، فهذه اللقمة ليست غذاء ولكنها الردى والموت .
- غضب الفأر الصغير وقال : صه ! إن عقلى أكبر من عقلك !
- فكل إنسان يعرف مكانه ، ولا مكان لنصح الآخرين وإرشادهم !
- ٥- قال هذا ، وخرج من الجحر ، ونظر نظرة متعجلة صوب الشمال واليمين .
- فرأى فى فخ حديث الطلاء ، قطعة جبن معلقة فى قطعة من حديد .
- قفز الفأر الصغير بلهفة ، ودخل ، وما أن دلف حتى ارتفع صوت الباب .
- فكم أصابته الحزن من جراء هذا الطعام ؛ وكم أحاطت قطعة الحديد بمعصمة الأيمن !

- وهكذا الطفل الذي يهرب من الوعظ والنصيحة، فإذا سقط في بئر فلا تسل :
لم حدث هذا؟^(١)

ومن المعاني الإسلامية السامية والتي اهتم بها الشعراء والكتاب في العصر الحديث، الدعوة إلى التعاطف بين بنى البشر، وضرورة العطف وتقديم العون إلى الفقراء والمحتاجين. وما أكثر ما نظمته الشاعرة پروين اعتصامي في هذا الشأن، ومنها تلك القطعة وعنوانها "غرور المحظوظين" فقد تحدثت عن عصفور صغير وقع في الشباك، وحاول الخلاص فلم يستطع، وفجأة رأى أمامه طائر الهما فطلب منه أن يساعده ويخلصه من الأسر، ولكن الهما ترفعت وتعالى عليه، وقالت : كيف تساعد الهما تعس الحظ مثلك؟ ومهما توسل إليها العصفور، فإنها لم تعره التفاتة، وتركته ومضت تتبخر في الحديقة، وبعد انقضاء يوم كامل أدركت الهما خطأها وأسهرت كي تنقذ العصفور الصغير، ولكن بعد فوات الأوان، حيث وجدته ريشاً مبعثراً، وقد

(١) نقلاً عن شاعرة إيران پروين اعتصامي للدكتور بديع محمد جمعة، ص : ٨٤، القاهرة ١٩٧٧، أما النص الفارسي؛ فهو :

موشکی را بمهر، مادر گفت	که بسی گیر و دار در ره ماست
ز آهین میل، گردگان مربای	که چنین لقمه، خون دل، نه غذاست
موشک آزاده گشت و گفت خموش	عقل من بیشتر ز عقل شماست
هر کس جای خویش میداند	پند و اندرز دیگران بیجا است
این سخن گفت و شد زلانه برون	نظری تند کرد، بر چپ و راست
دید دو تلهء نورنگین	گردگانی در آهنی پیداست
موشک از شوق جست و شد بدرون	تا که او جست، بانگ در برخاست
بهر خوردن، چو کرد گردن کج	آهنی رفت بر گلویش راست
کو دکی کاو زبند و وعظ گریخت	گر بچاه است، دم مزن که چراست

أنهت الشاعرة پروين قصتها الرمزية هذه بعدة أبيات تدعو فيها القوى لمساعدة الضعيف، والغنى كي يحسن إلى الفقير، وألا يتكبر الإنسان على المساكين والضعفاء، وألا يعيش المرء في برج عاجي بعيداً عن مشاكل الفقراء والمعوزين، ومما قالته پروين؛ ما ترجمته :

- لقد منححت عين قلبك الضياء؛ حتى تضيء مصباح التعساء.
- ارتفعت شجرة السرو بالحديقة، كي تظلل على ورود الروضة.
- فلتسل عن الضعفاء ما استطعت، ولتخش زمن الضعف.
- وتعلم من الشمس أصول الإشراف، فهي تشع نورها على اليابسة والبحار.
- ٥- سعيد من استحسن تقديم العون، فما أن ملك الثروة والجاه حتي قدم العون.
- وموفق ذلك الذي أعان ضالا، ورفا الممزقات بلطف وسماحة.
- لا تشح بوجهك أيها الصديق، بعيداً عن المساكين حتي يجنبك الله تكبر الفلك.
- لو جلسنا في محيط السماء، ولم نطلب الخير لكل شخص؛ كنا غاية في الخسة^(١)

* * *

(١) نقلاً عن : شاعرة إيران، پروين اعتصامي ص ١٠٥، ١٠٦، والنص الفارسي هو : =

= - از آنت هست چشم دل، فروزان که بفروزی چراغ تیره روزان
- بگلشن، سرو از ان بفراشت پایه که بر گلهای باغ افکند سابه

و كما دعت پروین إلى عدم التكبر والغرور والتعالى على الضعفاء والمساكين، دعت كذلك إلى أن يكون العطف عليهم خالصاً لوجه الله عز وجل، لارياء ولا طلباً للدعاء، فالنعمة والخير كله لله، وليس الأغنياء إلا حراساً عليها، وبالتالي فإن أعطوا الفقراء جزءاً مما يحرسونه من نعم الله، فليس العطاء منهم، بل إنهم ينفذون مشيئة المنعم الوهاب، وعلى هذا وجب على الأغنياء أن يتجرد عطاؤهم من أى إيذاء لمن يقدمون لهم يد العون والإحسان، ومما قالته پروین، ماترجمته:

- لا يجوز طلب الأجر من المسكين، كما لا يجب سفك دم العطاء والإحسان.

- أحسن إلى المسكين والمعدم، لأن الإحسان نفسه سيجلب الدعاء.

- لقد مُنحت قوة الساعد، كي تأخذ بيد كل ضعيف عاجز.

- ولا تستسلم للغرور، فأول فرض على الأغنياء هو الإحسان إلى الفقراء.

٥- ولتدرك أحوال المحتاجين يامن تملك مصباح السعادة وكنز الغناء.

بـتـرس از روزگار نا توانی
که بخشد نور بر آبی و خانگی
نوائی داد، تا برگردنوا داشت
به نیکی، پار گیها را رفو کرد
مبادا بر تو گردون تابد ابروی
چو خیر کس نمیخواهیم، پستیم

= - بـتـرس از ناتوان تا توانی
- ز قهر، آموز رسم تابنا کی
٥ - نکو کار، آنکه همراهی روا داشت
- خوش انکو گمراهی را جستجو کرد
- مثاب ایدوست، بر پرچار گان روی
- اگر بر دامن کیوان نشستیم

- وقت العطاء والإنفاق يجب، یاپروین، ألا یعمر القلب إلا بالله وحده! (۱)

* * *

ومن التعالیم الإسلامية السامية دعوة المسلمین إلى العمل والكد فی طلب الرزق، وعدم الارتكان إلى الكسل والتراخی، حتی أن الله سبحانه وتعالی قد ربط فی معظم آیات قرآنه الكريم بین الإیمان والعمل، حیث قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ (۲) وقال تعالی: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (۳) وقد ربط الله سبحانه وتعالی الأجر والجزاء بجنس العمل تشجیعاً للمسلمین على العمل والعطاء والكد وعدم الجنوح إلى الكسل، فقد قال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (۴) كما أن الله عز وجل لن یظلم عاملاً قط، ولن یبخسه حقه فی الجزاء والأجر حیث قال تعالی: ﴿أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَنَّى﴾ (۵).

(۱) المرجع السابق، ص: ۱۰۷ والنص الفارسی هو:

نشاید خواست از درویشی پاداش	نباید کشت، إحسان و عطا را
تو نیکی کن بمسکین و تهییدست	کی نیکی، خود سبب گردد دعا را
از آن بازوت را دادن نیـــــرو	که گیری دست هر بیدست و پا را
مشو خودبین، که نیکی بافقیران	نخستین فرض بودست اغنیار
۵- ز محتاجان خبر گیر، ایکه داری	چراغ دولت و گنج غنارا
بوقت بخشش وانفاق، پروین	نباید داشت در دل جز خدارا

(۲) سورة محمد ۱.

(۳) سورة التوبة: ۱۰۴.

(۴) سورة الأنعام: ۱۳۲.

(۵) سورة آل عمران: ۱۹۴.

وقد أكثر الكتاب والشعراء فى العصر الحديث من الدعوة إلى العمل الجاد والدءوب، حتى تستعيد الأمة الإسلامية عافيتها وسابق ازدهارها بعد أن تكاسل بعض أبنائها. وتخلوا عن العمل الجاد والدءوب، وركنوا إلى الاعتماد على الغير، وقد عبرت الشاعرة پروين اعتصامي عن هذا الموقف المتخاذل، بأن صورت فقيراً وقد جلس على قارعة الطريق غاية فى الذلة والمسكنة، وقد أخذ يتأوه مما ألم به من فاقة ومسغبة وأنه قد عدم المسكن والمأكل، وكم حاول استجداء الخلق فصدة معظمهم، ولما أطل شكايته؛ جاءه الرد من الله عز وجل، على هيئة حديث سمعه بأذن قلبه، ومما جاء فى هذا الحديث ما ترجمته:

- تحدث الله الوردود فى أذن قلبه، قائلاً: إن لم تكن موفقاً؛ فالجزم جرمك.
- اخط خطوة واحدة فى طريقى، أقربك منى عشرين خطوة.
- نحن لم نرسلك بلا زاد، فقد منحناك ما يجب منه.
- لقد منحناك يدا كي تعمل، فإن وجد الدرهم، بإمكانك جعله ديناراً.
- ٥- ومنحناك قدماً كي تسعى من مكان إلى آخر، وتخلص من نفسك من كل ضيق.
- ومنحناك العين حتى يشعر قلبك بالأمان، فيضىء أمامك طريق الحياة.
- نحن لم نترك إنساناً جائعاً، وقد رفعنا هذا البناء من أجل الخلق.
- هذه القوة الكامنة فى ساعدك، شاهد حظك، وكذلك مافى كتفك.
- أيها الجاحد، منحتك الكنوز التى لا يستطيع شخص قط إحصاءها.
- ١٠- كنزك هو العقل والرأى والعزم والهمة، وأفضل كنز سعيك وكذك.
- حين طلب ذوو البصيرة الحظ منا، طلبوا اليد والساعد القويين.

- نحن لانقول لاتطرق بابنا سائلا ، ولكن إن تطرق هذا الباب ، فلانطرق باباً آخر !

- فمن انكب على موائد الكرام ، سمع ألفاظاً نابية من اللثام^(۱)

* * *

والعاقل هو الذى لايقبل التردد على موائد الكرام، حتى ولو لم يتبعوا صدقاتهم بالمن والأذى، وحتى ولو كان هؤلاء الكرام سيدنا سليمان عليه السلام، فقد رأى سليمان عليه السلام

(۱) شاعرة ایران پروین اعتصامی، ص ۱۲۴، ۱۲۵، والنص الفارسی هو :

گر نبودی کار دان، جرم تو برد	- گفتش اندر گوش دل، رب ودود
تا منت نزدیک آیم بیست گام	- تو براه من بنه گامی تمام
آنچه می بایست دادن، داده ایم	- ماترا بی توشه نفرستاده ایم
درهمی گر هست، دیناری کنی	- دست داد میت که تا کاری کنی
وارهائی خسرویش را از تنگنای	۵- پای داد میت که باشی پا بجای
بو توراه زندگی، روشن کند	- چشم دوام تادلت ایمن کند
این بنا از بهر خلق افراشتیم	- ما کسی را ناشتا نگذاشتیم
شاهد بخت است و در پهلوی تست	- این توانائی که در بازوی تست
که نگنجد هیچکس را در قیاس	- گنجها بخشیدمت، ای نا سپاس
بهترین گنجور، سعی ورنج تست	۱۰- عقل و رای وعزم و همت، گنج تست
دست و بازوی توانا خواستند	- عارفان، چون دولت از ما خواستند
چون زدی این در، در دیگر مزن	- ما نمیکوئیم سائل در مزن
از لثیمان بشنود حرف درشت	- آنکه برخوان کریمان کرد پشت

نملة تجر ساق جرادة، وقد تحملت العبء الكبير لكي تسحبها إلى جحرها، فسألها لماذا تتحمل المشاق والمتاعب وفي إمكانها أن تذهب إلى موائد كرمه المنصوبة على الدوام فتأكل منها متى تشاء، ولكن النملة التي جبلت على السعى والعمل والكد وعدم الارتكان إلى الكسل، رفضت دعوة سليمان عليه السلام، وأثرت الاعتماد على نفسها في الحصول على الرزق، ومما جاء في هذا الحوار الممتع بين سليمان والنملة؛ ما ترجمته:

سعى وعمل

- في طريقه إلى الباب، رأى سليمان نملة، تجاهد في جر ساق جرادة.
- وقد أجهدت نفسها في جرها من كل صوب، وقد انحنى ظهرها وألم بها التعب من هذا الحمل الثقيل.
- وكانت تخرج عن الطريق أمام كل ذرة غبار، كما تتطاير كقشة تبين أمام أى هبة ريح.
- وهكذا احتواها طريق السعى والعمل، حتى فرغت من الجميع، عدا نفسها.
- هـ- لم يعد لها القدرة على السير ومواصلة العمل، كما لم تخالجها الرغبة في التخلي عن العمل.
- فقال لها بحدة أيتها المسكينة الجاهلة، لماذا بعدت عن ملك سليمان؟
- إن لدى في قصر العدل، موائد عديدة، وما أكثر الضيوف الملتفين حول كل مائدة.

- فهيا ، من هذا الطريق ، وتوجهي إلى قصر الملك ، وكلتي على موائدنا كل ماتبعين .

- وتعلمي منا السعادة والراحة ، وكوني مثلنا سعيدة صباح مساء .

١٠ - ولماذا تتحملين هذه الآلام والمتاعب ، وأن يكون عمرك كله تعب وكد ؟

- إن هذا طريق يعبره الخلق ، فليجنبك الله أن تطأك الأقدام !

- فلا تجرى عبثاً هذا الحمل الثقيل ، ولا ترهقي روحك من أجل الجسد .

- قالت : لتقلل الحديث عن الولايم مع النمل ، لأن القناعة أفضل من الولايم لدى النمل .

- فإذا كانت النمل ملوكاً في جحورها ، فهي لا تتطلع إلى نوال من الملك .

١٥ - فاذهب إلى مكان يتواجد فيه المحتاجون ، إذ أننا لسنا في حاجة إلى سليمان .

- وإذا كنا نحن في أنفسنا خادماً ومخدوماً ، فلن نكون محكومين تحت ربة أي شخص .

- وراحتنا ماثلة في هذا الكد والتعب ، لذا فلن أتخلي عن ساق الجرادة هذه ولو بألف كنز .

* * *

- إن كنت تبغي التوفيق دائماً ، فتعلم الصبر من النمل .

- وكن عاقلاً وبعيداً وقت التدابير ، ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد .

۲۰- واجتهد فی ربیع حیاتک ، حتی یکون شبابک زینة مشییک^(۱)

(۱) دیوان پروین اعتصامی، چاپ پنجم تهران ۱۹۶۲ م ص ۱۶۰-۱۶۱.

سعی و عمل

کسه با پای ملخ میگرد زوری
وز آن بار گان، هر دم خمیدی
زهر بادی، پریدی چون پر کلاه
که فارغ گشته از هر کس، جز از خویش
نه اش سود ای کار زدست دادن
چرائی فارغ از ملک سلیمان
بهر خوان سعادت، میهما نهاست
بخور در سفره ما، هر چه خواهی
چوما، هم صبح خو شدل باش وهم شام
تمام عمر خود را بار بردن
مبادا بر سرت پائی گنذارند
میازار از برای جسم، جان را
که موران را، قناعت خوشتر از سور
نوال پادشاهان را نخواهند
که ما را از سلیمان، بی نیازیت
بحکم کس نمیگردیم محکوم
من این پای ملخ ندهم بصد کنج

* * *

زمور آموز روز رسم بردبای
ره امروز را سپار فردا
که شد پیرایه، پیری، جوانی

برای در، سلیمان دید موری
بزحمت، خویش را هر سو کشیدی
زهر کردی، برون افتادی از راه
چنان بگر فته راه سعی در پیش
۵- نه اش پروای از پای افندان
بتندی گفت کای مسکین نادان
مرا در بارگاه عدل، خوانهاست
بیازین ره، بقصر پاد شاهی
ز ما، هم عشرت آموز وهم آرام
۱۰- چرا باید چنین خونا به خوردن
رهست اینجا و مردم رهگذارند
مکش بیهوده این بار گران را
بگفت از سور، کمتر گوی بامور
چو اندر لانه، خورد پاد شاهند
۱۵- برو جانی که جابی چاره سازیت
چوما، خود خادم خویشیم و مخدوم
مرا امید راحتهاست زین رخ

گرت همواره باید کما مکاری
که تدبیر، عاقل باش و بینا
۲۰- بکوش اندر بهار زندگانی

وهكذا وافقت هذه الدعوات الإصلاحية، وضرورة بذل الجهد والعرق من أجل العمل الدؤوب الذي يرفع من شأن الإنسان والمجتمع، ما نادى به الإسلام وحث عليه، حتى ارتبط الإيمان في الإسلام بالعمل الصالح، سواء أكان هذا لصالح الأمة الإسلامية، أو لصالح الفرد نفسه، وما أخرجنا نحن المسلمين الآن للعمل بهذه الأوامر الإلهية وبدعوات المصلحين حتى يستعيد المسلمون تقدمهم وازدهارهم واعتمادهم على أنفسهم، دون حاجة إلى مساعدات من هنا وهناك، تكون في الغالب الأعم على حساب حريتهم وعقيدتهم.

* * *

وما دمنا نتحدث عن العمل، فيجب أن نتبعه بالحديث عن العلم ومكانته في الأمة الإسلامية ومكانة المعلم في الأخذ بيد أمتة عن طريق التقدم والصلاح، وما دامت هذه رسالة المعلم، فإن الإسلام قد كرمه ورفع من شأنه حيث إنه مطالب بأن يبلغ بعد الرسل رسالة الله عز وجل، إلى خلقه ويشرحها لهم، ويعاونهم على فهمها والعمل بما جاء فيها من عقائد وعبادات وأحكام، ومن الذين تحدثوا عن هذه الرابطة بين المعلم ورسالة الأنبياء الشاعر صادق سرمد^(١)، فقد قال:

- إن كنت لاتدرك قدر المعلم، فإن قدره ليس خافياً عني.

(١) صادق سرمد: شاعر إيراني كبير نظم الشعر منذ الحادية عشرة من عمره، كان قادراً على النظم في كل الفنون والأغراض، من منظومات: خورشيد، وأثينه فلك، وياتيز كبود، ومهتاب وشهاب، ويدر طالع، نشر العديد من أشعاره جرايد الحيل المتين وشفق وناهيد وارمغان وغيرها.

ولد عام ١٢٨٦ ش (١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م) بطهران وقد أنهى دراسته للحقوق؛ فكان من الشخصيات القضائية البارزة في إيران وتولى رئاسة العديد من المؤسسات القضائية كما اشتغل بالسياسة والأدب وكل النشاطات الفكرية والعلوم الاجتماعية، وقد اهتم بالعلم والمعلمين، لذا نظم ثلاث قصائد يوضح فيها مكانة العلم والمعلمين، منها هذه القصيدة التي نستشهد ببعض أبياتها:

(تذكرة شعرائ معاصر ج١. ص : ٢٢٤ - ٢٢٥).

- فلتسل المتعلم عن قدر المعلم، فلن يوفيه أحد حقه مثلي .

- فلتسمع مني، إن بناء هذا العالم، لا يمكن أن يستقيم بدون العلم والمعلم .

- إن العرش الإلهي هو كرسي التعليم، لذا فلن يصل إنسان قط إلى رتبة العالم .

٥- لقد كان نبي الإسلام معلماً، إذ لا يمكن أن يكون رسولاً من لم يكن معلماً .

* * *

- ولكن لتحذر أن تكون معلماً مغروراً، وإلا فلن تحظى بالنعم على مائدة الدين .

- ما الدين؟ إنه السير إلى جانب الحق، وما الحق؟ إنه عدم توهم الباطل .

- وما الحق كذلك إلا السير في مصلحة الخلق، وما الباطل؟ ما لا يكون نفعه دائماً !

- إن الحق متكئ على قوة الإيمان، حيث لا تقاومه أي قوة .

- إذا سار المارق مهما كان علمه صوب البحر المتلاطم؛ فلن يستطيع أن ينقذ

السفينة ! (١)

(١) النص الفارسي هو :

پوشیده بر من منتعلم نیت
کاینسان بحق چو من متکلم نیت
بی علم و بی معلم قائم نیت
یعنی کسی بر تبه عالم نیت
هرگز نبی نشد که معلم نیت =

گر بر تو فاش قدر معلم نیست
قدر معلم از متعلم پرس
بشنو ز من که قائمهء، عالم
عرش خدای کرسی تعلیم است
٥- زان شد نبی نبی که معلم شد

وإذا كان الشاعر سرمد قد حذر من تكبر العلماء وتعاليمهم، فإن ملك الشعراء محمد تقی بهار قد حذر من شرب الخمر، وممن يحتسونها، لأن فيها هلاك من يتجرعونها، وكذا غضب عليهم لإقبالهم على محرم، حيث قال:

- کم تتملکنی الدهشة من هذه الخمر، ومن يقبلون عليها ويحتسونها.
- إن الخمر تسلب الجسم القوة والعقل، وما أكثر الأضرار الكامنة في الخمر.
- إنها تبدو في البداية عروساً جميلة، ولكنها في النهاية عجوز شمطاء.
- إن الله الذي خلق الخلق للخير، لم يخلق ماهو أسوأ من الخمر.
- ما أكثر القامات السروية التي حطمتها، وما أكثر الأرواح الغالية التي وقعت في حبالها.

وما أكثر العظماء الذين احتسوا الخمر

فأذلتهم في الدنيا، وقضت عليهم! (١)

* * *

آنکو ز خوان دینی متنعم نیست	= هان تا بعلم خود نشود مغرور
حق نیز، باطل متوهم نیست	دین چیست؟ ره بجانب حق بردن
باطل چه؟ آنچه نفعتش دائم نیست	حق چیست؟ آنچه مصلحت خلقست
آنجا که هیچ قوه مقاوم نیست	حق مستکی به قوهء ایمان است
منجی کشتی متلاطم نیست	بی دین اگر به علم شود دریا

[خلخالی: تذکره شعرائی معاصر، ج ۱ ص ۲۴۰ - ۲۴۱].

(۱) دیوان بهار، ج ۱، ص ۲۲۶ =

در ذم می

= خرد را عجب آید از ابن نبید
وز آنکو به نبیدش دل آرمید

هذه بعض الإشارات السريعة لما تناوله الشعراء من أفكار منبثقة من تعاليم الإسلام، وحثهم المسلمين على فعل الخير، وسلوك الطريق المستقيم حتي يضمنوا التوفيق والسداد، وكذلك تحذيرهم من ارتكاب المعاصي والآثام، وهذه الدعوات الإصلاحية قد وجدت في كل عصر وفي كل مكان، مع اختلاف المعالجات وفقاً لطبيعة كل عصر.

* * *

٥- بث الشكوى من حال المسلمين في العصر الحاضر:

ولكن مما يلفت النظر في العصر الحديث، حديث الشكوى مما وصل إليه حال المسلمين من تخلف وتدهور، أدى إلى غلبة قوى الاستعمار عليهم لذا حاول المصلحون من ذو الفكر والأدب تنبيه القلوب والعقول لما آل إليه حال المسلمين، وكيف أنهم شاركوا في هذا التخلف ببعدهم عن تعاليم الإسلام السمحة، ومن هؤلاء المصلحين، بل ويأتى على رأسهم الثائر جمال الدين الأفغانى، الذى قضى حياته كلها متنقلاً بين بلدان العالم الإسلامى محاولاً إيقاظ الوعي الإسلامى والحس الوطنى، وقد بدأ هذه

فران ضرر است اندرين نبید	= می از تن زداید توان وهوش
بفر جام ، عجزی شود بلید	در آغاز، عروسی بودندکو
شرانکیز تر ازمی نیافرید	خدائی که بخیر آفرید خلق
بساجان گرامی که بشکرید	بسا سرور بلندا که کردپست

بسامرد شریفا که می بخورد

بلیدی بجهان در پرا کنید

الدعوة منذ شبابه وحتى مماته وكتب العديد من الرسائل إلى كل المسؤولين وإلى كل الجمعيات والوطنيين حتي يهبوا دفاعاً عن إسلامهم وأوطانهم، وذلك بعد أن وضح أن مهما أصاب المسلمين من ضعف فإن سببه المسلمون أنفسهم، وقد وضح موقفه هذا منذ إقامته المبكرة بالهند وقبل أن يتوجه إلى العالم العربي وإلى الأستانة حيث مقر الخلافة الإسلامية الممثلة في الدولة العثمانية، فقد كتب إحدى المقالات والتي ضمنها رسالته الشهيرة "رسالة نيچريه" والتي ترجمها فيما بعد الشيخ محمد عبده تحت عنوان "الرد على الدهرين"، هذه المقالة عنوانها "لماذا ضعف الإسلام" وقد بدأها بالآيتين الكريمتين :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ سورة الرعد : آية : ١١ .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

سورة الأنفال : آية : ٥٣ .

ثم أتبعهما بقوله:

هذه آيات القرآن الكريم، والكتاب الحكيم، والهادي إلى الصراط المستقيم والداعي إلى الدين الحنيف، لا يمكن أن يشك فيه إلا الشياطين الضالون، والزنادقة المخرفون، فقد نزل القرآن من السماء على أفضل الرسل كي يهدي الخلق وينقذهم من وادى الضلالة..

إن الله أصدق الصادقين، وهو صادق الوعد، ورسله وأنبيأؤه معصومون، ولا يكذبون، ولا يفترون وهم يدعون الخلق إلى الهداية.. وهو الحكيم المطلق الذي لا يقضى أمراً إلا لحكمة، وهو يفى بوعده ووعيده ولا يغير سننه، وكلامه لا يقبل التبديل؛ إذ «لا مبدل لكلماته»^(١) وهل جاءت الآيات المحكمات بلغة أخرى لا نستطيع فهمها؟

(١) الأنعام : ٢٤ .

وهل كان الله عز وجل يتحدث بالرمز؟ وهل منع اقتداء الناس بالقرآن؟ أو أننا لم نستطع فهم الإشارات والآيات؟ أو أنها جاءت بلسان غريب وعجيب لا يستطيع فهمه غير الرسول؟ استغفر الله، فإن القرآن كتاب الله قد أرسل هادياً ومرشداً، وجاء بلسان عربى فصيح مبيناً للخلق ما يجب فعله، ذاكراً مايُلزمهم فى المعاد والمعاش، وهو شفاء لداء الضلال وعلاج لمرضى الجهالة، فهو هدى وشفاء لما فى الصدور، إنه ليس لغة طير، ولم يقل رمزاً وتلميحات فى محكم آياته، بل جاء واضحاً صريحاً ويلغة يستطيع أن ينطقها كل من يعرف العربية، إنه مرشد دائم ونموذج أدبى قائم حتى يوم القيامة، ومبدي لكل اشتباه فلا يقترب الباطل منه أبداً، ولا يلحق الخلل به من أى زاوية، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (١) وقد وعدنا الله تعالى نحن المسلمين عدة وعود فى القرآن الكريم، وبشرنا ببشارات عديدة ومنحنا الرفعة والسيادة، وبناء على هذا يجب أن يعلو الإسلام سائر الأديان ومذاهب العالم، والمسلمون هم زبدة بنى آدم وسادة أهل العالم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) وقال فى موضع آخر: ﴿كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) يعنى أن الله سبحانه وتعالى فرض على نفسه أن يساعد المسلمين والمؤمنين حتى يحققوا الغلبة والظفر على سائر الأقوام. وقال فى موضع آخر: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (٤) يعنى أن الله سينصر دين الإسلام الحنيف على سائر الأديان والمذاهب حتى يظهره عليها جميعاً، وهو شاهد على هذا العهد، وهناك العديد من الآيات والأحاديث التى لاتعد ولا تحصى فى هذا الأمر ومنها "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه..".

(١) فصلت : ٤٢.

(٢) المنافقون : ٨.

(٣) الروم : ٤٧.

(٤) الفتح : ٢٨.

حقاً إن الله قد وعد وعداً صريحاً في هذه الآيات المحكمات وذلك بالنصر والظفر والعزة وعلو الكلمة، وذلك بقسم لا يقبل التأويل، ولا يمكن لأى مسلم مؤمن أن ينكر ذلك، إلا ذلك الذى ينحرف عن الصراط المستقيم، فيحرف كلام الله..^(۱)

(۱) سید جمال الدین اسد آبادی (الافغانی) رسالهء نیچریه، ص ۱۶۴-۱۷۰ وهذا هو النص الفارسی:

چرا اسلام ضعیف شد؟

إن الله لا یر ما یقوم حتی یغیروا ما بأنفسهم - ذلك بان الله لم یك مغیراً نعمة أنعمها على قوم حتی یغیروا ما بأنفسهم.

- این آیات قرآن کریم است و کتاب حکیم وهادی بصراط مستقیم و منادی دین حنیف شک نمیکنند بر او جر گمراهان دیوانه و زندیقان از خرد بیکانه. قرآن کتاب منزل از اسمانست بر بهترین پیغمبر ان تا خلق را هدایت کند، و از وادی ضلالت نجات بخشد. خداوند راستگوترین راستگویان است در وعدهء خود صادق است رسولان و پیغمبر انش هم معصومند دروغ نگویند، افترا نزنند، و خلق را به هدایت دعوت کنند .. حکیم مطلق جز بحکمت کار نکند و وعده و وعید و نماید، ستش تغییر نکند، و کلماتش تبدیل نپذیرد. «لا مبدل لکلماته» آیات محکمت بزبان دیگر است که ما نباید بفهمیم، آبا خداوند بر رمز صحبت کرده، و خلق را از هدایت بقرآن منع فرموده آیا اشارات و کتاباتی است که ما انراک نمیکنیم، آیا زبانی عجیب و غریب است که جز پیغمبر کسی نمیفهمد - استغفر الله - قرآن کتاب خداست که برای هدایت و راهنمایی فرستاده و بزبان عربی ساده بیان فرموده آنچه خلق را بکار آید و بر معاد و معاش لازم باشد در او ذکر نموده و شفای درد گمراهی است و درمان مرضی نادانی که (هدی و شفاء لا فی الصدور) زبان مرغان نیست، رمز و اشاره در محکمت آیاتش نگفته واضح و صریح بزبانیکه هر عربی دانی ملتفت شود نطق فرموده، یکمر شد دائمی و راهنمای ادبی است که تا روز قیامت بر قرار است و رافع اشتباه - هرگز باطل باو تردید نشود و از هیچ سو خلل بدو راه نیابد لایاتی الباطل من بین یدی و لا من خلفه - خداوند متعال در کتاب مجید خود ما مسلمانان را وعده ها فرموده نویدها داده مژده بزرگی و سیادت داده که بر حسب آنها بایستی اسلام بر سایر ادیان و مذاب عالم برتوی داشته مسلمانان زیده بنی آدم و سروران اهل عالم شوند چنانکه میفر ماید - والله العزة و لرسوله و المؤمنین ... در جای دیگر میفرماید - وکان فرضاً علینا نصر المؤمنین - یعنی برخداوند لازم و واجب است که مسلمانان و مؤمنان را یاری و کمک کند بر ساسیر مردم غلبه و ظفر بخشد نیز جای دیگر میفرماید - وکان فرضاً علینا نصر المؤمنین - یعنی برخداوند لازم و واجب است که مسلمانان و مؤمنان را باری و کمک کند بر سایر مردم غلبه و ظفر بخشد. نیز جای دیگر فرموده - لیظهره علی الدین کله و کفی بالله شهیداً - یعنی خداوند باید دین حنیف اسلام را بر تمام دینها و مذاهب علیه دهد تا آنان را سراسر فروگیرد و خودش در این عهد بکه کرده شاهد کافی است از قبیل آیات بسیار است و احادیث نیز در این قبیل آیات بسیار است و احادیث نیز در این خصوص بیشمار که منجمه است - الإسلام یعلو و لا یطی علیه - بلی در این آیات محکمت خد آوند بما صریحاً وعده نصرت و ظفرت و عزت و علو کلمه داده است بقسمی که أبداً قابل تأویل نیست و هیچ مسلمان دینداری نمیتواند انکار انرا بنماید مگر انکس که از صراط المستقیم شریعت منحرف گشته کلمات الهی را تحریف نماید.

هذه ترجمة كاملة لجزء من هذا المقال، وقد تحدث فيه جمال الدين عما وعد به الله عز وجل بنصرة الإسلام والمسلمين، ولكن متى يتم تحقيق هذا الوعد؟

يتم الوعد عندما يعمل المسلمون على حماية دينهم، والحفاظ عليه ضد أى معتد، وقد ظهر هذا فى بداية عهد الدولة الإسلامية، فمع قلة عددها وضعف جندها وضالة عتادها، فقد رفع الله من قدرها، وأوصلهم إلى أرقى درجات العظمة، وثبت أقدامهم على قمم الجبال الشامخة، كما زلزل الجبال الراسيات تحت أقدامهم، وكانت قلوب الأعداء ترتجف منهم خوفاً وهلعاً، وذلك لأنهم كانوا مع الله، فكان الله معهم، فقد قال الله فى محكم تنزيله ﴿إِنْ تَصَرُّوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) ﴿١﴾ ولهذا لم تقف أمامهم أبراج المجوس ولا حصون الرومان، وحيثما توجهوا دانت لهم الجيوش.

ولكن هذا الأمر العظيم تبدد، وأصاب الوهن والضعف هذه الأمة، وذلك بأن نقضوا عهدهم مع الله عز وجل، ولهذا فإننا إن نقارن حال المسلمين الآن بحالهم فى الماضى، فسنجد العالم الإسلامى الآن منهوب الخيرات منهوك القوى، مسلوب الإرادة، واحتل الأجانب غير المسلمين ديارهم وأراضيهم، حيث سيطرت إنجلترا على الهند ومصر والسودان وغيرها، كما احتلت فرنسا مراكش وتونس والجزائر، واستولي الروس على التركستان الغربية وما وراء النهر والقوقاز، كما احتلت الصين تركستان الشرقية.

ومحور الحديث أن المسلمين قد بعثوا عن الله وعن دينه الحق، فجزاهم الله شر الجزاء، وتخلّى عن نصرتهم، فإن عادوا إلى جادة الإيمان ونصرة دين الحق، حقق الله وعده، ونصر الإسلام والمسلمين وأعادهم سادة العالم وحكامه!

* * *

(١) سورة محمد ، آية : ٤٧.

وقد شارك الشاعر الإيراني الثائر فرخى اليزدى^(١)، جمال الدين الأفغانى فى بثه الشكوى لما آل إليه حال الإسلام والمسلمين، حيث ربط فرخى بين ما أصاب إيران من ضعف ووهن نتيجة تقاعس أبنائها، وبين ما أصاب الإسلام والوطن الإسلامى كله من تخلف وتقهقر نتيجة أيضاً لانعدام الحمية لدى المسلمين الذين لم يهبوا دفاعاً عن دينهم وأوطانهم، فقد نظم فرخى مريعاً بعنوان "إيران - إسلام" وما قاله : ما ترجمته:

إيران - الإسلام

- أيها الإيراني المحب لوطنه المؤمن بالإسلام
- أين الهمة؟ فقد ضاع الوطن كما ضاع الإسلام!
- لقد انتكس علم إيران بفعل الأعداء الخاقدين
- كما أدمى جور الظالمين قلب الرسول (عليه السلام)
- وألَم الحزن بالخلفاء جميعاً، لتفشى الكفر
- كما لا يمكن وصف حال حيدر، وما ألَم به لسطوة الكفر.
- أحياناً ترتفع الآهات والصيحات والثورات
- ضد كل خائن يتاجر بالإسلام

(١) فرخى اليزدى: شاعر الوطنية الأولى فى إيران خلال النصف الأول من القرن العشرين، وقد واصل هجومه على حكام الدولة القاجارية التى حكمت إيران قبل عصر رضا شاه البهلوى، لدرجة أن حاكم يزى من قبل القاجاريين اعتقله وخاطف فمه، ومع هذا لم يكف عن مواصلة كفاحه الوطنى ضد الملوك الضعاف الخائنين، وضد القوى الاستعمارية، وعندما تولى رضا شاه لم يتوقف فرخى عن التعرض له كلما حاد عن العدل والحق، وقد انتهى أمره بالموت غيلة فى السجن وذلك عام ١٩٤١م.

- وكم ثارت غيرة الشعوب الإسلامية مدوية .
- وكانوا فى ثوراتهم متحدين متعاضدين .
- وجاهدوا فى التصدى للأجانب حفاظاً على القرآن
- فإما أن يوفقوا ، وإما بأرواحهم مضحون
- وكى لايتحول المسجد اليوم إلى كنيسة .
- وحتى لايصبح الوطن فى الغد مستوطنة للنصارى
- وكى لا يكون الوطن لعاقدى الزنار وقاطنى الأديرة
- لا بد من انتفاضة إسلامية ، وإن لم يحدث ذلك ،
- فستعانى إيران المظالم ، ويصبح الإسلام غريباً
- وسيصيب الدمار كليهما أمام جور أهل الصليب
- ما أجمل ذلك اليوم الذى كان للإسلام مناضلوه .
- وكان لهم قائد وزعيم هو الرسول محمد .
- وكان له صدق الصديق وفدائية الفاروق .
- وسماحة عثمان وشجاعة الحيدر
- وأشرق وجه الإسلام بأمثال حمزة
- كما اشتد عود الإسلام بمدد جعفر
- ليت الإسلام يحظى اليوم بالعديد من المناضلين .

أمثال ابي ذر وسليمان .

- وبأمثال الزبير أشجع الشجعان .

الذين ضحوا بأهوائهم تحت النصال

إذ لعل محاربو أحد وبدر في سبات

حيث لم يسارعوا لنصرتنا في هذه الأيام

- ولكن لن يصيب الإسلام ما أصاب سالف الأمم من اندثار .

إذ مادام سيف الإسلام موجوداً، فقد حان وقت العمل .

- وأين سعد بن معاذ بن جبل

فقد كان محارباً صلداً لا شبيه له ولا بديل

كى يصون الإيمان والإسلام من حملات الكفار

ويحفظ القرآن من جبروت أهل الإنجيل^(١)

(١) فرخى اليزدى: الديوان، المطبعة الخامسة ١٣٤١ سن تهران ص : ١٥١-١٥٢ .

إيران - إسلام

أى وطن پرور ایرانی اسلام پرست همتى ز آنکه وطن رفت چو اسلام زدست

ببرق ایران از خصم جفا جو شده پست دل پیغمبر را ظلم ستمکاران خست

خلفا را همه دل غرقه بخو نست ز کفر

حال حیدر تتو ان ان گفت که چونست ز کفر

کاه آنست که زین ولوله وجوش و خروش که بپا گشته زهر خائن اسلام قروش

غیرت توده اسلام در آید در جوش همگی متحد و متفق ودوش بدوش =

۶ - الدعوات إلى الاتحاد الإسلامي :

لعل الحديث عن ضعف المسلمين والبكاء على مجدهم الماضي، والشكوى مما ألم بهم خلال العصر الحديث من تدهور وتخلف، لعل هذا الحديث كان الدافع لدى جمال الدين الأفغانى وغيره من نوى الرأى والمشورة من السياسيين والأدباء لكي ينادوا

= حفظ قرآن را بر دفع أجنب تازند یا موفق شده یا جان گرامی بازند

مسجد ار باید امروز کلیسا نشود یا وطن فردا منزلگه ترسا نشود
سبحه زنان و حرم دیر بجبرا نشود شور اسلامی بایست، ولی تا نشود

بود ایران ستم دیده چو اسلام غریب وین دو معدوم ز جور و ستم أهل صلیب

حبذا روزی کاسلام طرفداری داشت چون رسول مدنی (ص) سید و سالار داشت
صدق صدیقی و فاروق فدا کاری داشت عمر وزن مرحب کش حیدر کراری داشت

روی حق جلوه کراز حمزهء نام آور بود پشت اسلام قوی از مدد جعفر بود

داشت امروز کر اسلام نگهبانی چند یا مسلمانی چند بوذر و سلمانی چند
یا که ما نند زیر اشجع شجعانی چند کی شدى پآمال از دست غرض رانی چند

غازیان أحد و بدر مگر در خوابند کی بدنیا ز پی نصرت ما نشستا بند

هرگز اسلام نید خوار چنین پیش ملل سیف الله اگر داشت کنون حسن عمل
شد کجا سعد معاذ ابن معاذ ابن جبل کو "ضرار" آن بل نام آور بی شبه و بدل

تا مصون دارن از جملهء کفر، ایمان را ز أهل انجیل بجار حفظ کند قرآنرا

بفكرة "الاتحاد الإسلامي" كى يكون السلاح الذى يمكن الدول الإسلامية من التآخى والترابط أملاً فى التصدى لمحاولات الغرب المسيحى والصهيونية العالمية، وحتى يستعيد العالم الإسلامى مجده وعظمته. ومن الشعراء الذين أكثروا من الحديث عن الدعوة " إلى الاتحاد الإسلامى" شاعر إيران الكبير محمد تقى بهار، وكثيرة مانظم فإننا سنورد بعض أبيات من قصيدتين له تحدث فيهما عن هذا الاتحاد الإسلامى المنشود، وبيان فائدته المرجوة، أما العمل الأول فهو ترجيع بند بعنوان "اتحاد اسلام" وقد نظمته فى خراسان عام ١٢٨٧ هـ.ش (١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧م)، محاولاً أن يحرض إيران والإيرانيين على نبذ الاختلافات الذهبية، وتشجيعهم على الاتفاق والاتحاد مع دول العالم الإسلامى، وكذلك محاولة التعفف عن الثنائية والنفاق أملاً فى أمة إسلامية موحدة قوية، ومما قاله ما ترجمته:

- ما أكثر تساؤلك لم أصيبت الهند وأفغانستان وخوارزم وإيران بالخراب والدمار؟

- ما أكثر تساؤلك، لم استولى الدب المهيّب على عرين الأسد؟

- وما أكثر تساؤلك، لم عجزت سواعد الأبطال عن العمل وقت الحاجة إليها؟

- وما أكثر تساؤلك، لم أصبحنا أسرى؟ ولماذا حريتنا مكبلة؟

ولكن، الآن وجبت الثورة والتعاون والتآخى

فاليوم يوم الاتفاق والاتحاد!

- الهند وتركيا ومصر وإيران، تونس وفاس والقوقاز وأفغانستان

- كلها مختلفة فى الهوية متفقة فى الدين، مختلفة فى الأجساد، متفقه فى الأرواح.

- جميعهم أتباع دين أحمد ، كلهم تابعون للنص القرآني
 - وإن ييك مسلم فى طنجة ، سرعان مايتألم المؤمن فى بدخشان

حقا هذا هو طريق العباد

والیوم یوم الاتفاق والاتحاد (۱)

(۱) ملك الشعراء بهار: الديوان، ج۱، ص ۱۵۰-۱۵۲، والنص الفارسی هو:

چند گونى چرا مانده ويران	هند وافغان و خوارزم و ايران
چند گونى چرا بسته ماوا	خرس پتياره برجای شييران
چند گونى چرا روز حاجت	مانده از كار، دست دلييران
چند كونى چرا ما اسيريم	زانكه آزادی ما اسييران

**جنیش ودرستی و وداد است
 روز یکرنگی واتحاد است**

هند وركيه و مصر و ايران	تونس وفاس و قفقاز وافغان
در هويت دو ، اما بدین ، يك	مختلف ، تن ولى متحد ، جان
جملگی پیرو دین احمد	جملگی تابع نص قرآن
مسلمی گر بگرید به طنجه	مومنی نا لد اندر بدخششان

**أرى این راه ورسم عباد است
 روز یکرنگی واتحاد است**

أما النص الثانى فهو عبارة عن مثنوى سبق وأن نظم بهار عام ١٢٨٦ ش (١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦ م)، أى قبل النص السابق بعام، وقد نظم به أيضاً وهو فى خراسان عندما اشتعلت ثورة الشعب فى إيران للمطالبة بحياة دستورية، وقد انضم بهار بعد ذلك إلى المطالبين بالحياة النيابية، وقد حاول فى هذا المثنوى تقديم النصيح للشاه القاجارى كى يحقق أمانى الشعب وألا ينساق وراء استبداده وجبروته، ويظن أن اعتماده على القوى الأجنبية الممثلة فى كل من إنجلترا وروسيا سيحميه من غضب الشعب، كما حاول أن ينبه الشاه إلى أن الود والسلام مع الدولة العثمانية أفضل من التبعية للمستعمر الأجنبى الذى يحاول تعميق الخلاف بين إيران والخلافة العثمانية بحجة الاختلاف المذهبى بينهما، وقد ركز بهار فى تحذيره هذا على المطالبة بالاتحاد الإسلامى، والتعاون بين جميع الشعوب الإسلامية ضد القوى الاستعمارية، لأن فى الاتحاد قوة ومنعة، وهذا هو السبيل الوحيد كى تستعيد إيران وكل دول العالم الإسلامى حريتها واستقلالها وسابق مجدها، ومما قاله بهار فى هذا المثنوى الذى يصل عدد أبياته إلى المائة والأربعين بيتاً، نذكر ترجمة لعدد قليل من أبياته مركزين على تلك الأبيات التى تتحدث عن الاتحاد الإسلامى وضرورة الود والوثام بين جميع الشعوب الإسلامية وبخاصة بين إيران والدولة العثمانية، وما يتبع ذلك من نبذ لأى عصبية مذهبية افتعلتها إيران منذ قيام الدولة الصفوية الشيعية المذهب (٩٠٥ هـ) وحتى الآن!

- الأمة العثمانية ونحن أمة واحدة، إننا نبذو جماعتين ولكن مبدأنا واحد.

- ونحن وهم جماعتان نبتنا من منبت واحد، لذا فليس بيننا وبينهم حديث عن نحن أو عن الأنا.

- كنا ذات يوم طفلين صغيرين، أرضعتنا أمنا لبن الإسلام.

- وجمعت بيننا الحبة والتعاطف، وعقدنا العزم سوياً على خدمة أمنا.

- ٥- ولكن نتيجة للتحدلق والادعاء، أصبحنا أذلاء مقهورين .
- وأخذ كل منا يجرى وراء أهوائه ومصالحه الذاتية، ويبذل الجهد والعرق لرواج سوقه .
- وقطعنا أو اصر الأخوة بيننا، فاشتعلت نار الفتن فى عالمنا كله .
- وقد أملت بنا الحيرة والاضطراب نتيجة الجهل، ولم ندرك حقيقة هذه المعانى .
- وهكذا عندما يكون الغصن وحيداً، سرعان ما يسقط أمام عواصف الخريف .
- ١٠- ولكن عندما تتجاور الأشجار وتتحد، سرعان ما ترتفع الأغصان كبرها وصغيرها .
- فيا ليت المسلمين، ياليت ! يرفعون من بينهم الشعور بالإثنية .
- فإن أمكنهم الاحتماء بحسن الجوار والتعاون، لأمكنهم النهوض كالأسود مرة أخرى .
- فيا أتباع الدين القويم، ويا أبناء الآباء الأقدمين .
- لم التفرقة بين سنى وشيعى؟ ولم السعى للإضرار بهذا أو بذاك؟
- ١٥- جميعنا مسلمون وأتباع دين واحد، وقد سبق أن تعلمنا جميعاً فى مدرسة واحدة .
- الدين واحد والمقصود واحد، الطريق واحد والعبادة واحدة والمعبود واحد .
- اليوم، وبقوة العلم والفضل، قد تلاشى الجهل وتبدد الظلم .
- وساد العدل الدنيا وانتشر، وتجددت أرواح أهل العقل وقلوبهم .
- وأصبح الصلح عياناً، واختفت الحروب، ولم يعد هناك مجال للتخلف والتقهقر؛ فلم الاختلاف؟

٢٠ - إننا معا خير عون لانتشار القرآن، وعلينا أن نفعل كل ما يليق بذلك .
- إذ أن كل ما يرسخ دعائم هذا الدين، قاعدته العمل بالقرآن .
- ولكنكم كم ابتعدتم عن جوهر القرآن ! وكم أذيتم روح النبي عليه السلام .
- وما يفعله الصليبيون ويسعون من أجله، هو محاولة التخلص من القرآن .
- ولكن طالما كان القرآن معنا ونحافظ عليه، فسيظل أساس الإيمان قوياً في معسكرنا .

٢٥ - فحينما يوجد القرآن، يوجد الإيمان، ولكن إن فقد أحدهما، فقد الآخر !
- أساس حريتنا في العصر الحديث كذلك، قائم تماماً على التمسك بالقرآن .
- وما أجمل أن تنفض الأمة الإسلامية يديها من الحقد والضعينة فيما بينها .
- لأن زيادة الشك وسوء النية بيننا، هما خصم أمتنا وعدوى ديننا .
- ولذا، فلا حيلة لنا غير الاتحاد، وهذا طريق الرشد، ونعم الرشد !
٣٠ - هذه هي النصيحة، فاصمت يابهار، وابحث عن نصيحة غالية لقلبك ألا وهي :

لاحيلة لنا إلا في التأسى بالدين وكفى !

وهذه خاتمة الخير وكفى !^(١)

(١) ديوان بهار، ج ٢، ص ١٣٩-١٤٥ .

هذه دعوة من مفكر إيراني وشاعر له مكانته، وقد أدرك أن الخلافات المذهبية التي قامت عليها الدولة الصفوية في إيران منذ عام ٩٠٥ هـ وماثلتها من دول وحكومات

= ملت عثمانی با ما یکی است
 ما دو گروہیم زیك پیسرهن
 روزی بودیم دو طفل صغیر
 هر دو بهم گرم دل و مهربان
 ۵- لیک شدیم از پی بیرایه ای
 جمله پی مصلحت کار خویش
 ما دو برادر را بر هم زدند
 اینک از آن جهل خبر گشته ایم
 چونکه بتنهایی باشد نهال
 ۱۰- چونکه تنیدند درختان بهم
 ای کاش، ای کاش اگر اسلامیان
 تا که بهم سایه دلیری کنند
 ای همگی پیرو دین قوم
 سنی و شیعی ز که و کیستند ؟
 ۱۵- جمله مسلمان وزیک مذهبند
 دین یک و مقصدیک و مقصودیک
 و امروز آن تیروی علم و هنر
 گیتی از عدل پر آوازه شد
 صلح عیان گشت و نهان کگشت جنگ
 ۲۰- هر دو بهم یاری قرآن گنید

ما دو جماعت را مبدأ یکی است
 نیست میانه سخن از ما و من =
 داد بما مادر اسلام شیر
 خدمت مادر را بسته میان
 هر یک مقهور کف دایه ای
 نیز پی گرمی بازار خویش
 آتش از این فتنه بعالم زدند
 و از سر این معنی برگشته ایم
 می شود از باد خزان پایمال
 شاخه کشیدند چه بیش و چه کم
 رسم دوئی را ببرند از میان
 بار دگر جنبش شیری کنند
 ای پسرانی پدران قدیم
 در پی آزار هم از چیهستند ؟
 جمله سبق خوانده، یک مکتبند
 ره یک و مقصدیک و مقصودیک
 جیل و استبداد نهان کرده سر
 جان و دل اهل خرد تازه شد
 نیست دگر هیچ مجال درنگ
 آنچه سزاوار بود آن کنید

قد أدت إلى ضعف العالم الإسلامي وتفككه وأتاحت الفرصة للصليبيين الجدد في الغرب من إنكاء نار هذا الخلاف، عملاً بمبدأ فرق تسد، وباليات العالم الإسلامي يدرك خطر هذه الفرقة المذهبية. إلهنا واحد، ونبينا واحد، وديننا واحد وقرآننا واحد فلم الفرقة؟ ولم التشتت؟ ولم الانقسام؟

* * *

وإذا كان الأدب الحديث في أي لغة قد اتسعت دائرة فنونه، ولم يعد يقتصر على القصيد وماشابهها من فنون الشعر، أو المقال وما ناظره من فنون النثر التقليدية المتوارثة، فقد استحدثت أنماط وفنون جديدة كالرواية والقصة والمسرحية وغيرها من الفنون التي أثرت الآداب الحديثة، وعلى هذا فإننا سنشير إلى بعض هذه الأنماط

قاعده كار بقرآن نهاد	= آتکه مر این دین را بنیان نهاد
جان پیغمبر را آزرده اید	معنی قرآن زمیان برده آید
از پی گمنامی قرآن کنند	عیسویان کاین همه جولان کنند
باشد مان رشته ایمان بدست	تا که بود حمار قرآن بدست
این رود البسته اگر آن رود	۲۵- چونکه بود قرآن، ایمان بود
جمله نهفته است بقرآن ما	مایه آزادی دوران ما
دست بشویند زکین و ستیز	خوش بود ار ملت اسلام نیز
دشمن ملک و عدوی کیش ما	زانکه فزون است بداندیش ما
این ره رشده است فنعم الرشاد	چاره ما نیست بجز اتحاد
جوی دل پند نیوش ای بهار	۳۰- پندهمین است خموش ای بهار

چاره ما یا ری دین است وبس
خاتمه اخیر همین است وبس

بصورة سريعة لأننا لن نستطيع أن نلم بكل هذه الأنماط الأدبية فى جزء من كتاب! أملين أن يكون الأدب الإسلامى فى إيران الحديثة موضوع دراسة مستقلة فى المستقبل القريب!.

٧ - من الأدب المسرحى:

وأول هذه الأنماط الأدبية الحديثة الوافدة إلى الساحة الأدبية الإيرانية بتأثير من الآداب الغربية، هو الأدب المسرحى، ومع أن الإيرانيين قد وظفوا هذا الفن فى معالجة قصصهم الأسطورية والشعبية فى المقام الأول، وبخاصة فى معالجة قصص الشاهنامة، إلا أنه قد وجدت بعض المسرحيات المأخوذة عن القصص الدينى أو عن المنظومات الأدبية الفارسية الشهيرة، كما وجدت مسرحيات تعالج بعض المشاكل الاجتماعية أو الأنماط الأخلاقية المستمدة من أخلاقيات الإسلام وتعاليمه.

ومن المسرحيات الفارسية التي عالجت واحدة من أشهر القصص القرآنى مسرحية (يوسف وزليخا) تأليف ميرزا سليمان، وقد صدرت هذه المسرحية عن المطبعة الإتحادية فى طهران، دون أن يحدد مؤلفها أو ناشرها تاريخ صدورها، وقد أثرت الحديث بصورة مقتضبة عن هذه المسرحية لأن أدباء الفرس فى العصر الحديث وبخاصة فى الربع الأول من القرن العشرين الميلادى قد حرصوا على محاولة النهوض بأدبهم معتمدين فى ذلك على محاكاة الأدباء المرموقين فى العصور الأدبية السابقة، وهذه الفترة تعرف فى تاريخ الأدب الفارسى بفترة اليقظة والإحياء.

ولما كانت قصة يوسف وزليخا من أعظم القصص التى تبارى الشعراء والكتاب الفرس عبر العصور المختلفة فى نظمها وسردها وعلى رأسهم الفردوسى والجامى كما سبق أن تحدثنا عن ذلك، فإن أدباء الفارسية فى العصر الحديث تمشيأً مع سياسة عصر اليقظة والإحياء قد أقبلوا على هذه القصة نظماً ونثراً. وحاول الكثيرون منهم

تقليد الأقدمين فيما كتبوا، كما حاول البعض الآخر إعادة صياغتها فى قالب أدبى جديد. ومنهم ميرزا سليمان الذى قدمها لنا فى صورة عمل مسرحى، وبما يستلزمه هذا الفن المسرحى من إعادة الصياغة لأحداثها!

وقد جاءت المسرحية فى خمس وتسعين صفحة، أما عدد ممثلها فقد تجاوز الأربعة ممثلأ موزعين بين الأبطال الأساسيين وأهمهم يوسف ويعقوب وزليخا ووصيفتها والعزيز، أما الممثلون المساعدون فمنهم أخوة يوسف وابناه وساقى الملك وخبازه والخدم والجوارى والمغنيات والراقصات والعازفات وبعض الوزراء والمنجمين وكذلك عمال السجن وحراسه، إلى غير ذلك من الممثلين الذين يحتاجهم البناء المسرحى.

وقد قسم المؤلف المسرحية إلى خمسة فصول أساسية، تضم أربعة وعشرين مجلسأ، وكذلك خشبة المسرح تتغير فى كل فصل من فصول المسرحية الخمسة، وأحيانأ كانت تتغير من مجلس إلى مجلس داخل الفصل الواحد مما يقضى على الرتابة ويجدد النشاط لدى المتفرج، فقد جرت أحداث الفصل الأول فى أرض كنعان حيث الصحراء والرعى والبئر وغيرها من المناطق التى تتفق وطبيعة الوهاد والصحارى، أما الفصل الثانى فقد انتقل بنا المخرج إلى قصر زليخا بما فيه من مظاهر أبهة متمثلة فى فرش وثير وخدم وجوار وحفلات غناء وعزف موسيقى، مما يثرى العمل المسرحى بالحركة والنشاط والحيوية.

وفى الفصل الثالث يصور المخرج أرض مصر وبخاصة منزل العزيز وما به من ثراء ونعيم ، وكذلك سوق العبيد حيث عُرِض يوسف للبيع وكذلك كثرة الحقائق والقصور التى كانت تنعم بها مصر فى ذلك الوقت، وماكان يقام فيها من حفلات وولائم تقدم فيها أشهى الأطعمة وأعذب الألحان.

وفى الفصل الرابع يتغير المسرح، وإذا به وقد فقد المناظر الخلابة والأبهة التى ميزت الفصلين السابقين، وينقلب المسرح إلى صورة مقبضة، صورة السجن الذى زج بيوسف فيه.

وأخيراً يأتى الفصل الخامس، وقد التأم شمل أسرة يعقوب بعد أن جاء الأخوة إلى مصر طلباً للعون، وقد أكرم يوسف وفادتهم بعد أن أعطاهم درساً قاسياً فيما فعلوه معه.

وبعد أن التأم شمل يعقوب ويوسف وباقى الأخوة تنتهى المسرحية بفواصل غنائى تقدمه سارة ابنة أشرف أخى يوسف، وقد لخصت فى هذا الفصل قصة يوسف منذ البداية حتى النهاية، وكأن المؤلف أراد أن يلخص أحداث المسرحية كلها فى هذا الفاصل الغنائى قبل أن تسدل الستار وتنتهى المسرحية.

وهكذا كانت خشبة المسرح تتبدل وتتغير مناظرها حسب المضمون العام لكل مجلس ولكل فصل.

ومادامت المسرحية قد شملت جانباً غنائياً، فقد قدم المخرج أكثر من لوحة غنائية إما فى صورة غناء فردى أمام زليخا، وإما فى صورة تابلوه جماعى.

أما الحوار الذى يعد الركن الأساسى للمسرحية، فقد كان متوافقاً مع أحداث كل فصل وكل مجلس، وكان الحوار إلى جانب كونه نثرياً، فقد كانت بعض أجزائه تأتى شعراً، كما جاء على لسان زليخا ويوسف وهى تعرض عليه حبها ويجيبها بالرفض والامتناع عن الانسياق لشهواتها، ومن بين ما قالاه نظماً وهو يذكرها بأنها زوجة عزيز مصر، وأن زوجها يستطيع أن يوفر لها كل أسباب الراحة والرفاهية، أما هو فليس إلا عبداً ذليلاً؛ مايلى :

زليخا : إنه عزيز مملكة مصر	أما أنت فعزيز مملكة القلب
جميع العشاق قتلاك	من فرط حسنك وبهاك
يوسف : إننى غريب وذليل وضعيف	وليس لى من معين غير الله

ليس هناك من قتلتَه غير يعقوب المكلوم الحزين! (١)

وكذلك ما نظمته المغنيات بأمر من زليخا حول تقدم عجوز لشراء يوسف مقابل عدة حبال نسجتها بيديها، وهذه ترجمة لهذه الأبيات:

- تلك العجوز الضعيفة الواهنة، كانت قد نسجت عدة حبال .

- فتقدمت وسط هذا الجمع الحاشد قائلة : أيها الدلال الكنعاني .

- إنني جد مضطربة مما بي من رغبة في هذا الغلام، لذا فقد نسجت عشرة حبال .

- خذها مني، وبعه لي، وضع يده في يدي دون تردد أو جدال .

- ضحك الرجل، وقال : أيتها العجوز، ليس في مقدورك شراء هذا الدر اليتيم !

- لقد عرضوا في هذا المحفل ثمانمائة جرة من ذهب، فأين هذا من حبالك أيتها العجوز؟

- قالت العجوز : إنني على يقين بأنه لا يوجد شخص سيشتري هذا الغلام بمثل ما عرضت .

(١) يوسف وزليخا بشكل درام ص ٤٠ .

عزیز ملک دلی تو	زليخا: عزیز ملک مصر است أو
زبس خواب و خوشگلی تو	همه عشاق کشته، تو
جسز خدا یاری ندارم	یوسف: من غریب و خاروار وزارم
غیر یعقوب فکارم	کس نباشد کشته، من

- ولكن يكفيني أن يقول العدو والصدیق: إن هذه العجوز كانت من مشتریه (۱)

وقد ذكر المؤلف فی بداية المسرحية أن ما ورد بها من أشعار بعضها منقول عن منظومات السابقين وبخاصة الفردوسی والجامی والبعض الآخر من نظمه هو، وكان يضع ما ينقله عن الآخرين بين أقواس حتى لا يتهم بالسرقة أما ما كان من نظمه فيكتبه دون أقواس.

ولاشك أن استخدامه عنصر الشعر فی بناء نثری، كان الغرض منه الارتفاع بمستوى الأسلوب، وكذلك تذكیر المتفرج من أنه قد اعتمد فيما ألف على بعض ما جاء فی المنظومات الشهيرة السابقة.

ولكون العمل المسرحی محدود بزمن غالباً فقد حرص ميرزا سليمان على أن ينهى مسرحيته بمقدم يعقوب وبنیه إلى مصر ولقائهم بيوسف عليه السلام، ولم يحاول أن يواصل أحداث القصة كما جاءت في بعض المنظومات الفارسية، من حديث عن علاقة يوسف بزيخا بعد مقدم يعقوب، وتدخله لإقناع ابنه يوسف بالزواج منها، وما

(۱) داستان: يوسف وزيخا بشكل درام؛ ص ۲۵.

ريسمانی چند برهم رشتہ بود
گفت کاي دلال کنعانی فروش
ده کلابه ريسمانش رستہ أم
دست در دست منش نه بی سخن
نیست در خورد تو این در يتيم
چه تو وجه ريسمان ای پير زن
کاین پسر را کس نه بفروشد بين
گويد اين زن از خيريداران اوست

آن زن پيری بخون آغشته بود
در میان جمع آمد با فروش
ز آرزوی این پسر سر گشته أم
این زن بستان وبا من بيع کن
خنده آمد مرد را گفت ای سليم
هشت صد گنجيش بهادر انجمن
پير زن گفتا که دانستم يقين
ليک اينم بس که چه دشمن چه دوست

تلا ذلك من أحداث سبق الحديث عنها أثناء عرض القصة عند كل من الفردوسى والجامى فى موضع سابق من هذا الكتاب!

* * *

أما المسرحية الثانية فهى من مسرحيات الفصل الواحد، وقد جاءت ضمن مجموعة المسرحيات التى ألفها تقى مشكوتى^(١) ونشرها فى طهران عام ١٣٣٥ ش (١٩٥٥م) وقد ضمت هذه المجموعة خمساً وعشرين مسرحية من مسرحيات الفصل الواحد، أقصرها يقع فى أربع صفحات وأطولها يقع فى اثنتى عشرة صفحة، وهذه المسرحيات متنوعة الأغراض فبعضها فى قالب فكاهى، وبعضها يعالج موضوعات اجتماعية، والبعض الآخر ذات مغزى أخلاقى...

وقد ذكر المؤلف أنه عنى فى هذه المجموعة بأن تكون جميع مسرحياتها متوخية الأخلاق والتهذيب المستمد من واقع تعاليم الدين الإسلامى الحنيف وطبيعة الشعب الإيرانى، حتى تكون إلى جانب القيمة الفنية، لها قيمتها الموضوعية، وليس الغرض منها الإضحاك للإضحاك ولو حتى فى المسرحيات الهزلية منها، لأن رسالة الأدب يجب أن تكون فى خدمة المجتمع، وأن يكون بمثابة المرشد لقارئيه أو لمشاهدى مسرحياته، وقد ألف هذه المسرحيات إما لعرضها على خشبة المسرح أو لتقديمها فى برامج إذاعية، كما حرص على أن تكون لغتها سلسلة حتى يستطيع الجميع من الكبار أو الناشئة قراءتها واستيعاب مضامينها الفنية والأخلاقية.

وقد اخترت من بين هذه المجموعة، مسرحية "بهشت" أى "الجنة" وهى مسرحية ذات مغزى أخلاقى، كما صنفها المؤلف نفسه^(٢) وهى تقع فى خمس صفحات فقط،

(١) تقى مشكوتى: نمايشنامه ها، تهران: ١٣٣٥ ش.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٣٢-١٣٧.

وأبطالها ثلاثة، شخصيتان محوريتان هما "ليلا" و "زيلا" وشخصية مساعدة تتمثل في حارس الجنة.

وتبدأ المسرحية بأن يرفع الستار بمصاحبة عزف موسيقى نشاز يعبر عن القلق ويظهر المسرح كغرفة نوم ترقد بها شقيقتان، والإضاءة خافتة تعبر عن أن الوقت ليل، وفجأة تسيقظ إحدى الفتاتين منزعجة وهى ليلا ويبدأ الحوار.

ليلا : زيلا! عزيزتى زيل! اصحي، إننى خائفة، زيلا!

زيلا : تتنهّد ثم تغط فى نومها

ليلا : هيا استيقظي، عزيزتى زيلا، إننى خائفة، زيلا!

زيلا : ماذا؟ ما الخبر؟ لماذا لا تتركينى أنام؟

ليلا : عزيزتى زيلا. إننى لا أستطيع النوم هذه الليلة، أرجوك الجلوس معى حتى نتسامر ونتحدث!

زيلا : عجباً، أنت "رايقة" إننى راغبة فى النوم، حرام أن أستيقظ، وفى أى شىء سأحدث معك؟ لعلك جننت، نامى يا أختى! مم تخافين؟

ليلا : إننى لا أرغب فى إيقاظ أمنا التى أوت إلى حجرتها كى تنام، كل ما أريده أن نتسامر ونتحدث قليلاً حتى يأتينى النوم!

زيلا : حسنا، انتظرى حتى أضىء مصباح الغرفة (وهنا يسمع صوت مفتاح النور) والآن. ما الحكاية ؟

ليلا : انتهى إلي يا عزيزتى زيلا: هل تعرفين لماذا يجافينى النوم الليلة؟

زيلا : لماذا؟

ليلا : ذلك لأننا ارتكبنا اليوم ذلك العمل الغاية فى السوء!

زيلا : أى عمل غاية فى السوء هذا؟

ليلا : اليوم عندما نزعنا القفل، وقلت: هيا ساعدينى، وطلبت منى أن أدلف داخل "الخزانة" وأحضر بعض الحلوى، هذا العمل هو السرقة بعينها. ولما كانت أمانة لا تعرف شيئاً عن هذا الأمر، وفعلناه دون علمها، فهذه سرقة!

زيلا : أفيقى. لقد رغبتنا فى الحلوى، فأخذناها، وأكلناها. فأى سرقة هذه؟

ليلا : لا؛ أفيقى أنت يا زيلا العزيزة. إن كل مانحبه ونرغبه تقدمه لنا أمانة وأبونا، ولكن أى شىء يتم دون معرفتها ونأخذها ونأكله، هذا يسمى سرقة! ومصير الإنسان اللص إلى جهنم!

زيلا : لاشك أن مصيرك إلى جهنم. وفى المقابل سيكون مكانى الجنة!

ليلا : لا، إنك مخطئة، أنا لا أفعل مثلك بأن أكذب، بأن أكذب دائماً وألحق الأذى بأمانة، وأتغيب عن درسى! إننى لم أفعل أى سوء بدر منى اليوم. وعاد الجميع؛ أمى وأبى ومعلمتى، راضون عنى، لذا فمكانى هو الجنة! * * *

ويتواصل الحوار بينهما حتى وصلا إلى ماذا يعرفان عن الجنة، ومما قالت ليلاً بما يتفق وتفكيرها وسنها.

ليلا : لقد قالت معلمتى ذات مرة، إن الجنة مكان طاهر، تكثر بها الفواكه المتنوعة والطيبة، وكذلك الورد الزاهية الألوان، والأشجار المورقة الباسقة وفيها كل ما يتمناه قلبك!

ثم يتواصل الحوار بينهما، وكانت نغمة الحوار الصادر من زيلا ينم عن استخفاف بأختها ليلا وسخرية مما دفع ليلا للقول: ألم أقل لك أكثر من مرة أنك أختى الكبرى ويجب أن تفعل ما يجعلنى أضعاف من احترامى لك.

زيلا : لماذا تسخرين مني؟

صه، صه، ومن ذا يولى حديثك أى أهمية؟! دعيني أنام!

سرعان ما غطت زيلا فى نوم عميق، أما ليلا فقد أمسكت بكتاب كي تقرأ فيه حتى يغزوها النوم، وقد أدارت المذياع على موسيقى هادئة، وفجأة تستيقظ زيلا.

زيلا : ليلا! ليلا! استيقظي! لقد رأيت الجنة فى منامى!

ليلا : أتقولين الصدق؟ هيا أخبرنى!

زيلا : لقد رأيت فى المنام عرشاً عظيماً وأنت تجلسين عليه، ويحيط بك العديد من الملائكة يلبسون لك كل ما تطلبين، وقد أحضروا لك كل مالد وطاب من طعام، وكنت غاية فى السعادة لدخولك الجنة، ولكنى على العكس كنت بانسة، وقد التمتست من حارس الجنة أن يدخلنى حتى أرى أختى، ولكنه أجاب قائلاً:

حارس الجنة : هل تدركين كم كانت أختك تحبك، وفى المقابل كنت تسخرين منها ولا تنبهين بها، هل تدركين كم كانت ليلا تحترم والديها وتنفذ أوامرها بكل دقة وطواعية، وأن أختك كانت جد عطوفة على الفقراء والأطفال الصغار، وأنها لم ترتكب أى خطأ ولو صغير طوال عمرها. بعكسك أنت، فلا أحد راض عنك وستكونين من بين الذين سيساقون إلى جهنم!

زيلا : ارتمتيت على الأرض باكية، وقلت مرة أخرى سأتوب ولن يصدر منى أى عمل سيئ ولن يسمع منى أحد حتى الصغار حرقاً واحداً يؤذيهم، وسأجتهد فى إرضاء والدى والذى، فقبل حارس الجنة حديثى وسمح لى بالدخول إلى الجنة!

وما أن دخلت زيلا الجنة حتي رحب بها الملائكة معلنين أن أمة تابت إلى ربها،
فمرحى مرحى بها! ثم تركوها تمضى إلى حيث توجد أختها ليلا!

زيلا : حقا عزيزتى ليلا. لن أكون مرة أخرى زيلا النافرة العاصية الكاذبة
العديمة الأخلاق. سأكون من اليوم فتاة مهذبة أحافظ على
دروسى، وأسمع الكلام وأنفذه، وكم أستمسك أن تصفحى عما
بدر منى قبل ذلك فى حقل من كلام سىء
ليلا : لك ما أردت يا أختى العزيزة، أى حديث هذا؟ إننى أحبك كنفسى.
وانتهى الأمر بينهما بالعناق. وأسدل الستار!

* * *

وهكذا دار الحديث بين الأختين، عما يجب على الإنسان فعله كى يحظى برضاء
الله ووالديه وعامة الناس، ومن حظى بهذه المنزلة كان مآله إلى الجنة ونعيمها،
على عكس الإنسان النافر العاصي المذنب فى حق الجميع، فمآله إلى النار والعياذ
بالله، وهكذا كانت المسرحية ذات مسحة أخلاقية تتفق والخلق الإسلامى
القويم، وما يدعو إليه ديننا الحنيف من عمل صالح وسلوك طيب يضمن لصاحبه
خير العاقبة.

والملاحظ أن المؤلف قد كتب مسرحيته بأسلوب سهل بسيط مباشر بعيد عن الرمز
والغموض؛ ولعل المؤلف قد كتبها كى تقدم على خشبة المسرح المدرسى، أو فى برامج
الأطفال بالإذاعة.

* * *

٨- من الأدب الروائى :

إذا كنا قد تحدثنا عن بعض الأنماط الأدبية النثرية الجديدة فى العصر الحديث
والتي تناولت القيم الإسلامية والقصص الدينى، ومنها المقال الذى كتبه جمال الدين
الأفغانى وكذلك الأدب المسرحي كما جاء فى الإطلالة السريعة على مسرحية "يوسف
وزليخا" لمرزا سليمان، أو مسرحية الفصل الواحد الممثلة فى مسرحية "بهشت" فقد
بقيت أنماط أدبية عديدة فى العصر الحديث لم تقدم منها نماذج، ولكن لكثرة هذه

الأنماط وتعددتها وتشعبها فإننا سنكتفى بإشارة مقتضبة إلى أحد الروايات التي كتبها أحد كبار كتاب الرواية في الأدب الفارسي الحديث والذي ترجمت له عدة أعمال إلى العديد من اللغات ومنها اللغة العربية، إنه الروائي الشهير جلال آل أحمد، أما روايته هذه فهي "خسى در میقات" وقد كتبها ليسجل انطباعاته عن رحلة الحج عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٣م)، (١٣٤٣ش) (١٩٨٥م)، ولم يكن الكاتب في هذه الرواية يكتب أدب رحلات كسابقيه ناصر خسرو ومهد يقلى هدايت، بل كان يكتب انطباعاته وعلى الرغم من أننا قد لا نوافق على بعض هذه الانطباعات الشخصية، إلا أننا سنذكر بعض الملاحظات والمشاهدات التي لم يرد مثلاً في الرحلتين السابقتين الحديث عنهما من قبل في هذا الكتاب.

"كانت الرحلة من إيران إلى المملكة العربية السعودية عن طريق الجو، فقد غادرت طائرة الحجاج مطار مهراباد بطهران يوم الجمعة ٢١ من فردرين عام ١٣٤٣ هـ.ش، وكان على متن الطائرة خمسة وثمانون حاجاً، وكان الوصول بعد طيران دام ثلاث ساعات - إلى مطار جدة، ومنها إلى مدينة الحجاج الملحق به، وهي مدينة جيدة، شيدت لتستقبل وفود الرحمن وحجاج بيته الكريم كي يستريحوا فيها فترة من عناء السفر، وحتى يتم إعداد وسائل النقل التي تنقلهم إما إلى مكة أو إلى المدينة المنورة.

وإلى جانب مدينة الحجاج الملحق بالمطار، توجد مدينة أخرى للحجاج القادمين عن طريق البحر إلى جدة، وقد كان بناؤهما وتجهيزهما هدفه حسن استقبال الحجاج والعمل على راحتهم حتى يتفرغوا للعبادة والتكبير والتهليل، ومدن الحجاج هذه من الإضافات التي تحمد للحكومة السعودية الحالية والتي تم بناؤها ضمن العديد من الإجراءات التي تحاول الحكومة السعودية توفيرها لخدمة الحجاج، وتزداد هذه الخدمات سنة بعد أخرى!

وأثناء وجوده بمدينة الحجاج الملحق بالمطار في انتظار الحافلات التي ستنقله ومرافقيه إلى المدينة المنورة، طوف بفكره حول بعض المعلومات عن جدة والمملكة، فقال

إن تعداد أهل جدة فى ذلك الوقت كان يتراوح بين مائتين وخمسين ألفاً وثلاثمائة ألف من السكان، أما تعداد المملكة فكان يتراوح ما بين سبعة ملايين أو ثمانية ملايين نسمة، كما أشار إلى الصحف الصادرة فى المملكة وذكر منها ثلاث صحف، اثنتان منها يومية وهما "البلاد" و "النودة" والثالثة أسبوعية وهى "أم القرى".

أما عن سكان المملكة فقد ذكر أن سكان المناطق الشرقية منها يقبلون على شرب القهوة العربية، أما فى المناطق الغربية فهم يحتسون الشاي. كما أشار إلى الصرافين الذين يتواجدون بكثرة فى جميع المناطق التى يفد إليها الحجاج، فقال إن معظم الحجاج يذهبون إلى هؤلاء الصيارفة لاستبدال عملاتهم بالريال السعودى دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الذهاب إلى البنوك؛ حيث إن التعامل مع هؤلاء الصيارفة أيسر وأسهل، إذ يتم الاستبدال دون إجراءات مطولة. ويساعد على هذا أن معظم الصيارفة قادرون على التفاهم بكل اللغات ومنها الفارسية والتركية والأردية والجاوية وغيرها ...

ومما قاله أيضاً: وعادة تصحب كل بعثة حج رسمية بعثة طبية تكون فى خدمة عباد الرحمن جميعهم دون تفرقة، إذ لا يقتصر عمل أى بعثة منها على معالجة مواطنيهم، بل إنهم يعالجون الجميع دون أية تفرقة، وهذا مظهر طيب لروح التأخى والتعاون الإسلامى، وعادة توزع هذه البعثات بمعرفة المسؤولين السعوديين على جميع الأماكن التى يتواجد فيها الحجاج بدءاً من مدينتى الحجاج بجدة إلى جميع الأماكن المقدسة بكل من مكة والمدينة ومنى وعرفات ...

ويعد أن استراح الحجاج عدة ساعات ومعهم مؤلف الرواية جلال آل أحمد. حضرت الحافلات لتتنقلهم إلى المدينة لزيارة مسجد الرسول عليه السلام حيث كان الوقت يسمح لهم بإتمام هذه الزيارة قبل التوجه صوب مكة.

وقد تحركت الحافلة من جدة فى الثانية عشرة مساءً، وكان وصولها إلى المدينة المنورة فى الخامسة صباحاً)، ونزلت القافلة فى بناية حديثة خارج المدينة بمحلة درب

الجنائز، وهى محطة تحيط بها حدائق النخيل، ومن المعروف أن تمر المدينة من أفضل وأعلى التمور فى الجزيرة العربية كلها...

استراح الحجاج فى هذه البناية طوال النهار، ومع قرب حلول صلاة المغرب توجه الجميع صوب مسجد الرسول عليه السلام، ويعد صلاة المغرب انخرط المصلون فى التكبير والتهليل، وانشغل البعض بعد ذلك بقراءة القرآن الكريم، كما انتشرت حلقات الدرس والوعظ فى جميع أركان المسجد النبوى، وكانت إحدى هذه الحلقات يؤمها الناطقون بالأوردية من باكستان والهند حيث كان المتحدث فيها يقدم وعظه وإرشاداته باللغة الأوردية، وإلى جوارها كانت توجد ثلاث حلقات أخرى، يدور الحديث فيها باللغة العربية ...

وقد لاحظت أن بعض الحجاج يحاول تقبيل الأسوار المحيطة بقبر الرسول عليه السلام، ولكن أفراد الشرطة السعودية كانوا يحاولون منعهم بالحسنى ودون إيذاء أو اعتداء.

ومما يلفت النظر كذلك تطوع بعض العمال والحجاج بحمل المياه والطواف بين المصلين، كى يقدموا لهم مياه الشرب فى أكواب وأباريق صنع معظمها فى بلاد الهند.

وعند الخروج من المسجد يسترعى الانتباه كثرة المحال المحيطة بالمسجد من كل جوانبه، وإلى جانبها أسواق أخرى تفتش الأرض، وكانت حركة البيع على أشدها مما يذكرنا بأسواق عكاظ.

وفى ليلة الأحد ٢٣ فروردين (التاسع والعشرين من شهر ذى القعدة) كانت الاستعدادات جارية لاستطلاع مولد هلال ذى الحجة، وقد جرت العادة أن يتم الإعلان من دار الندوة بما يلى: كل من يرى الهلال فى أى بقعة من بقاع المملكة عليه بإبلاغ رئيس المحكمة الشرعية حتى يعلن ثبوت رؤية الهلال وبذا يتم الإعلان عن موعد بداية شهر ذى الحجة، وعلى أساسه سيتم تحديد يوم عرفة ويوم النحر.

وفى نفس هذا اليوم الأحد قام جلال آل أحمد بجولة حول المدينة حيث زار عدداً من المساجد الموجودة بها ومنها مسجد أبى ذر الغفارى الموجود أمام البوابة الشمالية للمدينة وبعدها زار مسجد أبى بكر ثم مسجد الغمامة، وكان يقرأ فى كل مسجد منها بعض آيات القرآن الكريم، كما زار مسجد قباء جنوبى المدينة بعد ذلك.

وقد قال عن مسجد قباء: وهذا المسجد هو الذى نزلت فى حقه الآية الكريمة ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ ... (التوبة : ١٠٨).

أما يوم الإثنين الرابع والعشرين من فروردين (الأول من ذى الحجة) فقد ذهب إلى البقيع لقراءة الفاتحة على قبور الشهداء وأموات المسلمين، ولكى يبحث عن قبر أخيه المتوفى فى المدينة من ثلاث عشرة سنة حيث دُفن بالبقيع، ولكنه لم يستطع الاهتداء إلى قبر أخيه حيث لا توجد شواهد للقبور فى منطقة البقيع.

وفى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من فروردين (الثانى من ذى الحجة) توجه إلى مسجد الرسول عليه السلام ودخله كعادته من باب السلام، أوسع أبواب المسجد وأكثرها راحة فى الدخول والخروج. وقال إن طائر الحمام يكثر عند هذا الباب، كما لاحظ أن أسماء الرجال من الصحابة والتابعين فى الصدر الأول من الإسلام قد كتبت على جدران الصحن من جميع الجهات.

أما عن يوم التوجه إلى مكة، فقد كان مساء الجمعة الثامن والعشرين فروردين (السادس من ذى الحجة) حيث تحركت الحافلة الساعة الثامنة والنصف مساءً، وكان الوصول إلى مكة الساعة الرابعة والنصف من صباح السبت (السابع من ذى الحجة)، وقد توقفت الحافلة عند مسجد حلفة خارج المدينة حتى يحرم الحجاج إذ أن هذا المسجد مكان ميقات الحجاج القادمين عن طريق المدينة المنورة، وبعد ذلك تحركت الحافلة مرة أخرى ولم تقف إلا مرة واحدة فى رابع!

وبعد أن وصلت القافلة إلى مكة المكرمة توجه الحجاج لطواف القدوم والسعى بين الصفا والمروة، وبعد أن أدى جلال آل أحمد هذه المناسك، علق على مكان الطواف وكذلك السعى بين الصفا والمروة حيث قال:

لقد تم تسقيف دائرة الطواف حول الكعبة، حيث جعلوه من طابقين، وبذا اتسع مكان الطواف حتى أصبح يسع ثلاثة أو أربعة أضعاف الطائفين حول البيت الحرام، كما تم تكسية دائرة الطواف حول الكعبة بالرخام المرمى.

أما عن السعى بين الصفا والمروة فقد تم تعبيد الطريق بعد أن كان أرضاً صخرية وذات حصى ورمال، كل هذا فعلته الحكومة السعودية تخفيفاً عن الحجاج وتيسيراً لأداء المناسك دون مشقة وعناء ما أمكن!

أما عن حكمة الحج فقد قال : وحكمة الحج تتمثل في كونه أكبر تجمع إسلامي، بل إنه أكبر تجمع بشري في مكان واحد، واجتماع المسلمين هكذا دليل على قوتهم ووحدتهم، وباليتم ينتهزون فرصة الحج كمؤتمر عام يعقد سنوياً لتدارس أحوال المسلمين والنهوض بهم وتخطى جميع العقبات التي تعترض طريق توحيدهم، واستعادة ريادتهم للعالم !

وكان جلال آل أحمد يتحدث عن انطباعاته عن كل مكان زاره، وعن كل ما يوفر للحجاج حجاً هادئاً مقبولاً من الله عز وجل.. وقد عاب على بعض الحجاج الوافدين من وسط إفريقيا أو من شرق آسيا عدم التزامهم بالنظافة العامة في الشوارع والخيام على الرغم مما تبذله الحكومة السعودية في هذا المضمار كما عاب على البعض الذين يأخذهم الحماس في رمي الجمرات، فإذا بهم بدلاً من رمي إبليس بالحصار يسارعون برميهم بالنعال التي يرتدونها أو بما شابه ذلك.

كما اشتكى بعض الشيء من سوء بعض الحافلات التي تنقل الحجاج من جدة إلى المدينة أو من المدينة إلى مكة، كما أشار إلى قلة المياه أو انقطاعها أحياناً في بعض الأماكن المقدسة كعرفات ومنى إلا أن هذه الأمور أولتها الحكومة السعودية

جل اهتمامها ووفرت الآن أفخم الحافلات المكيفة وكذلك وفرت المياه فى كل الأماكن المقدسة، بل وشجرت هذه الأماكن بشكل كثيف وبخاصة فى منطقة عرفات، ولا تدخر الحكومة السعودية أى جهد فى هذا المضمار، بل إن ما تفعله محسوس ملموس بشكل ملفت للنظر، ولا يستطيع أى إنسان أن ينكره.

وإذا كان قد ذكر بعض السليبيات التى تحدث من بعض الحجاج أو بسبب الزحام الشديد فهو لا يبغي إلا الإصلاح - كما يقول - وأن يكون هذا الحدث الإسلامى العظيم فى صورته مطابقاً لقيمته الروحية الإيمانية.

لذا أنهى روايته هذه بما ملخصه:

«لقد سجلت رحلتى هذه لتكون تحت تصرف كل الأخوة الحجاج، ولو فعل كل حاج وكتب انطباعاته وسجل آراءه، وإذا كان ملايين الملايين من الذين أدوا هذه الفريضة طوال الأربعة عشر قرناً قد سجلوا انطباعاتهم ومشاهداتهم، لكان هذا خير وسيلة لتلافى أى سلبيات ولو كانت بسيطة، ولكانت هذه الرحلة الإيمانية أفضل رحلة: عقيدةً وعملاً! ولا ننسى أن هذه الفريضة يجب أن تؤدى على الوجه الأكمل، ويفهم صحيح ووعى كامل، وأن يتوفر للحجاج كل أسباب الراحة حتى يتفرغوا لأداء المناسك فى تبتل وخشوع.

والى جانب ذلك أشار إلى هدف آخر كان يسعى إلى تحقيقه من وراء تسجيل انطباعاته هذه، حيث قال:

كما كنت حريصاً على أن أسجل ملاحظاتي ومشاهداتي لندرك الفرق بين ماسجله ناصر خسرو فى كتابه سفر نامه خلال القرن الخامس الهجرى، وما أصبح عليه الحال الآن فى القرن الرابع عشر الهجرى!«^(١).

(١) جلال آل أحمد : حسى در ميقات.

ومما يجدر ذكره أن هذه الرحلة الإيمانية قد استغرقت تسعة عشر يوماً حيث كانت عودتهم إلى إيران في التاسع من أربيهشت ١٣٤٣ ش (السابع عشر من ذى الحجة).

ومن الجدير بالذكر أنه سجل نقلاً عن الصحف السعودية الصادرة في ذلك الوقت بأن عدد الحجاج في ذلك العام بلغ مليوناً وستين ألف حاج تقريباً، أما الآن فقد تزايد العدد وتخطى المليونين منذ عدة سنوات، ونسأل الله أن يتزايد ويتزايد، ليكون هذا المؤتمر الإسلامي الكبير خير دليل على اتساع رقعة الإسلام وزيادة انتشاره بين الخلق جميعاً من كل الأجناس والأوطان، وعلى الله قصد السبيل!

هذه بعض الإشارات السريعة إلى المعاني السامية التي ضمنها بعض الأدباء والشعراء الإيرانيين في العصر الحديث في إبداعاتهم الأدبية المتنوعة.

ولا شك أن الحديث عن أنماط الأدب الفارسي الحديث عديدة ومتشعبة ولا يكفيها مقال أو فصل في كتاب، لذا اكتفينا بهذه الإشارات المتقضبة والسريعة، لعل الفرصة تسنح بعد ذلك للكتابة في هذا الموضوع بالتفصيل، وبتقديم نماذج كثيرة تكون أكثر تعبيراً وأشمل مضموناً وشكلاً.

والله الموفق

الفصل التاسع

اللغة الفارسية وآدابها خارج إيران

اللغة الفارسية وآدابها فى الهند وآسيا الصغرى

يرجع الإيرانيون والهنود إلى أصل واحد هو الأصل الآرى ، وتعتبر اللغة الآرية أصل اللغات الإيرانية ومعظم اللغات الهندية ، كما أن هناك تشابه كبير فى كثير من المعتقدات الدينية والعادات والتقاليد والأساطير عند الشعبين ، وقد نشأت من هذا المنطلق صلات أدبية بين الشعبين منذ زمن بعيد ، ففي زمن الساسانيين - وخاصة فى عهد خسرو أنوشيروان أى فى القرن السادس قبل الميلاد - كان هناك نوع من التبادل الفكرى والمادى بين الجانبين . ومن ذلك ما ترجم من كتب هندية إلى اللغة الپهلوية بأمر أنوشيروان ، ومثال ذلك ما حدث من ذهاب برزويه الطبيب إلى الهند وإحضاره لكتاب كلية ودمنة وترجمته إلى اللغة الپهلوية ، وهو الكتاب الذى نقله بعد ذلك رودبه المعروف بابن المقفع إلى اللغة العربية ، ثم نقله بعد ذلك أبو المعالى إلى اللغة الفارسية فى القرن السادس الهجرى . وقد تطورت العلاقات الأدبية بين الهند وإيران فى العصر الإسلامى ، ففي أواخر القرن الرابع الهجرى توجه السلطان محمود الغزنوى إلى الهند ، واستطاع خلال فترة تجاوزه العشرين عاماً الاستيلاء على قسم كبير من الهند عن طريق الهجمات المتتالية ، وحكم خلفاؤه تلك البلاد زهاء مائة وثمانين سنة .

وبغض النظر عن المصائب والقتل والغارات التى حدثت خلال تلك الفترة ، فقد أدت تلك الغزوات إلى فتح طريق دينى وأدبى وعلمى بين إيران والهند منذ القرن الخامس الهجرى مما أفاد البلدين فائدة عظيمة ، واتجه كثير من الإيرانيين من العلماء والأدباء إلى الهند ، ومن أمثال هؤلاء نذكر أبا الريحان البيرونى الذى سافر إلى الهند فى أواخر القرن الرابع الهجرى فى رفقة السلطان محمود الغزنوى وجمع هناك

معلومات مفيدة عن أحوال الهنود ومعتقداتهم وعاداتهم ، ضمنها مؤلفاته القيمة وخاصة كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" وفي هذه الفترة أيضاً تجول شعراء إيرانيون عظام من أمثال الفرخی والعنصری وأمثالهما في بلاد الهند برفقة السلطان محمود وسجلوا ذلك في أشعارهم ، واستمر سفر الشعراء الإيرانيين إلى الهند في العصر الغزنوي من أمثال أبي الفرج الروني ومسعود سعد سلمان ، ومن الكتاب عوفي مؤلف كتاب "لباب الألباب" في تراجم الشعراء ، ومنهاج السراج صاحب كتاب "طبقات ناصري" وغيرهم.

وكان من نتيجة هذا الاتصال السياسي والأدبي المتواصل أن انتشرت اللغة الفارسية وأدائها في الهند ، ونشأت لغة جديدة نتيجة اختلاط اللغة الفارسية باللغة السنسكريتية ، وهي التي تسمى باللغة الأردية وهي اللغة الرسمية لباكستان اليوم . ولم يقتصر الأمر على الشعراء الإيرانيين الذين نزحوا إلى تلك الديار ، بل نشأ في الهند شعراء وكتاب ينظمون الشعر ويكتبون مؤلفاتهم باللغة الفارسية ، ويصل تعداد الشعراء الذين نظموا بالفارسية في بعض الولايات الهندية إلى المئات ، ومن أشهر الشعراء الذين برزوا في تلك البلاد ونظموا شعراً فارسياً الأمير خسرو الدهلوي (٦٥١-٧٢٥هـ) الذي يطلق عليه لقب سعدی الهند ، نسبة إلى الشاعر الإيراني سعدی الشيرازی . ومن شعره قوله: ^(١)

ادمی از آدمیان او بود	(١) هر که درو سیرت نیکو بود
دور ز ما ادیمان است دور	وآنکه مزاجش همه زورست وزور
خوی نکو مایه نیکوی است	نیکی مردم نه نکو روی است
زشت بود استر دیا گلیم	مرد درون تیره و بیرون سلیم
روی سیه به که زپسی سفید	بخل عیان به که بعشوه نوید
با خط بد کلک منقش چه سود	بس بد بدخو که نکو رو نمود
لیک صفاروی غناید زوی	باز بسا تلخ که جوشد چومی

(انظر : تاریخ ادبیان دیر ایران - تألیف دکتر نبیح الله صفا - جلد سوم - بخش دوم - تهران ١٣٥٢ - ص ٧٨٩)

- كل من يتصف بحسن السيرة ، يكون آدمياً ينتسب للآدميين.
- وكل من يتصف مزاجه بالعنف والشدة ، يكون بعيداً عنا نحن الآدميين.
- إن حسن المرء ليس فى جمال وجهه ، فالطبع الحسن هو أساس الحسن.
- فالإنسان الذى يبدو مظهره حسناً وباطنه سيئاً ، يكون قبيحاً كالملابس التى يكون ظاهرها من الحرير وبطانتها من رخيص القماش وربيته.
- البخل الظاهر أفضل من البشرى المخفية ، والوجه الأسود أفضل من الوجه الأبيض من داء البرص.
- فما أكثر سيئى الطباع الذين يبدون بشاشة ورقة ، ولكن ماذا يفيد القلم الجميل إذا كان سيئ الخط.

وكم من المرارة فى طعم الخمر ، بينما تبدو صافية شفافة للناظرين.

وقد قام كثير من حكام الهند المسلمين بتشجيع الأدب الفارسى ، ويمكن أن نذكر فى هذا الصدد زين العابدين حاكم كشمير (٨٧٢-٨٢٠هـ) ، ومعاصره خسينشاه حاكم البنغال ، اللذين بذلا جهداً كبيراً فى نشر المؤلفات الفارسية وترجمة الكتب من اللغة السنسكريتية إلى اللغة الفارسية.

وقد بلغت اللغة الفارسية وآدابها مكانة عالية أيام المغول الذين حكموا فى الهند أكثر من ثلاثمائة عام ، فكانت اللغة الفارسية هى لغة العلم والأدب ، وقد اجتمع حول جلال الدين أكبر أحد ملوكهم أكثر من مائة شاعر ينظمون الشعر بالفارسية ، منهم من نبغ فى الهند ومنهم من وفد إليها من إيران ، ومنهم فيضى الدكنى الذى يعد أعظم شاعر بعد الأمير خسرو الدهلوى ، ويعتبر أخوه أبو الفضل من فضلاء بلاط ذلك السلطان ، ومن مؤلفاته كتاب "أكبر نامه" ويمكن أن نذكر أيضاً عفى الشيرازى وظهورى الترشيرى وغيرهما .

ولم يكتف حكام المغول بتشجيع اللغة الفارسية والنظم والتأليف بها ، بل إن بعضهم كان ينظم الشعر مثل بابر وابنه همايون وأكبر شاه وجهانكير . وفى عهد السلطان شاهجهان توجه عدد من الشعراء الإيرانيين إلى الهند من أمثال صائب التبريزي ومن الكتاب نواندمير مؤلف كتاب "تاريخ حبيب السير" ومما يميز الأدب الإيراني فى الهند موضوع تأليف كتب التراجم أو "التذاكر" وكذلك المعاجم التى حفظت اللغة الفارسية وشرحتها .

وقد استمرت العلاقات الأدبية بين الهند وإيران حتى بعد تقسيم تلك البلاد إلى الهند وباكستان ، ومازال هناك مئات من الكتاب المتخصصين فى الدراسات الإيرانية ، وكذلك الشعراء الذين ينظمون بالفارسية ، ونذكر من هؤلاء الشاعر ميرزا عبد القادر بيدل (١٠٥٤-١١٣٣هـ) ، ويقرأ شعره الفارسى فى كل أنحاء الهند وباكستان وأفغانستان ، ويكفى أن نذكر كمثال على ذلك الشاعر الباكستانى العلامة إقبال اللاهورى ، وهو نموذج جيد للعلاقات الثقافية بين البلدين والشعبين ، وقد نظم معظم أشعاره بالفارسية رغم أنها لم تكن لغته الأم، وصب فيها كل أفكاره وآرائه .

ولا يقتصر انتشار الفارسية وأدائها على بلاد الهند فحسب ، بل إن اللغة الفارسية وجدت طريقها أيضاً إلى آسيا الصغرى ، وقد بدأ التأثير الفارسى فى تلك المنطقة مع حكم سلاجقة الروم (٤٧٠-٧٠٠هـ) . وقد انتقل عدد كبير من الكتاب والشعراء والمتصوفة الإيرانيين إلى تلك البلاد فى العصر المغولى مثل شهاب الدين السهروردى ونجم الدين الرازى ومولانا جلال الدين الرومى وغيرهم ، وساهموا فى نشر تلك اللغة وأدائها ، وكان سلطان ولد ابن جلال الدين أحد بناء ومؤسسى الأدب العثمانى ، وأصبحت مثنويته "ولدنامه" مثالا يحتذى لفترة طويلة .

ولم يقتف الشعراء والكتاب العثمانيون أسلوب ومضامين الأدباء الإيرانيين فحسب ، بل اتخذوا من أدباء إيران قدوة لهم ، وخاصة شعراء التصوف من أمثال جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وعبد الرحمن الجامى ، كما أن بعض شعرائهم نظم شعراً فارسياً وكان من ذوى اللسانين مثل "فضولى" .

ولم يكن السلاطين العثمانيون على صلة بالأدب الفارسي فحسب ، بل كان بعضهم ينظم الشعر بهذه اللغة كالسلطان محمد والسلطان بايزيد والسلطان سليم الأول وغيرهم . وقد ألف بعض الكتاب العثمانيين تذاكر - كتب تراجم - حول شعراء إيران ، مثل ضيا پاشا .

وسوف نذكر فيما يلي نماذج لشعراء نظموا شعرهم خارج إيران باللغة الفارسية.

١ - الشاعر محمد إقبال

ولد إقبال في مدينة سيالكوت غربي باكستان في ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٨٩هـ (=١٨٧٣م) ، وبدأ التعلم على يد أبيه ثم أدخل مكتبا لتعلم القرآن ، وتدل كثرة اقتباساته من القرآن في شعره على أن القرآن كان دائماً نصب عينيه وفي قلبه .

ثم التحق الصبى بعد ذلك بمدرسة البعثة الإسكوتية في سيالكوت ، وظهر نبوغه ونظمه للشعر باللغة الأردية منذ صباه ، إلى أن فرغ من الدراسة بهذه المدرسة عام ١٨٩٥ وسنه زهاء اثنين وعشرين سنة .

انتقل إقبال بعد ذلك إلى مدينة لاهور حاضرة ولاية البنجاب وإحدى مدن الهند الكبرى ، ودخل كلية الحكومة ودرس بها حتى حصل على درجة الليسانس عام ١٨٩٧م ثم درجة الماجستير ، وكان أستاذه في ذلك الوقت السير توماس أرنولد الذي كان أستاذاً للغة العربية في جامعة لندن ، ثم أستاذاً للفلسفة في جامعة عليكره ، ثم في كلية الحكومة بلاهور ، ومن مؤلفاته كتاب "دعوة الإسلام" .

فرغ إقبال من التحصيل في تلك الكلية ، وأختير لتدريس التاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية بلاهور ، ثم نصب لتدريس الفلسفة واللغة الإنجليزية بكلية الحكومة التي تخرج منها . لبث الشاعر النابغ في لاهور عشر سنين منذ قدم إليها من سيالكوت إلى أن سافر إلى أوروبا ، وقد دوى صوته في المحافل الأدبية ، وأخذ ينشر قصائده ، وحرصت الصحف على نشر شعره ، وترجم في هذه المرحلة من عمره قصائد من اللغة الإنجليزية ، ونشر أول كتاب له وهو كتاب في الاقتصاد باللغة الأردية .

سافر إقبال إلى أوروبا بعد ذلك وهو في سن الثانية والثلاثين ، فاتجه أولاً إلى إنجلترا والتحق بجامعة كمبردج لدراسة الفلسفة ، ونال درجة فلسفة الأخلاق ، ثم سافر إلى ألمانيا والتحق بجامعة ميونيخ وكتب رسالته "تطور ما وراء الطبيعة في فارس" ، وأهدى الكتاب إلى أستاذه توماس أرنولد ونشر في لندن ، ثم عاد إلى لندن فدرس القانون واجتاز امتحان المحاماه ، والتحق كذلك بمدرسة العلوم السياسية زمنًا . وكان إقبال كثير التحدث عن الإسلام وثقافته وحضارته في أوروبا ، وألقى هناك محاضرات حول هذا الموضوع نشرتها أكبر الصحف الأوروبية.

لبث إقبال في أوروبا زهاء ثلاث سنين ، ثم عاد إلى وطنه عام ١٩٠٨ م ، واحتفل أهل لاهور بعودته ، وامتهن مهنة المحاماه هناك حتى سنة ١٩٣٤ ، قبل وفاته بأربع سنوات عندما اضطره المرض إلى تركها.

وفي سنة ١٩٣٣ م سافر إقبال إلى أفغانستان بدعوة من نادرشاه ملك الأفغان وخلد هذه الرحلة في منظومته (مسافر).

وفي سنة ١٩٢٢ م حصل على لقب «سير» وقد توفي عن خمس وستين سنة.

ومن مؤلفاته المشهورة ، منظومة "أسرار خودي" (أسرار الذاتية) ، وهي أول دواوينه الفلسفية عام ١٩١٥ ، نظمها على القافية المزدوجة ، وبين فيها فلسفته في الذات . ويكمل هذا الديوان ديوانه الثاني الذي نشره عام ١٩١٨ م بعنوان "رموز بي خودي" (رموز نفي الذاتية) ، وقد بنى إقبال فلسفته على الذات ودعا إلى إثباتها وتربيتها وتقويتها كما هو واضح في ديوانه الأول ، وأكمل فلسفته بالتأليف بين الفرد القوى ، أو الذات الكاملة ، وبين الجماعة التي يعيش فيها . ويرى إقبال أن الذاتية أو الفردية أساس العالم ، وأن الخير كل الخير في تقوية ذات الإنسان واستخراج ما في فطرتها من قدرة . وكذلك يرى أن هذه الذات لا تربي وتكمل إلا في الجماعة ، فالمنظومة الأولى تتناول الذات وتربيتها ، والمنظومة الثانية تعالج الجماعة ونظامها وكمالها وتنشئة الفرد فيها .

ويقول في منظومته الأولى : حياة العالم من قوة الذات ، فالحياة على قدر ما فيها من هذه القوة فالقطرة حين تقوى تصير درة . والجبل إذا غفل عن ذاته انقلب سهلاً وطغى عليه البحر ، ويرى أن هذه الذاتية تحيا بخلق القاصد والجد في المسير إليها ، وعلى قدر عظم مقاصدها تعظم ، وعلى قدر المشقة التي تحملها تقوى .

ويعتقد إقبال بأن الذات تضعف بالسؤال ، وأن الثقة بالنفس والاعتداد والاستغناء بها يقوئها ، أما الشك فيها والالتجاء بها إلى الناس فإنه يضعفها ، وعنده لتربية الذات ثلاث مراحل هي : الطاعة وضبط النفس ، والنيابة الإلهية ، ويقصد بالمرحلة الأخيرة أن يكون الإنسان فيها مسيطراً على العالم ، مسخراً قوى الكون ، يهب الحياة بإعجاز العمل ، ويرد العالم إلى الإخاء والسلام .

وتحت عنوان "الوقت سيف" يثني على الإمام الشافعي الذي أثرت عنه هذه الكلمة ، ويبين الشاعر مذهبه في الوقت ، ويقول : إن الإنسان توهم الوقت خطراً ممدوداً ، وقاسه بالليل والنهار ، فوقع في شباك الوقت ، والحق أن الوقت هو الحياة ، هو الأمل والعمل والنسير والدأب . ثم يمضى الشاعر فيقول : إن الفرق بين الحر والعبد أن الحر يحتوى على الزمن ، والعبد يحتوى عليه الزمن ، فالحر يتصرف لايحد عمله يوم وغد ، ولا نهار وليل ، ولا يعتل بحكم الزمان ، وللعبد تعلات من حدود الزمان وأحكام الوقت .

ويبدأ منظومته الثانية بتمهيد في ارتباط الفرد والأمة ، ثم يعقد عدة فصول منها الفصل الأول الذي يقول فيه بأن الأمة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوة ، وفي فصل آخر يتحدث عن أركان الأمة الإسلامية ويرى أن الركن الأول هو التوحيد ، والركن الثاني هو الرسالة المحمدية التي يقول فيها :

قد هدانا الحق هذا المرسل	في سبيل الحفل نحن الشعل
بحره أخرج هذا الجوهر	نحن روح واحد بين الورى
ختم الله علينا شرعيته	وعلى المرسل فينا بعثته
محفل الأيام منا ينظم	ختم المرسل بنا والأمم

ويقول إن الوطن ليس أساس الأمة ، وإن العصبية الوطنية قطعت أرحام الأمم ،
ثم يمضى الشاعر إلى هذا العنوان : لا تنتظم أمة بغير شرعية ، وشرعية الأمة
الإسلامية القرآن . ويقول عن القرآن :

الذى يصعد منه الجبل وعلى الأفلاك منه وجل
ذلك ينبوع من آمالنا قد حواه الصدر من أطفالنا

ويذكر إقبال المسلم العربى الذى رباه القرآن حتى :

شمل الدنيا جميعا عدله عرض جم وطنته رجله
مدناً قد شيدت هبوته رياضاً أنبتت وردته

ثم يذكرنا بأن نضج سيرة الأمة من اتباع الشرع الإلهي ، وحسن سيرتها من
التأدب بالآداب المحمدية ، وأن مركز الأمة الإسلامية هو الحرم ، ويختم كلامه هنا
بقوله : يا شاكيا جور الزمان ، يا أسير الوهم والحسبان ، إجعل قميصك ثوب
الإحرام ، وأطلع الصبح فى هذا الظلام ، واستغرق كآباتك فى السجود ، حتى تكون
سجدة للواحد المعبود ، إن المسلم الأول خضع للخلافة ، فسيطر على الأفاق ، ومشى
على الشوك فى سبيل الحق ، فأنبت الورد فى الغرب والشرق .

ويقول فى موضع آخر : إن هذا العالم مسخر للإنسان ، وإن للإنسان فيه
جهاداً ، وإن لذة الإنسان وكماله فى هذا الجهاد ، ويفيض إقبال فى بيان تبعة المسلم
فى إعلاء الحق ، وأن دين الإسلام قرين الحياة ، ولا تكون الحياة إلا به .

وفرد الشاعر فصلاً يتحدث فيه عن الأم ويعلى قدرها ويبين خطرها فى الأمة ،
ويرى أن المسلم الذى لا يقدر المرأة قدرها ، لم ينل نصيباً من حكمة القرآن . ويتحدث
عن سيدة النساء فاطمة الزهراء ، ويوجه خطاباً إلى المرأة المسلمة ويحذرها من الزمان
وينصحها بالعناية بأولادها .

وبالإضافة إلى هذين الديوانين المنظومين باللغة الفارسية نذكر أيضاً :

- ١ - ديوان بانگ درا (صلصلة الجرس) الذى نشر باللغة الأردية عام ١٩٢٤م ، وفيه شعر لإقبال أنشأ بعضه فى صباحه وبعضه الآخر فى سن الخمسين ، وقد جمع فيه القصائد القومية والوطنية وغيرها مما يمثل التطور الفكرى عند إقبال .
- ٢ - پیام مشرق (رسالة المشرق) باللغة الفارسية ، وقد طبع هذا الديوان أول مرة عام ١٩٢٣م ، وبه مقطوعات يرد فيها الشاعر على الشاعر الألمانى جوته حين أصدر الديوان الشرقى .
- ٣ - زبور عجم - باللغة الفارسية . وقد نشر عام ١٩٢٩م وهو من أجود شعره وأدقه معنى ، وقد جمع فيه بعض الأناشيد الشعرية .
- ٤ - جاويد نامه (رسالة الخلود) بالفارسية ، وقد طبع هذا الديوان عام ١٩٣٢م وفيه تورية بين كلمة جاويد التى تعنى خالد أو الخلود ، وبين اسم ابنه جاويد ، وهى منظومة مزدوجة القافية فى الرمل مثل منظومتى الأسرار والرموز ، وهى من أعمق شعره ، ويحكى فيها قصة سفر فى الأفلاك كقصة دانتي الشاعر الإيطالى وتحتوى على زهاء ألفى بيت .
- ٥ - مسافر ، بالفارسية وهى منظومة ، نشرت عام ١٩٣٤م سجل فيها الشاعر ما جال بخاطرهم عندما سافر إلى أفغانستان بدعوة الملك نادرشاه وتحدث فيها عن زيارته لقبر السلطان محمود الغزنوى والشاعر سنائى .
- ٦ - پال جبريل (جناح جبريل) بالأردية ، نشر عام ١٩٣٥ ، وهو عبارة عن رباعيات ومنظومات متنوعة دعا فيها إقبال إلى الإخلاص والإيمان والحذر من سحر المدنية الغربية ، وأسدى فيها النصح للمسلمين ليخلصوا الإيمان بعقيدتهم وقد تضمنت هذه المجموعة زيارته لأسبانيا وإقامة الصلاة فى مسجد قرطبة .
- ٧ - بس چه بايد كرد أى قوم شرق (والآن ماذا ينبغى أن نعمل يا أمة الشرق) وهى منظومة بالفارسية نشرها عام ١٩٣٦م وهى فى جملتها حكمة بالغة وشعر بليغ ، نفتهما الشاعر حين أحزنته أحوال المسلمين ، وقد نظمها عندما اعتدت إيطاليا على الحبشة .

٨ - ضرب كليم (ضرب الكليم) ديوان بالأردنية نشر عام ١٩٣٧ م ، وفيه نظرات في الإسلام والتربية والمرأة والفنون الجميلة والسياسة وغيرها .

٩ - أرمغان حجاز (هدية الحجاز) باللغتين الفارسية والأردية ، وقد نشر هذا الديوان بعد وفاة الشاعر ، وفيه آخر أفكاره وختام نظراته .

أما عن موضوع أشعار إقبال فهو الحياة والعالم ، يبين فيها الحقائق ، ويكشف الأسرار ؛ ويوقظ الإنسان ويدعوه إلى قدر نفسه ، وتقوية ذاته ، ويناديه أنك أعلى الخليقة وأن العالم كله مسخر لك . وأمامه في هذه الدعوة القرآن الكريم كما في الآية : "ولقد كرّمنا بنى آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً". والآية : "وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه" ، وآيات أخرى كثيرة.

يقول مخاطباً الإنسان :

أين منك الأفلاك؟ إنك حر وهى قهر ذهابها والإياب

أما ضروب شعره ففيها القصص ، وأعظم قصصه (جاويد نامه) التى قص فيها رحلته فى الأفلاك ، وقصص أخرى متفرقة فى دواوينه ، وهو يتوسل بها لبيان مقاصد الشعر .

كما تتضمن أيضاً الشعر التعليمى الذى يقصد فيه إلى تعليم فلسفته ومذهبه كما فى منظومتي الأسرار والرموز ، ومنها وصاياه إلى ابنه جاويد وناشئة هذا الجيل. وفيه أيضاً الوصف كوصف الطبيعة والأبنية مثل وصفه لجامع قرطبة وتاج محل.

أما شعره الغنائى والوجدانى فيتميز بالشعر الغزلى الذى كلف به شعراء الفرس.

كتب إقبال باللغتين الأردية والفارسية ونظم بهما الشعر ، على الرغم من أن لغته الأولى هى البنجابية ، وهى ليست لغة علم وأدب ، وقد تفوق فى نظمه بالأردية ، وأما منظوماته الفارسية فقد أخذ عليه أدباء الفرس مأخذ منها : أن لغته وأسلوبه ليسا مطابقين للغة الشعر الفارسى العصرى وأسلوبه ، وأنه يستعمل أحياناً عبارات تخالف

الفصيح المتأنس في الفارسية ، وأن له تراكيب لم تؤثر في الأدب الفارسي من قبل . ونسى المعترضون أن إقبالاً لم ينشأ في بيئة فارسية وأن الفارسية ليست لغته ، ولكنه اكتسبها بالدرس وطول النظر في دواوين شعرائها ، كما أن بيئته الفارسية في الهند تختلف عن بيئة الفارسية في إيران ، ففي الهند استوطنت الفارسية قروناً ، ونشأ فيها أدباء ، ونبغ شعراء لهم بيئتهم ولهم أحوالهم ، وهي تخالف بيئة شعراء إيران وأحوالهم ، فنشأت في الهند لغة أدبية تخالف مخالفة ما لغة الأدب في إيران . ويحمد للشاعر أنه ابتكر تعبيرات وجدد في المعاني والألفاظ والعبارات ، وأودع اللغة الفارسية هذه الثروة من الفلسفة والآراء.^(١)

إقبال والوحدة الإسلامية

أمن إقبال بالوحدة بين المسلمين على أساس من الدين ، ويسمى هذه الوحدة "بالقومية الإسلامية" المناهضة تماماً للقومية أو الوطنية التي أنشئت في أوروبا بعد الثورة الفرنسية على الكنائس وسلطاتها وجبروتها ، ويقول إقبال في بعض مقالاته : إن الإسلام لا يؤمن بالقومية أو الوطنية الإفرنجية ، بل يؤمن بالوحدة الإسلامية التي تتكون من ثلاثة عناصر هامة هي :

أولاً: اجتماع المسلمين واتحادهم على أن الإسلام هو قوميتهم ، وليست الأرض أو الطين أو اللون أو النسل أو الأحوال الاقتصادية من عناصر القومية الإسلامية بحال من الأحوال . وتبنى هذه القومية على نفس المبادئ التي يقوم عليها الإسلام ، وهي الإيمان بالله الذي خلق هذا الكون ، والذي لا شريك له ولا ند ، ثم الإيمان برسالة محمد (ﷺ) والتراث الإسلامي كله .

ثانياً: الإيمان بالحضارة الإسلامية ، لأنها تشكل قالباً للقومية الإسلامية إذا اعتبرنا العقائد الدينية قلباً لها .

(١) استفدت في هذه المقدمة من كتاب "محمد إقبال ، سيرته وفلسفته وشعره" للدكتور عبد الوهاب عزام - نشر الدار العلمية - بيروت ١٩٧٢م .

ثالثاً: يسود الإسلام روح المرونة والسماحة والتجاوب ، ولذا ينبغي للقومية الإسلامية أن تكون سمحة مرنة ومتجاوبة مع العالم المحيط بنا فكرياً وحضارة ، لتأخذ أحسن ما فيه من خصائص ومميزات وتذيبها في القومية الإسلامية وتدفع ركب الحضارة الإسلامية إلى التقدم والازدهار في مجال العلم والفكر والتكنولوجيا . وعلى الرغم من معارضة إقبال للقومية إلا أنه يؤمن بحب الوطن وتقريظه والثناء عليه والتغنى به ، لأن غريزة الإنسان وطبيعته التي فطر عليها هي أن يحب تراب وطنه ومسقط رأسه ومرتع طفولته وشبابه بتقدير وإعجاب ومحبة ، ولأجل ذلك أعد إقبال منظوماته في حب الوطن ، وألف مقالات في مصالح الوطن وتطويره في مجالات الصناعة والاقتصاد والثقافة.

ولإقبال أهداف أخرى هامة في دعوته إلى الوحدة الإسلامية ؛ وهي أن الأمة الإسلامية تشكل أكثرية في آسيا وإفريقيا ، وأن الدول الإسلامية كثيرة ومنتشرة في هاتين القارتين ، وإذا قامت وحدات إسلامية في هاتين القارتين على المبادئ الإنسانية العليا التي يتضمنها الإسلام فسوف تلعب هذه الدول الإسلامية دور القنطرة بين حضارتى الشرق والغرب ، وبهذا تصبح الدول الإسلامية ملتقى الحضارات العالمية . وفي هذه الحالة سيكون دور الإسلام في مجال الحضارات الإنسانية وتنميتها وتطويرها كدوره في الماضي ، إذ أنه قاد حضارات العالم في القرون الوسطى.^(١)

ونرى إقبال يشير في شعره إلى أن الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد ولا تحدها الأمكنة ، يقول في منظومته "رموز نفى الذاتية":

قلبنا الخفاق يأبى موطننا ريحه العاصف تأبى مسكننا
ليس من هند وروم قبلنا ما سوى الإسلام فيه أرضنا

(١) انظر كتاب "نظرات جديدة في شعر إقبال" للدكتور محمد إسماعيل الندوى ، الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م - من ص ١٥٥ إلى ص ١٧٥ .

كعب الشاعر في خير العباد أنشد المدحة من بانت سعاد^(١)
نظم الدر منيراً في ثنائه من سيوف الهند سيفاً قد دعا^(٢)
من على الأفلاك فيه رفعة لم ترقه لبلاد نسبه
قال : سيف من سيوف الله قل يا نصير الحق زوراً لا تقل
إلى أن يقول :

لا تحسد الأرض قلب المسلم لا يرى في تيهه أنى وكم^(٣)
ليس للمسلم في الأرض عطن حائر في قلبه كل وطن
حصل القلب ففى وسعته ضل هذا الكون في فسحته
عقدة الأقوام حل المسلم هجر الدار الإمام الأعظم^(٤)
أمة ملء الدنى قد أسسا جعل التوحيد فيها أسسا
صارت الأرض لدينا مسجدا إذا أشاع الفضل فينا وهدى
ذلك الخمود في الذكر الكريم ذلك المحفوظ بالله الرحيم

ويرى الشاعر أن الوطن ليس أساس الأمة ، يقول :

قطعوا الأرحام بين الإخوة صيروا الأوطان أس الأمة
قدسوا الأوطان إعجابا بها قسموا الإنسان أسراراً بها
طلبوا الجنة في "بئس القرار" فأحلوا قومهم دار البوار"^(٥)
والأمة المحمدية ليس لها حدود زمانية أيضاً ، يقول الشاعر :

كممات الفرد تفنى الأمم ولها يوماً قضاء يحتم

(١) إشارة إلى قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول.

(٢) إشارة إلى البيت:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

(٣) أنى: فى عالم العلل والمقادير

(٤) الإمام الأعظم رسول الله.

(٥) اقتباس من القرآن جاء فى الأصل.

أمة الإسلام تأبى أجلا أصلها الميثاق في "قالوا بلى" (١)
لاتخاف الموت هذى الأمة "نحن نزلنا" لديها حجة (٢)
دام ذكر "ما أقام الذاكِر بدوام الذكر دام الذاكِر
ذلك الصبّاح أنى يطفأ؟ قال ربى عالما: "أن يطفئوا" (٣)

والأمة المحمدية لا تنتظم بغير شريعة ، وشريعة الأمة المحمدية هى القرآن، يقول :

أمة خلت يداها السننا ككثيب من رمال وهنا
سيرة المسلم شرع وكفى ذلكم باطن دين المصطفى
بانظام الصوت تعلو النغمة وهى من دون نظام ضجّة
إنما فى الخلق مروج من هواء يعلق النظم به فهو غناء
صاح هل تعلم ما سنتكا؟ أى سر ضمنت قد رتكا؟
الكتاب الحى والذكر الحكيم حكمة فى الدهر تبقى لاتريم
إن فيه سر تكوين الحياة يستمد النكس أبدا من قواه
لفظه لاريب أو تبديل فيه آيه لا لبس أو تأويل فيه
قوة فيه تشد الخورا وبها يرمى الزجاج الحجرا
إلى أن يقول عن القرآن الكريم :

الذى يصعد منه الجبل وعلى الأفلاك منه وجل
ذلك ينبوع من آمالنا قد حواه الصدر من أطفالنا

-
- (١) إشارة إلى الآية: "وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" (الأعراف: ١٧٢).
(٢) إشارة إلى الآية: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (الحجر: ٩).
(٣) إشارة إلى الآية: "يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" (التوبة: ٣٢).

انظر الظمآن في حر القفار عينه حمراء من وقد النهار
خفقت في قلبه هذى السور فاستقر الموج فيه كالدرر
قسراً الدرس من الآي المبين فغدا بالحق حراً لا يلين
حكم الدنيا جميعاً عدله عرش جم وطئتـه رجله
مدناً قد شيدت هبوتـه ورياضاً أنبتت زهرته^(١)

وهو يشير في تلك الأبيان السابقة إلى "جم" وهو مشيد أحد ملوك الفرس القدماء ،
وهو يعنى بذلك قضاء المسلمين على حكم الأكاسرة ونشر الإسلام في بلاد إيران.

إقبال والعرب

خص إقبال العرب باهتمام كبير في شعره ، وكان قلبه دائماً يهفو إلى أرض
العرب وبالتحديد أرض الحجاز موطن أوائل المسلمين ، وهو يخاطب شعراء العرب في
ديوانه "آرمغان حجاز" (هدية الحجاز) بقوله :

وقل للشاعر العربي عني لياقوت الشفاه البخس مني
قبست النور بالقرآن حتى جعلت الليل لي فجراً يغني
وفي الأرواح قد أذكيت جمراً ترابي ما يراه الناس قصراً
غدير ساكن حركت فيه عباب ثار في النكباء بحراً

فهو يبلغ الشاعر العربي بأنه يغض من قيمة ياقوت الشفاه ، لأنه قبس من القرآن
نوراً جعل به الليالي سحراً ، ويعنى بهذا أنه استمد من معاني القرآن شعره وصحة
فهمة لأحكام الإسلام. وهو عندما يذكر شعراء العرب يريد أن يبوئهم ذروة الفصاحة
والبلاغة ويخصهم بذلك دون سائر شعراء الأمم الإسلامية الأخرى.^(٢)

(١) انظر: ترجمة ديوان الأسرار والرموز للدكتور عبد الوهاب عزام - طبعة المكتبة العلمية بلامور ١٩٧٨م
(من ص ١٠٢ رلى ص ١١٢).

(٢) انظر: هدية الحجاز - ترجمة الدكتور حسين مجيب المصرى - القاهرة ١٩٧٥-ص ١٠٢، وكتاب: إقبال
والعالم العربى - للدكتور حسين مجيب المصرى - القاهرة ١٩٧٦م، ص ٢٤.

يا لها من ذكرى لأمجاد العرب	آية كبرى وتاريخ عجب
حرروا أقدارهم بالعزمات	فى جميع الكون فى كل الجهات
فازدهى من نورهم كل مكان	وتغنى باسمهم كل زمان
لم تدم عـزى ولم تبق منات	هوت الأصنام تحت الضربات
حين نادى المؤمنون الله أكبر	زال كسرى وانطوت أعلام قيصر
أى سيل هادر عم الصحارى	أى طوفان جرى يغزو البحارا
هؤلاء العرب الصيد الأباة	وحدوا الخلق بتوحيد الإله
شعلة من نورها الحق أضاء	من تحدى نارها أضحى هباء
قد أبادوا كل شيطان مريد	وأزالوا كل جبار عنيد
وسموا فوق الدراى منزلا	كل هذا كان من أنوار "لا"
بينما العالم كالعظم الرميم	فى سهوب الأرض أو دير قديم
أنشأوا دنياه فى خلق جديد	وأقاموها على النهج الرشيد
أيقظوا الدنيا بتكبير الآذان	فجرى الحق على كل لسان
كل خير يرتجى من غرسهم	كل نور يجتلى من شمسهم
كل روض بالمعالى مخصب	فهو من شاطئ نهر العرب
قد أزال العرب من لوح القلوب	نقش غير الله علام الغيوب
فأقاموا فى شمال وجنوب	ثورة الإيمان فى كل الشعوب
فترى فى أم الغرب العبيد	حطموا القيد بعزم من حديد
أعلنوا الحرب على ساداتهم	واستردوا أمن حرياتهم ^(١)

(١) إيوان إقبال - مختارات من شعره نظمها شعراء الصاوى على شعلان - القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٨ .

ويرى إقبال أن المسلم آية من آيات الله . وآيات الله لا تنزل و وأن أعداء الإسلام يريدون القضاء عليه ، وحتى إذا سقطت بعض مواطن المسلمين فالمسلم سيبقى والإسلام لن يفنى ، يقول :

ذلك المسلم من أندلس	سيعيد العزم في الشمس مكانه
من سقاه العشق يوماً خمرة	لم يعد في السكر محتاجاً لحانه
والليالي علمتنا عبداً	في الذي مر به غزو التتار
كفروا ثم اجتلوا الهدى	فاهتدوا لما رأوا ذاك المنار
عرفوا الإسلام فانقادوا له	وغدا أعداؤه ركن حماه
عزت الكعبة وانهد الصنم	وهو الشراء بتوحيد الإله
إن هذا العصر ليل فأنر	أيها المسلم ليل الحائرين
وسنين الحق في لجج الهوى	لا يراها غير ربان السفين
أنت كنز الدر والياقوت في	موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتاج إلى	صوتك العالي وإن لم يسمعوك
ليس في الوقت فراغ فاستزم	واملاً الدنيا بأعمال شريفة
أنت نور الأرض تهدي أهلها	لن يرى غيرك في الأرض خليفة

ويرى الشاعر أن المصائب التي حلت بالمسلمين في بعض العصور كانت دافعاً لهم على التقدم والنهوض من جديد والدفاع عن دينهم وحقهم ، يقول :

نحن نهدي الخلق زهراً وثماراً	وسوانا يبعث النار ضراماً
كل نمرود إذا أوقد ناراً	عادت النيران برداً وسلاماً
نحن بالإيمان نبني عزاً	لأنبالي الهول أو نخشى العبابا
وإذا الباغي رمى في غرسنا	جذوة الظلم جعلناه ترابا
ذهب اليونان والرومان والـ	فرس قدما وفراعين الزمان
وهدي الإسلام ما زال على	قمة الدنيا يدوي بالأذان (١)

(١) إيوان إقبال ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

ويتحدث إقبال كثيراً عن أمجاد العرب وأثر الإسلام فى رقى الأمم، ولا يكتفى بهذا بل يتناول قضايا عربية بحتة مثل قضية فلسطين وسجل أمجاد العرب فى صقلية وقرطبة ونعى على العرب تفرقهم ووجه إليهم فى دواوينه أكثر من خطاب . وقد وجه إلى عرب فلسطين النداء للجهاد وعدم الاستكانة ، يقول :

لا يزال الزمان يصلى بنار لم تزل فى حشاك دون خمود
لا دواء بلندن أو جنيففا فوريد الفرغ ملك اليهود
ومن الرق للشعوب نجاة قوة الذات وازدهار الوجود

ويتحدث عن أمجال العرب فى صقلية التى فتحت على يد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب فى سنة ٢١٢هـ فى عهد الخليفة المأمون ، وقد اهتم المسلمون بهذه الجزيرة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان حين غزاها عبد الله بن قيس الفزازى ، ولكن أقدام المسلمين لم تثبت فيها إلا فى عهد الأغالبة ، وقامت فيها حضارة عربية خلفت بها مآثر علمية تدل على عظمة هذه الحضارة . وحين مر إقبال بصقلية عائدًا إلى الهند أثار مرأها فى نفسه ذكريات العروبة وأمجاد الإسلام فقال متأثرًا بأكيا :

أعـينى هذا أوان البكا نشدتكما الله لا تبخلا
وما شئتـما من دم فاسكبا سحائب دمع كقطر الندى
فإنى الغداة أرى من بعيد ويا لوعنة القلب مما أرى
ضريح العلا هاهنا مائل ومشوى حضارة أم القرى
وللعرب كانت هنا دولة تنال براحتـها الفرقدا
عمالقة اليد خاضوا البحار فكانت لأسطولهم ملعبا
قصور الأباطرة المالكـيـ ن دانت لتوحيدهم سجدا
كان البروق بأسيا فهم بنت عشها مثل سرب القطا
مبادؤهم أنشأت عالما قـوى البناء سنى الجلى
كان رماحهم المشرعات قد التهمت كل عصر مضى

أفأقت شعوب طواها الكرى	بصحيتهم حين دوى الأذان
فهب وقد كان رهن البلى	فنادوا ألا أيها الكون قم
وبالعلم فهو سبيل الهدى	أناروا الشعوب بتحريرها
ولا الوهم فيها يضل الحجا	فلا ظلم باغ بذل الشعوب
فمنها لكل زمان صدى	تغنى العصور بآثارهم
أبقى على الصمت طول المدى	فما بال تكبيرهم صامتاً
وعصرك فى سفرها ما انطوى	صقلية قد طويت السنين
يصفر الأمان وقرب النى	على البحر قائمة كالبحير

إلى أن يقول :

بأنبل ذكرى لمجد خلا	أعود إلى الهند مستعبرا
وأبكى الصديق معاً والعدا	هنا قد بكيت وفى الهند أبكى
سأرسله صيحة فى الملا ^(١)	هو القدر اختارنى للثناء

وفى طريق عودة إقبال من أوروبا سنة ١٩٣٣ زار إسبانيا وحصل على تصريح بأداء الصلاة فى مسجد قرطبة ، وهناك سجل قصيدته (مسجد قرطبة) متأثراً بما شاهده من آثار وعمائر أصبحت خراباً فى الأندلس ، والمعروف أن المسلمين قد حكموا الأندلس زهاء ثمانية قرون أقاموا خلالها حضارة عظيمة خلدهم على مر التاريخ وكان مسجد قرطبة من أروع مبانيهم ، ويقول الشاعر :

إيه أيها المسجد ، يا كعبة أرياب الفن ويا رمز قوة الدين المبين ، لقد نالت بك أرض الأندلس رتبة من أنسام الحرم ، ولا يوجد لجمالك تحت القبة الزرقاء أثر إلا فى قلب المسلم.

(١) إيوان إقبال ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

أه لأولئك المسلمين ، رجال الحق وفرسان العرب ، إنهم حاملوا الخلق العظيم ، أصحاب الصدق واليقين ، أسفر عهد حكمهم عن هذا الرمز القائم الغرب ، نهضت وثباتهم بتربية الشرق والغرب . وكانت عقولهم مرشدة هادية فى ظلمات أوروبا ، ومن فضل دمانهم انشرح صدر الأندلس فأصبح نشيط العشرة مشرق الجبين .

وتحس فى الأندلس حتى اليوم عبير اليمن ونسيمها ، ولحن الحجاز فى عذوبة أصواتها ، وجاذبية الظباء فى سهام نظراتها .

واحسرتاه ، إن أرضك أيها المسجد سماء ترنو إليها النجوم ، إن فضاءك منذ قرون ظل صامتا لم يدو فيه الأذان.(١)

ويخاطب إقبال شباب الإسلام ويذكرهم بماضيهم التليد ، وحالتهم اليوم ، وأنهم تخلفوا عن الركب ، وعليهم أن يلحقوا بركب الحضارة والمدنية ، يقول :

من قبل أن تجد النجوم مدارا	أنسيت عهداً كنت نجم سمائه
داس قوافلها أريكة دارا	أنسيت أنك من سلالة أمة
آساد غايتها حداة جمالها	عرب الصحارى شمسها وغمامها
لم تشرق الدنيا بغير جمالها	وهبوا الشعوب بعدلهم مدنية
ملكوا فكانوا للنوال بحارا	نهضوا فكانوا للعصور كواكبا
قد كان عنوانا لهم وشعارا	الفقر فخرى من حديث نبيهم
ولا ما أدركوا فى العز من تمكين	لم يطغهم ما بفتنته
والحسن لا يحتاج للتحسين	إن الجمال عن التجميل فى غنى
عن فعل شر خشية الفقراء	ولربما وعظ الغنى ضميره
كانت تضىء لأمة الصحراء	بل خشية الجبار جل جلاله

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

قد أحرزوا الدنيا فهم حكامها
حراسها أحرارها أقمارها
لو أن شعري كان ريشة مبدع
كيف أنتسب لهم وأين ورثتهم
دنياك أقوال وعن دنياهم
فى رحلة الأيام نجمك ثابت
لما تخلف عيشنا عن ركبهم
رمت السماء فأصبح شأننا
ما أن عجبت لغاصب فى أرضنا
لكنما أبكى لفقد تراثنا
فكنوزنا فى أرضهم ربح لهم
هيا سراعا يا شباب إلى العلى

وبعد لهم أمنت فهم أمانها
أبرارها أعلامها علماؤها
لم يغن وصف مصور أو شاعر
ليكون مجد الأمس مجد الحاضر
تحدث الأعمال والآثار
دون المسير ونجمهم سيار
سيرا نواصله بإمعان السرى
بعد الثريا تحت أطباق الثرى
سنخط فوق الأرض قبر الغاصب
فى الغرب بين متاحف ومكاتب
وخسارة نشقى بها فى أرضنا
حتى يرد العزم سابق عزنا^(١)

(١) إيوان إقبال ، ص ١٩١ .

٢- خليل الله خليلي

الشاعر الأفغاني المعاصر

تمهيد:

أفغانستان هي موطن اللغة الأردية أو الفارسية الإسلامية ، التي ظهرت بعد الإسلام ، وانتشرت وصارت لغة أدبية عظيمة ، قدم بها الأدباء إنتاجهم الأدبي ، وقد ظهر في هذه المنطقة أدباء كان لهم شأن عظيم في أدب تلك اللغة.

ازدهر الأدب قديماً في تلك المنطقة نتيجة تشجيع الأمراء والحكام والملوك ، وخاصة في العصر الغزنوي (٣٦٦-٥٧٩هـ) الذي نجد فيه مجموعة كبيرة من الأدباء ، وكانت غزنة - عاصمة السلطان محمود الغزنوي - إحدى المراكز الأدبية في ذلك الوقت . ونذكر من أهم الكتاب في ذلك العصر أبا الفتح البستي (متوفى بين سنتي ٤٠١ و٤٠٣هـ) وهو من رجال الأدب المعروفين بالمهارة في الإنشاء العربي نظماً ونثراً وكذلك العلامة الكبير الريحان البيروني (ولد سنة ٣٦٢هـ وتوفى سنة ٤٤٠هـ) صاحب المؤلفات العديدة مثل: «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» و «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» و «الآثار الباقية عن القرون الخالية».

وقد اشتهر في تلك الفترة من الشعراء - وفي منطقة أفغانستان - العنصرى (م٤٣١هـ) والفرخى (م٤٢٩هـ) ومنوچهرى الدامغانى (م٤٢٢هـ) وغيرهم.

وظلت تلك المنطقة موطناً ومنبعاً لكثير من الشعراء والكتاب في العصور التالية ، ومن هؤلاء عبد الله الانصارى الذى اشتهر برياعيته ومناجاته (٣٩٨-٤٨٢هـ) ،

وسنائي الغزنوي (م ٥٤٤هـ) صاحب المثنويات المشهورة ومنها (حديقة الحقيقة) ، وكذلك حسن الغزنوي (م ٥٥٧هـ) المعاصر لبهرام شاه الغزنوي ، وديوانه مشهور . ومنهاج السراج الجوزجاني (م ٦٩٨هـ) صاحب كتاب «طبقات ناصري» في التاريخ ، وغيرهم .

ولا بد لنا حينما نتحدث عن الأدب في أفغانستان أن نقول إن أفغانستان لم تكن منفصلة عن إيران ولها حدودها المستقلة في القديم ، ولكنها كانت ضمن أراضي دولة إسلامية كبيرة تشمل آنذاك إيران وأفغانستان ومناطق أخرى في بلاد ما وراء النهر والهند ، وقد كان الشعراء ينتقلون في كل هذه المنطقة بحرية تامة ، ويتمركزون في بلاط الحكام والملوك أينما كانوا ، مثلما حدث أيام السلطان محمود الغزنوي (م ٤٢١هـ) صاحب الفتوحات الشهيرة في الهند والذي جعل من غزنة عاصمة ملكه مركزاً أدبياً ممتازاً ، جمع فيه كثيراً من الأدباء والمفكرين فانتقل إلى هذا المركز عدد كبير منهم ، ومن هؤلاء - على سبيل المثال - الفروسي (م ٤١١ أو ٤١٦هـ) صاحب الشاهنامه المشهورة في تاريخ إيران وملوكها . فلا نستطيع في تلك الفترة أن نحدد مجموعة من الشعراء تخص أفغانستان وحدها ، وهذا ينطبق أيضاً على إيران ، فالأدباء في ذلك العصر يخصصون تلك المنطقة جميعها دون حدود أو فواصل.

على أننا إذا تحدثنا عن الأدب المعاصر في أفغانستان ، فلا بد أن نرجع إلى تلك الفترة التي انفصلت فيها تلك البلاد عن إيران منذ تولى أحمد شاه الدراني الأبدالي حكم أفغانستان (في سنة ١١٦٠هـ) ، لهذا يجب تخصيص عهد جديد في تاريخ الأدب الفارسي ، ألا وهو عهد الأدب الفارسي في أفغانستان ، وذلك منذ أواخر القرن الثاني عشر للهجرة.

اهتم شعراء أفغانستان بالأسلوب الهندي في الشعر اهتماماً خاصاً ، وذلك نتيجة ارتباطهم وتعلقهم بشعراء الهند وأسلوبهم كصائب التبريزي (م ١٠٨٠هـ) وكليم

الهمداني (م ١٠٦١هـ) وبيدل^(١) (ولد سنة ١٠٥٦هـ وتوفي سنة ١١٣٣هـ) صاحب
المثنويات الصوفية المشهورة .

وكان بعض حكام أفغانستان في تلك الفترة ينشدون الشعر ، وقيت لهم دواوين
حتى الآن ومن هؤلاء : أحمد شاه الدراني وابنه تيمور شاه (حكم من ١١٨٧ إلى
١٢٠٧هـ) ، وشجاع الملك (١٢١٨ - ١٢٢٤هـ) المعروف بشاه شجاع ابن تيمور شاه.

وكانت مجالس الشعر تعقد في بلاط تيمور شاه وأبنائه ، ويوجه الاهتمام فيها إلى
تلك الأشعار المنظومة طبقاً للأسلوب الهندي ، خاصة أشعار بيدل ، بل اقتصرت بعض
هذه المجالس على قراءة شعر بيدل فقط وكانوا يسمونها باسم «مجلس بيدل خواني» أي
مجلس قراءة شعر بيدل، وقلما نجد شاعراً أفغانياً لم يعبر عن شغفه ببيدل وأشعاره.

غير أن الأدب ظل في فتور وتخلف في أفغانستان حتى عصر الأمير شير عليخان
(١٢٨٠ - ١٢٩٦هـ) ، وبدأ يزدهر بعد ذلك في عهد الأمير عبد الرحمن خان (١٢٩٧ -
١٢٩٦هـ) ، وقد تم طبع بعض المؤلفات الأدبية في عهد ابنه الأمير حبيب الله خان
(١٣١٩ - ١٣٢٧هـ) رائد النهضة الحديثة في أفغانستان، وكانت كليات بيدل هو أول
ديوان شعر طبع في عصره.

ومنذ أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الهجري نرى عدداً من
الشعراء الذين يعدون فاتحة للنهضة الأدبية في أفغانستان . وقد أنشد بعضهم قصائد
جيدة بأسلوب شعراء خراسان ، ومن هؤلاء : شرر كابل ، وقد اقتفى بعضهم أسلوب
الخاقاني (م ٥٩٥هـ) في قصائده مثل : سيد مير هيراتي (م ١٢٢٢هـ) ، وفي ذلك الوقت
كان الشاعر واصل الكابلي (م ١٣٠٩هـ) ينشد أشعاره بالأسلوب العراقي^(٢).

(١) هو أبو المعالي ميرزا عبد القادر بيدل ، من شعراء الهند الذين نظموا شعرا باللغة الفارسية . وله آثار
كثيرة بعضها منظوم والآخر منثور.

(٢) انظر مقالة «باز كشت ادبي در أفغانستان» مجله سخن - شماره - دوره نوزدهم - خرداد ١٣٤٨
(ص ٦٠).

ويرتقى الشعر بعد ذلك ويكثر الشعراء ، ويحاولون تقليد القدماء أمثال الفردوسي والفرخي وسنائي وغيرهم ، في جزالة اللفظ وجودة المعنى . ونذكر من هؤلاء الشعراء المعاصرين: سرور خان كويا اعتمادي ، وعبد الحى حبيبي القندهارى ، وأحمد على كهزاد ، وألفت كابل ، وعبد الحق بيتاب . وشايق الكابل ، وعبد الرحمن پژواك ، وصلاح الدين السلجوقي .. وغيرهم . ونذكر من بين الشعارات : محبوبة هروى ، حازقه هروى ، ومخفى بدخشى ، وغيرهن^(١).

ونذكر أيضاً من الشعراء الذين يتبعون أسلوباً جديداً فى الشعر الأديب الشاعر محمود فارانى ، وهو ينظم شعراً حراً ، وله مجموعة أشعار نشرت تحت اسم «آخرين ستاره» وقد ولد فارانى فى كابل سنة ١٣١٧هـ^(٢).

ويعتبر خليل الله خليلى من الشعراء الأفغانيين القلائل الذين ذاعت شهرتهم فى بلادهم ، كما عرفهم جيرانهم من أهل اللغة الفارسية فى إيران وفى غيرها من البلاد التى تهتم باللغة الفارسية وأدبها.

وترجع شهرة خليلى داخل وطنه إلى أستاذه فى قول الشعر ، والشعب الأفغانى شعب يقدر الأدب والفن ، ويرفع أصحابهما إلى أسمى الدرجات ، هذا بالإضافة إلى أنه يتحدث بلسان قومه ، إذ هو يشعر بأحاسيسهم ومشاعرهم ، ويصب ذلك فى أبيات شعره ، فيعبر عن آمالهم وأمانهم بأبلغ تعبير.

وأما شهرته فى خارج بلاده فهى ترجع أيضاً إلى جودة شعره من ناحية ، وإلى أسفاره العديدة التى قام بها إلى كثير من بلدان العالم من ناحية أخرى ، إذ شارك فى بعض المؤتمرات الدولية ، وكان يتحين كل فرصة أثناء وجوده بالخارج ليلقى بعض قصائده التى ينظمها ، ليتحدث فيها عن البلد التى يزورها أو عن المناسبة التى جاء من أجل المشاركة فيها .

(١) انظر مقالة «أدبيات فارسى در أفغانستان» بقلم آقای سعید نفیسی ص٢ وصره من مجلة:

دانش - سال أول شماره أول - فروردین ١٣٢٨ مارس ١٩٤٩م.

(٢) انظر كتاب «تاریخ زبان و ادبیان ایرام در خارج از ایرانش نوشته» بروفیسور عباس مهین شوشتری ؛

تهران ١٣٥٢ (ص٢٥٧).

ولد خليل^(١) فى عام ١٩٠٧م فى مدينة كابل عاصمة أفغانستان ، وقد ذكر فى أشعاره^(٢) أن أمه ماتت وهو فى السابعة من عمره ، ثم قتل والده وهو فى سن الحادية عشرة وقد صودرت كل أملاك أبيه ، فأوقعه الزمن من أوج العز والنعمة إلى حضيض الذلة ، ولم يتمكن خليلى من مواصلة الدراسة المنتظمة ، إلا أنه درس بنفسه وعلى يد أساتذة عصره علوم الفقه والأدب والتفسير والمنطق وغيرها ، وكان مغرمًا بالشعر ونظمه منذ صباه.

عمل خليلى بالتعليم فى مطلع حياته ، تولى عدة مناصب حكومية كان آخرها تعيينه مستشاراً صحفياً للملك السابق محمد ظاهر شاه وظل فى هذا المنصب إلى أن عين سفيراً لأفغانستان فى المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٦م ، ثم سفيراً لها فى العراق وتوفى فى مدينة بيشاور عام ١٩٨٧م بعد انتقاله للحياة فى باكستان عقب الاحتلال الروسى لبلاده.

هذه لمحة شديدة الإيجاز عن حياة شاعرنا وأود أن أذكر هنا ذلك التشبيه البديع الذى صور به الأستاذ عبد الرحمن پښواک^(٣) حياة خليلى أبلغ تصوير إذ قال «لقد ولد خليلى فى أحضان الرفاهية والنعيم المقيم ، ورضع لبن الحياة من ثدى اللذة ، حتى علمه الزمن ألأم الحياة . وكانت معرفته بتلك الألأم هى بداية علمه الحقيقى ، ذلك لأن ما تعلمه كان قد اتخذه عن أكبر معلم للإنسان ، ألا وهو الألم والعناء ، لقد كان الشاعر يبحث فى أشكال الكائنات عن الخفايا العظيمة والجمال ، وكان يشق طريقه فى عروق الألم واللذة لهذه الأشكال . وكانت تجرى فى هذه العروق أنهار اللبن وبحار

(١) استقيت بعض المعلومات عن تاريخ حياته من مقدمة ديوانه ، ومن مقالة منشورة فى جريدة «أنيس» فى ١٥ مارس ١٩٦٦ بمناسبة تعيينه سفيراً لأفغانستان فى المملكة العربية السعودية.

(٢) ديوانه ص ٥١ .

(٣) كان سفيراً ورئيساً لوفد أفغانستان الدائم بالأمم المتحدة وقد نقلت هذا التقرير المذكور عن خليلى من مقدمة الديوان ص ٤ .

الدم ، فكان شعر خليلي أحياناً قصة نهر اللبن هذا وأحياناً أخرى رسالة بحر الدم
ذاك . وكان يقطف الزهور مما يلقيه هذان المظهران لجريان الإنسان على ساحل الفكر
البشرى ، ويرسله كهدية إلى عشاق الجمال المعنوى والجلال الفكرى».

وتفهم من هذا التصور أن حياة خليلي لم تكن على وتيرة واحدة من السعادة أو
الآلم ، فهي كحياة أى إنسان تتعرض لأحوال مختلفة ، فهي حياة تتميز بالارتفاع
والانخفاض ، والاضطراب والثبات ، ويعبر خليلي عن أحواله وآماله وشعره كما سنرى ،
وقد طبع له جزآن من أشعاره فى المطبعة الحكومية بأفغانستان ، وطبع جزء آخر من
شعره فى طهران ، جمعه ونشره السيد محمد هاشم اميدوار الهراتى تحت عنوان
«ديوان خليلي» أستاذ جامعة كابل . وقدم لهذا الديوان أساتذة من أفغانستان ومن
إيران^(١) ويشتمل ديوانه هذا على أجناس شعرية متعددة كالقصائد والغزليات
والمثنويات والتركيب بند والرباعيات ، وقد اعتمدنا على هذا الديوان فى بحثنا هذا .

ولخليلي مؤلفات نثرية عديدة بجانب إنتاجه الشعرى ، فهو باحث فى الأدب
والتاريخ ، ومحقق ودارس لبعض المخطوطات ومن أهم مؤلفاته «أثار هرات» وهو
مؤلف فى ثلاثة أجزاء ، و «أحوال وأثار الحكيم سنائي» و«سلطنت عزنويان» وغير ذلك
من المؤلفات^(٢).

أما بالنسبة لأسفاره ورحلاته ، فقد سافر بصحبة الملك السابق لأفغانستان إلى
الهند ومصر وتركيا ويوغسلافيا ، كما سافر ضمن وفود أدبية إلى إيران وروسيا
وفرنسا ولندن والعراق وغيرها والتقى بكثير من علماء البلاد الإسلامية . كما ألقى
خطباً وقصائد فى مؤتمرات عن الرودكى (م ٣٢٩هـ) فى تاجيكستان ، وعن محمد
فضولى (م ٩٧٠هـ) فى باكو ، وعن أبى على بن سينا (٤٢٨هـ) فى السوربون ، وكذلك

(١) قدم له من الأساتذة الإيرانيين: بديع الزمان فروزانفر - سعيد نفيسى - دكتور رضا زده شفق - دكتور
لطفعللى صورتنكر - حبيب يغانى ومن الأساتذة الأفغان: كل شاه ألفت - عبد الرحمن پژواك - سيد
شمس الدين مجروح - صلاح الدين سبجولقى ، وكتب عن تاريخ حياته الأديب كريا اعتمادى ، وقد طبع
هذا الديوان فى طهران سنة ١٣٤١ .

(٢) انظر ص ٨ من مقدمة الديوان ، وقد عدد كاتبها أكثر من ستة عشر كتاباً بين منشور ومنظوم.

فى مدفن مولانا جلال الدين الرومى (م٦٧٢هـ) بقونية ، وفى المركز العلمى بعليكر ، وفى مؤتمر كتاب شعوب آسيا وإفريقيا فى طشقند . كما سافر إلى إيران مرتين بدعوة من وزارة الثقافة والجامعة ، ونشرت هناك خطبه فى المجلات والصحف وقد حصل خليلى على وسام الطبقة الأولى للمعارف فى بلاده ، كما حصل على وسام «كوماندر» من الاكاديمية الفرنسية.

وأول ما يسترعى انتباه القارئ لديوان خليلى هو أنه يذكرنا من خلال أشعاره بفحول شعراء الفرس القدامى ، فهو صدى لهم فى كثير من الأفكار والصور ، وهو تابع لهم فى أسلوبهم الجزل الرصين ، ومحافظتهم على قالب الشعر التقليدى وعموده ، وليس معنى ذلك أنه مقلد دون تجديد ، أو ناقل دون ابتكار ، فهو يقلد أسلوب العنصرى والفرخى وسنائى ، ويقتفى آثار نظامى الكنجوى (م٦٠٤هـ) فى المثنويات ، ولكنه يصب فى كل ذلك معانى جديدة ، وليدة فكرة الناضج . أما نثره فيمكننا القول بأنه تأثر فيه بأسلوب أبى الفضل محمد بن حسين البيهقى (م٤٧٠هـ) مؤلف كتاب «تاريخ البيهقى» المشهور ويقول الأستاذ فروز انفر فى فى هذا الصدد: «وبالإضافة إلى أن خليلى كان يراعى أسلوب القدماء وطريقتهم فى تركيب الألفاظ والجمل؛ إلا أنه كان قادراً على ابتكار المضامين وإبداع المعانى الفكرية ، ولذلك جمع بين قوة المعنى والفصاحة والجزالة وحسن التركيب»^(١)

وتأثر خليلى بقدامى الشعراء أمر طبيعى ، فلا بد لذلك أنه قرأ دواوينهم واطلع على أشعارهم ، وحفظ منها الكثير ، فتكونت لديه ملكة اتباعهم فى أسلوب النظم . ويمكننا أن نقول أيضاً إنه أخذ عن الفرخى أسلوبه السهل الممتنع الذى كان يتميز به ، وهذا واضح كل الوضوح فى شعره ولم يقف تأثره عند الشكل والمضمون ، بل إنه نظم قصائد على وزن وقافية بعض قصائد الشعراء القدامى ، ومثال ذلك قصيدته التى يصف فيها الربيع على جبال البرز ، ويعطى لنا صورة جميلة لمدينة بلخ، ومطلعها^(٢)

(١) انظر مقدمة الديوان ص د

(٢) الديوان ص ١٧ .

خوشا كوه البرز وآن آب ها خوشا پیچ ها و خورشا تاب ها
 زسنگی بسنگی سرا زیر بین چوپیلان لغز نده سیلاب ها
 والمعنى:

ما أجمل جبل البرز وتلك المياه الجارية ، وما أجمل الالتواءات والانحناءات .
 وقد نظمها على وزن وقافية قصيدة الشاعر منوچهری الدامغانی (م ٤٣٢هـ) التي
 مطلعها: (١)

چو از زلف شب باز شد تابها فرور مرد قندیل محرابها
 سپیده دم از پی سرمای سخت پوشید بر کوه سنجابها
 والمعنى:

عندما عاد الضياء من بين طرر الليل ، وانطفأت قناديل المحارب ،
 تغطي الجبل بالسناجب ، اتقاء شدة البرد وقت الصباح .
 والمعروف أن قصيدة منوچهری السابقة منظومة أيضاً على وزن وقافية قصيدة
 الشاعر العربي المعروف أعشى قيس ومطلعها (٢).

ألم تنه نفسك عما بها بلى عادها بعض أطرابها
 لجارتنا إذ رأت لمتى تقول لك الويل أنى بها
 وهو فى أحيان أخرى يضمن أشعاره مصراعاً لشاعر فلوسى آخر إذ يضمن
 بعض أبياتها مصراعاً للشاعر الفارسى فرخى السيستانى ، يقول على لسان الجبل (٣):
 سنگ من میدان دیو بستر شیر ژیان
 ریگ من بالین ببر و خواب گاه گرزه مار

(١) دیوان منوچهری الدامغانی ، ص ٤ - طبعة دبیرسیاقی - تهران ١٣٢٨ ش (الطبعة الثانية).

(٢) دیوان الاعشى الكبير - تحقيق الدكتور محمد حسين ص ٢٢ القاهرة ١٩٥٠م.

(٣) الديوان ، ص ٤٢ .

والشطر الثاني من هذا البيت من ديوان الفرخى.

ومعنى البيت :لقد أصبحت حجارتي ميداناً للشيطان ومرقداً للأسد المفترس
وصارت رمالى وسادة للنمر ومخدعا للثعبان.

وكما كان يفعل القدماء فإن خليلي يختم بعض قصائده بما يسمى بالتأييد وهو
دعاء يربطه الشاعر بشيء أبدي دائم ، ويستخدم عادة فى قصائد المديح الفارسية ،
فيدعو الشاعر لممدوحه مثلاً بطول العمر طالما كانت الشمس تشرق . ونجد خليلي
يستعمل التأييد فى دعائه لمدينة اسطنبول . يقول^(١):

تابود اين اختران رخشنده در أعماق شب

تابود اين آبها موج از باد بهار

ماه نورا تابود از جانب مشرق طلوع

مشتري راتابود بر چرخ گردنده مدار

بر چم گلگون ماه ومشتري بادا بلند

برسر اين شهر زيبا درقرون بيشمار

والمعنى :

- طالما بقيت النجوم لامعة فى أعماق الليل ، وطالما بقيت المياه متموجة من رياح
الربيع.

- وطالما كان طلوع القمر من ناحية المشرق ، وطالما كان لكوكب المشتري المدار
حول الفلك الدائر.

- فلتنبئ رايه القمر والمشتري الحمراء عالية خفاقة ، فوق هذه المدينة الجميلة على
مدى قرون عديدة.

ويمتاز خليلي أيضاً بإجادته للوصف ودقة التصوير ، وهو يمزج وصفه بتشبيهات
واستعارات وكنايات جديدة رائعة ، وهو فى هذا قد تأثر بشاعر الطبيعة منوچهرى
الدامغانى الذى كان يفصل فى صوره ، ويدقق فى تشبيهاته ، ويصف الطبيعة وكأنه

(١) الديوان ، ص ٢٨ .

عالم بكل دقائقها وأسرارها ، وقد امتلا ديوانه بأسماء الطيور والنباتات وغير ذلك مما تحويه الطبيعة . ومن أمثلة دقة التصوير والتشبيه عند خليلي تلك القصيدة التي يصف فيها مدينة اسطنبول عندما زارها ، والتقى فيها بالعديد من علمائها ، وزار معالمها وأثارها ، يقول فيها^(١)،

درمیان مرمره خورشید هنگام غروب

چون غراب آتشین درآب گردد غوطه خوار

چون نگین های زمرد درمیان برلیان

این جزایر درمیان آبهای نقره کار

عصر درشاخ طلا آتش فتد در روی آب

آب دیدی که با آتش کند وبوس وکنار

والمعنى:

- تبدو الشمس أثناء غروبها وسط بحر مرمره ، وكأنها غراب نارى يغوص فى أعماق الماء.

- وتبدو تلك الجزر الواقعة وسط المياه الفضية اللون ، وكأنها فصوص من الزمرد وسط الألماس.

- وعند العصر تسقط النار على سطح الماء فى خليج القرن الذهبى ،

فهل رأيت نارا تحتضن الماء وتقبله.

وهو فى نفس هذه القصيدة يتحدث عن كمال أتاتورك ، ويقول إن ماء سيفه قد أطفأ نار الظلم التى أشعلتها يد الزمان ، وهذا تصوير بديع:

شیر دل مردی که شد از آب تیغش منطفی

آتشی زاکز ستم أفروخت دست روزگار

(١) ديوانه ، ص ٣٧ .

أى:

أنه البطل الشجاع الذى انطفأت من ماء سيفه ، تلك النار التى أشعلتها يد
الزمان من الظلم.

ومن تشبيهاته البديعة أيضاً ، ما يصف به الدنيا فى قصيدة له يتحدث فيها فى
ذكرى الشاعر الفارسي سعدى الشيرازي (م ٦٩١ أو ٦٩٤ هـ) ، وقد أنشدها فى
سفارة إيران وبدأها بالحديث عن الشاعر المذكور ، ومن أبيات هذه القصيدة عن الدنيا
قوله^(١):

جهان باش چو دریائی پیدا نیست پیانش
حوادث موج غلطانش مصایب جوش طوفانش
خرد چنگ این دیار چون کودک اعمی
که گه افتد بدا مانش گهی گیرد گریانش
شکو آن کهنه معموره چون نقشی بود برآب
که ازیك ذرهء ناچیز برباد است بنیانش
نخیزد زین حریم یاس جز فریاد محرومی
نتابد جز چراغ مرگ از طاق شبستانش
مگر برقی که می تابد زسوز سینهء عارف
که روشن میشود گیتی بانوار درخشانش

والمعنى:

- تبدو الدنيا وكأنها بحر لا نهاية له ، والأحداث هى موجة الهادر والمصائب هى
طوفانه التاثر.

(١) ديوانه ، ص ٤٥ .

العقل فى قبضة هذا البحر كالطفل الأعمى ، أحياناً يسقط على ذيل ثوبه وأحياناً يتعلق بفتحة قميصه.

- إن عظمة وجلال هذه المعمورة القديمة كنقش وزخرفة على الماء ، إذا اصطدم بذرة صغيرة ضاع أدراج الرياح.

- ولا يصدر عن حريم اليأس هذا سوى أنين محروم.

ولا يضىء خلف نافذة مخدعها سوى مصباح الموت.

- غير أن البرق الذى يشع من حرارة عشق صدر العارف ، يضىء الدنيا بأتواره اللامعة البراقة.

وهو فى بيت آخر يجعل المعانى الكلام وصوره ملكاً خاضعاً للكاتب ويجعل الألفاظ كالشمع الطيع فى يده ، إذ يقول عند حديثه عن الكاتب المشهور مطيع الدولة حجازى:

ملك معنى شد حجازى را مطيع لفظ چون موم است اندر چنگ او
مست سازد حيرت آرد جان دهد بساغر و آئينه و آهنگ او

والمعنى:

- لقد صار ملك المعانى مطيعاً للكاتب حجازى ، وصارت الألفاظ فى قبضته طيعة كالشمع.

- إن مؤلفاته «ساغر» «آئينه» و«أهنگ»^(١) تسكر وتحير وتعيد الروح.

وقد أجاد فى وصف بلاده فى أماكن متفرقة من قصائده التى اشتمل عليها الديوان ، ويحس الإنسان بعد قراءة ذلك الوصف الذى يتميز بدقة التشبيه وحسن

(١) «ساغر» بمعنى الكأس، «آئينه» بمعنى المرآة ، و«أهنگ» بمعنى النغمة واللحن والثلاثة أسماء مؤلفات الكاتب حجازى الذى يتحدث عنه الشاعر.

التصوير أنه زار تلك المناطق ، وتعرف عليها ، ومن ذلك حديثه عن منطقة نورستان
التي يصفها وصفاً بديعاً ، يقول مثلاً عن النهر^(١):

دريا نگر که گاه رود راست همچو تیر
گاهی دگر خمد چو یکی سیمگون کمان
أی :

- انظر إلى النهر الذى يندفع أحياناً فى استقامة كالسهم ،
وأحياناً أخرى ينحنى كقوس فضى اللون
ويصف فى نفس القصيدة السابقة قطرات الماء التى تتساقط من زهور الأقحوان
الحمراء ، وكأنها أمطار تسقط من خلال ألسنة النار المشتعلة،
يقول :

انرا که گفتم آب ز آتش نهی چکد
گوباز بین چکیدن باران زأرغوان
والمعنى :

قل لمن قال إن الماء لا يتساقط من النار ،
انظر كيف تتساقط الأمطار من الورد الأحمر

والسمة الغالبة على شعر خليلي ، والذي يضمه ديوانه المطبوع فى طهران ، هى
أنه شعر مناسبات فمعظم قصائده قد نظمت فى مناسبات مختلفة ، فهى إما فى
مناسبة الاحتفال بذكرى شاعر والإشادة بإنتاجه من الشعر ، أو فى تأبين آخر

(١) الديوان ، ص ٥٤ .

ورثائه ، أو فى ترميم أحد المساجد كقصيدته التى يتحدث فيها عن ترميم الرواق الجنوبي للمسجد الجامع بهرات^(١) وإما فى مناسبة زيارته لبعض البلاد كما هو الحال بالنسبة لقصيدته عن اسطنبول أثناء زيارة هذه المدينة ، وقصيدته عن نهر النيل أثناء زيارته لمصر^(٢). وإما فى التهنية بمنصب أو ترقية كما حدث فى قصيدته التى يهنئ فيها الشاعر الأفغانى بيتاب بلقب ملك الشعراء^(٣). كما كتب بعض القصائد تقریظاً لكتاب مثلما حدث فى مدحه لكتاب بعنوان: «روابط مولانا جلال الدين البلخي بأبيه سلطان العلماء».

ومن شعره فى المناسبات أيضاً المثنوى الذى نظمه بمناسبة العيد السادس عشر لاستقلال أفغانستان^(٤)، وكذلك قصيدته التى ألقاها فى ذكرى مرور أربعمئة عام على مولد الشاعر محمد فضولى شاعر أذربايجان فى مدينة باكو ، وقد أنشدها أمام ممثلين من تركيا وإيران والعراق والهند ومن أبياتها قوله^(٥):

شاعر آن نبود كه بانیروی الفاظ فصیح

ذره را خورشید گوید قطره را دریا کند

گه ستاید آنکه راشایستهء نفرین بود

گه فروتر از خودش را بر فلك بالا کند

هست شاعر ساز فطرت را مبارك نغمه ئی

کز دم جا نبخش چندین مرده را احیا کند

(١) الديوان ، ص ٤٧ .

(٢) الديوان ، ص ٤٨ .

(٣) الديوان ، ص ٥٢ .

(٤) الديوان ، ص ١٣٨ .

(٥) الديوان ، ص ١٥٦ .

إلى أن يقول:

شعر آهنگ دلست ونغمهء روح بشر

برنواى دل جهانرا عاشق وشيدا كندا

اين جهان باشد كتاب عشق سرتاپاى آن

شاعر اين الفاظ دلکش راجما معنا كند

هر كجا عشق است شاعر ميكندا انجما مقام

هر كجا حسن است انجا آشيان برپا كند

ومعنى الأبيات السابقة :

- ليس بشاعر كل من لا يستطيع بقوة الألفاظ الفصيحة ، أن يجعل الذرة شمساً والقطرة بحراً.

- فاحيائاً يمدح من هو جدير بالكراهية ، وأحياناً أخرى يرفع من هو أقل منه إلى عنان الفلك.

- للشاعر الموهوب نغمة مباركة ، فهو يحيى العديد من الموتى بأنفاسه الواهبة للحياة.

- الشعر لحن القلب وأنغام البشر ، وعلى نغمة القلب يظهر فى الدنيا العاشق والمحِب.

إن الدنيا من أولها إلى آخرها كتاب عاشق ، والشاعر هو الذى ينقل إلينا معنى هذه الألفاظ الجذابة.

- فأنىما يكون العشق يجعل الشاعر مقامه هناك ، وحيثما يكون الحسن يبنى الشاعر عشه هناك.

- وله قصيدة فى الاحتفال الذى أقيم لحركة النهضة النسائية فى أفغانستان ،
والتي يقول فى مطلعها^(١):

صد شكر كه ديديم پس از محنت بسيار
کز دا من شب صبح امید است پدیدار
نورى كه نهان بصد پردهء پندار
خندید و درخشید و بتابید به یکبار
تابید چو خورشید و درخشید چو اختر

والمعنى:

- نتوجه بمائة شكر وقد رأينا بعد محنة كبيرة ، وأن صبح الأمل فقد طلع من
بين ثايا الليل.

- ذلك النور الذى ظل مختفياً خلف مائة حجاب من الظن ، أخذ يضحك ويلمع
ويضىء مرة واحدة.

فأضاء كالشمس ولمع كالنجم

وخليلى ممن يدعون لحرية المرأة وهو ينادى دائماً بتحرير نصف المجتمع الأفغانى،
ويحث المرأة على التعليم والثقافة حتى تربي أجيالاً صالحة ، وأن تعمل جنباً إلى
جنب مع الرجل ، ليتقدم المجتمع الأفغانى ويرقى ، وتظهر تلك الدعوة فى كثير من
شعره ، ونذكر من ذلك قصيدته التى أهداها إلى روح الأنسة زينب عنايت سراج التى
ساهمت بجهد كبير فى الرقى بالمرأة الأفغانية ، ويوجه حديثه إلى الفتيات الأفغانيات
فيقول^(٢):

(١) الديوان ، ص ١٩٦ .

(٢) الديوان ، ص ١٩١ .

ای شاخه کل شکسته تاچند ؟ ای سرو روان نرسته تاچند ؟
ای مرغ بهشت خسته تاچند ؟ درج کنج قفس نشسته تاچند ؟

بشکن قفس و چمن بیارای

بی روی تو زندگی نکو نیست دریاغ اُمید رنگ و بونیست
هردل که هوای تو در او نیست جایست که شمع آرزو نیست

در قلب سیه دلان مکن جای

ويحضهن على العلم والعمل بعد ذلك فيقول:

علم تو یگانه زیور برتست افکار تو گنج گـوهر تست
عقل تو چو تاج بر سر تست نور رخ تو ز جـوهر تست

این نور برنگ ها مالای

دای که حیات نیست جز کار ؟ بی کار بقای تست دشوار
دستی که چو نخل میدهد بار حیف است بدوش دیگری بار

از زحمت دیگران میاسای

ای نخل امید تاجهان باد گلهای تو دور از خزان باد
افکار توتازه و جوان باد محکوم قضای آسمان باد

هر پنجه که بفشرد ترا نای

والمعنى:

إلى متى تظل مكسوراً يا غصن الورد ؟

وإلى متى لاتنبت أيها السرو الباسق ؟

إلى متى تظل مريضاً ياطر الجنة ؟
وإلى متى تظل منزوياً فى ركن القفص ؟
حطم القفص وزين المرج
بدون وجهك تكون الحياة قبيحة
ولا يكون لبستان الأمل لون أو رائحة
إن كل قلب لا يحبك ، ليس موطناً لشمع الأمان
فلا تقيمي فى قلوب القساة
فالعلم هو زيتك الوحيدة ؟ وأفكارك هى كنز جوهرك
وعقلك كالتاج فوق رأسك
ونور وجهك ينبع من جوهرك
فلا تلتخبين هذا النور بالألوان
ألا تعلمين أن الحياة ليست سوى العمل
وأن بقاءك أمر صعب بدونه
إن اليد التى تثمر وتنتج كالنخلة
من الظلم أن تعتمد على الآخرين
فلا تستريحى بتعب الآخرين
فطالما بقيت الدنيا يانخلة الأمل
فليبتعد الخريف عن أزهارك اليانعة
ولتكن أفكارك جديدة وشابة
ولتكن خاضعة لقضاء السماء
وإلا كانت قبضة تضغط عليك

وخليلي لا يتأثر بأحداث بلاده وما يجري فيها فحسب ، بل هو يتأثر بكل ما يجري حوله في عالمنا الكبير ، فيتابع كل الأحداث وينفعل بها ، ويصب ذلك في شعره ذاكرةً رأيه ، ومن هنا يتضح لنا السبب في أن خليلي لا يكثر من الأشعار التي يتحدث فيها عن نفسه وعن ألامه وأحلامه ، وإنما حديثه كله عن الآخرين من مواطنيه ، وعن الإنسان عموماً أينما كان ، وحتى إذا تحدث عن نفسه وما يشعر به ، فهو ينطق بما يحس به الآخرون . فنراه مثلاً يتحدث عن كفاح شعب الجزائر ، وينظر إلى جهاده نظرة احترام وتقدير ، وانتصارهم على المحتل الغاضب ويقول في قصيدة له تحت عنوان «على روح شهداء الجزائر»^(١):

از تف الجـــــــــــــــــزائريان شعله ها در جهان نخواهد شد ؟
 آبيــــــــار نهـــــــــال آزادي اشك اين بيگان نخواهد شد ؟
 صبحگاهي بمرگ استعمار عيد آزادگان نخواهد شد ؟

والمعنى:

- أئن تشتعل المشاعل في العالم من حرارة أهات الجزائريين ؟

- أئن تصبح دموع هؤلاء الذين لا سند لهم سقاة لغرس الحرية ؟

- أئن يصبح الصباح بموت الاستعمار عيداً للأحرار ؟

وشاعرنا يتحدث عن الحرية كثيراً في شعره ، ولا يرى طعماً للحياة بدونها ، وقد تحدث الشعراء قديماً عن الربيع ووصفوا الطبيعة وما يحدث فيها من ازدهار وبهاء ، إلا أن شاعرنا يشترط في وصفه لجمال الطبيعة أن يكون مقترناً بالحرية ، فالطبيعة مهما كانت جميلة وبديعة ، فهي قبيحة وكريهة بدون الحرية ، ونراه يؤكد على ذلك في شعره إذ يقول^(٢):

(١) ديوانه ، ص ٢٢ .

(٢) انظر : مقدمة ديوانه ، ص ٢١ .

طبیعت هر چه باشد نغز و زیبا
 جو آزادی نباشد سخت زشت است
 جهان من پرتر آزادی و مهر
 اگر زشت است و گر زیبا بهشت است

والمعنى:

مهما كانت الطبيعة جميلة وبديعة ، فهي قبيحة جداً إذا لم تتوفر الحرية ،
 فالدنيا فى ضوء الحرية والمحبة ، هى الجنة إن كانت قبيحة أم جميلة .
 وهو إلى جانب دعوته للحرية ، يدعو أيضاً للسلام بين شعوب الأرض ، ومن
 قصائده فى هذا المعنى قصيدة بعنوان «رسالة السلام» ومطلعها^(١):
 آدمی راگر چه از مشّت غباری پیکراست
 جلوه گاه عظمتش از باختر تاخاور است

والمعنى:

رغم أن الإنسان جسد من حفنة تراب ،
 إلا أن موضوع تجلى عظمته يمتد من الشرق إلى الغرب.
 فهو يمجّد الإنسان فى هذه القصيدة ، ويود له لو أنه سخر تفكيره وعقله فى نشر
 السلام فى ربوع الأرض ، ويذمّ الذين يسعون إلى تدمير العالم وخرابه ، ويبين نتائج
 الحروب ودمارها ، وخصوصاً الحرب الذرية التى يمكنها أن تبيد الأسرة الإنسانية فى
 لحظات قليلة . ويقول فى نهاية القصيدة إن السلام هو سلاح العقلاء العظماء ،
 ويختمها بمدح بلاده التى قدمت العديد من المصلحين ودعاة السلام كجمال الدين
 الأفغانى وغيره.

(١) ديوانه ، ص ٢٠ .

(٢) انظر : مقدمة ديوانه ، ص ٣١ .

ومن السمات التي تغلب على شعره أيضاً نبرة الحزن والشكوى إذ ينبعث الأنين من هنا وهناك في ديوانه ، شاكياً الزمان وتقلباته ، وما أصابه منه من ظلم وألم ، ومثال ذلك ما نراه في قصيده يقول في مطلعها^(١):

از درد ولم بسوخت جانم آي چرخ بس است امتحانم
آخرنه زآهن است جسمم آخر نه زسنگ استخوانم
ديرز بهــــــــــــــــار آرزو بود در گلشن تن دل جــــــــــــــــوانم
امروز شده چو آمال من بر سر قبر نوحه خوانم

والمعنى:

- لقد احترقت روحي من الألم والعناء ، فكف عن امتحاني أيها الفلك.

- فليس جسدي في النهاية من الحديد ، وليست عظامي أخيراً من الحجر.

- بالأمس كان ربيع الأمل ، وكان قلبي شاب في روضة الجسد ،

- واليوم صارت الآمال قبراً وأنا أنوح فوق هذا القبر.

وهو في قصيدة أخرى يذم الدنيا ، ويعتبر نفسه ممن ظلموا فيها ، وأن الفلك

يتسبب في إيلامه ، ويرميه بكل سهم جراح وأن المروءة ليست من طباع الزمان الغادر ، وأن الحياة كلها خرافة ، وحقيقتها ليست سوى آلام ومصائب، يقول^(٢):

مائيم ستمكشان مظلوم زين شاه سياه وأختر شوم
بنــــــــــــــــاد أمل رذست داده بنیان عمل زپا افتاده
اند كف روز گارچون موم بازیچه اشکهای مشنوم
هرتیر که چرخ درکمان بست اندر دل ما نشان بست

(١) ديوانه ، ص ٥٣ .

(٢) ديوانه ، ص ٩٦ .

دل نی هدف سیاه بختی آماج بلا ورنج و سـخـتـی
 در طبع زمانه مرمدی نیست زین بزم امید خرمی نیست
 سر تاسر زنگی خرافات اندوه و بلا ورنج و آفات

والمعنى:

- نحن المظلومين المعتدى عليهم ، من الليل الأسود والنجم المشنوم ،
- إن الإنسان في كف الزمان كالشمع ، وهو ألعية الدموع المشنومة ،
- وكل سهم يثبتته الفلك في قوسه ، إنما يصوبه إلى قلوبنا المتألمة العاجزة .
- إن القلب ليس هدفاً لسوء الحظ ، بل هو هدف للبلاء والآلام والشدائد
- فليست المروءة من طبع الزمان ، ولا أمل في السرور من هذا المحفل
- إن الحياة كلها خرافات
- وحزن وبلاء وألم وآفات .

والإنسان يولد في نظره مقيداً ، وفي جو مشحون بالدم والصياح ،
 ويقول^(١):

که میگوید بشر آزاد زاده ؟ که این بیچاره بس شاد زاده
 به بند افتاده در روز نخستین به خون غلیطده بافرید زاده

من يقول إن الإنسان يولد حراً ؟ إن هذا المسكين ولد بائساً .
 وقد قيد منذ اليوم الأول لولادته ، وتدرج في الدم وولد مع الصياح .
 وهو في أبيات أخرى يتحدث عن شدة مرارة الحياة وقسوتها ، فيقول^(٢):

(١) ديوانه ، ص ٢٦٠ .

(٢) ديوانه ، ص ٢٦٢ .

زبس بگذشت عمرم درجهان تلخ مرا گردیده استخوان تلخ
اگر موری خورد خاك و گل من بود تا محشرش كان و دهان تلخ

المعنى:

- من كثرة ما أمضيت عمري في الدنيا المرة المذاق ، أصبحت عظامي مرة المذاق.
- فإذا أكلت نملة من ترابي وطيني بعد موتي ، فستظل المرارة في حلقها وفمها
إلى يوم حشرها .

ويقول في موضوع آخر^(١):

بهر جائي كه كارم تخم اميد جاي گل همه آزار رويد
أى:

حيثما أزرع بذور الأمل ، تنبت كلها ألما مكان الورود .
وتظهر في شعره أحياناً نبرة التشاؤم ، فنراه يقول في قصيدة له^(٢):
چشم آميدم كورشده شهد جواني شور شد
زخم كهن ناسور شد گردید گلها خارها .

والمعنى:

لقد عميت عيني آمالي ، وأصبح شهد الشباب مالخا ،
وصار الجرح القديم ناسوراً ، وأضحت الورود شوكا
ويقول في قصيدة أخرى بعنوان ابن الألم^(٣):

(١) ديوانه ، ص ٢٦٢ .

(٢) ديوانه ، ص ١٨ .

(٣) ديوانه ، ص ٨١ .

زادهء دردم وپروردهء رنج و محنم بجفاء دگر ای چرخ مکن ممتحنم
بسکه در ساغر من تلخی غم ریخت سپهر زجر آلوده شده شهد سخن در دهنم

والمعنى:

- إننى وليد الألم ومربى العذاب والمحن ، فلا تمتحنى أيها الكون بظلم آخر
- فمن كثرة ما صب الدهر في كاسى من مرارة الغم ، أصبح شهد حديثي ملوثاً
بالزجر في فمي.

وهو يعتبر الموت أفضل من الحياة التي تمتلئ بالآلام والمتاعب ، كما أن الإنسان
مهتد فيها كل لحظة بما يخبئه له القدر من مصائب ونكبات ، ويعبر عن ذلك في
قصيدته السابقة بقوله:

مرگ خو شتر زحیا تىست كه هر لحظه سپهر
دست بر تیغ گذارد كه زم یا نرم

والمعنى:

إن الموت أفضل من الحياة ، فالدهر في كل لحظة

يضع يده على سيفه ليفكر هل يطعني أم لا .

ومن الأفكار التي تغلب على شعره فكرة حب الوطن ، وهو موضوع محبب إلى
نفسه يكرره بين الحين والآخر ، ويفخر ببلاده في كل مناسبة ، ويود لو رآها في
مصاف الدول العظمي ، ويذكر شبابها بتاريخها المجيد الذي تمتلئ صفحاته بالبطولة
والرقى ، وهو في كل هذا فخور بها وبمن أنجبت ، ونجد مثلاً حياً على ذلك قصيدته
التي يتحدث فيها عن مدينة غزنة والصروب التي دارت فوق أرضها ، وعن السلطان
يمين الدولة محمود الغزنوى (حكم من سنة ٢٨٧هـ إلى سنة ٤٢١هـ) وفتح أجزاء كبيرة
من الهند ونشر الإسلام في ربوعها ، وكان بلاطه غاصاً بالشعراء والكتاب . ويتحدث
كذلك في هذه القصيدة عن الصفاريين والسامانيين وهما الأسرتان اللتان حكمتا قبل

الأسرة الغزنوية ، كما يتحدث عن الكاتب المعروف أبي الفتح البستي ، وعن الفروسي الطوسي الذي نظم ملحمة الفرس الخالدة «الشاهنامه» ، وعن الشاعر سنائي الغزنوي ونراه يقارن بين حال غزنة بالأمس واليوم ، ويخاطبها بقوله^(١):

الاتو مهد دلیران وکشور شیران	قرار گاه بزرگان و خانہ ابرار
الاتو مہبط علم ومحیط فضل و هنر	الاتو قبہ اسلام و قبلہء احرار
الافرشته وش وای مادر بهشت قرین	الاکہ دامت آورد شیر مردان بار
به آب و خاک تو پرورده روزگار کهن	سران باج ستان و شہان تاج گذار
به ویژه خسرو کیتی سنام عالم گیر	کہ برق تیغ وی افکند در زمانہ شرار
بیمن ملت و دین حامی مفاخر شرق	فروغ دیدہء گیتی و نخبہء اعصار
تو غزنہ نیستی ای مادر عزیز دگر	نمی کنم بتو من نام غزنہ را تکرار
تو شہر آتش و خونی تو مهد علم و فنون	تو یادگار قرونی ز گردش ادوار
تو مظهر حسناتی تو مایہء برکات	توسر نوشت حیاتی و تو عروس دیار
تو مهد عظمت شرقی اگرچہ هست امروز	شباحت توبہ تابوت مردگان بسیار
بیک تجلی نور تو خیرہ شدتا حشر	ضیای بتکدہ ، آئین مغ ، فروغ بہار
به بیش بیرق گلگون تو بخاک افتاد	لوای دولت سامان و پرچم صفار
کدام بیکر قدسی بخاک پاک تو خفت ؟	کہ بوی عشق برون آیداز در و دیوار
زمین قدس تو پهنای آسمهان باشد	دو او ز مردم بخرد ثوابت و سیار
بفضل و دانش بو الفتح تاجہان باشد	زمانہ باز دبیری دگر نیارد بار
به محضر تو شر فنامہء کیانرا مہر	نمود شاعر طوسی بوہ معجز گفتار
بلی سخن ز صفای محیط گردد نغز	چنانچہ دل شودز بادمہر گان ستوار
سخنوران تو مرغان عرش را مانند	بجای نغمہ بر آرند آتش منقار
دل سنائی تو طرفہ زورف دریائی	کہ نی کرانہ پدید است مرورا نہ کنار
زرشحہ قلمش باغ معرفت خرم	زموجہء هنرش ساحت سخن گلزار

(١) دیوانہ ، ص ٢٩ .

ومعنى الأبيات السابقة:

ألا إنك مهد الأبطال وموطن الأسود ، ومقر العظماء ومنزل الأبرار .
ألا إنك مهبط العلم ومحيط الفضل والفن ، ألا إنك قبلة الإسلام وقلبة الأحرار .
ألا إنك ملائكية الوجه أيتها الأم الشبيهة بالجنة ، ألا إنك تنجبين أبطال الرجال .
لقد ربى الزمن العتيق على مائك وترايك ، القادة جبابة الضرائب والملوك
المتوجين .

وخاصة الملك الذى استولى على العالم بأسره ، وكان الشر يتطاير من برق سيفه آنذاك .
إنه يمين الملة والدين ، حامى مفاخر الشرق ، نور عين الدنيا ، وخيرة رجال
العصور والأزمنة .

أنت لست غزنة أيتها الأم العزيزة الأخرى ، ولن أكرر اسم غزنة كاسم لك .
أنت مدينة النار والدماء ، ومهد العلم والفنون ، أنت تذكّار القرون على مر العصور .
أنت مظهر الحسنات وأساس البركات ، أنت ترجمة الحياة وعروس الديار .
أنت مهد عظمة الشرق ، رغم أنك اليوم تشبهين إلى حد كبير تابوت الموتى .
لقد انطلقاً إلى يوم القيامة - بتجلي نورك لمرة واحدة - ضياء معابد الأصنام
والأوثان والدين الزردشتى .

وسقط على الأرض أمام بيرقك الأحمر ، لواء «السامانيين» وراية «الصفاريين» .
أى جسم مقدم نام على أرضك الطاهرة ، حتى يفوح عبير الحب من كل جنباتك .
إن أرضك المقدسة لها اتساع السماء ، وفيها من نجوم العلماء والعقلاء الثابتة
والسيارة .

فطالما كانت الدنيا ، فلن ينبج الزمان مرة أخرى كاتباً آخر يفضل «أبى الفتح» وعلمه .

ولقد ختم الشاعر «الطوسي» في حضرتك رسالة شرف الملوك ومجدهم بمعجز قوله.

نعم إن الكلام يصير بديعاً لصفاء جوك ، كما أن القلب يثبت من رياح الخريف.

أدباؤك كطيور العرش ، يخرجون من مناقيرهم النار بدلا من النغمات.

إن قلب شاعرك «سنائي» كأعماق البحر ، ولا حدود له ولا نهاية.

وهو الذي ازدادت برشحات قلمه «حديقة» المعرفة^(١) وأصبحت ساحة الكلام مزدهرة بأمواج فنه.

ومن شعره الذي نظمته في الفخر ببلاده وكفاحها ضد الإنجليز تلك الأبيات المذكورة في ديوانه تحت عنوان «آخرين سواره» أي «الفارس الأخير» وهي تحكي كيف أن المجاهد الأفغاني أكبر خان غازي استطاع أن يقضي على القوة الإنجليزية في كابل نهائياً، وبقي منها فارس واحد فقط هو الدكتور «برايدن» الذي استطاع بعد مشقة بالغة أن يصل إلى معسكر إنجليزي آخر في مدينة «جلال آباد» حيث الجنرال «سيل». ومن أبياته التي يصف فيها حال ذلك الفارس عند قدومه إلى معسكر الجنرال «سيل» قوله^(١).

ديد كز دور سوارى پيدااست	لزر لرزان چويكى سايه بر آب
گاهى افتد وگه خيزد	دست رفتہ زعنان باز ركب
بر سر اسب (برايدن) بود	خسته وزار ونحيف ورنجور
شبح بى روح وى اندر ظلمات	چون يکى مرده برون جسته زگور

(١) يقصد «حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة» وهي مثنوية للشاعر سنائي شاعر القرن السادس الهجري المشهور ، ويبلغ عدد أبياتها إحدى عشر ألف بيت وقد قسمها الشاعر إلى فصول أو كتب وأهداها للشاه الغزنوي وتتصل موضوعاته بالأخلاق والتصوف.

(٢) ديوانه ، ص ١٦٩ .

- رأى (سيل) فارساً يظهر من بعيد ، مرتجفاً كظل إنسان على الماء.

- فهو يسقط أحياناً وينهض أحياناً ، وقد أفلت الزمام من يده والركاب من قدمه ،

- وكان فوق هذا الجواد الفارس (برايدن) متعباً ضعيفاً نحيفاً متألماً.

- وكان شبحة الذي لاروح فيه في الظلمات ، كميت وثب من قبره.

ويصف برايدن مارأه من الأفغان ، وأنهم يتصفون بالشجاعة والبطولة. ويصف جيشهم بأنه كان في القتال كالسحاب الأسود الذي يتساقط منه الموت على رؤوس الجيش الإنجليزي ، ويتناثر منه الحقد والضغينة كالسنة الذهب ، وعيونهم تلمع غيظاً ، وصدورهم تغلى حقداً ، ويحملون على عدوهم كالبرق الخاطف . ويأمر القائد سيل أن ينفخ في النفير ، فيجتمع جنده ويشعلون ناراً حتى يهتدى إليهم كل من ضل من الجند ، وفي الصباح لم يعد أحد فجلس سيل أعلى قلعتة متألماً يبكي حظه العاثر عندئذ رأى عقاباً يأتي من بعيد ، وقد حمل في مخلبه قطعة قماش تقطر دماً ، فقال «هذا دم قلب جندي». وارتفعت بذلك راية الحق ونكست أعلام الظلم. وقد أجاد خليلي في تصوير هذه الواقعة الحربية ، وزخرت أبياته بالصور والتشبيهات الرائعة ، وهو بهذا يذكر أبناء وطنه بماضيهم التليد وكفاحهم ونضالهم من أجل حياة أفضل ، ونراه في مواضع أخرى يلفت أنظارهم إلى الحضارة التي تغمر العالم ، ويحثهم على التقدم والنهوض ببلادهم أسوة بأجدادهم العظماء ، يقول في قصيدة يخاطب فيها أبناء الوطن^(١).

همه بيدار وتو خواب گرانى تاكى ؟ غافل از سر ترقى جهانى تاكى ؟

چشم بر راه كمال دگرانى تاكى ؟ توباین پرده تاريك نهانى تاكى ؟

هله برخيز زجا غفلت بى جا تاكى ؟

خواب نوشين چو قدر تشنه صهبا تاكى ؟

(١) ديوانه ، ص ١٠٢ .

إلى أن يقول:

أى پسر چشم سړى تو بازست هنوز
قوم راجانب تو دست درازست هنوز
مملکت رابتو صد گونه نیازاست هنوز
فرصتی خدمت تو دور و درازست هنوز
وقت بازی نبود فرصت کارست بیا
ای پسر کار نکردن بتو عارست بیا

والمعنى:

إلى متى تغطون في سبات عميق والجميع يقظى؟ وإلى متى تغفلون عن سر رقى
الدنيا .

إلى متى تنظرون إلى طريق كمال الدين ؟ وإلى متى تختفون خلف ستار مظلم.

- هيا انهضوا من أماكنكم ، فإلى متى هذه الغفلة التي لا محل لها .

- يا من تغطون في النوم ، إلى متى تكونون عطشى للشراب .

- يا بنى إن عين الوطن تنظر إليك الآن وإن قومك يمدون إليك يدهم الآن .

- وبلادك تحتاج إليك في أشياء عديدة الآن ، وفرصتك اليوم كبيرة لخدمها .

- ليس الوقت وقت اللعب ، تعال فالوقت وقت العمل .

- يا بنى أقبل فإن البطالة عار عليك .

ومن المعانى الطريفة التي طرقها الشاعر في ديوانه تصويره لضعف الإنسان
وغروره ، ودعوته إلى التحلى بعدم الغرور ، فكل إنسان سيصير بعد قليل إلى تراب
تذروه الرياح ، بعد أن يصبح جسده طعاماً للحشرات ، والإنسان في رأيه مخلوق

ضعيف يتركب من جعبة عظام وقدحين من الدم ، فلماذا يعتز بقوته وعظمته ؟ ويتجلى هذا المعنى في بعض رباعياته ، ومنها قوله^(١).

ای غره اینکه دهر فرما نبر تست

وین ماه وستاره و فلک چاکر تست

آن مور چگان که رزقشان پیکر تست

ای مشت گل این غرور بیجای تو چیست؟

یک بار بخود نگر که معنای تو چیست؟

یک جعبهء استخوان ، دو پیمانہء خون

پنهان تو چیست ؟ آشکارای تو چیست؟

والمعنى:

- یا من تظن أن الدهر مطيع لك ، وأن القمر والنجوم والفلک خدمك،

- أخشى أن يظن النمل إنك خادمه ، عندما يصير جسدك رزقاً له وطعاماً .

- ما هذا الغرور الذي لا محل له يا حفنة الطين ؟ انظر إلى نفسك مرة واحدة ،

فما هو معنى وجودك ؟

- أنت جعبة مليئة بالعظام وقدحان من الدم ، فما هو الواضح فيك وما هو الخفي؟

وشاعرنا يمجّد العلم والعلماء ، ويمدح العلم في بعض قصائده، وقد عمل في التعليم كما ذكرنا من قبل ، وهو يصف المعلم بأنه ينقل الناس من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة ، ويعتبره في مرتبة تلي مرتبة النبوة لمكانته وفضله ، يقول في قصيدة له^(٢):

(١) ديوانه ، ص ٢١٤ .

(٢) ديوانه ، ص ٦١ ، ٦٢ .

ملك دانش ملك وى أمانه باتيغ وسپاه
 عرش حكمت زان وى ليكن نه با انگستري
 محو گشت آن روز هاكز روم تا اقصای چین
 گوش ها مى گشت كرا از نوبت اسكندري
 ليك آواز ارسطو تا هنوز آيد بگوش
 از در هر مدرسه گر باتأمل بگذري
 اين جهان يك سر دبستان است وما شاگرد آن
 هان توتنها طفل را شاگرد مكتب نشمرى
 خود معلم نیز شاگرد است پيش روز گار
 نوبنو درسى دهد مارا جهان بنگرى

والمعنى:

- إن ملك العلم هو ملكه، ولكن ليس بالسيف والجند ،
 وعرش الحكمة له ولكن بدون خاتم .
- فمن ضيائه تظل سماء الفضل مضيئة إلى الأبد .
- كما يضيء الفلك الدائر بنور القمر والمشتري ،
- لقد محت تلك الأيام ما حدث في بلاد الروم وحتى أقصى الصين ،
 وصمت الأذان عما حدث في عصر الإسكندر ،
- إلا أن صوت أرسطو مازال يدوى في الأذان حتى اليوم ،
 إذا مررت متأملاً بباب كل مدرسة ،
- إن الدنيا كلها مدرسة ونحن تلاميذها ،
- نعم لا تعتبر الطفل هو تلميذ المدرسة الوحيد .
- فالمعلم نفسه تلميذ أمام الزمن أيضاً .
- وإذا تأملت فستجد أن الدنيا تعطينا درساً تلو الآخر .

مبشر خان الطرازی شاعر تركستان

ومثنوى "يادگار زندان" أو "آيينه جهان"

ناظم هذا المثنوى هو السيد مبشر خان الطرازی الحسينى ينتسب إلى أسرة شريفة النسب اشتهرت بالعلم والعرفان فى تركستان الغربية ، وهو أحد زعماء هذه المنطقة البارزين.

بدأ شاعرنا فى نظم مثنويه فى السادس من سبتمبر عام ١٩٤٧ وانتهى منه فى الواحد والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧ ، وذلك أثناء الفترة التى قضاها فى السجن فى مدينة كابل منذ عام ١٩٤٣م ولمدة خمس سنوات وثلاثة أيام ، وأطلق على هذا المثنوى اسماً «يادگار زندان» أو «تذكار السجن» ، وكان قد أطلق سراحه قبل صيف عام ١٩٤٨م. أما اسم المنظومة الآخر وهو «آيينه جهان» فقد أطلقه سيد على أكبر شاه حسينى وكيل وزارة المعارف بولاية السند بباكستان وعضو البرلمان الباكستانى، وطلب من المؤلف أن يسجله عليها . ولهذا سميت المنظومة بهذين الاسمين معاً ، والملاحظ أنهما ينطبقان على مضمونها ، فهى تحتوى على قسم كبير يتحدث فيه عن السجن والمسجونين من المجاهدين . ويصف ما حدث فى تلك الفترة له ولزملائه . كما أنها تحتوى فى نفس الوقت على الأحداث التى تدور فى عصر الشاعر ، ويخص كثيراً من دول العالم وخاصة العالم الإسلامى وما أصابه من فرقة وتفكك ، وأخطار الشيوعية على هذه الدول.

ومن هنا نرى أن منظومته كانت مرآة ينعكس فيها كل ما يجرى من حوله من أحداث جسام . وقد صرح هو فى ثانيا منظومته بأنه نظمها من أجل أن يستفيد بها المسلمون وأن تظل تذكاراً للفترة التى قضاها فى السجن.

يصل عدد أبيات هذه المنظومة إلى حوالى أربعة آلاف بيت نظمها فى قالب مثنوى الذى تكون فيه القافية فى جزئى البيت الواحد وتتغير بعد ذلك بتغير الأبيات ، وهذا القالب هو الذى نظم فيه شعراء الفارسية منظوماتهم الطويلة التى تتناول قصص البطولة أو مسائل الأخلاق والتصوف والحب ، أما الوزن الذى صيغت فيه فهو وزن الرمل ، وقد ذكر الشاعر فى نهاية منظومته أنه نظمها فى وزن منظومة «مثنوى معنوى» لجلال الدين الرومى شاعر الصوفية الكبير^(١).

ورغم تعدد الموضوعات التى تناولها الشاعر فى منظومته إلا أن هناك خيطاً يربط بين كافة هذه الموضوعات ، وهو يتلخص فى توجيه النصح والإرشاد للفرد المسلم ولجماعة المسلمين فى شتى بقاع الدنيا ، فالسمة العامة التى تغلب عليها هى النصيحة من خلال الحديث المباشر والاستعانة ببعض القصص التى تؤيد وجهة نظر المؤلف وهذه الطريقة نجدها فى كثير من المنظومات أو الكتب النثرية الفارسية وخاصة فى المنظومات الصوفية والأخلاقية.

وقد وضع المؤلف "عناوين" لكل موضوع من الموضوعات التى طرحها ، ولم يترك الموضوعات تتداخل وتختلط ، ويحس القارئ لهذه المنظومة بقوة إيمان ناظمها وعمق تدينه وتوكله على الله ، وهذا واضح فى ثناياها ، ومثال ذلك حديثه إلى المناضلين المسجونين معه من أجل تحرير تركستان ، ودعوته لهم بالاعتماد على الله والصبر حتى يتحقق لهم النصر.

أما عن أسلوب الشاعر فى منظومته فيتميز بالسهولة وعدم التكلف ، وربما جنح شاعرنا إلى هذا الأسلوب حتى تنتقل أفكاره وأراؤه إلى كافة المستويات الثقافية التى ستقرأ هذه المنظومة ، وهو فى هذا يتبع الأسلوب الذى يجرى على ألسنة من يقومون بالوعظ والإرشاد.

(١) حمد لله اين كتاب مثنوى بروزن مثنوى مولوى ، (ص ٢٤٨).

ببدأ الشاعر منظومته بشكر الله ومناجاته ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ،
وهذه المقدمة عادة ما تبدأ بها المنظومات الفارسية الطويلة ، ويقول في مطلع المثنوی^(۱):

أحمد الله الأبدى حمداً لاحد له	وهو الحى القيوم القادر ذو الجلال
لا يعترى ذاته أى نقص أو عيب	ولا يخفى على علمه أى غيب
كل صفاته فضل وكمال	لاتشوبه شائبه أويحقيق به زوال
لامكان له ومنه يكون المكان	لازمان له ومنه يكون الزمان

ويشير إلى أن الله خلق كل ما فى الكون لكى يعبدوه ، وأن مخلوقاته كلها مظهر
لقدرته ودليل على عظمته وبرهان على وجوده وصفاته ، وأن الأبصار لا تدركه وهو
يدركها^(۲).

ويناجى ربه ، ويسوق خلال هذه المناجاة قصة يوسف وزليخا وقصة أيوب وما
أصابه من بلاء وقصة النمرود وإبراهيم ، وينتقل إلى لىلى والمجنون ، وقصة فرهاد
وشيرين ، ثم يتحدث عن نفسه وما أصابه من بلاء من يتم وغربة عن الوطن وسجن ،
وأنه راض بكل ما يحكم الله به عليه ، وأن شكواه ليست من عدم الرضا ، فالله عالم
بحاله ولا تخفى عليه خافية ، يقول^(۳):

(۱) حمد بىحد مرخدای لايزال	حى وقيوم وتوانا ذو الجلال
ذات اورا هیچ نقص وعيب نيست	نزد علمش هیچ پنهان غيب نيست
هم صفاتش سر بر فضل وكمال	نى مراورا شائبه شين وزوال
لامكان ست ومكان ازوى پديد	لازمان ست وزمان ازوى دميد (ص ۱)
(۲) ديده عا از ديدار او عاجز بود	درك ذاتش بر همه معجز بود (ص ۲)
(۳) اتكا از من بى تو بر ذات تو ست	تسلية خاطر مرا آيات تو ست
حال من از علم تو بر شيدہ نيست	بى مزه در ذوق آن شد بامزه
(۴) گر دهن شد از مرضها بى مزه	بى مزه در ذوق آن شد بامزه
ور رمد در چشم انسان شد پديد	روشنى مـهـر تابان رانديد

- إذا أصبح الفم لا يتذوق بسبب المرض ، فإن الطعام غير المقبول يصبح سائغاً .

- وإذا أصاب الرمد عين الإنسان ، فإنها لا ترى ضوء الشمس الساطعة.

ويتحدث بعد ذلك عن صفات الرسول وأن الله مدحه بقوله : «إنا لك على خلق عظيم» (سورة القلم آية ٤) وقوله : «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» (الأنبياء ١٠٧) وأن دينه يصلح لكل زمان ومكان ، وأنه نسخ كل الأديان السابقة عليه ويختتم مدحه للنبي بقوله^(١):

- فتعال يا أيها المنصف الحق ، واحن الرأس احتراماً لخاتم الأنبياء.

- واهتف قائلاً من صميم قلبك وصدق إحساسك : يا مصطفى روحى فداك.

يا نبى الله سلمت إليك ، يا رسول الله صلى الله عليك.

ويتحدث عن والدى الرسول وزوجاته وآل بيته فاطمة والحسن والحسين وعن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ويتوسل إلى الله ويدعوه أن يرحمه ويغفر له خطايا وسهوه ونسيانه بحق المصطفى (ﷺ) ، وأن يحفظه من الفقر والكفر ومن التقلب والتغير ، ويثبت أقدامه فى طريق الخير والصواب ويحفظه من شر إبليس ولا ينسى أن يدعو لأولاده وأهله ووطنه ، ومن دعائه قوله^(٢).

- اللهم ابعد عن قلبى حب غيرك واصقل صفحة مرأتى.

- وأذب جسدى وروحى فى طريق عشقك ، وأظهر لروحى العلاج يا إلهى.

گردنى خم کن به خاتم انبیا
خود بگويا مصطفى روحى فداك
یا رسول الله صلى الله عليك ص
صیقلی ده صفحه آیینہ ام
چارہ روحم غما آئی چارہ سراز
ازشون دنیوی دل سرد کن (ص ۱۵)

(۱) پس بیا ای منصف متقن بیا
از صمیم قلب وصدق امتساک
یا نبی الله سلمت إليك
(۲) صاف کن ازعشق غیرت سینہ ام
دررہ عشقت تن وجامم گداز
بہر عشق این دلم پر درد کن

واملاً قلبی بآلام عشقك واجعل قلبی فاتراً عن شئون الدنيا .

ومن الأبيات السابقة وغيرها نلاحظ النزعة الصوفية التي تسيطر على ناظم هذه المنظومة ، فحديثه عن العشق الإلهي في جنباتها ، ويبرز بين الحين والآخر على الرغم من أن المنظومة تتناول موضوعات مختلفة ومتعددة.

وشاعرنا كمتصوف يستخدم أقوال الصوفية في شعره أحياناً ، متأثراً بما قرأ في هذا المجال ومن ذلك تضمينه لقولهم «من عرف نفسه فقد عرف ربه» في أحد أبياته^(١).

بعد هذه المقدمة الطويلة والتي استغرقت أكثر من مائتي بيت يبدأ الشاعر قسماً آخر من منظومته بعنوان «فى السجن» ويتحدث في بدايته عن هجر وطنه واصطحاب ابنه نصر الله معه وسجنه فى ليلة السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٢ هـ = ١٣ حمل ١٣٢٢ هـ . ش = أول أبريل ١٩٤٣ م ، ويشير إلى الرضا بالقضاء والقدر وأنه خاضع لهما ، وأن تقدير الله لا بد أن يكون لحكمة سواء كان ما يصيب الإنسان خيراً أم شراً ، وحكمه نافذ على كل إنسان سواء كان ملكاً أو أميراً أو وزيراً أو عظيماً أو ضعيفاً ، فكيف يتردد الإنسان فى قبول هذا الحكم؟^(٢).

- حكمه نافذ على كل شخص ، فكيف يجوز للإنسان أن يتردد فى قبوله؟

- فسواء كان الإنسان امبراطوراً أو ملكاً أو أميراً ، أو عظيماً أو وضعياً أو وزيراً .

فلا بد أن يحنى رأسه خضوعاً على أعتاب تقديره وأن يكون رهين أمره وتدبيره.

ولقد كان شاعرنا قدوة للمؤمنين المسجونين معه ، وهو يحمد الله على حاله هذه فيقول^(٣):

(١) ميشنا سد خالق خود اينچنين من عرف نفسه عرف ربه همين (ص ٢)

(٢) بهر هر كس حكيم او نافذ بود كى تردد بر كسى جائز بود؟

كرشهنشاه است وياشه يا امير يا كه است ويا مه است ويا وزير

سرخم اند درگه تقدير او ست يا رهين امر او تدبير او ست

(٣) بودم اندر زمره زندانيان شكر لله قسوده ايمانيان

الحمد لله لقد كنت فى زمرة المسجونين ، قدوة للمؤمنين.

ورغم أنه كان فى كابول عندما قبض عليه إلا أنه يخيل إليه أنه فى موسكو وأنه بين يدي أعدائه ، وأن أعداءه هم الذين احتجوا على جهاده وكفاحه من أجل وطنه واستقلاله، فأوصوا حكومة كابول بإيجاد حل لذلك ، فكان السجن له ولرفاقه.

ويشغل الشاعر نفسه فى السجن بالصلاة مع رفاقه أو بالحديث معهم ، أو بالرد على أسئلتهم وتفسير أحلامهم كما كان يفعل سيدنا يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، وكان يرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عليه والتزام بسنة خير الأنام كما كان ينصح البعض حتى لا يضلوا الطريق.

ويصف أحوال المسجونين فيقول إنها مختلفة فبعضهم يشغل نفسه بالعبادة ليلاً ونهاراً والبعض الآخر يغفل عن ذلك ، وبعضهم حزين يشكو ماضيه ، والبعض الآخر يعترف بذنبه ، ومنهم من يعتبر نفسه بريئاً ، وهذا يأخذ الفأل من القرآن ، وذلك يأخذه من ديوان حافظ الشيرازى . والمسجونون جميعاً رغم ما هم فيه من هم وحزن إلا أنهم يأملون جميعاً فى الفرج . ويصف بعضهم بعدم الصبر والتحمل ، ويرجع ذلك إلى أن الإنسان بطبعه فيه شئ من الهلع والجزع إذا مسه الشر ، ثم يوجه النصيح لهذا النوع من الناس ويرد على شكواهم ويتضح من كل هذا إيمانه العميق بالله عندما يرد على من أصابهم القلق على أسرهم وأولادهم وهم فى السجن ، يقول^(١):

- إن الخالق هو الكافى لأهلك وأولادك، وإذا اعتبرتهم ضعفاء فهو سندهم .

- فالرازق يكفل الرزق لكل دابة ، والعناية والرحمة من صفاته.

- فسلم أمرك لله واخضع لحكمه وعظمته.

وفى هذا إشارة إلى قوله تعالى : «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها» (هود: ٦) ، وقوله تعالى «فأله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين».

أهل وأولاد ترا خالق بس است	گربدانی بی کسان را او کس است
رزق فر جنبده بر رازق است	حفظ ورحم از خصلت آن خالق است
کارخود را بر خدا تسلیم کن	بهر حکمش سرخم و تعظیم کن (ص ٢٩)

ويحلو للشاعر بين الحين والآخر أن يذكرنا بقصة يوسف ، وهى تتناسب كثيراً مع وضعه فى فترة الحبس ، ويروى لنا فى هذا القسم قصة الأصمعى والإمام زين العابدين، وذلك عندما رأى الأصمعى شخصاً يتعلق بأستار الكعبة ويطلب المغفرة من الله ويبكى ثم يسقط مغشياً عليه ، وعندما يقترب منه يكتشف أنه الإمام زين العابدين ، فيتعجب مما يفعله وهو من آل البيت وذرية النبی (ﷺ) ويذكره بما قاله الله تعالى فى حقهم : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً»، إلا أن الإمام يرد عليه بآية أخرى هى قوله تعالى : «فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون» (المؤمنون ١٠٢ ، ١٠٢ ، ١٠٣).

ويؤيد ناظم المثنوى رأى الإمام زين العابدين ويقول رغم أن الأصمعى أيد كلامه بآية قرآنية إلا أنه كان يقصد التخفيف عن الإمام زين العابدين، ويؤيد هذا الرأى أيضاً بقصة نوح وإبنه كنعان الذى رفض أن يركب السفينة مع أبيه وغرق ، ووصفه القرآن بأنه عمل غير صالح ، ولم ينفعه نسبه فى هذا المقام ، كما يؤيده أيضاً إبراهيم وأبيه آذر ، عندما دعا إبراهيم ربه بأن يغفر لأبيه لأنه كان من الضالين فيقول الله تعالى «إنى حرمت الجنة على الكافرين» وهنا لا ينفع الابن أباه أيضاً ثم يعود فيشرح لنا ثلاث كلمات وردت على لسان الإمام زين العابدين من قبل وهى : التوحيد والشفاعة والرحمة.

ويعتبر التوحيد أساس ديننا وأنه يعنى نفى ماسوى الخالق وإثبات ذاته ، ويدعونا إلى التفكير فى خلق الله ويرى أن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمن الموحد الذى يرضى الله عنه ، ويروى أن المؤمنين العصاة يطلبون الشفاعة يوم القيام من الأنبياء والرسل كنوح

(١) ميكنم يارب بتواين النجاء	بر حضورت ايت تضرع اين رجاء
از شفاعت تومرا محروم مكن	نام من در محرومان مرقوم مكن
كر نباشد شافعم روز جزا	در هلاكهم جزاى باس جزا
كر شفاعت بهر عاصى ميشود	كر شفاعت بهر جافى ميشود
كر شفاعت بهر شخص شرمسار	بى بضاعت هم پریشان روز گار
بس إلهام مستحق آن منم	چون غريق بحريس عصيان منم ص (٥٤)

وإبراهيم وموسى وعيسى ، إلا أن مقام الشفاعة لا يكون إلا لحمد (ﷺ) الذى تقبل شفاعته ، ويختم حديثه بالتضرع وطلب الشفاعة ، فيقول^(١):

- إننى ألقأ إليك يارب وأتقدم إليك بتضرعى ورجائى.

- ألا تحرمنى من شفاعتك ولا تسجل اسمى ضمن المحرومين.

- فإذا لم يكن هناك من يشفع لى يوم الحساب فسأهلك لما استحقه من عقاب.

- ولو كانت الشفاعة لكل عاص ، ولو كانت لكل جاف ،

- ولو كانت لكل نادم لا بضاعة له ومضطرب الأحوال ،

- إذن فأننا من يستحقها يا إلهى فأننا غريق فى بحر العصيان.

ثم يتحدث عن الرحمة ويشير إلى الآية «قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم» (سورة الزمر - ٥٢) : ثم يروى عدة أحاديث منها حديث ابن مسعود الذى رأى ففياً يعظ الناس فى المسجد ويحدثهم عن جهنم وأهوالها فقال له : لماذا تجعل الناس يقنطون من رحمة الله؟ ثم قرأ عليهم الآية السابقة فزال الخوف من قلوب الناس وزاد الأمل فى نفوسهم.

ويتحدث عن القرآن الكريم وأنه يشتمل على كل شىء من سياسة واجتماع وعلوم ، فأين منه القوانين الوضعية التى يضعها البشر ويقول إن هناك فرقاً بطبيعة الحال بين ما ينزله الله وبين ما يضعه البشر (وضع الخالق والمخلوق) ، وأن الأوروبيين أخذوا ببعض أحكام الدين الإسلامى كالطلاق والصيام الذى اتخذونه وسيلة لعلاج بعض الأمراض ، وكذلك منع تناول المسكرات ، ويذكر أن كثيرين من الأجانب من غير المسلمين شهدوا بمعجزة القرآن ، وكان الطرازى قد فصل القول فى هذا الصدد فى مؤتمر عقد فى شهر إبريل عام ١٩٢٦ فى مدينة لاهور بباكستان بدعوة من الدكتور محمد إقبال شاعر باكستان وفيلسوفها العظيم ، وذكر فى محاضرة له بعنوان «وجوب اتحاد إسلامى» (ضرورة الوحدة الإسلامية) اعترافات خمسة وثلاثين أجنبياً حول هذا

الموضوع وقولهم بأن القرآن يصلح لكل الأمم ولكل زمان ومكان . ونشرت بحثه هذا «جمعية حماية الإسلام» (انجمن حمايت اسلام) التي كان يرأسها إقبال ، ويورد الشاعر رأى برنارد شو فى الإسلام وأنه سيأتى يوم يعتنق فيه الغرب هذا الدين.

ويعقب ذلك بحديث عن الدنيا وما فيها من اضطرابات تدور فى عصره ، فيذكر الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية وما جرتهما على العالم من دمار وخراب ، ومع ذلك فإن البشر يسعون إلى حرب عالمية ثالثة ، والدلائل كلها تشير إلى هذا فى رأيه ، ويتناول تشرشل وسياسته، ثم يتحدث عن فرنسا وأنه ستظل فى خطر طالما بقى فيها الحزب الشيوعى ، ويطلق هذا الكلام على إيطاليا، أما بالنسبة للبلقان فقد خضعت للنفوذ الشيوعى ، وهو دائماً يحذر من خطر الشيوعية. ثم يتحدث عن اليونان وتركيا وإيران ، ويشير إلى الأخطار التى تحقق بهذه الدول من قبل روسيا ، ولكنه يذكر أن تركيا ستتمكن من دفع هذا الخطر عن نفسها لما لها من ماض عريق فى الدفاع عن الإسلام ، أما إيران فنفوذ الروس فيها معروف وقد ارتبطت بمعاهدة مع روسيا ، ثم فسخت هذه المعاهدة عن طريق البرلمان الإيرانى ، وغضب السوفييت من هذا ، ثم يدعو الله لكى يحفظ ملك إيران . وعندما يأتى الدور على أفغانستان يقول عنها :

- إن بلاد الأفغان بلاد أرضها طيبة ، وأهلها من نوى القلوب الطاهرة .

- فهم قوم متدينون ذوو غيرة ، وهم مشهورون فى تاريخ العالم.

- مخلصون لأرباب الكمال ، أى أنهم أهل علم وتقوى وأخلاق حميدة^(١).

ويشير من خلال ذلك إلى محمد نادر شاه الذى حرر تلك الديار من قبضة الإنجليز ، ثم ذكر الملك محمد ظاهر شاه ، وأن أفغانستان ليست بعيدة عن الأطماع

(١) ملك أفغان سرزمين نيك خاك
ملت بادين وباغبیرت تمام
آنكه دارد ملت أو قلب پاك
بين تاريخ جیپانی نیکنام
ملت مخلصی بأرباب كمال
یعنى أهل علم وتقوى حسن حال (ص ١٠٩)

الروسية، وأن روسيا تتربص بها دائماً لأنها عدوة للإسلام وللمسلمين يقول^(١):

هي ليست بعيدة عن الأطماع الروسية ، وهذه الحقيقة لاتخفى على أحد .

- فالروس يتربصون بها فى كل لحظة وحين ، لأنهم أعداء الإسلام وخصوم المسلمين .

- وهم جيران السوء فى كل زمان ، ولا يوفوا بمواثيقهم .

- ويسعون لتحقيق أغراضهم الدنيئة ، ولا يصدر عن الأشرار إلا كل شر .

- خاصة من أتباع الإلحاد ، فكيف يكون حسن الجوار مع الأشرار؟.

ثم يدعو الله أن يحفظ تلك البلاد ، فيقول^(٢):

- يارب بحق جاهد محمد المصطفى ، وحق آل وصحابته الطاهرين .

- احفظ هذه الديار وهذه البلاد ، من دسائس الروس المشنومة ومكرهم

وغدرهم.

- واجعل هذه البلاد حرة إلى يوم القيامة ، واجعل الدين والدنيا عامرين فيها.

این حقیقت از نظر مستور نیست
دشمن اسلام و خصم مسلمین
بی وفادر وعده وعهد و امان
بر نیاید از بدان جز کاربد
کی بود همسایگی خیر از بدی؟ ص ۱۱۰
حق آل وحق صاحب باصفاء
ازد سیه و مکر و غدر روس شوم
دین و دنیا اندر آن آباد باد

(۱) لیک از اطماع روسی دور نیست
روس باشد هر دم آزی کمین
همجوار بد بود در هر زمان
او بود هر دم پی اغراض بد
بالخصوص از پیروان ملحدی
یا رب از جاهد محمد مصطفی
حافظ فرما این دیار و سرزمین
تا قیامت این زمین آزاد باد

ويتحدث عن الصين والنفوذ الشيوعي الذي تسلل إليها ، وأنها ستقع فريسة له لا محالة في النهاية . ويعود فيرجع كل ما حدث في تلك البلدان من اضطرابات وفوضى ومذابح إلى الشيوعيين ، ويدلل على صدق قوله بدليل عايشه هو وقاسى منه وهو ما حدث في بلاده تركستان . ويصف هذه البلاد بأنها كانت موطنًا للعلم والعلماء من مفسرين ومحدثين وعلماء في الفقه والكلام ، كما أن أهلها يتصفون بعزة النفس والتقوى والكرم ، ويحس القارئ هنا وفي هذا الجزء بالذات نبذة الحزن والألم التي تسيطر على الشاعر نتيجة ضياع هذا الوطن وخضوعه للاحتلال الروسى . ويتناول أقسام هذه البلاد فيتحدث عن فرغاتة وبخارى وخيوه ، ومقاومة أهلها في مواجهة المستعمر الروسى الغاضب ، إذ تم الاستيلاء على خيوه عام ١٩٢٠م وعلى بخارى عام ١٩٢١م.

ويذكر بعد ذلك جهاد شعب التركستان ومواجهة الشيوعيين الروس ، ويعدد أسماء أبطالهم وقوادهم مثل أنور باشا قائد المجاهدين فى بخارى الذى استشهد فى ٥ أغسطس ١٩٢٢م، ويهرام بيك قائد المجاهدين فى سمرقند الذى أستشهد فى عام ١٩٢١م ، وقور باشى إيزكش قائد المجاهدين فى خوقند مركز فرغانه الذى استشهد عام ١٩٢٠م أيضاً.

والشاعر لا يفقد الأمل مطلقاً ، فهو يأمل أن يأتى اليوم الذى تتحرر فيه هذه المناطق وتعود إلى حظيرة الإسلام من جديد ، يقول^(١):

- إذا كانت ظلمة الليل قد طالت ، فيستشرق الفجر من جديد ويعود الضياء،
ويصف الشيوعية فيقول^(٢):

صبح دم خواهد دميد وگشت باز ص ٣١٨
نیست قباحت نزد هر عاقل نهان
منكر وحى رسول الله بود ص ٢١٩

(١) کرچه تاریکی شب کشته دراز
(٢) بدترین مسلك بود اندر جهان
پیروى منكر الله بود

- إن الشيوعية أسوأ نظام فى العالم ، ولا يخفى قبحها على عاقل فطن.

- فمعتقدنا ينكر الله ، وينكر الوحي ورسول الله .

ويصف حال من يخالف المذاهب ، فهو إما أن يقضى عليه أو يفر هارباً من دياره، ويذكر ما حدث لبلاده بعد الاحتلال الروسى : فلا حرية للصحافة والنشر ولا حرية للفكر ، ولا طباعة للقرآن الكريم . أما بالنسبة للتعليم ، فلا تعليم إلا للعلوم الدنيوية ومذهب الشيوعية ، والمرء لا يستطيع حتى أن يعلم أبناءه العلوم الدينية وإلا تعرض للعقاب طبقاً للقوانين الشيوعية . كما أن تعليم، التاريخ مرتبط بالمذهب الشيوعى وحياة لينين وستالين وإنجلز وكارل ماركس وثورة أكتوبر ونتائجها وما إلى ذلك.

ويروى لنا قصة ابنه فضل الذى ذهب إلى المدرسة ولم يعجبه هذا النوع من التعليم الإلحادى فترك المدرسة وهرب ، ولكنهم أخذوه للمدرسة مرة ثانية ولما لم يجدوا سبيلاً إلى إقناعه بنظرياتهم وضعوا له السم فى الطعام فمات ، يقول الشاعر^(١).

- هجموا على حياته وظلموه فراح الطفل البريء الطاهر ضحية ،

- ضحى بروحه الطاهرة ، فى سبيل توحيد الله .

- كيف يتسنى لى أن أروى هذه القصة ، تلك القصة المليئة بالمحنة والغصة .

- إن قلبى يتمزق إرباً إرباً من سرد قصة هذا الطفل البريء الطاهر .

گشت قربان طفل پاك باوفا

كرده روح قدسى خرد رافدا

قصه ، پر محنت پر غصه را

قصهء اين طفلك معصوم پاك ص ١٢٦

(١) بر حیاتش حمله کردند وجفا

در ره توحید قدسی خدا

كى توأم شرح حال قصه را

سینه زین قصه بگردد چاك چاك

وبالنسبة للمدارس والمساجد ، فقد هدم الشيوعيون معظمها واستولوا على ما فيها ، وهذا ما حدث بالنسبة لمسجد أبيه في مدينة طراز . كما جعلوا الأوقاف في يد طائفة فاسدة ، وأغفلوا دار القضاء وأصبح سكان تلك البلاد خاضعين للقوانين الروسية . ثم يصف أحوال أهل تركستان وما أصباهم على يد الروس ، فمنهم من أدخل السجن ومنهم من قضى عليه ، ومنهم من فر هارباً وترك دياره ، وهو يحسن تصوير من يهجر وطنه وما يصيبه في الغربة عندما يقول^(١):

- من الأفضل أن تكون في وطنك حتى لو كنت شحاذاً ولست ملكاً .

- وكيف يكون الإنسان ملكاً سعيداً وهو في الغربة ؟

- وكيف يرضى بالغربة عن طيب خاطر ، من ترك قومه وأهله ؟

ويصف بعد ذلك تفرق مهاجري تركستان في الدنيا ، فمنهم من ذهب إلى أفغانستان ومنهم من ذهب إلى السعودية ، ويذكر الملك عبد العزيز ملك السعودية ومدى حفاوته بهم وبه هو شخصياً عندما التقى به عام ١٣٥٠هـ في القصر الملكي ، وكذلك ولي عهده في ذلك الوقت سعود ، كما انتشروا أيضاً في تركيا وإيران وباكستان والهند ومصر والشام والعراق والأردن وأمريكا وأوروبا .

وهو يحذر العالم من خطر انتشار الشيوعية ، ويصف كيف وقعت أوروبا الشرقية كلها تحت تأثير هذا الوباء ، ويصف الشيوعية بأنها كالميكروب أو الكوليرا التي تنتقل من مكان إلى مكان دون أن تجد التطعيم الواقى والدواء الناجح لها . ويصف موقف أمريكا الضعيف في مقابل انتشار هذا الوباء ويجل من القرن العشرين إنساناً يبكى على ضحايا هذه الآفة ، يقول^(٢):

شه بغربت کی بود اندر بیهی ؟
نرک دادہ قسوم وملت در دیار ؟
بر دریده از مصیبت پیر هن
گریه خواهد کرد شبها یاکه روز
مردده از گریه ناید سوری در
درک کردی این خطرا در جهان (ص ۱۳۷)

(١) به بود در وی کدایی از شپی
کی شود راضی بغربت آشکار
(٢) قرن بیستم این عجوز پر محن
بر سرش بنشسته ازافسوس وسوز
لیک خواهد رفت اشکش بر هدر
شاید اندر این مثال ای جوان

- مزق القرن العشرين - ذلك العجز المنكوب - قميصه مما أصابه من مصائب.
- سيبكى على ضحايا الشيوعية ، ليلا ونهاراً من الحسرة والأكم.
- لكن دمه سيجرى هباء فالميت لا يعود من قبره ،
- وربما فطنت أيها الشاب إلى هذا الخطر الذى يهدد العالم ، من المثال الذى ضربته لك.

ويتحدث عن مصر وقضيتها فى ذلك الوقت وكفاحها من أجل إجلاء الإنجليز عن ديارها وعناد المستعمر الغاضب فى هذا الصدد ، وينهى حديثه بأن مصر لم ترضخ للمستعمر ولن ترضخ له ويصف شعبها ، فيقول :

- إنهم قوم يتصفون بالحكمة والتدبير والحلم ، مشهورون بالفن والعلم.
- معروفون بحب الوطن ، مشهورون بالشجاعة فى ميادين القتال عند المحن.
- إنهم قوم أصحاب صناعة وحرف ، ذوو غيرة وهمة .
- مشهورون بالابتكار ، معروفون بالعمل والعرفان.
- أصحاب مجد وعز وإباء لهم عظمة إفريقيا .
- سيسعى الشعب جاهداً ، حتى يحقق هدفه بالعزم والتصميم^(١) .

والمعروف أنه قدم إلى مصر عام ١٩٤٩م وقدمت عائلته بعد ذلك عام ١٩٥٠م واستقبلته حكومة مصر كزعيم إسلامى ، وقضى فى مصر سبعة وعشرين عاماً .

ملت باسـهـرتى در فن وعلم	(١) ملت باحکمت وتدبير وحلم
باشجاعت در ميادين ومحـن	ملت معروف در حب وطن
ملت با غـيـرتى با همـتى	ملت باصنعتى باحرفتى
دارد ودر علم وعرفان اعتبار	ملتى كودر تخلق اشتهار
ملت باعظمت آفـريـقا	ملت با مجد وابـعـز و ابا
تا بمقصد برسد از عزم تام (ص ١٢٠)	سعى خواهد كرد اين ملت تمام

يصف بعد ذلك حال سورية ولبنان وما أصابهما من عدم استقرار نتيجة التدخلات المغرضة ، أما بالنسبة للعراق فحاله ليس بأفضل من جيرانه ، ويذكر أحوال أندونيسيا والاستعمار الهولندي ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الهند وباكستان وقيام الدولة الثانية ومؤسسها محمد علي جناح ومشكلة كشمير .

وعندما يتحدث عن فلسطين يقدم لذلك بحديث عن العرب وفضلهم على العالم ، ثم يقول إن هذا المعسكر ضم اليهود من شتى بقاع العالم، أقامه الاستعمار على أرض فلسطين ليكون شوكة في جانب العرب ، وحتى يجعل الشعب العربي ينزف دائماً ، كما أن التقسيم الذي حكمت به الأمم المتحدة غير عادل ، فكيف يحكم بتقسيم دار لإنسان بينه وبين غيره . وعندما ينتهي من وصف أحوال هذه البلاد جميعاً يرى أن العيش في هذا العالم المتناحر أمر صعب للغاية ، ويقول^(١):

- لو لم يكن هناك فضل خالق هذه الدنيا ، فالعيش في هذا الزمان أمر صعب .

كما يرى أن الحل الوحيد الذي تلجأ إليه الشعوب هو القرآن الكريم فتعمل بما فيه لصالح دنياها وأخرها ، ويذكر أن ماجرى لهذه الشعوب من مصائب إنما يرجع إلى تركهم لتعاليم القرآن الكريم ، يقول^(٢):

- ينبغي أن يكون القرآن دستوراً عاماً للشرق والغرب والدين والدنيا .

وإذا ما تم تنفيذ هذا فستخلو الدنيا من الكراهية والبغضاء والحسد ، وسيسود السلام . وعلى المسلمين أن يتحدوا ويتكاتفوا ، فالقرآن يدعو إلى الوحدة قال تعالى : «وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» (المؤمنون ٥٢) ، وقال «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» (آل عمران ١٠٣) وقال «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» .

زيستن مشكل بود در این زمان (ص ١٤٦)
بهر دنیا غرب وشرق اندر نظام (ص ١٤٩)

(١) کر نباشد فضل خلاق جهان
(٢) میسزد قرآن شود دستور

ويسرد المؤلف بعد ذلك الخلافات التي حدثت في عصور الإسلام الأولى ، ثم ينتقل إلى الحديث عن الخلافات بين السنة والشيعة ، ويرى أن مثل هذه الخلافات توجه ضربات للمجتمع الإسلامي ، يقول^(١) :

- لكنني أقول إن هذا الشقاق والخلاف والصدام والنفاق القائم بين الفريقين.

- قد وجه ضربات قاصمة ظاهرة وخفية للمجتمع الإسلامي.

- فأنفاد هذا أعداءه عن طريق إفساد العامة وإغوائهم.

ويشير في هذا الصدد إلى حديث الرسول (ﷺ) «المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً» وإلى قوله : «إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» (الحجرات ١٠).

ويرى المؤلف السؤال الذي وجهه له شاعر باكستان العظيم الدكتور محمد إقبال أثناء لقاءه في منزله بـلاهور ، وكان مدعو لإلقاء محاضرة عن «ضرورة الاتحاد الإسلامي» قال له إقبال : إن رجال السلف الصالحين كانوا لا يرهبون الموت إلا أننى أرى المسلمين الآن يخافون فما هو السبب؟ وما هو الفرق بين السابقين واللاحقين؟ ويرد عليه شاعرنا بقوله :

در جوابش گفتم أى صاحب نفس قوهء إيمان وضعف آن وبس (ص ١٥٧)

أى أنه يرى أن الإنسان عندما يكون ضعيف الإيمان يخشى الموت من مواجهة الأعداء ، بينما قوى الإيمان لا يخشاه . وقد لخص في هذا البيت الإجابة تلخيصاً بديعاً . ويدل على هذا بقصة عمير الصحابي الذي سمع الرسول (ﷺ) يقول :

این نخالف این تصادم این نفاق
ضربه آشکارا و نه پنهان
از ره افساد و اغرای عوام (ص ١٥٥)

(١) ليك گويم بين هرد واين شقاق
داد بهر جامعهء اسلاميان
بر مفساد دشمنانش شد تمام

«والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» فأخذ عمير يقاتل حتى نال الشهادة.

والسبيل الثانى للخلاص فى نظره هو التمسك بسنة المصطفى (ﷺ) فقد قال تعالى : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» . ثم يوجه المؤلف بعض النصيح كترك عقوق الوالدين ، وعدم ترك الصلاة وعدم ارتكاب المعاصى ، ويحض على ذكر الله ويذكر الآيات والأحاديث التى وردت فى الذكر.

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن قصة وفاة جده ، يقص علينا تفاصيل ما حدث له على فراش الموت وأنه كان يذكر الله ، ويقدم لذلك بحديث عن مدى علمه وفضله وتقواه وأنه كان حنفى المذهب ، سنى العقيدة ، نقشبندى المشرب ، من علماء متكلمى الماتريدية ، ويوجه النصيح لابنه بالأى يغفل عن ذكر الله وأن وفاة الأب تكون نذيراً للابن وأن الجميع إلى الموت سائرون ، أما الباقي فهو الله ، يقول:

اندريسن دنيا فماند هيچ كس آنكه باقى بس خداوند وبس (ص ١٨٦)

هذا البيت يتضمن معنى قوله تعالى : «كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» (الرحمن ٢٦، ٢٧).

ويوصى ابنه بأن يلقنه الشهادة عند احتضاره ، وألا يبكى عليه بعد موته ، ثم ينصح بالتوبة والاستغفار . ويربط الشاعر بين السجن والتوبة ، ويصف السجن بأنه كالجحيم أو البرزخ ، فالجحيم تقبل فيه التوبة والبرزخ يمكن أن يعفى فيه عن المذنبين ، وفى السجن كم من مذنّب تاب بداخله وكم من شقى أصبح سعيداً بعد أن اقترب من الحق سبحانه وتعالى.

وينصح ابنه بالتوكل على الله ويشير إلى الحديث الشريف: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغذو خماصاً وتعود بطاناً» ويذكر عدة قصص تؤكد أهمية التوكل على الله.

يصف الشاعر لنا بعد ذلك قصة حجه ، وذلك عندما انضم إلى وفد أفغانستان الرسمي في عهد محمد نادر شاه ونزل ضيفاً على الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٣٤٩هـ - ١٩٢٦م. ثم سفره إلى السعودية في العام التالي (١٩٢٢م) وفي موسم الحج أيضاً ، وذلك لعقد معاهدة صداقة بين البلدين وإقامة تكية للحجاج الأفغان ، وقد عقدت هذه المعاهدة وكتبها الشاعر باللغتين العربية والفارسية بقلمه ، وكان يرأس هذا الوفد الأمير أحمد شاه خان ابن عم محمد نادر شاه ، وكان الشاعر نائباً له ، ويشير شاعرنا إلى أن الفضل في كل هذا يرجع إلى توكله على الله يقول^(١):

- ليس من معين في الحياة سوى الله سواء في شئون الحياة أو في الممات.

- فأننا وحيد بلا أهل وذاته أفضل أهل ، وهو الكافي لحل كافة مشكلاتي.

لقد سلمت له أمري ، فهو الإله وأنا المحتاج إليه.

وتلى ذلك أبيات نظمها عند زيارته لمكة، ثم أبيات في المناجاة عند مقام إبراهيم يدعو فيها ربه قائلاً:

- اجعل وجهي أبيض بماء رحمتك ، ولا تبعدني عن أعتابك يائساً.

- فأننا لا أملك أفعالاً طيبة وكل ما أملكه ذنوب سيئة.

- فشأنك العفو وشأني ارتكاب الذنوب ، وشأنك الستر وشأني العيب.

- فكيف يصيب النقص بحر الكرام ، إذا أنت عفوت عن الواقفين على بابك.

- فيا إلهي طهر القلب من حب غيرك ومزق لبة ثوبي بعشقتك.

(١) من ندارم جز خداکس در حیات
 در شئون زندگي همجون ممات
 بیکم من ذات او بهتر کسی است
 بهر حل مشکلاتم او بس است

- وأغرقتني في بحار المعرفة ، واجعلني أقف على ما هية صفاتك^(١).

ينظم الشاعر عدة أبيات عند زيارته للمدينة ، ثم يتحدث عن الصلاة على النبي وفضل ذلك ، ويشير في هذا الصدد إلى الآية الكريمة : «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً» (الأحزاب ٥٦) وإلى الحديث الشريف : «من صلى على آحاد صلى الله عليه عشراً» و«من صلى على واحداً صلى الله عليه عشر صلوات ، وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات»، كما يقول بأن محبة الرسول ضرورة لإيماننا ، ولا بد أن تكون محبته أكثر من حب الوالد والولد ، ويذكرنا بالحديث الشريف : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» . فحبه ينير القلب ويعلى النفوس^(٢).

- إن حب النبي ينير قلبك ويجعل جسدك أتوناً وروضة.

- وحبه يسمو بحالك ، فتعلو روحك وتطير من عشقه.

ويتناول بعد ذلك شروط وأداب الدعاء ، ثم آداب قراءة القرآن ومنها ضرورة الوقوف على قواعد التجويد والترتيل والوضوء والاتجاه للقبلة ، والتوجه بالقلب للخالق ، وتأدية السجدة في مواضعها ، وعدم التسرع في التلاوة ، ويختتم الشاعر منظومته بالحديث عن تحديد مدة ختم القرآن ، وينهى المنظومة بأبيات يقول في مطلعها^(٣):

الحمد لله أننى نظمت هذا المثنوى على وزن مثنوى المولوى.

بس مران مایوس از این در گهت
هر چه دارم گناه است بدی
شان تو ستراست و شان من عیوب
گریبختی واقفان این حرم
هم گریبانم بعشقت چاک کن
واقفم کن از شئونات صفت
قالبت را گلشن و گلخن کند
روح تو از عشق زو بالا پرد (ص ٢٣٤)
بر وزن مثنوی مولوی
بهر توده ملت واخوان من

(١) روسفیدم کن به آب رحمت
هیچ نیکی من ندارم از خودی
کارتو عفو است و کار من ذنوب
کی رسد نقصی بد ریاری کرم
سینه ام از مهر غیرت پاک کن
غرق سازم در بحار معرفت
(٢) عشق او لب ترا روشن کند
عشق او حال ترا بالا برد
(٣) حمد الله این کتاب مثنوی
یادگار دوره زندان من

- حتى يكون تذكراً لفترة سجنى ، ولكل قومى وإخوانى.

وبعد هذا العرض الموجز لموضوعات المنظومة يتضح لنا أن الشاعر قد تأثر فى منظومته بالثقافة الإسلامية وباللغة العربية ، فتأثر إلى حد بعيد بالقرآن الكريم ، وهو فى الغالب يقتبس من معانيه ويضمنها أبياته ، وهذا أمر طبيعى لعالم من علماء الدين ، خاصة أن المنظومة تتضمن كثيراً من النصيح والإرشاد والدعوة إلى الدين والحق واتحاد المسلمين والتوكل على الله ، وغير ذلك من الموضوعات التي تحتاج إلى شواهد من القرآن السنة ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر قوله (ص ١٩).

هون و حزن از نقص إيمان آمده اين سخن نص قرآن آمده

وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » (آل عمران ١٣٩).

ويقول (٢٥):

صبر كن بهر بلا صبر جدا همزه صابر بود بى شك خدا

وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ».

(البقرة ١٥٣)

ويقول (ص ٢٥)

خلق كرد خالق ترا بين كبد پس توهستی در مشقت تا ابد

وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

« ولقد خلقنا الإنسان فى كبد » (البلد آية ٤).

ويقول (ص ٢٠):

وعده الله بود وعدهء يقين چونكه فرموده است نجي المؤمنين

وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

«وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين» (الأنبياء ٨٧ ، ٨٨).

ويقول:

آيتى را از آلم نشرح بخوان مطمئن گردد ترا خاطر ازان

وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

«فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا» (سورة الشرح ٦٠٥)

ويقول:

وعدهء حق را پسر ايندام بدان «سنريهم» گفته حق اندر بيان

إشارة إلى قوله تعالى:

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (فصلت ٥٢)

ويقول:

آن خدايى كو ورا آورده است حفظ أورانيز وعده داده است

إشارة إلى قوله تعالى:

«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (الحجرات ٩).

كما أن تأثره بالأحاديث النبوية واضح جلى فى كل صفحة من صفحات منظومته،

وہو راجع إلى موضوع المنظومة من جهة وإلى رغبة الشاعر في التدليل على ما يقول
بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث نبوية لتؤكد وجهة نظره في كل الموضوعات التي
طرحها في منظومته ، ومثال ذلك قوله (ص ۱۰):

کرده پیغمبر ابو ذر را خطاب خود بفرمود این کلام باصواب
در سلامت باشی تا که ساکتی هان ندارد نقص بر تو صامتی
چونکه گفתי بر لہت باشد سخن بر علیہت یا بود آرد مـحن

وهذا إشارة إلى الحديث الشريف:

«اللهم أغنني بالعمل ، وزينني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية».

ويقول «ص ۴۴):

از تفکر کشف گردد کائنات رفع گردد پرده ها از مضمرات

إشارة إلى الحديث الشريف:

«اتقوا فـراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

ويقول (ص ۴۸):

گفت پیغمبر آنکس که بمرد حالت ایمان خود جان را سپرد
آن یقین بر وحدت الله داشت هم عقیده بر رسول الله داشت
این مـوحد داخل جنت شود نزد الله صاحب نعمت شود

إشارة إلى الحديث الشريف:

«من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة».

كما تأثر أيضاً بالأحاديث القدسية ومثال ذلك قوله (ص ۱):

کرد ظاهر قد رتش شمس وقمر تاب فتد بر مؤثر چون آثر

وهذا إشارة إلى الحديث القدسي:

«كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق».

والشاعر متأثر باللغة العربية ، والمعروف أن اللغة الدرية المستعملة في أفغانستان قد حافظت على بقائها أكثر من الفارسية المستعملة في إيران ، ومن خصائص هذه اللغة كثرة استخدام المفردات العربية ، فلم تبدل محاولات لإبعاد هذه المفردات أو تنقية اللغة الدرية منها كما هو الحال بالنسبة لفارسية إيران ، ومازلنا نرى أهل أفغانستان يحافظون على هذه الألفاظ والتراكيب العربية في لغتهم . وفي هذه المنظومة تبرز هذه السمة بوضوح نظراً لموضوعها الذي يغلب عليه الطابع الديني ، فنجد عبارات بأكملها باللغة العربية ، من أمثلة ذلك : الصبر مفتاح الفرج (ص ٢٠) شعار أهل الكفر (ص ٢٠) ، رب رحيم (٢٢) ، أصل ومنبع (٢٤) حر قرشى وفريد (٢٤) ، حر ونسيب (٢٥) رحمة الله عليهم أجمعين ، رب فاجعلنا لهم من تابعين (٤٠) ، خير العباد (٥٦) ، أهل جهاد (٥٦) ، بأبى أنت وأمى يارسول (٥٧) ، يا إلهي أنت رب العالمين ، غافر الذنب كل المذنبين (٧٣) ، خنق نفس (١٠٦) حق تقرير المصير (١٣٥) ، إلى يوم الحساب (١٤٩) ، استجب يا ربنا أنت المجيب ، أنت للدعوات رب مستجيب (ص ١٩٠).

ويتأثر شاعرنا بالشعر العربي قديمه وحديثه ، وهذا ليس بغريب على من ينظمون بالفارسية فما من ديوان أو منظومة فارسية ، إلا ونرى فيها اقتباساً من معاني الشعر العربي ومضامينه ، ومن أمثلة ذلك قوله:

وه چه خوش گفته است آن مرد عرب	سلك نظمش مطرب أهل ادب
بعض روزی بر علیه ما بود	روز دیگر بر له ما میبود
بعض روزی میرسد بر ما بدی	روز دیگر میرسد بر ما خوشی

إشارة إلى قوله:

فيوم علينا ويوم لنا ويوماً نساء ويوماً نسر

ويقول:

شاعر قوم عرب خوب گفته است	در فنون شاعری در سفته است
ها مکن مارا ملامت ای ندیم	گر شد بی طاقت از حال الیم
قلب من در خلقتش یکپاره ایست	به ز آهن نه ز سنگ خاره ایست
مطلب من فوت گردید از قضا	هجر و ترکم داده محبوم مرا
سوزد احشای من از هجران و غم	پشت من خم کرده است بار آلم

وهذا المعنى مأخوذ من قول بهاء الدين العاملي في قوله:

لاتلوموني على فرط الضجر	ليس قلبي من حديد أو حجر
فات مطلوبي ومحبوبي هجر	والحشا في كل آن في اشتعال

وتأثر شاعرنا أيضاً بالأمثال العربية ومن ذلك قوله:

مرد عاقل را اشارت بس بود رمز کافی بهر آن کو کس بود (ص ۱۳)
وأيضاً قوله:

ليك باش بهر عاقل اكتفاء أشارات حرف ورمزی بی خفاء (ص ۱۳۵)
وفي هذا إشارة إلى المثل العربي القائل «العاقل تكفيه الإشارة».

بل إن بعض أبياته تصلح لأن تجرى مجرى الأمثال السائرة لما تتضمنه من حكمه
كقوله (ص ۱۱۷):

خوی بد اندر طبیعت گرنشست کی رود تا ساعت مردن زد ست

أى:

إذا جبل الإنسان على الطبع السيئ ، فكيف يتخلص منه إلى أن يحين أجله .
ويشير شاعرنا إلى العديد من الكتب الإسلامية ، وخاصة كتب الفقه والحديث
والتفسير وغير ذلك ، كما تتضمن منظومته إشارات إلى بعض العادات والتقاليد أو
طرز المعيشة السائدة فى المناطق التي عاش فيها ، ومن ذلك قوله (ص ٢٢):

آن يكي بى طاقت ودر ضيق حال از کتاب خواجه گیرد فتح فال
وآن دگر فالش به قرآن میکند زینجهت تسکین وجدان میکند

وهو فى هذين البيتين يشير إلى عادة موجودة فى بعض البلاد الإسلامية وهى
أخذ الفأل من القرآن الكريم ، كما يشير إلى عادة مماثلة لذلك يقوم بها الشعب فى
إيران وأفغانستان وهى أخذ الفأل من ديوان الشاعر الإيراني حافظ الشيرازي ، وهو
يصف هنا طائفة من المسجونين معه بعضهم يأخذ الفأل من القرآن وبعضهم يأخذه
من ديوان حافظ حتى تطمئن نفوسهم.

ومن ذلك أيضاً قوله (ص ٢٢):

گر کسی را چشم و ابرو میپرد مرده گوید یا ازان میپرد
وز زکوزه آب ریزد زاتفاق می بگوید روشنی هست بى شقاق

وفى البيتين السابقين إشارة إلى بعض العادات السائدة أيضاً وهى أن البعض
يتفائل برفرفة العين والحاجب والبعض الآخر يتشائم منها ، كما هو الحال بالنسبة
لسقوط الماء من الإناء صدفة.

ويشير فى بعض أبياته إلى نوع من أنواع الطعام المعروف فى تركستان
وبخارى ويسمونه «پلو» ويعرف فى أفغانستان باسم «قابلى» وهو طعام من الأرز ،
ويقول ص ٢٢:

آن یکی را بیت خوانی و رباب میکند گه قابلی گاهی کباب

وأسلوب الشاعر فى هذه المنظومة سهل بسيط يعبر عن المقصود بصورة تخلو من التعقيدات اللغوية والاهتمام بالمحسنات البديعية ، ويمكننا أن نقول إن هذه المنظومة خطاب مباشر إلى المناضلين فى سبيل الحرية والاستقلال وإلى الأمة الإسلامية ، دون محاولة لإبراز المهارة اللغوية أو الصنعة البديعية ، وقد استخدم الشاعر تعبيرات جميلة عبرت عما يجيش فى صدره ، وصورت آماله وأحلامه بصورة جيدة ، من ذلك قوله: كوهرى از قطرهائى اش سفت» (ص ٢٢)، أى «سلك جواهر من قطرات الدمع» وقوله: «خون اشكم بر رخس افتيد خال» (ص ٢٢) أى: «انهمر دمعى الدامى على وجهى فصار كالخال».

ومن المصطلحات التى شاع استعمالها عنده:

سر خم كردن بمعنى الخضوع.

دل از خلق اين جهان سرد گشته = دل چيرى سرد گشتن

دل از شئون دنيوى سرد كن = دل از چيزى سرد كردن

كناية عن : إنصراف القلب عن الشئ وعدم الاهتمام به.

خنزيران: كناية عن الكفار والمشركين.

واستخدم بعض المفردات الأجنبية الشائعة فى اللغة الدرية ومنها على سبيل المثال:

أتوم = الذرة ، ساينس دانان = العلماء ، جهان يورپى : أوروبا ، قارى يورپ،

ملك يورپ = القارة الأوروبية ، اعتصاب فبريك : إضراب المصنع.

ويستخدم الشاعر فى منظومته بعض الألفاظ الشائعة فى اللهجة الأفغانية ، وهذا ناتج بطبيعة الحال عن إقامته فى هذه الديار وتأثره بالبيئة المحيطة به، ومن أمثلة ذلك الكلمات:

بهره بمعنى حارس ، كب بمعنى كلام ، شيطان بمعنى جاسوس ، اغتشاش
بمعنى إنقلاب أو ثورة ، يونو بمعنى هيئة الأمم المتحدة ، سانس بمعنى سياسى ،
مكتب بمعنى مدرسة ، نفس: كلمة يخاطب بها الشخص العزيز.

وختاماً فهذه المنظومة من أطرف المنظومات الفارسية التى قرأتها ، وهى تعبر
تعبيراً صادقاً عن ناظمها ، فالقارئ يعايشه فى كل بيت من أبياته ، ويتعاطف معه فى
محنته وغربته ومأساة بلاده ، ويشعر من خلال كلماته وعباراته بصدقته فى التعبير عن
كل ذلك ، فهو يعبر عن واقع حياته وواقع عصره الذى عاش فيه ويضمن منظومته
مجموعة من الأحداث والوقائع التى ما زلنا نعيش تحت تأثيرها .

وما هو الشاعر يحذر من الأخطار التى تحيط بالأمة الإسلامية كالشيوعية
وغيرها ، وينادى بالوحدة الإسلامية فى مواجهة هذه الأخطار ، ويدعو إلى التمسك
بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وكأنه فى منظومته هذه يتنبأ بما يحدث الآن فى
أفغانستان المسلمة التى امتدت إليها يد الشيوعية الغاشمة ، ثم تركتها ممزقة متناحرة.

ورغم طول هذه المنظومة وتكرار التعبيرات والمصطلحات أحياناً وتشابه
الموضوعات والأفكار فى أحيان أخرى ، إلا أن القارئ لا يشعر بنى ملل أثناء قراءتها ،
ذلك لأن ناظمها ينقله إلى خضم الحياة المعاصرة ويصورها له بأسلوب سهل بسيط ،
فيحيط القارئ علماً بكل ما يدور فى هذه الفترة من خلالها ، وكأنه يقرأ قصة متصلة
الأحداث ، مترابطة الوقائع .

ويحس القارئ للمنظومة بأنه هو المقصود بهذا النص ، فقد وجه الشاعر كثيراً
من النصيح والإرشاد إلى الإنسان المسلم عموماً ، وإلى ابنه أحياناً . فحديثه ونصحه
يخصنا جميعاً ، وموجه إلينا كافة ، ولا يمكننا إغفاله أو تجاهله . ومن هنا يمكننا
القول بأن حديث الشاعر فى هذه المنظومة خرج من القلب إلى القلب . وحبذا لو
ترجمت هذه المنظومة إلى اللغة العربية بأكملها حتى يرى فيها الشباب المسلم قصة
كفاح عظيمة ، وملحمة نضال رائعة يفخر بها كل مسلم .

المؤلفان فى سطور:

- أ. د. بديع محمد جمعة

- أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب - جامعة عين شمس .

- رئيس قسم اللغات الشرقية الأسبق لدورتين

- عضوا بالمجالس القومية المتخصصة - لجنة الآداب .

- عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة (عدة دورات) .

- مستشار بالمركز القومى للترجمة .

من أهم مؤلفاته :

- ترجمة منطق الطير لفريد الدين العطار من الفارسية .

- بروين اعتصامى - صوت المرأة الشرقية فى إيران .

- دراسات فى الأدب المقارن .

- من روائع الأدب الفارسى .

- من قضايا الأدب الفارسى فى النصف الأول من القرن العشرين .

- فينوس وادونيس (دراسة مقارنة بين خمس لغات) .

- شاه عباس الكبير .

- قواعد اللغة الفارسية .

- من وحى الشرق : مجموعة مقالات .

- إلى جانب العديد من المقالات المنشورة بالداخل والخارج .
- الاشتراك فى العديد من المؤتمرات العلمية والندوات فى مصر وخارجها .
- المشاركة فى الدراسات الصادرة عن المجالس القومية المتخصصة .
- الإشراف على العديد من الرسائل فى معظم الجامعات المصرية .
- مراجعة العديد من إصدارات المركز القومى للترجمة .

٢- أ.د. محمد نور الدين عبد المنعم عبد القادر

حاصل على دكتوراه الآداب فى اللغة الفارسية وآدابها من كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٢م .
يعمل حالياً أستاذاً متفرغاً للغة الفارسية وآدابها بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر .

- تولى عدة مناصب إدارية وفنية هامة منها :
- رئيس قسم اللغة الفارسية بكلية اللغات والترجمة .
- وكيل كلية اللغات والترجمة .
- عميد كلية اللغات والترجمة .
- مقرر لجنة ترقية أساتذة اللغات الشرقية .
- رئيس لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- قام بالتدريس فى عدة جامعات بالداخل والخارج منها :

جامعة الأزهر - جامعة المنصورة - جامعة القاهرة - جامعة الإسكندرية -
جامعة عين شمس - جامعة بغداد بالعراق - جامعة الملك سعود بالمملكة
العربية السعودية .

- ألف وترجم ما يقرب من خمسة وثلاثين كتاباً أهمها :

دراسات فى الشعر الفارسى حتى القرن الخامس الهجرى - اللغة الفارسية :
بحوث فى النشأة والتطور - جوانب من الثقافة الإيرانية - البلاغة العربية
وأثرها فى نشأة البلاغة الفارسية وتطورها - معجم النور لمعانى ألفاظ القرآن
الكريم (عربى - فارسى) - معجم المصطلحات السياسية والعسكرية - معجم
المصطلحات الفلسفية - ترجمان البلاغة - كمال الدين بهزاد المصور الإيراني
المبدع - أوزان الشعر الفارسى .

- كتب ما يقرب من خمسة وسبعين بحثاً ومقالاً منشوراً ، منها :

الألفاظ الفارسية فى العامية المصرية - كلمات فارسية فى شعر أبى نواس -
وصف مصر فى كتاب حدود العالم - تأثيرات عربية فى كتب البلاغة الفارسية
- البازار وبوره فى المجتمع الإيراني - ترجمة فارسية منظومة لمعانى القرآن
الكريم - المخطوطات الفارسية بدار الكتب المصرية - المصاحف الإيرانية
المخطوطة فى مكتبات مصر ومتاحفها - المجمع اللغوى الإيراني - المقاهى
الإيرانية وبورها الاجتماعى والثقافى .